سلسلة نصوص تراثية للباحثين (٦٠٥)

الأنس بالله

لطائف من كتب التراث

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٤هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

"القائم الذي يقعده عن قيامه، كذلك الحبط في الشيء الصالح يفسده عن وهم صلاحه. ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بزوال ما فيها من روح **الأنس بالله** سبحانه، وتعالى، ولطيف الوصلة به، وسقوط إضافتها إليهم، إلا مقرونة ببيان حبوطها، فقد بطل ما كان لها من الإقبال من الحق والتعظيم من الخلق.

﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بإبطال ما كان يستحق عليها من الثواب بصادق الوعد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾

قال الْحَرَالِّي: لما ذكر أمر المتزلزلين ذكر أمر الثابتين - انتهى.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾

قال الْحَرَالِّي: من المهاجرة، وهو مفاعلة، من الهجرة، وهو التخلي عما شأنه الاغتباط به، لمكان ضرر منه ﴿وَجَاهَدُوا﴾ أي أوقعوا المجاهدة، مفاعلة من الجهد - فتحا وضما - وهو الإبلاغ في الطاقة والمشقة في العمل.

﴿يَرْجُونَ﴾ من الرجاء، وهو ترقب الانتفاع، بما تقدم له سبب ما. قاله الْحَرَالِّي.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قال الْحَرَالِّي: وفي الختم بالرحمة أبدا في خواتم الآي إشعارا بأن فضل الله في الدنيا والآخرة ابتداء فضل، ليس في الحقيقة جزاء العمل، فكما يرحم العبد طفلا ابتداء، يرحمه كهلا انتهاء، ويبتدئه برحمته في." (١)

"يتعلق بما ظهر، وما بطن.

٣٥ - (إني نذرت لك ما في بطني. .). قال ابن عطية، وابن العربي:

" نذرت بعد أن حملت ".

وقال الزمخشري: قَبْل أن تحمل. والأول ظاهر الآية. ابن العربي: لا خلاف أن المرء لا يصح له نذر في ولده؛ لأنه لا يملكه فكيف هذا؟.

فأجاب: بأن المرء يريد ولده للأنْس به فطلبت هذه المرأة الولد، لتأنس به فلما منّ الله عليها به نذرت أن حظها من **الأنس به** متروك، وهو على خدمة الله موقوف.

- (فتقبل مني. . .) حكى ابن دقيق العيد: الخلاف هل القبول أخص من الإجزاء، أو هما مترادفان، أو متغايران؟. وظاهر كلام الفقهاء أنهما مترادفان بدليل استدلالهم على وجوب الطهارة بقوله صلى الله عليه." (٢)

---

(١) تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي، الحرالي، أبو الحسن ص/٣٩٠

(٢) التقييد الكبير للبسيلي، البسيلي ص/٥١٦

" آل عمران ٣٠ – ٣٥

ويحذركم الله نفسه ليكون على بال منهم لا يغفلون عنه والله رءوف بالعباد ومن رأفته بهم أن حذرهم نفسه حتى لا يتعرضوا لسخطه ويجوز أن يريد أنه مع كونه محذورا لكمال قدرته مرجو لسعة رحمته كقوله تعالى إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ونزل حين قال اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله محبة العبد لله إيثار طاعته على غير ذلك ومحبة الله العبد أن يرضى عنه ويحمد فعله وعن الحسن زعم اقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم أنهم يحبون الله فأراد أن يجعل لقولهم تصديقا من عمل فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب وكتاب الله يكذبه وقيل محبة الله معرفته ودوام خشيته ودوام اشتغال القلب به وبذكره ودوام **الأنس به** وقيل هى اتباع النبي عليه السلام فى أقواله وأفعاله وأحواله إلا ما خص به وقيل علامة المحبة أن يكون دائم التفكير كثير الخلوة دائم الصمت لا يبصر إذا نظر ولا يسمع إذا نودى ولا يحزن إذا أصيب ولا يفرح إذا اصاب ولا يخشى أحدا ولا يرجوه ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم قل أطيعوا الله والرسول قيل هى علامة المحبة فان تولوا أعرضوا عن قبول الطاعة ويحتمل أن يكون مضارعا أى فان تتولوا فان الله لا يحب الكافرين أى لا يحبهم إن الله اصطفى اختار آدم أبا البشر ونوحا شيخ المرسلين وآل إبراهيم إسماعيل وإسحق وأولادهما وآل عمران موسى وهرون هما ابنا عمران بن يصهر وقيل عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة على العالمين على عالمى زمانهم ذرية بدل من آل إبراهيم وآل عمران بعضها من بعض مبتدأ وخبره فى موضع النصب صفة لذرية يعنى أن الآلين ذرية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض موسى وهرون من عمران وعمران من يصهر ويصهر من قاهث وقاهث من لاوى ولاوى من يعقوب ويعقوب من إسحق وكذلك عيسى بن مريم بنت عمران بن ماثار وهو يتصل بيهودا بن يعقوب بن إسحق وقد دخل فى آل إبراهيم رسول الله صلى الله عليه و سلم وقيل بعضها من بعض فى الدين والله سميع عليم يعلم من يصلح للاصطفاء أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيتها إذ قالت وإذ منصوب به أو باضمار اذكر امرأة عمران هى امرأة عمران بن ماثان أم مريم جدة عيسى وهى حنة بنت فاقوذا رب إنى نذرت لك أوجبت ما فى بطنى محررا هو حال من ما وهى ." (١)

"" صفحة رقم ١٦٩ "

طاشوا ، فإذا طاشوا طاروا ، فإذا طاروا وصلوا ، فإذا وصلوا اتصلوا ، فهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وقال الجنيد : يحشر الناس كلهم عراة إلا من لبس لباس التقوى ، وغراثا إلا من أكل طعام المعرفة ، وعطاشى إلا من شرب شراب المحبة .

الشعراء : (٨٠) وإذا مرضت فهو . . . . .

---

(١) تفسير النسفي، ١/١٥٠

) وإذا مرضت (أضاف إبراهيم (عليه السلام) المرض إلى نفسه وإن كان من الله سبحانه ؛ لأن قومه كانوا يعدونه عيبا فاستعمل حسن الأدب ، نظيرها قصة الخضر حيث قال) فأردت أن أعيبها (وقال) فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ( ) فهو يشفين (يبرئني

يحكى أن أبا بكر الوراق مر بطبيب يعطي الناس الأدوية فوقف عليه وقال : أيفعل دواؤك هذا أمرين ؟

قال : وما هما ؟

فقال : رد قضاء قاض وجر شفاء شاف ؟

فقال : لا

قال : فليس (ذلك بشيء) .

وقال جعفر الصادق : إذا مرضت بالذنوب شفاني بالتوبة .

سامر بن عبد الله : إذا أمرضتني مقاساة الخلق شفاني بذكره والأنس به .

الشعراء : (٨١) والذي يميتني ثم . . . . .

) والذي يميتني ثم يحيين (أدخل ههنا) ثم (للقطع والتراخي .

قال أهل اللسان والاشارة : يميتني بالعدل ويحييني بالفضل ، يميتني بالمعصية ويحييني بالطاعة ، يميتني بالفراق ويحييني بالتلاقي ، يميتني بالخذلان ويحييني بالتوفيق ، يميتني غنى ويحييني به ، يميتني بالجهل ويحييني بالعلم .

الشعراء : (٨٢) والذي أطمع أن . . . . .

) والذي أطمع (أرجو) أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين (قراءة العامة بالتوحيد .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدثنا ابن حنش قال : حدثنا أبا القاسم بن الفضل قال : حدثنا أبي قال : حدثنا أحمد بن يزيد قال : حدثنا روح عن أبي اليقظان قال : حدثنا الحكم السلمي." (١)

"واختلف المفسرون في قوله تعالى " هم درجات " من المراد بذلك فقال ابن إسحاق وغيره المراد بذلك الجمعان المذكوران أهل الرضوان وأصحاب السخط أي لكل صنف منهم تباين في نفسه في منازل الجنة وفي أطباق النار أيضا وقال مجاهد والسدي ما ظاهره إن المراد بقوله " هم " إنما هو لمتبعي الرضوان أي لهم درجات كريمة عند ربهم وفي الكلام حذف مضاف تقديره هم درجات والدرجات المنازل بعضها أعلى من بعض في المسافة أو في التكرمة أو العذاب وقرأ إبراهيم النخعي هم درجة بالإفراد وباقي الآية وعيد ووعد

سورة آل عمران ١٦٤ - ١٦٥

اللام في " لقد " لام القسم و " من " في هذه الآية معناه تطول وتفضل وقد يقال من بمعنى كدر معروفه بالذكر فهي لفظة مشتركة

وقوله تعالى " من أنفسهم " معناه في الجنس واللسان والمجاورة فكونه من الجنس يوجب الأنس به وقلة الاستيحاش منه

---

(١) الكشف والبيان ، ١٦٩/٧

وكونه بلسانهم يوجب حسن التفهيم وقرب الفهم وكونه جارا وربيا يوجب التصديق والطمأنينة إذ قد خبروه وعرفوا صدقه وأمانته فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسب قومه وكذلك الرسل قال النقاش ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل أمهاتهم إلا بني تغلب لنصرانيتهم والآيات في هذه الآية يحتمل أن يراد بها القرآن ويحتمل أن يراد بها العلامات والأول أظهر " ويزكيهم " معناه يطهرهم من دنس الكفر والمعاصي قال بعض المفسرين معناه يأخذ منهم الزكاة وهذا ضعيف و " الكتاب " القرآن " والحكمة " السنة المتعلمة من لسانه صلى الله عليه وسلم ثم ذكر حالتهم الأولى من الضلال ليظهر الفرق بتجاور الضدين وقيل لفظة مبينة لما تضمنت الإضافة فأشبهت الحروف في تضمن المعاني فبنيت

٥٣٨

". (١)

"قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا ﴾ هذا بدل من قوله : ﴿ أناب ﴾ ، والمعنى : يهدي الذين آمنوا ، ﴿ وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ في هذا الذكر قولان :

أحدهما : أنه القرآن . والثاني : ذكر الله على الإطلاق .

وفي معنى هذه الطمأنينة قولان :

أحدهما : أنها الحب له **والأنس به** . والثاني : السكون إليه من غير شك ، بخلاف الذين إذا ذكر الله اشمأزت قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿ ألا بذكر الله ﴾ قال الزجاج : «ألا» حرف تنبيه وابتداء ، والمعنى : تطمئن القلوب التي هي قلوب المؤمنين ، لأن الكافر غير مطمئن القلب .

قوله تعالى : ﴿ طوبى لهم ﴾ فيه ثمانية أقوال :

أحدها : أنه اسم شجرة في الجنة . روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله A " أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما طوبى؟ قال : شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها " ، وقال أبو هريرة : طوبى : شجرة في الجنة ، يقول الله D لها : تفتقي لعبدي عما شاء ، فتتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها ، وعن الإبل بأزمتها : وعما شاء من الكسوة . وقال شهر بن حوشب : طوبى : شجرة في الجنة ، كل شجر الجنة منها أغصانها ، من وراء سور الجنة ، وهذا مذهب عطية ، وشمر بن عطية ، ومغيث بن سمي ، وأبي صالح .

والثاني : أنه اسم الجنة بالحبشية ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال المصنف : وقرأت على شيخنا أبي منصور عن سعيد بن مسجوح قال : طوبى : اسم الجنة بالهندية ، وممن ذهب إلى أنه اسم الجنة عكرمة ، وعن مجاهد كالقولين .

والثالث : أن معنى طوبى لهم : فرح وقرة عين لهم ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والرابع : أن معناه : نعمى لهم ، قاله عكرمة في رواية ، وفي رواية أخرى عنه : نعم مالهم .

والخامس : غبطة لهم ، قاله سعيد بن جبير ، والضحاك .

---

(١) المحرر الوجيز ، ٥٦٩/١

والسادس : أن معناه : خير لهم ، قاله النخعي في رواية ، وفي أخرى عنه قال : الخير والكرامة اللذان أعطاهم الله . وروى معمر عن قتادة قال : يقول الرجل للرجل : طوبى لك ، أي : أصبت خيرا ، وهي كلمة عربية .

والسابع : حسنى لهم ، رواه سعيد عن قتادة عن الحسن .

والثامن : أن المعنى : العيش الطيب لهم . «و طوبى» عند النحويين : فعلى من الطيب ، هذا قول الزجاج . وقال ابن الأنباري : تأويلها : الحال المستطابة ، والخلة المستلذة ، وأصلها : «طيبى» فصارت الياء واوا لسكونها وانضمام ما قبلها كما صارت في «موقن» والأصل فيه «ميقن» لأنه مأخوذ من اليقين ، فغلبت الضمة فيه الياء فجعلتها واوا .

قوله تعالى : ﴿ وحسن مآب ﴾ المآب : المرجع والمنقلب .." (١)

" وإنك لمن المرسلين حيث تخبر بتلك الآيات وقصص القرون الماضية وأخبارها على ما هي عليه من غير مطالعة كتاب ولا إجتماع بأحد يخبر بذلك ووجه مناسبة هذه القصة لما قبلها ظاهرة وذلك لأنه تعالى لما أمر المؤمنين بالقتال في سبيله وكان قد قدم قبل ذلك قصة الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت إما بالطاعون أو القتال على سبيل التشجيع والتثبيت للمؤمنين والإعلام أنه لا ينجي حذر من قدر أردف ذلك بأن القتال كان مطلوبا مشروعا في الأمم السابقة فليس من الأحكام التي خصصتم بها لأن ما وقع فيه الإشتراك كانت النفس أميل لقبوله من التكليف الذي يقع به الإنفراد هذا ومن باب الإشارة في هذه الآيات ألم تر إلى ملأ القوى من بني إسرائيل البدن من بعد موسى القلب إذ قالوا لنبي عقولهم أبعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله وطريق الوصول إليه بواسطة أمره وإرشاده قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا اي إني أتوقع منكم عدم المقاتلة لإنغماسكم في أو حال الطبيعة قالوا وما لنا ألا نقاتل في طريق السير إلى الله تعالى وقد أخرجنا من ديار إستعداداتنا الأصلية التي لم نزل بالحنين إليها وأغتربنا عن أبناء كمالاتنا اللاتي لم نبرح عن مزيد البكاء عليها فلما كتب عليهم القتال لعدوهم الذي تسبب لهم الإغتراب وأحل بهم العجب العجاب تولوا وأعرضوا عن مقاتلته وأنتظموا في سلك شيعته إلا قليلا منهم وهم القوى المستعدة والله عليم بالظالمين الذين نقصوا حظوظهم وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت الروح الإنساني ملكا متوجا بتاج الأنوار الألهية جالسا على كسرى التدبيرات الصمدانية قالوا لإحتجاجهم بحجاب الإنانية وغفلتهم عن العلوم الحقانية كيف يكون له الملك علينا مع إنحطاط مرتبته بتنزله إلى عالم الكثافة من عالمه الأصلي وليس فيه مشابهة لنا ونحن أحق بالملك منه لإشتراكنا في عالمنا ومشابهة بعضنا بعضا وشبيه الشيء ميال إليه قريب أتباعه له

ولكل شيء آفة من جنسسه

ولم يؤت سعة من مال التصرف إذ لا يتصرف إلا بالواسطة قال : إن الله تعالى أختاره عليكم لبساطته وتركبكم وزاده سعة في العلم الألهي وقوة في الذات النوراني والله يؤتي ملكه من يشاء فيدبره بإذنه والله واسع لسعة الإطلاق عليم بالحكم التي تقتضي الظهور والتجلي بمظاهر الأسماء وقال لهم نبيهم إن آية ملكه عليكم وخلافته من قبل الرب فيكم أن يأتيكم تابوت الصدر فيه سكينة أي طمأنينة من ربكم وهي الطمأنينة بالإيمان **والأنس بالله** تعالى وبقية مما ترك آل موسى

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، ٣/٤

القلب وآل هرون السر وهي من التوحيد وعصا لا إله إلا الله التي تلقف عظيم سحر صفات النفس وطست تجلي الأنوار الذي يغسل به قلوب الأنبياء وشيء من توراة الإلهامات تحمله ملائكة الإستعدادات لدى طالوت الروح فعند ذلك تسلم له الخلافة وينقاد له جميع أسباط صفات الإنسان فلما فصل طالوت وجنوده من وزير العقل ومشير القلب ومدبر الإفهام ونظام الحواس قال إن الله مبتليكم بنهر الطبيعة الجسمانية المترع بمياه الشهوات فمن شرب منه وكرع مفرطا في الري فليس من أشياعي الذين هم من عالم الروحانيات وأهل مكاشفات الصفات ومن لم يطعمه ويذقه فإنه من سكان حظائر القدس وحضار جلوة عرائس منصة الإنس إلا من أغترف غرفة بيده وقنع من ذلك بقدر الضرورة ولإحتياج من غير حرص وإنهماك فشربوا منه وكرعوا وأنهمكوا فيه إلا قليلا منهم وهم المتنزهون عن الأقذار الطبيعية المتقدسون عن ملابسها المتجردون عن غواشيها وقليل ما هم فلما جاوز طالوت الروح نهر الطبيعة وعبره هو والذين آمنوا من القلب والعقل والملك وغيرهم من أتباع الروح معه قال بعضهم وهم الضعفاء الذين ." (١)

" وإذا هم كتموا يحدث عنهم ... عند الوشاة المدمع السحاح ...

وما ذكر أولا يكون مستمسكا في الذب عن الشيخ الأكبر قدس سره وأضرابه فانهم لم يبالوا في كشف الحقائق التي يدعونها بكونه سببا لضلال كثير من الناس وداعيا للانكار عليهم وقد استدل بعض بالآية في الرد عليهم بناء على أن المعنى الحق ما يكون من جهته تعالى وما جاؤا به ليس من جهته سبحانه لأنه لا تشهد له آية ولا يصدقه حديث ولا يؤيده أثر وأجيب بأن ذلك ليس إلا من الآيات والأحاديث إلا أنه لا يستنبط منها إلا بقوة قدسية وأنوار إلهية فلا يلزم من عدم فهم المنكرين لها من ذلك لحرمانهم تلك القوة واحتجاجهم عن هاتيك الأنوار عدم حقيتها فكم من حق لم تصل إليه أفهامهم واعترض بأنه لو كان الأمر كذلك لظهر مثل تلك الحقائق في الصدر الأول فإن أرباب القوى القدسية والأنوار الالهية فيه كثيرون والحرص على إظهار الحق أكثر وأجيب بأنه يحتمل أن يكون هناك مانع أو عدم مقتض لاظهار ما أظهر من الحقائق وفيه نوع دغدغة ولعله سيأتيك إن شاء الله تعالى ما عسى أن ينفعك هنا وبالجملة أمر الشيخ الأكبر وأضرابه قدس الله تعالى أسرارهم فيما قالوا ودونوا عندي مشكل لا سيما أمر الشيخ فإنه أتى بالداهية الدهياء مع جلالة قدره التي لا تنكر ولذا ترى كثيرا من الناس ينكرون عليه ويكرون وما ألطف ما قاله فرق جنين العصابة الفاروقية والراقي في مراقي التنزلات الموصلية في قصيدته التي عقد اكسيرها في مدح الكبريت الأحمر فغدا شمسا في آفاق مدائح الشيخ الأكبر وهو قوله ... ينكر المرء منه أمرا فينها ... ه نهاه فينكر الانكارا ... تنثني عنه ثم تثنى عليه ... ألسن تشبه الصحاة سكارى ...

يحلون فيها من أساور من ذهب قيل هي إشارة إلى أنهم يحلون حقائق التوحيد الذاتي ومعاني التجليات العينية الاحدية ويلبسون ثيابا خضرا إشارة إلى أنهم متصفون بصفات بهيجة حسنة نضرة موجبة للسرور من سندس الاحوال والمواهب وعبر عنها بالسندس لكونها ألطف واستبرق الاخلاق والمكاسب وعبر عنها بالاستبرق لكونها أكثف متكئين فيها على الأرائك قيل أي أرائك الاسماء الالهية واضرب لهم مثلا رجلين الخ فيه من تسلية الفقراء المتوكلين على الله تعالى وتنبيه

(١) روح المعاني، ١٧٥/٢

الاغنياء المغرورين ما فيه وقال النيسابوري الرجلان هما النفس الكافرة والقلب المؤمن جعلنا لأحدهما وهو النفس جنتين هما الهوى والدنيا من أعناب الشهوات وحففناها بنخل حب الرياسة وجعلنا بينهما زرعا من التمتعات البهيمية فجرنا خلالهما نهرا من القوى البشرية والحواس وكان له ثمر من أنواع الشهوات وهو يحاوره أي يجاذب النفس أنا أكثر منك مالا أي ميلا وأعز نفرا من الأوصاف المذمومة وهو ظالم نفسه في الاستمتاع بجنة الدنيا على وفق الهدى لأجدن خيرا منها قال ذلك غرورا بالله تعالى وكرمه فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها من العمر وحسن الاستعداد انتهى

وقد التزم هذا النمط في أكثر الآيات ولا بدع فهو شأن كثير من المؤولين هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا قال ابن عطاء للطالبين له سبحانه لا للجنة وخير عقبا للمريدين والباقيات الصالحات قيل هي المحبة الدائمة والمعرفة الكاملة **والأنس بالله** تعالى والاخلاص في توحيده سبحانه والانفراد به جل وعلا عن غيره فهي باقية للمتصف بها وصالحة لا اعوجاج فيها وهي خير المنازل وقد تفسر بما يعمها وغيرها ." (١)

" متسعة كانت أو ضيقة لم يفوض التحديد إلى رأي الفاعل وهو دليل حسن وأما القائل بالفرضية فقد نظر إلى اللفظ دون الدليل الخارجي ولكل وجه وأما قوله ولقوله تعالى ومن الليل الخ فالإستدلال بأنه فسر نافلة لك أن معناه زائدة على الفرائض لك خاصة دون غيرك لأنها تطوع لهم وهذا القائل لا يمنع الوجوب في حقه عليه الصلاة و السلام وإنما يمنعه في حق غيره صلى الله تعالى عليه وسلم والآية تدل عليه فلا نظر فيه ثم أنه لما ذكر سبحانه في تلك السورة ومن الليل أي خص بعض الليل دون توقيت وههنا وقت جل وعلا على مشاركة الأمة له عليه الصلاة و السلام قوله تعالى وطائفة من الذين معك نزل ما ثم على الوجوب عليه صلى الله تعالى عليه وسلم خاصة وههنا على التنفل في حقه وحق الأمة وهذا قول سديد إلا أن قوله تعالى على أن لن تحصوه فتاب عليكم يؤيد الأول انتهى وعني بالأول القول بالفرضية عليه عليه والسلام وعلى الأمة وظواهر الآثار الكثيرة تشهد له لكن في البحر أن قوله تعالى وطائفة من الذين معك دليل على أنه لم يكن فرضا على الجميع إذ لو كان فرضا عليهم لكان التركيب والذين معك إلا أن أعتقد أنه كان منهم من يقوم في بيته ومنهم من يقوم معه فيمكن إذ ذاك الفرضية في حق الجميع انتهى وأنت تعلم أنه لا يتعين كون من تبعيضية بل تحتمل أن تكون بيانية ومن يقول بالفرضية على الكل صدر الإسلام بحملها على ذلك دون البعضية باعتبار المعية فإنها ليست بذاك والله تعالى أعلم وأفادت الآية على القول الأخير في قوله سبحانه فاقرؤا الخ ندب قراءة شيء من القرآن ليلا وفي بعض الآثار من قرأ مائة آية في ليلة لحاجة القرآن وفي بعضها من قرأ آية كتب من القانتين وفي بعض خمسين آية والمعول عليه من القولين فيه القول الأول وقد سمعت أن الأمر عليه للإيجاب وأنه كان يجب قيام شيء من الليل ثم نسخ وجوبه عن الأمة بوجوب الصلوات الخمس فهو اليوم في حق الأمة سنة وفي البحر بعد تفسير فاقرؤا يصلوا وحكاية ما قيل من النسخ وهذا الأمر عند الجمهور أمر إباحة وقال الحسن وابن سيرين قيام الليل فرض ولو قدر حلب شاة وقال ابن جبير وجماعة هو فرض لا بد منه ولو بمقدار خمسين آية انتهى سياقه أن هؤلاء قائلون بوجوبه اليوم وأنه لم ينسخ الوجوب مطلقا وإنما نسخ وجوب معين وهذا خلاف المعروف فعن ابن عباس سقط قيام الليل عن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

---

(١) روح المعاني، ١٥/٣٠٩

وصار تطوعا وبقي ذلك فرضا على رسول الله عليه الصلاة و السلام وأظن الأمر غنيا من الإستدلال فلنطو بساط القيل والقال نعم كان السلف الصالح يثابرون على القيام مثابرتهم على فرائض الإسلام لما في ذلك من الخلوة بالحبيب **والأنس به** وهو القريب من غير رقيب نسأل الله تعالى أن يوفقنا كما وفقهم ويمن علينا كما من عليهم بقي هنا بحث وهو أن الإمام أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه استدل بقوله تعالى فاقرؤوا ما تيسر من القرآن على أن الفرض في الصلاة مطلق القراءة لا الفاتحة بخصوصها وهو ظاهر على القول بأنه عبر فيه عن الصلاة بركنها وهو القراءة كما عبر عنها بالسجود والقيام والركوع في مواضع وقدر ما تيسر بآية على ما حكاه عنه الماوردي وبثلث على ما حكاه عنه ابن العربي والمسألة مقررة في الفروع وخص الشافعي ومالك ما تيسر بالفاتحة واحتجوا على وجوب قراءتها في الصلاة بحجج كثيرة منها ما نقل أبو حامد الإسرافيني عن ابن المنذر بإسناده عن أبي هريرة عنه عليه الصلاة و السلام لا تجزي صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب ومنها ما روي عن أبي هريرة عنه صلى الله تعالى عليه وسلم كل صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج فهي خداج أي نقصان للمبالغة أو ذو نقصان واعترض بأن النقصان لا يدل على عدم الجواز وأجيب بأنه يدل لأن التكليف بالصلاة قائم والأصل في الثابت البقاء خالفناه عند الإتيان بها على صفة الكمال فعند النقصان وجب أن يبقى على الأصل ولا يخرج عن العهدة ." (١)

"وتمام ذلك أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدا ، وأنه يقال لهم : (إن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا) ، فلهم كل ما يشاءون فيها وتتعلق به أمانيهم ، ولهم فوق ذلك مما لم تبلغه أمانيهم ، ولهم نعيم أعلى من ذلك كله ، وهو التمتع بالنظر إلى وجهه الكريم ، وسماع خطابه ، والابتهاج برضاه وقربه ، والسرور بمحبته ، وذكره وحمده ، والثناء عليه وشكره ، مما يشاهدون من كثرة الخيرات ، وسوابغ النعم والهبات ، وزيادة النعيم وتواصله ، ومما يزدادون من معرفته **والأنس به** ، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام .." (٢)

"﴿فأنزل الله سكينته﴾ أي : أمنه الذي تسكن إليه القلوب ، ﴿عليه﴾ أي : على رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو على صاحبه ، ﴿وأيده بجنود لم تروها﴾ ، يعني الملائكة ، أنزلهم ليحرسوه في الغار ، أو يوم بدر وأحد وغيرهما ، فتكون على هذا : الجملة معطوفة على : ﴿فقد نصره الله﴾. ﴿وجعل كلمة الذين كفروا﴾ وهي الشرك ، أو دعوى الكفر ، ﴿السفلى وكلمة الله﴾ التي هي التوحيد ، أو دعوة الإسلام ، ﴿هي العليا﴾ ؛ حيث خلص رسوله صلى الله عليه وسلم من بين الكفار ، ونقله إلى المدينة ، ولم يزل ينصره حتى ظهر التوحيد وبطل الكفر ، ﴿والله عزيز﴾ ؛ غالب على أمره ، ﴿حكيم﴾ في أمره وتدبيره.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٧٧

الإشارة : ما قيل في حق الرسول صلى الله عليه وسلم يقال في حق ورثته ، الداعين إلى الله بعده ؛ من العارفين بالله ، فيقال

---

(١) روح المعاني، ٢٩/١١٢

(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، ١/٧١

لمن تخلف عن صحبة ولي عصره وشيخ تربية زمانه : إلا تنصروه فقد نصره الله وأعزه ، وأغناه عن غيره ، فمن صحبه فإنما ينفع نفسه ، فقد نصره الله حين أنكره أهله وأبناء جنسه ، كما هي سنة الله في أوليائه ، لأن الداخل على الله منكور ، والراجع إلى الناس مبرور ، فمن دخل مع الخصوص قطعا أنكرته العموم ، فنخرجه ثاني اثنين هو وقبله ، فيأوي إلى كهف **الأنس بالله** ، والوحشة مما سواه ، فيقول لقلبه : لا تحزن إن الله معنا ، فينزل الله عليه سكينة الطمأنينة والتأييد ، وينصره باجناد أنوار التوحيد والتفريد ، فيجعل كلمة أهل الإنكار السفلى ، وكلمة الداعين إلى الله هي العليا ، والله عزيز حكيم.
جزء : ٣ رقم الصفحة : ٧٧
قلت : (يهلكون) : حال من فاعل (يحلفون) ، أو بدل منه. قال في القاموس : (الشقة) . بالضم والكسر : البعد والناحية يقصدها المسافر ، والسفر ، البعيد والمشقة. هـ.
". (١)

"قلت : الموصول : بدل ممن أناب ، أو خبر عن مضمر ، أي : هم. والموصول الثاني بدل ثان ، أو مبتدأ ، وجملة (طوبى) : خبر ، وهي فعلى ، من الطيب ، كبشرى من البشارة ، قلبت ياؤها واوا ؛ لضم ما قبلها ، ومعناها : أصبت خيرا وطيبا. وقيل : شجرة في الجنة. وسوغ الابتداء بها : ما فيها من معنى الدعاء.
يقول الحق جل جلاله : في وصف من سبقت له الهداية واتصفت بالإنابة : هم ﴿الذين آمنوا﴾ بالله وبرسوله إيمانا تمكن من قلوبهم ، واطمأنت إليه نفوسهم ؛ فإذا حركتهم الخواطر والهواجم ، أو فتن الزمان وأهواله ﴿تطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ ، وترتاح بذكر الله ؛ أنسا به ، واعتمادا عليه ورجاء منه ، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته ، أو بذكر آلائه ، ودلائله الدالة على وجوده ووحدانيته ، أو بكلامه القرآن ، الذي هو أقوى المعجزات. قاله البيضاوي. وقال في القوت : معنى تطمئن بذكر الله : تهش وتستأنس به. قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي بعد كلام : والحاصل أن المراد من الطمأنينة : السكون إلى المذكور ، **والأنس به**. ووجود الروح والفرح والانشراح ، والغنى به. هـ.
قال تعالى : ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ لا بغيره ، فلا تسكن إلا إليه ، ولا تعتمد إلا عليه ؛ فإن سكنت إلى غيره ذهب نورها ، وعظم قلقها. ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم﴾ أي : لهم عيش طيب وحياة طيبة. أو الجنة ، أو شجرة فيها ، ﴿وحسن مآب﴾ أي : مرجع يرجعون إليه بعد الموت.
الإشارة : الطمأنينة على قسمين : طمأنينة إيمان وطمأنينة شهود وعيان. قوم اطمأنوا إلى غائب موجود ، وقوم إلى آخر مشهود. قوم اطمأنوا بوجود الله من طريق الإيمان على
٣٣٧
نعت الدليل والبرهان ، وقوم اطمأنوا بشهود الله من طريق العيان على نعت الذوق والوجدان. وهذه ثمرة الإكثار من ذكر

(١) البحر المديد . ، ١٠٧/٣

الله.

(١) ".

"وأهل طمأنينة الإيمان على قسمين ؛ باعتبار القرب والبعد : فمنهم من يطمئن بوجود الحق على نعت القرب والأنس ، وهم أهل المراقبة من الزهاد والصالحين ، والعلماء العابدين المجتهدين ، وهم متفاوتون في القرب على قدر تفرغهم من الشواغل والعلائق ، وعلى قدر التخلية والتحلية. ومنهم من يطمئن إليه على نعت البعد من قلبه ، وهم أهل الشواغل والشواغب ، و العلائق والعوائق. وعلامة القرب : وجود حلاوة المعاملة ، كلذيذ المناجاة ، **والأنس به** في الخلوات ، ووجود حلاوة القرآن والتدبر في معانيه ، حتى لا يشبع منه من كل أوان. وعلامة البعد : فقد الحلاوة المذكورة ، وعدم **الأنس به** في الخلوة ، وفقد الحلاوة القرآن ، ولو كان من أعظم علماء اللسان.

٣٣٨

وأهل طمأنينة الشهود على قسمين أيضا : فمنهم من تشرق عليه أنوار ، وتحيط به الأسرار ، فيغرق في الأنوار وتطمس عنه الآثار ، فيكسر ويغيب عن الأثر في شهود المؤثر ، ويسمى عندهم هذا المقام : مقام الفناء. ومنهم من يصحو من سكرته ، ويفيق من صعقته ، فيشهد المؤثر ، لا يحجبه جمعه عن فرقه ، ولا فرقة عن جمعه ، ولا يضره فناؤه عن بقائه ، ولا بقاؤه ، عن فنائه ، يعطي كل ذي حق حقه ، ويوفي كل ذي قسط قسطه ، وهو مقام البقاء ، ولا يصح وجوده إلا بعد وجود ما قبله ، فلا بقاء إلا بعد الفناء ، ولا صحو إلا بعد السكر. ومن ترامى على هذا المقام . أعني مقام البقاء . من غير تحقيق مقام السكر والفناء فهو لم يبرح عن مقام أهل الحجاب.

(٢) ".

"جزء : ٤ رقم الصفحة : ٤٢١

الإشارة : عمى القلوب هو انطماس البصيرة ، وعلامة انطماسها أمور : إرسال الجوارح في معاصي الله ، والانهماك في الغفلة عن الله ، والوقيعة في أولياء الله ، والاجتهاد في طلب الدنيا مع التقصير فيما طلبه منه الله. وفي الحكم : " اجتهادك فيما ضمن لك ، وتقصيرك فيما طلب منك ، دليل على انطماس البصيرة منك ". وعلامة فتحها أمور : المسارعة إلى طاعة الله ، واستعمال المجهود في معرفة الله ، بصحبة أولياء الله ، والإعراض عن الدنيا وأهلها ، **والأنس بالله** ، والغيبة عن كل ما سواه. واعلم أن البصر

٤٢٢

والبصيرة متقابلان في أصل نشأتهما ، فالبصر لا يبصر إلا الأشياء الحسية الحادثة ، والبصيرة لا تبصر إلا المعاني القديمة

---

(١) البحر المديد . ، ٣/٤٦٤

(٢) البحر المديد . ، ٣/٤٦٦

الأزلية ، فإذا انطمست البصيرة كان العبد مفروقا عن الله ، لا يرى إلا الأكوان الظلمانية الحادثة. وفي ذلك يقول المجذوب رضي الله عنه.

من نظر الكون بالكون غره في عمى البصيرة

ومن نظر الكون بالمكون صادق علاج السريرة

". (١)

"﴿وإن لكم في الأنعام﴾ ، جمع نعم ، وهي الإبل والبقر والغنم ، ﴿لعبرة﴾ تعتبرون بها ، وتستدلون بأحوالها على عظم قدرة الله تعالى ، وسابغ نعمته ، وتشكرونه عليه ، ﴿نسقيكم مما في بطونها﴾ من الألبان سائغة للشاربين ، أو مما استقر في بطونها من العلف ؛ فإن اللبن يتكون منه ، ﴿ولكم فيها منافع كثيرة﴾ ، سوى الألبان ، وهي منافع الأصواف والأوبار والأشعار. ﴿ومنها تأكلون﴾ أي : من لحومها ، ﴿وعليها﴾ أي : على الأنعام في البر ، ﴿وعلى الفلك﴾ في البحر ﴿تحملون﴾ في أسفاركم ومتاجركم ، والمراد بالأنعام في الحمل الإبل ؛ لأنها هي المحمول عليها في البر ، فهي سفائن العرب ، كما قال ذو الرمة :

سفنة بر تحت خدي زمامها

يريد ناقته. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ولقد خلقنا فوق قلوبكم سبعة حجب ، فمن خرقها أفضى إلى فضاء شهود ذاتنا وأنوار صفاتنا ، وهي حجاب المعاصي والذنوب ، وحجاب النقائص والعيوب ، وحجاب الغفلات ، وحجاب العوائد والشهوات ، وحجاب الوقوف مع حلاوة المعاملات ، وحجاب الوقوف مع الكرامات والمقامات ، وحجاب حس الكائنات ، فمن خرق هذه الحجب بالتوبة والتزكية واليقظة والعفة والرياضة ، **والأنس بالله** والغيبة عما سواه ، ارتفعت عنه الحجب ، ووصل إلى المحبوب. قال الورتجبي : أوضح سبع طرائق لنا إلى أنوار صفاته السبعة. هـ. وقال القشيري : الحق - سبحانه - لا يستتر من رؤيته مدرك ، ولا تخفى عليه من مخلوقاته خافية ، وإنما الحجب على أبصار الخلق وبصائرهم ، والعادة جارية أنه لا يخلق لنا الإدراك لما وراء الحجب ، ولذلك أدخلت الغفلة القلوب ، واستولى عليها الذهول ، سدت بصائرها ، وغيبت فهومها ، ففوقها حجب ظاهرة وباطنة ، ففي الظاهر : السموات حجب تحول بيننا وبين المنازل العالية ، وعلى القلوب أغشية وأغطية ، كالشهوة والأمنية ، والإرادات الشاغلة والغفلة المتراكمة.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٨

". (٢)

"وبعد هذا : الموافقة ؛ وهو ألا يجد الراحة في المنع ولا في العطاء ، وإنما يجد حلاوة نسيم القرب ، وزوائد الأنس بنسيان كل أرب. فكما أن حلاوة الطاعات تتصاغر عند برد الرضا - ويعدون ذلك حجابا - كذلك أهل **الأنس بالله**

---

(١) البحر المديد. ، ٤/٦٣١

(٢) البحر المديد. ، ٥/١٤

يعدون الوقوف مع حلاوة الرضا والاشتغال بلطائفه نقصانا وحجابا. ثم بعد هذا استيلاء سلطان الحقيقة ، بما يأخذ العبد عن جملته بالكلية ، فيعبر عن هذه الحالة بالخمود ، والاستهلاك ، والوجود ، والاصطلام ، والفناء – وهذا هو عين التوحيد الخاص – فعند ذلك لا أنس ، ولا هيبة ، ولا

١٤٢

لذة ، ولا راحة ، ولا وحشة ، ولا آفة. يعني : غيب المقامات بلذاتها وراحتها ، عند تحقق الفناء ، ثم قال : هذا بيان ترتيبهم ، فأما ما دون ذلك ؛ فالإخبار عن أحوال المتوكلين ، على تباين شرفهم ، يختلف على حسب اختلاف حالهم. انتهى بالمعنى.

وقال أيضا : ويقال : التوكل في الأسباب الدنيوية ينتهي إلى حد ، وأما التوكل على الله في إصلاح آخرته : فهو أشد غموضا وأكثر خفاء ، فالواجب ، في الأسباب الدنيوية ، أن يكون السكون عند طلبها غالبا ، والحركة تكون ضرورة ، وأما في أمر الآخرة وما يتعلق بالطاعة ، فالواجب البدار والجد والانكماش ، والخروج عن أوطان الكسل ، وترك الجنوح إلى الفشل. والذي يوصف بالتواني في العبادات والتباطؤ في تلافي ما ضيعه من إرضاء الخصوم ، والقيام بحق الواجبات ، ثم يعتقد في نفسه أنه متوكل على الله ، فهو متمن معلول الحال ، ممكور مستدرج ، بل يجب أن يبذل جهده ، ويستفرغ وسعه ، ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته ، ولا يستند إلى سكونه وحركته ، ويتبرأ من حوله وقوته ، ثم يحسن الظن بربه. ومع حسن ظنه بربه لا ينبغي أن يخلو من مخافته ، اللهم إلا أن يغلب على قلبه ما يشغله في الحال ؛ من كشوفات الحقائق عن الفكرة في العواقب ؛ فإن ذلك – إذا حصل – فالوقت غالب ، وهو أحد ما قيل في قولهم : الوقت سيف. هـ. (١) ".

"الإشارة : عرش النفس الذي تستقر عليه هو الدنيا ، فمن أحب الدنيا وركن إلى أهلها ، فقد أجلس نفسه على عرشها ، وصيرها مالكه له ، متصرفة فيه بما تحب ، ومن أبغض الدنيا وزهد في أهلها ، فقد هدم لها عرشها ، وصارت خادمة مملوكة له ، يتصرف فيها كيف يشاء. فيقول الداعي إلى الله – وهو من أهله الله للتربية – للمريدين : أيكم يأتيني بعرشها ، ويخرج عنها لله في أول بدايته ؟ فمنهم من يأتي بها بعد مدة ، ومنهم من يأتي بها أسرع من طرفة ، على قدر القوة والعزم والصدق في الطلب ، ومن أتى بعرش نفسه ، وخرج عنها لله ، فهو الذي آتاه الله علما من الكتاب ، وعرف مدلوله ومقصوده ، لكن من السياسة أن يتدرج المريد في تركها شيئا فشيئا ، حتى يخرج عنها ، أو يغيب عن شغلها بالكلية ، وإن كانت بيده. فاما خرجوا عن عرش نفوسهم لله ، وتوجهوا إليه ، ورأى ذلك منهم ، قال : هذا من فضل ربي ، حيث وقعت الهداية على يدي ، ليبلوني ، أأشكر أم أكفر.. الآية. قال نكروا لها عرشها ، أي : اعرضوا عليها الدنيا ، وأروها عرشها التي كانت عليه ، متغيرا عن حاله الأولى – لأنه كان معشوقا لها ، والآن صار ممقوتا ، لغناها بالله – ننظر أتهتدي إليه ، وترجع إلى محبته ، فيكون علامة على عدم وصولها ، أم تكون من الذين لا يهتدون إليه أبدا ، فتكون قد تمكنت من **الأنس بالله** ، فلما جاءت وأظهر لها عرشها اختبارا ، قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو ، وأوتينا العلم بالله من قبل

(١) البحر المديد. ، ٥/٢٢٠

هذه الساعة ، وكنا منقادين لمراده ، فلن نرجع إلى ما خرجنا عنه لله أبدا. وصدها عن الحضرة ما كانت تبعد من الهوى ، من دون محبة الله ، إنها كانت من قوم كافرين ، منكرين للحضرة ، غير عارفين بها. قيل لها حين رحلت عن عرشها : ادخلي دار الحضرة ، فلما رأت بحر الوحدة ، يتموج بتيار الصفات ، دهشت ، وحسبته لجة ، يغرق صاحبه في بحر الزندقة ، قال لها رئيس البحرية – وهو شيخ التربية : إنه بحر منزه متصل ، لا أول له ، ولا آخر له. ليس مثله شيء ، ولا معه شيء ، ." (١)

"الإشارة : العارف الكامل لا يركن إلى شيء دون الله تعالى ، فلا يطمئن إلى وعد ، ولا يخاف من وعيد ، بل هو عبد بين يدي سيده ، ينظر ما يبرز من زمن عنصر قدرته ، فإن بشر بشيء في النوم أو اليقظة ، لا يركن إليه ، ولا يقف معه ؛ لأن غيب المشيئة غامض ، وإن خوف بشيء في النوم أو غيره ، لا يفزع ولا يجزع ؛ لأن الغنى بالله **والأنس به** غيبه

١٥٠

عن كل شيء ، وفي الله خلف من كل تلف " ماذا فقد من وجدك ؟ " والله يتولى الصالحين ، ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا...﴾ [الطلاق : ٢] الآية.

قال في الإبريز : الرؤيا المحزنة إنما هي اختبار من الله للعبد ، هل يبقى مع ربه أو ينقطع عنه ، فإن كان العبد متعلقا به تعالى ، ورأى الرؤيا المحزنة ، لم يلتفت إليها ، ولما يبال بها ؛ لعلمه بأنه منسوب إلى من بيده تصاريف الأمور ، وأن ما اختاره تعالى سبقت به المشيئة ، فلا يهوله أمر الرؤيا ، ولا يلقي إليها بالا ، وهذه لا تضره بإذن الله تعالى : وإذا كان العبد غير متعلق بربه ، ورأى رؤيا محزنة ، جعلها نصب عينيه ، وعمر بها باطنه ، وانقطع بها عن ربه ، ويقدر أنها لا محالة نازلة به ، فهذا هو الذي تضره ؛ لأن من خاف من شيء سلطه عليه. هـ.

وسئل سهل التستري رضي الله عنه عن الاستثناء في هذه الآية ، فقال : تأكيدا في الافتقار إليه ، وتأديبا لعباده في كل حال ووقت. هـ. أي : أدبهم لئلا يقفوا مع شيء دونه.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ١٤٩

." (٢)

"أولى لك فأولى﴾ أي : ويل لك ، وأصله : أولاك الله ما تكره ، واللام مزيدة ، كما في قوله : ﴿ردف لكم﴾ [النمل : ٧٢] أو : أولى الهلاك لك فأولى ، وقيل : هو مقلوب من الويل ، وقيل : أولى بالعذاب وأحق به ، وقيل : من الولي ، وهو القرب ، أي : قاربه ما يهلكه. ﴿ثم أولى لك فأولى﴾ ، كرر للتأكيد ، كأنه قيل : ويل لك فويل لك ثم ويل لك فويل لك ، وقيل : التكرير فيه ، لأنه أراد بالأول : الهلاك الدنيوي وفي القبر والبرزخ ، ثم في القيامة ، ثم في النار. ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ ؛ أيظن الكافر أن يترك مهملا ، لا يؤمر ولا ينهى ولا يبعث ولا يجازى ، ﴿ألم يك نطفة من مني تمنى﴾ ؟ أي : تراق في الأرحام ، ﴿ثم كان علقة﴾ أي : صار المني قطعة دم جامد ، بعد أربعين يوما ﴿فخلق

---

(١) البحر المديد ، ٣٣٩/٥

(٢) البحر المديد ، ٢١٦/٧

فسوى﴾ أي : فخلق الله منها بشرا سويا ؟ ﴿فجعل منه﴾ ؛ من الإنسان ، أو : من المني ﴿الزوجين﴾ ؛ الصنفين ﴿الذكر والأنثى﴾ لحكمه بقاء النسل ، ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ وهو أهون من البدء في قياس العقول ؟ كان عليه السلام إذا قرأها يقول : " سبحانك! بلى ".

١٩١

الإشارة : قال في الإحياء : اعلم أن رأس الخطايا والمهلكة هو حب الدنيا ، ورأس أسباب النجاة هو : التجافي بالقلب عن دار الغرور. ثم قال : واعلم أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته **والأنس به** في الدنيا ، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة ، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ، ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر ، ولا تتيسر المواظبة على الذكر إلا بإقلاع حب الدنيا من القلب ، ولا يقع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ، ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات ، ولا تنقمع الشهوات بشيء كما تنقمع بنار الخوف المحرقة للشهوات. هـ. على نقل صاحب الجواهر. (١) ".

"وفي الآية إشارة إلى أن النفوس المتخلفة عن الطاعات والعبادات من الفرائض والنوافل لو دعيت إلى الجهاد في سبيل الله أو الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس والشيطان والدنيا تقاتلوهم بنهى النفس عن الهوى وترك الدنيا وزينتها فإن أجابوا وأطاعوا فقد استوجبوا الأجر الحسن وإن أعرضوا عن الطاعات والعبادات يعذبهم الله بعذاب أليم يتألمون به في الدنيا والآخرة ﴿ليس على الاعمى﴾ لما وعد على التخلف نفي الحرج عن الضعفاء والمعذورين فقال : ليس على الأعمى وهو فاقد البصر ﴿حرج﴾ إثم في التخلف عن الغزو لأنه كالطائر المقصوص الجناح لا يمتنع عن من قصده والتكليف يدور على الاستطاعة وأصل الحرج والحراج مجتمع الشيء كالشجر وتصور منه ضيق ما بينهما فقيل للضيق حرج وللاثم حرج ﴿ولا على الاعرج حرج﴾ لما به من العلة اللازمة إحدى الرجلين أو كليتهما وقد سقط عمن ليس له رجلان غسلهما في الوضوء فكيف بالجهاد والأعرج بالفارسية لنك.

من العروج لأن الأعرج ذاهب في صعود بعد هبوط وعرج كفرح إذا صار ذلك خلقة له وقيل للضبع عرجاء لكونها في خلقتها ذات عرج وعرج كدخل ارتقى وأصابه شيء في رجليه فمشى مشي العارج أي الذاهب في صعود وليس ذلك بخلقة أو يثلث في غير الخلقة كما في القاموس ﴿ولا على المريض حرج﴾ لأنه لا قوة به وفي نفي الحرج عن كل من الطوائف المعدودة مزيد اعتناى بأمرهم وتوسيع لدائرة الرخصة ﴿ومن﴾ وهركه ﴿يطع الله ورسوله﴾ أي فيما ذكر من الأوامر والنواهي في السر والعلانية ﴿يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار﴾ قال بعض الكبار : إنما سميت الجنة جنة لأنها ستر بينك وبين الحق تعالى وحجاب فإنها محل شهوات الأنفس وإذا أراد أن يريك ذاتك حجبك عن شهوتك ورفع عن عينيك سترها فغبت عن جنتك وأنت فيها ورأيت ربك والحجاب عليك منك فأنت الغمامة على شمسك فاعرف حقيقة نفسك ﴿ومن يتول﴾ عن الطاعة وبالفارسية : وهركه اعراض كند از فرمان خدا ورسول ﴿يعذبه عذابا أليما﴾ لا يقادر قدره وبالفارسية عذابي دردناك كه دردان منقطع نكر ددوالم آن منقضى نشود وآن عذاب حرمانست هـ بمخالفت امر خدا از دولت

---

(١) البحر المديد ، ٨/٢٩١

لقامهجور وبنافرمانى رسول از سعادت شفاعت محروم خواهدماند.

جزء : ۹ رقم الصفحة : ۲

مسوز آتش محروميم كه هي عذاب.

زروى سوزو الم ون عذاب حرمان نيست.

وفي الآية إشارة إلى أصحاب الأعذار من أرباب الطلب فمن عرض له مانع يعجزه عن السير بلا عزيمة منه وهمته في الطلب ورغبته في السير وتوجهه إلى الحق باق فلا حرج عليه فيما يعتريه فيكون أجره على الله وذلك قوله تعالى : ومن يطع الله ورسوله يعني بقدر الاستطاعة يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يغني يعرض عن الله وينقض عهد الطلب

۳۲

بعذبه عذابا أليما كما قال أوحد المشايخ في وقته أبو عبد الله الشيرازي قدس سره : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول : من عرفه طريقا إلى الله فسلكه ثم رجع عنه عذبه الله بعذاب لم يعذب به أحدا من العالمين وقد قالوا مرتد الطريقة أعظم ذنبا من مرتد الشريعة وقال الجنيد : لو أقبل صديق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة فإن ما فاته أكثر مما ناله وقال بعضهم في الآية إشارة إلى الأعمى الحقيقي وهو من لا يرى غير الله لا الآخرة التي أشير إليها بالعين ولا الدنيا التي أشير إليها بالعين اليسرى وهو معذور باستعمال الرخص والدخول في الرفاهية كما قال بعض الكبار : إن المحقق لا يجوع نفسه إلا اضطرارا سيما إذا كان في مقام الهيبة وكسر الصفات فإنه يكثر أكثله لشدة سطوات نيران الحقائق في قلبه بالعظمة وشهودها وهي حالة المقربين ولكن قد يقلل عمدا على قصد المحاق بأهله **الأنس بالله** فهو بذلك يجتمع بالسالك انتهى وإلى الأعرج الحقيقي وهو من وصل إلى منزل المشاهدة فضرب بسيوف الوحدة والإطلاق على رجل الاثنينية والتقيد فتعطل آلاته بالفناء فتقاعد هناك وهم الأفراد المشاهدون فلا حرج لهم أن لا ينزلوا إلى مقام المجاهدين أيضا ومن هنا يعرف سر قولهم الصوفي من لا مذهب له فإن من لا مذهب له لا سير له ومن لا سير له لا يلزم له آلة وإلى المريض الحقيقي وهو الذي أسقمه العشق والمحبة وهو معذور إذا باشر الروحانيات مثل السماع واستعمال الطيب والنظر إلى المستحسنات فإن مداواته أيضا تكون من قبيل العشق والمحبة لأن العشق أمرضه فيداوي بالعشق أيضا كما قيل :

تداويت من ليلي بليلي من الهوا

كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

جزء : ۹ رقم الصفحة : ۲

". (۱)

"كزيرى باهى در افتاده بود

كه از هول او شير نرماده بود

همه شب زفرياد وزراى نخفت

(۱) تفسير روح البيان ، ۲۸/۹

يكى بر سرش كوفت سنكى وكفت

توهر كز رسيدى بفرياد كس

كه ميخواهى امروز فرياد رس

كه بر جان ريشت نهد مرهمى

كه جانها بنالد زدستت همى

تومارا همى اه كندى براه

بسر لا جرم بر فتادى باه

يا أأيها الذين ءامنوا﴾ بألسنتهم وقلوبهم ﴿إذا تناجيتم﴾ ون راز كوييد بايكديكره يعني في أنديتكم وخلواتكم ﴿فلا تتناجوا بالاثم والعدوان﴾ كما يفعله المنافقون واليهود ﴿وتناجوا بالبر والتقوى﴾ أي بما يتضمن خبر المؤمنين والاتقاء عن معصية الرسول قال سهل رحمه الله بذكر الله وقراءة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿واتقوا الله الذى إليه تحشرون﴾ وحده لا إلى غيره استقلالا أو اشتراكا فيجازيكم بكل ما تأتون وما تذرون.

يعني بسوى أو جمع كرده خواهيد شد س از موت.

دلت الآية على أن التناجي ليس بمنهي عنه مطلقا بل مأمور به في بعض الوجوه إيجابا واستحبابا وإباحة على مقتضى المقام إن قيل كيف يأمر الله بالاتقاء عنه وهو المولى الرحيم والقرب منه ألذ المطالب **والأنس به** أقصى المآرب فالتقوى توجب الاجتناب والحشر إليه يستدعى الإقبال إليه يجاب بأن في الكلام مضافا إذا التقدير واتقوا عذاب ا أو قهر الله أو غيرهما فإن قيل إن العبد لو قدر على الخلاص من العذاب والقهر لأسرع إليه لكنه ليس بقادر عليه كما قال تعالى إن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله والأمر إنما يكون بالمقدور لا يكلف الله نفسا إلا وسعها أجيب بأن المراد الاتقاء عن السبب من الذنوب والمعاصي الصادرة عن العبد العاصي فالمراد واتقوا ما يفضي إلى عذاب الله ويقتضي قهره في الدارين من الإثم والعدوان ومعصية الرسول التي هي السبب الموجب لذلك فالمراد النهي عن مباشرة الأسباب والأمر بالاجتناب عنها إن قيل إن ذلك الاتقاء إنما يكون بتوفيق الله له فإن وفق العبد له فلا حاجة إلى الأمر به وإن لم يوفقه فلا قدرة له عليه والأمر إنما يحسن في المقدور أجيب بأنه تعالى علمه الحق أولا ووهب له إرادة جزئية يقدر بها على اختيار شيء فله الاختيار السابق على إرادة الله تعالى ووجود الاختيار في الفاعل المختار أمر يطلع عليه كل أحد حتى الصبيان

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٣٨٨

﴿إنما النجوى﴾ المعهودة التي هي التناجي بالإثم والعدوان بقرينة ليحزن ﴿من الشيطان﴾ لا من غيره فإنه المزين لها والحامل عليها فكأنها منه ﴿ليحزن الذين ءامنوا﴾ خبر آخر من الحزن بالضم بعده السكون متعد من الباب الأول لا من الحزن بفتحتين لازما من الرابع كقوله تعالى : يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون فيكون الموصول مفعوله وفي القاموس

٤٠١

الحزن بالضم ويحرك الهم والجمع أحزان وحزن كفرح وحزنه الأمر حزنا بالضم وأحزنه جعله حزينا وحزنه جعل فيه حزنا وقال الراغب : الحزن والحزن خشونة في الأرض وخشونة في النفس لما يحصل فيها من الغم ويضاده الفرح ولاعتبار الخشونة بالغم قيل : خشنت بصدره إذا أحزنته والمعنى إنما هي ليجعل الشيطان المؤمنين محزونين بتوهمهم أنها في نكبة أصابهم في سيرتهم يعني أن غزاتهم غلبوا وأن أقاربهم قتلوا متألمين بذلك فاترين في تدبير الغزو إلى غير ذلك مما يشوش قلوب المؤنين وفي الحديث : إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فإن قلك يحزنه ﴿وليس﴾ أي الشيطان أو التناجي ﴿بضآرهم﴾ بالذي يضر المؤمنين ﴿شياا﴾ من الأشياء أو شيئا من الضرر.

يعني ضرر رساننده مؤمنان بيزى ﴿إلا بإذن الله﴾ أي بمشيئته وإرادته أي ما أراده من حزن أو وسوسة ما روي أن فاطمة رضي الله عنها رأت كأن الحسن والحسين رضي الله عنهما أكلا من أطيب جزور بعثه رسول الله إليهما فماتا فلما غدت سألته عليه السلام وسأل هو جبريل ملك الرؤيا فقال : لا علم لي به فعلم أنه من الشيطان وفي الكشاف إلا بإذن الله أي بمشيئته وهو أن يقضي الموت على أقاربهم أو الغلبة على الغزاة قال في الأسئلة المقحمة : أين ضرب الحزن؟ قلت : إن الحزن إذا سلمت عاقبته لا يكون حزنا في الحقيقة وهذه نكتة أصولية إذ الضرر إذا كانت عاقبته الثواب لا يكون ضررا في الحقيقة وهذه نكتة أصولية إذ الضرر إذا كانت عاقبته الثواب لا يكون ضررا في الحقيقة والنفع إذا كانت عاقبته العذاب لا يكون نفعا في الحقيقة ﴿وعلى الله﴾ خاصة ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ ليفوضوا أمورهم إليه وليثقوا به ولا يبالوا بنجواهم فإنه تعالى يعصمهم من شرها وضررها.

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٣٨٨

". (١)

"والجد: بفتح الجيم العظمة والجلال، وهذا تمهيد وتوطئة لقوله: ﴿ما اتخذ صاحبة ولا ولدا﴾ لأن اتخاذ الصاحبة للافتقار إليها لأنسها وعونها والالتذاذ بصحبتها، وكل ذلك من آثار الاحتياج، والله تعالى الغني المطلق، وتعالى جده بفنائه المطلق، والولد يرغب فيه للاستعانة **والأنس به**، مع ما يقتضيه من انفصاله من أجزاء والديه وكل ذلك من الافتقار والانتقاص.

وضمير ﴿إنه﴾ ضمير شأن وخبره جملة ﴿تعالى جد ربنا﴾ .

وجملة ﴿ما اتخذ صاحبة﴾ إلى آخرها بدل اشتمال من جملة ﴿تعالى جد ربنا﴾ .

وتأكيد الخبر ب"إن" سواء كانت مكسورة أو مفتوحة لأنه مسوق إلى فريق يعتقدون خلاف ذلك من الجن.

والاقتصار في بيان تعالي جد الله على انتفاء الصاحبة عنه والولد ينبئ بأنه كان شائعا في علم الجن ما كان يعتقده المشركون أن الملائكة بنات الله من سروات الجن وما اعتقاد المشركين إلا ناشئ عن تلقين الشيطان وهو من الجن، ولأن ذلك مما سمعوه من القرآن مثل قوله تعالى سبحانه: ﴿أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾ في سورة الأنعام [١٠١].

وإعادة ﴿لا﴾ النافية مع المعطوف للتأكيد للدلالة على أن المعطوف منفي باستقلاله لدفع توهم نفي المجموع.

---

(١) تفسير روح البيان . ، ٣٢٧/٩

وضمير الجماعة في قوله: ﴿ربنا﴾ عائد إلى كل متكلم مع تشريك غيره، فعلى تقدير أنه من كلام الجن فهو قول كل واحد منهم عن نفسه ومن معه من بقية النفر.

[٤] ﴿وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا﴾ .

قرأه الجمهور بكسرة همزة ﴿وإنه﴾ . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وأبو جعفر وخلف بفتح الهمزة كما تقدم في قوله: ﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾ [الجن:٣] فقد يكون إيمانهم بتعالي الله عن أن يتخذ صاحبة وولدا ناشئا على ما سمعوه من القرآن وقد يكون ناشئا عن إدراكهم ذلك بأدلة نظرية.

والسفيه: هنا جنس، وقيل: أرادوا به إبليس، أي كان يلقنهم صفات الله بما لا يليق بجلاله، أي كانوا يقولون على الله شططا بل نزول القرآن بتسفيههم في ذلك.." (١)

"بناء أن الأصيل يطلق على وقت الظهر فيكون قوله: ﴿وسبحه﴾ إشارة إلى قيام الليل.

وهذه الآية جاءت على وفق قوله تعالى: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨] وقوله تعالى: ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا، واصبر على ما يقولون﴾ [المزمل: ٨-١٠].

[٢٧] ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا﴾ .

تعليل للنهي عن إطاعتهم في قوله: ﴿ولا تطع منهم آثما أو كفورا﴾ [الانسان: ٢٤]، أي لأن خلقهم الانصباب على الدنيا مع الإعراض عن الآخرة إذ هم لا يؤمنون بالبعث فلو أعطاهم لتخلق بخلقهم قال تعالى: ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء﴾ [النساء: ٨٩] الآية. فموقع ﴿إن﴾ موقع التعليل وهي بمنزلة فاء السببية كما نبه عليه الشيخ عبد القاهر.

و ﴿هؤلاء﴾ إشارة إلى حاضرين في ذهن المخاطب لكثرة الحديث عنهم، وقد استقريت من القرآن أنه إذا أطلق ﴿هؤلاء﴾ دون سبق ما يكون مشارا إليه فالمقصود به المشركون، وقد ذكرت ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾ في سورة الأنعام [٨٩] وقوله تعالى: ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ في سورة هود [١٠٩].

وقد تنزه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن محبة الدنيا فقال "ما لي وللدنيا" فليس له محبة لأمورها عدا النساء والطيب كما قال "حبب إلي من دنياكم النساء والطيب" .

فأما النساء فالميل إليهن مركوز في طبع الذكور، وما بالطبع لا يتخلف، وفي الأنس بهن انتعاش للروح فتناوله محمود إذا وقع على الوجه المبرأ من الإيقاع في فساد وما هو الأمثل تناول الطعام وشرب الماء قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية﴾ [الرعد: ٣٨].

وأما الطيب فلأنه مناسب للتزكية النفسية.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٠٧/٢٩

وصيغة المضارع في ﴿يحبون﴾ تدل على تكرر ذلك، أي أن ذلك دأبهم وديدنهم لا يشاركون مع حب العاجلة حب الآخرة.." (١)

" ١٢٣ كان لنبي أن يغل) هو من الغلول وهو أخذ الشيء خفية من المغانم وغيرها وقرىء بفتح الياء وضم الغين ومعناه تبرئة النبي صلى الله عليه وسلم من الغلول وسببها أنه فقدت من المغانم قطيفة حمراء فقال بعض المنافقين لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها وقرىء بضم الياء وفتح الغين أي ليس لأحد أن يغل نبيا أي يخونه في المغانم وخص النبي بالذكر وإن كان ذلك محظورا من الأمر لشنعة الحال مع النبي لأن المعاصي تعظم بحضرته وقيل معنى هذه القراءة أن يوجد غالا كما تقول أحمدت الرجل إذا أصبته محمودا فعلى هذا القول يرجع معنى هذه القراءة إلى معنى فتح الياء ومن يغلل يأت بما غل وعيد لمن غل بأن يسوق يوم القيامة على رقبته الشيء الذي غل وقد جاء ذلك مفسرا في الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير لاألفين أحدكم على رقبته فرس لاألفين أحدكم على رقبته رقاع لاألفين أحدكم على رقبته صامت لاألفين أحكم على رقبته إنسان فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك أفمن اتبع الآية فقيل إن الذي اتبع رضوان الله من لم يغلل والذي باء بالسخط من غل وقيل الذي اتبع الرضوان من استشهد بأحد والذي باء بالسخط المنافقون الذين رجعوا عن الغزو وهم درجات ذووا درجات والمعنى تفاوت بين منازل أهل الرضوان وأهل السخط أو التفاوت بين درجات أهل الرضوان فإن بعضهم فوق بعض فكذلك درجات أهل السخط لقد من الله الآية إخبار بفضل الله على المؤمنين ببعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنفسهم معناه في الجنس واللسان فكونه من جنسهم يوجب **الأنس به** وقلة الاستيحاش منه وكونه بلسانهم يوجب حسن ألفهم عنه ولكونه منهم يعرفون حسبه وصدقه وأمانته صلى الله عليه وسلم ويكون هو صلى الله عليه وسلم أشفق عليهم وأرحم بهم من الأجنبيين أو لما أصابتكم مصيبة الآية عتاب للمسلمين على كلامهم." (٢)

" إليه من أناب أي رجع إلى الحق وإنما يرجع إلى الحق من شاء الله رجوعه فكأنه قال ويهدي من يشاء الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب

قوله تعالى الذين آمنوا هذا بلد من قوله أناب والمعنى يهدي الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله في هذا الذكر قولان

أحدهما أنه القرآن والثاني ذكر الله على الإطلاق

وفي معنى هذه الطمأنينة قولان

أحدهما أنها الحب له **والأنس به** والثاني السكون إليه من غير شك بخلاف الذين إذا ذكر الله اشمأزت قلوبهم

قوله تعالى ألا بذكر الله قال الزجاج ألا حرف تنبيه وابتداء والمعنى تطمئن القلوب التي هي قلوب المؤمنين لأن الكافر غير مطمئن القلب

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٧٧/٢٩

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢٢٢/١

قوله تعالى طوبى لهم فيه ثمانية أقوال

قوله تعالى طوبى لهم فيه ثمانية أقوال

أحدها أنه اسم شجرة في الجنة روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أن رجلا قال يا رسول الله ما طوبى قال شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها وقال أبو هريرة طوبى شجرة في الجنة يقول الله عز و جل لها تفتقي لعبدي عما شاء فتتفتق له عن ." (١)

"الشتاء والصيف بينهما طباق ، وكذلك بين جوع وخوف.

هذا البيت

الإضافة للتكريم والتشريف.

لإيلاف قريش وقوله : ليعبدوا رب هذا البيت

تقديم ما حقه التأخير ، والأصل : ليعبدوا رب هذا البيت ، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فقدم الإيلاف تذكيرا بالنعمة.

جوع خوف التنكير لبيان شدتهما ، أي جوع وخوف شديدين.

المفردات اللغوية :

لإيلاف قريش يقال : آلف الشيء إيلافا ، وألف إلافا وإلفا ، أي لزمه وعكف عليه ، مع **الأنس به** وعدم النفور منه ، قال الزمخشري : متعلق بقوله : ليعبدوا

أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين ، ودخلت الفاء على ليعبدوا

لما في الكلام من معنى الشرط إذ المعنى : أن نعم الله عليهم لا تحصى ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لأجله. وقريش مجموعة القبائل من ولد النضر بن كنانة. منقول من تصغير قرش وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن ، شبهوا بها لأنها تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تعلى ، وصغر الاسم للتعظيم. وقال أبو حيان : سموا بذلك لتجمعهم بعد التفرق ، جمعهم قصي بن كلاب في الحرم ، والتقريش : التجمع والالتئام.

إيلافهم رحلة الشتاء والصيف أي بسبب إلفهم الارتحال إلى اليمن في الشتاء ، وإلى الشام في الصيف كل عام ، يستعينون بالرحلتين للتجارة على المقام بمكة ، لخدمة البيت الذي هو فخرهم

ج ٣٠ ، ص : ٤١٥

و مجدهم. والرحلة : ارتحال القوم ، بشد الرحال للمسير.بيت

الكعبة. أطعمهم وسع لهم في الرزق. من جوع من خوف أي من أجل جوع وخوف. وآمنهم جعلهم في أمن وسلامة في الأموال والأنفس. من خوف خوف أصحاب الفيل ، أو التخطف في بلدهم ومسايرهم. وكان يصيبهم الجوع لعدم الزرع

---

(١) زاد المسير، ٣٢٧/٤

بمكة ، وخافوا جيش الفيل.

سبب النزول : نزول الآية (١) : ." [1]

"ج ١ ، ص : ٥٩٠

ذلك ، كل هذه أساليب تفيد المبالغة وتأكيد النزول وتأكدهم منه ، ومع هذا يقولون :

إن هذا إلا سحر مبين.

وكان الكفار قد اقترحوا اقتراحين ، أولهما : أن ينزل على الرسول ملك من السماء يرونه ويكون معه نذيرا ومؤيدا له ونصيرا ، وذلك أنهم يفهمون أن الرسول بشر والرسالة تتنافى مع البشرية ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون « ١ » . وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لو لا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا [سورة الفرقان آية ٧].

وقد حكى الله عنهم هذا كثيرا في سورة هود وإبراهيم وغيرهما.

وقد رد الله اقتراحهم هذا بأنه لو أنزل ملكا كما اقترحوا لقضى الأمر وهلكوا ثم لا ينظرون ولا يمهلون إذ جرت سنة الله في خلقه ، إذا تعصب قوم وطلبوا آية غير التي أنزلت إليهم ، وأجيبوا إلى طلبهم ، ثم لم يؤمنوا ، يهلكهم الله بعذابه ويقضى عليهم.

وهؤلاء من أمة الدعوة المحمدية ، وقد قضى الله ألا يهلكهم بعذاب الاستئصال تكريما للنبي صلى الله عليه وسلم وعسى أن يأتى من نسلهم من يعبد الله حقا ، وقد كان هذا.

الاقتراح الثاني : هلا نزلت الملائكة علينا بالرسالة ، وكان الرسول ملكا لا بشرا ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة « ٢ » فأنت ترى أن اقتراحهم الثاني مبنى على الغرور الكاذب والجهل الفاضح وأن هذا النبي الأمين الصادق الكريم لا يستحق هذه الرسالة فإن كان ولا بد من إرسال بشر فنحن أولى منه وقالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا « ٣ » .

فيرد الله عليهم : لو جعلنا الرسول ملكا لجعلناه رجلا حتى يمكن التفاهم معه **والأنس به** ومخاطبته ، ولو جعلناه بشرا لعاد الأمر كما كان وللبسنا عليهم واختلط الأمر عندهم ، فإن هذا الرجل سيقول لهم : إنى رسول الله كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم أما اختصاص محمد دون غيره بالرسالة وتشريفه بالنبوة فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

---

(١) سورة المؤمنون آية ٣٣.

(٢) سورة المؤمنون آية ٢٤.

(٣) سورة الزخرف آية ٣١ - ٣٢.." [2]

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، ٣٠/٤٠١

(٢) التفسير الواضح ـ موافقا للمطبوع، ١/٥٩٠

"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنآ أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [٢٨٦]

.

﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ أي : لا يحملها إلا ما تسعه وتطيقه ولا تعجز عنه .

قال الرازي : يحتمل أن يكون هذا ابتداء خبر من الله . ويحتمل أن يكون حكاية عن الرسول والمؤمنين بأنهم قالوا : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ على نسق الكلام في قوله : ﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا ﴾ . وقالوا : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ .

ويؤيد ذلك ما أردفه من قوله : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا ﴾ فكأنه تعالى حكى عنهم طريقتهم في التمسك بالإيمان والعمل الصالح . وحكى عنهم في جملة ذلك أنهم وصفوا ربهم بأنه لا يكلف نفسا إلا وسعها .

ثم قال الرازي : في كيفية النظم : إن قلنا : إن هذا من كلام المؤمنين ، فوجه النظم أنهم لما قالوا : ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ فكأنهم قالوا : كيف لا نسمع ولا نطيع وأنه تعالى لا يكلفنا إلا ما في وسعنا وطاقتنا . فإذا كان هو تعالى ، بحكم الرحمة الإلهية لا يطالبنا إلا بالشيء السهل الهين ، فكذلك نحن بحكم العبودية وجب أن نكون سامعين مطيعين . وإن قلنا : إن هذا من كلام الله تعالى ، فوجه النظم أنهم لما قالوا : ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ ثم قالوا بعده : ﴿ غفرانك ربنا ﴾ ، دل ذلك على أن قولهم : ﴿ غفرانك ﴾ ، طلب للمغفرة فيما يصدر عنهم من وجوه التقصير منهم على سبيل العمد . فملا كان قولهم غفرانك ، طلب للمغفرة في ذلك التقصير ، لا جرم خفف الله تعالى ذلك عنهم . وقال : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ . والمعنى : أنكم إذا سمعتم وأطعتم ، وما تعمدتم التقصير ، فعند ذلك لو وقع منكم نوع تقصير على سبيل السهو والغفلة فلا تكونوا خائفين منه ، فإن الله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ . وبالجملة فهذا إجابة لهم في دعائهم في قولهم : غفرانك ربنا .

قال زين العابدين بير محمد درة في " المدحة الكبرى " : وعلى احتمال أن يكون قوله : ﴿ لا يكلف الله ﴾ الخ حكاية ، فهو من قبيل العطف بلا عاطف . أو الكلام على تقدير قالوا . قال بعضهم : ولك أن تجعل : ﴿ لا يكلف الله ﴾ الخ في حيز القول . وأن يكون حكاية للأقوال المتفرقة غير المعطوفة بعضها على بعض للمؤمنين ، يكون مدحا لهم بأنهم شاكرون لله تعالى في تكليفه . حيث يرونه بأنه لم يخرج عن وسعهم . وبأنهم يرون أن الله تعالى لا ينتفع بعملهم الخير ، بل هو لهم ، ولا يتضرر بعملهم الشر ، بل هو عليهم .

وقال البقاعي : وهذا الكلام من جملة دعائهم على وجه الثناء طلبا للوفاء بما أخبرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم عنه سبحانه من ذلك ، خوفا من أن يكلفوا بما لله تعالى ، أن يكلف به من المؤاخذة بالوساوس ، لأنه مما تخفيه النفوس ولا طاقة على دفعه .

ولعل العدول عن الخطاب إلى الغيبة بذكر الاسم الأعظم من باب التملق بأن له من صفات العظمة ما يقتضي العفو عن

ضعفهم . ومن صفات الحلم والرحمة ما يرفه عنهم . ويحتمل أن يكون ذلك من قول الله تعالى جزاء لهم على قولهم : ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ ، الآية . فأفادهم بذلك أنه لا يحاسبهم بحديث النفس . فانتفى ما شق عليهم من قوله : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم ﴾ ، الآية . بخلاف ما أفاد بني إسرائيل قولهم : سمعنا وعصينا ؛ من الآصار في الدنيا والآخرة . فيكون حينئذ استئنافا جوابا لمن ، كأنه قال : هل أجاب دعائهم ؟ ! . ويؤيد هذا الاحتمال اتباعه لحكم ما في الوسع على طريق الاستئناف أو الاستنتاج بقوله : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ قال العلامة أبو السعود : قوله تعالى : ﴿ لها ما كسبت ﴾ الخ . للترغيب في المحافظة على مواجب التكليف والتحذير عن الإخلال بها ، ببيان أن تكليف كل نفس مع مقارنته لنعمة التخفيف والتيسير تتضمن مراعاته منفعة زائدة ، وأنها تعود إليها لا إلى غيرها . ويستتبع الإخلال به مضرة تحيق بها لا بغيرها . فإن اختصاص المنفعة الفعل بفاعله من أقوى الدواعي إلى تحصيله . واقتصار مضرته عليه من أشد الزواجر عن مباشرته . أي : لها ثواب ما كسبت من الخير الذي كلفت فعله ، لا لغيرها . وعليها لا على غيرها عقاب ما اكتسبت من الشر الذي كلفت تركه . وإيراد الاكتساب في جانب الشر لما فيه من اعتمال ناشئ من اعتناء النفس بتحصيل الشر وسعيها في طلبه .

قال الحرالي : وصيغة فعل مجردة ، تعرب عن أدنى الكسب ، فلذلك من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة .

لطيفة :

وقال الجاربردي في " شرح الشافية " : معنى الكسب تحصيل الشيء على أي : وجه كان . والاكتساب : المبالغة والاعتمال فيه . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ . وفيه تنبيه على لطف الله تعالى بخلقه ، إذ أثبت لهم ثواب الفعل على أي : وجه كان . ولم يثبت عليهم عقاب الفعل إلا على وجه مبالغة واعتمال فيه .

قال الزمخشري : لما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه وأمارة به كانت في تحصيله أعمل وأجد ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه . ولما لم تكن في باب الخير كذلك لفتورها في تحصيله ، وصفت بما لا دلالة له على الاعتمال والتصرف . انتهى .

قال العلامة ابن جماعة في " حواشيه " : تفرقته بين الكسب والاكتساب هو ما قال الزمخشري وغيره ، ونص عليه سيبويه . قال الحلبي : وهو الأظهر . وقال قوم : لا فرق . قالوا : وقد جاء القرآن بالكسب والاكتساب في مورد واحد . قال تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ [المدثر : ٣٨] ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ﴾ [الأنعام : ١٦٤] ﴿ بلى من كسب سيئة ﴾ [البقرة : ٨١] .

وقال تعالى : ﴿ بغير ما اكتسبوا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] . فقد استعمل الكسب والاكتساب في الشر . وقال الواحدي : الصحيح عند أهل اللغة أن الكسب والاكتساب واحد . وفي القاموس : كسبه يكسبه كسبا ، وتكسب واكتسب : طلب الرزق . أو كسب أصاب ، واكتسب تصرف واجتهد . ثم قال ابن جماعة : ما ذكره من تنبيه الآية على لطف الله بخلقه إلى آخره ، قاله ابن الحاجب في شرح المفصل . وبمعناه قول بعضهم : في الآية إيذان أن أدنى فعل من أفعال الخير يكون للإنسان تكرما من الله على عبده ، بخلاف العقوبة ، فإنه لا يؤاخذ بها إلا من جد فيها واجتهد ، وقريب منه قول آخر : للنفس ما حصل من الثواب بأي وجه اتفق حصوله ، سواء كان بإصابة مجردة أو بتحصيل ، وعليها ما حصلته وسعت فيه

لا ما حصل من غير اختيار وسعي . نبه تعالى أن الثواب حاصل لها سواء كان بسعيها واختيارها أو لم يكن كذلك . وأما العقاب فلا يكون عليها إلا بقصدها وتحصيلها .

وما قالوه من الفرق يحتاج إلى ثبت . وقد قال تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ [الزلزلة : ٧ – ٨] أي : يرى جزاءه . وقال : : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : ٤٨] . على أن ترتب الثواب على ما حصل من غير سعي واختيار ، إن كان لمباشرة سببه مع الغفلة عنه ، فالعقاب أيضا كذلك . فمن عمل سيئة فعليه إثمها وإثم من عمل بها ، وإن صور بالإصابة عند أول الالتفات فلا مانع أن يكون العقاب مثله . ومدعي خلافه وعليه البيان . نعم الإصرار شرط ، لأن الرجوع يمحوه لكنه قدر زائد على الفعل . وبالجملة فما قاله جار الله حسن ، وقد ذكره البيضاوي أيضا . وفي الإعراب الحلبي : الذي يظهر في هذا ، أن الحسنات مما تكسب دون تكلف ؛ إذ كاسبها على جادة أمر الله ورسم شرعه ، والسيئات تكتسب بتكلف ؛ إذ كاسبها يتكلف في أمرها خرق حجاب نهي الله تعالى ، ويتجاوز إليها . فحسن في الآية مجيء التصريفين إحرازا لهذا المعنى والله اعلم . ثم قال ابن جماعة : والمبالغة : من بالغ مبالغة اجتهد ولم يقصر . والاعتمال : من اعتمل أي : عمل بنفسه وأعمل رأيه وآلته . انتهى .

قال البقاعي ولما بشرهم بذلك عرفهم مواقع نعمه من دعاء رتبه على الأخف فالأخف على سبيل التعلي ، إعلاما بأنه لم يؤاخذهم بما اجترحوه نسيانا ، ولا بما قارفوه خطأ ، ولا حمل عليهم ثقلا ، بل جعل شريعتهم حنيفية سمحاء . ولا حملهم فوق طاقتهم . مع أن له جميع ذلك . وأنه عفا عن عقابهم ثم سترهم فلم يخجلهم بذكر سيئاتهم . ثم رحمهم بأن أحلهم محل القرب فجعلهم أهلا للخلافة . فلاح بذلك أنه يعلي أمرهم على كل أمر . ويظهر دينهم على كل دين . وإذ كان سبحانه هو الداعي عنهم . وليكون الدعاء كله محمولا على الإصابة ومشمولا بالإجابة فقال تعالى : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا ﴾ أي : لا تعاقبنا : ﴿ إن نسينا ﴾ أمرك ونهيك : ﴿ أو أخطأنا ﴾ أي : ففعلنا خلاف الصواب ، تفريطا ونحوه .

وقد ولع كثير من المفسرين ههنا بالبحث في أن النسيان الخطأ معفو عنهما ، فما فائدة طلب العفو عنهما ؟ وأجابوا عن ذلك بوجوه . وأرق جواب رأيته قول العلامة بير محمد في " المدحة الكبرى " : لما كان طالب العفو الرسول والأنصار والمهاجرون ، ومن كان على شاكلتهم ، فكأنهم يعدون النسيان من العصيان ، والخطأ من الخطيئة . كقوله تعالى : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ [المؤمنون : ٦٠] .

وقيل في معنى الآية : لا تعاقبنا إن تركنا أمرك أو اكتسبنا خطيئة . على أن يكون النسيان بمعنى الترك . والخطأ من الخطيئة . وعليه فلا إيراد ، والله أعلم .

﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصرا ﴾ أي : عهدا يثقل علينا .

قال الحرالي : الإصر : العهد الثقيل الذي في تحمله أشد المشقة : ﴿ كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ وهو ما كلفه بنو إسرائيل مما يهد الأركان . ولا بأس بالإشارة إلى جمل مما حملوه من الآصار . ننقله عن أسفارهم تأكيدا لما يحمل على الشكر على تخفيف ذلك عنا ، وتعظيما لمنته تعالى ، فلله الحمد فنقول : في سفر الخروج في الأصحاح الثاني عشر :

(١٥) سبعة أيام تأكلون فطيرا . اليوم الأول تعزلون الخمير في بيوتكم . فإن كل من أكل خميرا من اليوم الأول إلى اليوم السابع تقطع تلك النفس من إسرائيل .

وكل هذا الأصحاح آصار شاقة .

وفي السفر المذكور ، في الأصحاح الحادي والعشرين .

(١٥) ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا .

(١٦) ومن سرق إنسانا وباعه أو وجد في يده يقتل قتلا .

(١٧) ومن شتم أباه أو أمه يقتل قتلا .

(٢٧) وإن أسقط سن عبده أو سن أمته يطلقه حرا عوضا عن سنه .

(٢٨) وإذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمه ، وأما صاحب الثور فيكون بريئا .

(٢٩) ولكن إن كان ثورا نطاحا من قبل وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة ، فالثور يرجم وصاحبه أيضا يقتل .

وفي السفر المذكور ، في الأصحاح الثالث والعشرين .

(١٠) وست سنين تزرع أرضك وتجمع غلتها .

(١١) وأما في السابعة فتريحها وتتركها ليأكل فقراء شعبك . وفضلتهم تأكلها وحوش البرية ، كذلك تفعل بكرمك وزيتونك .

(١٢) ستة أيام تعمل عملك . وأما اليوم السابع ففيه تستريح لكي يستريح ثورك وحمارك ويتنفس ابن أمتك والغريب .

(١٩) أول أبكار أرضك تحضره إلى بيت الرب إلهك .

وفي سفر العدد ، في الصحاح الخامس عشر .

(٣٧) وكلم الرب موسى قائلا .

(٣٨) كلم بني إسرائيل وقل لهم : أن يصنعوا لهم أهدابا في أذيال ثيابهم في أجيالهم ويجعلوا على هدب الذيل عصابة من أسمانجوني .

(٣٩) فتكون لكم هدبا فترونها وتذكرون كل وصايا الرب وتعملونها .

وفي السفر المذكور ، في الأصحاح التاسع عشر :

(١١) من مس ميتا ميتة إنسان ما يكون نجسا سبعة أيام .

(١٢) يتطهر به في اليوم الثالث ، وفي السابع يكون طاهرا . وإن لم يتطهر في اليوم الثالث ففي اليوم السابع لا يكون طاهرا .

(١٣) كل من مس ميتا ميتة إنسان قد مات ولم يتطهر ينجس مسكن الرب . فتقطع تلك النفس من إسرائيل ، لأن ماء النجاسة لم يرش عليها تكون نجسة . نجاستها لم تزل فيها .

(١٤) هذه هي الشريعة . إذا مات إنسان في خيمة فكل من دخل الخيمة وكل من كان في الخيمة يكون نجسا سبعة أيام .

(١٥) وكل إناء مفتوح ليس عليه سداد بعصابة فإنه نجس .

(١٦) وكل من مس على وجه الصحراء قتيلا بالسيف أو ميتا أو عظم إنسان أو قبرا يكون نجسا سبعة أيام . وتمام الفصل المذكور كيفية الطهارة من هذه النجاسة الشاقة جدا .

وفي السفر المذكور في الأصحاح الخامس والثلاثين :

(٣١) ولا تأخذوا فدية عن نفس القاتل المذنب للموت بل إنه يقتل .

وفي سفر التثنية ، في الأصحاح الخامس عشر .

(١٩) كل بكر ذكر يولد من بقرك ومن غنمك تقدسه للرب إلهك . لا تشتغل على بكر بقرك ولا تجز بكر غنمك .

وفي سفر الخروج ، في الأصحاح الرابع والثلاثين :

(٢٠) وأما بكر الحمار فتفديه بشاة . وإن لم تفده تكسر عنقه . كل بكر من بنيك تفديه .

وفي سفر اللاويين ، في الأصحاح الرابع :

(١) وكلم الرب موسى قائلا .

(٢) كلم بني إسرائيل قائلا : إذا أخطأت نفس سهوا في شيء من جميع مناهي الرب التي لا ينبغي عملها وعملت واحدة منها .

(٣) إن كان الكاهن الممسوح يخطئ لإثم الشعب يقرب عن خطيئته التي أخطأ ثورا ابن بقر صحيحا للرب . ذبيحة خطية .

وكيفية ذلك حرجة جدا . انظرها .

وفيه ، في الأصحاح الخامس :

(١) أو إذا مس أحد شيئا نجسا جثة وحش نجس أو جثة بهيمة نجسة أو جثة ديب نجس وأخفى عنه فهو نجس ومذنب .

(٥) فإن كان يذنب في شيء من هذه يقر بما قد أخطأ به .

(٦) ويأتي إلى الرب بذبيحة لإثمه عن خطيئته التي أخطأ بها أنثى من الأغنام نعجة أو عنزا من المعز ذبيحة خطية فيكفر عنه الكاهن من خطيئته .

والأصحاح المذكور كله آصار .

وكذا الأصحاح السادس بعده كله آصار .

وفي الأصحاح الحادي عشر تحريم بعض الطيور وفي آصار كثيرة ، منها :

(٣٣) وكل متاع خزف وقع فيه منها فكل ما فيه يتنجس ، وأما هو فتكسرونه .

وفي الأصحاح الثاني عشر أحكام النفساء عندهم والفرق بين ولادتها ذكرا وأنثى . وإنها في الأول تكون نجسة أسبوعا ، ثم ثلاثا وثلاثين يوما . وفي الثاني أسبوعين ثم ستة وستين يوما .

وعن تمام أيام طهرها تأتي بكيس كفارة عنها .

وفي الأصحاح الخامس عشر تشريعات لذوي الجراحات .

وفي ذلك آصار كبرى . انظرها .

وفيه أيضا أحكام الحائض والآصار في شأنها . ومنها :

(١٩) وكل من مسها يكون نجسا إلى المساء .

(٢٠) وكل ما تضطجع عليه في طمثها يكون نجسا ، وكل ما تجلس عليه يكون نجسا .

(٢١) وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء .

وفي الأصحاح السابع عشر :

(١٥) وكل إنسان يأكل ميتة أو فريسة وطنيا كان أو غريبا يغسل ثيابه ويستحم بماء ويبقى نجسا إلى المساء .

وفي الأصحاح التاسع عشر :

(٢٣) ومتى دخلتم الأرض وغرستم كل شجرة للطعام تحسبون ثمرها غلتها . ثلاث سنين تكون لكم غلفاء ، لا يؤكل منها .

(٢٤) وفي السنة الرابعة يكون كل ثمرها قدسا لتمجيد الرب .

(٢٥) وفي السنة الخامسة تأكلون ثمرها ، لتزيد بكم غلتها . أنا الرب إلهكم .

(٢٧) لا تقصروا رؤوسكم مستديرا ولا تفسد عارضيك .

وفي الأصحاح الخامس والعشرين :

(٣) ست سنين تزرع حقلك وست سنين تقضب كرمك وتجمع غلتهما .

(٤) وأما السنة السابعة ففيها يكون للأرض سبت عطلة سبتا للرب . لا تزرع حقلك ولا تقضب كرمك .

(٥) زريع حصيدك لا تحصد وعنب كرمك المحول لا تقطف . سنة عطلة تكون للأرض .

(٦) ويكون سبت الأرض لكم طعاما . لك ولعبدك ولأمتك ولأجيرك ولمستوطنك النازلين عندك .

(٧) ولبهائمك وللحيوان الذي في أرضك تكون كل غلتها طعاما .

وفي سفر التثنية ، في الأصحاح الحادي والعشرين .

(١٨) وإذا كان لرجل ابن معاند ومارد ولا يسمع لقول أبيه ولا لقول أمه ويؤدبانه فلا يسمع لهما .

(١٩) يمسكه أبوه وأمه ويأتيان به إلى شيوخ مدينته وإلى باب مكانه .

(٢٠) ويقولون لشيوخ مدينته : ابننا هذا معاند ومارد لا يسمع لقولنا وهو مسرف وسكير .

(٢١) فيرجمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت .

وفيه ، في الأصحاح الثاني والعشرين :

(١٠) لا تحرث على ثور وحمار معا .

(١١) لا تلبس ثوبا مختلطا صوفا وكتانا معا .

وفيه ، في الأصحاح الرابع والعشرين :

(١) إذا أخذ رجل امرأة ، وتزوج بها فإن لم تجد نعمة في عينيه ؛ لأنه وجد فيها عيب شيء وكتب لها كتاب طلاق ودفعه

إلى يدها وأطلقها من بيته .
(٢) ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر .
(٣) فإذا أبغضها الرجل الأخير ، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته ، أو إذا مات الرجل الأخير الذي اتخذها له زوجة .
(٤) لا يقدر زوجها الأول الذي طلقها أن يعود بأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست ؛ لأن ذلك رجس لدى الرب .

وهذه نبذة يسيرة من الآصار التي كانت على الإسرائيليين ولم يشرعها لنا مولانا بفضله وكرمه له الحمد ، إنه أرحم الراحمين .

﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ أي : من بليات الدنيا والآخرة . فالدعاء الأول في رفع شدائد التكليف ، وهذا في رفع شدائد البليات . ويقال : هو تكرير للأول وتصوير للإصر بصورة ما لا يستطاع مبالغة ﴿ واعف عنا ﴾ أي : تجاوز عن ذنوبنا ولا تعاقبا : ﴿ واغفر لنا ﴾ أي : غط على ذنوبنا واعف عنها : ﴿ وارحمنآ ﴾ أي : تفضل علينا بالرحمة مع كوننا مقصرين مذنبين : ﴿ أنت مولانا ﴾ أي : ولينا وناصرنا : ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ فإن من حق المولى أن ينصر عبده ومن يتولى أمره على الأعداء .
وفيه إشارة إلى أن إعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله تعالى ، حسبما أمر في تضاعيف السورة الكريمة ، غاية مطلبهم .
قال البقاعي : فتضمن ذلك وجوب قتال الكافرين . وأنهم أعدى الأعداء . وأن قوله : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ ليس ناهيا عن ذلك ، وإنما هو إشارة إلى أن الدين صار في الوضوح إلى حد لا يتصور فيه إكراه . بل ينبغي لكل عاقل أن يدخل فيه بغاية الرغبة فضلا عن الإحواج إلى إرهاب . فمن نصح نفسه دخل فيه بما دل عليه عقله ، ومن أبى دخل فيه قهرا بنصيحة الله التي هي الضرب بالحسام ونافذ السهام .
وقد ورد في " صحيح مسلم " عن النبي صلى الله عليه وسلم : [1].
وقد روى البخاري والجماعة عن أبي : مسعود رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : [2].
وروى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [3].
وأخرج مسلم عن ابن مسعود قال : لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم : انتهى به إلى سدرة المنتهى ، وهي في السماء السادسة . إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض ، فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها ، فيقبض منها . قال : ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ [االنجم : ١٦] ، قال : فراش من ذهب قال ، فأعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا : أعطي الصلوات الخمس ، وأعطي خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئا ، المقحمات .

---

(١) إن الله تعالى قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات : قد فعلت
(٢) من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة ، في ليلة ، كفتاه
(٣) أعطيت خواتيم سورة البقرة من بيت كنز من تحت العرش ، لم يعطهن نبي قبلي

وعن ابن عباس قال : بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضا من فوقه ، فرفع رأسه فقال : [١]. رواه مسلم والنسائي . وهذا لفظ مسلم .

وأخرج الترمذي والنسائي والدرامي والحاكم وصححه ، عن النعمان بن بشير : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [٢].

وأخرج عبد بن حميد في " مسنده " عن الحسن : أنه كان إذا قرأ آخر البقرة قال : يا لك نعمة . . ! يا لك نعمة .

هذا ، وقد روي في فضل سورة البقرة أحاديث كثيرة . . . منها ما أخرجه مسلم والترمذي من حديث النواس بن سمعان قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : [٣]وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد قال : [٤].

وأخرج أحمد والحاكم والدارمي عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [٥].

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [٦]. ولفظ الترمذي : [٧].

وأخرج سعيد بن منصور والترمذي والحاكم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [٨].

فائدة :

قال ابن القيم : تأمل خطاب القرآن تجد ملكا له الملك كله ، وله الحمد كله ، أزمة الأمور كلها بيده ، ومصدرها منه ، ومواردها إليه ، مستويا على العرش ، لا تخفى عليه خافية من أقطار مملكته ، عالما بما في نفوس عبيده ، مطلعا على أسرارهم وعلانيتهم ، منفردا بتدبير المملكة ، يسمع ويرى ويعطي ويمنع ، ويثيب ويعاقب ، ويكرم ويهين ، ويخلق ويرزق ، ويميت ويحيي ، ويقدر ويقضي ويدبر ، الأمور نازلة من عنده ، دقيقها وجليلها ، وصاعدة إليه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه . فتأمل كيف تجده يثني على نفسه ، ويمجد نفسه ، ويحمد نفسه ، وينصح عباده ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ويرغبهم فيه ، ويحذرهم مما فيه هلاكهم ، ويتعرف إليهم بأسمائهم وصفاته ، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه ! يذكرهم بنعمه عليهم ، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها . ويحذرهم من نقمه ، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه

---

(١) هذا باب من السماء فتح اليوم ، لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض . لم ينزل قط إلا اليوم . فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة . لن تقرأ حرفا منهما إلا أعطيته

(٢) إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق السموات الأرض بألفي عام . أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة . ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان

(٣) يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمه سورة البقرة وآل عمران

(٤) كأنهما عمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق . أو كأنهما حزقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما

(٥) تعلموا سورة البقرة . فإن أخذها بركة . وتركها حسرة . ولا تستطيعها البطلة . تعلموا البقرة وآل عمران فإنهما هما الزهراوان يجيئان يوم القيامة كأنهما غماماتان أو غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تجادلان عن صاحبهما

(٦) لا تجعلوا بيوتكم مقابر . إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة

(٧) وإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان

(٨) لكل شيء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة . وفيها آية هي سيدة آي القرآن . آية الكرسي

، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه ، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه ، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء ، ويثني على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم ، ويذم أعداءه بسيء أعمالهم وقبيح صفاتهم ، ويضرب الأمثال ، وينوع الأدلة والبراهين ، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة ، ويصدق الصادق ، ويكذب الكاذب ، ويقول الحق ، ويهدي السبيل ، ويدعو إلى دار السلام ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها ، ويحذر من دار البوار ، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها . ويذكر عباده فقرهم إليه وشدة حاجتهم إليه من كل وجه . وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين ، ويذكرهم غناءه عنهم وعن جميع الموجدات . وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه . وكل ما سواه فقير إليه . وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته . ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته . وتشهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب .

وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم ، وغافر زلاتهم ، ومقيم أعذارهم ، ومصلح فسادهم ، والدافع عنهم ، والحامي عنهم ، والناصر لهم ، والكفيل بمصالحهم والمنجي لهم من كل كرب ، والموفي لهم بوعده .

وأنه وليهم الذي لا ولي لهم سواه ، فهو مولاهم الحق ، وينصرهم على عدوهم ، فنعم المولى ونعم النصير .

وإذا شهدت القلوب من القرآن ملكا عظيما جوادا رحيما جميلا هذا شأنه ، فكيف لا تحبه ، وتنافس في القرب منه ، وتنفق أنفاسها في التودد إليه ، ويكون أحب إليها من كل ما سواه ، ورضاه آثر عندها من رضى كل من سواه ؟ وكيف لا تلهج بذكره وتصير حبه والشوق إليه **والأنس به** هو غذاؤها وقوتها ودواؤها ، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها ؟ ! .

اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء حزننا ، وأعنا على إكمال ما قصدناه بفضلك . يا أرحم الراحمين .." (١)

"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير ﴾ [١٥٦]

.

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ﴾ وهم المنافقون القائلون : ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ ﴿ وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض ﴾ أي : سافروا فيها للتجارة فأصيبوا بغرق أو قتل : ﴿ أو كانوا ﴾ أي : إخوانهم : ﴿ غزى ﴾ جمع غاز فأصيبوا باصطدام أو قتل : ﴿ لو كانوا عندنا ﴾ أي : مقيمين : ﴿ ما ماتوا وما قتلوا ﴾ قال أبو السعود : ليس المقصود بالنهي عدم مماثلتهم في النطق بهذا القول ، بل في الاعتقاد بمضمونه والحكم بموجبه .

أقول : بل الآية تفيد الأمرين . أعني حفظ الاعتقاد المقصود أولا وبالذات ، وحفظ المنطق مما يوقع في إضلال الناس ، ويخل بالمقام الإلهي ، كما بينته السنة ، وسنذكره في التنبيه الآتي .

وقوله : ﴿ ليجعل الله ذلك ﴾ أي : القول : ﴿ حسرة في قلوبهم ﴾ متعلق بقالوا على أن اللام لام العاقبة ، مثلها في : ﴿

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، /

ليكون لهم عدوا وحزنا ﴾ [القصص : ٨] أي : قالوا ذلك واعتقدوه ، ليكون حسرة في قلوبهم . والمراد بالتعليل المذكور : بيان عدم ترتب فائدة ما، على ذلك أصلا : ﴿ والله يحيي ويميت ﴾ رد لقولهم الباطل ، إثر بيان غائلته . أي : هو المؤثر في الحياة والممات وحده ، من غير أن يكون للإقامة أو للسفر مدخل في ذلك ، فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازي مع اقتحامها لموارد الحتوف ، ويميت المقيم مع حيازته لأسباب السلامة . وعن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه قال عند موته : ما في موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وها أنا ذا أموت كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء ! : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ تهديد للمؤمنين في مماثلة من ذكر .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية أنه لا يجوز التشبه بالكفار . قال الحاكم : وقد يكون منه ما يكون كفرا . وفيها أيضا دلالة على أنه لا يسقط وجوب الجهاد بخشية القتل .

تنبيه :

أشعرت الآية بوجوب حفظ المنطق مما يشاكل ألفاظ المشركين من الكلمات المنافية للعقيدة الإسلامية كما ذكرنا . وقد عقد الإمام ابن القيم في " زاد المعاد " فصلا في هديه صلى الله عليه وسلم في حفظ النطق واختيار الألفاظ قال :

كان صلى الله عليه وسلم يتخير في خطابه ، ويختار لأمته أحسن ألفاظ وأجملها وألطفها ، وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والغلظة والفحش . إلى أن قال : ومن ذلك نهيه صلى الله عليه وسلم عن قول القائل بعد فوات الأمر : لو أني فعلت كذا وكذا . وقال : [(١)]. وأرشده إلى ما هو أنفع له من هذه الكلمة ، وهو أن يقول : قدر الله ، وما شاء فعل ، وذلك لأن قوله : لو كنت فعلت كذا وكذا لم يفتني ما فاتني أو لم أقع فيما وقعت فيه ، كلام لا يجدي عليه فائدة البتة . فإنه غير مستقبل لما استدبر من أمره ، وغير مستقيل عثرته بلو . وفي ضمن لو ادعاء أن الأمر لو كان كما قدره في نفسه ، لكان غير ما قضاه الله وقدره وشاءه ، فإن ما وقع مما يتمنى خلافه ، إنما وقع بقضاء الله وقدره ومشيئته . فإذا قال : لو أني فعلت كذا لكان خلاف ما وقع ، فهو محال ، إذ خلاف المقدر المقضي محال . فقد تضمن كلامه كذبا وجهلا ومحالا . وإن سلم من التكذيب بالقدر لم يسلم من معارضته بقوله : لو أني فعلت لدفعت ما قدر علي . فإن قيل : ليس في هذا رد للقدر ولا جحد له ، إذ تلك الأسباب التي تمناها أيضا من القدر ، فهو يقول : لو وفقت لهذا القدر لاندفع به عني ذلك القدر ، فإن القدر يدفع بعضه ببعض ، كما يدفع قدر المرض بالدواء ، وقدر الذنوب بالتوبة ، وقدر العدو بالجهاد ، فكلاهما من القدر . قيل : هذا حق ، ولكن هذا ينفع قبل وقوع القدر المكروه . وأما إذا وقع فلا سبيل إلى دفعه ، وإن كان له سبيل إلى دفعه أو تخفيفه بقدر آخر فهو أولى به من قوله : لو كنت فعلته ، بل وظيفته في هذه الحالة أن يستقبل فعله الذي يدفع به أو يخفف ، ولا يتمنى ما لا مطمع في وقوعه ، فإنه عجز محض ، والله يلوم على العجز ، ويحب الكيس ويأمر به . والكيس : هو مباشرة الأسباب التي ربط الله بها مسبباتها النافعة للعبد في معاشه ومعاده ، فهذه تفتح عمل الخير والأمر ، وأما العجز فإنه يفتح عمل الشيطان . فإنه إذا عجز عما ينفعه وصار إلى الأماني الباطلة بقوله : لو كان كذا وكذا ، ولو فعلت كذا ، يفتح عمل الشيطان ، فإن بابه العجز والكسل . ولهذا استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) إنها تفتح عمل الشيطان

منهما . وهو مفتاح كل شر ، ويصدر عنهما الهم والحزن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال . فمصدرها كلها عن العجز والكسل ، وعنوانها لو ، فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : [(١)]، فالمتمني من أعجز الناس وأفلسهم ، فإن المنى رأس أموال المفاليس ، والعجز مفتاح كل شر ، وأصل المعاصي كلها العجز ، فإن العبد يعجز عن أسباب أعمال الطاعات ، وعن الأسباب التي تعرضه عن المعاصي ، ويحول بينها وبينه ، فيقع في المعاصي .

فجمع في هذا الحديث الشريف ، في استعاذته صلى الله عليه وسلم أصول الشر وفروعه ومباديه وغاياته وموارده ومصادره . وهو مشتمل على ثمان خصال ، كل خصلتين منهما قرينتان فقال : [(٢)]، وهما قرينان . فإن المكروه الوارد على القلب ينقسم باعتبار سببه إلى قسمين : فإنه إما أن يكون سببه أمرا ماضيا ، فهو يحدث الحزن ، وإما أن يكون توقع أمر مستقبل ، فهو يحدث الهم ، وكلاهما من العجز . فإن ما مضى لا يدفع بالحزن ، بل بالرضاء والحمد والصبر والإيمان بالقدر ، وقول العبد : قدر الله وما شاء فعل . وما يستقبل لا يدفع أيضا بالهم . بل إما أن يكون له حيلة في دفعه فلا يعجز عنه ، وإما أن لا تكون له حيلة في دفعه ، فلا يجزع منه ، ويلبس له لباسه ، ويأخذ له عدته ، ويتأهب له أهبته اللائقة ، ويستجن بجنة حصينة من التوحيد والتوكل والانطراح بين يدي الرب تعالى ، والاستسلام له ، والرضا به ربا في كل شيء ، ولا يرضى به ربا فيما يحب دون ما يكره . فإذا كان هكذا لم يرض به ربا على الإطلاق ، فلا يرضاه الرب له عبدا على الإطلاق . . فالهم والحزن لا ينفعان العبد البتة ، بلا مضرتهما أكثر من منفعتهما ، فإنهما يضعفان العزم ، ويوهنان القلب ، ويحولان بين العبد وبين الاجتهاد فيما ينفعه ، ويقطعان عليه طريق السير ، أو ينكسانه إلى وراء ، أو يعوقانه ويقفانه ، أو يحجبانه عن العلم الذي كلما رآه شمر إليه وجد في سيره ، فهما حمل ثقيل على ظهر السائر ، بل إن عاقة الهم والحزن عن شهواته وإرادته التي تضره في معاشه ومعاده ، أنفع به من هذا الوجه ، وهذا من حكمة العزيز الحكيم ، أن سلط هذين الجندين على القلوب المعرضة عنه ، الفارغة من محبته وخوفه ورجائه والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، **والأنس به** ، والفرار إليه ، والانقطاع إليه ، ليردها بما يبتليها به من الهموم والغموم والأحزان ، والآلام القلبية ، عن كثير من معاصيها وشهواتها المردية . وهذه القلوب في سجن من الجحيم في هذه الدار . وإن أريد بها الخير ، كان حظها من سجن الجحيم في معادها ، ولا تزال في هذا السجن ، حتى تتخلص إلى فضاء التوحيد والإقبال على الله ، **والأنس به** ، وجعل محبته في محل دبيب خواطر القلب ووساوسه ، بحيث يكون ذكره تعالى وحبه وخوفه ورجاؤه والفرح به والابتهاج بذكره ، هو المستولي على القلب الغالب عليه ، الذي متى فقده ، فقد قوته ، الذي لا قوام له إلا به ، ولا بقاء له بدونه ، ولا سبيل إلى خلاص القلب من هذه الآلا م التي هي أعظم أمراضه وأفسدها له ، إلا بذلك ، ولا بلاغ إلا بالله وحده ، فإنه لا يوصل إليه إلا هو ، ولا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يصرف السيئات إلا هو ، ولا يدل عليه إلا هو ، وإذا أراد عبده لأمر هيأه له ، فمنه الإيجاد ، ومنه الإعداد ، ومنه الإمداد . وإذا أقامه في مقام ، أي : مقام كان فبحمده أقامه فيه ، وحكمته إقامته فيه ، ولا يليق به غيره ، ولا يصلح له سواه ، ولا مانع لما أعطى الله ، ولا معطي لما منع ، ولا يمنع عبده حقا هو للعبد ، فيكون بمنعه ظالما ، بل منعه

---

(١) فإن لو تفتح عمل الشيطان

(٢) أعوذ بك من الهم والحزن

ليتوسل إليه بمحابه ليعطيه ، وليتضرع إليه ويتذلل بين يديه ويتملقه ويعطي فقره إليه حقه ، بحيث يشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة فاقة تامة إليه ، على تعاقب الأنفاس . وهذا هو الواقع في نفس الأمر وإن لم يشهده ، فلم يمنع عبده ما العبد محتاج إليه بخلا منه ولا نقصان من خزائنه ولا استئثارا عليه بما هو حق للعبد . بل منعه ليرده إليه وليعزه بالتذلل له ، وليغنيه بالافتقار إليه ، وليجبره بالانكسار بين يديه ، وليذيقه بمرارة المنع ، حلاوة الخضوع ولذة الفقر . وليلبسه خلعة العبودية ، وليوليه بعزله أشرف الولايات ، وليشهده حكمته في قدرته ، ورحمته في عزته ، وبره ولطفه في قهره . وأن منعه عطاء وعزله تولية ، وعقوبته تأديب وامتحانه محبة وعطية ، وتسليط أعدائه عليه سائق يسوقه إليه . وبالجملة فلا يليق بالعبد غير ما أقيم فيه . وحكمته وحمده أقاماه في مقامه الذي لا يليق به سواه ولا يحسن أن يتخطاه ، انتهى .

ثم أشار تعالى إلى أن الموت في سبيل الله ليس مما يوجب الحسرة حتى يحذر منه . بل هو مما يوجب الفرح والسرور فقال :." (١)

"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ ثم إنهم لصالو الجحيم * ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ [١٦ - ١٧]

﴿ ثم إنهم لصالو الجحيم ﴾ أي : محترقون بها . وقد أشار القاشاني إلى سر ترادف هذه الجمل الكريمة ، بأن ما اكتسبوه من الذنوب لما صار كالصدأ على قلوبهم بالرسوخ فيها ، كدر جوهرها وغيرها عن طباعها ، فعندها تحقق الحجاب وانغلق باب المغفرة ، ولذلك قال :

﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ لامتناع قبول قلوبهم للنور ، وامتناع عودها إلى الصفاء الأول الفطري ، كالماء الكبريتي مثلا ؛ إذ لو روق أو صعد لما رجع إلى الطبيعة المائية المبردة ، لاستحالة جوهرها ، بخلاف الماء المسخن الذي استحالت كيفيته دون طبيعته ولهذا استحقوا الخلود في العذاب . وحكم عليهم بقوله :

﴿ ثم إنهم لصالو الجحيم ﴾ انتهى .

قال ابن القيم في " بدائع الفوائد " في هذه الآية ما مثاله : جمع لهم سبحانه بين العذابين عذاب الحجاب وعذاب النار ، فألم الحجاب يفعل في قلوبهم وأرواحهم نظير ما تفعله النار في أجسامهم ، كحال من حيل بينه وبين أحب الأشياء إليه في الدنيا ، وأخذ بأشد العذاب ، فإن أخص عذاب الروح أن تتعلق بمحبوب لا غنى لها عنه ، وهي ممنوعة من الوصول إليه ، فكيف إن حصل لها - مع تواري المحبوب عنها وطول احتجابه - بغضه لها ومقته وطرده وغضبه الشديد عليها ؟ فأي نسبة لألم البدن إلى هذا الألم الذي لا يتصوره إلا من بلي به أو بشيء منه ؟ فلو توهمت النفوس ما في احتجاب الله سبحانه عنها يوم لقائه من الألم والحسرة ، لما تعرضت لأسباب ذلك الاحتجاب . وأنت ترى المحبين في الدنيا لصورة ، منتهى حسنها إلى ما يعلم ، كيف يضجون من ألم احتجاب محبوبهم عنهم وإعراضه وهجره ؟ ويرى أحدهم كالموت أو أشد منه من بين ساعة ، كما قال :

وكنت أرى كالموت من بين ليلة فكيف ببين كان ميعاده الحشر

---

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، /

وإنما يتبين الحال في هذا بمعرفة ما خلقت له الروح وما هيئت له وما فطرت عليه ، وما لا سعادة لها ولا نعيم ولا حياة إلا بإدراكه .

فاعلم أن الله سبحانه خلق كل عضو من الأعضاء لغاية ومنفعة ، فكماله ولذته في أن يحصل فيه ما خلق له ، فخلق العين للإبصار ، والأذن للسمع ، والأنف للشم ، واللسان للنطق ، واليد للبطش ، والرجل للمشي ، والروح لمعرفته ومحبته والابتهاج بقربه والتنعم بذكره ، وجعل هذا كمالها وغايتها ، فإذا تعطلت من ذلك كانت أسوأ حالا من العين والأذن واللسان واليد والرجل التي تعطلت عما خلقت له ، وحيل بينها وبينه . بل لا نسبة لألم هذه الروح إلى ألم تلك الأعضاء المعطلة البتة ، بل ألمها أشد الألم ، وهو من جنس ألمها إذا فقدت أحب الأشياء إليها وأعزه عليها ، وحيل بينها وبينه ، وشاهدت غيرها قد ظفر بوصله وفاز بقربه ورضاه . والروح لا حياة لها ولا نعيم ولا سرور ولا لذة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودها وإلهها ومرادها ، الذي لا تقر عينها إلا بقربه **والأنس به** والعكوف بكليتها على محبته والشوق إلى لقائه ، فهذا غاية كمالها وأعظم نعيمها وجنتها العاجلة في الدنيا ، فإذا كان يوم لقائه كان أعظم نعيمها رفع الحجاب الذي كان يحجبها في الدنيا عن رؤية وجهه وسماع كلامه ، وفي حديث الرؤية : (١).

ثم قال : وكما جمع سبحانه لأعدائه بين هذين العذابين ، وهما ألم الحجاب وألم العذاب ، جمع لمحبيه بين نوعي النعيم : نعيم القرب والنظر ، ونعيم الأكل والشرب ، والنكاح والتمتع بما في الجنة ، في قوله :

﴿ ولقاهم نضرة وسرورا ﴾ [الإنسان : ١١] الآيات .

﴿ ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ أي : في الدنيا . قال الإمام : تبكيتا لهم وزيادة في التنكيل بهم ، فإن اشد شيء على الإنسان ، إذا أصابه مكروه أن يذكر وهو يتألم له : بأن وسائل النجاة من مصابه كانت بين يديه فأهملها ، وأسباب التقصي عنه كانت في مكنته فأغفلها .." (٢)

"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ﴾ [٣٠] .

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ أي : مقتضى إيمانكم الغض عما حرم الله تعالى النظر إليه : ﴿ ويحفظوا فروجهم ﴾ أي : عن الإفضاء بها إلى محرم ، أو عن الإبداء والكشف : ﴿ ذلك ﴾ أي : الغض والحفظ : ﴿ أزكى لهم ﴾ أي : أطهر للنفس وأتقى للدين : ﴿ إن الله خبير بما يصنعون ﴾ أي : بأفعالهم وأحوالهم . وكيف يجيلون أبصارهم ، وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم . فعليهم ، إذ عرفوا ذلك ، أن يكونوا منه على تقوى وحذر ، في كل حركة وسكون . أفاده الزمخشري .

تنبيهات :

الأول : قال السيوطي في " الإكليل " : في الآية تحريم النظر إلى النساء وعورات الرجال وتحريم كشفها . أخرج ابن أبي حاتم

---

(١) فوالله ما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إلى وجهه

(٢) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، /

عن أبي العالية : كل شيء في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزنى ، إلا هذه الآية والتي بعدها ، فهو أن لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ، ولا المرأة إلى عورة المرأة . انتهى .

وليس بمتعين . وعليه فيكون النهي عن الزنى يعلم منه بطريق الأولى . أو الحفظ عن الإبداء يستلزم الحفظ عن الإفضاء .

الثاني : إن قيل : لم أتى بمن التبعيضية في غض الأبصار وقيدها به دون حفظ الفروج ؟ مع أنه غير مطلق ومقيد في قوله تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴾ [٥ – ٦] ، لأن المستثنى في الحفظ هو الأزواج والسراري ، وهو قليل بالنسبة لما عداه . فجعل كالعدم ولم يقيد به . مع أنه معلوم من الآية الأخرى . بخلاف ما يطلق فيه البصر ، فإنه يباح في أكثر الأشياء ، إلا نظر ما حرم عن قصد . فقيد الغض به ومدخول من التبعيضية ينبغي أن يكون أقل من الباقي . وقيل : إن الغض والحفظ عن الأجانب . وبعض الغض ممنوع بالنسبة إليهم ، وبعضه جائز : بخلاف الحفظ فلا وجه لدخول من فيه . كذا في " العناية " .

الثالث : سر تقديم عض الأبصار على حفظ الفروج ، هو أن النظر بريد الزنى ورائد الفجور ، كما قال الحماسي :

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما ، أتعبتك المناظر

ولأن البلوى فيه أشد وأكثر . ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه . فبودر إلى منعه . ولأنه يتقدم الفجور في الواقع ، فجعل النظم على وفقه .

الرابع : غض البصر من أجل الأدوية لعلاج أمراض القلوب . وفيه حسم لمادتها قبل حصولها . فإن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس . ومن أطلق لحظاته ، دامت حسراته .

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في " الجواب الشافي " : في غض البصر عدة منافع :

أحدها : امتثال أمر الله هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده . وليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك و تعالى . وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة . إلا بامتثال أوامر ربه . وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره .

الثاني : أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم الذي لعل فيه هلاكه ، إلى قلبه .

الثالث : أنه يورث القلب أنسا بالله وجمعية على الله ، فإن إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته ويبعده من الله ، وليس على العبد شيء أضر من إلى إطلاق البصر . فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه .

الرابع : أنه يقوي القلب ويفرحه . كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه .

الخامس : أنه يكسب القلب نورا . كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة ، ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر . فقال : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ [٣٠] ، ثم قال إثر ذلك : ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ [٣٥] . أي : مثل نوره في قلب عبده المؤمن ، الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه . وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل جانب ، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان . فما شئت من بدعة وضلالة ، واتباع هوى واجتناب هدى ، وإعراض عن أسباب السعادة ، واشتغال بأسباب الشقاوة . فإن ذلك إنما

يكشفه له النور الذي في القلب . فإذا فقد ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس في حناديس الظلام .

السادس : أنه يورث الفراسة الصادقة التي يميز بها بين المحق والمبطل والصادق والكاذب . وكان شاه بن شجاع الكرماني يقول : من عمر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وغض بصره عن المحارم ، وكف نفسه عن الشهوات ، واعتاد أكل الحلال – لم تخطئ له فراسة .

وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة ، والله سبحانه يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله . ومن ترك شيئا لله عوضه خيرا منه ، فإذا غض بصره عن محارم الله ، عوضه بأن يطلق بصيرته عوضا عن حبسه بصره لله . ويفتح له باب العلم والإيمان والمعرفة ، والفراسة الصادقة المصيبة التي ، إنما تنال ببصيرة القلب . وضد هذا مما وصف الله به اللوطية من العمه الذي هو ضد البصيرة . فقال تعالى : : ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ [الحجر : ٧٢] ، فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل ، والعمه هو فساد البصيرة ، فالتعلق بالصور يوجب إفساد العقل ، وعمه البصيرة يسكر القلب ، كما قال القائل :

سكران : سكر هوى وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران ؟

وقال الآخر :

قالوا : جننت بمن تهوى فقلت لهم : العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين

السابع : أنه يورث القلب ثباتا وشجاعة وقوة . ويجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة ، وسلطان القدرة والقوة ، كما في الأثر : الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله . وضد هذا تجده في المتبع هواه ، من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها . وما جعل الله سبحانه فيمن عصاه . كما قال الحسن : إنهم وإن طقطقت بهم البغال ، وهملجت بهم البراذين ، فإن المعصية لا تفارق رقابهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه . وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته . والذل قرين معصيته ، فقال تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ [المنافقون : ٨] ، وقال تعالى : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ [آل عمران : ١٣٩] ، والإيمان قول وعمل ظاهر وباطن . وقال تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ [فاطر : ١٠] ، أي : من كان يريد العزة فليطبها بطاعة الله وذكره ، من الكلم الطيب ، والعلم الصالح . وفي دعاء القنوت : إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت . ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه . وله من العز بحسب طاعته ، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه . وله من الذل بحسب معصيته .

الثامن : أنه يسد على الشيطان مدخله من القلب . فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهوى في المكان الخالي ، فيمثل له صورة المنظور إليه ، يزينها ويجعلها صنما يعكف عليه القلب ، ثم يعده ويمنيه . ويوقد على القلب نار الشهوة ، ويلقي عليه حطب المعاصي ، التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة . فيصير القلب في اللهب ، فمن ذلك اللهب تلك الأنفاس التي يجد فيها وهج النار ، وتلك الزفرات والحرقات . فإن القلب قد أحاطت به نيران بكل جانب . فهو في وسطها كالشاة في وسط التنور ، ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة ، أن جعل لهم في

البرزخ تنور من نار ، وأودعت أرواحهم فيه ، إلى حشر أجسادهم ، كما أراها الله نبيه صلى الله عليه وسلم في المنام في الحديث المتفق على صحته .

التاسع : أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها . وإطلاق البصر يشتت عليه ذلك ويحول عليه بينه وبينها . فتنفرط عليه أموره ويقع في اتباع هواه وفي الغفلة عن أمر ربه ، قال تعالى : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ [الكهف : ٢٨] ، وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه .

العاشر : أن بين العين والقلب منفذا وطريقا يوجب انفعال أحدهما عن الآخر . وأن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده . فإذا فسد القلب فسد النظر . وإذا فسد النظر فسد القلب . وكذلك في جانب الصلاح . فإذا خربت العين وفسدت ، خرب القلب وفسد ، وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ . فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه **والأنس به** والسرور بقربه فيه . وإنما يسكن فيه أضداد ذلك . فهذه إشارة إلى بعض فوائد غض البصر ، تطلعك على ما وراءها . انتهى .

ثم أمر الله تعالى النساء بما أمر به الرجال . وزاد في أمرهن ، ما فرضه من رفض حالة الجاهلية المألوفة قبل لهن ، بقوله سبحانه :." (١)

"وتاسعها : أن أعظم النعمة الإقبال والتعبد، ولكل نعمة حاسد على قدرها ـ دقت أو جلت ـ ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فإن أنفس الحاسدين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد . وقد قال يعقوب ليوسف ـ عليهما السلام : ﴿ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ﴾ الآية [يوسف : ٥] . وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله ـ تعالى ـ قد تحدث بها،وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار؛ولهذا يوصى العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله ـ تعالى ـ ولا يطلع عليه أحد،والقوم أعظم شيئا كتمانا لأحوالهم مع الله ـ عز وجل ـ وما وهب الله من محبته **والأنس به** وجمعية القلب، ولاسيما فعله للمهتدى السالك فإذا تمكن أحدهم وقوى، وثبت أصول تلك الشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه ـ بحيث لا يخشى عليه من العواصف، فإنه إذا أبدى حاله مع الله ـ تعالى ـ ليقتدى به ويؤتم به ـ لم يبال . وهذا باب عظيم النفع إنما يعرفه أهله .

/ وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء،والمحبة والإقبال على الله ـ تعالى ـ فهو من عظيم الكنوز التى هى أحق بالإخفاء عن أعين الحاسدين، وهذه فائدة شريفة نافعة .

وعاشرها : أن الدعاء هو ذكر للمدعو ـ سبحانه وتعالى ـ متضمن للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه . فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمى دعاء لتضمنه للطلب، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (أفضل الدعاء الحمد لله) فسمى الحمد لله دعاء، وهو ثناء محض؛ لأن الحمد متضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب، فالحامد طالب للمحبوب، فهو أحق أن يسمى داعيا من السائل الطالب، فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب، فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن

---

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، /

يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذى هو دونه .
". (١)

" بعضها اعلى من بعض في المسافة او في التكرمة او في العذاب وباقي الآية وعد ووعيد وقوله تعالى لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم الآية اللام في لقد لام القسم ومن في هذه الآية معناه تطول وتفضل سبحانه وقد يقال من بمعنى كدر معروفه بالذكر فهي لفظة مشتركة وقوله من أنفسهم أي في الجنس والسان والمجاورة فكونه من الجنس يوجب **الأنس به** وكونه بلسانهم يوجب حسن التفهيم وكونه جارا وربيا يوجب التصديق والطمأنينة إذ قد خبروه وعرفوا صدقه وأمانته ثم وقف الله سبحانه المؤمنين على الخطأ في قلقهم للمصيبة التي نزلت بهم وإعراضهم عما نزل بالكفار فقال أو لما اصابتكم مصيبة أي يوم احد قد اصبتم مثليها أي يوم بدر إذ قتل من الكفار سبعون وأسر سبعون هذا تفسير ابن عباس والجمهور وقال الزجاج واحد المثلين هو قتل السبعين يوم بدر والثاني هو قتل اثنين وعشرين يوم احد ولا مدخل للإسرى لأنهم قد فدوا وانى معناها كيف ومن اين قل هو من عند انفسكم أي حين خالفتم النبي صلى الله عليه و سلم في الرأي حين رأى ان يقيم بالمدينة ويترك الكفار بشر محبس فأبيتم إلا الخروج وهذا هو تأويل الجمهور وقالت طائفة هو من عند أنفسكم إشارة إلى عصيان الرماةوتسبيبهم الهزيمة على المؤمنين وقال علي والحسن بل ذلك لما قبلوا الفداء يوم بدر وذلك أن الله سبحانه أخبرهم على لسان نبيه بين قتل الاسرى أو يأخذوا الفداء على ان يقتل منهم عدة الإسرى فاختاروا أخد الفداء ورضوا بالشهادة فقتل منهم يوم احد سبعون قلت وهذا الحديث رواه الترمذي عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال أحمد بن نصر الداودي وعن الضحاك أني هذا أي باي ذنب هذا قال ابن عباس قل هو من عند أنفسكم عقوبة لمعصيتكم لنبيكم عليه السلام اه ." (٢)

"أما قوله تعالى ومنهم من يقول ربنا ءاتنا فى الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا عذاب النار فالمفسرون ذكروا فيه وجوها أحدها أن الحسنة في الدنيا عبارة عن الصحة والأمن والكفاية والولد الصالح والزوجة الصالحة والنصرة على الأعداء وقد سمى الله تعالى الخصب والسعة في الرزق وما أشبهه (حسنة) فقال إن تصبك حسنة تسؤهم (التوبة ٥٠) وقيل في قوله قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين (التوبة ٥٢) أنهما الظفر والنصرة والشهادة وأما الحسنة في الآخرة فهي الفوز بالثوب والخلاص من العقاب وبالجملة فقوله ربنا ءاتنا فى الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة كلمة جامعة لجميع مطالب الدنيا والآخرة روى حماد بن سلمة عن ثابت أنهم قالوا لأنس ادع لنا فقال (اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) قالوا زدنا فأعادها قالوا زدنا قال ما تريدون قد سألت لكم خير الدنيا والآخرة ولقد صدق أنس فإنه ليس للعبد دار سوى الدنيا والآخرة فإذا سأل حسنة الدنيا وحسنة الآخرة لم يبق شيء سواه وثانيها أن المراد بالحسنة في الدنيا العمل النافع وهو الإيمان والطاعة والحسنة في الآخرة اللذة الدائمة والتعظيم والتنعم بذكر الله **وبالأنس به** وبمحبته وبرؤيته وروى الضحاك عن ابن عباس أن رجلا دعا ربه فقال في دعائه ربنا ءاتنا فى الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٢٣٦/٣
(٢) تفسير الثعالبي، ٣٣٠/١

عذاب النار فقال النبي عليه الصلاة والسلام (ما أعلم أن هذا الرجل سأل الله شيئا من أمر الدنيا فقال بعض الصحابة بلى يا رسول الله إنه قال (ربنا آتنا في الدنيا حسنة) فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إنه يقول آتنا في الدنيا عملا صالحا وهذا متأكد بقوله تعالى والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين (الفرقان ٧٤) وتلك القرة هي أن يشاهدوا أولادهم وأزواجهم مطيعين مؤمنين مواظبين على العبودية وثالثها قال قتادة الحسنة في الدنيا وفي الآخرة طلب العافية في الدارين وعن الحسن الحسنة في الدنيا فهم كتاب الله تعالى وفي الآخرة الجنة واعلم أن منشأ البحث في الآية أنه لو قيل آتنا في الدنيا الحسنة وفي الآخرة الحسنة لكان ذلك متناولا لكل الحسنات ولكنه قال فى الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا وهذا نكرة في محل الإثبات فلا يتناول إلا حسنة واحدة فلذلك اختلف المتقدمون من المفسرين فكل واحد منهم حمل اللفظ على ما رآه أحسن أنواع الحسنة

فإن قيل أليس أنه لو قيل آتنا الحسنة في الدنيا والحسنة في الآخرة لكان ذلك متناولا لكل الأقسام فلم ترك ذلك وذكر على سبيل التنكير

قلت الذي أظنه في هذا الموضع والعلم عند الله أنا بينا فيما تقدم أنه ليس للداعي أن يقول اللهم أعطني كذا وكذا بل يجب أن يقول اللهم إن كان كذا وكذا مصلحة لي وموافقا لقضائك وقدرك فأعطني ذلك فلو قال اللهم أعطني الحسنة في الدنيا والآخرة لكان ذلك جزما وقد بينا أنه غير جائز أما لما ذكر على سبيل التنكير فقال أعطني في الدنيا حسنة كان المراد منه حسنة واحدة وهي الحسنة التي تكون موافقة لقضائه وقدره ورضاه وحكمه وحكمته فكان ذلك أقرب إلى رعاية الأدب والمحافظة على أصول اليقين

أما قوله تعالى أولئك لهم نصيب مما كسبوا ففيه مسائل

المسألة الأولى قوله تعالى أولائك فيه قولان أحدهما إنه إشارة إلى الفريق الثاني فقط الذين." (١)

" صفحة رقم ٤٠٦

) إن استطاعوا) أي إلى ذلك سبيلا ، فأنتم أحق بأن لا تزالوا كذلك ، لأنكم قاطعون بأنكم على الحق وأنكم منصورون وأنهم على الباطل وهم مخذولون ؛ ولا بد وإن طال المدى لاعتمادكم على الله واعتمادهم على قوتهم ، ومن وكل إلى نفسه ضاع ؛ فالأمر الذي بينكم وبينهم أشد من الكلام فينبغي الاستعداد له بعدته والتأهب له بأهبته فضلا عن أن يلتفت إلى التأثر بكلامهم الذي توحيه إليهم الشياطين طعنا في الدين وصدا عن السبيل وشبههم التي أضلوا عليهم دينهم ولا أصل لها ، وفي الآية إشارة إلى ما وقع من الردة بعد موت النبي (صلى الله عليه وسلم) فإن القتال على الدين لم ينقض إلا بعد الفروغ من أمرهم .

قال الحرالي : الاستطاعة مطاوعة النفس في العمل وإعطاؤها الانقياد فيه ، ثم قال : فيه إشعار بأن طائفة ترتد عن دينها وطائفة تثبت ، لأن كلام الله لا يخرج في بته واشتراطه إلا لمعنى واقع لنحو ما ويوضحه تصريح الخطاب في قوله : (ومن يرتدد (إلى آخره ؛ وهو من الردة ومنه الردة وهو كف بكره لما شأنه الإقبال بوفق – انتهى .

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . ، ١٦١/٥

وكان صيغة الافتعال المؤذنة بالتكلف والعلاج إشارة إلى أن الدين لا يرجع عنه إلا بإكراه النفس لما في مفارقة الإلف من الألم ؛ وإجماع القراء على الفك هنا للإشارة غلى أن الحبوط مشروط بالكفر ظاهرا باللسان وباطنا بالقلب فهو مليح بالعفو عن نطق اللسان مع طمأنينة القلب ، وأشارت قراءة الإدغام في المائدة إلى أن الصبر أرفع درجة من الإجابة باللسان وإن كان القلب مطمئنا .

ولما حماهم سبحانه وتعالى بإضافة الدين إليهم بأنهم يريدون سلبهم ما اختاروه لأنفسهم لحقيته وردهم قهرا إلى ما رغبوا عنه لبطلانه خوفهم من التراخي عنهم حتى يصلوا إلى ذلك فقال : (ومن يرتدد منكم) أي يفعل ما يقصدونه من الردة) عن دينه (وعطف على الشرط قوله : (فيمت) أي فيتعقب ردته أنه يموت) وهو) أي والحال أنه) كافر (.

ولما أفرد الضمير على اللفظ نصا على كل فرد فرد جمع لأن إخزاء الجمع إخزاء لكل فرد منهم ولا عكس ، وقرنه بفاء السبب إعلاما بأن سوء أعمالهم هو السبب في وبالهم فقال : (فأولئك (البعداء البغضاء) حبطت أعمالهم) أي بطلت معانيها وبقيت صورها ؛ من حبط الجرح إذا برأ ونفي أثره .

وقال الحرالي : من الحبط وهو فساد في الشيء الصالح يأتي عليه من وجه يظن به صلاحه وهو في الأعمال بمنزلة البطح في الشيء القائم الذي يقعده عن قيامه كذلك الحبط في الشيء الصالح يفسده عن وهم صلاحه) في الدنيا (بزوال ما فيها من روح **الأنس بالله** سبحانه وتعالى ولطيف الوصلة به وسقوط إضافتها إليهم إلا مقرونة ببيان حبوطها فقط بطل ما كان لها من الإقبال من." (١)

" صفحة رقم ٤٤٦

ولما وعظه بما يمنعه من قتله ويقبل به على خلاص نفسه ، أعلمه ثانيا أن الخوف من الله منعه من أن يمانعه عن نفسه ملينا لقلبه بما هو جدير أن يرده عنه خشية أن ترجه الممانعة إلى تعدي الحد المأذون فيه ، لأن أخاه كان عاصيا لا مشركا ، فقال مؤكدا بالقسم لأن مثل ما يخبر به عظيم لا يكاد يصدق : (لئن بسطت إلي) أي خاصة) يدك لتقتلني) أي لتوجد ذلك بأي وجه كان ، ثم بالغ في إعلامه بامتناعه من الممانعة فقال : (ما أنا (وأغرق في النفي فقال : (بباسط) أي أصلا ، وقدم المفعول به تعميما ، ثم خص المتعلق لمناسبة الحال فقال : (يدي إليك لأقتلك) أي ي أي وقت من الأوقات ، ولعله أتى بالجملة الاسمية المفيدة لنفي الثبات والدوام أدبا مع الله في عدم الحكم على المستقبل ، ثم علله بقوله : (إني أخاف اله) أي استحضر جميع ما أقدر على استحضاره من كماله ، ثم وصفه بالإحسان إلى خلقه ليكون ذلك مانعا له من الإساءة إلى أحد منهم فقالك) رب العالمين) أي الذي أنعم عليها بنعمة الإيجاد ثم التربية ، فأنا لا أريد أن أخرب ما بنى ، وهذا كما فعل عثمان رضي الله عنه .

ولما كان من النهايات للواصلين إلى حضرات القدس ومواطن **الأنس بالله** ، المتمكنين في درجة الغناء عن غير الفاعل المختار أن لايراد إلا ما يريد سبحانه ، فإن كان طاعة أراده العبد ورضيه ، وإن كان معصية أراده من حيث إنه مراد الله ولم يرضه لكونه معصية ، فيرضى بالقضاء دون المقضي ، وكأنه من الممكن القريب أن يكون هابيل قد كشف له عن أنه سبق

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ١/٤٠٦

في علم الله أن أخاه يقتله ، قال مرهبا له معللا بتعليل آخر صاد له أيضا عن الإقدام على القتل : (إني أريد) أي بعدم الممانعة لك) إن تبوأ) أي ترجع من قتلي إن قتلتني) بإثمي) أي الإثم الذي ينالك من أجل قتلك لي ، وبعقوبته الذي من جملته أنه يطرح عليك من سيئاتي بمقدار ما عليك من حقي إذا لم تجد ما ترضيني به من الحسنات) وإثمك) أي الذي لا سبب لي فيه ، وهو الذي كان سببا لرد قربانك واجترائك علي وعدوانك ، وأفوز أنا بأجري وأجرك ، أي أجري الذي لا سبب لك فيه والأجر الذي أثمره استسلامي لك وكف يدي عنك) فتكون) أي أنت بسبب ذلك) من أصحاب النار) أي الخالدين فيها جزاء لك لظلمك بوضعك القتل في غير موضعه ، ثم بين أن هذا يعم كل من فعل هذا الفعل فقال : (وذلك جزاء الظالمين) أي الراسخين في وصف الظلم كلهم ، وأكون أنا من أصحاب الجنة جزاء لي بإحساني في إيثار حياتك لإرادة المعصية من حيث كونها معصية بإرادة ظهور الكفار ، لما علم من أن النصر بيد الله ، فهو قادر على نصر الباقي بعد استشهاد الشهيد .." (١)

" صفحة رقم ١٨٧

ولما أبطل شبهتهم بشعبيتها بالنسبة إلى الأشخاص المختلفة ، قرب ذلك بدليل واحد في شخص واحد فقال : (قل (يا أشرف الخلق لهؤلاء الجهلة الذين يظنون أن الرزق بحسب حسن السعي وقبحه أو حسن حال الشخص عند الله وقبحها : (إن ربي) أي المحسن إلي بهذا البيان المعجز) يبسط الرزق) أي متى شاء) لمن يشاء من عباده) أي على سبيل التجدد المستمر من أي طائفة كان) ويقدر وله) أي يضيق عليه نفسه في حالتين متعاقبتين ، وهو بصفة واحد على عمل واحد ، فلو أن الإكرام والإنعام يوجب الدوام لما تغيرت حاله من السعة إلى الضيق ، ولو أن في يده نفع نفسه لما اختلف حاله .

ولما بين هذا البسط أن فعله بالاختيار بعد أن بين بالأول كذبهم في أنه سبب للسلامة من النار .

دل على أنه الفاعل لا غيره بقوله : (وما أنفقتم من شيء) أي أنتم وأخصامكم وغيرهم) فهو يخلفه) أي لا غيره بدليل أن المنفق قد يجتهد كل الاجتهاد في الإخلاف فلا ينفق ، فدل ذلك على أنه المختص بالإخلاف ، ولأن هذا هو المعنى لا أنه ضمن الإخلاف لكل من ينفق على أي وجه كان ، قال مجاهد كما نقله الرازي في اللوامع : (إذا كان في يد أحدكم شيء فليقتصد ولا يتأول الآية ، فإن الرزق مقسوم ، وما عال من اقتصد) كما رواه الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا ، والمعنى أنه قد دل الإخلاف على جميع الأشكال والأضداد على أن الأمر فيه على غير ما ظننتم من الإسعاف به في وقت موجب للإكرام على الدوام ، وأن ذلك إنما هو لضمانه الرزق لكل أحد بحسب ما قسمه له من سبق به عمله وقدرته حكمته ، وتارة يكون إخلافه حسا وبالفعل ، وتارة يكون معنى وبالقوة ، بالترضية بتلك الحالة التي أدت إلى العدم ، قال القشيري : وهو أتم من السرور بالموجود ، ومن ذلك **الأنس بالله** في الخلوة ، ولا يكون ذلك إلا مع التجريد – انتهى .

والمنفق بالاقتصاد داخل إن شاء الله تعالى تحت قول (صلى الله عليه وسلم) فيما رواه الشيخان : البخاري ومسلم عن

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٢/٤٤٦

أبي هريرة رضي الله عنه قال الله تعالى : (أنفق أنفق عليك) وما روى الشيخان وابن حبان في صحيحه أيضا (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان يقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا) فهو خير الموسعين) وهو خير الرازقين) أي الذين تعدونهم هذا." (١)

" صفحة رقم ٦١٠

دائم الخذلان منكوسا في أكثر تقلباته بيد القهر والحرمان لسر قوله تعالى : (قاتلهم الله) أي أحلهم الملك المحيط علما وقدرة محل من يقاتله عدو قاهر له أشد مقاتلة على عادة الفعل الذي يكون بين اثنين .

ولما كان حالهم في غاية العجب في صرفهم عن الإسلام أولا بالعمى عن الآيات الظاهرات ، وثانيا عن الإخبار بأسرارهم ، وخفي مكرهم وأخبارهم ، وفي عدم صرفهم عما هم عليه من قبح السرائر وسوء الضمائر بتعكيس مقاصدهم ، وتخييب مصادرهم في مكارهم ومواردهم ، دل على ذلك بقوله : (أنى) أي كفي ومن أي وجه) يؤفكون) أي يصرفهم عن إدراك قبح ما هم عليه صارف ما كائنا ما كان ليرجعوا عنه إلى حسن الدين **والأنس به** وإدراك بركته وعظيم أثره .

ولما كان هذا أمرا عظيما قطعا عن الله ورسوله فيحتاد فاعله حاجة شديدة إلى التطهير وهو جدير بعظمه أن لا يطهره غاية الطهر إلا سؤال النبي (صلى الله عليه وسلم) وكانوا لم يفعلوا ذلك ، دل على سوء بواطنهم وغلظ أكبادهم وأنهم كالخشب المسندة في أنهم لا ثمرة لهم ولا زكاء أصلا بقوله : (وإذا قيل لهم) أي من أي قائل كان : (تعالوا) أي ارفعوا أنفسكم مجتهدين في ذلك بالمجيء إلى أشرف الخلق الذي لا يزال مكانه عاليا لعلو مكانته) يستغفر لكم) أي يطلب الغفران لأجلكم خاصة بعد أن تتولوا من ذنبكم من أجل هذا الكذب الذي أنتم مصرون عليه .

ولما تقدم عاملان ، أعمل الثاني منهما كما هو المختار من مذهب البصريين فرفع قوله : (رسول الله) أي أقرب الخلق إلى الملك الأعظم الذي لا شبيه لجوده) لووا رؤوسهم) أي فعلوا اللي بغاية الشدة والكثرة ، وهو الصرف إلى جهة أخرى إعراضا وعتوا وإظهارا للبغض والنفرة ، وبالغوا فيه مبالغة تدل على أنهم مغلوبون عليه لشدة ما في بواطنهم من المرض) ورأيتهم) أي بعين البصيرة) يصدون) أي يعرضون إعراضا قبيحا عما دعوا إليه مجددين لذلك كلما دعوا إليه ، والجملة في موضع المفعول الثاني لرأيت) وهم مستكبرون) أي ثابتوا الكبر عما دعوا إليه وعن إحلال أنفسهم في محل الاعتذار ، فهم لشدة غلظتهم لا يدركون قبح ما هم عليه ولا يهتدون إلى دوائه ، وإذا أرشدهم غيرهم ونبههم لا ينبهون ، فقد روي أنه لما نزل القرآن فيهم أتاهم شائرهم من المؤمنين وقالوا : ويحكم افتضحتم واهلكتم أنفسكم ، فأتوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتولوا إليه واسألوه أن يستغفر لكم ، فأبوا ذلك فأنزل الله هذه الآية ، وروي أن ابن أبي رأسهم لوى رأسه وقال لهم : أشرتم علي بالإيمان فآمنت وأشرتم علي بأن أعطي زكاة مالي ففعلت ، ولم يبق إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد . ولما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يحب صلاحهم فهو يحب أن يستغفر لهم ، وربما ندبه إلى ذلك." (٢)

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/١٨٧

(٢) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٧/٦١٠

"﴿ ٢٧ – ٢٩ ﴾ ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ .

يخبر تعالى أن الذين كفروا بآيات الله يتعنتون على رسول الله، ويقترحون ويقولون: ﴿ لَوْلا أُنزلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا فأجابهم الله بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي: طلب رضوانه، فليست الهداية والضلال بأيديهم حتى يجعلوا ذلك متوقفا على الآيات، ومع ذلك فهم كاذبون، ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴾

ولا يلزم أن يأتي الرسول بالآية التي يعينونها ويقترحونها، بل إذا جاءهم بآية تبين ما جاء به من الحق، كفى ذلك وحصل المقصود، وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها، فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا فلم يؤمنوا بها لعاجلهم العذاب.

ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذاتها.

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ أي: حقيق بها وحريٌّ أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء ألذ [ص ٤١٨] للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها، **والأنس به** ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له، يكون ذكرها له، هذا على القول بأن ذكر الله، ذكر العبد لربه، من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك.

وقيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين، فعلى هذا معنى طمأنينة القلوب بذكر الله: أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها، فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين، وبذلك تطمئن القلوب، فإنها لا تطمئن القلوب إلا باليقين والعلم، وذلك في كتاب الله، مضمون على أتم الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه فلا تطمئن بها، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام.

﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ وهذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله وتدبره، وتدبر غيره من أنواع العلوم، فإنه يجد بينها وبينه فرقا عظيما. ثم قال تعالى:." (١)

"قوله تعالى : ﴿ ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ﴾ [٢٨] قال : أصح الخلة ما لا يورث الندامة ، وليس ذلك إلا **الأنس بالله** تعالى ، والعزلة عن الخلق . وكان رسول الله A يلازم الخلوة لما فتح الله في قلبه من العلم ، فكان يحب التفكر فيه . وما من رجل حسنت صلاته إلا واستأنس به كل شيء . والرجل يكون نائما ، فيحركه من نومه أوقات الصلاة فينتبه ، وهذا من إخوانه من الجن قد استأنس به ، وربما يسافرون معه إذا سافر ، ويؤثرونه على أنفسهم ، وربما استأنس به الملائكة . وقد سأل رجل سهلا فقال : إني أريد أن أصحبك . فقال : إذا مات أحدنا فمن يصحب الباقي فليصحبه الآن . وكان الربيع بن خيثم جالسا على باب داره يوما ، فجاء حجر فصك جبهته فشجه ، وقال : لقد وعظت يا ابن خيثم ، فدخل منزله وأغلق الباب على نفسه ، فما رؤي جالسا مجلسه ذلك حتى مات .." (٢)

---

(١) تفسير السعدي، ص/٤١٧

(٢) تفسير التستري، ٣٦٤/١

"قوله تعالى : ﴿ والبيت المعمور ﴾ [٤] قال : ظاهرها ما حكى محمد بن سوار بإسناده عن ابن مسعود Bه قال : قال النبي A : « ليلة أسري بي إلى السماء رأيت البيت المعمور في السماء الرابعة ويروى السابعة يحجه كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون إليه بعده أبدا » الحديث بطوله . . . وباطنها القلب قلوب العارفين معمورة بمعرفته ومحبته ، **والأنس به** ، وهو الذي تحجه الملائكة لأنه بيت التوحيد .." (١)

"أخبر الحق سبحانه بإهلاك الظالمين ، كما في الخبر : « لو كان الظلم بيتا في الجنة لسلط الله عليه الخراب » . والظلم وضع الشيء في غير موضعه ، فإذا وضع العبد قصده– عند حوائجه – في المخلوقين ، وتعلق قلبه بهم في الاستعانة ، وطلب المأمول فقد وضع الشيء في غير موضعه ، وهو ظلم؛ فعقوبة هذا الظلم خراب القلب ، وهو انسداد طريق رجوع ذلك القلب إلى الله؛ لأنه لو رجع إلى الله لأعانه وكفاه ، ولكنه يصر على تعليق قلبه بالمخلوق فيبقى عن الله ، ولا ترتفع حاجته من غيره ، وكان من فقره وحاجته في مضرة . فإن صار إلى مضرة المذلة والحاجة إلى اللئيم فتلك محنة عظيمة .

وعلى هذا القياس إذا أحب مخلوقا فقد وضع محبته في غير موضعها ، وهذا ظلم ، وعقوبته خراب روحه لعدم صفاء وده ومحبته لله ، وذهاب ما كان يجده من **الأنس بالله** ، إذا بقي عن الله يذيقه الحق طعم المخلوقين ، فلا له مع الخلق سلوة ، ولا من الحق إلا الجفوة ، وعدم الصفوة .." (٢)

"قوله جل ذكره : ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت ﴾ .

التوكل تفويض الأمور إلى الله وحقه وأصله علم العبد بأن الحادثات كلها حاصلة من الله تعالى ، وأنه لا يقدر أحد على الإيجاد غيره .

فإذا عرف هذا فهو فيما يحتاج إليه – إذا علم أن مراده لا يرتفع إلا من قبل الله – حصل له أصل التوكل . وهذا القدر فرض ، وهو من شرائط الإيمان ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ [المائدة : ٢٣] وما زاد على هذا القدر – وهو سكون القلب وزوال الانزعاج والاضطرار – فهي أحوال تلحق بالتوكل على وجه كماله .

فإن تقرر هذا فالناس في الاكتفاء والسكون على أقسام ، ولكل درجة من هذه الأقسام اسم : إما من حيث الاشتقاق ، أو من حيث الاصطلاح .

فأول رتبة فيه أن يكتفي بما فيه يده ، ولا يطلب زيادة عليه ، ويستريح قلبه من طلب الزيادة . . وتسمى هذه الحالة القناعة ، وفيها يقف صاحبها حيث وقف ، ويقنع بالحاصل له فلا يستزيد ثم اكتفاء كل أحد يختلف في القلة والكثرة ، وراحة قلوب هؤلاء في التخلص من الحرص وإرادة الزيادة .

ثم بعد هذا سكون القلب في حالة عدم وجود الأسباب ، فيكون مجردا عن الشيء ، ويكون في إرادته متوكلا على الله . وهؤلاء متباينون في الرتبة ، فواحد يكتفي بوعده لأنه صدقه في ضمانه ، فيسكن – عند فقد الأسباب – بقلبه ثقة منه بوعد ربه . . ويسمى هذا توكلا ، ويقال على هذا : إن التوكل سكون القلب بضمان الرب ، أو سكون الجاش في طلب

---

(١) تفسير التستري، ٢/٧١

(٢) تفسير القشيري، ٣/٢٠٠

المعاش ، أو الاكتفاء بوعده عند عدم نقده ، أو الاكتفاء بالوعد عند فقد النقد .

وألطف من هذا أن يكتفي بعلم أنه يعلم حاله فيشتغل بما أمره الله؛ ويعمل على طاعته؛ ولا يراعي إنجاز ما وعده؛ بل يكل أمره إلى الله . . وهذا هو التسليم .

وفوق هذا التفويض ، وهو أن يكل أمره إلى الله . ولا يقترح على مولاه بحال ، ولا يختار؛ ويستوي عند وجود الأسباب وعدمها؛ فيشتغل بأداء ما ألزمه الله؛ ولا يفكر في حال نفسه؛ ويعلم أنه مملوك لمولاه؛ والسيد أول بعبده من العبد بنفسه .

فإذا ارتقى عن هذه الحالة وجد راحة في المنع؛ واستعذب ما يستقبله من الرد . . . وتلك هي مرتبة الرضا؛ ويصلح له في هذه الحالة من فوائد الرضا ولطائفه ما لا يحصل لمن دونه من الحلاوة في وجود المقصود .

وبعد هذا الموافقة؛ وهي ألا يجد الراحة في المنع ، بل يجد بدل هذا عند نسيم القرب زوائد الأنس بنسيان كل أرب ، ونسيان وجود سبب أو عدو وجود سبب؛ فكما أن حلاوة الطاعة تتصاغر عند برد الرضا – وأصحاب الرضا يعدون ذلك حجابا – فكذلك أهل **الأنس بالله** .." (١)

"من الخلف في الدنيا الرضا بالعدم والفقد ، وهو أتم من السرور بالموجود؛ ومن ذلك **الأنس بالله** في الخلوة؛ ولا يكون ذلك إلا مع التجريد .." (٢)

"قوله جل ذكره : ﴿ وءاخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾ .

أي بعثه في الأميين ، وفي آخرين منهم وهم العجم ، ومن يأتي . . إلى يوم القيامة؛ فهو A مبعوث إلى لناس كافة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشآء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

يقصد به هنا النبوة ، يؤتيها ﴿ من يشآء ﴾ ؛ وفي ذلك رد على من قال : إنها تستحق لكثرة طاعة الرسول – ورد على من قال : إنها لتخصيصهم بطينتهم؛ فالفضل ما لا يكون مستحقا ، والاستحقاق فرض لا فضل .

ويقال : ﴿ فضل الله ﴾ هنا هو التوفيق حتى يؤمنوا به .

ويقال : هو **الأنس بالله** ، والعبد ينسى كل شيء إذا وجد الأنس .

ويقال : قطع الأسباب ، – بالجملة – في استحقاق الفضل ، إذا أحاله على المشيئة .

قوله جل ذكره : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بئايات الله والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ﴿ ثم لم يحملوها ﴾ : ثم لم يعملوا بها .

ويلحق بهؤلاء في الوعيد – من حيث الإشارة– الموسومون بالتقليد في أي معنى شئت : في علم الأصول ، ومما طريقه أدلة العقول ، وفي هذه الطريقة مما طريقه المنازلات .

قوله جل ذكره : ﴿ قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أوليآء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾ .

---

(١) تفسير القشيري، ٣٨٩/٥

(٢) تفسير القشيري، ٣٠٧/٦

هذا من جلمة معجزاته A ، فصرف قلوبهم عن تمني الموت إلى هذه المدة دل على صدقه صلوات الله عليه .
ويقال : من علامات المحبة الاشتياق إلى المحبوب؛ فإذا كان لا يصل إلى لقائه إلا بالموت فتمنيه – لا محالة– شرط ، فأخبر أنهم لا يتمنونه أبدا . . وكان كما اخبر .." (١)

" قوله ١٦٤ – ﴿ لقد من الله على المؤمنين ﴾ جواب قسم محذوف وخص المؤمنين لكونهم المنتفعين ببعثته ومعنى ﴿ من أنفسهم ﴾ أنه عربي مثلهم وقيل : بشر مثلهم ووجه المنة على الأول : أنهم يفقهون عنه ويفهمون كلامه ولا يحتاجون إلى ترجمان ومعناها على الثاني : أنهم يأنسون به بجامع البشرية ولو كان ملكا لم يحصل كمال **الأنس به** لاختلاف الجنسية وقرئ ﴿ من أنفسهم ﴾ بفتح الفاء : أي من أشرفهم لأنه من بني هاشم وبنو هاشم أفضل قريش وقريش أفضل العرب والعرب أفضل من غيرهم ولعل وجه الامتنان على هذه القراءة أنه لما كان من أشرفهم كانوا أطوع له وأقرب إلى تصديقه ولا بد من تخصيص المؤمنين في هذه الآية بالعرب على الوجه الأول وأما على الوجه الثاني فلا حاجة إلى هذا التخصيص وكذا على قراءة من قرأ بفتح الفاء لا حاجة إلى التخصيص لأن بني هاشم هم أنفس العرب والعجم في شرف الأصل وكرم النجار ورفاعة المحتد ويدل على الوجه الأول قوله تعالى ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ﴾ وقوله ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ قوله ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ هذه منة ثانية أي : يتلو عليهم القرآن بعد أن كانوا أهل جاهلية لا يعرفون شيئا من الشرائع ﴿ ويزكيهم ﴾ أي : يطهرهم من نجاسة الكفر وهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى وهما في محل نصب على الحال أو صفة لرسول وهكذا قوله ﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾ والمراد بالكتاب هنا القرآن والحكمة : السنة وقد تقدم في البقرة تفسير ذلك ﴿ وإن كانوا من قبل ﴾ أي : من قبل محمد أو من قبل بعثته ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ أي : واضح لا ريب فيه واللام للفرق بين إن المخففة من الثقيلة وبين النافية فهي تدخل في خبر المخففة لا النافية واسمها ضمير الشأن أي : وإن الشأن والحديث وقيل : إنها النافية واللام بمعنى إلا : أي وما كانوا من قبل إلا في ضلال مبين وبه قال الكوفيون والجملة على التقديرين في محل نصب على الحال

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله تعالى ﴿ وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض ﴾ الآية قال : هذا قول عبد الله بن أبي سلول والمنافقين وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي نحوه وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ﴾ قال : يحزنهم قولهم ولا ينفعهم شيئا وأخرجوا عن قتادة في قوله ﴿ فبما رحمة من الله ﴾ يقول : فبرحمة من الله ﴿ لنت لهم ﴾ وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ لانفضوا من حولك ﴾ قال : لانصرفوا عنك وأخرج ابن عدي والبيهقي في الشعب قال السيوطي بسند حسن عن ابن عباس : قال لما نزلت ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [أما إن الله ورسوله لغنيان عنها ولكن الله جعلها رحمة لأمتي فمن استشار منهم لم يعدهم رشدا ومن تركها لم يعدم غيا] وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ قال : أبو بكر وعمر وأخرج ابن مردويه عن علي قال : [سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن العزم فقال : مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم] وأخرج

---

(١) تفسير القشيري، ٤٢٦/٧

عبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ﴿ وما كان لنبي أن يغل ﴾ في قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر فقال بعض الناس : لعل رسول الله صلى الله عليه و سلم أخذها فنزلت وأخرج البزار وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس ﴿ وما كان لنبي أن يغل ﴾ قال : ما كان لنبي أن يتهمه أصحابه وقد ورد في تحريم الغلول أحاديث كثيرة وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿ هم درجات عند الله ﴾ يقول : بأعمالهم وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة في قوله ﴿ لقد من الله على المؤمنين ﴾ الآية قالت : هذه للعرب خاصة ." (١)

"كلام ابن القيم في معنى قوله تعالى: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)

قال ابن القيم في بدائع الفوائد: في هذه الآية جمع لهم سبحانه وتعالى بين العذابين: عذاب الحجاب وعذاب النار، فألم الحجاب يجعل في قلوبهم وأرواحهم ألما نفسانيا، تتألم وتتعذب به قلوبهم وأرواحهم، نظير ما تفعله النار في أجسادهم، كحال من حيل بينه وبين أحب الأشياء إليه في الدنيا وأخذ بأشد العذاب.

يعني: جمع له هذان الأمران، فرق إلى الأبد بينه وبين أحب إنسان إليه في الدنيا، بالإضافة إلى ذلك عذب أشد العذاب، فجسمه في عذاب، وقلبه وروحه في عذاب، والعياذ بالله.

يقول: فإن أخطر عذاب الروح أن تتعلق بمحبوب لا غنى لها عنه، وهي ممنوعة من الوصول إليه، فكيف إن حصل لها مع غياب المحجوب عنها وطول احتجابه بغضه لها ومقته وطرده وغضبه الشديد عليها؟! ولذلك ف ابن القيم يريد أن يبين أن هذا الألم الذي يقع على القلوب والأرواح ألم نفسي أشد بكثير جدا مما يقع على الأبدان، ويزداد العذاب شدة عندما يتوارى هذا المحبوب ويطول احتجابه عنها.

يقول: فأي نسبة لألم البدن إلى هذا الألم الذي لا يتصوره إلا من بلي به أو بشيء منه، فلو توهمت النفوس ما في احتجاب الله سبحانه وتعالى عنها يوم لقائه من الألم والحسرة لما تعرضت لأسباب ذلك الاحتجاب.

يعني: لو أن الإنسان أعمل فكره وأخذ يتأمل كيف تكون حسرته إذا كان من المحجوبين عن الله تبارك وتعالى في ذلك اليوم، لاتقى أسباب هذا الاحتجاب؛ حتى لا يعذب هذا العذاب.

ثم يقول: وأنت ترى المحبين في الدنيا لصورة منتهى حسنها إلى ما يعلم -يعني إلى الموت-.

فالرجل العاشق مثلا لامرأة في غاية الجمال نهايتها الموت.

ناهيك عن الأمور الأخرى التي هي دون الموت.

يقول: وأنت ترى المحبين في الدنيا لصورة منتهى حسنها إلى ما يعلم، كيف يصيبهم من ألم احتجاب محبوبهم عنهم وإعراضه وهجره، ويرى أحدهم كالموت أو أشد منه من بين ساعة.

يعني: من فراق ساعة، فالبين هو الافتراق والابتعاد، أي: كل ما حصل هو فراق ساعة من الزمان، فهو يتألم ألما شديدا، كما يقول الشاعر يرثي أخاه لأمه: وكنت أرى كالموت من بين ليلة فكيف ببين كان ميعاده الحشر.

---

(١) فتح القدير، ١/٥٩٤

أقول لنفسي في الخلاء ألومها لك الويل ما هذا التذلل والصبر.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: وإنما يتبين الحال في هذا بمعرفة ما خلقت له الروح وما هيئت له، وما فطرت عليه، وما لا سعادة لها ولا نعيم ولا حياة إلا بإدراكه.

فاعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق كل عضو من الأعضاء لغاية ومنفعة، فكماله ولذته في أن يحصل فيه ما خلق له، فخلق العين للإبصار، والأذن للسمع، والأنف للشم، واللسان للنطق والذوق، واليد للبطش، والرجل للمشي، والروح لمعرفته ومحبته وللابتهاج بقربه والتنعم بذكره، وجعل هذا كمالها وغايتها، فإذا تعطلت من ذلك كانت أسوأ حالا من العين والأذن واللسان واليد والرجل التي تعطلت عما خلقت له وحيل بينها وبينه، بل لا نسبه لألم هذه الروح إلى ألم تلك الأعضاء المعطلة ألبتة، بل ألمها أشد الألم، وهو من جنس ألمها إذا فقدت أحب الأشياء إليها وأعزه عليها، وحيل بينها وبينه، وشاهدت غيرها قد ظفر بوصله وفاز بقربه ورضاه.

والروح لا حياة لها ولا نعيم ولا سرور ولا لذة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودها وإلهها ومرادها، الذي لا تقر عينها إلا بقربه **والأنس به**، والعكوف بكليتها على محبته والشوق إلى لقائه، فهذا غاية كمالها وأعظم نعيمها وجنتها العاجلة في الدنيا، فإذا كان يوم لقائه كان أعظم نعيمها رفع الحجاب الذي كان يحجبها في الدنيا عن رؤية وجهه وسماع كلامه.

يعني: الإنسان إذا عمر قلبه بمحبة الله سبحانه **والأنس به** ومعرفته، والعكوف على الشوق إليه، يعيش في الدنيا كأن في صدره جنة، ويرى من النعيم ما لا يوصف، كما قال العلماء في قوله تعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم﴾ [الانفطار:١٣ - ١٤]: فهذه عامة لا ينبغي تخصيصها بالنعيم في البرزخ ولا بالنعيم في الجنة، بل هي في الدور الثلاثة: في الدنيا، وفي البرزخ، وفي الجنة.

ولذلك كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يقول: ما يصنع أعدائي بي، جنتي في صدري، فأينما رحت فهي معي.

يقصد جنة العلم ومحبة الله عز وجل ومعرفته.

وقال بعض الصالحين: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من لذة النعيم لجالدونا عليه بالسيوف.

أي: لو ذاق الملوك وأبناء الملوك النعيم الذي نتمتع به في قلوبنا من ذكر الله ومعرفته **والأنس به** ومحبته عز وجل لجالدونا عليه بالسيوف، لكنهم لا يعلمون؛ لأنهم يتلهون بنعيم الدنيا ويرغبون عن ذلك النعيم الحقيقي.

فطريق السعادة أن تستقيم على مراد الله، كما قال بعض العلماء: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وهي جنة الرضا عن الله سبحانه وتعالى ومحبته.

والإنسان يشعر بهذا إذا ذاقه، أما إن كان مجرد خبر فإنه لا يوقن به كما لو ذاقه، كما يقول الصوفية: من ذاق عرف ومن حرم انحرف.

ثم يقول: والروح لا حياة لها ولا نعيم ولا سرور ولا لذة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودها وإلهها ومرادها، الذي لا تقر عينها إلا بقربه **والأنس به**، والعكوف بكليتها على محبته والشوق إلى لقائه، فهذا غاية كمالها وأعظم نعيمها وجنتها العاجلة في الدنيا، فإذا كان يوم لقائه كان أعظم نعيمها رفع الحجاب.

يعني: أعظم نعيم في الدنيا هو أن يعمر القلب بمحبة الله، وأعظم نعيم في الآخرة إذا قوبل المحبوب أن يرفع الحجب التي كانت في الدنيا بينه وبينه، كما قال النبي عليه السلام: (حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) ففي الآخرة يخلق المؤمن ويخلق أهل الجنة خلقا بحيث يتحملون رؤية الله تبارك وتعالى، أما في الدنيا فلا يمكن لأحد أن يرى الله: ﴿قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا﴾ [الأعراف:١٤٣] هذا الجبل الضخم القوي لم يتحمل فما قوة موسى عليه السلام بالنسبة للجبل؟! لما تجلى الله سبحانه وتعالى للجبل اندك تماما، فأراد الله أن يبين لموسى أنه بخلقته هذه في الدنيا لا يستطيع رؤيته سبحانه وتعالى، وأما في الآخرة فيخلقون خلقا جديدا بحيث يطيقون رؤية الله عز وجل، فالله لا يرى بهذه العين الفانية، وإنما يرى بخلق آخر يخلقه الله في جنة الرضوان، وحينئذ يكون أعظم نعيم في حقهم، بحيث إذا نعموا به يتلهون وينسون سائر ما في الجنة من نعيم، فرؤية الله سبحانه وتعالى في اليوم المهيب ورؤية وجهه الكريم وسماع كلامه هو أعظم نعيم على الإطلاق.

وفي حديث الرؤية يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (فو الله ما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إلى وجهه) فبعدا وسحقا لأولئك الكفرة الذين يعيرون المسلمين بأن دينهم يدعوهم إلى الجنة لينالوا فيها المتاع الحسي من الحور العين والأكل والشراب والفاكهة واللحم، وأن نبيهم يغريهم بالشهوات الجسدية، وهذا كله نابع عن جهلهم وحماقتهم وظلمة قلوبهم بالكفر، وهو ناتج عن غلوهم في تحريم الطيبات، فهم ينظرون إلى متع الحس على أنها نجس وخبث، حتى إن القذارة عندهم شيء طيب، والنظافة شيء خبيث ينفرون منه، فانعكس هذا على العقائد عندهم، فهم ليس عندهم شيء اسمه الجنة والنار بالتفاصيل التي نعرفها نحن، والتي امتن الله بها على هذه الأمة المحمدية المصطفاة، كما في كتابها القرآن الكريم وسنة نبيها عليه الصلاة والسلام، أما هؤلاء الضلال فأقصى شيء عندهم هو الدخول في الملكوت.

ما هو الملكوت؟ لا يعرفون عنه شيئا، ونحن امتن الله علينا بالقرآن وبالسنة فجاءت لنا بالتفاصيل لهذه الحياة الغيبية، حتى إننا لنعلم أكل أهل الجنة وملابس أهل الجنة وصفة الجنة وأشجارها وثمارها إلخ، كل هذا كي يكون محررا وقائدا للمؤمنين إلى السعي لنيل هذا النعيم.

ثم لماذا ينسى النعيم الحسي؟ أليس الإنسان مركبا من روح وجسد؟ والروح تتنعم والجسد أيضا يتنعم، فما الذي يستغربونه من هذا الفضل الرباني الإلهي؟ أيستبعدون أن ينعم الله الروح والجسد؟ ما الذي يستغربه هؤلاء الحمقى ويعيرون به المسلمين ويقولون: إن دينكم يغريكم بالشهوات؟ ثم ما جريمته إن كانت هذه خلقة الإنسان وهذه فطرة الإنسان؟ ومع ذلك فإن أعظم نعيم الجنة في الحقيقة هو النعيم الروحي، وليس الحسي، بدليل الأحاديث التي دلت على أن أهل الجنة إذا تجلى لهم الله سبحانه وتعالى ورأوه عز وجل فإنهم يتلهون عن كل ما في الجنة من ملذات، فينسون الحور العين وغيرها من الملذات، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام: (فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه).

والله سبحانه يقول: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ [التوبة:٧٢] فرضوان الله أكبر من نعيم الجنة الحسي وملذاتها، وقد عرفنا أن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما نلهم النفس، والإنسان إذا نام يبقى يتنفس، فكذلك أهل الجنة يلهمون التسبيح؛ لأنهم في دار ليست بدار تكليف وإنما هي دار جزاء، فلذلك لا يتعبدون بالتسبيح، كما هو الحال في الدنيا وإنما التسبيح يأتي بصورة لا إرادية.

ثم يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: وكما جمع الله سبحانه وتعالى لأعدائه بين هذين العذابين، وهما ألم الحجاب وألم العذاب. وهما في قوله تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾ [المطففين:١٥ - ١٦] فألم الحجاب أن يتحسر أهل النار حينما يكونون من المحجوبين عن الله، ولا أمل عندهم أن يروا الله سبحانه وتعالى، فاجتمع لهم ألم الحجاب وألم العذاب أي: عذاب النار.

يقول: فكما جمع الله سبحانه وتعالى لأعدائه بين هذين العذابين وهما: ألم الحجاب وألم العذاب، جمع لمحبيه بين نوعي النعيم: نعيم الخلد والنظر، ونعيم الأكل والشرب والتمتع بما في الجنة.

جمع الله لأهل الجنة." (١)

"خاتمة تفسير القاسمي لسورة البقرة

القاسمي رحمه الله تعالى ختم تفسير سورة البقرة باقتباس جميل جدا هو في الحقيقة في غاية الروعة، وما أشد مناسبته لختام سورة البقرة؛ لأنه جمع فيه الفضائل العظيمة جدا في القرآن، يقول رحمه الله تعالى: تأمل خطاب القرآن تجد ملكا له الملك كله وله الحمد، كله يثيب ويعاقب ويكرم ويهين ويخلق ويرزق ويحيي ويميت ويقدر ويقضي، ويدبر الأمور النازلة من عنده دقيقها وجليلها والصاعدة إليه، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه.

فتأمل كيف تجده يثني على نفسه، ويمجد نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وصلاحهم ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه، يذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويذكرهم ما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء، ويثني على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوقاتهم، ويذم أعداءه بسيئ أعمالهم وقبيح صفاتهم.

ويضرب الأمثال، وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويقول الحق، ويهدي السبيل، ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذر من دار البوار، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها.

ويذكر عباده بفقرهم إليه، وشدة حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكر لهم غناءه عن جميع الموجودات، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته، ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته.

وتشهد من خطابه عتابه لأحبابه بألطف عتاب، وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم، وغافر زلاتهم، ومقيم أعذارهم، ومذهب فسادهم، والدافع عنهم، والحامي لهم، والناصر لهم، والكفيل لمصالحهم، والمنجي لهم من كل كرب، والموفي لهم بوعده، وأنه وليهم الذي لا ولي لهم سواه، فهو مولاهم الحق وناصرهم على عدوهم، فنعم المولى ونعم النصير.

وإذا علمت القلوب من القرآن أن الله جواد رحيم جليل، هذا شأنه؛ فكيف لا تحبه، وتتنافس في القرب منه، وتنفق أنفاسها

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٩/١٨٩

في التودد إليه، ويكون أحب إليها من كل ما سواه، ورضاه آثر عندها من رضا كل من سواه؟! وكيف لا تلهج بذكره وتصير حبه والشوق إليه **والأنس به** هو رضاؤها وقوتها ودواؤها، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها؟! اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء حزننا، وأعنا على إكمال ما قصدناه بفضلك يا أرحم الراحمين!." (١)

"تفسير قوله تعالى: (إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا)

قال تعالى: ﴿إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾ [آل عمران:٣٥] ((إذ قالت امرأة عمران)) أي: اذكر إذ قالت امرأة عمران، واسمها: حنة، لما أسنت واشتاقت للولد فدعت الله عز وجل، فلما أحست بالحمل قالت: ﴿رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾ [آل عمران:٣٥].

(إني نذرت) أي: نذرت أن أجعل، (لك ما في بطني محررا).

يقول الزجاج: كان على أولادهم فرضا أن يطيعوهم في نذرهم، وهذا في شريعتهم، أي: لو أن الأب نذر ابنه للتفرغ لعبادة الله سبحانه وتعالى كان على الولد أن يطيع أباه في ذلك، فكان الرجل ينذر في ولده أن يكون خادما في مكان العبادة.

وقال القاضي أبو يعلى: والنذر في مثلما نذرت صحيح في شريعتنا، فإنه إذا نذر الإنسان إن ينشئ ولده الصغير على عبادة الله وطاعته وأن يعلمه القرآن والفقه وعلوم الدين صح مثل هذا النذر.

وانظر إلى قولها: ((ما في بطني)) ولذلك قدر السيوطي –وهذا من دقته في التفسير– في الجملة السابقة: ((إذ قالت امرأة عمران)) قال: لما أسنت واشتاقت للولد فدعت الله وأحست بالحمل، فقوله: أحست بالحمل، استنبطها من قولها: ((ما في بطني)) لأنها أحست بهذا الحمل.

((محررا)) أي: عتيقا خالصا من شواغل الدنيا لخدمة بيتك المقدس.

هذا التعبير في غاية الدقة في الحقيقة، فهو يتحرر من أن يعبد الدنيا، ويتذلل في طلبها؛ ليكون خالصا لعبادة الله وحده.

معنى قولها: ((نذرت لك ما في بطني محررا)) أي: نذرته وقفا على طاعتك، لا أشغله بشيء من أموري، فلم تطلب منه الاستئناس به، ولا ما يطمع الناس من أولادهم؛ لأن الناس يطمعون من وجود الذرية إشباع ما في الفطرة من الاستئناس بالأولاد، كذلك أيضا الاستنصار بهم، والاستعانة بهم، فهي تنازلت عن حظ نفسها من هذا الولد.

يقول العلماء: وهكذا على كل أحد إذا طلب ولدا أن يطلبه بالوجه الذي طلبت امرأة عمران وطلب زكريا حيث قال: ﴿رب هب لي من لدنك ذرية طيبة﴾ [آل عمران:٣٨] أي: صالحة.

وما سأل إبراهيم عليه السلام: ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ [الصافات:١٠٠].

وقال تعالى في دعاء عباد الرحمن: ﴿ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾ [الفرقان:٧٤] هبة من الله سبحانه وتعالى.

فهكذا الواجب أن يطلب الولد لا من أجل الاستئناس والاستنصار والاستعانة بأمر المعاش بهم، فانظر إلى امرأة عمران لما من الله تعالى عليها بالولد نظرت أن حظها من **الأنس به** متروك، فنذرته على خدمة الله تعالى في مكان العبادة، وهذا نذر

---

(١) تفسير القرآن الكريم – المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٢١/١٠

الأحرار من الأبرار.

قال القرطبي رحمه الله تعالى: وأرادت بقولها: ((محررا)) أي: محررا من رق الدنيا وأشغالها.

وهذه إشارة إلى أن من لا يشتغل بطاعة الله سبحانه وتعالى اشتغالا محضا فهو لا بد له من نوع من الاسترقاق لمطالب الدنيا ومآربها، ويشبه هذا ما حكاه القرطبي أيضا عن رجل من العباد أنه قال لأمه: يا أمه! ذريني لله أتعبد له وأتعلم العلم، فقالت: نعم، فسار حتى تبصر، ثم عاد إليها فدق الباب، فقالت: من؟ فقال لها: ابنك فلان، قالت: قد تركناك لله ولا نعود فيك.

هذه القصة قد يكون فيها شيء من النظر.

و ((محررا)) كما ذكرنا مأخوذ من الحرية، والحرية ضد العبودية، ومن هذا تحرير الكتاب، يقال: الكتاب الفلاني حرره المصنف الفلاني، وخلصه من الاضطراب والفساد، والمحرر: هو الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا، تقول: طين حر، أي طين لا رمل فيه، وهناك عبارة مشهورة عند الناس يقولون: ذهب حر، أي: لم يخالطه النحاس ولا غيره.

((فتقبل مني))، التقبل: هو أخذ الشيء على وجه الرضا.

((إنك أنت السميع)) أي: السميع للدعاء، والمقصود بالسميع هنا هو المجيب، كما تقول في الصلاة: سمع الله لمن حمده، يعني: أجاب الله سبحانه وتعالى.

((العليم)) أي: بالنيات.." (١)

"أهمية الحرص على الوقت وعدم تضييع وقت الآخرين

على الإنسان إذا دعي إلى طعام ألا يكون ضيفا ثقيلا على من يذهب إليه، فإذا دعاك إنسان إلى طعام تذهب في وقت الدعوة الذي حدده المضيف وليس قبل هذا الوقت.

وعلى الإنسان أن يفي بوعده، وأن يلتزم بالمواعيد، فوقت المسلم غال، يقضي وقته في ذكر الله عز وجل، يقضيه في قضاء حوائجه، يقضيه في عمله، يقضيه مع أهله وأولاده، يقضيه في صلاة، يقضيه في عبادة، فعلى كل إنسان أن يراعي وقت الآخر، وإذا كان يريدك لحاجة لا تقل: دعوه ينتظر! وبعض الناس قد يزور آخر في وقت متأخر من الليل، فيضيع عليه عمل اليوم التالي أو يضيع عليه صلاة الليل، فهذا ما عرف قيمة الوقت.

فانظروا إلى هذه الآية كيف تؤدب الصحابة إذا دعوا إلى طعام، حتى لا يضيعوا وقت النبي صلى الله عليه وسلم، وإذا أكلوا ينصرفون ولا يستأنسون لحديث، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان طيب العشرة، وكان لا يواجه أحدا بما يكره، دخل عليه رجل فقال وهو داخل: (بئس أخو العشيرة)، فعندما جلس إذا بالنبي صلى الله عليه وسلم يتكلم معه ويتبسط معه ويضحك معه، صلوات الله وسلامه عليه.

فربنا يؤدب المؤمنين والنبي صلى الله عليه وسلم إذا كان يؤانسك بالحديث ليس معنى هذا أنك تجلس وتأخذ راحتك وتضايق النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث﴾ [الأحزاب:٥٣]، فعلى الضيف إذا

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٢٢/٢٣

دعي إلى الطعام أن يذهب في الموعد الذي حدد له، لا بعده ولا قبله، فإذا فرغ من الطعام فلينصرف ولا يجلس إلا أن يمسك به صاحب البيت، ويصر على مكثه فهذا أمر آخر، ولكن دائما عود نفسك إذا دعاك إنسان ألا تمكث بعد الطعام كثيرا، حتى لا تضايق صاحب البيت، ولا تضطره أن يقول لك: ورائي شغل، ورائي كذا، أريد أن أنام، فتحرج صاحب البيت في ذلك.

قال ربنا سبحانه: ﴿فإذا طعمتم﴾ [الأحزاب:٥٣] أي: أكلتم ﴿فانتشروا ولا مستأنسين﴾ [الأحزاب:٥٣] من الأنس، والأنس: ضد الوحشة، فالأنس يكون بالمحادثة اللطيفة، وبطيب المجلس، وبطيب المعاشرة.

فالمعنى: حتى لو بدا لك من النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فلا تستأنس بحديث، وتعود لتسأله عن شيء وراء شيء، وتتكلم وتطيل المجلس، وهذا أدب للصحابة وغيرهم أولى بهذا الأدب.

فعلى الإنسان أن يتأدب بهذا الأدب، فإذا أدخلك إنسان بيته لطعام فلا تطل في الكلام معه، فهو قد يريد أن يقوم من الليل، يريد أن يصلي الفجر، يريد أن يحضر الدروس، يحترم بعضنا وقت بعض، فالوقت عظيم جدا، الوقت فرصة عمرك ولن يعوض مرة ثانية، فلا تضيع وقتك ولا وقت غيرك، فالوقت غال جدا، الوقت هو عمرك، الوقت كالذهب، الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، الوقت عظيم، إذا ذهب لا يعوض أبدا، فلا تضيع وقتك ولا وقت غيرك.

فعلينا أن نراعي هذا الأدب الذي علمناه الله تبارك وتعالى، وهو أدب الضيافة، وأدب الحديث، وعدم الإكثار من السؤال، وعدم تضييع أوقات الناس، إذا رأيت أخاك في المسجد يقرأ القرآن لا تقل له: تعال نتكلم قليلا وتشغله عن القرآن، فالقرآن أعظم الأشياء، دعه يقرأ القرآن ويتقرب إلى الله سبحانه وتعالى.

وإذا رأيت إنسانا جالسا في المسجد من الفجر إلى الشروق من أجل أن يذكر الله، ويعمل بحديث: (من صلى الفجر في جماعة ثم جلس في مصلاه يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كتب له أجر عمرة تامة تامة تامة)، فلا تجلس لتكلمه وتضيع عليه أجر العمرة التامة.

عود نفسك أن تستأنس بالله تبارك وتعالى، كثير من الناس لا يعرف هذا الشيء؛ فإذا جلس وحده لذكر الله يمل بسرعة؛ لكن إذا جلس يتكلم مع غيره فقد يجلس ساعات، فعود نفسك على **الأنس بالله** سبحانه، وأن تجلس وتتفكر في الله سبحانه، إذا سبحت تتأمل في معنى التسبيح، إذا حمدت الله سبحانه تتفكر في معنى الحمد، ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ [إبراهيم:٧].

عود نفسك على الخلوة مع الله تبارك وتعالى، وسيأتي رمضان وكثير منكم سيعتكف، لكن قد تجد الاعتكاف يتحول إلى سمرة، تراهم ساهرين يتكلمون، والنهار يضيعونه في النوم، وهكذا تضيع الأيام من غير فائدة كبيرة.

فلنعود أنفسنا على الخلوة مع الله تبارك وتعالى، ونكثر من ذلك، وأهل الجنة يلهمون التسبيح كما نلهم النفس، فأهل الجنة متعتهم تسبيح الله تبارك وتعالى، فالذاكر يستمتع في الدنيا بذكر الله سبحانه فيمتعه الله عز وجل به في الجنة، نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من أهلها.." (١)

---

(١) تفسير أحمد حطيبة، أحمد حطيبة ٤/٢٨٧

"[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٢٨]

يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا (٢٨)

قوله تعالى: ليتني لم أتخذ فلانا خليلا [٢٨] قال: أصح الخلة ما لا يورث الندامة، وليس ذلك إلا **الأنس بالله** تعالى، والعزلة عن الخلق. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلازم الخلوة لما فتح الله في قلبه من العلم، فكان يحب التفكر فيه. وما من رجل حسنت صلاته إلا واستأنس به كل شيء. والرجل يكون نائما، فيحركه من نومه أوقات الصلاة فينتبه، وهذا من إخوانه من الجن قد استأنس به، وربما يسافرون معه إذا سافر، ويؤثرونه على أنفسهم، وربما استأنس به الملائكة.

وقد سأل رجل سهلا فقال: إني أريد أن أصحبك. فقال: إذا مات أحدنا فمن يصحب الباقي فليصحبه الآن. وكان الربيع بن خيثم جالسا على باب داره يوما، فجاء حجر فصك جبهته فشجه، وقال: لقد وعظت يا ابن خيثم، فدخل منزله وأغلق الباب على نفسه، فما رؤي جالسا مجلسه ذلك حتى مات «١» .

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٥٨]

وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا (٥٨)

قوله: وتوكل على الحي الذي لا يموت [٥٨] سئل ابن سالم عن التوكل والكسب بأيهما تعبد الخلق؟ قال: التوكل حال الرسول صلى الله عليه وسلم، والكسب سنته. وإنما استن الكسب لهم لضعفهم حين أسقطوا عن درجة التوكل الذي هو حاله، فلم يسقطهم عن درجة طلب المعاش بالكسب الذي هو سنته، ولولا ذلك لهلكوا «٢» . قال سهل: من طعن في الكسب فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان «٣» .

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٦٣ الى ٦٤]

وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (٦٣) والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما (٦٤)

قوله: وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما [٦٣] أي صوابا من القول وسدادا.

وقال الحسن البصري رحمه الله: هذا دأبهم في النهار، فإذا دخل الليل كانوا كما وصف الله في آخر الآية: والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما [٦٤] .

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٧٠]

إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما (٧٠)

قوله: إلا من تاب [٧٠] قال: لا تصح التوبة لأحدكم حتى يدع الكثير من المباح، مخافة أن يخرجه إلى غيره، كما قالت عائشة رضي الله عنها: اجعلوا بينكم وبين الحرام سترا من الحلال، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعنا بعد الطهر ثلاثا حتى تذهب فورة الدم.

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٧٢]

والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما (٧٢)

قوله: والذين لا يشهدون الزور [٧٢] قال: الزور مجالس المبتدعين.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) صفوة الصفوة ٣/ ٦٧ وشعب الإيمان ٦/ ٢٦٤.

(٢) الحلية ١٠/ ٣٧٨- ٣٧٩ وطبقات الصوفية ١/ ٣١٢ وتلبيس إبليس ١/ ٣٤٤.

(٣) الحلية ١٠/ ١٩٥ وقوت القلوب ٢/ ٩ وتلبيس إبليس ١/ ٣٤٤.." (١)

"السورة التي يذكر فيها الطور

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ٤ الى ٥]

والبيت المعمور (٤) والسقف المرفوع (٥)

قوله تعالى: والبيت المعمور [٤] قال: ظاهرها ما حكى محمد بن سوار بإسناده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليلة أسري بي إلى السماء رأيت البيت المعمور في السماء الرابعة- ويروى السابعة- يحجه كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون إليه بعده أبدا» «١» الحديث بطوله ... وباطنها القلب قلوب العارفين معمورة بمعرفته ومحبته، **والأنس به**، وهو الذي تحجه الملائكة لأنه بيت التوحيد.

قوله تعالى: والسقف المرفوع [٥] هو العمل المرضي الذي لا يراد به جزاء إلا الله تعالى.

[سورة الطور (٥٢) : آية ٢٦]

قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين (٢٦)

قوله تعالى: إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين [٢٦] قال: أي خائفين وجلين من سوء القضاء وشماتة الأعداء.

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ٤٨ الى ٤٩]

واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم (٤٨) ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم (٤٩)

قوله تعالى: واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا [٤٨] يعني ما ظهر على صفاتك من فعل وقدرة يتولى جملتك بالرعاية والكلاية والرضى والمحبة والحراسة من الأعداء.

قوله تعالى: وسبح بحمد ربك حين تقوم [٤٨] قال: يعني صل المكتوبة بالإخلاص لربك حين تقوم إليها.

---

(١) تفسير التستري سهل التستري ص/١١٤

قوله تعالى: ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم [٤٩] قال: يعني لا تغفل عن ذكر من لا يغفل عن برك وحفظك في كل الأوقات صباحا ومساء.
والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) صحيح مسلم رقم ١٦٣.." (١)

"وهو ظلم فعقوبة هذا الظلم خراب القلب، وهو انسداد طريق رجوع ذلك القلب إلى الله لأنه لو رجع إلى الله لأعانة وكفاه، ولكنه يصر على تعليق قلبه بالمخلوق فيبقى عن الله، ولا ترتفع حاجته من غيره، وكان من فقره وحاجته فى مصرة. فإن صار إلى مضرة المذلة والحاجة إلى اللئيم فتلك محنة عظيمة.
وعلى هذا القياس إذا أحب مخلوقا فقد وضع محبته فى غير موضعها، وهذا ظلم وعقوبته خراب روحه لعدم صفاء وده ومحبته لله، وذهاب ما كان يجده من **الأنس بالله**، إذا بقي عن الله يذيقه الحق طعم المخلوقين، فلا له مع الخلق سلوة، ولا من الحق إلا الجفوة، وعدم الصفوة.
قوله جل ذكره:

[سورة يونس (١٠) : آية ١٤]
ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون (١٤)
عرفناكم بسر من قبلكم، وما أصابهم بسبب ذنوبهم، فإذا اعتبرتم بهم نجوتم، ومن لم يعتبر بما سمعه اعتبر به من تبعه.
ويقال أحللنا بهم من العقوبة ما يعتريكم، ومن لم يعتبر بمن سبقه اعتبر به من لحقه.
قوله جل ذكره:

[سورة يونس (١٠) : آية ١٥]
وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم (١٥)
إذا اقترحوا عليك بأن تأتيهم بما لم نأمرك به، أو تريهم ما لم نظهر عليك من الآيات..

---

(١) تفسير التستري سهل التستري ص/١٥٥

فأخبرهم أنك غير مستقل بك، ولا موكول إليك فنحن القائم عليك، المصرف لك، وأنت المتبع لما نجريه عليك غير مبتدع لما يحصل منك.." (١)

"وبعد هذا الموافقة وهى ألا يجد الراحة فى المنع، بل يجد بدل هذا عند نسيم القرب زوائد الأنس بنسيان كل أرب، ونسيان وجود سبب أو عدم وجود سبب فكما أن حلاوة الطاعة تتصاغر عند برد الرضا- وأصحاب الرضا يعدون ذلك حجابا- فكذلك أهل **الأنس بالله**.. بنسيان كل فقد ووجد، وبالتغافل عن أحوالهم فى الوجود والعدم يعدون النزول إلى استلذاذ المنع، والاستقلال بلطائف الرضا نقصانا فى الحال.

ثم بعد هذا استيلاء سلطان الحقيقة فيؤخذ العبد عن جملته بالكلية، والعبارة عن هذه الحالة أنه يحدث الخمود والاستهلاك والوجود والاصطلام والفناء.. وأمثال هذا، وذلك هو عين التوحيد، فعند ذلك لا أنس ولا هيبة، ولا لذة ولا راحة، ولا وحشة ولا آفة.

هذا بيان ترتيبهم «١» . فأما ما دون ذلك فالخبر عن أحوال المتوكلين- على تباين شربهم- يختلف على حسب اختلاف محالهم.

فيقال شرط التوكل أن يكون كالطفل فى المهد لا شيء من قبله إلا أن يرضعه من هو فى حضانته «٢» .

ويقال التوكل زوال الاستشراف، وسقوط الطمع، وفراغ القلب من تعب الانتظار.

ويقال التوكل السكون عند مجارى الأقدار على اختلافها.

ويقال إذا وثق القلب بجريان القسمة لا يضره الكسب، ولا يقدح فى توكله «٣» .

ويقال عوام المتوكلين إذا أعطوا شكروا، وإذا منعوا صبروا. وخواصهم إذا أعطوا آثروا، وإذا منعوا شكروا.

---

(١) هذا الترتيب الذي ذكره القشيري على جانب كبير من الأهمية لأنه أولا يكشف عن التدرج في مراتب التوكل واحدة بعد الأخرى، والدقائق النفسية المرتبطة بكل منها، كما أنه يكشف عن مرحلة الانتقال من المقامات- التي هى جهود- إلى الأحوال التي هى من عين الجود. وواضح أن (الرضا) يحمل فى طياته طبيعة هذه المرحلة الانتقالية، وقد عالج القشيري هذه الظاهرة فى رسالته ص ٩٧.

(٢) القشيري متأثر بأقوال الشيوخ فى ذلك: نحو (المتوكل كالطفل لا يعرف شيئا يأوى إليه إلا ثدى أمه (الرسالة ص ٨٥ وقولهم) (الصوفية أطفال فى حجر الحق) الرسالة ص ١٣٩.

(٣) هذه نقطة هامة جدا توضح أن التوكل الصوفي الحق لا يتعارض مع الكسب، ولا يتعارض معه الكسب.. وقد كذب من ادعى التواكل وكذب من اتهم الصوفية بالتكاسل.." (٢)

---

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري القشيري، عبد الكريم ٨٤/٢

(٢) لطائف الإشارات = تفسير القشيري القشيري، عبد الكريم ٦٤٥/٢

"قوله جل ذكره:

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٣٧]
وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون (٣٧)
لا تستحق الزلفى عند الله بالمال والأولاد، ولكن بالأعمال الصالحة والأحوال الصافية والأنفاس الزاكية، بل بالعناية السابقة، والهداية اللاحقة، والرعاية الصادقة، فأولئك لهم جزاء الضعف: يضاعف على ما كان لمن تقدمهم من الأمم «وهم في الغرفات آمنون» من تكدر الصفوة والإخراج من الجنة.
قوله جل ذكره:

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٣٨]
والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون (٣٨)
هم الذين لا يحترمون الأولياء، ولا يراعون حق الله في السر، فهم في عذاب الاعتراض على أولياء الله، وعذاب الوقوع بشؤم ذلك في ارتكاب محارم الله، ثم في عذاب السقوط من عين الله.
قوله جل ذكره:

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٣٩]
قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين (٣٩)
من الخلف في الدنيا الرضا بالعدم والفقد، وهو أتم من السرور بالموجود «١» ومن ذلك **الأنس بالله** في الخلوة ولا يكون ذلك إلا مع التجريد.
قوله جل ذكره:

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٤٠]
ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون (٤٠)
قوم كانوا يعبدون الملائكة فيختبرهم عنهم فيتبرأون منهم وينزهون الله ويسبحونه،

---

(١) استعمل القشيري هنا كلمة (الموجود) بالميم وكان المفروض حسب السياق أن يستعمل (الوجود) ، وبهذا يتأيد رأينا في هامش سابق أن من الخير قصر اصطلاح (الوجود) على الوجود الحق.." [١]

---

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري القشيري، عبد الكريم ١٨٥/٣

"أي بعثه في الأميين، وفي آخرين منهم وهم العجم، ومن يأتى.. إلى يوم القيامة فهو صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى الناس كافة.

قوله جل ذكره:

[سورة الجمعة (٦٢) : آية ٤]

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٤)

يقصد به هنا النبوة، ويؤتيها «من يشاء» وفي ذلك رد على من قال: إنها تستحق لكثرة طاعة الرسول- ورد على من قال: إنها لتخصيصهم بطينتهم فالفضل ما لا يكون مستحقا، والاستحقاق فرض «١» لا فضل.

ويقال: «فضل الله» هنا هو التوفيق حتى يؤمنوا به.

ويقال: هو **الأنس بالله**، والعبد ينسى كل شيء إذا وجد الأنس.

ويقال: قطع الأسباب، - بالجملة- فى استحقاق الفضل، إذ أحاله على المشيئة.

قوله جل ذكره:

[سورة الجمعة (٦٢) : آية ٥]

مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين (٥)

«ثم لم يحملوها» : ثم لم يعملوا بها.

ويلحق بهؤلاء «٢» فى الوعيد- من حيث الإشارة- الموسومون «٣» بالتقليد في أي

---

(١) هكذا في ص وهي في م (فرد) وهي خطأ في النسخ إذ المقصود أنه منحه الاستحقاق فضلا منه لا (فرضا) عليه فلا وجوب على الله- كما نعرف من مذهب القشيري.

(٢) أي باليهود الذين لا فائدة لهم فيما يحملون من الكتب، فهى تبشر بمحمد، وهم يجحدون به.

(٣) هكذا في ص وهي في م (المؤمنون) .." [1]

"والرضوان: مصدر، وقرأه عاصم- فيما روي عنه- بضم الراء- وقرأ جميعهم بكسرها، وحكى أبو عمرو الداني عن الأعمش، أنه قرأها- بكسر الراء وضم الضاد، وهذا كله بمعنى واحد مصدر من الرضى، والمعنى، اتبعوا الطاعة الكفيلة برضوان الله، ففي الكلام حذف مضاف، وباء بسخط- معناه: مضى متحملا له، والسخط: صفة فعل، وقد تتردد متى لحظ فيها معنى الإرادة، وقال الضحاك: إن هذه الآية مشيرة إلى أن من لم يغل واتقى فله الرضوان، وإلى أن من غل وعصى

---

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري القشيري، عبد الكريم ٥٨٣/٣

فله السخط، وقال غيره: هي مشيرة إلى أن من استشهد- بأحد- فله الرضوان، وإلى المنافقين الراجعين عن النبي صلى الله عليه وسلم فلهم السخط، وباقي الآية بين.

واختلف المفسرون في قوله تعالى: هم درجات من المراد بذلك؟ فقال ابن إسحاق وغيره:

المراد بذلك الجمعان المذكوران، أهل الرضوان وأصحاب السخط، أي لكل صنف منهم تباين في نفسه في منازل الجنة، وفي أطباق النار أيضا، وقال مجاهد والسدي ما ظاهره: إن المراد بقوله هم إنما هو لمتبعي الرضوان، أي لهم درجات كريمة عند ربهم، وفي الكلام حذف مضاف تقديره «هم درجات» والدرجات المنازل بعضها أعلى من بعض في المسافة أو في التكرمة، أو العذاب، وقرأ إبراهيم النخعي «هم درجة» بالإفراد، وباقي الآية وعيد ووعد.

قوله تعالى:

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٦٤ الى ١٦٥]

لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين (١٦٤) أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير (١٦٥)

اللام في لقد لام القسم، ومن في هذه الآية معناه: تطول وتفضل، وقد يقال: من بمعنى:

كدر معروفه بالذكر فهي لفظة مشتركة.

وقوله تعالى: من أنفسهم معناه في الجنس واللسان والمجاورة فكونه من الجنس يوجب **الأنس به** وقلة الاستيحاش منه، وكونه بلسانهم يوجب حسن التفهيم وقرب الفهم، وكونه جارا وربيا يوجب التصديق والطمأنينة، إذ قد خبروه وعرفوا صدقه وأمانته فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسب قومه، وكذلك الرسل، قال النقاش: ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل أمهاتهم إلا بني تغلب لنصرانيتهم، والآيات في هذه الآية، يحتمل أن يراد بها القرآن ويحتمل أن يراد بها العلامات، والأول أظهر، ويزكيهم معناه: يطهرهم من دنس الكفر والمعاصي، قال بعض المفسرين: معناه يأخذ منهم الزكاة، وهذا ضعيف، والكتاب: القرآن، والحكمة، السنة المتعلمة من لسانه عليه السلام، ثم ذكر حالتهم الأولى من الضلال ليظهر الفرق بتجاور الضدين- وقيل: لفظة مبنية لما تضمنت الإضافة، فأشبهت الحروف في تضمن المعاني فبنيت.." (١)

"[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٢٨ الى ٢٩]

الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب (٢٨) الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب (٢٩)

قوله تعالى: الذين آمنوا هذا بدل من قوله: أناب، والمعنى: يهدي الذين آمنوا، وتطمئن قلوبهم بذكر الله في هذا الذكر قولان:

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٥٣٧/١

أحدهما: أنه القرآن. والثاني: ذكر الله على الإطلاق. وفي معنى هذه الطمأنينة قولان: أحدهما: أنها الحب له **والأنس به**. والثاني: السكون إليه من غير شك، بخلاف الذين إذا ذكر الله اشمأزت قلوبهم.

قوله تعالى: ألا بذكر الله قال الزجاج: «ألا» حرف تنبيه وابتداء، والمعنى: تطمئن القلوب التي هي قلوب المؤمنين، لأن الكافر غير مطمئن القلب.

قوله تعالى: طوبى لهم فيه ثمانية أقوال: أحدها: أنه اسم شجرة في الجنة.

(٨٢٨) روى أبو سعيد الخدري «عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال: يا رسول الله، ما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» .

وقال أبو هريرة: طوبى: شجرة في الجنة، يقول الله عز وجل لها: تفتقي لعبدي عما شاء، فتتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها، وعن الإبل بأزمتها، وعما شاء من الكسوة. وقال شهر بن حوشب: طوبى: شجرة في الجنة، كل شجر الجنة منها أغصانها، من وراء سور الجنة، وهذا مذهب عطية، وشمر بن عطية، ومغيث بن سمي، وأبي صالح. والثاني: أنه اسم الجنة بالحبشية، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال المصنف: وقرأت على شيخنا أبي منصور عن سعيد بن مسجوح قال: طوبى: اسم الجنة بالهندية، وممن ذهب إلى أنه اسم الجنة عكرمة، وعن مجاهد كالقولين.

والثالث: أن معنى طوبى لهم: فرح وقرة عين لهم، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والرابع: أن معناه: نعمى لهم، قاله عكرمة في رواية، وفي رواية أخرى عنه: نعم ما لهم. والخامس: غبطة لهم، قاله سعيد بن جبير، والضحاك. والسادس: أن معناه: خير لهم، قاله النخعي في رواية، وفي أخرى عنه قال: الخير والكرامة اللذان أعطاهم الله، وروى معمر عن قتادة قال: يقول الرجل للرجل: طوبى لك، أي: أصبت خيرا، وهي كلمة عربية. والسابع: حسنى لهم، رواه سعيد عن قتادة عن الحسن. والثامن: أن المعنى: العيش الطيب لهم. و «طوبى» عند النحويين: فعلى من الطيب، هذا قول الزجاج. وقال ابن الأنباري: تأويلها: الحال المستطابة، والخلة المستلذة، وأصلها: «طيبى» فصارت الياء واوا لسكونها وانضمام ما قبلها كما صارت في «موقن» والأصل فيه «ميقن» لأنه مأخوذ من اليقين، فغلبت الضمة فيه الياء فجعلتها واوا.

صدره حسن، وعجزه ضعيف، أخرجه أحمد ٣/ ٧١ وأبو يعلى ١٣٧٤ وابن حبان ٧٤١٣ والخطيب ٤/ ٩١ والطبري ٢٠٣٩٤. من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعا. وهذا إسناد ضعيف، لضعف دراج في روايته عن أبي الهيثم، ولصدره شواهد، والوهن فقط في عجزه «ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» . وله شاهد من حديث عتبة بن عبد السلمي، أخرجه الطبري ٢٠٣٩٢ وابن حبان ٧٤١٤ وأحمد ٤/ ١٨٣ وإسناده ضعيف لجهالة عامر بن زيد، لكن يشهد لما قبله. وله شاهد من حديث قرة بن إياس، أخرجه الطبري ٢٠٣٩٣ وإسناده ضعيف لضعف فرات بن أبي الفرات. وله شواهد أخرى واهية.." (١)

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٢/٤٩٤

"والجاه، فقوله: آتنا في الدنيا يتناول كل هذه الأقسام فإن العلم إذا كان يراد للتزين به في الدنيا والترفع به على الأقران كان من الدنيا، والأخلاق الفاضلة إذا كانت تراد للرياسة في الدنيا وضبط مصالحها كانت من الدنيا، وكل من لا يؤمن بالبعث والمعاد فإنه لا يطلب فضيلة لا روحانية ولا جسمانية إلا لأجل الدنيا، ثم قال تعالى في حق هذا الفريق وما له في الآخرة من خلاق أي ليس له نصيب في نعيم الآخرة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب [الشورى: ٢٠] ثم إنه تعالى لم يذكر في هذه الآية أن الذي طلبه في الدنيا هل أجيب له أم لا؟ قال بعضهم: إن مثل هذا الإنسان ليس بأهل للإجابة لأن كون الإنسان مجاب الدعوة صفة مدح فلا تثبت إلا لمن كان وليا لله تعالى مستحقا للكرامة لكنه وإن لم يجب فإنه ما دام مكلفا حيا فالله تعالى يعطيه رزقه على ما قال:

وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها [هود: ٦] وقال آخرون إن مثل هذا الإنسان قد يكون مجابا، لكن تلك الإجابة قد تكون مكرا واستدراجا.

أما قوله تعالى: ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار فالمفسرون ذكروا فيه وجوها أحدها: أن الحسنة في الدنيا عبارة عن الصحة، والأمن، والكفاية والولد الصالح، والزوجة الصالحة، والنصرة على الأعداء، وقد سمى الله تعالى الخصب والسعة في الرزق، وما أشبهه «حسنة» فقال: إن تصبك حسنة تسؤهم [التوبة: ٥٠] وقيل في قوله: قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين [التوبة: ٥٢] أنهما الظفر والنصرة والشهادة، وأما الحسنة في الآخرة فهي الفوز بالثوب، والخلاص من العقاب، وبالجملة فقوله: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة كلمة جامعة لجميع مطالب الدنيا والآخرة، روى حماد بن سلمة عن ثابت أنهم قالوا لأنس: ادع لنا، فقال: «اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» قالوا: زدنا فأعادها قالوا زدنا قال ما تريدون؟ قد سألت لكم خير الدنيا والآخرة ولقد صدق أنس فإنه ليس للعبد دار سوى الدنيا والآخرة فإذا سأل حسنة الدنيا وحسنة الآخرة لم يبق شيء سواه وثانيها: أن المراد بالحسنة في الدنيا العمل النافع وهو الإيمان والطاعة والحسنة في الآخرة اللذة الدائمة والتعظيم والتنعم بذكر الله/ **وبالأنس به** وبمحبته وبرؤيته

وروى الضحاك عن ابن عباس أن رجلا دعا ربه فقال في دعائه: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «ما أعلم أن هذا الرجل سأل الله شيئا من أمر الدنيا، فقال بعض الصحابة: بلى يا رسول الله إنه قال: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه يقول: آتنا في الدنيا عملا صالحا وهذا متأكد بقوله تعالى: والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين [الفرقان: ٧٤] وتلك القرة هي أن يشاهدوا أولادهم وأزواجهم مطيعين مؤمنين مواظبين على العبودية وثالثها: قال قتادة: الحسنة في الدنيا وفي الآخرة طلب العافية في الدارين، وعن الحسن: الحسنة في الدنيا فهم كتاب الله تعالى، وفي الآخرة الجنة، واعلم أن منشأ البحث في الآية أنه لو قيل، آتنا في الدنيا الحسنة وفي الآخرة الحسنة لكان ذلك متناولا لكل الحسنات، ولكنه قال: آتنا في الدنيا حسنة

وفي الآخرة حسنة وهذا نكرة في محل الإثبات فلا يتناول إلا حسنة واحدة، فلذلك اختلف المتقدمون من المفسرين فكل واحد منهم حمل اللفظ على ما رآه أحسن أنواع الحسنة.." (١)

"قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم (٣١)

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ محبة العبد لله إيثار طاعته على غير ذلك ومحبة الله العبد أن يرضى عنه ويحمد فعله وعن الحسن زعم أقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يحبون الله فأراد أن يجعل لقولهم تصديقا من عمل فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب وكتاب الله يكذبه وقيل محبة الله معرفته ودوام خشيته ودوام اشتغال القلب به وبذكره ودوام **الأنس به** وقيل هي اتباع النبي عليه السلام في أقواله وأفعاله وأحواله إلا ما خص به وقيل علامة المحبة أن يكون دائم التفكير كثير الخلوة دائم الصمت لا يبصر إذا نظر ولا يسمع إذا نودي ولا يحزن إذا أصيب ولا يفرح إذا أصاب ولا يخشى أحدا ولا يرجوه ﴿ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾." (٢)

"ثم إن فوق التوكل التفويض وهو الاستسلام لأمر الله تعالى بالكلية، فإن المتوكل له مراد واختيار، وهو يطلب مراده باعتماده على ربه، وأما المفوض فليس له مراد ولا اختيار، بل أسند المراد والاختيار إلى الله تعالى، فهو أكمل أدبا مع الله تعالى

وما كان لنبي أن يغل هو من الغلول وهو أخذ الشيء خفية من المغانم وغيرها، وقرئ «١» بفتح الياء وضم الغين، ومعناه تبرئة النبي صلى الله عليه وسلم من الغلول، وسببها أنه فقدت من المغانم قطيفة حمراء، فقال بعض المنافقين: لعل رسول الله صلى الله عليه واله وسلم أخذها، وقرأ نافع وغيره بضم الياء وفتح الغين، أي ليس لأحد أن يغل نبيا: أي يخونه في المغانم، وخص النبي بالذكر وإن كان ذلك محظورا من الأمر، لشنعة الحال مع النبي لأن المعاصي تعظم بحضرته، وقيل معنى هذه القراءة: أن يوجد غالا كما تقول أحمدت الرجل، إذا أصبته محمودا، فعلى هذا القول يرجع معنى هذه القراءة، إلى معنى فتح الياء ومن يغلل يأت بما غل وعيد لمن غل بأن يسوق يوم القيامة على رقبته الشيء الذي غل، وقد جاء ذلك مفسرا في الحديث قال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم: لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير لا ألفين أحدكم على رقبته فرس لا ألفين أحدكم على رقبته رقاع لا ألفين أحدكم على رقبته صامت، لا ألفين أحدكم على رقبته إنسان فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك «٢» أفمن اتبع الآية: فقيل: إن الذي أتبع رضوان الله.

من لم يغلل، والذي باء بالسخط من غل، وقيل الذي أتبع الرضوان: من استشهد بأحد، والذي باء بالسخط: المنافقون الذين رجعوا عن الغزو هم درجات ذووا درجات، والمعنى تفاوت بين منازل أهل الرضوان وأهل السخط، أو التفاوت بين درجات أهل الرضوان فإن بعضهم فوق بعض، فكذلك درجات أهل السخط لقد من الله الآية إخبار بفضل الله على المؤمنين ببعث رسول الله صلى الله عليه واله وسلم من أنفسهم معناه في الجنس واللسان، فكونه من جنسهم يوجب **الأنس به**، وقلة الاستيحاش منه، وكونه بلسانهم يوجب حسن الفهم عنه، ولكونه منهم يعرفون حسبه وصدقه وأمانته صلى الله

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥/٣٣٧

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ١/٢٤٩

تعالى عليه واله وسلم ويكون، هو صلى الله تعالى عليه واله وسلم أشفق عليهم وأرحم بهم من الأجنبيين «٣» أولما أصابتكم مصيبة الآية. عتاب للمسلمين على كلامهم فيمن

---

(١) . هي قراءة عاصم وابن كثير وأبي عمرو.

(٢) . الحديث أخرجه أحمد بتفصيل عن أبي هريرة ج ٢ ص ٥٦٢.

(٣) . الأشهر جمع أجنبي على أجانب والمراد: أغراب.." (١)

"وسابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه. وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعا صوته، فإنه لا يطول له ذلك بخلاف من يخفض صوته.
وثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات. فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد فلا يحصل له هناك تشويش ولا غيره، وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والباطولية الخبيثة من الجن والإنس، فشوشت عليه ولا بد، ومانعته وعارضته ولو لم يكن من ذلك إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفى. ومن له تجربة يعرف هذا. فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة.
وتاسعها: أن أعظم النعم هو الإقبال على الله، والتعبد له، والانقطاع إليه والتبتل إليه. ولكل نعمة حاسد على قدرها، دقت أو جلت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة. فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد وأن لا يقصد إظهارها له. وقد قال يعقوب ليوسف: لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلب كفيه. ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله وأن لا يطلعوا عليه أحدا ويتكتمون به غاية التكتم كما أنشد بعضهم في ذلك:

من سارروه فأبدى السر مجتهدا ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا

وأبعدوه فلم يظفر بقربهم ... وأبدلوه مكان الإنس إيحاشا

لا يأمنون مذيعا بعض سرهم ... حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

والقوم أعظم شيء كتمانا لأحوالهم مع الله وما وهب الله لهم من محبته **والأنس به** وجمعية القلب عليه، ولا سيما للمبتدي والسالك. فإذا تمكن." (٢)

"للعلمية والعجمة، وهذا هو الصحيح، وقيل: إنه مشتق من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله تعالى والبعد عنها، قال:

٣٦١ - وفي الوجوه صفرة وإبلاس ... .

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ١٧٠/١

(٢) التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم ابن القيم ص/٢٥٧

وقال آخر:

٣٦٢ - يا صاح هل تعرف رسما مكرسا ... قال نعم أعرفه وأبلسا

أي: بعد عن العمارة **والأنس به**، ووزنه عند هؤلاء: إفعيل، واعترض عليهم بأنه كان ينبغي أن يكون منصرفا، وأجابوا بأنه أشبه الأسماء الأعجمية لعدم نظيره في الأسماء العربية، ورد عليهم بأن مثله في العربية كثير، نحو: إزميل وإكليل وإغريض وإخريط وإحليل. وقيل: لما لم يتسم به أحد من العرب صار كأنه دخيل في لسانهم فأشبه الأعجمية وفيه بعد.

قوله: ﴿أبى واستكبر﴾ الظاهر أن هاتين الجملتين استئنافيتان جوابا لمن قال: فما فعل؟ والوقف على قوله: ﴿إلا إبليس﴾ تام. وقال أبو البقاء: «في موضع نصب على الحال من إبليس تقديره: ترك السجود كارها." (١)

"والثالثة: **الأنس به** والاستثقال لكل قاطع يقطع عنه، أو شاغل يشغله عنه.

والرابعة: الشوق إلى لقائه والنظر إلى وجهه.

الخامسة. الرضا عنه في كل شديده وضر ينزل به.

والسادسة: اتباع رسوله - صلى الله عليه وسلم -.

ومحبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - على درجتين:

إحداهما فرض: وهي المحبة التي تقتضي قبول ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عند الله وتلقيه بالمحبة والرضا والتعظيم والتسليم وعدم طلب الهدى من غير طريقه بالكلية ، ثم حسن الاتباع له فيما بلغه عن ربه من تصديقه في كل ما أخبر به، وطاعته فيما أمر به من الواجبات، والانتهاء عما نهى عنه من المحرمات، ونصرة دينه والجهاد لمن خالفه بحسب القدرة، فهذا القدر لا بد منه ولا يتم الإيمان بدونه.

والدرجة الثانية فضل: وهي المحبة التي تقتضي حسن التأسي به وتحقيق

الاقتداء بسنته في أخلاقه وآدابه ونوافله وتطوعاته وأكله وشربه ولباسه وحسن معاشرته لأزواجه وغير ذلك من آدابه الكاملة وأخلاقه الطاهرة، والاعتناء بمعرفة سيرته وأيامه، واهتزاز القلب عند ذكره، وكثرة الصلاة عليه لما سكن في القلب من محبته وتعظيمه وتوقيره، ومحبة استماع كلامه، وإيثاره على كلام غيره من المخلوقين.

ومن أعظم ذلك الاقتداء به في زهده في الدنيا والاجتزاء باليسير منها

ورغبته في الآخرة.

قال سهل التستري: من علامات حب الله حب القرآن، وعلامة حب الله." (٢)

"سورة الأنفال

قوله تعالى: (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون (٢٤)

وسمع عمر رجلا يقول: اللهم إنك تحول بين المرء وقلبه، فحل بيني وبين

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ١/٢٧٦

(٢) تفسير ابن رجب الحنبلي ابن رجب الحنبلي ١/٤٣٨

معاصيك. فأعجب عمر ودعا له بخير.

وروى ابن عباس – رضي الله عنهما –، في قوله تعالى: (يحول بين المرء وقلبه) ، قال: يحول بين المؤمن وبين المعصية التي تجره إلى النار.

* * *

قوله تعالى: (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (٣٥)

استماع الغناء بآلات اللهو أو بدونها على وجه التقرب إلى الله تعالى.

وتحريك القلوب إلى محبته، **والأنس به** والشوق إلى لقائه، وهذا هو الذي

يدعيه كثير من أهل السلوك، ومن يتشبه بهم، ممن ليس منهم، وإنما يتستر

بهم، ويتوصل بذلك إلى بلوغ غرض نفسه، من نيل لذته.

فهذا المتشبه بهم مخادع ملبس. وفساد حاله أظهر من أن يخفى على أحد. وأما الصادقون في دعواهم ذلك وقليل ما هم، فإنه ملبوس عليهم؛ حيث تقربوا إلى الله عز وجل، بما لم يشرعه الله تعالى،." (١)

"ومحبة الرسول على درجتين – أيضا:

إحداهما: فرض، وهي ما اقتضى طاعته في امتثال ما أمر به من الواجبات.

والانتهاء عما نهى عنه من المحرمات، وتصديقه فيما أخبر به من المخبرات.

والرضا بذلك، وأن لا يجد في نفسه حرجا مما جاء به، ويسلم له تسليما.

وأن لا يتلقى الهدى من غير مشكاته، ولا يطلب شيئا من الخير إلا ما جاء

الدرجة الثانية: فضل مندوب إليه، وهي ما ارتقى بعد ذلك إلى اتباع سنته

وآدابه وأخلاقه، والاقتداء به في هديه وسمته، وحسن معاشرته لأهله

وإخوانه، وفي التخلق بأخلاقه الظاهرة في الزهد في الدنيا، والرغبة في

الآخرة، وفي جوده وإيثاره وصفحه وحلمه واحتماله وتواضعه.

وفي أخلاقه الباطنة، من كمال خشيته لله، ومحبته له، وشوقه إلى لقائه.

ورضاه بقضائه، وتعلق قلبه به دائما، وصدق الالتجاء إليه، والتوكل

والاعتماد عليه، وقطع تعلق القلب بالأسباب كلها، ودوام لهج القلب

واللسان بذكره، **والأنس به**، والتنعم بالخلوة بمناجاته ودعائه، وتلاوة كتابه

بالتدبر والتفكر.

وفي الجملة، فكان خلقه – صلى الله عليه وسلم – القرآن، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه، فأكمل الخلق من حقق متابعته

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي ابن رجب الحنبلي ٤٨٧/١

وتصديقه قولا وعملا وحالا، وهم الصديقون من أمته، الذين رأسهم أبو بكر خليفته من بعده.

* * *." (١)

"عندهم شيئا من الرزق وإنما ذلك رزقي لهم أجريته لهم على أيديهم. وثانيهما أن المراد الرد على من أثبت لله شريكا كالصنم أو كعيسى، فضرب له مثلا فقال: أنتم لا تسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم ولا تردون رزقكم عليهم حتى تتساووا في المطعم والملبس. فالفاء في قوله: فهم فيه سواء للتعليل. ولك أن تقول بمعنى «حتى» أي حتى يكون عبيدهم معهم سواء في الرزق، فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء؟!

عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في العبيد: «إنما هم إخوانكم فاكسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تطعمون» «١» .

فما رؤي عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من غير تفاوت أفبنعمة الله وهي أنه جعلهم موالي مفضلين لا عبيدا مفضولين يجحدون أو جعل عدم التسوية بينهم وبين عبيدهم من جملة جحود النعمة، أو جعل اعتقاد أهلية العبادة لغير الله كفرا بنعمة الله والجحود في معنى الكفران فلذلك عداه بالباء. قال أبو عبيدة وأبو حاتم: قراءة الغيبة- وهي الكثرى- أولى لقرب المخبر عنه، ولأنه لو كان خطابا كان ظاهره للمسلمين وإنهم لا يخاطبون بجحد نعمة البتة. الحالة الأخرى من أحوال الإنسان قوله عم طوله: والله جعل لكم من أنفسكم أي من جنسكم أزواجا ليكون **الأنس به** أتم. ولا ريب أن تخليق الذكور والإناث مستند إلى قدرة الله وتكوينه. والطبيعيون قد يذكرون له وجها قالوا: إن المني إذا انصب من الخصية اليمنى إلى الذكر ثم انصب منه إلى الجانب الأيمن من الرحم كان الولد ذكرا تاما في الذكورة بناء على أن الذكر أسخن مزاجا وكذا الجانب الأيمن، وإن انصب من الخصية اليسرى إلى الجانب الأيسر من الرحم كان الولد تاما في الأنوثية، وإذا انصب من اليمنى إلى الأيسر كان ذكرا في طبيعة الإناث، وإن كان بالعكس كان بالعكس. قال الإمام فخر الدين الرازي: هذه العلة ضعيفة فقد رأينا في النساء من كان مزاجه في غاية السخونة وفي الرجال من كان في غاية البرودة. ولقائل أن يقول: الكلام في المزاج الصنفي لا في المزاج الشخصي، وهذا الإمام لم يفرق بينهما فاعترض بأحدهما على الآخر. وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة أصل الحفد الإسراع في الخدمة. والفاعل حافد والجمع حفدة. فقيل: أراد بها في الآية الأختان على البنات. وقيل: أولاد الأولاد. وقيل: أولاد المرأة من الزوج الأول. وقيل: الخدم والأعوان. وقيل: البنون أنفسهم الجامعون بين

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب: ٢٢. مسلم في كتاب الأيمان حديث: ٣٨. أبو داود في كتاب الأدب باب: ١٢٤. الترمذي في كتاب البر باب: ٢٩. ابن ماجه في كتاب الأدب باب: ٩. أحمد في مسنده (٥/ ٥٨) .." (٢)

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي ابن رجب الحنبلي ٤٩٨/١

(٢) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٢٨٧/٤

"[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٦٤ الى ١٦٥]

لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين (١٦٤) أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير (١٦٥)

وقوله تعالى: لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ...

الآية: اللام في «لقد» : لام القسم، و «من» في هذه الآية: معناه: تطول وتفضل سبحانه، وقد يقال: «من» بمعنى كدر معروفه بالذكر، فهي لفظة مشتركة، وقوله: من أنفسهم، أي: في الجنس، واللسان، والمجاورة، فكونه من الجنس يوجب **الأنس به**، وكونه بلسانهم يوجب حسن التفهيم، وكونه جارا وربيا يوجب التصديق والطمأنينة إذ قد خبروه وعرفوا صدقه وأمانته، ثم وقف الله سبحانه المؤمنين على الخطإ في قلقهم للمصيبة التي نزلت بهم، وإعراضهم عما نزل بالكفار، فقال: أولما أصابتكم مصيبة

، أي: يوم أحد قد أصبتم مثليها، أي: يوم بدر إذ قتل من الكفار سبعون، وأسر سبعون، هذا تفسير ابن عباس «١» ، والجمهور.

وقال الزجاج «٢» : واحد المثلين: هو قتل السبعين يوم بدر، والثاني: هو قتل اثنين وعشرين يوم أحد، ولا مدخل للأسرى لأنهم قد فدوا.

وأنى: معناها: كيف، ومن أين، قل هو من عند أنفسكم، أي: حين خالفتم النبي صلى الله عليه وسلم في الرأي حين رأى أن يقيم بالمدينة، ويترك الكفار بشر محبس، فأبيتم إلا الخروج، وهذا هو تأويل الجمهور، وقالت طائفة: هو من عند أنفسكم: إشارة إلى عصيان الرماة، وتسبيبهم الهزيمة على المؤمنين، وقال علي والحسن: بل ذلك لما قبلوا الفداء يوم بدر «٣» وذلك أن الله سبحانه أخبرهم على لسان نبيه بين قتل الأسرى أو يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدة الأسرى، فاختاروا أخذ الفداء، ورضوا بالشهادة، فقتل منهم يوم أحد سبعون، قلت: وهذا الحديث رواه الترمذي عن علي (رضي الله عنه) ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أحمد بن نصر الداوودي: وعن الضحاك: أنى هذا، أي: بأي ذنب هذا؟

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٥٠٨) برقم (٨١٨٥) ، وذكره ابن عطية (١/ ٥٣٨) ، والسيوطي (٢/ ١٦٦) ، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» (١/ ٤٨٨) .

(٣) أخرجه الطبري (٣/ ٥٠٩) برقم (٨١٩٠) عن علي، وذكره ابن عطية (١/ ٥٣٨) ، والسيوطي (٢/ ١٦٦) ، وعزاه لابن أبي حاتم عن الحسن، ولابن أبي شيبة، والترمذي وحسنه، وابن مردويه عن علي.." [1]

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ١٣٦/٢

"[سورة القيامة (٧٥) : الآيات ٢٠ الى ٢٥]

كلا بل تحبون العاجلة (٢٠) وتذرون الآخرة (٢١) وجوه يومئذ ناضرة (٢٢) إلى ربها ناظرة (٢٣) ووجوه يومئذ باسرة (٢٤)

تظن أن يفعل بها فاقرة (٢٥)

وقوله تعالى: كلا بل تحبون العاجلة أي: الدنيا وشهواتها قال الغزالي في «الإحياء» : اعلم أن رأس الخطايا المهلكة هو حب الدنيا، ورأس أسباب النجاة هو التجافي بالقلب عن دار الغرور، وقال رحمه الله: اعلم أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله سبحانه في الآخرة إلا بتحصيل محبته **والأنس به** في الدنيا، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقلاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقلع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها، ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات، ولا تنقمع الشهوات بشيء كما تنقمع بنار الخوف المحرقة للشهوات، انتهى.

وقرأ ابن كثير «١» وغيره: «يحبون» و «يذرون» بالياء على ذكر الغائب، ولما ذكر سبحانه الآخرة، أخبر بشيء من حال أهلها فقال: وجوه يومئذ ناضرة أي: ناعمة، والنضرة: النعمة وجمال البشرة قال الحسن: وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى خالقها «٢» .

وقوله تعالى: إلى ربها ناظرة حمل جميع أهل السنة هذه الآية على أنها متضمنة رؤية المؤمنين لله عز وجل بلا تكييف ولا تحديد/ كما هو معلوم موجود، لا يشبه الموجودات، كذلك هو سبحانه مرئي لا يشبه المرئيات في شيء فإنه ليس كمثله شيء لا إله إلا هو، وقد تقدم استيعاب الكلام على هذه المسألة، وما في ذلك من صحيح الأحاديث، والباسرة: العابسة المغمومة النفوس، والبسور: أشد العبوس، وإنما ذكر تعالى الوجوه لأنه فيها يظهر ما في النفس من سرور أو غم، والمراد أصحاب الوجوه، والفاقرة: المصيبة التي تكسر فقار الظهر وقال أبو عبيدة: هي من فقرت [البعير] إذا وسمت أنفه بالنار «٣» .

---

(١) وقرأ بها أبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب.

ينظر: «إعراب القراءات» (٢/ ٤١٦) ، و «معاني القراءات» (٣/ ١٠٦) ، و «شرح الطيبة» (٦/ ٨١) ، و «العنوان» (٢٠٠) ، و «حجة القراءات» (٧٣٦) ، و «شرح شعلة» (٦١٤) ، و «إتحاف» (٢/ ٥٧٤) .

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ٣٤٣) رقم (٣٥٦٥٤) ، وذكره البغوي (٤/ ٤٢٤) ، وابن عطية (٥/ ٤٠٥) ، وابن كثير (٤/ ٤٥٠) .

(٣) ذكره ابن عطية (٥/ ٤٠٥) .." [1]

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٥٢٣/٥

"والحال أنه ﴿كافر﴾ .

ولما أفرد الضمير على اللفظ نصا على كل فرد فرد جمع لأن إخزاء الجمع إخزاء لكل فرد منهم ولا عكس، وقرنه بفاء السبب إعلاما بأن سوء أعمالهم هو السبب في وبالهم فقال: ﴿فأولئك﴾ البعداء البغضاء ﴿حبطت أعمالهم﴾ أي بطلت معانيها وبقيت صورها؛ من حبط الجرح إذا برأ ونفي أثره. وقال الحرالي: من الحبط وهو فساد في الشيء الصالح يأتي عليه من وجه يظن به صلاحه وهو في الأعمال بمنزلة البطح في الشيء القائم الذي يقعده عن قيامه كذلك الحبط في الشيء الصالح يفسده عن وهم صلاحه ﴿في الدنيا﴾ بزوال ما فيها من روح **الأنس بالله** سبحانه وتعالى ولطيف الوصلة به وسقوط إضافتها إليهم إلا مقرونة ببيان حبوطها فقط بطل ما كان لها من الإقبال من الحق." (١)

"المستقبل، ثم علله بقوله: ﴿إني أخاف الله﴾ أي أستحضر جميع ما أقدر على استحضاره من كماله، ثم وصفه بالإحسان إلى خلقه ليكون ذلك مانعا له من الإساءة إلى أحد منهم فقال: ﴿رب العالمين *﴾ أي الذي أنعم عليهم بنعمة الإيجاد ثم التربية، فأنا لا أريد أن أخرب ما بنى، وهذا كما فعل عثمان رضي الله عنه.

ولما كان من النهايات للواصلين إلى حضرات القدس ومواطن **الأنس بالله**، المتمكنين في درجة الغناء عن غير الفاعل المختار أن لا يراد إلا ما يريد سبحانه، فإن كان طاعة أراده العبد ورضيه، وإن كان معصية أراده من حيث إنه مراد الله ولم يرضه لكونه معصية، فيرضى بالقضاء دون المقضي، وكأنه من الممكن القريب أن يكون هابيل قد كشف له عن أنه سبق في علم الله أن أخاه يقتله، قال مرهبا له معللا بتعليل آخر صاد له أيضا عن الإقدام على القتل: ﴿إني أريد﴾ أي بعدم الممانعة لك ﴿أن تبوأ﴾ أي ترجع من قتلي إن قتلتني ﴿بإثمي﴾ أي الإثم الذي ينالك من أجل قتلك لي، وبعقوبته الذي من جملته أنه يطرح عليك من سيئاتي بمقدار ما عليك من حقي إذا لم تجد ما ترضيني به من الحسنات ﴿وإثمك﴾ أي الذي لا سبب لي فيه، وهو الذي كان سببا لرد قربانك واجترائك علي وعدوانك، وأفوز أنا بأجري وأجرك، أي." (٢)

"أي لا غيره بدليل أن المنفق قد يجتهد كل الاجتهاد في الإخلاف فلا ينفق، فدل ذلك على أنه المختص بالإخلاف، ولأن هذا هو المعنى لا أنه ضمن الإخلاف لكل من ينفق على أي وجه كان، قال مجاهد كما نقله الرازي في اللوامع: «إذا كان في يد أحدكم شيء فليقتصد ولا يتأول الآية، فإن الرزق مقسوم، وما عال من اقتصد» كما رواه الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا، والمعنى أنه قد دل الإخلاف على جميع الأشكال والأضداد على أن الأمر فيه على غير ما ظننتم من الإسعاف به في وقت موجب للإكرام على الدوام، وأن ذلك إنما هو لضمانه الرزق لكل أحد بحسب ما قسمه له من سبق به عمله وقدرته حكمته، وتارة يكون إخلافه حسا وبالفعل، وتارة يكون معنى وبالقوة، بالترضية بتلك الحالة التي أدت إلى العدم، قال القشيري: وهو أتم من السرور بالموجود، ومن ذلك **الأنس بالله** في الخلوة، ولا يكون ذلك إلا مع التجريد – انتهى. والمنفق بالاقتصاد داخل أن شاء الله تعالى تحت قول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان: البخاري

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ٣/٢٣٤

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ٦/١٢٠

ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال الله تعالى: «أنفق أنفق عليك» وما روى الشيخان وابن حبان في صحيحه أيضا «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول." (١)

"بالعمى عن الآيات الظاهرات، وثانيا عن الإخبار بأسرارهم، وخفي مكرهم وأخبارهم، وفي عدم صرفهم عما هم عليه من قبح السرائر وسوء الضمائر بتعكيس مقاصدهم، وتخييب مصادرهم في مكرهم ومواردهم، دل على ذلك بقوله: ﴿أنى﴾ أي كيف ومن أي وجه ﴿يؤفكون *﴾ أي يصرفهم عن إدراك قبح ما هم عليه صارف ما كائنا ما كان ليرجعوا عنه إلى حسن الدين **والأنس به** وإدراك بركته وعظيم أثره.

ولما كان هذا أمرا عظيما قاطعا عن الله ورسوله فيحتاج فاعله حاجة شديدة إلى التطهير وهو جدير بعظمه أن لا يطهره غاية الطهر إلا سؤال النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا لم يفعلوا ذلك، دل على سوء بواطنهم وغلظ أكبادهم وأنهم كالخشب المسندة في أنهم لا ثمرة لهم ولا زكاء أصلا بقوله: ﴿وإذا قيل لهم﴾ أي من أي قائل كان: ﴿تعالوا﴾ أي ارفعوا أنفسكم مجتهدين في ذلك بالمجيء إلى أشرف الخلق الذي لا يزال مكانه عاليا لعلو مكانته ﴿يستغفر لكم﴾ أي يطلب الغفران لأجلكم خاصة بعد أن تتولوا من ذنبكم من أجل هذا الكذب الذي أنتم مصرون عليه. ولما تقدم عاملان، أعمل الثاني منهما." (٢)

"يقول الحق جل جلاله: إلا تنصروه تنصروا محمدا، وتثاقلتم عن الجهاد معه، فسينصره الله، كما نصره حين أخرجه الذين كفروا من مكة، حال كونه ثاني اثنين أي: لم يكن معه إلا رجل واحد، وهو الصديق، إذ هما في الغار نقب في أعلى غار ثور، وثور جبل عن يمين مكة، على مسيرة ساعة. إذ يقول لصاحبه: أبي بكر رضى الله عنه: لا تحزن إن الله معنا بالعصمة والنصرة.

روي أن المشركين طلعوا فوق الغار يطلبون رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين فقدوه من مكة، فأشفق أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما» «١» فأعماهم الله عن الغار، فجعلوا يترددون حوله فلم يروه. وقيل: لما دخل الغار بعث الله حمامتين، فباضتا في أسفله، والعنكبوت نسجت عليه.

فأنزل الله سكينته أي: أمنه الذي تسكن إليه القلوب، عليه أي: على رسوله صلى الله عليه وسلم، أو على صاحبه، وأيده بجنود لم تروها، يعني الملائكة، أنزلهم ليحرسوه في الغار، أو يوم بدر وأحد وغيرهما، فتكون على هذا: الجملة معطوفة على: (فقد نصره الله) . وجعل كلمة الذين كفروا وهي الشرك، أو دعوى الكفر، السفلى. وكلمة الله التي هي التوحيد، أو دعوة الإسلام، هي العليا حيث خلص رسوله صلى الله عليه وسلم من بين الكفار، ونقله إلى المدينة، ولم يزل ينصره حتى ظهر التوحيد وبطل الكفر، والله عزيز غالب على أمره، حكيم في أمره وتدبيره.

الإشارة: ما قيل في حق الرسول صلى الله عليه وسلم يقال في حق ورثته، الداعين إلى الله بعده من العارفين بالله، فيقال لمن تخلف عن صحبة ولي عصره وشيخ تربية زمانه: إلا تنصروه فقد نصره الله وأعزه، وأغناه عن غيره، فمن صحبه فإنما ينفع

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ٥١٨/١٥

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ٨٣/٢٠

نفسه، فقد نصره الله حين أنكره أهله وأبناء جنسه، كما هي سنة الله في أوليائه، لأن الداخل على الله منكور، والراجع إلى الناس مبرور، فمن دخل مع الخصوص قطعا أنكرته العموم، فنخرجه ثاني اثنين هو وقلبه، فيأوي إلى كهف **الأنس بالله**، والوحشة مما سواه، فيقول لقلبه: لا تحزن إن الله معنا، فينزل الله عليه سكينة الطمأنينة والتأييد، وينصره باجناد أنوار التوحيد والتفريد، فيجعل كلمة أهل الإنكار السفلى، وكلمة الداعين إلى الله هي العليا، والله عزيز حكيم.

---

(١) أخرجه البخاري فى (فضائل أصحاب النبي، باب مناقب المهاجرين) ومسلم فى: (فضائل الصحابة، باب فضائل أبى بكر رضى الله عنه) .." (١)

"يقول الحق جل جلاله، في وصف من سبقت له الهداية واتصف بالإنابة: هم الذين آمنوا بالله وبرسوله إيمانا تمكن من قلوبهم، واطمأنت إليه نفوسهم فإذا حركتهم الخواطر والهواجم، أو فتن الزمان وأهواله تطمئن قلوبهم بذكر الله، وترتاح بذكر الله أنسا به، واعتمادا عليه ورجاء منه، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته، أو بذكر آلائه ودلائله الدالة على وجوده ووحدانيته، أو بكلامه القرآن، الذي هو أقوى المعجزات. قاله البيضاوي. وقال في القوت: معنى تطمئن بذكر الله: تهش وتستأنس به. قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي بعد كلام: والحاصل أن المراد من الطمأنينة: السكون إلى المذكور، **والأنس به**، ووجود الروح والفرح والانشراح، والغنى به. هـ.

قال تعالى: ألا بذكر الله تطمئن القلوب لا بغيره، فلا تسكن إلا إليه، ولا تعتمد إلا عليه فإن سكنت إلى غيره ذهب نورها، وعظم قلقها. الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم أي: لهم عيش طيب وحياة طيبة. أو الجنة، أو شجرة فيها، وحسن مآب أي: مرجع يرجعون إليه بعد الموت.

الإشارة: الطمأنينة على قسمين: طمأنينة إيمان، وطمأنينة شهود وعيان. قوم اطمأنوا إلى غائب موجود، وقوم إلى آخر مشهود. قوم اطمأنوا بوجود الله من طريق الإيمان على نعت الدليل والبرهان، وقوم اطمأنوا بشهود الله من طريق العيان على نعت الذوق والوجدان. وهذه ثمرة الإكثار من ذكر الله.

قال الشيخ الشاذلى رضي الله عنه: حقيقة الذكر: ما اطمأن بمعناه القلب، وتجلى في حقائق سحاب أنوار سمائه الرب. هـ.

وقال الورتجي: إن كان الإيمان من حيث الاعتقاد، فطمأنينة القلب بالذكر، وإن كان من حيث المشاهدة فطمأنينة القلوب بالله وكشف وجوده. هـ. فطمأنينة الإيمان لأهل التفكر والاعتبار من عامة أهل اليمين.

وطمأنينة العيان لأهل الشهود والاستبصار من خاصة المقربين. أهل الأولى يستدلون بالأشياء على الله، وأهل الثانية يستدلون بالله على الأشياء فلا يرون إلا مظهر الأشياء. وشتان بين من يستدل به أو يستدل عليه المستدل به عرف الحق لأهله، وأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه. وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه! ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه؟!. كما في الحكم.

وقال في المناجاة: «إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟!. أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/٣٨٣

يكون هو المظهر لك؟! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟!»
.." (١)

"وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: «كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟! أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده كل شيء؟ أي: وظهر بكل شيء» . وفي ذلك يقول الشاعر:

عجبت لمن يبغي عليك شهادة ... وأنت الذي أشهدته كل شاهد

وقال آخر:

لقد ظهرت فما تخفى على أحد ... إلا على أكمه لا يبصر القمرا

لكن بطنت بما أظهرت محتجبا ... وكيف يبصر من بالعزة استترا

وأهل طمأنينة الإيمان على قسمين باعتبار القرب والبعد: فمنهم من يطمئن بوجود الحق على نعت القرب والأنس، وهم أهل المراقبة من الزهاد والصالحين، والعلماء العابدين المجتهدين، وهم متفاوتون في القرب على قدر تفرغهم من الشواغل والعلائق، وعلى قدر التخلية والتحلية. ومنهم من يطمئن إليه على نعت البعد من قلبه، وهم أهل الشواغل والشواغب، والعلائق والعوائق. وعلامة القرب: وجود حلاوة المعاملة، كلذيذ المناجاة، **والأنس به** في الخلوات، ووجود حلاوة القرآن والتدبر في معانيه، حتى لا يشبع منه في كل أوان. وعلامة البعد: فقد الحلاوة المذكورة، وعدم **الأنس به** في الخلوة، وفقد حلاوة القرآن، ولو كان من أعظم علماء اللسان.

وأهل طمأنينة الشهود على قسمين أيضا: فمنهم من تشرق عليه الأنوار، وتحيط به الأسرار، فيغرق في الأنوار وتطمس عنه الآثار، فيسكر ويغيب عن الأثر في شهود المؤثر، ويسمى عندهم هذا المقام: مقام الفناء. ومنهم من يصحو من سكرته، ويفيق من صعقته، فيشهد المؤثر، لا يحجبه جمعه عن فرقه، ولا فرقة عن جمعه، ولا يضره فناؤه عن بقائه، ولا بقاؤه عن فنائه، يعطي كل ذي حق حقه، ويوفي كل ذي قسط قسطه، وهو مقام البقاء، ولا يصح وجوده إلا بعد وجود ما قبله، فلا بقاء إلا بعد الفناء، ولا صحو إلا بعد السكر. ومن ترامى على هذا المقام- أعني مقام البقاء- من غير تحقيق مقام السكر والفناء فهو لم يبرح عن مقام أهل الحجاب.

واعلم أن طمأنينة الإيمان تزيد وتنقص، وطمأنينة العيان، إن حصلت، تزيد ولا تنقص. فمواد أسباب زيادة طمأنينة الإيمان أشياء متعددة، فمنهم من تزيد طمأنينته بالتفكر والاعتبار، إما في عجائب المصنوعات وضروب المخلوقات، فيطمئن إلى صانع عظيم القدرة باهر الحكمة. وإما بالنظر في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، وباهر علمه، وعجائب حكمه وأسراره، وإخباره بالأمور الغيبية السابقة والآتية، مع كونه نبيا أميا. فإذا تحقق بمعرفة الرسول فقد." (٢)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٥/٣

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٦/٣

"وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها أي: كثيرا من أهل قرية كانوا ظالمين مثلكم، قد أمهلتهم حينا وأمليت لهم، كما أمليت لكم، ثم أخذتهم بالعذاب والنكال بعد طول الإملاء والإمهال. والإملاء هو الإمهال مع إرادة المعاقبة. وإلي المصير أي: المرجع إلي، فلا يفوتني شيء من أمر المستعجلين وغيرهم، أو: إلى حكمي مرجع الكل، لا إلى غيري، لا استقلالا ولا شركة، فأفعل بهم ما يليق بأعمالهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: عمى القلوب هو انطماس البصيرة، وعلامة انطماسها أمور: إرسال الجوارح في معاصي الله، والانهماك في الغفلة عن الله، والوقيعة في أولياء الله، والاجتهاد في طلب الدنيا مع التقصير فيما طلبه منه الله.

وفي الحكم: «اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك، دليل على انطماس البصيرة منك» . وعلامة فتحها أمور: المسارعة إلى طاعة الله، واستعمال المجهود في معرفة الله، بصحبة أولياء الله، والإعراض عن الدنيا وأهلها، **والأنس بالله**، والغيبة عن كل ما سواه. واعلم أن البصر والبصيرة متقابلان في أصل نشأتهما، فالبصر لا يبصر إلا الأشياء الحسية الحادثة، والبصيرة لا تبصر إلا المعاني القديمة الأزلية، فإذا انطمست البصيرة كان العبد مفروقا عن الله، لا يرى إلا الأكوان الظلمانية الحادثة. وفي ذلك يقول المجذوب رضى الله عنه:

من نظر الكون بالكون غره: في عمى البصيرة. ... ومن نظر الكون بالمكون: صادق، علاج السريرة

وإذا انفتحت البصيرة بالكلية استولى نورها على نور البصر، فانعكس نور البصر إلى البصيرة، فلا يرى العبد إلا أسرار المعاني الأزلية، المفنية للأواني الحادثة، فيغيب عن رؤية الأكوان بشهود المكون. وعلاج انفتاحها يكون على يد طبيب ماهر عارف بالله، يقدحها له بمرود التوحيد، فلا يزال يعالجها بإثمد توحيد الأفعال، ثم توحيد الصفات، ثم توحيد الذات، حتى تنفتح. فتوحيد الأفعال والصفات يشهد قرب الحق من العبد، وتوحيد الذات يشهد عدمه لوجود الحق، وهو الذي أشار إليه في الحكم بقوله: «شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق، لا عدمك ولا وجودك. كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان» . فيرى حينئذ من أسرار الذات وأنوار الصفات ما لا يراه الناظرون، ويشاهد ما لا يشاهده الجاهلون. وفي ذلك يقول الحلاج:

قلوب العارفين لها عيون ... ترى ما لا يرى للناظرينا

وأجنحة تطير بغير ريش ... إلى ملكوت رب العالمينا

وألسنة بأسرار تناجي ... تغيب عن الكرام الكاتبينا." (١)

"تغذيا وتفكها، أو ترزقون وتحصلون معايشكم، من قولهم: فلان يأكل من حرفته، وهذه الجنة وجوه أرزاقكم منها ترزقون وتتمعشون، ويجوز أن يكون الضميران للنخيل والأعناب، أي: لكم في ثمرتها أنواع من الفواكه، الرطب والعنب، والتمر والزبيب، والعصير والدبس، «١» وغير ذلك، وطعاما تأكلونه، وأنبتنا به شجرة هي الزيتون تخرج من طور سيناء، وهو جبل موسى عليه السلام بين مصر وأيلة، وقيل: بفلسطين، ويقال: فيه طور سينين، فإما أن يكون الطور اسم الجبل، وسيناء اسم البقعة أضيف إليها، أو المركب منهما علم له، كامرىء القيس، وتخصيصها بالخروج منه، مع خروجها من سائر

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٥٤٢

البقع، إما لتعظيمها، أو لأنه المنشأ الأصلي لها لأن أصل الزيتون من الشام، وأول ما نبت في الطور، ومنه نقل إلى سائر البلاد، تنبت بالدهن أي: متلبسة بالدهن، أي: ما يدهن به، وهو الزيت، وصبغ للآكلين أي: إدام لهم، قال مقاتل: جعل الله في هذه إداما ودهنا، فالإدام: الزيتون، والدهن: الزيت. وقيل: هي اول شجرة تنبت بعد الطوفان، وخص هذه الأنواع الثلاثة لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأنفعها.

وإن لكم في الأنعام، جمع نعم، وهي الإبل والبقر والغنم، لعبرة تعتبرون بها، وتستدلون بأحوالها على عظم قدرة الله تعالى، وسابغ نعمته، وتشكرونه عليه، نسقيكم مما في بطونها من الألبان سائغة للشاربين، أو مما استقر في بطونها من العلف فإن اللبن يتكون منه، ولكم فيها منافع كثيرة، سوى الألبان، وهي منافع الأصواف والأوبار والأشعار. ومنها تأكلون أي: من لحومها، عليها

أي: على الأنعام في البر، على الفلك

فى البحرحملون

في أسفاركم ومتاجركم، والمراد بالأنعام في الحمل الإبل لأنها هي المحمول عليها في البر، فهي سفائن العرب، كما قال ذو الرمة:

سفينة بر تحت خدي زمامها يريد ناقته. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ولقد خلقنا فوق قلوبكم سبعة حجب، فمن خرقها أفضى إلى فضاء شهود ذاتنا وأنوار صفاتنا، وهي حجاب المعاصي والذنوب، وحجاب النقائص والعيوب، وحجاب الغفلات، وحجاب العوائد والشهوات، وحجاب الوقوف مع حلاوة المعاملات، وحجاب الوقوف مع الكرامات والمقامات، وحجاب حس الكائنات، فمن خرق هذه الحجب بالتوبة والتزكية واليقظة والعفة والرياضة، **والأنس بالله** والغيبة عما سواه، ارتفعت عنه الحجب، ووصل

---

(١) الدبس: عسل التمر وعصارته.. انظر اللسان (دبس ٢/ ١٣٢٣) .." (١)

"وألطف من هذا أن يكتفي بعلم الله، فيشتغل بمولاه، ولا يلتفت إلى إنجاز وعد ولا ضمان، فيكل أمره إلى الله، وهذه حالة التسليم. وفوق هذه: التفويض، وهو أن يكل أمره إليه، ولا يختار حالا على حال، فيشتغل بمولاه ويغيب عن نفسه وعن كل ما سواه، يعلم أنه مملوك لسيده، والسيد أولى من العبد بنفسه. فإذا ارتقى عن هذه الحالة وجد الراحة في المنع، ويستعذب ما يستقبله من الرد، فهي رتبة الرضا، ويحصل له في هذه الحالة، من فوائد الرضا ومطالعته، ما لا يحصل لمن دونه من الحلاوة في وجود المقصود.

وبعد هذا: الموافقة وهو ألا يجد الراحة في المنع ولا في العطاء، وإنما يجد حلاوة نسيم القرب، وزوائد الأنس بنسيان كل أرب. فكما أن حلاوة الطاعات تتصاغر عند برد الرضا- ويعدون ذلك حجابا- كذلك أهل **الأنس بالله** يعدون الوقوف مع حلاوة الرضا والاشتغال بلطائفه نقصانا وحجابا. ثم بعد هذا استيلاء سلطان الحقيقة، بما يأخذ العبد عن جملته بالكلية،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٥٦٨

فيعبر عن هذه الحالة بالخمود، والاستهلاك، والوجود، والاصطلام، والفناء، – وهذا هو عين التوحيد الخاص– فعند ذلك لا أنس، ولا هيبة، ولا لذة، ولا راحة، ولا وحشة، ولا آفة. يعني: تغيب المقامات بلذاتها وراحتها، عند تحقق الفناء، ثم قال: هذا بيان ترتيبهم، فأما ما دون ذلك فالإخبار عن أحوال المتوكلين، على تباين شرفهم، يختلف على حسب اختلاف حالهم. انتهى بالمعنى.

وقال أيضا: ويقال: التوكل في الأسباب الدنيوية ينتهي إلى حد، وأما التوكل على الله في إصلاح آخرته: فهو أشد غموضا وأكثر خفاء، فالواجب، في الأسباب الدنيوية، أن يكون السكون عند طلبها غالبا، والحركة تكون ضرورة، وأما في أمر الآخرة وما يتعلق بالطاعة، فالواجب البدار والجد والانكماش، والخروج عن أوطان الكسل، وترك الجنوح إلى الفشل. والذي يوصف بالتواني في العبادات والتباطؤ في تلافي ما ضيعه من إرضاء الخصوم، والقيام بحق الواجبات، ثم يعتقد في نفسه أنه متوكل على الله، فهو متمن معلول الحال، ممكور مستدرج، بل يجب أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه، ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته، ولا يستند إلى سكونه وحركته، ويتبرأ من حوله وقوته، ثم يحسن الظن بربه. ومع حسن ظنه بربه لا ينبغي أن يخلو من مخافته، اللهم إلا أن يغلب على قلبه ما يشغله في الحال من كشوفات الحقائق عن الفكرة في العواقب فإن ذلك– إذا حصل– فالوقت غالب، وهو أحد ما قيل في قولهم: الوقت سيف. هـ.

ثم ذكر من أوصاف الرحمن، الذي نفر المشركون عن الخضوع له، ما يبين عظمته وكبرياءه، ونفوذ قدرته المستوجبة للخضوع والانقياد له ردا على امتناع الكفرة منه، فقال:

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٦١ الى ٦٢]

تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا (٦١) وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا (٦٢)." (١)

"من الكتاب، وعرف مدلوله ومقصوده، لكن من السياسة أن يتدرج المريد في تركها شيئا فشيئا، حتى يخرج عنها، أو يغيب عن شغلها بالكلية، وإن كانت بيده. فلما خرجوا عن عرش نفوسهم لله، وتوجهوا إليه، ورأى ذلك منهم، قال: هذا من فضل ربي، حيث وقعت الهداية على يدي، ليبلوني، أشكر أم أكفر.. الآية. قال نكروا لها عرشها، أي: اعرضوا عليها الدنيا، وأروها عرشها التي كانت عليه، متغيرا عن حاله الأولى– لأنه كان معشوقا لها، والآن صار ممقوتا لغناها بالله– ننظر أتهتدي إليه، وترجع إلى محبته، فيكون علامة على عدم وصولها، أم تكون من الذين لا يهتدون إليه أبدا، فتكون قد تمكنت من **الأنس بالله**، فلما جاءت وأظهر لها عرشها اختبارا، قيل: أهكذا عرشك؟ قالت: كأنه هو، وأوتينا العلم بالله من قبل هذه الساعة، وكنا منقادين لمراده، فلن نرجع إلى ما خرجنا عنه لله أبدا. وصدها عن الحضرة ما كانت تعبد من الهوى، من دون محبة الله، إنها كانت من قوم كافرين، منكرين للحضرة، غير عارفين بها. قيل لها حين رحلت عن عرشها: ادخلي دار الحضرة، فلما رأت بحر الوحدة، يتموج بتيار الصفات، دهشت، وحسبته لجة، يغرق صاحبه في بحر الزندقة،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١١٣/٤

قال لها رئيس البحرية- وهو شيخ التربية: إنه بحر منزه متصل، لا أول له، ولا آخر له. ليس مثله شيء، ولا معه شيء، محيط بكل شيء، وماح لكل شيء. ثم اعترفت أنها ظالمة لنفسها، مشغولة بهواها، قبل أن تعرف هواه، فلما عرفته غابت عن غيره، واستسلمت وانقادت له. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة صالح عليه السلام فقال:

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٤٥ الى ٤٧]

ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون (٤٥) قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون (٤٦) قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون (٤٧)

قلت: (ولقد أرسلنا) : عطف على (ولقد آتينا داود ...) الخ.

يقول الحق جل جلاله: والله لقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم نسبا صالحا، أن اعبدوا الله أي: بأن اعبدوه وحده، فإذا هم فريقان يختصمون أي: ففاجئوا التفرق والاختصام، ففريق مؤمن به،." (١)

"أضغاث الأحلام، ويجوز أن يكون قسما، أي: أقسم بالحق لتدخلن المسجد الحرام، وعلى الأول: جواب القسم محذوف، أي: والله لتدخلن المسجد الحرام، والجملة القسمية: استئناف بياني، كأن قائلا قال: ففيم صدقه؟ فقال: (لتدخلن المسجد إن شاء الله) . وهو تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد. قال ثعلب: استثنى الله فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون. وقال في القوت: استثنى الله معلما لعباده ورادا لهم إلى مشيئته، وهو أصدق القائلين، وأعلم العالمين. هـ. أو: للإشعار بأن بعضهم لا يدخلونه، لموت، أو: غيبة، أو غير ذلك، أو: هو حكاية لما قاله ملك الرؤيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أو لما قاله صلى الله عليه وسلم لأصحابه، حين قص عليهم، أي: والله لتدخلنها آمنين من غائلة العدو، فهو حال من فاعل «لتدخلن» والشرط معترض. محلقين رؤسكم ومقصرين أي: محلقا بعضكم، ومقصرا آخرون، لا تخافون بعد ذلك أبدا، فهو حال أيضا، أو استئناف، فعلم ما لم تعلموا من الحكمة في تأخير فتح مكة إلى العام القابل، فجعل من دون ذلك فتح مكة فتحا قريبا وهو فتح خيبر، لتستروح إليه قلوب المؤمنين، إلى أن يتيسر الفتح الموعود. والله تعالى أعلم.

الإشارة: العارف الكامل لا يركن إلى شيء دون الله تعالى، فلا يطمئن إلى وعد، ولا يخاف من وعيد، بل هو عبد بين يدي سيده، ينظر ما يبرز من زمن عنصر قدرته، فإن بشر بشيء في النوم أو اليقظة، لا يركن إليه، ولا يقف معه لأن غيب المشيئة غامض، وإن خوف بشيء في النوم أو غيره، لا يفزع ولا يجزع لأن الغنى بالله **والأنس به** غيبه عن كل شيء، وفي الله خلف من كل تلف «ماذا فقد من وجدك؟ «١» » والله يتولى الصالحين، ومن يتق الله يجعل له مخرجا.. الآية «٢» . قال في الإبريز «٣» : الرؤيا المحزنة إنما هي اختبار من الله للعبد، هل يبقى مع ربه أو ينقطع عنه، فإن كان العبد متعلقا به تعالى، ورأى الرؤيا المحزنة، لم يلتفت إليها، ولما يبال بها لعلمه بأنه منسوب إلى من بيده تصاريف الأمور، وأن ما اختاره تعالى سبقت به المشيئة، فلا يهوله أمر الرؤيا، ولا يلقي إليها بالا، وهذه لا تضره بإذن الله تعالى: وإذا كان العبد غير متعلق

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٠٠/٤

بربه، ورأى رؤيا محزنة، جعلها نصب عينيه، وعمر بها باطنه، وانقطع بها عن ربه، ويقدر أنها لا محالة نازلة به، فهذا هو الذي تضره لأن من خاف من شيء سلطه عليه. هـ.

---

(١) من مناجاة الشيخ ابن عطاء السكندرى. انظر تبويب الحكم للمتقى الهندي (ص ٤٢) .

(٢) الآية ٢ من سورة الطلاق.

(٣) لسيدى عبد العزيز الدباغ- رحمه الله تعالى.." [١]

"الإشارة: قال في الإحياء: اعلم أن رأس الخطايا والمهلكة هو حب الدنيا، ورأس أسباب النجاة هو: التجافي بالقلب عن دار الغرور. ثم قال: واعلم أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته **والأنس به** في الدنيا، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الذكر إلا بإقلاع حب الدنيا من القلب، ولا يقع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها، ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات، ولا تنقمع الشهوات بشيء كما تنقمع بنار الخوف المحرقة للشهوات. هـ. على نقل صاحب الجواهر.

ومن أسعده الله بلقاء شيخ التربية هان عليه معالجة النفس من غير تعب، في أقرب وقت، بحيث يغيبه عنها، ويزجه في الحضرة، في أقرب زمان، فيدخل في قوله تعالى: ﴿وجوده يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ فتحصل له النضرة والنظرة في الدنيا والآخرة، فيفنى عن نظره حس الكائنات، وتظهر أسرار الذات الأزلية للعيان بادية، فيستدل بالله على غيره، فلا يرى سواه، وينشد ما قال الشاعر:

فلم يبق إلا الله لم يبق كائن

فما ثم موصول ولا ثم بائن

بذا جاء برهان العيان فما أرى

بعيني إلا عينه إذ أعاين

قال القشيري: قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة ... ﴾ الخ، يقال: هذه الآية دليل على أنهم بصفة الصحو، ولا يداخلهم حيرة ولا دهش، لأن النضرة من أمارات البسط، والبقاء في حال اللقاء أتم من اللقاء، والرؤية عند أهل التحقيق تقتضي بقاء الرائي.. الخ كلامه. ﴿ووجوه يومئذ باسرة﴾ وهي وجوه أهل الغفلة، المحجوبين في الدنيا عن شهود الحق، تظن أن يفعل بها داهية فاقرة، لما فرطت في جنبه - تعالى - من عدم التوجه إليه، كلا، فلترتدع اليوم، ولتنهض قبل فوات الإبان، وهو إذا بلغت الروح التراقي، وقيل: من راق؟ والتفت الساق بالساق، إلى ربك يومئذ المساق، فيحصل الندم، وقد زلت القدم، فلا صدق بوجود الخصوصية عند أربابها، فيصحبهم ليزول عنه الغين والمرض، أي: غين الحجاب ومرض الخواطر والشكوك، ولا صلى صلاة القلوب، ولكن كذب بوجود الطبيب، وتولى عنه مع ظهوره، ثم ذهب إلى هواه ودنياه يتمطى، أولى لك

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٠٦/٥

فأولى، أي: أبعدك الله وطردك، ثم أولى لك فأولى، أيحسب الإنسان أن يتركه الحق سدى، من غير أن يرسل له داعيا يدعوه إلى الحق؟ ألم يك نطفة مهينة، ثم صوره ونفخ فيه من روحه، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ أي: القلوب والأرواح الميتة، بالعلم والمعرفة، بلى وعزة ربنا إنه لقادر، " من استغرب أن ينقذه الله من شهوته، وأن يخرجه من وجود غفلته، فقد استعجز القدرة الإلهية، وكان الله على كل شيء مقتدرا " وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله.." (١)

"إنكاري. والضمير في قوله: من بعده راجع إلى الخذلان المدلول عليه بقوله: وإن يخذلكم أو إلى الله، ومن علم أنه لا ناصر له إلا الله سبحانه، وأن من نصره الله لا غالب له، ومن خذله لا ناصر له، فوض أموره إليه، وتوكل عليه، ولم يشتغل بغيره، وتقديم الجار والمجرور على الفعل في قوله: وعلى الله فليتوكل المؤمنون: لإفادة قصره عليه. قوله: وما كان لنبي أن يغل أي ما صح له ذلك لتنافي الغلول والنبوة. قال أبو عبيد: الغلول: من المغنم خاصة، ولا نراه من الخيانة ولا من الحقد، ومما يبين ذلك أنه يقال من الخيانة: أغل يغل، ومن الحقد: غل يغل بالكسر، ومن الغلول: غل يغل بالضم يقال: غل المغنم غلولا، أي: خان بأن يأخذ لنفسه شيئا يستره على أصحابه فمعنى الآية على القراءة بالبناء للفاعل: ما صح لنبي أن يخون شيئا من المغنم، فيأخذه لنفسه من غير اطلاع أصحابه. وفيه تنزيه الأنبياء عن الغلول. ومعناها على القراءة بالبناء للمفعول: ما صح لنبي أن يغله أحد من أصحابه، أي:

يخونه في الغنيمة، وهو على هذه القراءة الأخرى: نهي للناس عن الغلول في المغانم وإنما خص خيانة الأنبياء مع كون خيانة غيرهم من الأئمة والسلاطين والأمراء حراما، لأن خيانة الأنبياء أشد ذنبا وأعظم وزرا ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة أي: يأت به حاملا له على ظهره، كما صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيفضحه بين الخلائق، وهذه الجملة تتضمن تأكيد تحريم الغلول، والتنفير منه، بأنه ذنب يختص فاعله بعقوبة على رؤوس الأشهاد، يطلع عليها أهل المحشر، وهي مجيئه يوم القيامة بما غله حاملا له، قبل أن يحاسب عليه يعاقب عليه. قوله: ثم توفى كل نفس ما كسبت أي: تعطى جزاء ما كسبت وافيا من خير وشر، وهذه الآية تعم كل من كسب خيرا أو شرا، ويدخل تحتها الغال دخولا أوليا، لكون السياق فيه. قوله: أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله الاستفهام للإنكار، أي: ليس من اتبع رضوان الله في أوامره ونواهيه فعمل بأمره واجتنب نهيه كمن باء، أي: رجع بسخط عظيم كائن من الله، بسبب مخالفته لما أمر به ونهى عنه، ويدخل تحت ذلك، من اتبع رضوان الله بترك الغلول واجتنابه، ومن باء بسخط من الله بسبب إقدامه على الغلول. ثم أوضح ما بين الطائفتين من التفاوت فقال: هم درجات عند الله أي: متفاوتون في الدرجات والمعنى: هم ذوو درجات، أو: لهم درجات، فدرجات من اتبع رضوان الله ليست كدرجات من باء بسخط من الله، فإن الأولين في أرفع الدرجات. والآخرين في أسفلها. قوله: لقد من الله على المؤمنين جواب قسم محذوف، وخص المؤمنين لكونهم المنتفعين ببعثته. ومعنى: من أنفسهم أنه عربي مثلهم وقيل: بشر مثلهم، ووجه المنة على الأول: أنهم يفقهون عنه، ويفهمون كلامه، ولا يحتاجون إلى ترجمان. ومعناها على الثاني: أنهم يأنسون به بجامع البشرية، ولو كان ملكا لم يحصل كمال **الأنس به** لاختلاف الجنسية، وقرئ: من أنفسهم بفتح الفاء، أي: من أشرفهم لأنه من بني هاشم، وبنو هاشم أفضل قريش، وقريش أفضل العرب،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٩٢/٧

والعرب أفضل من غيرهم، ولعل وجه الامتنان على هذه القراءة: أنه لما كان من أشرفهم كانوا أطوع له وأقرب إلى تصديقه، ولا بد من تخصيص المؤمنين في هذه الآية بالعرب على الوجه الأول، وأما على الوجه الثاني: فلا حاجة إلى هذا التخصيص،." (١)

"عتابه لأحبابه ألطف عتاب. وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم، وغافر زلاتهم، ومقيم أعذارهم، ومصلح فسادهم، والدافع عنهم، والحامي عنهم، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم والمنجي لهم من كل كرب، والموفي لهم بوعده. وأنه وليهم الذي لا ولي لهم سواه، فهو مولاهم الحق، وينصرهم على عدوهم، فنعم المولى ونعم النصير.

وإذا شهدت القلوب من القرآن ملكا عظيما جوادا رحيما جميلا هذا شأنه، فكيف لا تحبه، وتنافس في القرب منه، وتنفق أنفاسها في التودد إليه، ويكون أحب إليها من كل ما سواه، ورضاه آثر عندها من رضى كل من سواه؟ وكيف لا تلهج بذكره، وتصير حبه والشوق إليه **والأنس به** هو غذاؤها وقوتها ودواؤها، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها؟

اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء حزننا. وأعنا على إكمال ما قصدناه بفضلك. يا أرحم الراحمين.." (٢)

"فجمع في هذا الحديث الشريف، في استعاذته صلى الله عليه وسلم أصول الشر وفروعه ومباديه وغاياته وموارده ومصادره. وهو مشتمل على ثمان خصال، كل خصلتين منها قرينتان

فقال: أعوذ بك من الهم والحزن

، وهما قرينان. فإن المكروه الوارد على القلب ينقسم باعتبار سببه إلى قسمين: فإنه إما أن يكون سببه أمرا ماضيا، فهو يحدث الحزن، وإما أن يكون توقع أمر مستقبل، فهو يحدث الهم، وكلاهما من العجز. فإن ما مضى لا يدفع بالحزن، بل بالرضاء والحمد والصبر والإيمان بالقدر، وقول العبد: قدر الله وما شاء فعل. وما يستقبل لا يدفع أيضا بالهم. بل إما أن يكون له حيلة في دفعه فلا يعجز عنه، وإما أن لا تكون له حيلة في دفعه، فلا يجزع منه، ويلبس له لباسه، ويأخذ له عدته، ويتأهب له أهبته اللائقة، ويستجن بجنة حصينة من التوحيد والتوكل والانطراح بين يدي الرب تعالى، والاستسلام له، والرضا به ربا في كل شيء، ولا يرضى به ربا فيما يحب دون ما يكره. فإذا كان هكذا لم يرض به ربا على الإطلاق، فلا يرضاه الرب له عبدا على الإطلاق.. فالهم والحزن لا ينفعان العبد البتة، بلا مضرتهما أكثر من منفعتهما، فإنهما يضعفان العزم، ويوهنان القلب، ويحولان بين العبد وبين الاجتهاد فيما ينفعه، ويقطعان عليه طريق السير، أو ينكسانه إلى وراء أو يعوقانه ويقفانه أو يحجبانه عن العلم الذي كلما رآه شمر إليه، وجد في سيره، فهما حمل ثقيل على ظهر السائر، بل إن عاقة الهم والحزن عن شهواته وإرادته التي تضره في معاشه ومعاده، انتفع به من هذا الوجه، وهذا من حكمة العزيز الحكيم، أن سلط هذين الجندين على القلوب المعرضة عنه، الفارغة من محبته وخوفه ورجائه والإنابة إليه، والتوكل عليه، **والأنس به**، والفرار

---

(١) فتح القدير للشوكاني الشوكاني ٤٥٢/١

(٢) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٢٥٢/٢

إليه، والانقطاع إليه، ليردها بما يبتليها به من الهموم والغموم والأحزان، والآلام القلبية، عن كثير من معاصيها وشهواتها المردية. وهذه القلوب في سجن من الجحيم في هذه الدار. وإن أريد بها الخير، كان حظها من سجن الجحيم في معادها، ولا تزال في هذا السجن، حتى تتخلص إلى فضاء التوحيد والإقبال على الله، **والأنس به**، وجعل محبته في محل دبيب خواطر القلب ووساوسه، بحيث يكون ذكره تعالى وحبه وخوفه ورجاؤه والفرح به والابتهاج بذكره، هو المستولي على القلب الغالب عليه، الذي متى فقده، فقد قوته، الذي لا قوام له إلا به، ولا بقاء له بدونه، ولا سبيل إلى خلاص القلب من هذه الآلام التي هي أعظم أمراضه، وأفسدها له، إلا بذلك، ولا بلاغ إلا بالله وحده، فإنه لا يوصل إليه إلا هو، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو، ولا يدل عليه إلا هو، وإذا أراد عبده لأمر هيأه له، فمنه الإيجاد ومنه." (١)

"يجد فيها وهج النار، وتلك الزفرات والحرقات. فإن القلب قد أحاطت به نيران بكل جانب. فهو في وسطها كالشاة في وسط التنور، ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة، أن جعل لهم في البرزخ تنور من نار، وأودعت أرواحهم فيه، إلى حشر أجسادهم، كما أراها الله نبيه صلى الله عليه وسلم في المنام في «١» الحديث المتفق على صحته.

التاسع- أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها. وإطلاق البصر يشتت عليه ذلك ويحول عليه بينه وبينها. فتنفرط عليه أموره ويقع في اتباع هواه وفي الغفلة عن أمر ربه، قال تعالى: ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا [الكهف: ٢٨] ، وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه.

العاشر- أن بين العين والقلب منفذا وطريقا يوجب انفعال أحدهما عن الآخر.

وأن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده. فإذا فسد القلب فسد النظر. وإذا فسد النظر فسد القلب. وكذلك في جانب الصلاح. فإذا خربت العين وفسدت، خرب القلب وفسد، وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ. فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه **والأنس به** والسرور بقربه فيه. وإنما يسكن فيه أضداد ذلك. فهذه إشارة إلى بعض فوائد غض البصر، تطلعك على ما وراءها. انتهى.

ثم أمر الله تعالى النساء بما أمر به الرجال. وزاد في أمرهن، ما فرضه من رفض حالة الجاهلية المألوفة قبل لهن، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة النور (٢٤) : آية ٣١]

وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون (٣١)

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٢/٤٤٤

(١) أخرجه البخاري في: التعبير، ٤٨- باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، عن سمرة بن جندب، حديث رقم ٥٠١.." (١)

"للنور، وامتناع عودها إلى الصفاء الأول الفطري. كالماء الكبريتي مثلا، إذ لو روق أو صعد لما رجع إلى الطبيعة المائية المبردة، لاستحالة جوهرها. بخلاف الماء المسخن الذي استحالت كيفيته دون طبيعته ولهذا استحقوا الخلود في العذاب.
وحكم عليهم بقوله: ثم إنهم لصالوا الجحيم انتهى.
قال ابن القيم في (بدائع الفوائد) في هذه الآية ما مثاله: جمع لهم سبحانه بين العذابين عذاب الحجاب وعذاب النار. فألم الحجاب يفعل في قلوبهم وأرواحهم، نظير ما تفعله النار في أجسامهم. كحال من حيل بينه وبين أحب الأشياء إليه في الدنيا، وأخذ بأشد العذاب. فإن أخص عذاب الروح أن تتعلق بمحبوب لا غنى لها عنه، وهي ممنوعة من الوصول إليه. فكيف إن حصل لها، مع تواري المحبوب عنها وطول احتجابه، بغضه لها ومقته وطرده وغضبه الشديد عليها؟ فأي نسبة لألم البدن إلى هذا الألم الذي لا يتصوره إلا من بلي به أو بشيء منه؟ فلو توهمت النفوس ما في احتجاب الله سبحانه عنها يوم لقائه من الألم والحسرة، لما تعرضت لأسباب ذلك الاحتجاب. وأنت ترى المحبين في الدنيا لصورة، منتهى حسنها إلى ما يعلم، كيف يضجون من ألم احتجاب محبوبهم عنهم وإعراضه وهجره؟ ويرى أحدهم كالموت أو أشد منه من بين ساعة، كما قال:
وكنت أرى كالموت من بين ليلة ... فكيف ببين كان ميعاده الحشر
وإنما يتبين الحال في هذا بمعرفة ما خلقت له الروح وما هيئت له وما فطرت عليه، وما لا سعادة لها ولا نعيم ولا حياة إلا بإدراكه.
فاعلم أن الله سبحانه خلق كل عضو من الأعضاء لغاية ومنفعة، فكماله ولذته في أن يحصل فيه ما خلق له، فخلق العين للإبصار والأذن للسمع والأنف للشم واللسان للنطق واليد للبطش والرجل للمشي والروح لمعرفته ومحبته والابتهاج بقربه والتنعم بذكره. وجعل هذا كمالها وغايتها. فإذا تعطلت من ذلك كانت أسوأ حالا من العين والأذن واللسان واليد والرجل، التي تعطلت عما خلقت له، وحيل بينها وبينه. بل لا نسبة لألم هذه لروح إلى ألم تلك الأعضاء المعطلة البتة. بل ألمها أشد الألم. وهو من جنس ألمها إذ فقدت أحب الأشياء إليها وأعزه عليها، وحيل بينها وبينه، وشاهدت غيرها قد ظفر بوصله وفاز بقربه ورضاه. والروح لا حياة لها ولا نعيم ولا سرور ولا لذة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودها وإلهها ومرادها، الذي لا تقر عينها إلا بقربه **والأنس به** والعكوف بكليتها على محبته والشوق إلى لقائه. فهذا غاية." (٢)

"ونظرت إليه إذا وجهت إليه بصرك ورأيته، وتقول: نظرته بمعنى انتظرته ومنه (ما ينظرون إلا صيحة واحدة) (٣٦: ٤٩) أذن الله - تعالى - لهم بهذه الكلمة (انظرنا) وأمرهم بالسماع للنبي ليعوا عنه ما يقول من الدين وهو أمر يتضمن الطاعة والاستجابة. ثم ختم الآية بقوله: (وللكافرين عذاب أليم) لبيان أن ما صدر عن اليهود من سوء الأدب في خطاب

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٣٧٤/٧
(٢) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٤٣٢/٩

الرسول هو أثر من آثار الكفر الذي يعذبون عليه العذاب الموجع أشد الإيجاع، وللتنبيه على أن التقصير في الأدب معه – صلى الله عليه وسلم – ذنب مجاور للكفر يوشك أن يجر إليه، فيجب الاحتراس منه بترك الألفاظ الموهمة للمساواة، بله الألفاظ المنافية للآداب.

أقول: لا شك أن من يعامل أستاذه ومرشده معاملة المساواة في القول والعمل، يقل احترامه له وتزول هيبته من نفسه حتى تقل الاستفادة منه أو تعدم، وإذا لم تزل الاستفادة منه من حيث كونه معلما، فإنها تقل وتزول لا محالة من حيث كونه مربيا؛ لأن المدار في التربية على التأسي والقدوة، ومن أراه مثلي لا أرضاه إماما وقدوة لي، فإن رضيته بالمواضعة والتقليد وكذبتني المعاملة، فأي قيمة لهذا الرضى، والعبرة بما في الواقع ونفس الأمر، وهو أن من اعتقد أن امرأ فوقه علما وكمالا، وأنه في حاجة للاستفادة من علمه وإرشاده ومن أخلاقه وآدابه، فإنه لا يستطيع أن يساوي نفسه به في المعاملة القولية ولا الفعلية، إلا ما يكون من فلتات اللسان ومن اللمم، وعن مثل هذا نهى الصحابة – رضي الله عنهم –؛ لئلا يجرهم **الأنس به** – صلى الله عليه وسلم – وكرم أخلاقه إلى تعدي حدود الأدب الواجب معه الذي لا تكمل التربية إلا بكماله، وهو – تعالى – يقول: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (٣٣: ٢١) الآية.

(الأستاذ الإمام) : إنما كان عدم الإصغاء لما يقوله الرسول – عليه الصلاة والسلام – وخطابه خطاب الأكفاء والنظراء مجاورا للكفر؛ لأنه يتكلم عن الله عز وجل لسعادة من يسمع ويعقل ويأخذ ما يؤمر به بالأدب ويسأل عما لا يفهمه بالأدب، ومن فاتته هذه السعادة فهو الشقي الذي لا يعدل بشقائه شقاء. ومعنى هذه المجاورة أن سوء الأدب بنحو ما حكي عن اليهود في سورة النساء، هو من الكفر الصريح، ولذلك قال بعده: (ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) (٤: ٤٦) فالألفاظ التي تحاكي الألفاظ التي توعدوا عليها بهذا الوعيد على أنها كفر إذا صدرت من المؤمن غير محرفة ولا مقصودا بها ما كانوا يقصدون، تسمى مجاورة لألفاظ الكفر؛ لأنها موهمة وخارجة عن حدود الأدب اللائق بالمؤمنين.

(قال) : إن لمن جاء بعد الرسول حظا من هذا التأديب، وليس هو خاصا

بمن كان في عصره من المؤمنين، فهذا كتاب الله الذي كان يتلوه عليهم، وكان يجب الاستماع له والإنصات لأجل تدبره، هو الذي يتلى علينا بعينه، لم يذهب منه شيء، وهو كلام الله الذي به." (١)

"اللسان، وقوة البيان، من شعر وخطابة، ومفاخرة ومنافرة، إذ كانوا يؤمون أسواق موسم الحج وأشهرها عكاظ من جميع النواحي لإظهار بلاغتهم وبراعتهم، فكان ذلك أعظم الأسباب لارتقاء لغتهم، ولوجود الحكمة في شعرهم، فكان من الغريب أن يزهد في مشاركتهم فيه بنفسه، وفي روايته لما عساه يسمعه منه، وقد سمع بعد النبوة زهاء مائة قافية من شعر أمية فقال: ((إن كاد ليسلم)) وقال: ((آمن شعره وكفر قلبه)) وقال: ((إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر حكما)) رواه أحمد وأبو داود من حديث ابن عباس، وأما قوله: ((إن من البيان لسحرا)) فقد رواه مالك وأحمد والبخاري وأبو داود والترمذي من حديث ابن عمر.

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٣٣٩/١

قلنا: إن استعداد محمد – صلى الله عليه وسلم – للنبوة والرسالة فطري لم يكن فيه شيء من كسبه بعلم ولا عمل لساني ولا نفسي، ولم يرو عنه أنه كان يرجوها كما روي عن أمية بن أبي الصلت، بل روي عن خديجة – رضي الله عنها – أنها لما سمعت من غلامها ميسرة أخبار أمانته وفضائله وكراماته وما قال بحيرى الراهب فيه تعلق أملها بأن يكون

هو النبي الذي يتحدثون عنه، ولكن هذه الروايات لا يصل شيء منها إلى درجة المسند الصحيح كحديث بدء الوحي الذي أوردناه آنفا، فإن قيل إنه يقويه حلفها بالله إن الله تعالى لا يخزيه أبدا، قلنا: إنها عللت ذلك بما ذكرته من فضائله، ورأت أنها في حاجة إلى استفتاء ابن عمها أمية في شأنه.

وأما اختلاؤه – صلى الله عليه وسلم – وتعبده في الغار عام الوحي فلا شك في أنه كان عملا كسبيا مقويا لذلك الاستعداد السلبي من العزلة وعدم مشاركة المشركين في شيء من عباداتهم ولا عاداتهم، ولكنه لم يكن يقصد الاستعداد للنبوة ؛ لأنه لو كان لأجلها لاعتقد حين رأى الملك أو عقب رؤيته حصول مأموله وتحقق رجائه ولم يخف منه على نفسه، وإنما كان الباعث لهذا الاختلاء، والتحنث اشتداد الوحشة من سوء حال الناس والهرب منها إلى **الأنس بالله** تعالى، والرجاء في هدايته إلى المخرج منها، كما بسطه شيخنا الأستاذ الإمام في تفسير قوله تعالى من سورة الضحى: (ووجدك ضالا فهدى) (٩٣: ٧) وما يفسره من قوله عز وجل في سورة الشورى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) (٤٢: ٥٢ و٥٣) وألم به في رسالة التوحيد إلماما مختصرا مفيدا، فقال رحمه الله تعالى: ((من السنن المعروفة أن يتيما فقيرا أميا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه لا سيما إن كان من ذوي قرابته وأهل عصبته،." (١)

"وجه الرأى لدى كل منهما– إن داود قدر الضرر فى الحرث فكان مساويا لقيمة الغنم فسلم الغنم للمجنى عليه، وإن سليمان قدر منافع الغنم بمنافع الحرث فحكم بها، وكان حكمهما بالاجتهاد دون الوحى، إذ لو كان به ما أمكن تغييره.

نعم الله على داود عليه السلام

(١) (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين) أي وسخرنا الجبال والطير لداود تقدس الله معه بحيث تتمثل له مسبحة، فيكون ذلك أملك لوجدانه وجميع مشاعره، فيستغرق فى التسبيح، وكنا فاعلين لأمثاله، فليس ذلك ببدع منا وإن

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ١٥٩/١١

كنتم أنتم تعجبون منه، فإن المستغرقين فى التسبيح والتقديس يحصل لهم من **الأنس بالله** ما يجعل العالم كله فى نظرهم مسبحا، وكأن العوالم كلها تنطق لهم به بلسان أفصح من لسان المقال، ولا يدرك هذا أحد إلا بوجدانه.

ونحو الآية قوله: «وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم» .

(٢) (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم) أي وعلمناه صنعة الدروع وقد كانت صفائح فجعلها حلقا، فتمنع عنكم إذا لبستموها ولقيتم أعداءكم- أذى الحرب من قتل وجرح ونحوهما.

(فهل أنتم شاكرون؟) أي فاشكروا الله على ما يسره لكم من هذه الصنعة التي تمنع عنكم غوائل الحروب وتقيكم ضرها وعظيم أذاها.

نعم الله على سليمان عليه السلام

ورث الله سليمان من داود ملكه ونبوته وزاده أمرين أشار إليهما بقوله:

(١) (ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها) أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة شديدة الهبوب تارة، ورخاء لينة تارة أخرى.." (١)

"الله أورثهم الجنة يتبوءون من خيراتها حيث يشاءون وأنى يشاءون مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من نعيم القلوب والأرواح، ومن نعيم الأبدان والأجسام: ﴿على سرر موضونة – متكئين عليها متقابلين – يطوف عليهم ولدان مخلدون – بأكواب وأباريق وكأس من معين – لا يصدعون عنها ولا ينزفون – وفاكهة مما يتخيرون – ولحم طير مما يشتهون – وحور عين – كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ [الواقعة: ١٥ – ٢٣] خيرات الأخلاق، حسان الوجوه، قد جمع الله لهن حسن البواطن والظواهر، فهن سرور النفس، وقرة النواظر.

وتمام ذلك أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدا، وأنه يقال لهم: (إن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا) ، فلهم كل ما يشاءون فيها وتتعلق به أمانيهم، ولهم فوق ذلك مما لم تبلغه أمانيهم، ولهم نعيم أعلى من ذلك كله، وهو التمتع بالنظر إلى وجهه الكريم، وسماع خطابه، والابتهاج برضاه وقربه، والسرور بمحبته، وذكره وحمده، والثناء عليه وشكره، مما يشاهدون من كثرة الخيرات، وسوابغ النعم والهبات، وزيادة النعيم وتواصله، ومما يزدادون من معرفته **والأنس به**، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام.

وأما الكافرون المجرمون: فيحاسبهم الله على ما أسلفوه من الجرائم، ويقرعهم ويخزيهم بين الخلائق، ويعطون كتبهم من وراء ظهورهم بشمائلهم، وتسود منهم الوجوه، وتخف موازينهم، ويساقون إلى جهنم جياعا عطاشا منزعجين مرعوبين زمرا، كل

---

(١) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٥٨/١٧

طائفة تحشر مع نظيرها من أهل الشر: ﴿حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها﴾ [الزمر: ٧١] في وجوههم، ففاجأهم حرها المفظع، وحل بهم." (١)

"﴿٢٧ - ٢٩﴾ ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب * الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ .

يخبر تعالى أن الذين كفروا بآيات الله يتعنتون على رسول الله، ويقترحون ويقولون: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا فأجابهم الله بقوله: ﴿قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ أي: طلب رضوانه، فليست الهداية والضلال بأيديهم حتى يجعلوا ذلك متوقفا على الآيات، ومع ذلك فهم كاذبون، ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾

ولا يلزم أن يأتي الرسول بالآية التي يعينونها ويقترحونها، بل إذا جاءهم بآية تبين ما جاء به من الحق، كفى ذلك وحصل المقصود، وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها، فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا فلم يؤمنوا بها لعاجلهم العذاب.

ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذاتها.

﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ أي: حقيق بها وحري أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء ألذ -[٤١٨]- للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها، **والأنس به** ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له، يكون ذكرها له، هذا على القول بأن ذكر الله، ذكر العبد لربه، من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك.

وقيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين، فعلى هذا معنى طمأنينة القلوب بذكر الله: أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها، فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين، وبذلك تطمئن القلوب، فإنها لا تطمئن القلوب إلا باليقين والعلم، وذلك في كتاب الله، مضمون على أتم الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه فلا تطمئن بها، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام.

﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ وهذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله وتدبره، وتدبر غيره من أنواع العلوم، فإنه يجد بينها وبينه فرقا عظيما. ثم قال تعالى:." (٢)

"[سورة الإنسان (٧٦) : آية ٢٧]

إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا (٢٧)

تعليل للنهي عن إطاعتهم في قوله: ولا تطع منهم آثما أو كفورا [الإنسان: ٢٤] ، أي لأن خلقهم الانصباب على الدنيا

---

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن عبد الرحمن السعدي ٤٣/١

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٤١٧

مع الإعراض عن الآخرة إذ هم لا يؤمنون بالبعث فلو أعطاهم لتخلق بخلقهم قال تعالى: ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء الآية [النساء: ٨٩] . فموقع إن موقع التعليل وهي بمنزلة فاء السببية كما نبه عليه الشيخ عبد القاهر.

وهؤلاء إشارة إلى حاضرين في ذهن المخاطب لكثرة الحديث عنهم، وقد استقريت من القرآن أنه إذا أطلق هؤلاء دون سبق ما يكون مشارا إليه فالمقصود به المشركون، وقد ذكرت ذلك في تفسير قوله تعالى: فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين في سورة الأنعام [٨٩] وقوله تعالى: فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء في سورة هود [١٠٩] .

وقد تنزه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن محبة الدنيا

فقال: «ما لي وللدنيا»

فليس له محبة لأمورها عدا النساء والطيب كما

قال: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب»

. فأما النساء فالميل إليهن مركوز في طبع الذكور، وما بالطبع لا يتخلف، وفي **الأنس بهن** انتعاش للروح فتناوله محمود إذا وقع على الوجه المبرأ من الإيقاع في فساد وما هو الأمثل تناول الطعام وشرب الماء قال تعالى: ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية [الرعد: ٣٨] .

وأما الطيب فلأنه مناسب للتزكية النفسية.

وصيغة المضارع في يحبون تدل على تكرر ذلك، أي أن ذلك دأبهم وديدنهم لا يشاركون مع حب العاجلة حب الآخرة.

والعاجلة: صفة لموصوف محذوف معلوم من المقام تقديره: الحياة العاجلة، أو الدار العاجلة. والمراد بها مدة الحياة الدنيا.

وكثر في القرآن إطلاق العاجلة على الدنيا كقوله: كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة [القيامة: ٢٠، ٢١] فشاع بين المسلمين تسمية الدنيا بالعاجلة.." (١)

"كلام الله بالإيناس لموسى قال له: ﴿وما تلك بيمينك ياموسى﴾ [طه: ١٧]

كان يكفي موسى أن يقول: عصا، وتنتهي إجابته عن السؤال، ولو قال موسى: عصا، لكان ذلك منه عدم استيعاب لتقدير إيناس الله له بالكلام، لكن سيدنا موسى عليه السلام انتهز سؤال الله له ليطيل **الأنس بالله** فيقول: ﴿قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى﴾ [طه: ١٨]

تأمل التطويل في إجابة موسى. إن كلمة ﴿هي﴾ زائدة، و ﴿أتوكأ عليها﴾ زائدة أي غير محتاج إليها في إفادة المعنى، و ﴿وأهش بها على غنمي﴾ تطويل أكثر «و ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ رغبة منه في إطالة الحديث أكثر.

إذن فكلام الله والنظر إليه سبحانه افضل النعم التي ينعم الله بها على المؤمنين يوم القيامة.

فإذا كان الله سيمنع عن الكافرين وسائل التكريم المادي فلا يكلمهم، فهذه مسألة صعبة. ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ وبعد أن يحرمهم من الكلام والاستئناس بحضرته؛ ولا يطهرهم من الخبائث التي ارتكبوها؛ ولا

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٤٠٧/٢٩

يجعلهم أهلا لقربه، بعد ذلك يعذبهم عذابا شديدا؛ كأن فيه عذابا سابقا؛ ثم يأتي العذاب الأشد، لأنهم لابد أن يلاقوا عذابا مضاعفا، لأنهم كتموا منهج الله عن خلق الله، فتسببوا في إضلال الخلق، فعليهم وزر ضلالهم وأوزار فوق أوزارهم لأنهم أضلوا سواهم.

ومسألة كلام الله للناس أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «." (١)

"كل ذلك آيات من الحق لإثبات صدق الرسول في البلاغ عنه، وهذا الإثبات مشروط بشروط: أولها أن يكون النبوغ قد بلغ درجة قصوى في هذا المجال الذي تحدث فيه تلك المعجزة، والمثال على ذلك: خرق الحق سبحانه لناموس العصا وهي فرع من شجرة وجعل موسى عليه السلام يلقيها فإذا هي حية تسعى. وما أجراه الله على عصا موسى لم يكن سحرا ولكنه نقلها من جنس إلى جنس في عصر نبغ فيه الناس في السحر، ونعلم أن موسى أنس إلى ربه فقال وأطنب وأسهب وأطال: ﴿هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾ [طه: ١٨] .

وعرف موسى من بعد مقام الأنس والانجذاب مقام الخشية فأوجز قائلا: ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ [طه: ١٨] .

لقد عرف موسى عليه السلام أنه يخاطب مولاه فأطال **الأنس به** وعرف أيضا مراعاة المقامات وانتقل من الانجذاب والأنس إلى مقام الرهبة فقال: (ولي فيها مآرب أخرى) .

وجاء الأمر بإلقاء العصا: ﴿ألقها ياموسى﴾ [طه: ١٩] .

وهنا خرجت العصا عن ناموسها الذي يعلمه موسى عليه السلام فلم تعد للتوكؤ والهش على الغنم، ولكنها تنتقل من جنس الخشب إلى جنس الحيوان فتصير حية: ﴿فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾ [طه: ٢٠] .

ولذلك كان لا بد أن تدهش المسألة موسى عليه السلام، لذلك أوجس خيفة.

ولكن موسى عندما عرف سر عصاه لم يوجس خيفة بل تحدى السحرة الذين جاء بهم فرعون في يوم الزينة، وعرف موسى أنه ليس بساحر مثلهم ولكن الله أتاه معجزة." (٢)

"يعوضه الله بأنه بدلا من أن يكون في معية النعمة، يكون في معية المنعم وهو الله سبحانه. ولذلك يقول في حديث قدسي:

«عبدي فلان مرض فلم تعدني. فيقول له: يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول له: أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده»

قولوا لي بالله: أيضيق أي مريض عندما يعرف أن الصحة كانت نعمة من الله وفارقته، ولكن المرض جعله مع المنعم، وهو الله سبحانه وتعالى؟ لا، بل إن ذلك يخفف عنه وطأة المرض، ويجعله يشعر أن **الأنس بالله** يخفف عنه الآلام. لكنك للأسف تجد الإنسان غير منطقي مع نفسه، فالعالم خلق من أجل الإنسان. والإنسان خلق ليعبد الله. ولكنك تجده لا يلتفت لما خلق من أجله، بل يلتفت للأشياء التي خلقت له. وقد كان من المنطقي أن ينشغل بما خلق من أجله.

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ٢/٧٢٤

(٢) تفسير الشعراوي الشعراوي ٦/٣٤٥٤

وإذا أخذنا مثلا منطق الإنسان مع الزمن، نجد أن الزمن إما أن يكون حاضرا أو ماضيا أو مستقبلا. فإذا أردنا أن نذهب إلى ما لا نهاية نقول: إن الزمن حاضر وأزلي وأبدي.

والأزلي: هو القديم بلا بداية. والأبد: هو المستقبل بلا نهاية. والحاضر: هو ما نعيش فيه.

والوجود الذي تراه أمامك خلقه الحق سبحانه واجب الوجود وبكلمة «كن» جاء كل «ممكن الوجود» ؛ لأن كل وجود يحتاج إلى موجد هو وجزد ممكن، وسيأتي له عدم. أما الوجود غير المحتاج إلى موجد فهو وجود." (١)

"أما عصا موسى عليه السلام فلم تكن تخييلا، بل وجدها السحرة حية حقيقية، ولقفت بالفعل ما صنعوا؛ ولذلك خروا ساجدين، وأعلنوا الإيمان برب موسى وهارون.

هم إذن لم يعلنوا الإيمان بموسى وهارون، بل أعلنوا الإيمان:

﴿برب هارون وموسى﴾ [طه: ٧٠] .

لأنهم عرفوا بالتجربة أن ما ألقاه موسى ليس سحرا، بل هو من فعل خالق أعلى.

وكان ثبات موسى عليه السلام في تلك اللحظة نابعا من التدريب الذي تلقاه من ربه، فقد سأله الحق سبحانه:

﴿وما تلك بيمينك ياموسى قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾ [طه: ١٧١٨] .

وقد أجمل موسى وفصل في الرد على الحق سبحانه؛ إيناسا وإطالة للأنس بالله تعالى، وحين رأى أنه أطال الإيناس أوجز وقال بأدب:

﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ [طه: ١٨] .

إذن: فقد أدركته أولا شهوة **الأنس بالله** تعالى، وأدرك ثانيا أدب التخاطب مع الله تعالى، ودربه الحق سبحانه على مسألة العصا حين أمره." (٢)

"وهكذا يمكن أن تذهب عنك أي ضيق، أن تسبح الله. وإذا ما جافاك البشر أو ضايقك الخلق؛ فاعلم أنك قادر على **الأنس بالله** عن طريق التسبيح؛ ولن تجد أرحم منه سبحانه، وأنت حين تسبح ربك فأنت تنزهه عن كل شيء وتحمده، لتعيش في كنف رحمته.

ولذلك نجده سبحانه يقول في موقع آخر: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤] .

ولذلك إذا ضاق صدرك في الأسباب فاذهب إلى المسبب.." (٣)

"وهكذا أطال موسى مدة **الأنس بالله** والحديث معه سبحانه، لذلك سأله: يا رب، أيوجد في الأرض أعلم مني؟ فأجابه ربه تبارك وتعالى: نعم في الأرض من هو أعلم منك، فاذهب إلى مجمع البحرين، وهناك ستجد عبدا من عبيدي هو

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ٥١٩٧/٩

(٢) تفسير الشعراوي الشعراوي ٦١٣٤/١٠

(٣) تفسير الشعراوي الشعراوي ٧٧٨٦/١٣

أعلم منك، فأخذ موسى فتاه وذهب إلى مجمع البحرين.
وقد ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن موسى عليه السلام خطب مرة فسئل: من أعلم؟ فقال: أنا يعني من البشر، فأخبره الله تعالى: لا بل في الأرض من هو أعلم منك من البشر حتى لا يغتر موسى عليه السلام بما أعلمه الله.
ثم يقول تعالى: ﴿لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ [الكهف: ٦٠]
لا أبرح: أي لا أترك، والبعض يظن أن لا أبرح تعني: لا أترك مكاني الذي أنا فيه، لكنها تعني: لا أترك ما أنا بصدده، فإن كنت قاعدا لا أترك القعود، وإن كنت ماشيا لا أترك المشي، وقد قال موسى عليه السلام هذا القول وهو يبتغي بين البحرين، ويسير متجها إليه، فيكون المعنى: لا أترك السير إلى هذا المكان حتى أبلغ مجمع البحرين.
وقد وردت مادة (برح) في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي. .﴾ [يوسف: ٨٠] قالها كبيرهم بعد أن أخذ يوسف أخاه بنيامين ومنعه من الذهاب معهم، فهنا استحى الأخ الأكبر من مواجهة أبيه الذي أخذ عليهم العهد والميثاق أن يأتوا به ويعيدوه إليه.." (١)

"إلقاء العصا له في القرآن ثلاث مراحل: الأولى: هي التي واكبت اختيار الله لموسى ليكون رسولا، حين قال له: ﴿وما تلك بيمينك ياموسى﴾ [طه: ١٧] وقلنا: إن موسى عليه السلام أطال في إجابة هذا السؤال لحرصه على إطالة مدة **الأنس بالله** عز وجل فقال: ﴿هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى﴾ اطه: ١٨] .." (٢)

"عليه السلام أراد أن يطيل أمد **الأنس بالله** والبقاء في حضرته تعالى، ولما أحس موسى أنه أطال في هذا المقام أجمل، فقال: ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ [طه: ١٨] فللعصا مهام أخرى كثيرة في حياته.
وهنا يقول سبحانه: ﴿وألق عصاك﴾ [النمل: ١٠] يعني: إن كانت العصا بالنسبة لك بهذه البساطة، وهذه مهمتها عندك فلها عندي مهمة أخرى، فانظر إلى مهمتها عندي، وإلى ما لا تعرفه عنها.
﴿وألق عصاك﴾ [النمل: ١٠] فلما ألقى موسى عصاه وجدها ﴿تهتز كأنها جآن﴾ [النمل: ١٠] يعني: حية تسعى وتتحرك، والعجيب أنها لم تتحول إلى شيء من جنسها، فالعصا عود من خشب، كان فرعا في شجرة، فجنسه النبات ولما قطعت وجفت صارت جمادا، فلو عادت إلى النباتية يعني: إلى الجنس القريب منها واخضرت لكانت عجيبة.
أما الحق تبارك وتعالى فقد نقلها إلى جنس آخر إلى الحيوانية، وهذه قفزة كبيرة تدعو إلى الدهشة بل والخوف، خاصة وهي ﴿تهتز كأنها جآن﴾ [النمل: ١٠] أي: تتحرك حركة سريعة هنا وهناك.
وطبيعي في نفسية موسى حين يرى العصا التي في يده على هذه الصورة أن يخاف ويضطرب ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ [طه: ٦٧٦٨] .

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ٨٩٤٩/١٤
(٢) تفسير الشعراوي الشعراوي ١٠٥٦٠/١٧

ومعنى: ﴿الأعلى﴾ [طه: ٦٨] إشارة إلى أنه تعالى يعده لمهمة كبرى، وأن لهذه العصا دورا من الخصوم، وسوف ينتصر عليهم، ويكون هو الأعلى.." (١)

"أن يبيعه العصفور، فلما اشتراه عمر وصار في حوزته أطلقه، فقال الغلام: فو الله ما قصرت بعدها حيوانا على **الأنس به**.

وسبق أن تكلمنا عن مسألة التسخير، وكيف أن الله سخر الجمل الضخم بحيث يسوقه الصبي الصغير ولم يسخر لك مثلا البرغوث فلو لم يذلل الله لك هذه المخلوقات ويجعلها في خدمتك ما استطعت أنت تسخيرها بقوتك.

وقوله تعالى: ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة. .﴾ [لقمان: ٢٠] أسبغ: أتم وأكمل، ومنها قوله تعالى عن سيدنا داود: ﴿أن اعمل سابغات ... ﴾ [سبأ: ١١] أي: دروعا ساترة محكمة تقي لابسها من ضربات السيوف وطعنات الرماح، والدروع تجعل على الأعضاء الهامة من الجسم كالقلب والرئتين، وقد علم الله تعالى داود أن يصنع الدروع على هيئة الضلوع، ليست ملساء، إنما فيها نتوءات تتحطم عليها قوة الضربة، ولا تتزحلق فتصيب مكانا آخر.

وروي أن لقمان رأى دواد - عليه السلام - يعجن الحديد بين يديه فتعجب، لكنه لم يبادر بالسؤال عما يرى وأمهله إلى أن انتهى من صنعته للدرع، فأخذه ولبسه وقال: نعم لبوس الحرب أنت، فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله فظلت حكمة تتردد إلى آخر الزمان.

فمعنى أسبغ علينا النعمة: أتمها إتماما يستوعب كل حركة." (٢)

"عن ابن عباس وغيره، فإن مصاحف الإسلام كلها قد ثبت فيها ﴿حتى تستأنسوا﴾ وصح الإجماع فيها من لدن مدة عثمان، فهي التي لا يجوز خلافها، وإطلاق الخطأ والوهم على الكتاب في لفظ أجمع الصحابة عليه قول لا يصح عن ابن عباس، وقد قال -عز وجل-: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [(٤٢) سورة فصلت] وقال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [(٩) سورة الحجر] وقد روي عن ابن عباس أن في الكلام تقديما وتأخيرا، والمعنى: حتى تسلموا على أهلها، وتستأنسوا، حكاه أبو حاتم، قال ابن عطية: ومما ينفي هذا القول عن ابن عباس وغيره أن ﴿تستأنسوا﴾ متمكنة في المعنى، بينة الوجه في كلام العرب، وقد قال عمر للنبي -صلى الله عليه وسلم-: استأنس يا رسول الله، وعمر واقف على باب الغرفة، الحديث المشهور، وذلك يقتضي أنه طلب **الأنس به** -صلى الله عليه وسلم- فكيف يخطئ ابن عباس أصحاب الرسول في مثل هذا.

قلت: قد ذكرنا من حديث أبي أيوب أن الاستئناس إنما يكون قبل السلام، وتكون الآية على بابها، لا تقديم فيها ولا تأخير، وأنه إذا دخل سلم، والله أعلم.

الخامسة: السنة في الاستئذان ثلاث مرات لا يزاد عليها ..

فيقول: السلام عليكم، فإن أجيب وإلا كرر، السلام عليكم، السلام عليكم، ثلاث مرات، ومنهم من يقول: أن السلام

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ١٠٧٤٥/١٧

(٢) تفسير الشعراوي الشعراوي ١١٦٨١/١٩

ثلاثا، معناه أن يسلم عند الباب، يعني يقول: السلام عليكم أأدخل؟ ثم إذا دخل المحل سلم عليهم، ثم إذا أراد الانصراف سلم، فهذه ثلاث مرات، لكن هذه غير الظاهر من لفظ الخبر، لأن التكرار ثلاثا قد لا يسمع صاحب البيت السلام من أول مرة، قد لا يسمعه في المرة الثانية، فيحتاج إلى ثالثة، فإذا سلم ثالثة ولم يؤذن له ينصرف، على ما في حديث أبي موسى وسيأتي.

طالب: .... ما يجمع بين الاستئناس والسلام والاستئذان.." "القائم الذي يقعده عن قيامه، كذلك الحبط في الشيء الصالح يفسده عن وهم صلاحه. ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بزوال ما فيها من روح **الأنس بالله** سبحانه، وتعالى، ولطيف الوصلة به، وسقوط إضافتها إليهم، إلا مقرونة ببيان حبوطها، فقد بطل ما كان لها من الإقبال من الحق والتعظيم من الخلق.

﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بإبطال ما كان يستحق عليها من الثواب بصادق الوعد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾

قال الْحَرَالِّي: لما ذكر أمر المتزلزلين ذكر أمر الثابتين – انتهى.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾

قال الْحَرَالِّي: من المهاجرة، وهو مفاعلة، من الهجرة، وهو التخلي عما شأنه الاغتباط به، لمكان ضرر منه ﴿وَجَاهَدُوا﴾ أي أوقعوا المجاهدة، مفاعلة من الجهد – فتحا وضما – وهو الإبلاغ في الطاقة والمشقة في العمل.

﴿يَرْجُونَ﴾ من الرجاء، وهو ترقب الانتفاع، بما تقدم له سبب ما. قاله الْحَرَالِّي.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قال الْحَرَالِّي: وفي الختم بالرحمة أبدا في خواتم الآي إشعارا بأن فضل الله في الدنيا والآخرة ابتداء فضل، ليس في الحقيقة جزاء العمل، فكما يرحم العبد طفلا ابتداء، يرحمه كهلا انتهاء، ويبتدئه برحمته في." (١)

"ما في بطني لجعلته محررا. ومعنى" لك" أي لعبادتك." محررا" نصب على الحال وقيل: نعت لمفعول محذوف، أي إني نذرت لك ما في بطني غلاما محررا، والأول أولى من جهة التفسير وسياق الكلام والإعراب: أما الإعراب فإن إقامة النعت مقام المنعوت لا يجوز في مواضع، ويجوز على المجاز في أخرى، وأما التفسير فقيل إن سبب قول امرأة عمران هذا أنها كانت كبيرة لا تلد، وكانوا أهل بيت من الله بمكان، وإنها كانت تحت شجرة فبصرت بطائر يزق فرخا فتحركت نفسها لذلك، ودعت ربها أن يهب لها ولدا، ونذرت إن ولدت أن تجعل ولدها «١» محررا: أي عتيقا خالصا لله تعالى، خادما للكنيسة حبيسا عليها، مفرغا لعبادة الله تعالى. وكان ذلك جائزا في شريعتهم، وكان على أولادهم أن يطيعوهم. فلما وضعت مريم قالت:" رب إني وضعتها أنثى " يعني أن الأنثى لا تصلح لخدمة الكنيسة. قيل لما يصيبها من الحيض والأذى. وقيل: لا تصلح لمخالطة الرجال. وكانت ترجو أن يكون ذكرا «٢» فلذلك حررت. الثالثة- قال ابن العربي:" لا خلاف أن امرأة عمران لا يتطرق إلى حملها نذر لكونها حرة، فلو كانت امرأته أمة فلا خلاف أن المرء لا يصح له نذر في ولده وكيفما

---

(١) تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي، الحرالي، أبو الحسن ص/٣٩٠

تصرفت حاله، فإنه إن كان الناذر عبدا فلم يتقرر له قول في ذلك، وإن كان حرا فلا يصح أن يكون مملوكا له، وكذلك المرأة مثله، فأي وجه للنذر فيه؟ وإنما معناه– والله أعلم– أن المرء إنما يريد ولده للأنس به والاستنصار والتسلي، فطلبت هذه المرأة الولد أنسا به وسكونا إليه، فلما من الله تعالى عليها به نذرت أن حظها من **الأنس به** متروك فيه، وهو على خدمة الله تعالى موقوف، وهذا نذر الأحرار من الأبرار. وأرادت به محررا من جهتي، محررا من رق الدنيا وأشغالها، وقد قال رجل من الصوفية لأمه: يا أمه: ذريني لله أتعبد له وأتعلم العلم، فقالت نعم. فسار حتى تبصر ثم عاد إليها فدق الباب، فقالت من؟ فقال لها: ابنك فلان، قالت: قد تركناك لله ولا نعود فيك. الرابعة– قوله تعالى: (محررا) مأخوذ من الحرية التي هي ضد العبودية، من هذا تحرير الكتاب، وهو تخليصه من الاضطراب والفساد. وروى خصيف عن عكرمة ومجاهد:

---

(١). في ب: ما ولدته.

(٢). في ب ود: غلاما.." (١)

"يتعلق بما ظهر، وما بطن.

٣٥ – (إني نذرت لك ما في بطني. .). قال ابن عطية، وابن العربي:

" نذرت بعد أن حملت ".

وقال الزمخشري: قَبْل أن تحمل. والأول ظاهر الآية. ابن العربي: لا خلاف أن المرء لا يصح له نذر في ولده؛ لأنه لا يملكه فكيف هذا؟.

فأجاب: بأن المرء يريد ولده للأنْس به فطلبت هذه المرأة الولد، لتأنس به فلما منّ الله عليها به نذرت أن حظها من **الأنس به** متروك، وهو على خدمة الله موقوف.

– (فتقبل مني. . .) حكى ابن دقيق العيد: الخلاف هل القبول أخص من الإجزاء، أو هما مترادفان، أو متغايران؟. وظاهر كلام الفقهاء أنهما مترادفان بدليل استدلالهم على وجوب الطهارة بقوله صلى الله عليه." (٢)

"(لقد من الله على المؤمنين) أي أحسن إليهم وتفضل عليهم، والمنة النعمة العظيمة، وخص المؤمنين لكونهم المنتفعين ببعثة الرسول (إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) يعني من جنسهم عربيا مثلهم، ولد ببلدهم، ونشأ بينهم يعرفون نسبه، وقيل بشرا مثلهم، ووجه المنة على الأول أنهم يفقهون عنه ويفهمون كلامه، ولا يحتاجون إلى ترجمان، ومعناها على الثاني أنهم يأنسون به بجامع البشرية، ولو كان ملكا لم يحصل كمال **الأنس به** لاختلاف الجنسية.

وقرىء من أنفسهم بفتح الفاء أي أشرفهم، لأنه من بني هاشم، وبنو هاشم أفضل من قريش وقريش أفضل من العرب، والعرب أفضل من غيرهم.

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٦٦/٤

(٢) التقييد الكبير للبسيلي، البسيلي ص/٥١٦

ولعل وجه الامتنان على هذه القراءة أنه لما كان من أشرفهم كانوا أطوع له وأقرب إلى تصديقه، ولا بد من تخصيص المؤمنين في هذه الآية بالعرب على الوجه الأول، وأما على الوجه الثاني فلا حاجة إلى هذا التخصيص، وكذا على قراءة من قرأ بفتح الفاء لا حاجة إلى التخصيص، لأن بني هاشم هم أنفس العرب والعجم في شرف الأصل وكرم النجار (١) ورفاعة المحتد.
ويدل على الوجه الأول قوله تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) وقوله (وإنه لذكر لك ولقومك).
وكان فيما خطب به أبو طالب حين زوج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خديجة بنت خويلد وقد حضر ذلك بنو هاشم ورؤساء مضر: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء معد، وعنصر مضر، وجعلنا سدنة بيته وسواس حرمه، وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا، وجعلنا الحكام على الناس. وإن ابنى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به فتى إلا رجح، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطب جليل.

(١) النجار بالضم والكسر الأصل والحسب اهـ منه.." (١)

"فما رؤي عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من غير تفاوت ﴿ أفبنعمة الله ﴾ وهي أنه جعلهم موالي مفضلين لا عبيدا مفضولين ﴿ يجحدون ﴾ أو جعل عدم التسوية بينهم وبين عبيدهم من جملة جحود النعمة ، أو جعل اعتقاد أهلية العبادة لغير الله كفرا بنعمة الله والجحود في معنى الكفران فلذلك عداه بالباء . قال أبو عبيدة وأبو حاتم . قراءة الغيبة – وهي الكثرى – أولى لقرب المخبر عنه ، ولأنه لو كان خطابا كان ظاهره للمسلمين وإنهم لا يخاطبون بجحد نعمة البتة . الحالة الأخرى من أحوال الإنسان قوله عم طوله : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم ﴾ أي من جنسكم ﴿ أزواجا ﴾ ليكون **الأنس به** أتم . ولا ريب أن تخليق الذكور والإناث مستند إلى قدرة الله وتكوينه . والطبيعيون قد يذكرون له وجها قالوا : إن المني إذا انصب من الخصية اليمنى إلى الذكر ثم انصب منه إلى الجانب الأيمن من الرحم كان الولد ذكرا تاما في الذكورة بناء على أن الذكر أسخن مزاجا وكذا الجانب الأيمن ، وإن انصب من الخصية اليسرى إلى الجانب الأيسر من الرحم كان الولد تاما في الأنوثية ، وإذا انصب من اليمنى إلى الأيسر كان ذكرا في طبيعة الإناث ، وإن كان بالعكس كان بالعكس . قال الإمام فخر الدين الرازي : هذه العلة ضعيفة فقد رأينا في النساء من كان مزاجه في غاية السخونة وفي الرجال من كان في غاية البرودة . ولقائل أن يقول : الكلام في المزاج الصنفي لا في المزاج الشخصي ، وهذا الإمام لم يفرق بينهما فاعترض بأحدهما على الآخر . ﴿ وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾ أصل الحفد الإسراع في الخدمة . والفاعل حافد والجمع حفدة . فقيل : أراد بها في الآية الأختان على البنات . وقيل : أولاد الأولاد . وقيل : أولاد المرأة من الزوج

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٦٩/٢

الأول وقيل : الخدم والأعوان . وقيل : البنون أنفسهم الجامعون بين الأمرين البنوة والخدمة . وقيل : الأولى دخول الكل فيه . ثم ذكر إنعامه عليهم بالمطعومات الطيبة لأن لذة المنكوح لا تهنأ إلا بعد الفراغ من لذة المطعوم أو بعد الفراغ من تحصيل أسبابها . وأورد « من » التبعيضية لأن لذة كل الطيبات لا تكون إلا في الجنة . ثم ختم الآية بقوله : ﴿ أفبالباطل يؤمنون ﴾ فقيل : الباطل هو ما اعتقدوه من منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها ونعمة الله ما عدده في الآيات السابقة . وقيل : الباطل ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ، ونعمة الله ما أحل لهم . وإنما قال ههنا : ﴿ وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ وفي آخر « العنكبوت » ﴿ وبنعمة الله يكفرون ﴾ [الآية : ٦٧] لأن تلك الآيات استمرت على الغيبة فلم يحتج إلى زيادة ضمير الغائب . وأما في الآية فقد سبق مخاطبات كثيرة فلم يكن بد من ضمير الغائب المؤكد لئلا يلتبس بالخطاب .." (١)

" آل عمران ٣٠ – ٣٥

ويحذركم الله نفسه ليكون على بال منهم لا يغفلون عنه والله رءوف بالعباد ومن رأفته بهم أن حذرهم نفسه حتى لا يتعرضوا لسخطه ويجوز أن يريد أنه مع كونه محذورا لكمال قدرته مرجو لسعة رحمته كقوله تعالى إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ونزل حين قال اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله محبة العبد لله إيثار طاعته على غير ذلك ومحبة الله العبد أن يرضى عنه ويحمد فعله وعن الحسن زعم اقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم أنهم يحبون الله فأراد أن يجعل لقولهم تصديقا من عمل فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب وكتاب الله يكذبه وقيل محبة الله معرفته ودوام خشيته ودوام اشتغال القلب به وبذكره ودوام **الأنس به** وقيل هى اتباع النبى عليه السلام فى أقواله وأفعاله وأحواله إلا ما خص به وقيل علامة المحبة أن يكون دائم التفكير كثير الخلوة دائم الصمت لا يبصر إذا نظر ولا يسمع إذا نودى ولا يحزن إذا أصيب ولا يفرح إذا اصاب ولا يخشى أحدا ولا يرجوه ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم قل أطيعوا الله والرسول قيل هى علامة المحبة فان تولوا أعرضوا عن قبول الطاعة ويحتمل أن يكون مضارعا أى فان تتولوا فان الله لا يحب الكافرين أى لا يحبهم إن الله اصطفى اختار آدم أبا البشر ونوحا شيخ المرسلين وآل إبراهيم إسماعيل وإسحق وأولادهما وآل عمران موسى وهرون هما ابنا عمران بن يصهر وقيل عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة على العالمين على عالمى زمانهم ذرية بدل من آل إبراهيم وآل عمران بعضها من بعض مبتدأ وخبره فى موضع النصب صفة لذرية يعنى أن الآلين ذرية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض موسى وهرون من عمران وعمران من يصهر ويصهر من قاهث وقاهث من لاوى ولاوى من يعقوب ويعقوب من إسحق وكذلك عيسى بن مريم بنت عمران بن ماثار وهو يتصل بيهودا بن يعقوب بن إسحق وقد دخل فى آل إبراهيم رسول الله صلى الله عليه و سلم وقيل بعضها من بعض فى الدين والله سميع عليم يعلم من يصلح للاصطفاء أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيتها إذ قالت وإذ منصوب

---

(١) تفسير النيسابوري، ٤٧/٥

به أو باضمار اذكر امرأة عمران هى امرأة عمران بن ماثان أم مريم جدة عيسى وهى حنة بنت فاقوذا رب إنى نذرت لك أوجبت ما فى بطنى محررا هو حال من ما وهى ." (١)

"" صفحة رقم ١٦٩ "

طاشوا ، فإذا طاشوا طاروا ، فإذا طاروا وصلوا ، فإذا وصلوا اتصلوا ، فهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وقال الجنيد : يحشر الناس كلهم عراة إلا من لبس لباس التقوى ، وغراثا إلا من أكل طعام المعرفة ، وعطاشى إلا من شرب شراب المحبة .

الشعراء : (٨٠) وإذا مرضت فهو . . . . .

) وإذا مرضت (أضاف إبراهيم (عليه السلام) المرض إلى نفسه وإن كان من الله سبحانه ؛ لأن قومه كانوا يعدونه عيبا فاستعمل حسن الأدب ، نظيرها قصة الخضر حيث قال) فأردت أن أعيبها (وقال) فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ( ) فهو يشفين (يبرئني

يحكى أن أبا بكر الوراق مر بطبيب يعطي الناس الأدوية فوقف عليه وقال : أيفعل دواؤك هذا أمرين ؟

قال : وما هما ؟

فقال : رد قضاء قاض وجر شفاء شاف ؟

فقال : لا

قال : فليس (ذلك بشيء) .

وقال جعفر الصادق : إذا مرضت بالذنوب شفاني بالتوبة .

سامر بن عبد الله : إذا أمرضتني مقاساة الخلق شفاني بذكره **والأنس به** .

الشعراء : (٨١) والذي يميتني ثم . . . . .

) والذي يميتني ثم يحيين (أدخل ههنا) ثم (للقطع والتراخي .

قال أهل اللسان والاشارة : يميتني بالعدل ويحييني بالفضل ، يميتني بالمعصية ويحييني بالطاعة ، يميتني بالفراق ويحييني بالتلاقي ، يميتني بالخذلان ويحييني بالتوفيق ، يميتني غنى ويحييني به ، يميتني بالجهل ويحييني بالعلم .

الشعراء : (٨٢) والذي أطمع أن . . . . .

) والذي أطمع (أرجو) أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين (قراءة العامة بالتوحيد .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدثنا ابن حنش قال : حدثنا أبا القاسم بن الفضل قال : حدثنا أبي قال : حدثنا أحمد بن يزيد قال : حدثنا روح عن أبي اليقظان قال : حدثنا الحكم السلمي." (٢)

---

(١) تفسير النسفي، ١/١٥٠

(٢) الكشف والبيان ـ ، ١٦٩/٧

"واختلف المفسرون في قوله تعالى " هم درجات " من المراد بذلك فقال ابن إسحاق وغيره المراد بذلك الجمعان المذكوران أهل الرضوان وأصحاب السخط أي لكل صنف منهم تباين في نفسه في منازل الجنة وفي أطباق النار أيضا وقال مجاهد والسدي ما ظاهره إن المراد بقوله " هم " إنما هو لمتبعي الرضوان أي لهم درجات كريمة عند ربهم وفي الكلام حذف مضاف تقديره هم درجات والدرجات المنازل بعضها أعلى من بعض في المسافة أو في التكرمة أو العذاب وقرأ إبراهيم النخعي هم درجة بالإفراد وباقي الآية وعيد ووعد

سورة آل عمران ١٦٤ - ١٦٥

اللام في " لقد " لام القسم و " من " في هذه الآية معناه تطول وتفضل وقد يقال من بمعنى كدر معروفه بالذكر فهي لفظة مشتركة

وقوله تعالى " من أنفسهم " معناه في الجنس واللسان والمجاورة فكونه من الجنس يوجب **الأنس به** وقلة الاستيحاش منه وكونه بلسانهم يوجب حسن التفهيم وقرب الفهم وكونه جارا وربيا يوجب التصديق والطمأنينة إذ قد خبروه وعرفوا صدقه وأمانته فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسب قومه وكذلك الرسل قال النقاش ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل أمهاتهم إلا بني تغلب لنصرانيتهم والآيات في هذه الآية يحتمل أن يراد بها القرآن ويحتمل أن يراد بها العلامات والأول أظهر " ويزكيهم " معناه يطهرهم من دنس الكفر والمعاصي قال بعض المفسرين معناه يأخذ منهم الزكاة وهذا ضعيف و " الكتاب " القرآن " والحكمة " السنة المتعلمة من لسانه صلى الله عليه وسلم ثم ذكر حالتهم الأولى من الضلال ليظهر الفرق بتجاور الضدين وقيل لفظة مبينة لما تضمنت الإضافة فأشبهت الحروف في تضمن المعاني فبينت

٥٣٨

(١) ".

"قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا ﴾ هذا بدل من قوله : ﴿ أناب ﴾ ، والمعنى : يهدي الذين آمنوا ، ﴿ وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ في هذا الذكر قولان :

أحدهما : أنه القرآن . والثاني : ذكر الله على الإطلاق .

وفي معنى هذه الطمأنينة قولان :

أحدهما : أنها الحب له **والأنس به** . والثاني : السكون إليه من غير شك ، بخلاف الذين إذا ذكر الله اشمأزت قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿ ألا بذكر الله ﴾ قال الزجاج : «ألا» حرف تنبيه وابتداء ، والمعنى : تطمئن القلوب التي هي قلوب المؤمنين ، لأن الكافر غير مطمئن القلب .

قوله تعالى : ﴿ طوبى لهم ﴾ فيه ثمانية أقوال :

أحدها : أنه اسم شجرة في الجنة . روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله A " أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما طوبى؟ قال

---

(١) المحرر الوجيز ، ١/٥٦٩

: شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها " ، وقال أبو هريرة : طوبى : شجرة في الجنة ، يقول الله D لها : تفتقي لعبدي عما شاء ، فتتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها ، وعن الإبل بأزمتها : وعما شاء من الكسوة . وقال شهر بن حوشب : طوبى : شجرة في الجنة ، كل شجر الجنة منها أغصانها ، من وراء سور الجنة ، وهذا مذهب عطية ، وشمر بن عطية ، ومغيث بن سمي ، وأبي صالح .

والثاني : أنه اسم الجنة بالحبشية ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال المصنف : وقرأت على شيخنا أبي منصور عن سعيد بن مسجوح قال : طوبى : اسم الجنة بالهندية ، وممن ذهب إلى أنه اسم الجنة عكرمة ، وعن مجاهد كالقولين .

والثالث : أن معنى طوبى لهم : فرح وقرة عين لهم ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والرابع : أن معناه : نعمى لهم ، قاله عكرمة في رواية ، وفي رواية أخرى عنه : نعم مالهم .

والخامس : غبطة لهم ، قاله سعيد بن جبير ، والضحاك .

والسادس : أن معناه : خير لهم ، قاله النخعي في رواية ، وفي أخرى عنه قال : الخير والكرامة اللذان أعطاهم الله . وروى معمر عن قتادة قال : يقول الرجل للرجل : طوبى لك ، أي : أصبت خيرا ، وهي كلمة عربية .

والسابع : حسنى لهم ، رواه سعيد عن قتادة عن الحسن .

والثامن : أن المعنى : العيش الطيب لهم . «و طوبى» عند النحويين : فعلى من الطيب ، هذا قول الزجاج . وقال ابن الأنباري : تأويلها : الحال المستطابة ، والخلة المستلذة ، وأصلها : «طيبى» فصارت الياء واوا لسكونها وانضمام ما قبلها كما صارت في «موقن» والأصل فيه «ميقن» لأنه مأخوذ من اليقين ، فغلبت الضمة فيه الياء فجعلتها واوا .

قوله تعالى : ﴿ وحسن مآب ﴾ المآب : المرجع والمنقلب .." (١)

" وإنك لمن المرسلين حيث تخبر بتلك الآيات وقصص القرون الماضية وأخبارها على ما هي عليه من غير مطالعة كتاب ولا إجتماع بأحد يخبر بذلك ووجه مناسبة هذه القصة لما قبلها ظاهرة وذلك لأنه تعالى لما أمر المؤمنين بالقتال في سبيله وكان قد قدم قبل ذلك قصة الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت إما بالطاعون أو القتال على سبيل التشجيع والتثبيت للمؤمنين والإعلام أنه لا ينجي حذر من قدر أردف ذلك بأن القتال كان مطلوبا مشروعا في الأمم السابقة فليس من الأحكام التي خصصتم بها لأن ما وقع فيه الإشتراك كانت النفس أميل لقبوله من التكليف الذي يقع به الإنفراد هذا ومن باب الإشارة في هذه الآيات ألم تر إلى ملأ القوى من بني إسرائيل البدن من بعد موسى القلب إذ قالوا لنبي عقولهم أبعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله وطريق الوصول إليه بواسطة أمره وإرشاده قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا اي إني أتوقع منكم عدم المقاتلة لإنغماسكم في أو حال الطبيعة قالوا وما لنا ألا نقاتل في طريق السير إلى الله تعالى وقد أخرجنا من ديار إستعداداتنا الأصلية التي لم نزل بالحنين إليها وأغتربنا عن أبناء كمالاتنا اللاتي لم نبرح عن مزيد البكاء عليها فلما كتب عليهم القتال لعدوهم الذي تسبب لهم الإغتراب وأحل بهم العجب العجاب تولوا وأعرضوا عن مقاتلته وأنتظموا في سلك شيعته إلا قليلا منهم وهم القوى المستعدة والله عليم بالظالمين الذين نقصوا حظوظهم وقال لهم نبيهم إن

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، ٣/٤

الله قد بعث لكم طالوت الروح الإنساني ملكا متوجا بتاج الأنوار الألهية جالسا على كسرى التدبيرات الصمدانية قالوا لإحتجاجهم بحجاب الإنانية وغفلتهم عن العلوم الحقانية كيف يكون له الملك علينا مع إنحطاط مرتبته بتنزله إلى عالم الكثافة من عالمه الأصلي وليس فيه مشابحة لنا ونحن أحق بالملك منه لإشتراكنا في عالمنا ومشابحة بعضنا بعضا وشبيه الشيء ميال إليه قريب أتباعه له

ولكل شيء آفة من جنسسه

ولم يؤت سعة من مال التصرف إذ لا يتصرف إلا بالواسطة قال : إن الله تعالى أختاره عليكم لبساطته وتركبكم وزاده سعة في العلم الألهي وقوة في الذات النوراني والله يؤتي ملكه من يشاء فيدبره بإذنه والله واسع لسعة الإطلاق عليم بالحكم التي تقتضي الظهور والتجلي بمظاهر الأسماء وقال لهم نبيهم إن آية ملكه عليكم وخلافته من قبل الرب فيكم أن يأتيكم تابوت الصدر فيه سكينة أي طمأنينة من ربكم وهي الطمأنينة بالإيمان **والأنس بالله** تعالى وبقية مما ترك آل موسى القلب وآل هرون السر وهي من التوحيد وعصا لا إله إلا الله التي تلقف عظيم سحر صفات النفس وطست تجلي الأنوار الذي يغسل به قلوب الأنبياء وشيء من توراة الإلهامات تحمله ملائكة الإستعدادات لدى طالوت الروح فعند ذلك تسلم له الخلافة وينقاد له جميع أسباط صفات الإنسان فلما فصل طالوت وجنوده من وزير العقل ومشير القلب ومدبر الإفهام ونظام الحواس قال إن الله مبتليكم بنهر الطبيعة الجسمانية المترع بمياه الشهوات فمن شرب منه وكرع مفرطا في الري فليس من أشياعي الذين هم من عالم الروحانيات وأهل مكاشفات الصفات ومن لم يطعمه ويذقه فإنه من سكان حظائر القدس وحضار جلوة عرائس منصة الإنس إلا من أغترف غرفة بيده وقنع من ذلك بقدر الضرورة ولإحتياج من غير حرص وإنحماك فشربوا منه وكرعوا وأنحمكوا فيه إلا قليلا منهم وهم المتنزهون عن الأقذار الطبيعية المتقدسون عن ملابسها المتجردون عن غواشيها وقليل ما هم فلما جاوز طالوت الروح نحر الطبيعة وعبره هو والذين آمنوا من القلب والعقل والملك وغيرهم من أتباع الروح معه قال بعضهم وهم الضعفاء الذين ." (١)

" وإذا هم كتموا يحدث عنهم ... عند الوشاة المدمع السحاح ...

وما ذكر أولا يكون مستمسكا في الذب عن الشيخ الأكبر قدس سره وأضرابه فانهم لم يبالوا في كشف الحقائق التي يدعونها بكونه سببا لضلال كثير من الناس وداعيا للانكار عليهم وقد استدل بعض بالآية في الرد عليهم بناء على أن المعنى الحق ما يكون من جهته تعالى وما جاؤا به ليس من جهته سبحانه لأنه لا تشهد له آية ولا يصدقه حديث ولا يؤيده أثر وأجيب بأن ذلك ليس إلا من الآيات والأحاديث إلا أنه لا يستنبط منها إلا بقوة قدسية وأنوار إلهية فلا يلزم من عدم فهم المنكرين لها من ذلك لحرمانهم تلك القوة واحتجاجهم عن هاتيك الأنوار عدم حقيتها فكم من حق لم تصل إليه أفهامهم واعترض بأنه لو كان الأمر كذلك لظهر مثل تلك الحقائق في الصدر الأول فإن أرباب القوى القدسية والأنوار الالهية فيه كثيرون والحرص على إظهار الحق أكثر وأجيب بأنه يحتمل أن يكون هناك مانع أو عدم مقتض لاظهار ما أظهر من الحقائق وفيه نوع دغدغة ولعله سيأتيك إن شاء الله تعالى ما عسى أن ينفعك هنا وبالجملة أمر الشيخ الأكبر وأضرابه قدس

---

(١) روح المعاني، ١٧٥/٢

الله تعالى أسرارهم فيما قالوا ودونوا عندي مشكل لا سيما أمر الشيخ فإنه أتى بالداهية الدهياء مع جلالة قدره التي لا تنكر ولذا ترى كثيرا من الناس ينكرون عليه ويكرون وما ألطف ما قاله فرق جنين العصابة الفاروقية والراقي في مراقي التنزلات الموصلية في قصيدته التي عقد اكسيرها في مدح الكبريت الأحمر فغدا شمسا في آفاق مدائح الشيخ الأكبر وهو قوله ... ينكر المرء منه أمرا فينها ... ه نهاه فينكر الانكارا ... تنثني عنه ثم تثنى عليه ... ألسن تشبه الصحاة سكارى ...

يحلون فيها من أساور من ذهب قيل هي إشارة إلى أنهم يحلون حقائق التوحيد الذاتي ومعاني التجليات العينية الاحدية ويلبسون ثيابا خضرا إشارة إلى أنهم متصفون بصفات بهيجة حسنة نضرة موجبة للسرور من سندس الاحوال والمواهب وعبر عنها بالسندس لكونها ألطف واستبرق الاخلاق والمكاسب وعبر عنها بالاستبرق لكونها أكثف متكئين فيها على الأرائك قيل أي أرائك الاسماء الالهية واضرب لهم مثلا رجلين الخ فيه من تسلية الفقراء المتوكلين على الله تعالى وتنبيه الاغنياء المغرورين ما فيه وقال النيسابوري الرجلان هما النفس الكافرة والقلب المؤمن جعلنا لأحدهما وهو النفس جنتين هما الهوى والدنيا من أعناب الشهوات وحففناها بنخل حب الرياسة وجعلنا بينهما زرعا من التمتعات البهيمية فجرنا خلالهما نهرا من القوى البشرية والحواس وكان له ثمر من أنواع الشهوات وهو يحاوره أي يجاذب النفس أنا أكثر منك مالا أي ميلا وأعز نفرا من الأوصاف المذمومة وهو ظالم نفسه في الاستمتاع بجنة الدنيا على وفق الهدى لأجدن خيرا منها قال ذلك غرورا بالله تعالى وكرمه فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها من العمر وحسن الاستعداد انتهى

وقد التزم هذا النمط في أكثر الآيات ولا بدع فهو شأن كثير من المؤولين هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا قال ابن عطاء للطالبين له سبحانه لا للجنة وخير عقبا للمريدين والباقيات الصالحات قيل هي المحبة الدائمة والمعرفة الكاملة **والأنس بالله** تعالى والاخلاص في توحيده سبحانه والانفراد به جل وعلا عن غيره فهي باقية للمتصف بها وصالحة لا اعوجاج فيها وهي خير المنازل وقد تفسر بما يعمها وغيرها ." (١)

" متسعة كانت أو ضيقة لم يفوض التحديد إلى رأي الفاعل وهو دليل حسن وأما القائل بالفرضية فقد نظر إلى اللفظ دون الدليل الخارجي ولكل وجه وأما قوله ولقوله تعالى ومن الليل الخ فالإستدلال بأنه فسر نافلة لك أن معناه زائدة على الفرائض لك خاصة دون غيرك لأنها تطوع لهم وهذا القائل لا يمنع الوجوب في حقه عليه الصلاة و السلام وإنما يمنعه في حق غيره صلى الله تعالى عليه وسلم والآية تدل عليه فلا نظر فيه ثم أنه لما ذكر سبحانه في تلك السورة ومن الليل أي خص بعض الليل دون توقيت وههنا وقت جل وعلا على مشاركة الأمة له عليه الصلاة و السلام قوله تعالى وطائفة من الذين معك نزل ما ثم على الوجوب عليه صلى الله تعالى عليه وسلم خاصة وههنا على التنفل في حقه وحق الأمة وهذا قول سديد إلا أن قوله تعالى على أن لن تحصوه فتاب عليكم يؤيد الأول انتهى وعني بالأول القول بالفرضية عليه عليه والسلام وعلى الأمة وظواهر الآثار الكثيرة تشهد له لكن في البحر أن قوله تعالى وطائفة من الذين معك دليل على أنه لم يكن فرضا على الجميع إذ لو كان فرضا عليهم لكان التركيب والذين معك إلا أن أعتقد أنه كان منهم من يقوم في بيته

---

(١) روح المعاني، ١٥/٣٠٩

ومنهم من يقوم معه فيمكن إذ ذاك الفرضية في حق الجميع انتهى وأنت تعلم أنه لا يتعين كون من تبعيضية بل تحتمل أن تكون بيانية ومن يقول بالفرضية على الكل صدر الإسلام بحملها على ذلك دون البعضية باعتبار المعية فإنها ليست بذاك والله تعالى أعلم وأفادت الآية على القول الأخير في قوله سبحانه فاقرؤا الخ ندب قراءة شيء من القرآن ليلا وفي بعض الآثار من قرأ مائة آية في ليلة لحاجة القرآن وفي بعضها من قرأ آية كتب من القانتين وفي بعض خمسين آية والمعول عليه من القولين فيه القول الأول وقد سمعت أن الأمر عليه للإيجاب وأنه كان يجب قيام شيء من الليل ثم نسخ وجوبه عن الأمة بوجوب الصلوات الخمس فهو اليوم في حق الأمة سنة وفي البحر بعد تفسير فاقرؤا يصلوا وحكاية ما قيل من النسخ وهذا الأمر عند الجمهور أمر إباحة وقال الحسن وابن سيرين قيام الليل فرض ولو قدر حلب شاة وقال ابن جبير وجماعة هو فرض لا بد منه ولو بمقدار خمسين آية انتهى سياقه أن هؤلاء قائلون بوجوبه اليوم وأنه لم ينسخ الوجوب مطلقا وإنما نسخ وجوب معين وهذا خلاف المعروف فعن ابن عباس سقط قيام الليل عن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصار تطوعا وبقي ذلك فرضا على رسول الله عليه الصلاة و السلام وأظن الأمر غنيا من الإستدلال فلنطو بساط القيل والقال نعم كان السلف الصالح يثابرون على القيام مثابرتهم على فرائض الإسلام لما في ذلك من الخلوة بالحبيب **والأنس به** وهو القريب من غير رقيب نسأل الله تعالى أن يوفقنا كما وفقهم ويمن علينا كما من عليهم بقي هنا بحث وهو أن الإمام أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه استدل بقوله تعالى فاقرؤوا ما تيسر من القرآن على أن الفرض في الصلاة مطلق القراءة لا الفاتحة بخصوصها وهو ظاهر على القول بأنه عبر فيه عن الصلاة بركنها وهو القراءة كما عبر عنها بالسجود والقيام والركوع في مواضع وقدر ما تيسر بآية على ما حكاه عنه الماوردي وبثلث على ما حكاه عنه ابن العربي والمسألة مقررة في الفروع وخص الشافعي ومالك ما تيسر بالفاتحة واحتجوا على وجوب قراءتها في الصلاة بحجج كثيرة منها ما نقل أبو حامد الإسرافيني عن ابن المنذر بإسناده عن أبي هريرة عنه عليه الصلاة و السلام لا تجزي صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب ومنها ما روي عن أبي هريرة عنه صلى الله تعالى عليه وسلم كل صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج فهي خداج أي نقصان للمبالغة أو ذو نقصان واعترض بأن النقصان لا يدل على عدم الجواز وأجيب بأنه يدل لأن التكليف بالصلاة قائم والأصل في الثابت البقاء خالفناه عند الإتيان بها على صفة الكمال فعند النقصان وجب أن يبقى على الأصل ولا يخرج عن العهدة ." (١)

"وتمام ذلك أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدا ، وأنه يقال لهم : (إن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا) ، فلهم كل ما يشاءون فيها وتتعلق به أمانيهم ، ولهم فوق ذلك مما لم تبلغه أمانيهم ، ولهم نعيم أعلى من ذلك كله ، وهو التمتع بالنظر إلى وجهه الكريم ، وسماع خطابه ، والابتهاج برضاه وقربه ، والسرور بمحبته ، وذكره وحمده ، والثناء عليه وشكره ، مما

---

(١) روح المعاني، ١١٢/٢٩

يشاهدون من كثرة الخيرات ، وسوابغ النعم والهبات ، وزيادة النعيم وتواصله ، ومما يزدادون من معرفته **والأنس به** ، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام .." (١)

"﴿فأنزل الله سكينته﴾ أي : أمنه الذي تسكن إليه القلوب ، ﴿عليه﴾ أي : على رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو على صاحبه ، ﴿وأيده بجنود لم تروها﴾ ، يعني الملائكة ، أنزلهم ليحرسوه في الغار ، أو يوم بدر وأحد وغيرهما ، فتكون على هذا : الجملة معطوفة على : ﴿فقد نصره الله﴾. ﴿وجعل كلمة الذين كفروا﴾ وهي الشرك ، أو دعوى الكفر ، ﴿السفلى وكلمة الله﴾ التي هي التوحيد ، أو دعوة الإسلام ، ﴿هي العليا﴾ ؛ حيث خلص رسوله صلى الله عليه وسلم من بين الكفار ، ونقله إلى المدينة ، ولم يزل ينصره حتى ظهر التوحيد وبطل الكفر ، ﴿والله عزيز﴾ ؛ غالب على أمره ، ﴿حكيم﴾ في أمره وتدبيره.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٧٧

الإشارة : ما قيل في حق الرسول صلى الله عليه وسلم يقال في حق ورثته ، الداعين إلى الله بعده ؛ من العارفين بالله ، فيقال لمن تخلف عن صحبة ولي عصره وشيخ تربية زمانه : إلا تنصروه فقد نصره الله وأعزه ، وأغناه عن غيره ، فمن صحبه فإنما ينفع نفسه ، فقد نصره الله حين أنكره أهله وأبناء جنسه ، كما هي سنة الله في أوليائه ، لأن الداخل على الله منكور ، والراجع إلى الناس مبرور ، فمن دخل مع الخصوص قطعا أنكرته العموم ، فنخرجه ثاني اثنين هو وقبله ، فيأوي إلى كهف **الأنس بالله** ، والوحشة مما سواه ، فيقول لقلبه : لا تحزن إن الله معنا ، فينزل الله عليه سكينة الطمأنينة والتأييد ، وينصره باجناد أنوار التوحيد والتفريد ، فيجعل كلمة أهل الإنكار السفلى ، وكلمة الداعين إلى الله هي العليا ، والله عزيز حكيم.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٧٧

قلت : (يهلكون) : حال من فاعل (يحلفون) ، أو بدل منه. قال في القاموس : (الشقة). بالضم والكسر : البعد والناحية يقصدها المسافر ، والسفر ، البعيد والمشقة. هـ.

". (٢)

"قلت : الموصول : بدل ممن أناب ، أو خبر عن مضمر ، أي : هم. والموصول الثاني بدل ثان ، أو مبتدأ ، وجملة (طوبى) : خبر ، وهي فعلى ، من الطيب ، كبشرى من البشارة ، قلبت ياؤها واوا ؛ لضم ما قبلها ، ومعناها : أصبت خيرا وطيبا. وقيل : شجرة في الجنة. وسوغ الابتداء بها : ما فيها من معنى الدعاء.

يقول الحق جل جلاله : في وصف من سبقت له الهداية واتصفت بالإنابة : هم ﴿الذين آمنوا﴾ بالله وبرسوله إيمانا تمكن من قلوبهم ، واطمأنت إليه نفوسهم ؛ فإذا حركتهم الخواطر والهواجس ، أو فتن الزمان وأهواله ﴿تطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ ، وترتاح بذكر الله ؛ أنسا به ، واعتمادا عليه ورجاء منه ، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته ، أو بذكر آلائه ، ودلائله الدالة على وجوده ووحدانيته ، أو بكلامه القرآن ، الذي هو أقوى المعجزات. قاله البيضاوي. وقال في القوت : معنى

---

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، ٧١/١

(٢) البحر المديد. ، ١٠٧/٣

تطمئن بذكر الله : تهش وتستأنس به. قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي بعد كلام : والحاصل أن المراد من الطمأنينة : السكون إلى المذكور ، **والأنس به**. ووجود الروح والفرح والانشراح ، والغنى به. هـ.

قال تعالى : ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ لا بغيره ، فلا تسكن إلا إليه ، ولا تعتمد إلا عليه ؛ فإن سكنت إلى غيره ذهب نورها ، وعظم قلقها. ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم﴾ أي : لهم عيش طيب وحياة طيبة. أو الجنة ، أو شجرة فيها ، ﴿وحسن مآب﴾ أي : مرجع يرجعون إليه بعد الموت.

الإشارة : الطمأنينة على قسمين : طمأنينة إيمان وطمأنينة شهود وعيان. قوم اطمأنوا إلى غائب موجود ، وقوم إلى آخر مشهود. قوم اطمأنوا بوجود الله من طريق الإيمان على

٣٣٧

نعت الدليل والبرهان ، وقوم اطمأنوا بشهود الله من طريق العيان على نعت الذوق والوجدان. وهذه ثمرة الإكثار من ذكر الله.

". (١)

"وأهل طمأنينة الإيمان على قسمين ؛ باعتبار القرب والبعد : فمنهم من يطمئن بوجود الحق على نعت القرب والأنس ، وهم أهل المراقبة من الزهاد والصالحين ، والعلماء العابدين المجتهدين ، وهم متفاوتون في القرب على قدر تفرغهم من الشواغل والعلائق ، وعلى قدر التخلية والتحلية. ومنهم من يطمئن إليه على نعت البعد من قلبه ، وهم أهل الشواغل والشواغب ، و العلائق والعوائق. وعلامة القرب : وجود حلاوة المعاملة ، كلذيذ المناجاة ، **والأنس به** في الخلوات ، ووجود حلاوة القرآن والتدبر في معانيه ، حتى لا يشبع منه من كل أوان. وعلامة البعد : فقد الحلاوة المذكورة ، وعدم **الأنس به** في الخلوة ، وفقد الحلاوة القرآن ، ولو كان من أعظم علماء اللسان.

٣٣٨

وأهل طمأنينة الشهود على قسمين أيضا : فمنهم من تشرق عليه أنوار ، وتحيط به الأسرار ، فيغرق في الأنوار وتطمس عنه الآثار ، فيكسر ويغيب عن الأثر في شهود المؤثر ، ويسمى عندهم هذا المقام : مقام الفناء. ومنهم من يصحو من سكرته ، ويفيق من صعقته ، فيشهد المؤثر ، لا يحجبه جمعه عن فرقه ، ولا فرقة عن جمعه ، ولا يضره فناؤه عن بقائه ، ولا بقاؤه ، عن فنائه ، يعطي كل ذي حق حقه ، ويوفي كل ذي قسط قسطه ، وهو مقام البقاء ، ولا يصح وجوده إلا بعد وجود ما قبله ، فلا بقاء إلا بعد الفناء ، ولا صحو إلا بعد السكر. ومن ترامى على هذا المقام . أعني مقام البقاء . من غير تحقيق مقام السكر والفناء فهو لم يبرح عن مقام أهل الحجاب.

". (٢)

(١) البحر المديد . ، ٣/٤٦٤

(٢) البحر المديد . ، ٣/٤٦٦

"جزء : ٤ رقم الصفحة : ٤٢١

الإشارة : عمى القلوب هو انطماس البصيرة ، وعلامة انطماسها أمور : إرسال الجوارح في معاصي الله ، والانهماك في الغفلة عن الله ، والوقيعة في أولياء الله ، والاجتهاد في طلب الدنيا مع التقصير فيما طلبه منه الله. وفي الحكم : " اجتهادك فيما ضمن لك ، وتقصيرك فيما طلب منك ، دليل على انطماس البصيرة منك ". وعلامة فتحها أمور : المسارعة إلى طاعة الله ، واستعمال المجهود في معرفة الله ، بصحبة أولياء الله ، والإعراض عن الدنيا وأهلها ، **والأنس بالله** ، والغيبة عن كل ما سواه. واعلم أن البصر

٤٢٢

والبصيرة متقابلان في أصل نشأتهما ، فالبصر لا يبصر إلا الأشياء الحسية الحادثة ، والبصيرة لا تبصر إلا المعاني القديمة الأزلية ، فإذا انطمست البصيرة كان العبد مفروقا عن الله ، لا يرى إلا الأكوان الظلمانية الحادثة. وفي ذلك يقول المجذوب رضي الله عنه.

من نظر الكون بالكون غره في عمى البصيرة

ومن نظر الكون بالمكون صادق علاج السريرة

". (١)

"﴿وإن لكم في الأنعام﴾ ، جمع نعم ، وهي الإبل والبقر والغنم ، ﴿لعبرة﴾ تعتبرون بها ، وتستدلون بأحوالها على عظم قدرة الله تعالى ، وسابغ نعمته ، وتشكرونه عليه ، ﴿نسقيكم مما في بطونها﴾ من الألبان سائغة للشاربين ، أو مما استقر في بطونها من العلف ؛ فإن اللبن يتكون منه ، ﴿ولكم فيها منافع كثيرة﴾ ، سوى الألبان ، وهي منافع الأصواف والأوبار والأشعار. ﴿ومنها تأكلون﴾ أي : من لحومها ، ﴿وعليها﴾ أي : على الأنعام في البر ، ﴿وعلى الفلك﴾ في البحر ﴿تحملون﴾ في أسفاركم ومتاجركم ، والمراد بالأنعام في الحمل الإبل ؛ لأنها هي المحمول عليها في البر ، فهي سفائن العرب ، كما قال ذو الرمة :

سفنة بر تحت خدي زمامها

يريد ناقته. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ولقد خلقنا فوق قلوبكم سبعة حجب ، فمن خرقها أفضى إلى فضاء شهود ذاتنا وأنوار صفاتنا ، وهي حجاب المعاصي والذنوب ، وحجاب النقائص والعيوب ، وحجاب الغفلات ، وحجاب العوائد والشهوات ، وحجاب الوقوف مع حلاوة المعاملات ، وحجاب الوقوف مع الكرامات والمقامات ، وحجاب حس الكائنات ، فمن خرق هذه الحجب بالتوبة والتزكية واليقظة والعفة والرياضة ، **والأنس بالله** والغيبة عما سواه ، ارتفعت عنه الحجب ، ووصل إلى المحبوب. قال الورتجي : أوضح سبع طرائق لنا إلى أنوار صفاته السبعة. هـ. وقال القشيري : الحق - سبحانه - لا يستتر من رؤيته مدرك

---

(١) البحر المديد ، ٤/٦٣١

، ولا تخفى عليه من مخلوقاته خافية ، وإنما الحجب على أبصار الخلق وبصائرهم ، والعادة جارية أنه لا يخلق لنا الإدراك لما وراء الحجب ، ولذلك أدخلت الغفلة القلوب ، واستولى عليها الذهول ، سدت بصائرها ، وغيبت فهومها ، ففوقها حجب ظاهرة وباطنة ، ففي الظاهر : السموات حجب تحول بيننا وبين المنازل العالية ، وعلى القلوب أغشية وأغطية ، كالشهوة والأمنية ، والإرادات الشاغلة والغفلة المتراكمة.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٨

" . (١)

"وبعد هذا : الموافقة ؛ وهو ألا يجد الراحة في المنع ولا في العطاء ، وإنما يجد حلاوة نسيم القرب ، وزوائد الأنس بنسيان كل أرب. فكما أن حلاوة الطاعات تتصاغر عند برد الرضا – ويعدون ذلك حجابا – كذلك أهل الأنس بالله يعدون الوقوف مع حلاوة الرضا والاشتغال بلطائفه نقصانا وحجابا. ثم بعد هذا استيلاء سلطان الحقيقة ، بما يأخذ العبد عن جملته بالكلية ، فيعبر عن هذه الحالة بالخمود ، والاستهلاك ، والوجود ، والاصطلام ، والفناء – وهذا هو عين التوحيد الخاص – فعند ذلك لا أنس ، ولا هيبة ، ولا

١٤٢

لذة ، ولا راحة ، ولا وحشة ، ولا آفة. يعني : غيب المقامات بلذاتها وراحتها ، عند تحقق الفناء ، ثم قال : هذا بيان ترتيبهم ، فأما ما دون ذلك ؛ فالإخبار عن أحوال المتوكلين ، على تباين شرفهم ، يختلف على حسب اختلاف حالهم. انتهى بالمعنى.

وقال أيضا : ويقال : التوكل في الأسباب الدنيوية ينتهي إلى حد ، وأما التوكل على الله في إصلاح آخرته : فهو أشد غموضا وأكثر خفاء ، فالواجب ، في الأسباب الدنيوية ، أن يكون السكون عند طلبها غالبا ، والحركة تكون ضرورة ، وأما في أمر الآخرة وما يتعلق بالطاعة ، فالواجب البدار والجد والانكماش ، والخروج عن أوطان الكسل ، وترك الجنوح إلى الفشل. والذي يوصف بالتواني في العبادات والتباطؤ في تلافي ما ضيعه من إرضاء الخصوم ، والقيام بحق الواجبات ، ثم يعتقد في نفسه أنه متوكل على الله ، فهو متمن معلول الحال ، ممكور مستدرج ، بل يجب أن يبذل جهده ، ويستفرغ وسعه ، ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته ، ولا يستند إلى سكونه وحركته ، ويتبرأ من حوله وقوته ، ثم يحسن الظن بربه. ومع حسن ظنه بربه لا ينبغي أن يخلو من مخافته ، اللهم إلا أن يغلب على قلبه ما يشغله في الحال ؛ من كشوفات الحقائق عن الفكرة في العواقب ؛ فإن ذلك – إذا حصل – فالوقت غالب ، وهو أحد ما قيل في قولهم : الوقت سيف. هـ.

" . (٢)

"الإشارة : عرش النفس الذي تستقر عليه هو الدنيا ، فمن أحب الدنيا وركن إلى أهلها ، فقد أجلس نفسه على عرشها ، وصيرها مالكه له ، متصرفة فيه بما تحب ، ومن أبغض الدنيا وزهد في أهلها ، فقد هدم لها عرشها ، وصارت

---

(١) البحر المديد. ، ٥/١٤

(٢) البحر المديد. ، ٥/٢٢٠

خادمة مملوكة له ، يتصرف فيها كيف يشاء. فيقول الداعي إلى الله – وهو من أهله الله للتربية – للمريدين : أيكم يأتيني بعرشها ، ويخرج عنها لله في أول بدايته ؟ فمنهم من يأتي بها بعد مدة ، ومنهم من يأتي بها أسرع من طرفة ، على قدر القوة والعزم والصدق في الطلب ، ومن أتى بعرش نفسه ، وخرج عنها لله ، فهو الذي آتاه الله علما من الكتاب ، وعرف مدلوله ومقصوده ، لكن من السياسة أن يتدرج المريد في تركها شيئا فشيئا ، حتى يخرج عنها ، أو يغيب عن شغلها بالكلية ، وإن كانت بيده. فاما خرجوا عن عرش نفوسهم لله ، وتوجهوا إليه ، ورأى ذلك منهم ، قال : هذا من فضل ربي ، حيث وقعت الهداية على يدي ، ليبلوني ، أشكر أم أكفر.. الآية. قال نكروا لها عرشها ، أي : اعرضوا عليها الدنيا ، وأروها عرشها التي كانت عليه ، متغيرا عن حاله الأولى – لأنه كان معشوقا لها ، والآن صار ممقوتا ، لغناها بالله – ننظر أتهتدي إليه ، وترجع إلى محبته ، فيكون علامة على عدم وصولها ، أم تكون من الذين لا يهتدون إليه أبدا ، فتكون قد تمكنت من **الأنس بالله** ، فلما جاءت وأظهر لها عرشها اختبارا ، قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو ، وأوتينا العلم بالله من قبل هذه الساعة ، وكنا منقادين لمراده ، فلن نرجع إلى ما خرجنا عنه لله أبدا. وصدها عن الحضرة ما كانت تبعد من الهوى ، من دون محبة الله ، إنها كانت من قوم كافرين ، منكرين للحضرة ، غير عارفين بها. قيل لها حين رحلت عن عرشها : ادخلي دار الحضرة ، فلما رأت بحر الوحدة ، يتموج بتيار الصفات ، دهشت ، وحسبته لجة ، يغرق صاحبه في بحر الزندقة ، قال لها رئيس البحرية – وهو شيخ التربية : إنه بحر منزه متصل ، لا أول له ، ولا آخر له. ليس مثله شيء ، ولا معه شيء ، ." (١)

"الإشارة : العارف الكامل لا يركن إلى شيء دون الله تعالى ، فلا يطمئن إلى وعد ، ولا يخاف من وعيد ، بل هو عبد بين يدي سيده ، ينظر ما يبرز من زمن عنصر قدرته ، فإن بشر بشيء في النوم أو اليقظة ، لا يركن إليه ، ولا يقف معه ؛ لأن غيب المشيئة غامض ، وإن خوف بشيء في النوم أو غيره ، لا يفزع ولا يجزع ؛ لأن الغنى بالله **والأنس به** غيبه

١٥٠

عن كل شيء ، وفي الله خلف من كل تلف " ماذا فقد من وجدك ؟ " والله يتولى الصالحين ، ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا...﴾ [الطلاق : ٢] الآية.

قال في الإبريز : الرؤيا المحزنة إنما هي اختبار من الله للعبد ، هل يبقى مع ربه أو ينقطع عنه ، فإن كان العبد متعلقا به تعالى ، ورأى الرؤيا المحزنة ، لم يلتفت إليها ، ولما يبال بها ؛ لعلمه بأنه منسوب إلى من بيده تصاريف الأمور ، وأن ما اختاره تعالى سبقت به المشيئة ، فلا يهوله أمر الرؤيا ، ولا يلقي إليها بالا ، وهذه لا تضره بإذن الله تعالى : وإذا كان العبد غير متعلق بربه ، ورأى رؤيا محزنة ، جعلها نصب عينيه ، وعمر بها باطنه ، وانقطع بها عن ربه ، ويقدر أنها لا محالة نازلة به ، فهذا هو الذي تضره ؛ لأن من خاف من شيء سلطه عليه. هـ.

وسئل سهل التستري رضي الله عنه عن الاستثناء في هذه الآية ، فقال : تأكيدا في الافتقار إليه ، وتأديبا لعباده في كل حال ووقت. هـ. أي : أدبهم لئلا يقفوا مع شيء دونه.

---

(١) البحر المديد ، ٥/٣٣٩

جزء : ٧ رقم الصفحة : ١٤٩
". (١)

"أولى لك فأولى﴾ أي : ويل لك ، وأصله : أولاك الله ما تكره ، واللام مزيدة ، كما في قوله : ﴿ردف لكم﴾ [النمل : ٧٢] أو : أولى الهلاك لك فأولى ، وقيل : هو مقلوب من الويل ، وقيل : أولى بالعذاب وأحق به ، وقيل : من الولي ، وهو القرب ، أي : قاربه ما يهلكه. ﴿ثم أولى لك فأولى﴾ ، كرر للتأكيد ، كأنه قيل : ويل لك فويل لك ثم ويل لك فويل لك ، وقيل : التكرير فيه ، لأنه أراد بالأول : الهلاك الدنيوي وفي القبر والبرزخ ، ثم في القيامة ، ثم في النار. ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ ؛ أيظن الكافر أن يترك مهملا ، لا يؤمر ولا ينهى ولا يبعث ولا يجازى ، ﴿ألم يك نطفة من مني تمنى﴾ ؟ أي : تراق في الأرحام ، ﴿ثم كان علقة﴾ أي : صار المني قطعة دم جامد ، بعد أربعين يوما ﴿فخلق فسوى﴾ أي : فخلق الله منها بشرا سويا ؟ ﴿فجعل منه﴾ ؛ من الإنسان ، أو : من المني ﴿الزوجين﴾ ؛ الصنفين ﴿الذكر والأنثى﴾ لحكمه بقاء النسل ، ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ وهو أهون من البدء في قياس العقول ؟ كان عليه السلام إذا قرأها يقول : " سبحانك! بلى ".

١٩١

الإشارة : قال في الإحياء : اعلم أن رأس الخطايا والمهلكة هو حب الدنيا ، ورأس أسباب النجاة هو : التجافي بالقلب عن دار الغرور. ثم قال : واعلم أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته **والأنس به** في الدنيا ، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة ، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ، ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر ، ولا تتيسر المواظبة على الذكر إلا بإقلاع حب الدنيا من القلب ، ولا يقع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ، ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات ، ولا تنقمع الشهوات بشيء كما تنقمع بنار الخوف المحرقة للشهوات. هـ. على نقل صاحب الجواهر.
". (٢)

"وفي الآية إشارة إلى أن النفوس المتخلفة عن الطاعات والعبادات من الفرائض والنوافل لو دعيت إلى الجهاد في سبيل الله أو الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس والشيطان والدنيا تقاتلونهم بنهى النفس عن الهوى وترك الدنيا وزينتها فإن أجابوا وأطاعوا فقد استوجبوا الأجر الحسن وإن أعرضوا عن الطاعات والعبادات يعذبهم الله بعذاب أليم يتألمون به في الدنيا والآخرة ﴿ليس على الاعمى﴾ لما وعد على التخلف نفي الحرج عن الضعفاء والمعذورين فقال : ليس على الأعمى وهو فاقد البصر ﴿حرج﴾ إثم في التخلف عن الغزو لأنه كالطائر المقصوص الجناح لا يمتنع عن من قصده والتكليف يدور على الاستطاعة وأصل الحرج والحراج مجتمع الشيء كالشجر وتصور منه ضيق ما بينهما فقيل للضيق حرج وللاثم حرج ﴿ولا على الاعرج حرج﴾ لما به من العلة اللازمة إحدى الرجلين أو كليتهما وقد سقط عمن ليس له رجلان غسلهما في الوضوء فكيف بالجهاد والأعرج بالفارسية لنك.

---

(١) البحر المديد. ، ٧/٢١٦

(٢) البحر المديد. ، ٨/٢٩١

من العروج لأن الأعرج ذاهب في صعود بعد هبوط وعرج كفرح إذا صار ذلك خلقة له وقيل للضبع عرجاء لكونها في خلقتها ذات عرج وعرج كدخل ارتقى وأصابه شيء في رجليه فمشى مشي العارج أي الذاهب في صعود وليس ذلك بخلقة أو يثلث في غير الخلقة كما في القاموس ﴿ولا على المريض حرج﴾ لأنه لا قوة به وفي نفي الحرج عن كل من الطوائف الممدودة مزيد اعتناى بأمرهم وتوسيع لدائرة الرخصة ﴿ومن﴾ وهركه ﴿يطع الله ورسوله﴾ أي فيما ذكر من الأوامر والنواهي في السر والعلانية ﴿يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار﴾ قال بعض الكبار : إنما سميت الجنة جنة لأنها ستر بينك وبين الحق تعالى وحجاب فإنها محل شهوات الأنفس وإذا أراد أن يريك ذاتك حجبك عن شهوتك ورفع عن عينيك سترها فغبت عن جنتك وأنت فيها ورأيت ربك والحجاب عليك منك فأنت الغمامة على شمسك فاعرف حقيقة نفسك ﴿ومن يتول﴾ عن الطاعة وبالفارسية : وهركه اعراض كند از فرمان خدا ورسول ﴿يعذبه عذابا أليما﴾ لا يقادر قدره وبالفارسية عذابي دردناك كه دردان منقطع نكر ددوالم آن منقضى نشود وآن عذاب حرمانست ه بمخالفت امر خدا از دولت لقامهجور وبنافرماني رسول از سعادت شفاعت محروم خواهدماند.

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٢

مسوز آتش محروميم كه هي عذاب.

زروى سوزو الم ون عذاب حرمان نيست.

وفي الآية إشارة إلى أصحاب الأعذار من أرباب الطلب فمن عرض له مانع يعجزه عن السير بلا عزيمة منه وهمته في الطلب ورغبته في السير وتوجهه إلى الحق باق فلا حرج عليه فيما يعتريه فيكون أجره على الله وذلك قوله تعالى : ومن يطع الله ورسوله يعني بقدر الاستطاعة يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يغني يعرض عن الله وينقض عهد الطلب

٣٢

بعذبه عذابا أليما كما قال أوحد المشايخ في وقته أبو عبد الله الشيرازي قدس سره : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول : من عرفه طريقا إلى الله فسلكه ثم رجع عنه عذبه الله بعذاب لم يعذب به أحدا من العالمين وقد قالوا مرتد الطريقة أعظم ذنبا من مرتد الشريعة وقال الجنيد : لو أقبل صديق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة فإن ما فاته أكثر مما ناله وقال بعضهم في الآية إشارة إلى الأعمى الحقيقي وهو من لا يرى غير الله لا الآخرة التي أشير إليها بالعين ولا الدنيا التي أشير إليها بالعين اليسرى وهو معذور باستعمال الرخص والدخول في الرفاهية كما قال بعض الكبار : إن المحقق لا يجوع نفسه إلا اضطرارا سيما إذا كان في مقام الهيبة وكسر الصفات فإنه يكثر أكتله لشدة سطوات نيران الحقائق في قلبه بالعظمة وشهودها وهي حالة المقربين ولكن قد يقلل عمدا على قصد المحاق بأهله **الأنس بالله** فهو بذلك يجتمع بالسالك انتهى وإلى الأعرج الحقيقي وهو من وصل إلى منزل المشاهدة فضرب بسيوف الوحدة والإطلاق على رجل الاثنينية والتقيد فتعطل آلاته بالفناء فتقاعد هناك وهم الأفراد المشاهدون فلا حرج لهم أن لا ينزلوا إلى مقام المجاهدين أيضا ومن هنا يعرف سر قولهم الصوفي من لا مذهب له فإن من لا مذهب له لا سير له ومن لا سير له لا يلزم له آلة وإلى المريض الحقيقي وهو الذي أسقمه العشق والمحبة وهو معذور إذا باشر الروحانيات مثل السماع واستعمال الطيب والنظر إلى المستحسنات

فإن مداواته أيضا تكون من قبيل العشق والمحبة لأن العشق أمرضه فيداوي بالعشق أيضا كما قيل :

تداويت من ليلي بليلي من الهوا

كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٢

." (١)

"كزيرى باهى در افتاده بود

كه از هول او شير نرماده بود

همه شب زفرياد وزراى نخفت

يكى بر سرش كوفت سنكى وكفت

توهر كز رسيدى بفرياد كس

كه ميخواهى امروز فرياد رس

كه بر جان ريشت نهد مرهمى

كه جانها بنالد زدستت همى

تومارا همى اه كندى براه

بسر لا جرم بر فتادى باه

يا اأيها الذين ءامنوا﴾ بألسنتهم وقلوبهم ﴿إذا تناجيتم﴾ ون راز كوييد بايكديكره يعني في أنديتكم وخلواتكم ﴿فلا تتناجوا بالاثم والعدوان﴾ كما يفعله المنافقون واليهود ﴿وتناجوا بالبر والتقوى﴾ أي بما يتضمن خبر المؤمنين والاتقاء عن معصية الرسول قال سهل رحمه الله بذكر الله وقراءة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿واتقوا الله الذى إليه تحشرون﴾ وحده لا إلى غيره استقلالا أو اشتراكا فيجازيكم بكل ما تأتون وما تذرون.

يعني بسوى أو جمع كرده خواهيد شد س از موت.

دلت الآية على أن التناجي ليس بمنهي عنه مطلقا بل مأمور به في بعض الوجوه إيجابا واستحبابا وإباحة على مقتضى المقام إن قيل كيف يأمر الله بالاتقاء عنه وهو المولى الرحيم والقرب منه ألذ المطالب **والأنس به** أقصى المآرب فالتقوى توجب الاجتناب والحشر إليه يستدعى الإقبال إليه يجاب بأن في الكلام مضافا إذا التقدير واتقوا عذاب ا أو قهر الله أو غيرهما فإن قيل إن العبد لو قدر على الخلاص من العذاب والقهر لأسرع إليه لكنه ليس بقادر عليه كما قال تعالى إن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله والأمر إنما يكون بالمقدور لا يكلف الله نفسا إلا وسعها أجيب بأن المراد الاتقاء عن السبب من الذنوب والمعاصي الصادرة عن العبد العاصي فالمراد واتقوا ما يفضي إلى عذاب الله ويقتضي قهره في الدارين من الإثم والعدوان ومعصية الرسول التي هي السبب الموجب لذلك فالمراد النهي عن

---

(١) تفسير روح البيان . ، ٢٨/٩

مباشرة الأسباب والأمر بالاجتناب عنها إن قيل إن ذلك الاتقاء إنما يكون بتوفيق الله له فإن وفق العبد له فلا حاجة إلى الأمر به وإن لم يوفقه فلا قدرة له عليه والأمر إنما يحسن في المقدور أجيب بأنه تعالى علمه الحق أولا ووهب له إرادة جزئية يقدر بها على اختيار شيء فله الاختيار السابق على إرادة الله تعالى ووجود الاختيار في الفاعل المختار أمر يطلع عليه كل أحد حتى الصبيان

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٣٨٨

﴿إنما النجوى﴾ المعهودة التي هي التناجي بالإثم والعدوان بقرينة ليحزن ﴿من الشيطان﴾ لا من غيره فإنه المزين لها والحامل عليها فكأنها منه ﴿ليحزن الذين ءامنوا﴾ خبر آخر من الحزن بالضم بعده السكون متعد من الباب الأول لا من الحزن بفتحتين لازما من الرابع كقوله تعالى : يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون فيكون الموصول مفعوله وفي القاموس

٤٠١

الحزن بالضم ويحرك الهم والجمع أحزان وحزن كفرح وحزنه الأمر حزنا بالضم وأحزنه جعله حزينا وحزنه جعل فيه حزنا وقال الراغب : الحزن والحزن خشونة في الأرض وخشونة في النفس لما يحصل فيها من الغم ويضاده الفرح ولاعتبار الخشونة بالغم قيل : خشنت بصدره إذا أحزنته والمعنى إنما هي ليجعل الشيطان المؤمنين محزونين بتوهمهم أنها في نكبة أصابهم في سيرتهم يعني أن غزاتهم غلبوا وأن أقاربهم قتلوا متألمين بذلك فاترين في تدبير الغزو إلى غير ذلك مما يشوش قلوب المؤنين وفي الحديث : إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فإن قلك يحزنه ﴿وليس﴾ أي الشيطان أو التناجي ﴿بضآرهم﴾ بالذي يضر المؤمنين ﴿شيا﴾ من الأشياء أو شيئا من الضرر.

يعني ضرر رساننده مؤمنان بيزى ﴿إلا بإذن الله﴾ أي بمشيئته وإرادته أي ما أراده من حزن أو وسوسة ما روي أن فاطمة رضي الله عنها رأت كأن الحسن والحسين رضي الله عنهما أكلا من أطيب جزور بعثه رسول الله إليهما فماتا فلما غدت سألته عليه السلام وسأل هو جبريل ملك الرؤيا فقال : لا علم لي به فعلم أنه من الشيطان وفي الكشاف إلا بإذن الله أي بمشيئته وهو أن يقضي الموت على أقاربهم أو الغلبة على الغزاة قال في الأسئلة المقحمة : أين ضرب الحزن؟ قلت : إن الحزن إذا سلمت عاقبته لا يكون حزنا في الحقيقة وهذه نكتة أصولية إذ الضرر إذا كانت عاقبته الثواب لا يكون ضررا في الحقيقة وهذه نكتة أصولية إذ الضرر إذا كانت عاقبته الثواب لا يكون ضررا في الحقيقة والنفع إذا كانت عاقبته العذاب لا يكون نفعا في الحقيقة ﴿وعلى الله﴾ خاصة ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ ليفوضوا أمورهم إليه وليثقوا به ولا يبالوا بنجواهم فإنه تعالى يعصمهم من شرها وضررها.

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٣٨٨

". (١)

"والجد: بفتح الجيم العظمة والجلال، وهذا تمهيد وتوطئة لقوله: ﴿ما اتخذ صاحبة ولا ولدا﴾ لأن اتخاذ الصاحبة للافتقار إليها لأنسها وعونها والالتذاذ بصحبتها، وكل ذلك من آثار الاحتياج، والله تعالى الغني المطلق، وتعالى جده بفناه

---

(١) تفسير روح البيان . ، ٣٢٧/٩

المطلق، والولد يرغب فيه للاستعانة **والأنس به**، مع ما يقتضيه من انفصاله من أجزاء والديه وكل ذلك من الافتقار والانتقاص.

وضمير ﴿إنه﴾ ضمير شأن وخبره جملة ﴿تعالى جد ربنا﴾ .

وجملة ﴿ما اتخذ صاحبة﴾ إلى آخرها بدل اشتمال من جملة ﴿تعالى جد ربنا﴾ .

وتأكيد الخبر ب"إن" سواء كانت مكسورة أو مفتوحة لأنه مسوق إلى فريق يعتقدون خلاف ذلك من الجن.

والاقتصار في بيان تعالي جد الله على انتفاء الصاحبة عنه والولد ينبئ بأنه كان شائعا في علم الجن ما كان يعتقده المشركون أن الملائكة بنات الله من سروات الجن وما اعتقاد المشركين إلا ناشئ عن تلقين الشيطان وهو من الجن، ولأن ذلك مما سمعوه من القرآن مثل قوله تعالى سبحانه: ﴿أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾ في سورة الأنعام [١٠١].

وإعادة ﴿لا﴾ النافية مع المعطوف للتأكيد للدلالة على أن المعطوف منفي باستقلاله لدفع توهم نفي المجموع.

وضمير الجماعة في قوله: ﴿ربنا﴾ عائد إلى كل متكلم مع تشريك غيره، فعلى تقدير أنه من كلام الجن فهو قول كل واحد منهم عن نفسه ومن معه من بقية النفر.

[٤] ﴿وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا﴾ .

قرأه الجمهور بكسرة همزة ﴿وإنه﴾ . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص وأبو جعفر وخلف بفتح الهمزة كما تقدم في قوله: ﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾ [الجن:٣] فقد يكون إيمانهم بتعالي الله عن أن يتخذ صاحبة وولدا ناشئا على ما سمعوه من القرآن وقد يكون ناشئا عن إدراكهم ذلك بأدلة نظرية.

والسفيه: هنا جنس، وقيل: أرادوا به إبليس، أي كان يلقنهم صفات الله بما لا يليق بجلاله، أي كانوا يقولون على الله شططا بل نزول القرآن بتسفيههم في ذلك.." (١)

"بناء أن الأصيل يطلق على وقت الظهر فيكون قوله: ﴿وسبحه﴾ إشارة إلى قيام الليل.

وهذه الآية جاءت على وفق قوله تعالى: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨] وقوله تعالى: ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا، واصبر على ما يقولون﴾ [المزمل: ٨-١٠].

[٢٧] ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا﴾ .

تعليل للنهي عن إطاعتهم في قوله: ﴿ولا تطع منهم آثما أو كفورا﴾ [الانسان: ٢٤]، أي لأن خلقهم الانصباب على الدنيا مع الإعراض عن الآخرة إذ هم لا يؤمنون بالبعث فلو أعطاهم لتخلق بخلقهم قال تعالى: ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء﴾ [النساء: ٨٩] الآية. فموقع ﴿إن﴾ موقع التعليل وهي بمنزلة فاء السببية كما نبه عليه الشيخ عبد القاهر.

و ﴿هؤلاء﴾ إشارة إلى حاضرين في ذهن المخاطب لكثرة الحديث عنهم، وقد استقريت من القرآن أنه إذا أطلق ﴿هؤلاء﴾

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٠٧/٢٩

دون سبق ما يكون مشارا إليه فالمقصود به المشركون، وقد ذكرت ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾ في سورة الأنعام [٨٩] وقوله تعالى: ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ في سورة هود [١٠٩].

وقد تنزه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن محبة الدنيا فقال "ما لي وللدنيا" فليس له محبة لأمورها عدا النساء والطيب كما قال "حبب إلي من دنياكم النساء والطيب" .

فأما النساء فالميل إليهن مركوز في طبع الذكور، وما بالطبع لا يتخلف، وفي **الأنس بهن** انتعاش للروح فتناوله محمود إذا وقع على الوجه المبرأ من الإيقاع في فساد وما هو الأمثل تناول الطعام وشرب الماء قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية﴾ [الرعد: ٣٨].

وأما الطيب فلأنه مناسب للتزكية النفسية.

وصيغة المضارع في ﴿يحبون﴾ تدل على تكرر ذلك، أي أن ذلك دأبهم وديدنهم لا يشاركون مع حب العاجلة حب الآخرة.." (١)

" ١٢٣ كان لنبي أن يغل) هو من الغلول وهو أخذ الشيء خفية من المغانم وغيرها وقرىء بفتح الياء وضم الغين ومعناه تبرئة النبي صلى الله عليه وسلم من الغلول وسببها أنه فقدت من المغانم قطيفة حمراء فقال بعض المنافقين لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها وقرىء بضم الياء وفتح الغين أي ليس لأحد أن يغل نبيا أي يخونه في المغانم وخص النبي بالذكر وإن كان ذلك محظورا من الأمر لشنعة الحال مع النبي لأن المعاصي تعظم بحضرته وقيل معنى هذه القراءة أن يوجد غالا كما تقول أحمدت الرجل إذا أصبته محمودا فعلى هذا القول يرجع معنى هذه القراءة إلى معنى فتح الياء ومن يغلل يأت بما غل وعيد لمن غل بأن يسوق يوم القيامة على رقبته الشيء الذي غل وقد جاء ذلك مفسرا في الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير لألفين أحدكم على رقبته فرس لألفين أحدكم على رقبته رقاع لألفين أحدكم على رقبته صامت لألفين أحكم على رقبته إنسان فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك أفمن اتبع الآية فقيل إن الذي اتبع رضوان الله من لم يغلل والذي باء بالسخط من غل وقيل الذي اتبع الرضوان من استشهد بأحد والذي باء بالسخط المنافقون الذين رجعوا عن الغزو وهم درجات ذووا درجات والمعنى تفاوت بين منازل أهل الرضوان وأهل السخط أو التفاوت بين درجات أهل الرضوان فإن بعضهم فوق بعض فكذلك درجات أهل السخط لقد من الله الآية إخبار بفضل الله على المؤمنين ببعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنفسهم معناه في الجنس واللسان فكونه من جنسهم يوجب **الأنس به** وقلة الاستيحاش منه وكونه بلسانهم يوجب حسن ألفهم عنه ولكونه منهم يعرفون حسبه وصدقه وأمانته صلى الله عليه وسلم ويكون هو صلى الله عليه وسلم أشفق عليهم وأرحم بهم من الأجنبيين أو لما أصابتكم مصيبة الآية عتاب للمسلمين على كلامهم." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٧٧/٢٩

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢٢٢/١

" إليه من أناب أي رجع إلى الحق وإنما يرجع إلى الحق من شاء الله رجوعه فكأنه قال ويهدي من يشاء الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب

قوله تعالى الذين آمنوا هذا بلد من قوله أناب والمعنى يهدي الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله في هذا الذكر قولان

أحدهما أنه القرآن والثاني ذكر الله على الإطلاق

وفي معنى هذه الطمأنينة قولان

أحدهما أنها الحب له **والأنس به** والثاني السكون إليه من غير شك بخلاف الذين إذا ذكر الله اشمأزت قلوبهم

قوله تعالى ألا بذكر الله قال الزجاج ألا حرف تنبيه وابتداء والمعنى تطمئن القلوب التي هي قلوب المؤمنين لأن الكافر غير مطمئن القلب

قوله تعالى طوبى لهم فيه ثمانية أقوال

قوله تعالى طوبى لهم فيه ثمانية أقوال

أحدها أنه اسم شجرة في الجنة روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أن رجلا قال يا رسول الله ما طوبى قال شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها وقال أبو هريرة طوبى شجرة في الجنة يقول الله عز و جل لها تفتقي لعبدي عما شاء فتتفتق له عن ." (١)

"الشتاء والصيف بينهما طباق ، وكذلك بين جوع وخوف.

هذا البيت

الإضافة للتكريم والتشريف.

لإيلاف قريش وقوله : ليعبدوا رب هذا البيت

تقديم ما حقه التأخير ، والأصل : ليعبدوا رب هذا البيت ، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فقدم الإيلاف تذكيرا بالنعمة.

جوع خوف التنكير لبيان شدتهما ، أي جوع وخوف شديدين.

المفردات اللغوية :

لإيلاف قريش يقال : آلف الشيء إيلافا ، وألف إلافا وإلفا ، أي لزمه وعكف عليه ، مع **الأنس به** وعدم النفور منه ،

قال الزمخشري : متعلق بقوله : ليعبدوا

أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين ، ودخلت الفاء على ليعبدوا

لما في الكلام من معنى الشرط إذ المعنى : أن نعم الله عليهم لا تحصى ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لأجله. وقريش مجموعة القبائل من ولد النضر بن كنانة. منقول من تصغير قرش وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن ، شبهوا بها لأنها تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تعلى ، وصغر الاسم للتعظيم. وقال أبو حيان : سموا بذلك لتجمعهم بعد التفرق ، جمعهم

---

(١) زاد المسير، ٤/٣٢٧

قصي بن كلاب في الحرم ، والتقريش : التجمع والالتئام.
إيلافهم رحلة الشتاء والصيف أي بسبب إلفهم الارتحال إلى اليمن في الشتاء ، وإلى الشام في الصيف كل عام ، يستعينون بالرحلتين للتجارة على المقام بمكة ، لخدمة البيت الذي هو فخرهم
ج ٣٠ ، ص : ٤١٥
و مجدهم. والرحلة : ارتحال القوم ، بشد الرحال للمسير.بيت
الكعبة. أطعمهم وسع لهم في الرزق. من جوع من خوف أي من أجل جوع وخوف. وآمنهم جعلهم في أمن وسلامة في الأموال والأنفس. من خوف خوف أصحاب الفيل ، أو التخطف في بلدهم ومسايرهم. وكان يصيبهم الجوع لعدم الزرع بمكة ، وخافوا جيش الفيل.
سبب النزول : نزول الآية (١) : ." (١)
"ج ١ ، ص : ٥٩٠
ذلك ، كل هذه أساليب تفيد المبالغة وتأكيد النزول وتأكدهم منه ، ومع هذا يقولون :
إن هذا إلا سحر مبين.
وكان الكفار قد اقترحوا اقتراحين ، أولهما : أن ينزل على الرسول ملك من السماء يرونه ويكون معه نذيرا ومؤيدا له ونصيرا ، وذلك أنهم يفهمون أن الرسول بشر والرسالة تتنافى مع البشرية ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون « ١ » . وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لو لا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا [سورة الفرقان آية ٧].
وقد حكى الله عنهم هذا كثيرا في سورة هود وإبراهيم وغيرهما.
وقد رد الله اقتراحهم هذا بأنه لو أنزل ملكا كما اقترحوا لقضى الأمر وهلكوا ثم لا ينظرون ولا يمهلون إذ جرت سنة الله في خلقه ، إذا تعصب قوم وطلبوا آية غير التي أنزلت إليهم ، وأجيبوا إلى طلبهم ، ثم لم يؤمنوا ، يهلكهم الله بعذابه ويقضى عليهم.
وهؤلاء من أمة الدعوة المحمدية ، وقد قضى الله ألا يهلكهم بعذاب الاستئصال تكريما للنبي صلى الله عليه وسلم وعسى أن يأتى من نسلهم من يعبد الله حقا ، وقد كان هذا.
الاقتراح الثاني : هلا نزلت الملائكة علينا بالرسالة ، وكان الرسول ملكا لا بشرا ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة « ٢ » فأنت ترى أن اقتراحهم الثاني مبنى على الغرور الكاذب والجهل الفاضح وأن هذا النبي الأمين الصادق الكريم لا يستحق هذه الرسالة فإن كان ولا بد من إرسال بشر فنحن أولى منه وقالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا « ٣ » .
فيرد الله عليهم : لو جعلنا الرسول ملكا لجعلناه رجلا حتى يمكن التفاهم معه **والأنس به** ومخاطبته ، ولو جعلناه بشرا لعاد

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، ٤٠١/٣٠

الأمر كما كان وللبسنا عليهم واختلط الأمر عندهم ، فإن هذا الرجل سيقول لهم : إني رسول الله كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم أما اختصاص محمد دون غيره بالرسالة وتشريفه بالنبوة فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

---

(١) سورة المؤمنون آية ٣٣.

(٢) سورة المؤمنون آية ٢٤.

(٣) سورة الزخرف آية ٣١ - ٣٢.." [١]

"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنآ أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [٢٨٦]

.

﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ أي : لا يحملها إلا ما تسعه وتطيقه ولا تعجز عنه .

قال الرازي : يحتمل أن يكون هذا ابتداء خبر من الله . ويحتمل أن يكون حكاية عن الرسول والمؤمنين بأنهم قالوا : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ على نسق الكلام في قوله : ﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا ﴾ . وقالوا : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ .

ويؤيد ذلك ما أردفه من قوله : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا ﴾ فكأنه تعالى حكى عنهم طريقتهم في التمسك بالإيمان والعمل الصالح . وحكى عنهم في جملة ذلك أنهم وصفوا ربهم بأنه لا يكلف نفسا إلا وسعها .

ثم قال الرازي : في كيفية النظم : إن قلنا : إن هذا من كلام المؤمنين ، فوجه النظم أنهم لما قالوا : ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ فكأنهم قالوا : كيف لا نسمع ولا نطيع وأنه تعالى لا يكلفنا إلا ما في وسعنا وطاقتنا . فإذا كان هو تعالى ، بحكم الرحمة الإلهية لا يطالبنا إلا بالشيء السهل الهين ، فكذلك نحن بحكم العبودية وجب أن نكون سامعين مطيعين . وإن قلنا : إن هذا من كلام الله تعالى ، فوجه النظم أنهم لما قالوا : ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ ثم قالوا بعده : ﴿ غفرانك ربنا ﴾ ، دل ذلك على أن قولهم : ﴿ غفرانك ﴾ ، طلب للمغفرة فيما يصدر عنهم من وجوه التقصير منهم على سبيل العمد . فملا كان قولهم غفرانك ، طلب للمغفرة في ذلك التقصير ، لا جرم خفف الله تعالى ذلك عنهم . وقال : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ . والمعنى : أنكم إذا سمعتم وأطعتم ، وما تعمدتم التقصير ، فعند ذلك لو وقع منكم نوع تقصير على سبيل السهو والغفلة فلا تكونوا خائفين منه ، فإن الله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ . وبالجملة فهذا إجابة لهم في دعائهم في قولهم : غفرانك ربنا .

قال زين العابدين بير محمد درة في " المدحة الكبرى " : وعلى احتمال أن يكون قوله : ﴿ لا يكلف الله ﴾ الخ حكاية ،

---

(١) التفسير الواضح ـ موافقا للمطبوع، ١/٥٩٠

فهو من قبيل العطف بلا عاطف . أو الكلام على تقدير قالوا . قال بعضهم : ولك أن تجعل : ﴿ لا يكلف الله ﴾ الخ في حيز القول . وأن يكون حكاية للأقوال المتفرقة غير المعطوفة بعضها على بعض للمؤمنين ، يكون مدحا لهم بأنهم شاكرون لله تعالى في تكليفه . حيث يرونه بأنه لم يخرج عن وسعهم . وبأنهم يرون أن الله تعالى لا ينتفع بعملهم الخير ، بل هو لهم ، ولا يتضرر بعملهم الشر ، بل هو عليهم .

وقال البقاعي : وهذا الكلام من جملة دعائهم على وجه الثناء طلبا للوفاء بما أخبرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم عنه سبحانه من ذلك ، خوفا من أن يكلفوا بما لله تعالى ، أن يكلف به من المؤاخذة بالوساوس ، لأنه مما تخفيه النفوس ولا طاقة على دفعه .

ولعل العدول عن الخطاب إلى الغيبة بذكر الاسم الأعظم من باب التملق بأن له من صفات العظمة ما يقتضي العفو عن ضعفهم . ومن صفات الحلم والرحمة ما يرفه عنهم . ويحتمل أن يكون ذلك من قول الله تعالى جزاء لهم على قولهم : ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ ، الآية . فأفادهم بذلك أنه لا يحاسبهم بحديث النفس . فانتفى ما شق عليهم من قوله : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم ﴾ ، الآية . بخلاف ما أفاد بني إسرائيل قولهم : سمعنا وعصينا ؛ من الآصار في الدنيا والآخرة . فيكون حينئذ استئنافا جوابا لمن ، كأنه قال : هل أجاب دعائهم ؟ ! . ويؤيد هذا الاحتمال اتباعه لحكم ما في الوسع على طريق الاستئناف أو الاستنتاج بقوله : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ قال العلامة أبو السعود : قوله تعالى : ﴿ لها ما كسبت ﴾ الخ . للترغيب في المحافظة على مواجب التكليف والتحذير عن الإخلال بها ، ببيان أن تكليف كل نفس مع مقارنته لنعمة التخفيف والتيسير تتضمن مراعاته منفعة زائدة ، وأنها تعود إليها لا إلى غيرها . ويستتبع الإخلال به مضرة تحيق بها لا بغيرها . فإن اختصاص المنفعة الفعل بفاعله من أقوى الدواعي إلى تحصيله . واقتصار مضرته عليه من أشد الزواجر عن مباشرته . أي : لها ثواب ما كسبت من الخير الذي كلفت فعله ، لا لغيرها . وعليها لا على غيرها عقاب ما اكتسبت من الشر الذي كلفت تركه . وإيراد الاكتساب في جانب الشر لما فيه من اعتمال ناشئ من اعتناء النفس بتحصيل الشر وسعيها في طلبه .

قال الحرالي : وصيغة فعل مجردة ، تعرب عن أدنى الكسب ، فلذلك من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة .

لطيفة :

وقال الجاربردي في " شرح الشافية " : معنى الكسب تحصيل الشيء على أي : وجه كان . والاكتساب : المبالغة والاعتمال فيه . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ . وفيه تنبيه على لطف الله تعالى بخلقه ، إذ أثبت لهم ثواب الفعل على أي : وجه كان . ولم يثبت عليهم عقاب الفعل إلا على وجه مبالغة واعتمال فيه .

قال الزمخشري : لما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه وأمارة به كانت في تحصيله أعمل وأجد ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه . ولما لم تكن في باب الخير كذلك لفتورها في تحصيله ، وصفت بما لا دلالة له على الاعتمال والتصرف . انتهى .

قال العلامة ابن جماعة في " حواشيه " : تفرقته بين الكسب والاكتساب هو ما قال الزمخشري وغيره ، ونص عليه سيبويه . قال الحلبي : وهو الأظهر . وقال قوم : لا فرق . قالوا : وقد جاء القرآن بالكسب والاكتساب في مورد واحد . قال

تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ [المدثر : ٣٨] ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ﴾ [الأنعام : ١٦٤] ﴿ بلى من كسب سيئة ﴾ [البقرة : ٨١] .

وقال تعالى : ﴿ بغير ما اكتسبوا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] . فقد استعمل الكسب والاكتساب في الشر . وقال الواحدي : الصحيح عند أهل اللغة أن الكسب والاكتساب واحد . وفي القاموس : كسبه يكسبه كسبا ، وتكسب واكتسب : طلب الرزق . أو كسب أصاب ، واكتسب تصرف واجتهد . ثم قال ابن جماعة : ما ذكره من تنبيه الآية على لطف الله بخلقه إلى آخره ، قاله ابن الحاجب في شرح المفصل . وبمعناه قول بعضهم : في الآية إيذان أن أدنى فعل من أفعال الخير يكون للإنسان تكرما من الله على عبده ، بخلاف العقوبة ، فإنه لا يؤاخذ بها إلا من جد فيها واجتهد ، وقريب منه قول آخر : للنفس ما حصل من الثواب بأي وجه اتفق حصوله ، سواء كان بإصابة مجردة أو بتحصيل ، وعليها ما حصلته وسعت فيه لا ما حصل من غير اختيار وسعي . نبه تعالى أن الثواب حاصل لها سواء كان بسعيها واختيارها أو لم يكن كذلك . وأما العقاب فلا يكون عليها إلا بقصدها وتحصيلها .

وما قالوه من الفرق يحتاج إلى ثبت . وقد قال تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ [الزلزلة : ٧ - ٨] أي : يرى جزاءه . وقال : : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : ٤٨] . على أن ترتب الثواب على ما حصل من غير سعي واختيار ، إن كان لمباشرة سببه مع الغفلة عنه ، فالعقاب أيضا كذلك . فمن عمل سيئة فعليه إثمها وإثم من عمل بها ، وإن صور بالإصابة عند أول الالتفات فلا مانع أن يكون العقاب مثله . ومدعي خلافه وعليه البيان . نعم الإصرار شرط ، لأن الرجوع يمحوه لكنه قدر زائد على الفعل . وبالجملة فما قاله جار الله حسن ، وقد ذكره البيضاوي أيضا . وفي الإعراب الحلبي : الذي يظهر في هذا ، أن الحسنات مما تكسب دون تكلف ؛ إذ كاسبها على جادة أمر الله ورسم شرعه ، والسيئات تكتسب بتكلف ؛ إذ كاسبها يتكلف في أمرها خرق حجاب نهي الله تعالى ، ويتجاوز إليها . فحسن في الآية مجيء التصريفين إحرازا لهذا المعنى والله اعلم . ثم قال ابن جماعة : والمبالغة : من بالغ مبالغة اجتهد ولم يقصر . والاعتمال : من اعتمل أي : عمل بنفسه وأعمل رأيه وآلته . انتهى .

قال البقاعي ولما بشرهم بذلك عرفهم مواقع نعمه من دعاء رتبه على الأخف فالأخف على سبيل التعلي ، إعلاما بأنه لم يؤاخذهم بما اجترحوه نسيانا ، ولا بما قارفوه خطأ ، ولا حمل عليهم ثقلا ، بل جعل شريعتهم حنيفية سمحاء . ولا حملهم فوق طاقتهم . مع أن له جميع ذلك . وأنه عفا عن عقابهم ثم سترهم فلم يخجلهم بذكر سيئاتهم . ثم رحمهم بأن أحلهم محل القرب فجعلهم أهلا للخلافة . فلاح بذلك أنه يعلي أمرهم على كل أمر . ويظهر دينهم على كل دين . وإذ كان سبحانه هو الداعي عنهم . وليكون الدعاء كله محمولا على الإصابة ومشمولا بالإجابة فقال تعالى : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا ﴾ أي : لا تعاقبنا : ﴿ إن نسينا ﴾ أمرك ونهيك : ﴿ أو أخطأنا ﴾ أي : ففعلنا خلاف الصواب ، تفريطا ونحوه .

وقد ولع كثير من المفسرين ههنا بالبحث في أن النسيان الخطأ معفو عنهما ، فما فائدة طلب العفو عنهما ؟ وأجابوا عن ذلك بوجوه . وأرق جواب رأيته قول العلامة بير محمد في " المدحة الكبرى " : لما كان طالب العفو الرسول والأنصار والمهاجرون ، ومن كان على شاكلتهم ، فكأنهم يعدون النسيان من العصيان ، والخطأ من الخطيئة . كقوله تعالى : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ [المؤمنون : ٦٠] .

وقيل في معنى الآية : لا تعاقبنا إن تركنا أمرك أو اكتسبنا خطيئة . على أن يكون النسيان بمعنى الترك . والخطأ من الخطيئة . وعليه فلا إيراد ، والله أعلم .

﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصرا ﴾ أي : عهدا يثقل علينا .

قال الحرالي : الإصر : العهد الثقيل الذي في تحمله أشد المشقة : ﴿كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ وهو ما كلفه بنو إسرائيل مما يهد الأركان . ولا بأس بالإشارة إلى جمل مما حملوه من الآصار . ننقله عن أسفارهم تأكيدا لما يحمل على الشكر على تخفيف ذلك عنا ، وتعظيما لمنته تعالى ، فلله الحمد فنقول : في سفر الخروج في الأصحاح الثاني عشر :

(١٥) سبعة أيام تأكلون فطيرا . اليوم الأول تعزلون الخمير في بيوتكم . فإن كل من أكل خميرا من اليوم الأول إلى اليوم السابع تقطع تلك النفس من إسرائيل .

وكل هذا الأصحاح آصار شاقة .

وفي السفر المذكور ، في الأصحاح الحادي والعشرين .

(١٥) ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا .

(١٦) ومن سرق إنسانا وباعه أو وجد في يده يقتل قتلا .

(١٧) ومن شتم أباه أو أمه يقتل قتلا .

(٢٧) وإن أسقط سن عبده أو سن أمته يطلقه حرا عوضا عن سنه .

(٢٨) وإذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمه ، وأما صاحب الثور فيكون بريئا .

(٢٩) ولكن إن كان ثورا نطاحا من قبل وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة ، فالثور يرجم وصاحبه أيضا يقتل .

وفي السفر المذكور ، في الأصحاح الثالث والعشرين .

(١٠) وست سنين تزرع أرضك وتجمع غلتها .

(١١) وأما في السابعة فتريحها وتتركها ليأكل فقراء شعبك . وفضلتهم تأكلها وحوش البرية ، كذلك تفعل بكرمك وزيتونك .

(١٢) ستة أيام تعمل عملك . وأما اليوم السابع ففيه تستريح لكي يستريح ثورك وحمارك ويتنفس ابن أمتك والغريب .

(١٩) أول أبكار أرضك تحضره إلى بيت الرب إلهك .

وفي سفر العدد ، في الصحاح الخامس عشر .

(٣٧) وكلم الرب موسى قائلا .

(٣٨) كلم بني إسرائيل وقل لهم : أن يصنعوا لهم أهدابا في أذيال ثيابهم في أجيالهم ويجعلوا على هدب الذيل عصابة من أسمانجوني .

(٣٩) فتكون لكم هدبا فترونها وتذكرون كل وصايا الرب وتعملونها .

وفي السفر المذكور ، في الأصحاح التاسع عشر :

(١١) من مس ميتا ميتة إنسان ما يكون نجسا سبعة أيام .

(١٢) يتطهر به في اليوم الثالث ، وفي السابع يكون طاهرا . وإن لم يتطهر في اليوم الثالث ففي اليوم السابع لا يكون طاهرا .

(١٣) كل من مس ميتا ميتة إنسان قد مات ولم يتطهر ينجس مسكن الرب . فتقطع تلك النفس من إسرائيل ، لأن ماء النجاسة لم يرش عليها تكون نجسة . نجاستها لم تزل فيها .

(١٤) هذه هي الشريعة . إذا مات إنسان في خيمة فكل من دخل الخيمة وكل من كان في الخيمة يكون نجسا سبعة أيام .

(١٥) وكل إناء مفتوح ليس عليه سداد بعصابة فإنه نجس .

(١٦) وكل من مس على وجه الصحراء قتيلا بالسيف أو ميتا أو عظم إنسان أو قبرا يكون نجسا سبعة أيام . وتمام الفصل المذكور كيفية الطهارة من هذه النجاسة الشاقة جدا .

وفي السفر المذكور في الأصحاح الخامس والثلاثين :

(٣١) ولا تأخذوا فدية عن نفس القاتل المذنب للموت بل إنه يقتل .

وفي سفر التثنية ، في الأصحاح الخامس عشر .

(١٩) كل بكر ذكر يولد من بقرك ومن غنمك تقدسه للرب إلهك . لا تشتغل على بكر بقرك ولا تجز بكر غنمك .

وفي سفر الخروج ، في الأصحاح الرابع والثلاثين :

(٢٠) وأما بكر الحمار فتفديه بشاة . وإن لم تفده تكسر عنقه . كل بكر من بنيك تفديه .

وفي سفر اللاويين ، في الأصحاح الرابع :

(١) وكلم الرب موسى قائلا .

(٢) كلم بني إسرائيل قائلا : إذا أخطأت نفس سهوا في شيء من جميع مناهي الرب التي لا ينبغي عملها وعملت واحدة منها .

(٣) إن كان الكاهن الممسوح يخطئ لإثم الشعب يقرب عن خطيئته التي أخطأ ثورا ابن بقر صحيحا للرب . ذبيحة خطية .

وكيفية ذلك حرجة جدا . انظرها .

وفيه ، في الأصحاح الخامس :

(١) أو إذا مس أحد شيئا نجسا جثة وحش نجس أو جثة بهيمة نجسة أو جثة ديب نجس وأخفى عنه فهو نجس ومذنب .

(٥) فإن كان يذنب في شيء من هذه يقر بما قد أخطأ به .

(٦) ويأتي إلى الرب بذبيحة لإثمه عن خطيئته التي أخطأ بها أنثى من الأغنام نعجة أو عنزا من المعز ذبيحة خطية فيكفر عنه الكاهن من خطيئته .

والأصحاح المذكور كله آصار .

وكذا الأصحاح السادس بعده كله آصار .

وفي الأصحاح الحادي عشر تحريم بعض الطيور وفي آصار كثيرة ، منها :

(٣٣) وكل متاع خزف وقع فيه منها فكل ما فيه يتنجس ، وأما هو فتكسرونه .

وفي الأصحاح الثاني عشر أحكام النفساء عندهم والفرق بين ولادتها ذكرا وأنثى . وإنها في الأول تكون نجسة أسبوعا ، ثم ثلاثا وثلاثين يوما . وفي الثاني أسبوعين ثم ستة وستين يوما .

وعن تمام أيام طهرها تأتي بكبش كفارة عنها .

وفي الأصحاح الخامس عشر تشريعات لذوي الجراحات .

وفي ذلك آصار كبرى . انظرها .

وفيه أيضا أحكام الحائض والآصار في شأنها . ومنها :

(١٩) وكل من مسها يكون نجسا إلى المساء .

(٢٠) وكل ما تضطجع عليه في طمثها يكون نجسا ، وكل ما تجلس عليه يكون نجسا .

(٢١) وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء .

وفي الأصحاح السابع عشر :

(١٥) وكل إنسان يأكل ميتة أو فريسة وطنيا كان أو غريبا يغسل ثيابه ويستحم بماء ويبقى نجسا إلى المساء .

وفي الأصحاح التاسع عشر :

(٢٣) ومتى دخلتم الأرض وغرستم كل شجرة للطعام تحسبون ثمرها غلتها . ثلاث سنين تكون لكم غلفاء ، لا يؤكل منها .

(٢٤) وفي السنة الرابعة يكون كل ثمرها قدسا لتمجيد الرب .

(٢٥) وفي السنة الخامسة تأكلون ثمرها ، لتزيد بكم غلتها . أنا الرب إلهكم .

(٢٧) لا تقصروا رؤوسكم مستديرا ولا تفسد عارضيك .

وفي الأصحاح الخامس والعشرين :

(٣) ست سنين تزرع حقلك وست سنين تقضب كرمك وتجمع غلتهما .

(٤) وأما السنة السابعة ففيها يكون للأرض سبت عطلة سبتا للرب . لا تزرع حقلك ولا تقضب كرمك .

(٥) زريع حصيدك لا تحصد وعنب كرمك المحول لا تقطف . سنة عطلة تكون للأرض .

(٦) ويكون سبت الأرض لكم طعاما . لك ولعبدك ولأمتك ولأجيرك ولمستوطنك النازلين عندك .

(٧) ولبهائمك وللحيوان الذي في أرضك تكون كل غلتها طعاما .

وفي سفر التثنية ، في الأصحاح الحادي والعشرين .

(١٨) وإذا كان لرجل ابن معاند ومارد ولا يسمع لقول أبيه ولا لقول أمه ويؤدبانه فلا يسمع لهما .

(١٩) يمسكه أبوه وأمه ويأتيان به إلى شيوخ مدينته وإلى باب مكانه .
(٢٠) ويقولون لشيوخ مدينته : ابننا هذا معاند ومارد لا يسمع لقولنا وهو مسرف وسكير .
(٢١) فيرجمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت .
وفيه ، في الأصحاح الثاني والعشرين :
(١٠) لا تحرث على ثور وحمار معا .
(١١) لا تلبس ثوبا مختلطا صوفا وكتانا معا .
وفيه ، في الأصحاح الرابع والعشرين :
(١) إذا أخذ رجل امرأة ، وتزوج بها فإن لم تجد نعمة في عينيه ؛ لأنه وجد فيها عيب شيء وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته .
(٢) ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر .
(٣) فإذا أبغضها الرجل الأخير ، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته ، أو إذا مات الرجل الأخير الذي اتخذها له زوجة .
(٤) لا يقدر زوجها الأول الذي طلقها أن يعود بأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست ؛ لأن ذلك رجس لدى الرب .

وهذه نبذة يسيرة من الآصار التي كانت على الإسرائيليين ولم يشرعها لنا مولانا بفضله وكرمه له الحمد ، إنه أرحم الراحمين .

﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ أي : من بليات الدنيا والآخرة . فالدعاء الأول في رفع شدائد التكليف ، وهذا في رفع شدائد البليات . ويقال : هو تكرير للأول وتصوير للإصر بصورة ما لا يستطاع مبالغة ﴿ واعف عنا ﴾ أي : تجاوز عن ذنوبنا ولا تعاقبا : ﴿ واغفر لنا ﴾ أي : غط على ذنوبنا واعف عنها : ﴿ وارحمنآ ﴾ أي : تفضل علينا بالرحمة مع كوننا مقصرين مذنبين : ﴿ أنت مولانا ﴾ أي : ولينا وناصرنا : ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ فإن من حق المولى أن ينصر عبده ومن يتولى أمره على الأعداء .
وفيه إشارة إلى أن إعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله تعالى ، حسبما أمر في تضاعيف السورة الكريمة ، غاية مطلبهم .
قال البقاعي : فتضمن ذلك وجوب قتال الكافرين . وأنهم أعدى الأعداء . وأن قوله : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ ليس ناهيا عن ذلك ، وإنما هو إشارة إلى أن الدين صار في الوضوح إلى حد لا يتصور فيه إكراه . بل ينبغي لكل عاقل أن يدخل فيه بغاية الرغبة فضلا عن الإحواج إلى إرهاب . فمن نصح نفسه دخل فيه بما دل عليه عقله ، ومن أبى دخل فيه قهرا بنصيحة الله التي هي الضرب بالحسام ونافذ السهام .
وقد ورد في " صحيح مسلم " عن النبي صلى الله عليه وسلم : [١].

(١) إن الله تعالى قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات : قد فعلت

وقد روى البخاري والجماعة عن أبي : مسعود رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : [١].

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [٢].

وأخرج مسلم عن ابن مسعود قال : لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم : انتهى به إلى سدرة المنتهى ، وهي في السماء السادسة . إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض ، فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها ، فيقبض منها . قال : ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ [االنجم : ١٦] ، قال : فراش من ذهب قال ، فأعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا : أعطي الصلوات الخمس ، وأعطي خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئا ، المقحمات .

وعن ابن عباس قال : بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضا من فوقه ، فرفع رأسه فقال : [٣]. رواه مسلم والنسائي . وهذا لفظ مسلم .

وأخرج الترمذي والنسائي والدرامي والحاكم وصححه ، عن النعمان بن بشير : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [٤].

وأخرج عبد بن حميد في " مسنده " عن الحسن : أنه كان إذا قرأ آخر البقرة قال : يا لك نعمة . . ! يا لك نعمة .

هذا ، وقد روي في فضل سورة البقرة أحاديث كثيرة . . . منها ما أخرجه مسلم والترمذي من حديث النواس بن سمعان قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : [٥]وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد قال : [٦].

وأخرج أحمد والحاكم والدارمي عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [٧].

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [٨]. ولفظ الترمذي : [٩].

وأخرج سعيد بن منصور والترمذي والحاكم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [١٠].

فائدة :

---

(١) من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة ، في ليلة ، كفتاه

(٢) أعطيت خواتيم سورة البقرة من بيت كنز من تحت العرش ، لم يعطهن نبي قبلي

(٣) هذا باب من السماء فتح اليوم ، لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض . لم ينزل قط إلا اليوم . فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة . لن تقرأ حرفا منهما إلا أعطيته

(٤) إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق السموات الأرض بألفي عام . أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة . ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان

(٥) يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمه سورة البقرة وآل عمران

(٦) كأنهما عمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق . أو كأنهما حزقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما

(٧) تعلموا سورة البقرة . فإن أخذها بركة . وتركها حسرة . ولا تستطيعها البطلة . تعلموا البقرة وآل عمران فإنهما هما الزهراوان يجيئان يوم القيامة كأنهما غماماتان أو غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تجادلان عن صاحبهما

(٨) لا تجعلوا بيوتكم مقابر . إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة

(٩) وإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان

(١٠) لكل شيء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة . وفيها آية هي سيدة آي القرآن . آية الكرسي

قال ابن القيم : تأمل خطاب القرآن تجد ملكا له الملك كله ، وله الحمد كله ، أزمة الأمور كلها بيده ، ومصدرها منه ، وموردها إليه ، مستويا على العرش ، لا تخفى عليه خافية من أقطار مملكته ، عالما بما في نفوس عبيده ، مطلعا على أسرارهم وعلانيتهم ، منفردا بتدبير المملكة ، يسمع ويرى ويعطي ويمنع ، ويثيب ويعاقب ، ويكرم ويهين ، ويخلق ويرزق ، ويميت ويحيي ، ويقدر ويقضي ويدبر ، الأمور نازلة من عنده ، دقيقها وجليلها ، وصاعدة إليه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه . فتأمل كيف تجده يثني على نفسه ، ويمجد نفسه ، ويحمد نفسه ، وينصح عباده ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ويرغبهم فيه ، ويحذرهم مما فيه هلاكهم ، ويتعرف إليهم بأسمائهم وصفاته ، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه ! يذكرهم بنعمه عليهم ، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها . ويحذرهم من نقمه ، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه ، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه ، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه ، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء ، ويثني على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم ، ويذم أعداءه بسيء أعمالهم وقبيح صفاتهم ، ويضرب الأمثال ، وينوع الأدلة والبراهين ، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة ، ويصدق الصادق ، ويكذب الكاذب ، ويقول الحق ، ويهدي السبيل ، ويدعو إلى دار السلام ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها ، ويحذر من دار البوار ، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها . ويذكر عباده فقرهم إليه وشدة حاجتهم إليه من كل وجه . وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين ، ويذكرهم غناءه عنهم وعن جميع الموجدات . وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه . وكل ما سواه فقير إليه . وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته . ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته . وتشهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب .

وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم ، وغافر زلاتهم ، ومقيم أعذارهم ، ومصلح فسادهم ، والدافع عنهم ، والحامي عنهم ، والناصر لهم ، والكفيل بمصالحهم والمنجي لهم من كل كرب ، والموفي لهم بوعده .

وأنه وليهم الذي لا ولي لهم سواه ، فهو مولاهم الحق ، وينصرهم على عدوهم ، فنعم المولى ونعم النصير .

وإذا شهدت القلوب من القرآن ملكا عظيما جوادا رحيما جميلا هذا شأنه ، فكيف لا تحبه ، وتنافس في القرب منه ، وتنفق أنفاسها في التودد إليه ، ويكون أحب إليها من كل ما سواه ، ورضاه آثر عندها من رضى كل من سواه ؟ وكيف لا تلهج بذكره وتصير حبه والشوق إليه **والأنس به** هو غذاؤها وقوتها ودواؤها ، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها ؟ ! .

اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء حزننا ، وأعنا على إكمال ما قصدناه بفضلك . يا أرحم الراحمين ..." (١)

"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير ﴾ [١٥٦]

.

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، /

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ﴾ وهم المنافقون القائلون : ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ ﴿ وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض ﴾ أي : سافروا فيها للتجارة فأصيبوا بغرق أو قتل : ﴿ أو كانوا ﴾ أي : إخوانهم : ﴿ غزى ﴾ جمع غاز فأصيبوا باصطدام أو قتل : ﴿ لو كانوا عندنا ﴾ أي : مقيمين : ﴿ ما ماتوا وما قتلوا ﴾ قال أبو السعود : ليس المقصود بالنهي عدم مماثلتهم في النطق بهذا القول ، بل في الاعتقاد بمضمونه والحكم بموجبه .

أقول : بل الآية تفيد الأمرين . أعني حفظ الاعتقاد المقصود أولا وبالذات ، وحفظ المنطق مما يوقع في إضلال الناس ، ويخل بالمقام الإلهي ، كما بينته السنة ، وسنذكره في التنبيه الآتي .

وقوله : ﴿ ليجعل الله ذلك ﴾ أي : القول : ﴿ حسرة في قلوبهم ﴾ متعلق بقالوا على أن اللام لام العاقبة ، مثلها في : ﴿ ليكون لهم عدوا وحزنا ﴾ [القصص : ٨] أي : قالوا ذلك واعتقدوه ، ليكون حسرة في قلوبهم . والمراد بالتعليل المذكور : بيان عدم ترتب فائدة ما، على ذلك أصلا : ﴿ والله يحيي ويميت ﴾ رد لقولهم الباطل ، إثر بيان غائلته . أي : هو المؤثر في الحياة والممات وحده ، من غير أن يكون للإقامة أو للسفر مدخل في ذلك ، فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازي مع اقتحامها لموارد الحتوف ، ويميت المقيم مع حيازته لأسباب السلامة . وعن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه قال عند موته : ما في موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وها أنا ذا أموت كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء ! : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ تهديد للمؤمنين في مماثلة من ذكر .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية أنه لا يجوز التشبه بالكفار . قال الحاكم : وقد يكون منه ما يكون كفرا . وفيها أيضا دلالة على أنه لا يسقط وجوب الجهاد بخشية القتل .

تنبيه :

أشعرت الآية بوجوب حفظ المنطق مما يشاكل ألفاظ المشركين من الكلمات المنافية للعقيدة الإسلامية كما ذكرنا . وقد عقد الإمام ابن القيم في " زاد المعاد " فصلا في هديه صلى الله عليه وسلم في حفظ النطق واختيار الألفاظ قال :

كان صلى الله عليه وسلم يتخير في خطابه ، ويختار لأمته أحسن ألفاظ وأجملها وألطفها ، وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والغلظة والفحش . إلى أن قال : ومن ذلك نهيه صلى الله عليه وسلم عن قول القائل بعد فوات الأمر : لو أني فعلت كذا وكذا . وقال : [1]. وأرشده إلى ما هو أنفع له من هذه الكلمة ، وهو أن يقول : قدر الله ، وما شاء فعل ، وذلك لأن قوله : لو كنت فعلت كذا وكذا لم يفتني ما فاتني أو لم أقع فيما وقعت فيه ، كلام لا يجدي عليه فائدة البتة . فإنه غير مستقبل لما استدبر من أمره ، وغير مستقيل عثرته بلو . وفي ضمن لو ادعاء أن الأمر لو كان كما قدره في نفسه ، لكان غير ما قضاه الله وقدره وشاءه ، فإن ما وقع مما يتمنى خلافه ، إنما وقع بقضاء الله وقدره ومشيئته . فإذا قال : لو أني فعلت كذا لكان خلاف ما وقع ، فهو محال ، إذ خلاف المقدر المقضي محال . فقد تضمن كلامه كذبا وجهلا ومحالا . وإن سلم من التكذيب بالقدر لم يسلم من معارضته بقوله : لو أني فعلت لدفعت ما قدر علي . فإن قيل : ليس في هذا رد للقدر ولا جحد له ، إذ تلك الأسباب التي تمناها أيضا من القدر ، فهو يقول : لو وفقت لهذا القدر لاندفع به عني ذلك

(١) إنما تفتح عمل الشيطان

القدر ، فإن القدر يدفع بعضه ببعض ، كما يدفع قدر المرض بالدواء ، وقدر الذنوب بالتوبة ، وقدر العدو بالجهاد ، فكلاهما من القدر . قيل : هذا حق ، ولكن هذا ينفع قبل وقوع القدر المكروه . وأما إذا وقع فلا سبيل إلى دفعه ، وإن كان له سبيل إلى دفعه أو تخفيفه بقدر آخر فهو أولى به من قوله : لو كنت فعلته ، بل وظيفته في هذه الحالة أن يستقبل فعله الذي يدفع به أو يخفف ، ولا يتمنى ما لا مطمع في وقوعه ، فإنه عجز محض ، والله يلوم على العجز ، ويحب الكيس ويأمر به . والكيس : هو مباشرة الأسباب التي ربط الله بها مسبباتها النافعة للعبد في معاشه ومعاده ، فهذه تفتح عمل الخير والأمر ، وأما العجز فإنه يفتح عمل الشيطان . فإنه إذا عجز عما ينفعه وصار إلى الأماني الباطلة بقوله : لو كان كذا وكذا ، ولو فعلت كذا ، يفتح عمل الشيطان ، فإن بابه العجز والكسل . ولهذا استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم منهما . وهو مفتاح كل شر ، ويصدر عنهما الهم والحزن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال . فمصدرها كلها عن العجز والكسل ، وعنوانها لو ، فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : [١]، فالمتمني من أعجز الناس وأفلسهم ، فإن المنى رأس أموال المفاليس ، والعجز مفتاح كل شر ، وأصل المعاصي كلها العجز ، فإن العبد يعجز عن أسباب أعمال الطاعات ، وعن الأسباب التي تعرضه عن المعاصي ، ويحول بينها وبينه ، فيقع في المعاصي .

فجمع في هذا الحديث الشريف ، في استعاذته صلى الله عليه وسلم أصول الشر وفروعه ومباديه وغاياته وموارده ومصادره . وهو مشتمل على ثمان خصال ، كل خصلتين منهما قرينتان فقال : [٢]، وهما قرينان . فإن المكروه الوارد على القلب ينقسم باعتبار سببه إلى قسمين : فإنه إما أن يكون سببه أمرا ماضيا ، فهو يحدث الحزن ، وإما أن يكون توقع أمر مستقبل ، فهو يحدث الهم ، وكلاهما من العجز . فإن ما مضى لا يدفع بالحزن ، بل بالرضاء والحمد والصبر والإيمان بالقدر ، وقول العبد : قدر الله وما شاء فعل . وما يستقبل لا يدفع أيضا بالهم . بل إما أن يكون له حيلة في دفعه فلا يعجز عنه ، وإما أن لا تكون له حيلة في دفعه ، فلا يجزع منه ، ويلبس له لباسه ، ويأخذ له عدته ، ويتأهب له أهبته اللائقة ، ويستجن بجنة حصينة من التوحيد والتوكل والانطراح بين يدي الرب تعالى ، والاستسلام له ، والرضا به ربا في كل شيء ، ولا يرضى به ربا فيما يحب دون ما يكره . فإذا كان هكذا لم يرض به ربا على الإطلاق ، فلا يرضاه الرب له عبدا على الإطلاق . . فالهم والحزن لا ينفعان العبد البتة ، بلا مضرتهما أكثر من منفعتهما ، فإنهما يضعفان العزم ، ويوهنان القلب ، ويحولان بين العبد وبين الاجتهاد فيما ينفعه ، ويقطعان عليه طريق السير ، أو ينكسانه إلى وراء ، أو يعوقانه ويقفانه ، أو يحجبانه عن العلم الذي كلما رآه شمر إليه وجد في سيره ، فهما حمل ثقيل على ظهر السائر ، بل إن عاقة الهم والحزن عن شهواته وإرادته التي تضره في معاشه ومعاده ، أنفع به من هذا الوجه ، وهذا من حكمة العزيز الحكيم ، أن سلط هذين الجندين على القلوب المعرضة عنه ، الفارغة من محبته وخوفه ورجائه والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، **والأنس به** ، والفرار إليه ، والانقطاع إليه ، ليردها بما يبتليها به من الهموم والغموم والأحزان ، والآلام القلبية ، عن كثير من معاصيها وشهواتها المردية . وهذه القلوب في سجن من الجحيم في هذه الدار . وإن أريد بها الخير ، كان حظها من سجن الجحيم في معادها ، ولا تزال في

---

(١) فإن لو تفتح عمل الشيطان

(٢) أعوذ بك من الهم والحزن

هذا السجن ، حتى تتخلص إلى فضاء التوحيد والإقبال على الله ، **والأنس به** ، وجعل محبته في محل دبيب خواطر القلب ووساوسه ، بحيث يكون ذكره تعالى وحبه وخوفه ورجاؤه والفرح به والابتهاج بذكره ، هو المستولي على القلب الغالب عليه ، الذي متى فقده ، فقد قوته ، الذي لا قوام له إلا به ، ولا بقاء له بدونه ، ولا سبيل إلى خلاص القلب من هذه الآلا م التي هي أعظم أمراضه وأفسدها له ، إلا بذلك ، ولا بلاغ إلا بالله وحده ، فإنه لا يوصل إليه إلا هو ، ولا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يصرف السيئات إلا هو ، ولا يدل عليه إلا هو ، وإذا أراد عبده لأمر هيأه له ، فمنه الإيجاد ، ومنه الإعداد ، ومنه الإمداد . وإذا أقامه في مقام ، أي : مقام كان فبحمده أقامه فيه ، وحكمته إقامته فيه ، ولا يليق به غيره ، ولا يصلح له سواه ، ولا مانع لما أعطى الله ، ولا معطي لما منع ، ولا يمنع عبده حقا هو للعبد ، فيكون بمنعه ظالما ، بل منعه ليتوسل إليه بمحابه ليعطيه ، وليتضرع إليه ويتذلل بين يديه ويتملقه ويعطي فقره إليه حقه ، بحيث يشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة فاقة تامة إليه ، على تعاقب الأنفاس . وهذا هو الواقع في نفس الأمر وإن لم يشهده ، فلم يمنع عبده ما العبد محتاج إليه بخلا منه ولا نقصان من خزائنه ولا استئثارا عليه بما هو حق للعبد . بل منعه ليرده إليه وليعزه بالتذلل له ، وليغنيه بالافتقار إليه ، وليجبره بالانكسار بين يديه ، وليذيقه بمرارة المنع ، حلاوة الخضوع ولذة الفقر . وليلبسه خلعة العبودية ، وليوليه بعزله أشرف الولايات ، وليشهده حكمته في قدرته ، ورحمته في عزته ، وبره ولطفه في قهره . وأن منعه عطاء وعزله تولية ، وعقوبته تأديب وامتحانه محبة وعطية ، وتسليط أعدائه عليه سائق يسوقه إليه . وبالجملة فلا يليق بالعبد غير ما أقيم فيه . وحكمته وحمده أقاماه في مقامه الذي لا يليق به سواه ولا يحسن أن يتخطاه ، انتهى .
ثم أشار تعالى إلى أن الموت في سبيل الله ليس مما يوجب الحسرة حتى يحذر منه . بل هو مما يوجب الفرح والسرور فقال :" (١)

"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ ثم إنهم لصالو الجحيم * ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ [١٦ - ١٧]

﴿ ثم إنهم لصالو الجحيم ﴾ أي : محترقون بها . وقد أشار القاشاني إلى سر ترادف هذه الجمل الكريمة ، بأن ما اكتسبوه من الذنوب لما صار كالصدأ على قلوبهم بالرسوخ فيها ، كدر جوهرها وغيرها عن طباعها ، فعندها تحقق الحجاب وانغلق باب المغفرة ، ولذلك قال :

﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ لامتناع قبول قلوبهم للنور ، وامتناع عودها إلى الصفاء الأول الفطري ، كالماء الكبريتي مثلا ؛ إذ لو روق أو صعد لما رجع إلى الطبيعة المائية المبردة ، لاستحالة جوهرها ، بخلاف الماء المسخن الذي استحالت كيفيته دون طبيعته ولهذا استحقوا الخلود في العذاب . وحكم عليهم بقوله :

﴿ ثم إنهم لصالو الجحيم ﴾ انتهى .

قال ابن القيم في " بدائع الفوائد " في هذه الآية ما مثاله : جمع لهم سبحانه بين العذابين عذاب الحجاب وعذاب النار ، فألم الحجاب يفعل في قلوبهم وأرواحهم نظير ما تفعله النار في أجسامهم ، كحال من حيل بينه وبين أحب الأشياء إليه في

---

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، /

الدنيا ، وأخذ بأشد العذاب ، فإن أخص عذاب الروح أن تتعلق بمحبوب لا غنى لها عنه ، وهي ممنوعة من الوصول إليه ، فكيف إن حصل لها – مع تواري المحبوب عنها وطول احتجابه – بغضه لها ومقته وطرده وغضبه الشديد عليها ؟ فأي نسبة لألم البدن إلى هذا الألم الذي لا يتصوره إلا من بلي به أو بشيء منه ؟ فلو توهمت النفوس ما في احتجاب الله سبحانه عنها يوم لقائه من الألم والحسرة ، لما تعرضت لأسباب ذلك الاحتجاب . وأنت ترى المحبين في الدنيا لصورة ، منتهى حسنها إلى ما يعلم ، كيف يضجون من ألم احتجاب محبوبهم عنهم وإعراضه وهجره ؟ ويرى أحدهم كالموت أو أشد منه من بين ساعة ، كما قال :

وكنت أرى كالموت من بين ليلة فكيف ببين كان ميعاده الحشر

وإنما يتبين الحال في هذا بمعرفة ما خلقت له الروح وما هيئت له وما فطرت عليه ، وما لا سعادة لها ولا نعيم ولا حياة إلا بإدراكه .

فاعلم أن الله سبحانه خلق كل عضو من الأعضاء لغاية ومنفعة ، فكماله ولذته في أن يحصل فيه ما خلق له ، فخلق العين للإبصار ، والأذن للسمع ، والأنف للشم ، واللسان للنطق ، واليد للبطش ، والرجل للمشي ، والروح لمعرفته ومحبته والابتهاج بقربه والتنعم بذكره ، وجعل هذا كمالها وغايتها ، فإذا تعطلت من ذلك كانت أسوأ حالا من العين والأذن واللسان واليد والرجل التي تعطلت عما خلقت له ، وحيل بينها وبينه . بل لا نسبة لألم هذه الروح إلى ألم تلك الأعضاء المعطلة البتة ، بل ألمها أشد الألم ، وهو من جنس ألمها إذا فقدت أحب الأشياء إليها وأعزه عليها ، وحيل بينها وبينه ، وشاهدت غيرها قد ظفر بوصله وفاز بقربه ورضاه . والروح لا حياة لها ولا نعيم ولا سرور ولا لذة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودها وإلهها ومرادها ، الذي لا تقر عينها إلا بقربه **والأنس به** والعكوف بكليتها على محبته والشوق إلى لقائه ، فهذا غاية كمالها وأعظم نعيمها وجنتها العاجلة في الدنيا ، فإذا كان يوم لقائه كان أعظم نعيمها رفع الحجاب الذي كان يحجبها في الدنيا عن رؤية وجهه وسماع كلامه ، وفي حديث الرؤية : [(١)].

ثم قال : وكما جمع سبحانه لأعدائه بين هذين العذابين ، وهما ألم الحجاب وألم العذاب ، جمع لمحبيه بين نوعي النعيم : نعيم القرب والنظر ، ونعيم الأكل والشرب ، والنكاح والتمتع بما في الجنة ، في قوله :

﴿ ولقاهم نضرة وسرورا ﴾ [الإنسان : ١١] الآيات .

﴿ ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ أي : في الدنيا . قال الإمام : تبكيتا لهم وزيادة في التنكيل بهم ، فإن اشد شيء على الإنسان ، إذا أصابه مكروه أن يذكر وهو يتألم له : بأن وسائل النجاة من مصابه كانت بين يديه فأهملها ، وأسباب التقصي عنه كانت في مكنته فأغفلها .." (٢)

"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ﴾ [٣٠] .

---

(١) فوالله ما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إلى وجهه

(٢) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، /

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ أي : مقتضى إيمانكم الغض عما حرم الله تعالى النظر إليه : ﴿ ويحفظوا فروجهم ﴾ أي : عن الإفضاء بها إلى محرم ، أو عن الإبداء والكشف : ﴿ ذلك ﴾ أي : الغض والحفظ : ﴿ أزكى لهم ﴾ أي : أطهر للنفس وأتقى للدين : ﴿ إن الله خبير بما يصنعون ﴾ أي : بأفعالهم وأحوالهم . وكيف يجيلون أبصارهم ، وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم . فعليهم ، إذ عرفوا ذلك ، أن يكونوا منه على تقوى وحذر ، في كل حركة وسكون . أفاده الزمخشري .

تنبيهات :

الأول : قال السيوطي في " الإكليل " : في الآية تحريم النظر إلى النساء وعورات الرجال وتحريم كشفها . أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية : كل شيء في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزنى ، إلا هذه الآية والتي بعدها ، فهو أن لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ، ولا المرأة إلى عورة المرأة . انتهى .

وليس بمتعين . وعليه فيكون النهي عن الزنى يعلم منه بطريق الأولى . أو الحفظ عن الإبداء يستلزم الحفظ عن الإفضاء .

الثاني : إن قيل : لم أتى بمن التبعيضية في غض الأبصار وقيدها به دون حفظ الفروج ؟ مع أنه غير مطلق ومقيد في قوله تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴾ [٥ - ٦] ، لأن المستثنى في الحفظ هو الأزواج والسراري ، وهو قليل بالنسبة لما عداه . فجعل كالعدم ولم يقيد به . مع أنه معلوم من الآية الأخرى . بخلاف ما يطلق فيه البصر ، فإنه يباح في أكثر الأشياء ، إلا نظر ما حرم عن قصد . فقيد الغض به ومدخول من التبعيضية ينبغي أن يكون أقل من الباقي . وقيل : إن الغض والحفظ عن الأجانب . وبعض الغض ممنوع بالنسبة إليهم ، وبعضه جائز : بخلاف الحفظ فلا وجه لدخول من فيه . كذا في " العناية " .

الثالث : سر تقديم عض الأبصار على حفظ الفروج ، هو أن النظر بريد الزنى ورائد الفجور ، كما قال الحماسي :

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما ، أتعبتك المناظر

ولأن البلوى فيه أشد وأكثر . ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه . فبودر إلى منعه . ولأنه يتقدم الفجور في الواقع ، فجعل النظم على وفقه .

الرابع : غض البصر من أجل الأدوية لعلاج أمراض القلوب . وفيه حسم لمادتها قبل حصولها . فإن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس . ومن أطلق لحظاته ، دامت حسراته .

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في " الجواب الشافي " : في غض البصر عدة منافع :

أحدها : امتثال أمر الله هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده . وليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك و تعالى . وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة . إلا بامتثال أوامر ربه . وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره .

الثاني : أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم الذي لعل فيه هلاكه ، إلى قلبه .

الثالث : أنه يورث القلب أنسا بالله وجمعية على الله ، فإن إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته ويبعده من الله ، وليس على

العبد شيء أضر من إلى إطلاق البصر . فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه .

الرابع : أنه يقوي القلب ويفرحه . كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه .

الخامس : أنه يكسب القلب نورا . كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة ، ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر . فقال : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ [٣٠] ، ثم قال إثر ذلك : ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ [٣٥] . أي : مثل نوره في قلب عبده المؤمن ، الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه . وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل جانب ، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان . فما شئت من بدعة وضلالة ، واتباع هوى واجتناب هدى ، وإعراض عن أسباب السعادة ، واشتغال بأسباب الشقاوة . فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذي في القلب . فإذا فقد ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس في حناديس الظلام .

السادس : أنه يورث الفراسة الصادقة التي يميز بها بين المحق والمبطل والصادق والكاذب . وكان شاه بن شجاع الكرماني يقول : من عمر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وغض بصره عن المحارم ، وكف نفسه عن الشهوات ، واعتاد أكل الحلال – لم تخطئ له فراسة .

وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة ، والله سبحانه يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله . ومن ترك شيئا لله عوضه خيرا منه ، فإذا غض بصره عن محارم الله ، عوضه بأن يطلق بصيرته عوضا عن حبسه بصره لله . ويفتح له باب العلم والإيمان والمعرفة ، والفراسة الصادقة المصيبة التي ، إنما تنال ببصيرة القلب . وضد هذا مما وصف الله به اللوطية من العمه الذي هو ضد البصيرة . فقال تعالى : : ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ [الحجر : ٧٢] ، فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل ، والعمه هو فساد البصيرة ، فالتعلق بالصور يوجب إفساد العقل ، وعمه البصيرة يسكر القلب ، كما قال القائل :

سكران : سكر هوى وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران ؟

وقال الآخر :

قالوا : جننت بمن تهوى فقلت لهم : العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين

السابع : أنه يورث القلب ثباتا وشجاعة وقوة . ويجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة ، وسلطان القدرة والقوة ، كما في الأثر : الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله . وضد هذا تجده في المتبع هواه ، من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها . وما جعل الله سبحانه فيمن عصاه . كما قال الحسن : إنهم وإن طقطقت بهم البغال ، وهملجت بهم البراذين ، فإن المعصية لا تفارق رقابهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه . وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته . والذل قرين معصيته ، فقال تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ [المنافقون : ٨] ، وقال تعالى : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ [آل عمران : ١٣٩] ، والإيمان قول وعمل ظاهر وباطن . وقال تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ [فاطر : ١٠] ، أي : من كان يريد العزة فليطبها بطاعة الله وذكره ، من الكلم الطيب ، والعلم الصالح . وفي دعاء القنوت : إنه لا يذل من واليت ولا يعز من

عاديت . ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه . وله من العز بحسب طاعته ، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه . وله من الذل بحسب معصيته .

الثامن : أنه يسد على الشيطان مدخله من القلب . فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهوى في المكان الخالي ، فيمثل له صورة المنظور إليه ، يزينها ويجعلها صنما يعكف عليه القلب ، ثم يعده ويمنيه . ويوقد على القلب نار الشهوة ، ويلقي عليه حطب المعاصي ، التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة . فيصير القلب في اللهب ، فمن ذلك اللهب تلك الأنفاس التي يجد فيها وهج النار ، وتلك الزفرات والحرقات . فإن القلب قد أحاطت به نيران بكل جانب . فهو في وسطها كالشاة في وسط التنور ، ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة ، أن جعل لهم في البرزخ تنور من نار ، وأودعت أرواحهم فيه ، إلى حشر أجسادهم ، كما أراها الله نبيه صلى الله عليه وسلم في المنام في الحديث المتفق على صحته .

التاسع : أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها . وإطلاق البصر يشتت عليه ذلك ويحول عليه بينه وبينها . فتنفرط عليه أموره ويقع في اتباع هواه وفي الغفلة عن أمر ربه ، قال تعالى : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ [الكهف : ٢٨] ، وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه .

العاشر : أن بين العين والقلب منفذا وطريقا يوجب انفعال أحدهما عن الآخر . وأن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده . فإذا فسد القلب فسد النظر . وإذا فسد النظر فسد القلب . وكذلك في جانب الصلاح . فإذا خربت العين وفسدت ، خرب القلب وفسد ، وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ . فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه **والأنس به** والسرور بقربه فيه . وإنما يسكن فيه أضداد ذلك . فهذه إشارة إلى بعض فوائد غض البصر ، تطلعك على ما وراءها . انتهى .

ثم أمر الله تعالى النساء بما أمر به الرجال . وزاد في أمرهن ، ما فرضه من رفض حالة الجاهلية المألوفة قبل لهن ، بقوله سبحانه :." (١)

"وتاسعها : أن أعظم النعمة الإقبال والتعبد، ولكل نعمة حاسد على قدرها ـ دقت أو جلت ـ ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فإن أنفس الحاسدين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد . وقد قال يعقوب ليوسف ـ عليهما السلام : ﴿ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ﴾ الآية [يوسف : ٥] . وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله ـ تعالى ـ قد تحدث بها،وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار؛ولهذا يوصى العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله ـ تعالى ـ ولا يطلع عليه أحد،والقوم أعظم شيئا كتمانا لأحوالهم مع الله ـ عز وجل ـ وما وهب الله من محبته **والأنس به** وجمعية القلب، ولاسيما فعله للمهتدى السالك فإذا تمكن أحدهم وقوى، وثبت أصول تلك الشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه ـ بحيث لا يخشى عليه من العواصف، فإنه إذا أبدى حاله مع الله ـ تعالى ـ ليقتدى به ويؤتم به ـ لم يبال . وهذا باب عظيم النفع إنما يعرفه أهله .

---

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، /

/ وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء،والمحبة والإقبال على الله ـ تعالى ـ فهو من عظيم الكنوز التى هى أحق بالإخفاء عن أعين الحاسدين، وهذه فائدة شريفة نافعة .

وعاشرها : أن الدعاء هو ذكر للمدعو ـ سبحانه وتعالى ـ متضمن للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه . فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمى دعاء لتضمنه للطلب، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (أفضل الدعاء الحمد لله) فسمى الحمد لله دعاء، وهو ثناء محض؛ لأن الحمد متضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب، فالحامد طالب للمحبوب، فهو أحق أن يسمى داعيا من السائل الطالب، فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب، فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذى هو دونه .

". (١)

" بعضها اعلى من بعض في المسافة او في التكرمة او في العذاب وباقي الآية وعد ووعيد وقوله تعالى لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم الآية اللام في لقد لام القسم ومن في هذه الآية معناه تطول وتفضل سبحانه وقد يقال من بمعنى كدر معروفه بالذكر فهي لفظة مشتركة وقوله من أنفسهم أي في الجنس والسان والمجاورة فكونه من الجنس يوجب **الأنس به** وكونه بلسانهم يوجب حسن التفهيم وكونه جارا وربيا يوجب التصديق والطمأنينة إذ قد خبروه وعرفوا صدقه وأمانته ثم وقف الله سبحانه المؤمنين على الخطأ في قلقهم للمصيبة التي نزلت بهم وإعراضهم عما نزل بالكفار فقال أو لما اصابتكم مصيبة أي يوم احد قد اصبتم مثليها أي يوم بدر إذ قتل من الكفار سبعون وأسر سبعون هذا تفسير ابن عباس والجمهور وقال الزجاج واحد المثلين هو قتل السبعين يوم بدر والثاني هو قتل اثنين وعشرين يوم احد ولا مدخل للإسرى لأنهم قد فدوا وانى معناها كيف ومن اين قل هو من عند انفسكم أي حين خالفتم النبي صلى الله عليه و سلم في الرأي حين رأى ان يقيم بالمدينة ويترك الكفار بشر محبس فأبيتم إلا الخروج وهذا هو تأويل الجمهور وقالت طائفة هو من عند أنفسكم إشارة إلى عصيان الرماةوتسبيبهم الهزيمة على المؤمنين وقال علي والحسن بل ذلك لما قبلوا الفداء يوم بدر وذلك أن الله سبحانه أخبرهم على لسان نبيه بين قتل الاسرى أو يأخذوا الفداء على ان يقتل منهم عدة الإسرى فاختاروا أخد الفداء ورضوا بالشهادة فقتل منهم يوم احد سبعون قلت وهذا الحديث رواه الترمذي عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال أحمد بن نصر الداودي وعن الضحاك أني هذا أي باي ذنب هذا قال ابن عباس قل هو من عند أنفسكم عقوبة لمعصيتكم لنبيكم عليه السلام اه ." (٢)

"أما قوله تعالى ومنهم من يقول ربنا ءاتنا فى الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا عذاب النار فالمفسرون ذكروا فيه وجوها أحدها أن الحسنة في الدنيا عبارة عن الصحة والأمن والكفاية والولد الصالح والزوجة الصالحة والنصرة على الأعداء وقد سمى الله تعالى الخصب والسعة في الرزق وما أشبهه (حسنة) فقال إن تصبك حسنة تسؤهم (التوبة ٥٠) وقيل في قوله قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين (التوبة ٥٢) أنهما الظفر والنصرة والشهادة وأما الحسنة في الآخرة

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٣/٢٣٦

(٢) تفسير الثعالبي، ١/٣٣٠

فهي الفوز بالثوب والخلاص من العقاب وبالجملة فقوله ربنا ءاتنا فى الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة كلمة جامعة لجميع مطالب الدنيا والآخرة روى حماد بن سلمة عن ثابت أنهم قالوا لأنس ادع لنا فقال (اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) قالوا زدنا فأعادها قالوا زدنا قال ما تريدون قد سألت لكم خير الدنيا والآخرة ولقد صدق أنس فإنه ليس للعبد دار سوى الدنيا والآخرة فإذا سأل حسنة الدنيا وحسنة الآخرة لم يبق شيء سواه وثانيها أن المراد بالحسنة في الدنيا العمل النافع وهو الإيمان والطاعة والحسنة في الآخرة اللذة الدائمة والتعظيم والتنعم بذكر الله **وبالأنس به** وبمحبته وبرؤيته وروى الضحاك عن ابن عباس أن رجلا دعا ربه فقال في دعائه ربنا ءاتنا فى الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا عذاب النار فقال النبي عليه الصلاة والسلام (ما أعلم أن هذا الرجل سأل الله شيئا من أمر الدنيا فقال بعض الصحابة بلى يا رسول الله إنه قال (ربنا آتنا في الدنيا حسنة) فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إنه يقول آتنا في الدنيا عملا صالحا وهذا متأكد بقوله تعالى والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين (الفرقان ٧٤) وتلك القرة هي أن يشاهدوا أولادهم وأزواجهم مطيعين مؤمنين مواظبين على العبودية وثالثها قال قتادة الحسنة في الدنيا وفي الآخرة طلب العافية في الدارين وعن الحسن الحسنة في الدنيا فهم كتاب الله تعالى وفي الآخرة الجنة واعلم أن منشأ البحث في الآية أنه لو قيل آتنا في الدنيا الحسنة وفي الآخرة الحسنة لكان ذلك متناولا لكل الحسنات ولكنه قال فى الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا وهذا نكرة في محل الإثبات فلا يتناول إلا حسنة واحدة فلذلك اختلف المتقدمون من المفسرين فكل واحد منهم حمل اللفظ على ما رآه أحسن أنواع الحسنة

فإن قيل أليس أنه لو قيل آتنا الحسنة في الدنيا والحسنة في الآخرة لكان ذلك متناولا لكل الأقسام فلم ترك ذلك وذكر على سبيل التنكير

قلت الذي أظنه في هذا الموضع والعلم عند الله أنا بينا فيما تقدم أنه ليس للداعي أن يقول اللهم أعطني كذا وكذا بل يجب أن يقول اللهم إن كان كذا وكذا مصلحة لي وموافقا لقضائك وقدرك فأعطني ذلك فلو قال اللهم أعطني الحسنة في الدنيا والآخرة لكان ذلك جزما وقد بينا أنه غير جائز أما لما ذكر على سبيل التنكير فقال أعطني في الدنيا حسنة كان المراد منه حسنة واحدة وهي الحسنة التي تكون موافقة لقضائه وقدره ورضاه وحكمه وحكمته فكان ذلك أقرب إلى رعاية الأدب والمحافظة على أصول اليقين

أما قوله تعالى أولئك لهم نصيب مما كسبوا ففيه مسائل

المسألة الأولى قوله تعالى أولائك فيه قولان أحدهما إنه إشارة إلى الفريق الثاني فقط الذين." (١)

" صفحة رقم ٤٠٦

) إن استطاعوا) أي إلى ذلك سبيلا ، فأنتم أحق بأن لا تزالوا كذلك ، لأنكم قاطعون بأنكم على الحق وأنكم منصورون وأنهم على الباطل وهم مخذولون ؛ ولا بد وإن طال المدى لاعتمادكم على الله واعتمادهم على قوتهم ، ومن وكل إلى نفسه ضاع ؛ فالأمر الذي بينكم وبينهم أشد من الكلام فينبغي الاستعداد له بعدته والتأهب له بأهبته فضلا عن أن يلتفت إلى

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . ، ٥/١٦١

التأثر بكلامهم الذي توحيه إليهم الشياطين طعنا في الدين وصدا عن السبيل وشبههم التي أضلوا عليهم دينهم ولا أصل لها ، وفي الآية إشارة إلى ما وقع من الردة بعد موت النبي (صلى الله عليه وسلم) فإن القتال على الدين لم ينقض إلا بعد الفروغ من أمرهم .

قال الحرالي : الاستطاعة مطاوعة النفس في العمل وإعطاؤها الانقياد فيه ، ثم قال : فيه إشعار بأن طائفة ترتد عن دينها وطائفة تثبت ، لأن كلام الله لا يخرج في بته واشتراطه إلا لمعنى واقع لنحو ما ويوضحه تصريح الخطاب في قوله : (ومن يرتدد (إلى آخره ؛ وهو من الردة ومنه الردة وهو كف بكره لما شأنه الإقبال بوفق – انتهى .

وكان صيغة الافتعال المؤذنة بالتكلف والعلاج إشارة إلى أن الدين لا يرجع عنه إلا بإكراه النفس لما في مفارقة الإلف من الألم ؛ وإجماع القراء على الفك هنا للإشارة غلى أن الحبوط مشروط بالكفر ظاهرا باللسان وباطنا بالقلب فهو مليح بالعفو عن نطق اللسان مع طمأنينة القلب ، وأشارت قراءة الإدغام في المائدة إلى أن الصبر أرفع درجة من الإجابة باللسان وإن كان القلب مطمئنا .

ولما حماهم سبحانه وتعالى بإضافة الدين إليهم بأنهم يريدون سلبهم ما اختاروه لأنفسهم لحقيته وردهم قهرا إلى ما رغبوا عنه لبطلانه خوفهم من التراخي عنهم حتى يصلوا إلى ذلك فقال : (ومن يرتدد منكم) أي يفعل ما يقصدونه من الردة) عن دينه (وعطف على الشرط قوله : (فيمت) أي فيتعقب ردته أنه يموت) وهو) أي والحال أنه) كافر (.

ولما أفرد الضمير على اللفظ نصا على كل فرد فرد جمع لأن إخزاء الجمع إخزاء لكل فرد منهم ولا عكس ، وقرنه بفاء السبب إعلاما بأن سوء أعمالهم هو السبب في وبالهم فقال : (فأولئك (البعداء البغضاء) حبطت أعمالهم) أي بطلت معانيها وبقيت صورها ؛ من حبط الجرح إذا برأ ونفي أثره .

وقال الحرالي : من الحبط وهو فساد في الشيء الصالح يأتي عليه من وجه يظن به صلاحه وهو في الأعمال بمنزلة البطح في الشيء القائم الذي يقعده عن قيامه كذلك الحبط في الشيء الصالح يفسده عن وهم صلاحه) في الدنيا (بزوال ما فيها من روح **الأنس بالله** سبحانه وتعالى ولطيف الوصلة به وسقوط إضافتها إليهم إلا مقرونة ببيان حبوطها فقط بطل ما كان لها من الإقبال من." (١)

" صفحة رقم ٤٤٦

ولما وعظه بما يمنعه من قتله ويقبل به على خلاص نفسه ، أعلمه ثانيا أن الخوف من الله منعه من أن يمانعه عن نفسه ملينا لقلبه بما هو جدير أن يرده عنه خشية أن ترجه الممانعة إلى تعدي الحد المأذون فيه ، لأن أخاه كان عاصيا لا مشركا ، فقال مؤكدا بالقسم لأن مثل ما يخبر به عظيم لا يكاد يصدق : (لئن بسطت إلي) أي خاصة) يدك لتقتلني) أي لتوجد ذلك بأي وجه كان ، ثم بالغ في إعلامه بامتناعه من الممانعة فقال : (ما أنا (وأغرق في النفي فقال : (بباسط) أي أصلا ، وقدم المفعول به تعميما ، ثم خص المتعلق لمناسبة الحال فقال : (يدي إليك لأقتلك) أي ي أي وقت من الأوقات ، ولعله أتى بالجملة الاسمية المفيدة لنفي الثبات والدوام أدبا مع الله في عدم الحكم على المستقبل ، ثم علله بقوله : (إني

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٠٦/١

أخاف اله) أي استحضر جميع ما أقدر على استحضاره من كماله ، ثم وصفه بالإحسان إلى خلقه ليكون ذلك مانعا له من الإساءة إلى أحد منهم فقالك) رب العالمين) أي الذي أنعم عليها بنعمة الإيجاد ثم التربية ، فأنا لا أريد أن أخرب ما بنى ، وهذا كما فعل عثمان رضي الله عنه .

ولما كان من النهايات للواصلين إلى حضرات القدس ومواطن **الأنس بالله** ، المتمكنين في درجة الغناء عن غير الفاعل المختار أن لايراد إلا ما يريد سبحانه ، فإن كان طاعة أراده العبد ورضيه ، وإن كان معصية أراده من حيث إنه مراد الله ولم يرضه لكونه معصية ، فيرضى بالقضاء دون المقضي ، وكأنه من الممكن القريب أن يكون هابيل قد كشف له عن أنه سبق في علم الله أن أخاه يقتله ، قال مرهبا له معللا بتعليل آخر صاد له أيضا عن الإقدام على القتل : (إني أريد) أي بعدم الممانعة لك) إن تبوأ) أي ترجع من قتلي إن قتلتني) بإثمي) أي الإثم الذي ينالك من أجل قتلك لي ، وبعقوبته الذي من جملته أنه يطرح عليك من سيئاتي بمقدار ما عليك من حقي إذا لم تجد ما ترضيني به من الحسنات) وإثمك) أي الذي لا سبب لي فيه ، وهو الذي كان سببا لرد قربانك واجترائك علي وعدوانك ، وأفوز أنا بأجري وأجرك ، أي أجري الذي لا سبب لك فيه والأجر الذي أثمره استسلامي لك وكف يدي عنك) فتكون) أي أنت بسبب ذلك) من أصحاب النار) أي الخالدين فيها جزاء لك لظلمك بوضعك القتل في غير موضعه ، ثم بين أن هذا يعم كل من فعل هذا الفعل فقال : (وذلك جزاء الظالمين) أي الراسخين في وصف الظلم كلهم ، وأكون أنا من أصحاب الجنة جزاء لي بإحساني في إيثار حياتك لإرادة المعصية من حيث كونها معصية بإرادة ظهور الكفار ، لما علم من أن النصر بيد الله ، فهو قادر على نصر الباقي بعد استشهاد الشهيد .." (١)

" صفحة رقم ١٨٧

ولما أبطل شبهتهم بشعبيتها بالنسبة إلى الأشخاص المختلفة ، قرب ذلك بدليل واحد في شخص واحد فقال : (قل (يا أشرف الخلق لهؤلاء الجهلة الذين يظنون أن الرزق بحسب حسن السعي وقبحه أو حسن حال الشخص عند الله وقبحها : (إن ربي) أي المحسن إلي بهذا البيان المعجز) يبسط الرزق) أي متى شاء) لمن يشاء من عباده) أي على سبيل التجدد المستمر من أي طائفة كان) ويقدر وله) أي يضيق عليه نفسه في حالتين متعاقبتين ، وهو بصفة واحد على عمل واحد ، فلو أن الإكرام والإنعام يوجب الدوام لما تغيرت حاله من السعة إلى الضيق ، ولو أن في يده نفع نفسه لما اختلف حاله .

ولما بين هذا البسط أن فعله بالاختيار بعد أن بين بالأول كذبهم في أنه سبب للسلامة من النار .

دل على أنه الفاعل لا غيره بقوله : (وما أنفقتم من شيء) أي أنتم وأخصامكم وغيرهم) فهو يخلفه) أي لا غيره بدليل أن المنفق قد يجتهد كل الاجتهاد في الإخلاف فلا ينفق ، فدل ذلك على أنه المختص بالإخلاف ، ولأن هذا هو المعنى لا أنه ضمن الإخلاف لكل من ينفق على أي وجه كان ، قال مجاهد كما نقله الرازي في اللوامع : (إذا كان في يد أحدكم شيء فليقتصد ولا يتأول الآية ، فإن الرزق مقسوم ، وما عال من اقتصد) كما رواه الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٤٦/٢

مرفوعا ، والمعنى أنه قد دل الإخلاف على جميع الأشكال والأضداد على أن الأمر فيه على غير ما ظننتم من الإسعاف به في وقت موجب للإكرام على الدوام ، وأن ذلك إنما هو لضمانه الرزق لكل أحد بحسب ما قسمه له من سبق به عمله وقدرته حكمته ، وتارة يكون إخلافه حسا وبالفعل ، وتارة يكون معنى وبالقوة ، بالترضية بتلك الحالة التي أدت إلى العدم ، قال القشيري : وهو أتم من السرور بالموجود ، ومن ذلك **الأنس بالله** في الخلوة ، ولا يكون ذلك إلا مع التجريد – انتهى .

والمنفق بالاقتصاد داخل إن شاء الله تعالى تحت قول (صلى الله عليه وسلم) فيما رواه الشيخان : البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال الله تعالى : (أنفق أنفق عليك) وما روى الشيخان وابن حبان في صحيحه أيضا (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان يقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا) فهو خير الموسعين) وهو خير الرازقين) أي الذين تعدونهم هذا." (١)

" صفحة رقم ٦١٠

دائم الخذلان منكوسا في أكثر تقلباته بيد القهر والحرمان لسر قوله تعالى : (قاتلهم الله) أي أحلهم الملك المحيط علما وقدرة محل من يقاتله عدو قاهر له أشد مقاتلة على عادة الفعل الذي يكون بين اثنين .

ولما كان حالهم في غاية العجب في صرفهم عن الإسلام أولا بالعمى عن الآيات الظاهرات ، وثانيا عن الإخبار بأسرارهم ، وخفي مكرهم وأخبارهم ، وفي عدم صرفهم عما هم عليه من قبح السرائر وسوء الضمائر بتعكيس مقاصدهم ، وتخييب مصادرهم في مكارهم ومواردهم ، دل على ذلك بقوله : (أنى) أي كفي ومن أي وجه) يؤفكون) أي يصرفهم عن إدراك قبح ما هم عليه صارف ما كائنا ما كان ليرجعوا عنه إلى حسن الدين **والأنس به** وإدراك بركته وعظيم أثره .

ولما كان هذا أمرا عظيما قطعا عن الله ورسوله فيحتاد فاعله حاجة شديدة إلى التطهير وهو جدير بعظمه أن لا يطهره غاية الطهر إلا سؤال النبي (صلى الله عليه وسلم) وكانوا لم يفعلوا ذلك ، دل على سوء بواطنهم وغلظ أكبادهم وأنهم كالخشب المسندة في أنهم لا ثمرة لهم ولا زكاء أصلا بقوله : (وإذا قيل لهم) أي من أي قائل كان : (تعالوا) أي ارفعوا أنفسكم مجتهدين في ذلك بالمجيء إلى أشرف الخلق الذي لا يزال مكانه عاليا لعلو مكانته) يستغفر لكم) أي يطلب الغفران لأجلكم خاصة بعد أن تتولوا من ذنبكم من أجل هذا الكذب الذي أنتم مصرون عليه .

ولما تقدم عاملان ، أعمل الثاني منهما كما هو المختار من مذهب البصريين فرفع قوله : (رسول الله) أي أقرب الخلق إلى الملك الأعظم الذي لا شبيه لجوده) لووا رؤوسهم) أي فعلوا اللي بغاية الشدة والكثرة ، وهو الصرف إلى جهة أخرى إعراضا وعتوا وإظهارا للبغض والنفرة ، وبالغوا فيه مبالغة تدل على أنهم مغلوبون عليه لشدة ما في بواطنهم من المرض) ورأيتهم) أي بعين البصيرة) يصدون) أي يعرضون إعراضا قبيحا عما دعوا إليه مجددين لذلك كلما دعوا إليه ، والجملة في موضع المفعول الثاني لرأيت) وهم مستكبرون) أي ثابتوا الكبر عما دعوا إليه وعن إحلال أنفسهم في محل الاعتذار ، فهم لشدة غلظتهم لا يدركون قبح ما هم عليه ولا يهتدون إلى دوائه ، وإذا أرشدهم غيرهم ونبههم لا ينبهون ، فقد روي

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/١٨٧

أنه لما نزل القرآن فيهم أتاهم شائرهم من المؤمنين وقالوا : ويحكم افتضحتم واهلكتم أنفسكم ، فأتوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتولوا إليه واسألوه أن يستغفر لكم ، فأبوا ذلك فأنزل الله هذه الآية ، وروي أن ابن أبي رأسهم لوى رأسه وقال لهم : أشرتم علي بالإيمان فآمنت وأشرتم علي بأن أعطي زكاة مالي ففعلت ، ولم يبق إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد . ولما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يحب صلاحهم فهو يحب أن يستغفر لهم ، وربما ندبه إلى ذلك." (١)

"﴿ ٢٧ - ٢٩ ﴾ ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ .

يخبر تعالى أن الذين كفروا بآيات الله يتعنتون على رسول الله، ويقترحون ويقولون: ﴿ لَوْلا أُنزلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا فأجابهم الله بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي: طلب رضوانه، فليست الهداية والضلال بأيديهم حتى يجعلوا ذلك متوقفا على الآيات، ومع ذلك فهم كاذبون، ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴾

ولا يلزم أن يأتي الرسول بالآية التي يعينونها ويقترحونها، بل إذا جاءهم بآية تبين ما جاء به من الحق، كفى ذلك وحصل المقصود، وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها، فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا فلم يؤمنوا بها لعاجلهم العذاب.

ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذاتها.

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ أي: حقيق بها وحريٌّ أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء ألذ [ص ٤١٨] للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها، **والأنس به** ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له، يكون ذكرها له، هذا على القول بأن ذكر الله، ذكر العبد لربه، من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك.

وقيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين، فعلى هذا معنى طمأنينة القلوب بذكر الله: أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها، فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين، وبذلك تطمئن القلوب، فإنها لا تطمئن القلوب إلا باليقين والعلم، وذلك في كتاب الله، مضمون على أتم الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه فلا تطمئن بها، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام.

﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ وهذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله وتدبره، وتدبر غيره من أنواع العلوم، فإنه يجد بينها وبينه فرقا عظيما. ثم قال تعالى:." (٢)

"قوله تعالى : ﴿ ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ﴾ [٢٨] قال : أصح الخلة ما لا يورث الندامة ، وليس ذلك إلا **الأنس** **بالله** تعالى ، والعزلة عن الخلق . وكان رسول الله A يلازم الخلوة لما فتح الله في قلبه من العلم ، فكان يحب التفكر فيه . وما من رجل حسنت صلاته إلا واستأنس به كل شيء . والرجل يكون نائما ، فيحركه من نومه أوقات الصلاة فينتبه ، وهذا

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٧/٦١٠

(٢) تفسير السعدي، ص/٤١٧

من إخوانه من الجن قد استأنس به ، وربما يسافرون معه إذا سافر ، ويؤثرونه على أنفسهم ، وربما استأنس به الملائكة . وقد سأل رجل سهلا فقال : إني أريد أن أصحبك . فقال : إذا مات أحدنا فمن يصحب الباقي فليصحبه الآن . وكان الربيع بن خيثم جالسا على باب داره يوما ، فجاء حجر فصك جبهته فشجه ، وقال : لقد وعظت يا ابن خيثم ، فدخل منزله وأغلق الباب على نفسه ، فما رؤي جالسا مجلسه ذلك حتى مات .." (١)

"قوله تعالى : ﴿ والبيت المعمور ﴾ [٤] قال : ظاهرها ما حكى محمد بن سوار بإسناده عن ابن مسعود Bه قال : قال النبي A : « ليلة أسري بي إلى السماء رأيت البيت المعمور في السماء الرابعة ويروى السابعة يحجه كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون إليه بعده أبدا » الحديث بطوله . . . وباطنها القلب قلوب العارفين معمورة بمعرفته ومحبته ، **والأنس به** ، وهو الذي تحجه الملائكة لأنه بيت التوحيد .." (٢)

"أخبر الحق سبحانه بإهلاك الظالمين ، كما في الخبر : « لو كان الظلم بيتا في الجنة لسلط الله عليه الخراب » . والظلم وضع الشيء في غير موضعه ، فإذا وضع العبد قصده– عند حوائجه – في المخلوقين ، وتعلق قلبه بهم في الاستعانة ، وطلب المأمول فقد وضع الشيء في غير موضعه ، وهو ظلم؛ فعقوبة هذا الظلم خراب القلب ، وهو انسداد طريق رجوع ذلك القلب إلى الله؛ لأنه لو رجع إلى الله لأعانه وكفاه ، ولكنه يصر على تعليق قلبه بالمخلوق فيبقى عن الله ، ولا ترتفع حاجته من غيره ، وكان من فقره وحاجته في مضرة . فإن صار إلى مضرة المذلة والحاجة إلى اللئيم فتلك محنة عظيمة . وعلى هذا القياس إذا أحب مخلوقا فقد وضع محبته في غير موضعها ، وهذا ظلم ، وعقوبته خراب روحه لعدم صفاء وده ومحبته لله ، وذهاب ما كان يجده من **الأنس بالله** ، إذا بقي عن الله يذيقه الحق طعم المخلوقين ، فلا له مع الخلق سلوة ، ولا من الحق إلا الجفوة ، وعدم الصفوة .." (٣)

"قوله جل ذكره : ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت ﴾ .

التوكل تفويض الأمور إلى الله وحقه وأصله علم العبد بأن الحادثات كلها حاصلة من الله تعالى ، وأنه لا يقدر أحد على الإيجاد غيره .

فإذا عرف هذا فهو فيما يحتاج إليه – إذا علم أن مراده لا يرتفع إلا من قبل الله – حصل له أصل التوكل . وهذا القدر فرض ، وهو من شرائط الإيمان ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ [المائدة : ٢٣] وما زاد على هذا القدر – وهو سكون القلب وزوال الانزعاج والاضطرار – فهي أحوال تلحق بالتوكل على وجه كماله .

فإن تقرر هذا فالناس في الاكتفاء والسكون على أقسام ، ولكل درجة من هذه الأقسام اسم : إما من حيث الاشتقاق ، أو من حيث الاصطلاح .

فأول رتبة فيه أن يكتفي بما فيه يده ، ولا يطلب زيادة عليه ، ويستريح قلبه من طلب الزيادة . . وتسمى هذه الحالة القناعة

---

(١) تفسير التستري، ١/٣٦٤

(٢) تفسير التستري، ٢/٧١

(٣) تفسير القشيري، ٣/٢٠٠

، وفيها يقف صاحبها حيث وقف ، ويقنع بالحاصل له فلا يستزيد ثم اكتفاء كل أحد يختلف في القلة والكثرة ، وراحة قلوب هؤلاء في التخلص من الحرص وإرادة الزيادة .

ثم بعد هذا سكون القلب في حالة عدم وجود الأسباب ، فيكون مجردا عن الشيء ، ويكون في إرادته متوكلا على الله . وهؤلاء متباينون في الرتبة ، فواحد يكتفي بوعده لأنه صدقه في ضمانه ، فيسكن – عند فقد الأسباب – بقلبه ثقة منه بوعد ربه . . ويسمى هذا توكلا ، ويقال على هذا : إن التوكل سكون القلب بضمان الرب ، أو سكون الجاش في طلب المعاش ، أو الاكتفاء بوعده عند عدم نقده ، أو الاكتفاء بالوعد عند فقد النقد .

وألطف من هذا أن يكتفي بعلم أنه يعلم حاله فيشتغل بما أمره الله؛ ويعمل على طاعته؛ ولا يراعي إنجاز ما وعده؛ بل يكل أمره إلى الله . . وهذا هو التسليم .

وفوق هذا التفويض ، وهو أن يكل أمره إلى الله . ولا يقترح على مولاه بحال ، ولا يختار؛ ويستوي عند وجود الأسباب وعدمها؛ فيشتغل بأداء ما ألزمه الله؛ ولا يفكر في حال نفسه؛ ويعلم أنه مملوك لمولاه؛ والسيد أول بعبده من العبد بنفسه . فإذا ارتقى عن هذه الحالة وجد راحة في المنع؛ واستعذب ما يستقبله من الرد . . . وتلك هي مرتبة الرضا؛ ويصلح له في هذه الحالة من فوائد الرضا ولطائفه ما لا يحصل لمن دونه من الحلاوة في وجود المقصود .

وبعد هذا الموافقة؛ وهي ألا يجد الراحة في المنع ، بل يجد بدل هذا عند نسيم القرب زوائد الأنس بنسيان كل أرب ، ونيسان وجود سبب أو عدو وجود سبب؛ فكما أن حلاوة الطاعة تتصاغر عند برد الرضا – وأصحاب الرضا يعدون ذلك حجابا – فكذلك أهل **الأنس بالله** .." (١)

"من الخلف في الدنيا الرضا بالعدم والفقد ، وهو أتم من السرور بالموجود؛ ومن ذلك **الأنس بالله** في الخلوة؛ ولا يكون ذلك إلا مع التجريد .." (٢)

"قوله جل ذكره : ﴿ وءاخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾ .

أي بعثه في الأميين ، وفي آخرين منهم وهم العجم ، ومن يأتي . . إلى يوم القيامة؛ فهو A مبعوث إلى لناس كافة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشآء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

يقصد به هنا النبوة ، يؤتيها ﴿ من يشآء ﴾ ؛ وفي ذلك رد على من قال : إنها تستحق لكثرة طاعة الرسول – ورد على من قال : إنها لتخصيصهم بطينتهم؛ فالفضل ما لا يكون مستحقا ، والاستحقاق فرض لا فضل .

ويقال : ﴿ فضل الله ﴾ هنا هو التوفيق حتى يؤمنوا به .

ويقال : هو **الأنس بالله** ، والعبد ينسى كل شيء إذا وجد الأنس .

ويقال : قطع الأسباب ، – بالجملة – في استحقاق الفضل ، إذا أحاله على المشيئة .

قوله جل ذكره : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بئايات الله

---

(١) تفسير القشيري، ٥/٣٨٩

(٢) تفسير القشيري، ٦/٣٠٧

والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ﴿ ثم لم يحملوها ﴾ : ثم لم يعملوا بها .

ويلحق بهؤلاء في الوعيد – من حيث الإشارة– الموسومون بالتقليد في أي معنى شئت : في علم الأصول ، ومما طريقه أدلة العقول ، وفي هذه الطريقة مما طريقه المنازلات .

قوله جل ذكره : ﴿ قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أوليآء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾ .

هذا من جلمة معجزاته A ، فصرف قلوبهم عن تمني الموت إلى هذه المدة دل على صدقه صلوات الله عليه .

ويقال : من علامات المحبة الاشتياق إلى المحبوب؛ فإذا كان لا يصل إلى لقائه إلا بالموت فتمنيه – لا محالة– شرط ، فأخبر أنهم لا يتمنونه أبدا . . وكان كما اخبر .." (١)

" قوله ١٦٤ – ﴿ لقد من الله على المؤمنين ﴾ جواب قسم محذوف وخص المؤمنين لكونهم المنتفعين ببعثته ومعنى ﴿ من أنفسهم ﴾ أنه عربي مثلهم وقيل : بشر مثلهم ووجه المنة على الأول : أنهم يفقهون عنه ويفهمون كلامه ولا يحتاجون إلى ترجمان ومعناها على الثاني : أنهم يأنسون به بجامع البشرية ولو كان ملكا لم يحصل كمال **الأنس به** لاختلاف الجنسية وقرئ ﴿ من أنفسهم ﴾ بفتح الفاء : أي من أشرفهم لأنه من بني هاشم وبنو هاشم أفضل قريش وقريش أفضل العرب والعرب أفضل من غيرهم ولعل وجه الامتنان على هذه القراءة أنه لما كان من أشرفهم كانوا أطوع له وأقرب إلى تصديقه ولا بد من تخصيص المؤمنين في هذه الآية بالعرب على الوجه الأول وأما على الوجه الثاني فلا حاجة إلى هذا التخصيص وكذا على قراءة من قرأ بفتح الفاء لا حاجة إلى التخصيص لأن بني هاشم هم أنفس العرب والعجم في شرف الأصل وكرم النجار ورفاعة المحتد ويدل على الوجه الأول قوله تعالى ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ﴾ وقوله ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ قوله ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ هذه منة ثانية أي : يتلو عليهم القرآن بعد أن كانوا أهل جاهلية لا يعرفون شيئا من الشرائع ﴿ ويزكيهم ﴾ أي : يطهرهم من نجاسة الكفر وهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى وهما في محل نصب على الحال أو صفة لرسول وهكذا قوله ﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾ والمراد بالكتاب هنا القرآن والحكمة : السنة وقد تقدم في البقرة تفسير ذلك ﴿ وإن كانوا من قبل ﴾ أي : من قبل محمد أو من قبل بعثته ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ أي : واضح لا ريب فيه واللام للفرق بين إن المخففة من الثقيلة وبين النافية فهي تدخل في خبر المخففة لا النافية واسمها ضمير الشأن أي : وإن الشأن والحديث وقيل : إنها النافية واللام بمعنى إلا : أي وما كانوا من قبل إلا في ضلال مبين وبه قال الكوفيون والجملة على التقديرين في محل نصب على الحال

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله تعالى ﴿ وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض ﴾ الآية قال : هذا قول عبد الله بن أبي سلول والمنافقين وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي نحوه وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ﴾ قال : يحزنهم قولهم ولا ينفعهم شيئا وأخرجوا عن قتادة في قوله ﴿ فبما رحمة من الله ﴾ يقول : فبرحمة من الله ﴿ لنت لهم ﴾ وأخرج ابن

---

(١) تفسير القشيري، ٤٢٦/٧

جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ لانفضوا من حولك ﴾ قال : لانصرفوا عنك وأخرج ابن عدي والبيهقي في الشعب قال السيوطي بسند حسن عن ابن عباس : قال لما نزلت ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : [أما إن الله ورسوله لغنيان عنها ولكن الله جعلها رحمة لأمتي فمن استشار منهم لم يعدهم رشدا ومن تركها لم يعدم غيا] وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ قال : أبو بكر وعمر وأخرج ابن مردويه عن علي قال : [سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن العزم فقال : مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم] وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ﴿ وما كان لنبي أن يغل ﴾ في قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر فقال بعض الناس : لعل رسول الله صلى الله عليه و سلم أخذها فنزلت وأخرج البزار وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس ﴿ وما كان لنبي أن يغل ﴾ قال : ما كان لنبي أن يتهمه أصحابه وقد ورد في تحريم الغلول أحاديث كثيرة وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿ هم درجات عند الله ﴾ يقول : بأعمالهم وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة في قوله ﴿ لقد من الله على المؤمنين ﴾ الآية قالت : هذه للعرب خاصة ." (١)

"كلام ابن القيم في معنى قوله تعالى: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)

قال ابن القيم في بدائع الفوائد: في هذه الآية جمع لهم سبحانه وتعالى بين العذابين: عذاب الحجاب وعذاب النار، فألم الحجاب يجعل في قلوبهم وأرواحهم ألما نفسانيا، تتألم وتتعذب به قلوبهم وأرواحهم، نظير ما تفعله النار في أجسادهم، كحال من حيل بينه وبين أحب الأشياء إليه في الدنيا وأخذ بأشد العذاب.

يعني: جمع له هذان الأمران، فرق إلى الأبد بينه وبين أحب إنسان إليه في الدنيا، بالإضافة إلى ذلك عذب أشد العذاب، فجسمه في عذاب، وقلبه وروحه في عذاب، والعياذ بالله.

يقول: فإن أخطر عذاب الروح أن تتعلق بمحبوب لا غنى لها عنه، وهي ممنوعة من الوصول إليه، فكيف إن حصل لها مع غياب المحجوب عنها وطول احتجابه بغضه لها ومقته وطرده وغضبه الشديد عليها؟! ولذلك ف ابن القيم يريد أن يبين أن هذا الألم الذي يقع على القلوب والأرواح ألم نفسي أشد بكثير جدا مما يقع على الأبدان، ويزداد العذاب شدة عندما يتوارى هذا المحبوب ويطول احتجابه عنها.

يقول: فأي نسبة لألم البدن إلى هذا الألم الذي لا يتصوره إلا من بلي به أو بشيء منه، فلو توهمت النفوس ما في احتجاب الله سبحانه وتعالى عنها يوم لقائه من الألم والحسرة لما تعرضت لأسباب ذلك الاحتجاب.

يعني: لو أن الإنسان أعمل فكره وأخذ يتأمل كيف تكون حسرته إذا كان من المحجوبين عن الله تبارك وتعالى في ذلك اليوم، لاتقى أسباب هذا الاحتجاب؛ حتى لا يعذب هذا العذاب.

ثم يقول: وأنت ترى المحبين في الدنيا لصورة منتهى حسنها إلى ما يعلم -يعني إلى الموت-.

فالرجل العاشق مثلا لامرأة في غاية الجمال نهايتها الموت.

---

(١) فتح القدير، ٥٩٤/١

ناهيك عن الأمور الأخرى التي هي دون الموت.

يقول: وأنت ترى المحبين في الدنيا لصورة منتهى حسنها إلى ما يعلم، كيف يصيبهم من ألم احتجاب محبوبهم عنهم وإعراضه وهجره، ويرى أحدهم كالموت أو أشد منه من بين ساعة.

يعني: من فراق ساعة، فالبين هو الافتراق والابتعاد، أي: كل ما حصل هو فراق ساعة من الزمان، فهو يتألم ألما شديدا، كما يقول الشاعر يرثي أخاه لأمه: وكنت أرى كالموت من بين ليلة فكيف ببين كان ميعاده الحشر.

أقول لنفسي في الخلاء ألومها لك الويل ما هذا التذلل والصبر.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: وإنما يتبين الحال في هذا بمعرفة ما خلقت له الروح وما هيئت له، وما فطرت عليه، وما لا سعادة لها ولا نعيم ولا حياة إلا بإدراكه.

فاعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق كل عضو من الأعضاء لغاية ومنفعة، فكماله ولذته في أن يحصل فيه ما خلق له، فخلق العين للإبصار، والأذن للسمع، والأنف للشم، واللسان للنطق والذوق، واليد للبطش، والرجل للمشي، والروح لمعرفته ومحبته وللابتهاج بقربه والتنعم بذكره، وجعل هذا كمالها وغايتها، فإذا تعطلت من ذلك كانت أسوأ حالا من العين والأذن واللسان واليد والرجل التي تعطلت عما خلقت له وحيل بينها وبينه، بل لا نسبه لألم هذه الروح إلى ألم تلك الأعضاء المعطلة ألبتة، بل ألمها أشد الألم، وهو من جنس ألمها إذا فقدت أحب الأشياء إليها وأعزه عليها، وحيل بينها وبينه، وشاهدت غيرها قد ظفر بوصله وفاز بقربه ورضاه.

والروح لا حياة لها ولا نعيم ولا سرور ولا لذة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودها وإلهها ومرادها، الذي لا تقر عينها إلا بقربه **والأنس به**، والعكوف بكليتها على محبته والشوق إلى لقائه، فهذا غاية كمالها وأعظم نعيمها وجنتها العاجلة في الدنيا، فإذا كان يوم لقائه كان أعظم نعيمها رفع الحجاب الذي كان يحجبها في الدنيا عن رؤية وجهه وسماع كلامه.

يعني: الإنسان إذا عمر قلبه بمحبة الله سبحانه **والأنس به** ومعرفته، والعكوف على الشوق إليه، يعيش في الدنيا كأن في صدره جنة، ويرى من النعيم ما لا يوصف، كما قال العلماء في قوله تعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم﴾ [الانفطار:١٣ - ١٤]: فهذه عامة لا ينبغي تخصيصها بالنعيم في البرزخ ولا بالنعيم في الجنة، بل هي في الدور الثلاثة: في الدنيا، وفي البرزخ، وفي الجنة.

ولذلك كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يقول: ما يصنع أعدائي بي، جنتي في صدري، فأينما رحت فهي معي. يقصد جنة العلم ومحبة الله عز وجل ومعرفته.

وقال بعض الصالحين: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من لذة النعيم لجالدونا عليه بالسيوف.

أي: لو ذاق الملوك وأبناء الملوك النعيم الذي نتمتع به في قلوبنا من ذكر الله ومعرفته **والأنس به** ومحبته عز وجل لجالدونا عليه بالسيوف، لكنهم لا يعلمون؛ لأنهم يتلهون بنعيم الدنيا ويرغبون عن ذلك النعيم الحقيقي.

فطريق السعادة أن تستقيم على مراد الله، كما قال بعض العلماء: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وهي جنة الرضا عن الله سبحانه وتعالى ومحبته.

والإنسان يشعر بهذا إذا ذاقه، أما إن كان مجرد خبر فإنه لا يوقن به كما لو ذاقه، كما يقول الصوفية: من ذاق عرف ومن حرم انحرف.

ثم يقول: والروح لا حياة لها ولا نعيم ولا سرور ولا لذة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودها وإلهها ومرادها، الذي لا تقر عينها إلا بقربه **والأنس به،** والعكوف بكليتها على محبته والشوق إلى لقائه، فهذا غاية كمالها وأعظم نعيمها وجنتها العاجلة في الدنيا، فإذا كان يوم لقائه كان أعظم نعيمها رفع الحجاب.

يعني: أعظم نعيم في الدنيا هو أن يعمر القلب بمحبة الله، وأعظم نعيم في الآخرة إذا قوبل المحبوب أن يرفع الحجب التي كانت في الدنيا بينه وبينه، كما قال النبي عليه السلام: (حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) ففي الآخرة يخلق المؤمن ويخلق أهل الجنة خلقا بحيث يتحملون رؤية الله تبارك وتعالى، أما في الدنيا فلا يمكن لأحد أن يرى الله: ﴿قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا﴾ [الأعراف:١٤٣] هذا الجبل الضخم القوي لم يتحمل فما قوة موسى عليه السلام بالنسبة للجبل؟! لما تجلى الله سبحانه وتعالى للجبل اندك تماما، فأراد الله أن يبين لموسى أنه بخلقته هذه في الدنيا لا يستطيع رؤيته سبحانه وتعالى، وأما في الآخرة فيخلقون خلقا جديدا بحيث يطيقون رؤية الله عز وجل، فالله لا يرى بهذه العين الفانية، وإنما يرى بخلق آخر يخلقه الله في جنة الرضوان، وحينئذ يكون أعظم نعيم في حقهم، بحيث إذا نعموا به يتلهون وينسون سائر ما في الجنة من نعيم، فرؤية الله سبحانه وتعالى في اليوم المهيب ورؤية وجهه الكريم وسماع كلامه هو أعظم نعيم على الإطلاق.

وفي حديث الرؤية يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (فو الله ما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إلى وجهه) فبعدا وسحقا لأولئك الكفرة الذين يعيرون المسلمين بأن دينهم يدعوهم إلى الجنة لينالوا فيها المتاع الحسي من الحور العين والأكل والشراب والفاكهة واللحم، وأن نبيهم يغريهم بالشهوات الجسدية، وهذا كله نابع عن جهلهم وحماقتهم وظلمة قلوبهم بالكفر، وهو ناتج عن غلوهم في تحريم الطيبات، فهم ينظرون إلى متع الحس على أنها نجس وخبث، حتى إن القذارة عندهم شيء طيب، والنظافة شيء خبيث ينفرون منه، فانعكس هذا على العقائد عندهم، فهم ليس عندهم شيء اسمه الجنة والنار بالتفاصيل التي نعرفها نحن، والتي امتن الله بها على هذه الأمة المحمدية المصطفاة، كما في كتابها القرآن الكريم وسنة نبيها عليه الصلاة والسلام، أما هؤلاء الضلال فأقصى شيء عندهم هو الدخول في الملكوت.

ما هو الملكوت؟ لا يعرفون عنه شيئا، ونحن امتن الله علينا بالقرآن وبالسنة فجاءت لنا بالتفاصيل لهذه الحياة الغيبية، حتى إننا لنعلم أكل أهل الجنة وملابس أهل الجنة وصفة الجنة وأشجارها وثمارها إلخ، كل هذا كي يكون محررا وقائدا للمؤمنين إلى السعي لنيل هذا النعيم.

ثم لماذا ينسى النعيم الحسي؟ أليس الإنسان مركبا من روح وجسد؟ والروح تتنعم والجسد أيضا يتنعم، فما الذي يستغربونه من هذا الفضل الرباني الإلهي؟ أيستبعدون أن ينعم الله الروح والجسد؟ ما الذي يستغربه هؤلاء الحمقى ويعيرون به المسلمين ويقولون: إن دينكم يغريكم بالشهوات؟ ثم ما جريمته إن كانت هذه خلقة الإنسان وهذه فطرة الإنسان؟ ومع ذلك فإن أعظم نعيم الجنة في الحقيقة هو النعيم الروحي، وليس الحسي، بدليل الأحاديث التي دلت على أن أهل الجنة إذا تجلى لهم

الله سبحانه وتعالى ورأوه عز وجل فإنهم يتلهون عن كل ما في الجنة من ملذات، فينسون الحور العين وغيرها من الملذات، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام: (فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه).

والله سبحانه يقول: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ [التوبة:٧٢] فرضوان الله أكبر من نعيم الجنة الحسي وملذاتها، وقد عرفنا أن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما نلهم النفس، والإنسان إذا نام يبقى يتنفس، فكذلك أهل الجنة يلهمون التسبيح؛ لأنهم في دار ليست بدار تكليف وإنما هي دار جزاء، فلذلك لا يتعبدون بالتسبيح، كما هو الحال في الدنيا وإنما التسبيح يأتي بصورة لا إرادية.

ثم يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: وكما جمع الله سبحانه وتعالى لأعدائه بين هذين العذابين، وهما ألم الحجاب وألم العذاب. وهما في قوله تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾ [المطففين:١٥ - ١٦] فألم الحجاب أن يتحسر أهل النار حينما يكونون من المحجوبين عن الله، ولا أمل عندهم أن يروا الله سبحانه وتعالى، فاجتمع لهم ألم الحجاب وألم العذاب أي: عذاب النار.

يقول: فكما جمع الله سبحانه وتعالى لأعدائه بين هذين العذابين وهما: ألم الحجاب وألم العذاب، جمع لمحبيه بين نوعي النعيم: نعيم الخلد والنظر، ونعيم الأكل والشرب والتمتع بما في الجنة.

جمع الله لأهل الجنة." (١)

"خاتمة تفسير القاسمي لسورة البقرة

القاسمي رحمه الله تعالى ختم تفسير سورة البقرة باقتباس جميل جدا هو في الحقيقة في غاية الروعة، وما أشد مناسبته لختام سورة البقرة؛ لأنه جمع فيه الفضائل العظيمة جدا في القرآن، يقول رحمه الله تعالى: تأمل خطاب القرآن تجد ملكا له الملك كله وله الحمد، كله يثيب ويعاقب ويكرم ويهين ويخلق ويرزق ويحيي ويميت ويقدر ويقضي، ويدبر الأمور النازلة من عنده دقيقها وجليلها والصاعدة إليه، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه.

فتأمل كيف تجده يثني على نفسه، ويمجد نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وصلاحهم ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه، يذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويذكرهم ما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء، ويثني على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوقاتهم، ويذم أعداءه بسيئ أعمالهم وقبيح صفاتهم.

ويضرب الأمثال، وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويقول الحق، ويهدي السبيل، ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذر من دار البوار، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها.

ويذكر عباده بفقرهم إليه، وشدة حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكر لهم غناءه عن جميع

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٩/١٨٩

الموجودات، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته، ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته.

وتشهد من خطابه عتابه لأحبابه بألطف عتاب، وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم، وغافر زلاتهم، ومقيم أعذارهم، ومذهب فسادهم، والدافع عنهم، والحامي لهم، والناصر لهم، والكفيل لمصالحهم، والمنجي لهم من كل كرب، والموفي لهم بوعده، وأنه وليهم الذي لا ولي لهم سواه، فهو مولاهم الحق وناصرهم على عدوهم، فنعم المولى ونعم النصير.

وإذا علمت القلوب من القرآن أن الله جواد رحيم جليل، هذا شأنه؛ فكيف لا تحبه، وتتنافس في القرب منه، وتنفق أنفاسها في التودد إليه، ويكون أحب إليها من كل ما سواه، ورضاه آثر عندها من رضا كل من سواه؟! وكيف لا تلهج بذكره وتصير حبه والشوق إليه **والأنس به** هو رضاؤها وقوتها ودواؤها، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها؟! اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء حزننا، وأعنا على إكمال ما قصدناه بفضلك يا أرحم الراحمين!." (١)

"تفسير قوله تعالى: (إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا)

قال تعالى: ﴿إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾ [آل عمران:٣٥] ((إذ قالت امرأة عمران)) أي: اذكر إذ قالت امرأة عمران، واسمها: حنة، لما أسنت واشتاقت للولد فدعت الله عز وجل، فلما أحست بالحمل قالت: ﴿رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾ [آل عمران:٣٥].

(إني نذرت) أي: نذرت أن أجعل، (لك ما في بطني محررا).

يقول الزجاج: كان على أولادهم فرضا أن يطيعوهم في نذرهم، وهذا في شريعتهم، أي: لو أن الأب نذر ابنه للتفرغ لعبادة الله سبحانه وتعالى كان على الولد أن يطيع أباه في ذلك، فكان الرجل ينذر في ولده أن يكون خادما في مكان العبادة.

وقال القاضي أبو يعلى: والنذر في مثلما نذرت صحيح في شريعتنا، فإنه إذا نذر الإنسان إن ينشئ ولده الصغير على عبادة الله وطاعته وأن يعلمه القرآن والفقه وعلوم الدين صح مثل هذا النذر.

وانظر إلى قولها: ((ما في بطني)) ولذلك قدر السيوطي -وهذا من دقته في التفسير- في الجملة السابقة: ((إذ قالت امرأة عمران)) قال: لما أسنت واشتاقت للولد فدعت الله وأحست بالحمل، فقوله: أحست بالحمل، استنبطها من قولها: ((ما في بطني)) لأنها أحست بهذا الحمل.

((محررا)) أي: عتيقا خالصا من شواغل الدنيا لخدمة بيتك المقدس.

هذا التعبير في غاية الدقة في الحقيقة، فهو يتحرر من أن يعبد الدنيا، ويتذلل في طلبها؛ ليكون خالصا لعبادة الله وحده.

معنى قولها: ((نذرت لك ما في بطني محررا)) أي: نذرته وقفا على طاعتك، لا أشغله بشيء من أموري، فلم تطلب منه الاستئناس به، ولا ما يطمع الناس من أولادهم؛ لأن الناس يطمعون من وجود الذرية إشباع ما في الفطرة من الاستئناس بالأولاد، كذلك أيضا الاستنصار بهم، والاستعانة بهم، فهي تنازلت عن حظ نفسها من هذا الولد.

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٢١/١٠

يقول العلماء: وهكذا على كل أحد إذا طلب ولدا أن يطلبه بالوجه الذي طلبت امرأة عمران وطلب زكريا حيث قال: ﴿رب هب لي من لدنك ذرية طيبة﴾ [آل عمران:٣٨] أي: صالحة.

وما سأل إبراهيم عليه السلام: ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ [الصافات:١٠٠].

وقال تعالى في دعاء عباد الرحمن: ﴿ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾ [الفرقان:٧٤] هبة من الله سبحانه وتعالى.

فهكذا الواجب أن يطلب الولد لا من أجل الاستئناس والاستنصار والاستعانة بأمر المعاش بهم، فانظر إلى امرأة عمران لما من الله تعالى عليها بالولد نظرت أن حظها من **الأنس به** متروك، فنذرته على خدمة الله تعالى في مكان العبادة، وهذا نذر الأحرار من الأبرار.

قال القرطبي رحمه الله تعالى: وأرادت بقولها: ((محررا)) أي: محررا من رق الدنيا وأشغالها.

وهذه إشارة إلى أن من لا يشتغل بطاعة الله سبحانه وتعالى اشتغالا محضا فهو لا بد له من نوع من الاسترقاق لمطالب الدنيا ومآربها، ويشبه هذا ما حكاه القرطبي أيضا عن رجل من العباد أنه قال لأمه: يا أمه! ذريني لله أتعبد له وأتعلم العلم، فقالت: نعم، فسار حتى تبصر، ثم عاد إليها فدق الباب، فقالت: من؟ فقال لها: ابنك فلان، قالت: قد تركناك لله ولا نعود فيك.

هذه القصة قد يكون فيها شيء من النظر.

و ((محررا)) كما ذكرنا مأخوذ من الحرية، والحرية ضد العبودية، ومن هذا تحرير الكتاب، يقال: الكتاب الفلاني حرره المصنف الفلاني، وخلصه من الاضطراب والفساد، والمحرر: هو الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا، تقول: طين حر، أي طين لا رمل فيه، وهناك عبارة مشهورة عند الناس يقولون: ذهب حر، أي: لم يخالطه النحاس ولا غيره.

((فتقبل مني))، التقبل: هو أخذ الشيء على وجه الرضا.

((إنك أنت السميع)) أي: السميع للدعاء، والمقصود بالسميع هنا هو المجيب، كما تقول في الصلاة: سمع الله لمن حمده، يعني: أجاب الله سبحانه وتعالى.

((العليم)) أي: بالنيات.." (١)

"أهمية الحرص على الوقت وعدم تضييع وقت الآخرين

على الإنسان إذا دعي إلى طعام ألا يكون ضيفا ثقيلا على من يذهب إليه، فإذا دعاك إنسان إلى طعام تذهب في وقت الدعوة الذي حدده المضيف وليس قبل هذا الوقت.

وعلى الإنسان أن يفي بوعده، وأن يلتزم بالمواعيد، فوقت المسلم غال، يقضي وقته في ذكر الله عز وجل، يقضيه في قضاء حوائجه، يقضيه في عمله، يقضيه مع أهله وأولاده، يقضيه في صلاة، يقضيه في عبادة، فعلى كل إنسان أن يراعي وقت الآخر، وإذا كان يريدك لحاجة لا تقل: دعوه ينتظر! وبعض الناس قد يزور آخر في وقت متأخر من الليل، فيضيع عليه عمل اليوم التالي أو يضيع عليه صلاة الليل، فهذا ما عرف قيمة الوقت.

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم، محمد إسماعيل المقدم ٢٢/٢٣

فانظروا إلى هذه الآية كيف تؤدب الصحابة إذا دعوا إلى طعام، حتى لا يضيعوا وقت النبي صلى الله عليه وسلم، وإذا أكلوا ينصرفون ولا يستأنسون لحديث، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان طيب العشرة، وكان لا يواجه أحدا بما يكره، دخل عليه رجل فقال وهو داخل: (بئس أخو العشيرة)، فعندما جلس إذا بالنبي صلى الله عليه وسلم يتكلم معه ويتبسط معه ويضحك معه، صلوات الله وسلامه عليه.

فربنا يؤدب المؤمنين والنبي صلى الله عليه وسلم إذا كان يؤانسك بالحديث ليس معنى هذا أنك تجلس وتأخذ راحتك وتضايق النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث﴾ [الأحزاب:٥٣]، فعلى الضيف إذا دعي إلى الطعام أن يذهب في الموعد الذي حدد له، لا بعده ولا قبله، فإذا فرغ من الطعام فلينصرف ولا يجلس إلا أن يمسك به صاحب البيت، ويصر على مكثه فهذا أمر آخر، ولكن دائما عود نفسك إذا دعاك إنسان ألا تمكث بعد الطعام كثيرا، حتى لا تضايق صاحب البيت، ولا تضطره أن يقول لك: ورائي شغل، ورائي كذا، أريد أن أنام، فتحرج صاحب البيت في ذلك.

قال ربنا سبحانه: ﴿فإذا طعمتم﴾ [الأحزاب:٥٣] أي: أكلتم ﴿فانتشروا ولا مستأنسين﴾ [الأحزاب:٥٣] من الأنس، والأنس: ضد الوحشة، فالأنس يكون بالمحادثة اللطيفة، وبطيب المجلس، وبطيب المعاشرة.

فالمعنى: حتى لو بدا لك من النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فلا تستأنس بحديث، وتعود لتسأله عن شيء وراء شيء، وتتكلم وتطيل المجلس، وهذا أدب للصحابة وغيرهم أولى بهذا الأدب.

فعلى الإنسان أن يتأدب بهذا الأدب، فإذا أدخلك إنسان بيته لطعام فلا تطل في الكلام معه، فهو قد يريد أن يقوم من الليل، يريد أن يصلي الفجر، يريد أن يحضر الدروس، يحترم بعضنا وقت بعض، فالوقت عظيم جدا، الوقت فرصة عمرك ولن يعوض مرة ثانية، فلا تضيع وقتك ولا وقت غيرك، فالوقت غال جدا، الوقت هو عمرك، الوقت كالذهب، الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، الوقت عظيم، إذا ذهب لا يعوض أبدا، فلا تضيع وقتك ولا وقت غيرك.

فعلينا أن نراعي هذا الأدب الذي علمناه الله تبارك وتعالى، وهو أدب الضيافة، وأدب الحديث، وعدم الإكثار من السؤال، وعدم تضييع أوقات الناس، إذا رأيت أخاك في المسجد يقرأ القرآن لا تقل له: تعال نتكلم قليلا وتشغله عن القرآن، فالقرآن أعظم الأشياء، دعه يقرأ القرآن ويتقرب إلى الله سبحانه وتعالى.

وإذا رأيت إنسانا جالسا في المسجد من الفجر إلى الشروق من أجل أن يذكر الله، ويعمل بحديث: (من صلى الفجر في جماعة ثم جلس في مصلاه يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كتب له أجر عمرة تامة تامة تامة)، فلا تجلس لتكلمه وتضيع عليه أجر العمرة التامة.

عود نفسك أن تستأنس بالله تبارك وتعالى، كثير من الناس لا يعرف هذا الشيء؛ فإذا جلس وحده لذكر الله يمل بسرعة؛ لكن إذا جلس يتكلم مع غيره فقد يجلس ساعات، فعود نفسك على **الأنس بالله** سبحانه، وأن تجلس وتتفكر في الله سبحانه، إذا سبحت تتأمل في معنى التسبيح، إذا حمدت الله سبحانه تتفكر في معنى الحمد، ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ [إبراهيم:٧].

عود نفسك على الخلوة مع الله تبارك وتعالى، وسيأتي رمضان وكثير منكم سيعتكف، لكن قد تجد الاعتكاف يتحول إلى سمرة، تراهم ساهرين يتكلمون، والنهار يضيعونه في النوم، وهكذا تضيع الأيام من غير فائدة كبيرة.

فلنعود أنفسنا على الخلوة مع الله تبارك وتعالى، ونكثر من ذلك، وأهل الجنة يلهمون التسبيح كما نلهم النفس، فأهل الجنة متعتهم تسبيح الله تبارك وتعالى، فالذاكر يستمتع في الدنيا بذكر الله سبحانه فيمتعه الله عز وجل به في الجنة، نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من أهلها.." (١)

"[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٢٨]

يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا (٢٨)

قوله تعالى: ليتني لم أتخذ فلانا خليلا [٢٨] قال: أصح الخلة ما لا يورث الندامة، وليس ذلك إلا **الأنس بالله** تعالى، والعزلة عن الخلق. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلازم الخلوة لما فتح الله في قلبه من العلم، فكان يحب التفكر فيه. وما من رجل حسنت صلاته إلا واستأنس به كل شيء. والرجل يكون نائما، فيحركه من نومه أوقات الصلاة فينتبه، وهذا من إخوانه من الجن قد استأنس به، وربما يسافرون معه إذا سافر، ويؤثرونه على أنفسهم، وربما استأنس به الملائكة.

وقد سأل رجل سهلا فقال: إني أريد أن أصحبك. فقال: إذا مات أحدنا فمن يصحب الباقي فليصحبه الآن. وكان الربيع بن خيثم جالسا على باب داره يوما، فجاء حجر فصك جبهته فشجه، وقال: لقد وعظت يا ابن خيثم، فدخل منزله وأغلق الباب على نفسه، فما رؤي جالسا مجلسه ذلك حتى مات «١» .

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٥٨]

وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا (٥٨)

قوله: وتوكل على الحي الذي لا يموت [٥٨] سئل ابن سالم عن التوكل والكسب بأيهما تعبد الخلق؟ قال: التوكل حال الرسول صلى الله عليه وسلم، والكسب سنته. وإنما استن الكسب لهم لضعفهم حين أسقطوا عن درجة التوكل الذي هو حاله، فلم يسقطهم عن درجة طلب المعاش بالكسب الذي هو سنته، ولولا ذلك لهلكوا «٢» . قال سهل: من طعن في الكسب فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان «٣» .

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٦٣ الى ٦٤]

وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (٦٣) والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما (٦٤)

قوله: وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما [٦٣] أي صوابا من القول وسدادا.

وقال الحسن البصري رحمه الله: هذا دأبهم في النهار، فإذا دخل الليل كانوا كما وصف الله في آخر الآية: والذين يبيتون لربهم

---

(١) تفسير أحمد حطيبة، أحمد حطيبة ٤/٢٨٧

سجدا وقياما [٦٤] .

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٧٠]

إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما (٧٠)

قوله: إلا من تاب [٧٠] قال: لا تصح التوبة لأحدكم حتى يدع الكثير من المباح، مخافة أن يخرجه إلى غيره، كما قالت عائشة رضي الله عنها: اجعلوا بينكم وبين الحرام سترا من الحلال، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعنا بعد الطهر ثلاثا حتى تذهب فورة الدم.

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٧٢]

والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما (٧٢)

قوله: والذين لا يشهدون الزور [٧٢] قال: الزور مجالس المبتدعين.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) صفوة الصفوة ٣/ ٦٧ وشعب الإيمان ٦/ ٢٦٤.

(٢) الحلية ١٠/ ٣٧٨- ٣٧٩ وطبقات الصوفية ١/ ٣١٢ وتلبيس إبليس ١/ ٣٤٤.

(٣) الحلية ١٠/ ١٩٥ وقوت القلوب ٢/ ٩ وتلبيس إبليس ١/ ٣٤٤.." [(١)]

"السورة التي يذكر فيها الطور

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ٤ الى ٥]

والبيت المعمور (٤) والسقف المرفوع (٥)

قوله تعالى: والبيت المعمور [٤] قال: ظاهرها ما حكى محمد بن سوار بإسناده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليلة أسري بي إلى السماء رأيت البيت المعمور في السماء الرابعة- ويروى السابعة- يحجه كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون إليه بعده أبدا» «١» الحديث بطوله ... وباطنها القلب قلوب العارفين معمورة بمعرفته ومحبته، **والأنس به**، وهو الذي تحجه الملائكة لأنه بيت التوحيد.

قوله تعالى: والسقف المرفوع [٥] هو العمل المرضي الذي لا يراد به جزاء إلا الله تعالى.

[سورة الطور (٥٢) : آية ٢٦]

قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين (٢٦)

---

(١) تفسير التستري سهل التستري ص/١١٤

قوله تعالى: إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين [٢٦] قال: أي خائفين وجلين من سوء القضاء وشماتة الأعداء.

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ٤٨ الى ٤٩]

واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم (٤٨) ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم (٤٩)

قوله تعالى: واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا [٤٨] يعني ما ظهر على صفاتك من فعل وقدرة يتولى جملتك بالرعاية والكلاية والرضى والمحبة والحراسة من الأعداء.

قوله تعالى: وسبح بحمد ربك حين تقوم [٤٨] قال: يعني صل المكتوبة بالإخلاص لربك حين تقوم إليها.

قوله تعالى: ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم [٤٩] قال: يعني لا تغفل عن ذكر من لا يغفل عن برك وحفظك في كل الأوقات صباحا ومساء.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) صحيح مسلم رقم ١٦٣.." (١)

"وهو ظلم فعقوبة هذا الظلم خراب القلب، وهو انسداد طريق رجوع ذلك القلب إلى الله لأنه لو رجع إلى الله لأعانة وكفاه، ولكنه يصر على تعليق قلبه بالمخلوق فيبقى عن الله، ولا ترتفع حاجته من غيره، وكان من فقره وحاجته فى مصرة. فإن صار إلى مضرة المذلة والحاجة إلى اللئيم فتلك محنة عظيمة.

وعلى هذا القياس إذا أحب مخلوقا فقد وضع محبته فى غير موضعها، وهذا ظلم وعقوبته خراب روحه لعدم صفاء وده ومحبته لله، وذهاب ما كان يجده من **الأنس بالله**، إذا بقي عن الله يذيقه الحق طعم المخلوقين، فلا له مع الخلق سلوة، ولا من الحق إلا الجفوة، وعدم الصفوة.

قوله جل ذكره:

[سورة يونس (١٠) : آية ١٤]

ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون (١٤)

عرفناكم بسر من قبلكم، وما أصابهم بسبب ذنوبهم، فإذا اعتبرتم بهم نجوتم، ومن لم يعتبر بما سمعه اعتبر به من تبعه.

ويقال أحللنا بهم من العقوبة ما يعتريكم، ومن لم يعتبر بمن سبقه اعتبر به من لحقه.

قوله جل ذكره:

---

(١) تفسير التستري سهل التستري ص/١٥٥

[سورة يونس (١٠) : آية ١٥]

وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم (١٥)

إذا اقترحوا عليك بأن تأتيهم بما لم نأمرك به، أو تريهم ما لم نظهر عليك من الآيات..

فأخبرهم أنك غير مستقل بك، ولا موكول إليك فنحن القائم عليك، المصرف لك، وأنت المتبع لما نجريه عليك غير مبتدع لما يحصل منك.." (١)

"وبعد هذا الموافقة وهى ألا يجد الراحة فى المنع، بل يجد بدل هذا عند نسيم القرب زوائد الأنس بنسيان كل أرب، ونسيان وجود سبب أو عدم وجود سبب فكما أن حلاوة الطاعة تتصاغر عند برد الرضا- وأصحاب الرضا يعدون ذلك حجابا- فكذلك أهل **الأنس بالله**. بنسيان كل فقد ووجد، وبالتغافل عن أحوالهم فى الوجود والعدم يعدون النزول إلى استلذاذ المنع، والاستقلال بلطائف الرضا نقصانا فى الحال.

ثم بعد هذا استيلاء سلطان الحقيقة فيؤخذ العبد عن جملته بالكلية، والعبارة عن هذه الحالة أنه يحدث الخمود والاستهلاك والوجود والاصطلام والفناء.. وأمثال هذا، وذلك هو عين التوحيد، فعند ذلك لا أنس ولا هيبة، ولا لذة ولا راحة، ولا وحشة ولا آفة.

هذا بيان ترتيبهم «١» . فأما ما دون ذلك فالخبر عن أحوال المتوكلين- على تباين شربهم- يختلف على حسب اختلاف محالهم.

فيقال شرط التوكل أن يكون كالطفل فى المهد لا شيء من قبله إلا أن يرضعه من هو فى حضانته «٢» .

ويقال التوكل زوال الاستشراف، وسقوط الطمع، وفراغ القلب من تعب الانتظار.

ويقال التوكل السكون عند مجارى الأقدار على اختلافها.

ويقال إذا وثق القلب بجريان القسمة لا يضره الكسب، ولا يقدح فى توكله «٣» .

ويقال عوام المتوكلين إذا أعطوا شكروا، وإذا منعوا صبروا. وخواصهم إذا أعطوا آثروا، وإذا منعوا شكروا.

---

(١) هذا الترتيب الذي ذكره القشيري على جانب كبير من الأهمية لأنه أولا يكشف عن التدرج في مراتب التوكل واحدة بعد الأخرى، والدقائق النفسية المرتبطة بكل منها، كما أنه يكشف عن مرحلة الانتقال من المقامات- التي هى جهود- إلى الأحوال التي هى من عين الجود. وواضح أن (الرضا) يحمل فى طياته طبيعة هذه المرحلة الانتقالية، وقد عالج القشيري هذه الظاهرة فى رسالته ص ٩٧.

(٢) القشيري متأثر بأقوال الشيوخ فى ذلك: نحو (المتوكل كالطفل لا يعرف شيئا يأوى إليه إلا ثدى أمه (الرسالة ص ٨٥ وقولهم) (الصوفية أطفال فى حجر الحق) الرسالة ص ١٣٩.

---

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري القشيري، عبد الكريم ٨٤/٢

(٣) هذه نقطة هامة جدا توضح أن التوكل الصوفي الحق لا يتعارض مع الكسب، ولا يتعارض معه الكسب.. وقد كذب من ادعى التواكل وكذب من اتهم الصوفية بالتكاسل.." (١)

"قوله جل ذكره:

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٣٧]

وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون (٣٧)

لا تستحق الزلفى عند الله بالمال والأولاد، ولكن بالأعمال الصالحة والأحوال الصافية والأنفاس الزاكية، بل بالعناية السابقة، والهداية اللاحقة، والرعاية الصادقة، فأولئك لهم جزاء الضعف: يضاعف على ما كان لمن تقدمهم من الأمم «وهم في الغرفات آمنون» من تكدر الصفوة والإخراج من الجنة.

قوله جل ذكره:

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٣٨]

والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون (٣٨)

هم الذين لا يحترمون الأولياء، ولا يراعون حق الله في السر، فهم في عذاب الاعتراض على أولياء الله، وعذاب الوقوع بشؤم ذلك في ارتكاب محارم الله، ثم في عذاب السقوط من عين الله.

قوله جل ذكره:

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٣٩]

قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين (٣٩)

من الخلف في الدنيا الرضا بالعدم والفقد، وهو أتم من السرور بالموجود «١» ومن ذلك **الأنس بالله** في الخلوة ولا يكون ذلك إلا مع التجريد.

قوله جل ذكره:

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٤٠]

ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون (٤٠)

قوم كانوا يعبدون الملائكة فيختبرهم عنهم فيتبرأون منهم وينزهون الله ويسبحونه،

---

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري القشيري، عبد الكريم ٦٤٥/٢

(١) استعمل القشيري هنا كلمة (الموجود) بالميم وكان المفروض حسب السياق أن يستعمل (الوجود) ، وبهذا يتأيد رأينا في هامش سابق أن من الخير قصر اصطلاح (الوجود) على الوجود الحق.." [1]

"أي بعثه في الأميين، وفي آخرين منهم وهم العجم، ومن يأتى.. إلى يوم القيامة فهو صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى الناس كافة.

قوله جل ذكره:

[سورة الجمعة (٦٢) : آية ٤]

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٤)

يقصد به هنا النبوة، ويؤتيها «من يشاء» وفي ذلك رد على من قال: إنها تستحق لكثرة طاعة الرسول- ورد على من قال: إنها لتخصيصهم بطينتهم فالفضل ما لا يكون مستحقا، والاستحقاق فرض «١» لا فضل.

ويقال: «فضل الله» هنا هو التوفيق حتى يؤمنوا به.

ويقال: هو **الأنس بالله**، والعبد ينسى كل شيء إذا وجد الأنس.

ويقال: قطع الأسباب، - بالجملة- فى استحقاق الفضل، إذ أحاله على المشيئة.

قوله جل ذكره:

[سورة الجمعة (٦٢) : آية ٥]

مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين (٥)

«ثم لم يحملوها» : ثم لم يعملوا بها.

ويلحق بهؤلاء «٢» فى الوعيد- من حيث الإشارة- الموسومون «٣» بالتقليد في أي

---

(١) هكذا في ص وهي في م (فرد) وهي خطأ في النسخ إذ المقصود أنه منحه الاستحقاق فضلا منه لا (فرضا) عليه فلا وجوب على الله- كما نعرف من مذهب القشيري.

(٢) أي باليهود الذين لا فائدة لهم فيما يحملون من الكتب، فهى تبشر بمحمد، وهم يجحدون به.

(٣) هكذا في ص وهي في م (المؤمنون) .." [2]

---

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري القشيري، عبد الكريم ١٨٥/٣

(٢) لطائف الإشارات = تفسير القشيري القشيري، عبد الكريم ٥٨٣/٣

"والرضوان: مصدر، وقرأه عاصم- فيما روي عنه- بضم الراء- وقرأ جميعهم بكسرها، وحكى أبو عمرو الداني عن الأعمش، أنه قرأها- بكسر الراء وضم الضاد، وهذا كله بمعنى واحد مصدر من الرضى، والمعنى، اتبعوا الطاعة الكفيلة برضوان الله، ففي الكلام حذف مضاف، وباء بسخط- معناه: مضى متحملا له، والسخط: صفة فعل، وقد تتردد متى لحظ فيها معنى الإرادة، وقال الضحاك: إن هذه الآية مشيرة إلى أن من لم يغل واتقى فله الرضوان، وإلى أن من غل وعصى فله السخط، وقال غيره: هي مشيرة إلى أن من استشهد- بأحد- فله الرضوان، وإلى المنافقين الراجعين عن النبي صلى الله عليه وسلم فلهم السخط، وباقي الآية بين.

واختلف المفسرون في قوله تعالى: هم درجات من المراد بذلك؟ فقال ابن إسحاق وغيره:

المراد بذلك الجمعان المذكوران، أهل الرضوان وأصحاب السخط، أي لكل صنف منهم تباين في نفسه في منازل الجنة، وفي أطباق النار أيضا، وقال مجاهد والسدي ما ظاهره: إن المراد بقوله هم إنما هو لمتبعي الرضوان، أي لهم درجات كريمة عند ربهم، وفي الكلام حذف مضاف تقديره «هم درجات» والدرجات المنازل بعضها أعلى من بعض في المسافة أو في التكرمة، أو العذاب، وقرأ إبراهيم النخعي «هم درجة» بالإفراد، وباقي الآية وعيد ووعد.

قوله تعالى:

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٦٤ الى ١٦٥]

لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين (١٦٤) أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير (١٦٥)

اللام في لقد لام القسم، ومن في هذه الآية معناه: تطول وتفضل، وقد يقال: من بمعنى:

كدر معروفه بالذكر فهي لفظة مشتركة.

وقوله تعالى: من أنفسهم معناه في الجنس واللسان والمجاورة فكونه من الجنس يوجب **الأنس به** وقلة الاستيحاش منه، وكونه بلسانهم يوجب حسن التفهيم وقرب الفهم، وكونه جارا وربيا يوجب التصديق والطمأنينة، إذ قد خبروه وعرفوا صدقه وأمانته فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسب قومه، وكذلك الرسل، قال النقاش: ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل أمهاتهم إلا بني تغلب لنصرانيتهم، والآيات في هذه الآية، يحتمل أن يراد بها القرآن ويحتمل أن يراد بها العلامات، والأول أظهر، ويزكيهم معناه: يطهرهم من دنس الكفر والمعاصي، قال بعض المفسرين: معناه يأخذ منهم الزكاة، وهذا ضعيف، والكتاب: القرآن، والحكمة، السنة المتعلمة من لسانه عليه السلام، ثم ذكر حالتهم الأولى من الضلال ليظهر الفرق بتجاور الضدين- وقيل: لفظة مبنية لما تضمنت الإضافة، فأشبهت الحروف في تضمن المعاني فبنيت.." (١)

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٥٣٧/١

"[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٢٨ الى ٢٩]

الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب (٢٨) الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب (٢٩)

قوله تعالى: الذين آمنوا هذا بدل من قوله: أناب، والمعنى: يهدي الذين آمنوا، وتطمئن قلوبهم بذكر الله في هذا الذكر قولان: أحدهما: أنه القرآن. والثاني: ذكر الله على الإطلاق. وفي معنى هذه الطمأنينة قولان: أحدهما: أنها الحب له **والأنس به**. والثاني: السكون إليه من غير شك، بخلاف الذين إذا ذكر الله اشمأزت قلوبهم.

قوله تعالى: ألا بذكر الله قال الزجاج: «ألا» حرف تنبيه وابتداء، والمعنى: تطمئن القلوب التي هي قلوب المؤمنين، لأن الكافر غير مطمئن القلب.

قوله تعالى: طوبى لهم فيه ثمانية أقوال: أحدها: أنه اسم شجرة في الجنة.

(٨٢٨) روى أبو سعيد الخدري «عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال: يا رسول الله، ما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» .

وقال أبو هريرة: طوبى: شجرة في الجنة، يقول الله عز وجل لها: تفتقي لعبدي عما شاء، فتتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها، وعن الإبل بأزمتها، وعما شاء من الكسوة. وقال شهر بن حوشب: طوبى: شجرة في الجنة، كل شجر الجنة منها أغصانها، من وراء سور الجنة، وهذا مذهب عطية، وشمر بن عطية، ومغيث بن سمي، وأبي صالح. والثاني: أنه اسم الجنة بالحبشية، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال المصنف: وقرأت على شيخنا أبي منصور عن سعيد بن مسجوح قال: طوبى: اسم الجنة بالهندية، وممن ذهب إلى أنه اسم الجنة عكرمة، وعن مجاهد كالقولين.

والثالث: أن معنى طوبى لهم: فرح وقرة عين لهم، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والرابع: أن معناه: نعمى لهم، قاله عكرمة في رواية، وفي رواية أخرى عنه: نعم ما لهم. والخامس: غبطة لهم، قاله سعيد بن جبير، والضحاك. والسادس: أن معناه: خير لهم، قاله النخعي في رواية، وفي أخرى عنه قال: الخير والكرامة اللذان أعطاهم الله، وروى معمر عن قتادة قال: يقول الرجل للرجل: طوبى لك، أي: أصبت خيرا، وهي كلمة عربية. والسابع: حسنى لهم، رواه سعيد عن قتادة عن الحسن. والثامن: أن المعنى: العيش الطيب لهم. و «طوبى» عند النحويين: فعلى من الطيب، هذا قول الزجاج. وقال ابن الأنباري: تأويلها: الحال المستطابة، والخلة المستلذة، وأصلها: «طيبى» فصارت الياء واوا لسكونها وانضمام ما قبلها كما صارت في «موقن» والأصل فيه «ميقن» لأنه مأخوذ من اليقين، فغلبت الضمة فيه الياء فجعلتها واوا.

صدره حسن، وعجزه ضعيف، أخرجه أحمد ٣/ ٧١ وأبو يعلى ١٣٧٤ وابن حبان ٧٤١٣ والخطيب ٤/ ٩١ والطبري ٢٠٣٩٤. من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعا. وهذا إسناد ضعيف، لضعف دراج في روايته عن أبي الهيثم، ولصدره شواهد، والوهن فقط في عجزه «ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» . وله شاهد من حديث عتبة بن عبد

السلمي، أخرجه الطبري ٢٠٣٩٢ وابن حبان ٧٤١٤ وأحمد ٤/ ١٨٣ وإسناده ضعيف لجهالة عامر بن زيد، لكن يشهد لما قبله. وله شاهد من حديث قرة بن إياس، أخرجه الطبري ٢٠٣٩٣ وإسناده ضعيف لضعف فرات بن أبي الفرات. وله شواهد أخرى واهية.." (١)

"والجاه، فقوله: آتنا في الدنيا يتناول كل هذه الأقسام فإن العلم إذا كان يراد للتزين به في الدنيا والترفع به على الأقران كان من الدنيا، والأخلاق الفاضلة إذا كانت تراد للرياسة في الدنيا وضبط مصالحها كانت من الدنيا، وكل من لا يؤمن بالبعث والمعاد فإنه لا يطلب فضيلة لا روحانية ولا جسمانية إلا لأجل الدنيا، ثم قال تعالى في حق هذا الفريق وما له في الآخرة من خلاق أي ليس له نصيب في نعيم الآخرة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب [الشورى: ٢٠] ثم إنه تعالى لم يذكر في هذه الآية أن الذي طلبه في الدنيا هل أجيب له أم لا؟ قال بعضهم: إن مثل هذا الإنسان ليس بأهل للإجابة لأن كون الإنسان مجاب الدعوة صفة مدح فلا تثبت إلا لمن كان وليا لله تعالى مستحقا للكرامة لكنه وإن لم يجب فإنه ما دام مكلفا حيا فالله تعالى يعطيه رزقه على ما قال:

وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها [هود: ٦] وقال آخرون إن مثل هذا الإنسان قد يكون مجابا، لكن تلك الإجابة قد تكون مكرا واستدراجا.

أما قوله تعالى: ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار فالمفسرون ذكروا فيه وجوها أحدها: أن الحسنة في الدنيا عبارة عن الصحة، والأمن، والكفاية والولد الصالح، والزوجة الصالحة، والنصرة على الأعداء، وقد سمى الله تعالى الخصب والسعة في الرزق، وما أشبهه «حسنة» فقال: إن تصبك حسنة تسؤهم [التوبة: ٥٠] وقيل في قوله: قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين [التوبة: ٥٢] أنهما الظفر والنصرة والشهادة، وأما الحسنة في الآخرة فهي الفوز بالثوب، والخلاص من العقاب، وبالجملة فقوله: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة كلمة جامعة لجميع مطالب الدنيا والآخرة، روى حماد بن سلمة عن ثابت أنهم قالوا لأنس: ادع لنا، فقال: «اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» قالوا: زدنا فأعادها قالوا زدنا قال ما تريدون؟ قد سألت لكم خير الدنيا والآخرة ولقد صدق أنس فإنه ليس للعبد دار سوى الدنيا والآخرة فإذا سأل حسنة الدنيا وحسنة الآخرة لم يبق شيء سواه وثانيها: أن المراد بالحسنة في الدنيا العمل النافع وهو الإيمان والطاعة والحسنة في الآخرة اللذة الدائمة والتعظيم والتنعم بذكر الله/ **وبالأنس به** وبمحبته وبرؤيته

وروى الضحاك عن ابن عباس أن رجلا دعا ربه فقال في دعائه: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «ما أعلم أن هذا الرجل سأل الله شيئا من أمر الدنيا، فقال بعض الصحابة: بلى يا رسول الله إنه قال: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه يقول: آتنا في الدنيا عملا صالحا وهذا متأكد بقوله تعالى: والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين [الفرقان: ٧٤] وتلك القرة هي أن

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٢/٤٩٤

يشاهدوا أولادهم وأزواجهم مطيعين مؤمنين مواظبين على العبودية وثالثها: قال قتادة: الحسنة في الدنيا وفي الآخرة طلب العافية في الدارين، وعن الحسن: الحسنة في الدنيا فهم كتاب الله تعالى، وفي الآخرة الجنة، واعلم أن منشأ البحث في الآية أنه لو قيل، آتنا في الدنيا الحسنة وفي الآخرة الحسنة لكان ذلك متناولا لكل الحسنات، ولكنه قال: آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وهذا نكرة في محل الإثبات فلا يتناول إلا حسنة واحدة، فلذلك اختلف المتقدمون من المفسرين فكل واحد منهم حمل اللفظ على ما رآه أحسن أنواع الحسنة.." (١)

"قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم (٣١)

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ محبة العبد لله إيثار طاعته على غير ذلك ومحبة الله العبد أن يرضى عنه ويحمد فعله وعن الحسن زعم أقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يحبون الله فأراد أن يجعل لقولهم تصديقا من عمل فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب وكتاب الله يكذبه وقيل محبة الله معرفته ودوام خشيته ودوام اشتغال القلب به وبذكره ودوام **الأنس به** وقيل هي اتباع النبي عليه السلام في أقواله وأفعاله وأحواله إلا ما خص به وقيل علامة المحبة أن يكون دائم التفكير كثير الخلوة دائم الصمت لا يبصر إذا نظر ولا يسمع إذا نودي ولا يحزن إذا أصيب ولا يفرح إذا أصاب ولا يخشى أحدا ولا يرجوه ﴿ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾." (٢)

"ثم إن فوق التوكل التفويض وهو الاستسلام لأمر الله تعالى بالكلية، فإن المتوكل له مراد واختيار، وهو يطلب مراده باعتماده على ربه، وأما المفوض فليس له مراد ولا اختيار، بل أسند المراد والاختيار إلى الله تعالى، فهو أكمل أدبا مع الله تعالى

وما كان لنبي أن يغل هو من الغلول وهو أخذ الشيء خفية من المغانم وغيرها، وقرئ «١» بفتح الياء وضم الغين، ومعناه تبرئة النبي صلى الله عليه وسلم من الغلول، وسببها أنه فقدت من المغانم قطيفة حمراء، فقال بعض المنافقين: لعل رسول الله صلى الله عليه واله وسلم أخذها، وقرأ نافع وغيره بضم الياء وفتح الغين، أي ليس لأحد أن يغل نبيا: أي يخونه في المغانم، وخص النبي بالذكر وإن كان ذلك محظورا من الأمر، لشنعة الحال مع النبي لأن المعاصي تعظم بحضرته، وقيل معنى هذه القراءة: أن يوجد غالا كما تقول أحمدت الرجل، إذا أصبته محمودا، فعلى هذا القول يرجع معنى هذه القراءة، إلى معنى فتح الياء ومن يغلل يأت بما غل وعيد لمن غل بأن يسوق يوم القيامة على رقبته الشيء الذي غل، وقد جاء ذلك مفسرا في الحديث قال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم: لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير لا ألفين أحدكم على رقبته فرس لا ألفين أحدكم على رقبته رقاع لا ألفين أحدكم على رقبته صامت، لا ألفين أحدكم على رقبته إنسان فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك «٢» أفمن اتبع الآية: فقيل: إن الذي أتبع رضوان الله.

من لم يغلل، والذي باء بالسخط من غل، وقيل الذي أتبع الرضوان: من استشهد بأحد، والذي باء بالسخط: المنافقون الذين رجعوا عن الغزو هم درجات ذووا درجات، والمعنى تفاوت بين منازل أهل الرضوان وأهل السخط، أو التفاوت بين

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥/٣٣٧

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ١/٢٤٩

درجات أهل الرضوان فإن بعضهم فوق بعض، فكذلك درجات أهل السخط لقد من الله الآية إخبار بفضل الله على المؤمنين ببعث رسول الله صلى الله عليه واله وسلم من أنفسهم معناه في الجنس واللسان، فكونه من جنسهم يوجب **الأنس به**، وقلة الاستيحاش منه، وكونه بلسانهم يوجب حسن الفهم عنه، ولكونه منهم يعرفون حسبه وصدقه وأمانته صلى الله تعالى عليه واله وسلم ويكون، هو صلى الله تعالى عليه واله وسلم أشفق عليهم وأرحم بهم من الأجنبيين «٣» أولما أصابتكم مصيبة الآية. عتاب للمسلمين على كلامهم فيمن

(١) . هي قراءة عاصم وابن كثير وأبي عمرو.

(٢) . الحديث أخرجه أحمد بتفصيل عن أبي هريرة ج ٢ ص ٥٦٢.

(٣) . الأشهر جمع أجنبي على أجانب والمراد: أغراب.." (١)

"وسابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه. وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعا صوته، فإنه لا يطول له ذلك بخلاف من يخفض صوته. وثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات. فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد فلا يحصل له هناك تشويش ولا غيره، وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والباطولية الخبيثة من الجن والإنس، فشوشت عليه ولا بد، ومانعته وعارضته ولو لم يكن من ذلك إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفى. ومن له تجربة يعرف هذا. فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة.

وتاسعها: أن أعظم النعم هو الإقبال على الله، والتعبد له، والانقطاع إليه والتبتل إليه. ولكل نعمة حاسد على قدرها، دقت أو جلت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة. فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد وأن لا يقصد إظهارها له. وقد قال يعقوب ليوسف: لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلب كفيه. ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله وأن لا يطلعوا عليه أحدا ويتكتمون به غاية التكتم كما أنشد بعضهم في ذلك:

من سارروه فأبدى السر مجتهدا ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا

وأبعدوه فلم يظفر بقربهم ... وأبدلوه مكان الإنس إيحاشا

لا يأمنون مذيعا بعض سرهم ... حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

والقوم أعظم شيء كتمانا لأحوالهم مع الله وما وهب الله لهم من محبته **والأنس به** وجمعية القلب عليه، ولا سيما للمبتدي والسالك. فإذا تمكن." (٢)

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ١/١٧٠

(٢) التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم ابن القيم ص/٢٥٧

"للعلمية والعجمة، وهذا هو الصحيح، وقيل: إنه مشتق من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله تعالى والبعد عنها، قال:

٣٦١ - وفي الوجوه صفرة وإبلاس ... .

وقال آخر:

٣٦٢ - يا صاح هل تعرف رسما مكرسا ... قال نعم أعرفه وأبلسا

أي: بعد عن العمارة **والأنس به**، ووزنه عند هؤلاء: إفعيل، واعترض عليهم بأنه كان ينبغي أن يكون منصرفا، وأجابوا بأنه أشبه الأسماء الأعجمية لعدم نظيره في الأسماء العربية، ورد عليهم بأن مثله في العربية كثير، نحو: إزميل وإكليل وإغريض وإخريط وإحليل. وقيل: لما لم يتسم به أحد من العرب صار كأنه دخيل في لسانهم فأشبه الأعجمية وفيه بعد.

قوله: ﴿أبى واستكبر﴾ الظاهر أن هاتين الجملتين استئنافيتان جوابا لمن قال: فما فعل؟ والوقف على قوله: ﴿إلا إبليس﴾ تام. وقال أبو البقاء: «في موضع نصب على الحال من إبليس تقديره: ترك السجود كارها." (١)

"والثالثة: **الأنس به** والاستقلال لكل قاطع يقطع عنه، أو شاغل يشغله عنه.

والرابعة: الشوق إلى لقائه والنظر إلى وجهه.

الخامسة. الرضا عنه في كل شديده وضر ينزل به.

والسادسة: اتباع رسوله - صلى الله عليه وسلم -.

ومحبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - على درجتين:

إحداهما فرض: وهي المحبة التي تقتضي قبول ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عند الله وتلقيه بالمحبة والرضا والتعظيم والتسليم وعدم طلب الهدى من غير طريقه بالكلية ، ثم حسن الاتباع له فيما بلغه عن ربه من تصديقه في كل ما أخبر به، وطاعته فيما أمر به من الواجبات، والانتهاء عما نهى عنه من المحرمات، ونصرة دينه والجهاد لمن خالفه بحسب القدرة، فهذا القدر لا بد منه ولا يتم الإيمان بدونه.

والدرجة الثانية فضل: وهي المحبة التي تقتضي حسن التأسي به وتحقيق

الاقتداء بسنته في أخلاقه وآدابه ونوافله وتطوعاته وأكله وشربه ولباسه وحسن معاشرته لأزواجه وغير ذلك من آدابه الكاملة وأخلاقه الطاهرة، والاعتناء بمعرفة سيرته وأيامه، واهتزاز القلب عند ذكره، وكثرة الصلاة عليه لما سكن في القلب من محبته وتعظيمه وتوقيره، ومحبة استماع كلامه، وإيثاره على كلام غيره من المخلوقين.

ومن أعظم ذلك الاقتداء به في زهده في الدنيا والاجتزاء باليسير منها

ورغبته في الآخرة.

قال سهل التستري: من علامات حب الله حب القرآن، وعلامة حب الله." (٢)

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٢٧٦/١

(٢) تفسير ابن رجب الحنبلي ابن رجب الحنبلي ٤٣٨/١

"سورة الأنفال

قوله تعالى: (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون (٢٤)

وسمع عمر رجلا يقول: اللهم إنك تحول بين المرء وقلبه، فحل بيني وبين

معاصيك. فأعجب عمر ودعا له بخير.

وروى ابن عباس – رضي الله عنهما –، في قوله تعالى: (يحول بين المرء وقلبه) ، قال: يحول بين المؤمن وبين المعصية التي تجره إلى النار.

* * *

قوله تعالى: (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (٣٥)

استماع الغناء بآلات اللهو أو بدونها على وجه التقرب إلى الله تعالى.

وتحريك القلوب إلى محبته، **والأنس به** والشوق إلى لقائه، وهذا هو الذي

يدعيه كثير من أهل السلوك، ومن يتشبه بهم، ممن ليس منهم، وإنما يتستر

بهم، ويتوصل بذلك إلى بلوغ غرض نفسه، من نيل لذته.

فهذا المتشبه بهم مخادع ملبس. وفساد حاله أظهر من أن يخفى على أحد. وأما الصادقون في دعواهم ذلك وقليل ما هم، فإنه ملبوس عليهم؛ حيث تقربوا إلى الله عز وجل، بما لم يشرعه الله تعالى،." (١)

"ومحبة الرسول على درجتين – أيضا:

إحداهما: فرض، وهي ما اقتضى طاعته في امتثال ما أمر به من الواجبات.

والانتهاء عما نهى عنه من المحرمات، وتصديقه فيما أخبر به من المخبرات.

والرضا بذلك، وأن لا يجد في نفسه حرجا مما جاء به، ويسلم له تسليما.

وأن لا يتلقى الهدى من غير مشكاته، ولا يطلب شيئا من الخير إلا ما جاء

الدرجة الثانية: فضل مندوب إليه، وهي ما ارتقى بعد ذلك إلى اتباع سنته

وآدابه وأخلاقه، والاقتداء به في هديه وسمته، وحسن معاشرته لأهله

وإخوانه، وفي التخلق بأخلاقه الظاهرة في الزهد في الدنيا، والرغبة في

الآخرة، وفي جوده وإيثاره وصفحه وحلمه واحتماله وتواضعه.

وفي أخلاقه الباطنة، من كمال خشيته لله، ومحبته له، وشوقه إلى لقائه.

ورضاه بقضائه، وتعلق قلبه به دائما، وصدق الالتجاء إليه، والتوكل

والاعتماد عليه، وقطع تعلق القلب بالأسباب كلها، ودوام لهج القلب

واللسان بذكره، **والأنس به**، والتنعم بالخلوة بمناجاته ودعائه، وتلاوة كتابه

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي ابن رجب الحنبلي ٤٨٧/١

بالتدبر والتفكر.

وفي الجملة، فكان خلقه – صلى الله عليه وسلم – القرآن، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه، فأكمل الخلق من حقق متابعته وتصديقه قولا وعملا وحالا، وهم الصديقون من أمته، الذين رأسهم أبو بكر خليفته من بعده.

* * *." (١)

"عندهم شيئا من الرزق وإنما ذلك رزقي لهم أجريته لهم على أيديهم. وثانيهما أن المراد الرد على من أثبت لله شريكا كالصنم أو كعيسى، فضرب له مثلا فقال: أنتم لا تسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم ولا تردون رزقكم عليهم حتى تتساووا في المطعم والملبس. فالفاء في قوله: فهم فيه سواء للتعليل. ولك أن تقول بمعنى «حتى» أي حتى يكون عبيدهم معهم سواء في الرزق، فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء؟!

عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في العبيد: «إنما هم إخوانكم فاكسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تطعمون» «١» .

فما رؤي عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من غير تفاوت أفبنعمة الله وهي أنه جعلهم موالي مفضلين لا عبيدا مفضولين يجحدون أو جعل عدم التسوية بينهم وبين عبيدهم من جملة جحود النعمة، أو جعل اعتقاد أهلية العبادة لغير الله كفرا بنعمة الله والجحود في معنى الكفران فلذلك عداه بالباء. قال أبو عبيدة وأبو حاتم: قراءة الغيبة– وهي الكثرى– أولى لقرب المخبر عنه، ولأنه لو كان خطابا كان ظاهره للمسلمين وإنهم لا يخاطبون بجحد نعمة البتة. الحالة الأخرى من أحوال الإنسان قوله عم طوله: والله جعل لكم من أنفسكم أي من جنسكم أزواجا ليكون **الأنس به** أتم. ولا ريب أن تخليق الذكور والإناث مستند إلى قدرة الله وتكوينه. والطبيعيون قد يذكرون له وجها قالوا: إن المني إذا انصب من الخصية اليمنى إلى الذكر ثم انصب منه إلى الجانب الأيمن من الرحم كان الولد ذكرا تاما في الذكورة بناء على أن الذكر أسخن مزاجا وكذا الجانب الأيمن، وإن انصب من الخصية اليسرى إلى الجانب الأيسر من الرحم كان الولد تاما في الأنوثية، وإذا انصب من اليمنى إلى الأيسر كان ذكرا في طبيعة الإناث، وإن كان بالعكس كان بالعكس. قال الإمام فخر الدين الرازي: هذه العلة ضعيفة فقد رأينا في النساء من كان مزاجه في غاية السخونة وفي الرجال من كان في غاية البرودة. ولقائل أن يقول: الكلام في المزاج الصنفي لا في المزاج الشخصي، وهذا الإمام لم يفرق بينهما فاعترض بأحدهما على الآخر. وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة أصل الحفد الإسراع في الخدمة. والفاعل حافد والجمع حفدة. فقيل: أراد بها في الآية الأختان على البنات. وقيل: أولاد الأولاد. وقيل: أولاد المرأة من الزوج الأول. وقيل: الخدم والأعوان. وقيل: البنون أنفسهم الجامعون بين

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب: ٢٢. مسلم في كتاب الأيمان حديث: ٣٨. أبو داود في كتاب الأدب باب:

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي ابن رجب الحنبلي ٤٩٨/١

١٢٤. الترمذي في كتاب البر باب: ٢٩. ابن ماجه في كتاب الأدب باب:
٩. أحمد في مسنده (٥/ ٥٨) .." (١)

"[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٦٤ الى ١٦٥]

لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين (١٦٤) أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير (١٦٥)

وقوله تعالى: لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ...

الآية: اللام في «لقد» : لام القسم، و «من» في هذه الآية: معناه: تطول وتفضل سبحانه، وقد يقال: «من» بمعنى كدر معروفه بالذكر، فهي لفظة مشتركة، وقوله: من أنفسهم، أي: في الجنس، واللسان، والمجاورة، فكونه من الجنس يوجب **الأنس به**، وكونه بلسانهم يوجب حسن التفهيم، وكونه جارا وربيا يوجب التصديق والطمأنينة إذ قد خبروه وعرفوا صدقه وأمانته، ثم وقف الله سبحانه المؤمنين على الخطإ في قلقهم للمصيبة التي نزلت بهم، وإعراضهم عما نزل بالكفار، فقال: أولما أصابتكم مصيبة

، أي: يوم أحد قد أصبتم مثليها، أي: يوم بدر إذ قتل من الكفار سبعون، وأسر سبعون، هذا تفسير ابن عباس «١» ، والجمهور.

وقال الزجاج «٢» : واحد المثلين: هو قتل السبعين يوم بدر، والثاني: هو قتل اثنين وعشرين يوم أحد، ولا مدخل للأسرى لأنهم قد فدوا.

وأنى: معناها: كيف، ومن أين، قل هو من عند أنفسكم، أي: حين خالفتم النبي صلى الله عليه وسلم في الرأي حين رأى أن يقيم بالمدينة، ويترك الكفار بشر محبس، فأبيتم إلا الخروج، وهذا هو تأويل الجمهور، وقالت طائفة: هو من عند أنفسكم: إشارة إلى عصيان الرماة، وتسبيبهم الهزيمة على المؤمنين، وقال علي والحسن: بل ذلك لما قبلوا الفداء يوم بدر «٣» وذلك أن الله سبحانه أخبرهم على لسان نبيه بين قتل الأسرى أو يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدة الأسرى، فاختاروا أخذ الفداء، ورضوا بالشهادة، فقتل منهم يوم أحد سبعون، قلت: وهذا الحديث رواه الترمذي عن علي (رضي الله عنه) ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أحمد بن نصر الداوودي: وعن الضحاك: أنى هذا، أي: بأي ذنب هذا؟

---

(١) أخرجه الطبري (٣/ ٥٠٨) برقم (٨١٨٥) ، وذكره ابن عطية (١/ ٥٣٨) ، والسيوطي (٢/ ١٦٦) ، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» (١/ ٤٨٨) .

---

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٢٨٧/٤

(٣) أخرجه الطبري (٣/ ٥٠٩) برقم (٨١٩٠) عن علي، وذكره ابن عطية (١/ ٥٣٨) ، والسيوطي (٢/ ١٦٦) ، وعزاه لابن أبي حاتم عن الحسن، ولابن أبي شيبة، والترمذي وحسنه، وابن مردويه عن علي.." [(١)]

"[سورة القيامة (٧٥) : الآيات ٢٠ الى ٢٥]

كلا بل تحبون العاجلة (٢٠) وتذرون الآخرة (٢١) وجوه يومئذ ناضرة (٢٢) إلى ربها ناظرة (٢٣) ووجوه يومئذ باسرة (٢٤)

تظن أن يفعل بها فاقرة (٢٥)

وقوله تعالى: كلا بل تحبون العاجلة أي: الدنيا وشهواتها قال الغزالي في «الإحياء» : اعلم أن رأس الخطايا المهلكة هو حب الدنيا، ورأس أسباب النجاة هو التجافي بالقلب عن دار الغرور، وقال رحمه الله: اعلم أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله سبحانه في الآخرة إلا بتحصيل محبته **والأنس به** في الدنيا، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقلاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقلع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها، ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات، ولا تنقمع الشهوات بشيء كما تنقمع بنار الخوف المحرقة للشهوات، انتهى.

وقرأ ابن كثير «١» وغيره: «يحبون» و «يذرون» بالياء على ذكر الغائب، ولما ذكر سبحانه الآخرة، أخبر بشيء من حال أهلها فقال: وجوه يومئذ ناضرة أي: ناعمة، والنضرة: النعمة وجمال البشرة قال الحسن: وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى خالقها «٢» .

وقوله تعالى: إلى ربها ناظرة حمل جميع أهل السنة هذه الآية على أنها متضمنة رؤية المؤمنين لله عز وجل بلا تكييف ولا تحديد/ كما هو معلوم موجود، لا يشبه الموجودات، كذلك هو سبحانه مرئي لا يشبه المرئيات في شيء فإنه ليس كمثله شيء لا إله إلا هو، وقد تقدم استيعاب الكلام على هذه المسألة، وما في ذلك من صحيح الأحاديث، والباسرة: العابسة المغمومة النفوس، والبسور: أشد العبوس، وإنما ذكر تعالى الوجوه لأنه فيها يظهر ما في النفس من سرور أو غم، والمراد أصحاب الوجوه، والفاقرة: المصيبة التي تكسر فقار الظهر وقال أبو عبيدة: هي من فقرت [البعير] إذا وسمت أنفه بالنار «٣» .

---

(١) وقرأ بها أبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب.

ينظر: «إعراب القراءات» (٢/ ٤١٦) ، و «معاني القراءات» (٣/ ١٠٦) ، و «شرح الطيبة» (٦/ ٨١) ، و «العنوان» (٢٠٠) ، و «حجة القراءات» (٧٣٦) ، و «شرح شعلة» (٦١٤) ، و «إتحاف» (٢/ ٥٧٤) .

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ٣٤٣) رقم (٣٥٦٥٤) ، وذكره البغوي (٤/ ٤٢٤) ، وابن عطية (٥/ ٤٠٥) ، وابن كثير (٤/

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٢/١٣٦

. (٤٥٠

(٣) ذكره ابن عطية (٥/ ٤٠٥) .." (١)

"والحال أنه ﴿كافر﴾ .

ولما أفرد الضمير على اللفظ نصا على كل فرد فرد جمع لأن إخزاء الجمع إخزاء لكل فرد منهم ولا عكس، وقرنه بفاء السبب إعلاما بأن سوء أعمالهم هو السبب في وبالهم فقال: ﴿فأولئك﴾ البعداء البغضاء ﴿حبطت أعمالهم﴾ أي بطلت معانيها وبقيت صورها؛ من حبط الجرح إذا برأ ونفي أثره. وقال الحرالي: من الحبط وهو فساد في الشيء الصالح يأتي عليه من وجه يظن به صلاحه وهو في الأعمال بمنزلة البطح في الشيء القائم الذي يقعده عن قيامه كذلك الحبط في الشيء الصالح يفسده عن وهم صلاحه ﴿في الدنيا﴾ بزوال ما فيها من روح **الأنس بالله** سبحانه وتعالى ولطيف الوصلة به وسقوط إضافتها إليهم إلا مقرونة ببيان حبوطها فقط بطل ما كان لها من الإقبال من الحق." (٢)

"المستقبل، ثم علله بقوله: ﴿إني أخاف الله﴾ أي أستحضر جميع ما أقدر على استحضاره من كماله، ثم وصفه بالإحسان إلى خلقه ليكون ذلك مانعا له من الإساءة إلى أحد منهم فقال: ﴿رب العالمين *﴾ أي الذي أنعم عليهم بنعمة الإيجاد ثم التربية، فأنا لا أريد أن أخرب ما بنى، وهذا كما فعل عثمان رضي الله عنه.

ولما كان من النهايات للواصلين إلى حضرات القدس ومواطن **الأنس بالله**، المتمكنين في درجة الغناء عن غير الفاعل المختار أن لا يراد إلا ما يريد سبحانه، فإن كان طاعة أراده العبد ورضيه، وإن كان معصية أراده من حيث إنه مراد الله ولم يرضه لكونه معصية، فيرضى بالقضاء دون المقضي، وكأنه من الممكن القريب أن يكون هابيل قد كشف له عن أنه سبق في علم الله أن أخاه يقتله، قال مرهبا له معللا بتعليل آخر صاد له أيضا عن الإقدام على القتل: ﴿إني أريد﴾ أي بعدم الممانعة لك ﴿أن تبوأ﴾ أي ترجع من قتلي إن قتلتني ﴿بإثمي﴾ أي الإثم الذي ينالك من أجل قتلك لي، وبعقوبته الذي من جملته أنه يطرح عليك من سيئاتي بمقدار ما عليك من حقي إذا لم تجد ما ترضيني به من الحسنات ﴿وإثمك﴾ أي الذي لا سبب لي فيه، وهو الذي كان سببا لرد قربانك واجترائك علي وعدوانك، وأفوز أنا بأجري وأجرك، أي." (٣)

"أي لا غيره بدليل أن المنفق قد يجتهد كل الاجتهاد في الإخلاف فلا ينفق، فدل ذلك على أنه المختص بالإخلاف، ولأن هذا هو المعنى لا أنه ضمن الإخلاف لكل من ينفق على أي وجه كان، قال مجاهد كما نقله الرازي في اللوامع: «إذا كان في يد أحدكم شيء فليقتصد ولا يتأول الآية، فإن الرزق مقسوم، وما عال من اقتصد» كما رواه الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا، والمعنى أنه قد دل الإخلاف على جميع الأشكال والأضداد على أن الأمر فيه على غير ما ظننتم من الإسعاف به في وقت موجب للإكرام على الدوام، وأن ذلك إنما هو لضمانه الرزق لكل أحد بحسب ما قسمه له من سبق به عمله وقدرته حكمته، وتارة يكون إخلافه حسا وبالفعل، وتارة يكون معنى وبالقوة، بالترضية بتلك الحالة

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٥٢٣/٥

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ٢٣٤/٣

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ١٢٠/٦

التي أدت إلى العدم، قال القشيري: وهو أتم من السرور بالموجود، ومن ذلك **الأنس بالله** في الخلوة، ولا يكون ذلك إلا مع التجريد – انتهى. والمنفق بالاقتصاد داخل أن شاء الله تعالى تحت قول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان: البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال الله تعالى: «أنفق أنفق عليك» وما روى الشيخان وابن حبان في صحيحه أيضا «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول." (١)

"بالعمى عن الآيات الظاهرات، وثانيا عن الإخبار بأسرارهم، وخفي مكرهم وأخبارهم، وفي عدم صرفهم عما هم عليه من قبح السرائر وسوء الضمائر بتعكيس مقاصدهم، وتخييب مصادرهم في مكرهم ومواردهم، دل على ذلك بقوله: ﴿أنى﴾ أي كيف ومن أي وجه ﴿يؤفكون *﴾ أي يصرفهم عن إدراك قبح ما هم عليه صارف ما كائنا ما كان ليرجعوا عنه إلى حسن الدين **والأنس به** وإدراك بركته وعظيم أثره.

ولما كان هذا أمرا عظيما قاطعا عن الله ورسوله فيحتاج فاعله حاجة شديدة إلى التطهير وهو جدير بعظمه أن لا يطهره غاية الطهر إلا سؤال النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا لم يفعلوا ذلك، دل على سوء بواطنهم وغلظ أكبادهم وأنهم كالخشب المسندة في أنهم لا ثمرة لهم ولا زكاء أصلا بقوله: ﴿وإذا قيل لهم﴾ أي من أي قائل كان: ﴿تعالوا﴾ أي ارفعوا أنفسكم مجتهدين في ذلك بالمجيء إلى أشرف الخلق الذي لا يزال مكانه عاليا لعلو مكانته ﴿يستغفر لكم﴾ أي يطلب الغفران لأجلكم خاصة بعد أن تتولوا من ذنبكم من أجل هذا الكذب الذي أنتم مصرون عليه. ولما تقدم عاملان، أعمل الثاني منهما." (٢)

"يقول الحق جل جلاله: إلا تنصروه تنصروا محمدا، وتثاقلتم عن الجهاد معه، فسينصره الله، كما نصره حين أخرجه الذين كفروا من مكة، حال كونه ثاني اثنين أي: لم يكن معه إلا رجل واحد، وهو الصديق، إذ هما في الغار نقب في أعلى غار ثور، وثور جبل عن يمين مكة، على مسيرة ساعة. إذ يقول لصاحبه: أبي بكر رضى الله عنه: لا تحزن إن الله معنا بالعصمة والنصرة.

روي أن المشركين طلعوا فوق الغار يطلبون رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين فقدوه من مكة، فأشفق أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما» «١» فأعماهم الله عن الغار، فجعلوا يترددون حوله فلم يروه. وقيل: لما دخل الغار بعث الله حمامتين، فباضتا في أسفله، والعنكبوت نسجت عليه.

فأنزل الله سكينته أي: أمنه الذي تسكن إليه القلوب، عليه أي: على رسوله صلى الله عليه وسلم، أو على صاحبه، وأيده بجنود لم تروها، يعني الملائكة، أنزلهم ليحرسوه في الغار، أو يوم بدر وأحد وغيرهما، فتكون على هذا: الجملة معطوفة على: (فقد نصره الله) . وجعل كلمة الذين كفروا وهي الشرك، أو دعوى الكفر، السفلى. وكلمة الله التي هي التوحيد، أو دعوة الإسلام، هي العليا حيث خلص رسوله صلى الله عليه وسلم من بين الكفار، ونقله إلى المدينة، ولم يزل ينصره حتى ظهر التوحيد وبطل الكفر، والله عزيز غالب على أمره، حكيم في أمره وتدبيره.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ٥١٨/١٥

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ٨٣/٢٠

الإشارة: ما قيل في حق الرسول صلى الله عليه وسلم يقال في حق ورثته، الداعين إلى الله بعده من العارفين بالله، فيقال لمن تخلف عن صحبة ولي عصره وشيخ تربية زمانه: إلا تنصروه فقد نصره الله وأعزه، وأغناه عن غيره، فمن صحبه فإنما ينفع نفسه، فقد نصره الله حين أنكره أهله وأبناء جنسه، كما هي سنة الله في أوليائه، لأن الداخل على الله منكور، والراجع إلى الناس مبرور، فمن دخل مع الخصوص قطعا أنكرته العموم، فنخرجه ثاني اثنين هو وقلبه، فيأوي إلى كهف **الأنس بالله**، والوحشة مما سواه، فيقول لقلبه: لا تحزن إن الله معنا، فينزل الله عليه سكينة الطمأنينة والتأييد، وينصره باجناد أنوار التوحيد والتفريد، فيجعل كلمة أهل الإنكار السفلى، وكلمة الداعين إلى الله هي العليا، والله عزيز حكيم.

---

(١) أخرجه البخاري فى (فضائل أصحاب النبي، باب مناقب المهاجرين) ومسلم فى: (فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر رضى الله عنه) .." (١)

"يقول الحق جل جلاله، في وصف من سبقت له الهداية واتصف بالإنابة: هم الذين آمنوا بالله وبرسوله إيمانا تمكن من قلوبهم، واطمأنت إليه نفوسهم فإذا حركتهم الخواطر والهواجم، أو فتن الزمان وأهواله تطمئن قلوبهم بذكر الله، وترتاح بذكر الله أنسا به، واعتمادا عليه ورجاء منه، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته، أو بذكر آلائه ودلائله الدالة على وجوده ووحدانيته، أو بكلامه القرآن، الذي هو أقوى المعجزات. قاله البيضاوي. وقال في القوت: معنى تطمئن بذكر الله: تهش وتستأنس به. قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي بعد كلام: والحاصل أن المراد من الطمأنينة: السكون إلى المذكور، **والأنس به**، ووجود الروح والفرح والانشراح، والغنى به. هـ.

قال تعالى: ألا بذكر الله تطمئن القلوب لا بغيره، فلا تسكن إلا إليه، ولا تعتمد إلا عليه فإن سكنت إلى غيره ذهب نورها، وعظم قلقها. الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم أي: لهم عيش طيب وحياة طيبة. أو الجنة، أو شجرة فيها، وحسن مآب أي: مرجع يرجعون إليه بعد الموت.

الإشارة: الطمأنينة على قسمين: طمأنينة إيمان، وطمأنينة شهود وعيان. قوم اطمأنوا إلى غائب موجود، وقوم إلى آخر مشهود. قوم اطمأنوا بوجود الله من طريق الإيمان على نعت الدليل والبرهان، وقوم اطمأنوا بشهود الله من طريق العيان على نعت الذوق والوجدان. وهذه ثمرة الإكثار من ذكر الله.

قال الشيخ الشاذلى رضي الله عنه: حقيقة الذكر: ما اطمأن بمعناه القلب، وتجلى في حقائق سحاب أنوار سمائه الرب. هـ. وقال الورتجي: إن كان الإيمان من حيث الاعتقاد، فطمأنينة القلب بالذكر، وإن كان من حيث المشاهدة فطمأنينة القلوب بالله وكشف وجوده. هـ. فطمأنينة الإيمان لأهل التفكر والاعتبار من عامة أهل اليمين.

وطمأنينة العيان لأهل الشهود والاستبصار من خاصة المقربين. أهل الأولى يستدلون بالأشياء على الله، وأهل الثانية يستدلون بالله على الأشياء فلا يرون إلا مظهر الأشياء. وشتان بين من يستدل به أو يستدل عليه المستدل به عرف الحق لأهله، وأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه. وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه! ومتى بعد حتى

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٨٣/٢

تكون الآثار هي التي توصل إليه؟!. كما في الحكم.

وقال في المناجاة: «إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟!. أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك؟! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟!» .." (١)

"وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: «كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟! أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده كل شيء؟ أي: وظهر بكل شيء» . وفي ذلك يقول الشاعر:

عجبت لمن يبغي عليك شهادة ... وأنت الذي أشهدته كل شاهد

وقال آخر:

لقد ظهرت فما تخفى على أحد ... إلا على أكمه لا يبصر القمرا

لكن بطنت بما أظهرت محتجبا ... وكيف يبصر من بالعزة استترا

وأهل طمأنينة الإيمان على قسمين باعتبار القرب والبعد: فمنهم من يطمئن بوجود الحق على نعت القرب والأنس، وهم أهل المراقبة من الزهاد والصالحين، والعلماء العابدين المجتهدين، وهم متفاوتون في القرب على قدر تفرغهم من الشواغل والعلائق، وعلى قدر التخلية والتحلية. ومنهم من يطمئن إليه على نعت البعد من قلبه، وهم أهل الشواغل والشواغب، والعلائق والعوائق. وعلامة القرب: وجود حلاوة المعاملة، كلذيذ المناجاة، **والأنس به** في الخلوات، ووجود حلاوة القرآن والتدبر في معانيه، حتى لا يشبع منه في كل أوان. وعلامة البعد: فقد الحلاوة المذكورة، وعدم **الأنس به** في الخلوة، وفقد حلاوة القرآن، ولو كان من أعظم علماء اللسان.

وأهل طمأنينة الشهود على قسمين أيضا: فمنهم من تشرق عليه الأنوار، وتحيط به الأسرار، فيغرق في الأنوار وتطمس عنه الآثار، فيسكر ويغيب عن الأثر في شهود المؤثر، ويسمى عندهم هذا المقام: مقام الفناء. ومنهم من يصحو من سكرته، ويفيق من صعقته، فيشهد المؤثر، لا يحجبه جمعه عن فرقه، ولا فرقة عن جمعه، ولا يضره فناؤه عن بقائه، ولا بقاؤه عن فنائه، يعطي كل ذي حق حقه، ويوفي كل ذي قسط قسطه، وهو مقام البقاء، ولا يصح وجوده إلا بعد وجود ما قبله، فلا بقاء إلا بعد الفناء، ولا صحو إلا بعد السكر. ومن ترامى على هذا المقام- أعني مقام البقاء- من غير تحقيق مقام السكر والفناء فهو لم يبرح عن مقام أهل الحجاب.

واعلم أن طمأنينة الإيمان تزيد وتنقص، وطمأنينة العيان، إن حصلت، تزيد ولا تنقص. فمواد أسباب زيادة طمأنينة الإيمان أشياء متعددة، فمنهم من تزيد طمأنينته بالتفكر والاعتبار، إما في عجائب المصنوعات وضروب المخلوقات، فيطمئن إلى صانع عظيم القدرة باهر الحكمة. وإما بالنظر في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، وباهر علمه، وعجائب حكمه وأسراره، وإخباره بالأمور الغيبية السابقة والآتية، مع كونه نبيا أميا. فإذا تحقق بمعرفة الرسول فقد." (٢)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٢٥

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٢٦

"وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها أي: كثيرا من أهل قرية كانوا ظالمين مثلكم، قد أمهلتهم حينا وأمليت لهم، كما أمليت لكم، ثم أخذتهم بالعذاب والنكال بعد طول الإملاء والإمهال. والإملاء هو الإمهال مع إرادة المعاقبة. وإلي المصير أي: المرجع إلي، فلا يفوتني شيء من أمر المستعجلين وغيرهم، أو: إلى حكمي مرجع الكل، لا إلى غيري، لا استقلالا ولا شركة، فأفعل بهم ما يليق بأعمالهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: عمى القلوب هو انطماس البصيرة، وعلامة انطماسها أمور: إرسال الجوارح في معاصي الله، والانهماك في الغفلة عن الله، والوقيعة في أولياء الله، والاجتهاد في طلب الدنيا مع التقصير فيما طلبه منه الله.

وفي الحكم: «اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك، دليل على انطماس البصيرة منك» . وعلامة فتحها أمور: المسارعة إلى طاعة الله، واستعمال المجهود في معرفة الله، بصحبة أولياء الله، والإعراض عن الدنيا وأهلها، **والأنس بالله**، والغيبة عن كل ما سواه. واعلم أن البصر والبصيرة متقابلان في أصل نشأتهما، فالبصر لا يبصر إلا الأشياء الحسية الحادثة، والبصيرة لا تبصر إلا المعاني القديمة الأزلية، فإذا انطمست البصيرة كان العبد مفروقا عن الله، لا يرى إلا الأكوان الظلمانية الحادثة. وفي ذلك يقول المجذوب رضى الله عنه:

من نظر الكون بالكون غره: في عمى البصيرة. ... ومن نظر الكون بالمكون: صادق، علاج السريرة

وإذا انفتحت البصيرة بالكلية استولى نورها على نور البصر، فانعكس نور البصر إلى البصيرة، فلا يرى العبد إلا أسرار المعاني الأزلية، المفنية للأواني الحادثة، فيغيب عن رؤية الأكوان بشهود المكون. وعلاج انفتاحها يكون على يد طبيب ماهر عارف بالله، يقدحها له بمرود التوحيد، فلا يزال يعالجها بإثمد توحيد الأفعال، ثم توحيد الصفات، ثم توحيد الذات، حتى تنفتح. فتوحيد الأفعال والصفات يشهد قرب الحق من العبد، وتوحيد الذات يشهد عدمه لوجود الحق، وهو الذي أشار إليه في الحكم بقوله: «شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق، لا عدمك ولا وجودك. كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان» . فيرى حينئذ من أسرار الذات وأنوار الصفات ما لا يراه الناظرون، ويشاهد ما لا يشاهده الجاهلون. وفي ذلك يقول الحلاج:

قلوب العارفين لها عيون ... ترى ما لا يرى للناظرينا

وأجنحة تطير بغير ريش ... إلى ملكوت رب العالمينا

وألسنة بأسرار تناجي ... تغيب عن الكرام الكاتبينا." (١)

"تغذيا وتفكها، أو ترزقون وتحصلون معايشكم، من قولهم: فلان يأكل من حرفته، وهذه الجنة وجوه أرزاقكم منها ترزقون وتتمعشون، ويجوز أن يكون الضميران للنخيل والأعناب، أي: لكم في ثمرتها أنواع من الفواكه، الرطب والعنب، والتمر والزبيب، والعصير والدبس، «١» وغير ذلك، وطعاما تأكلونه، وأنبتنا به شجرة هي الزيتون تخرج من طور سيناء،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥٤٢/٣

وهو جبل موسى عليه السلام بين مصر وأيلة، وقيل: بفلسطين، ويقال: فيه طور سينين، فإما أن يكون الطور اسم الجبل، وسيناء اسم البقعة أضيف إليها، أو المركب منهما علم له، كامرىء القيس، وتخصيصها بالخروج منه، مع خروجها من سائر البقع، إما لتعظيمها، أو لأنه المنشأ الأصلي لها لأن أصل الزيتون من الشام، وأول ما نبت في الطور، ومنه نقل إلى سائر البلاد، تنبت بالدهن أي: متلبسة بالدهن، أي: ما يدهن به، وهو الزيت، وصبغ للآكلين أي: إدام لهم، قال مقاتل: جعل الله في هذه إداما ودهنا، فالإدام: الزيتون، والدهن: الزيت. وقيل: هي اول شجرة تنبت بعد الطوفان، وخص هذه الأنواع الثلاثة لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأنفعها.

وإن لكم في الأنعام، جمع نعم، وهي الإبل والبقر والغنم، لعبرة تعتبرون بها، وتستدلون بأحوالها على عظم قدرة الله تعالى، وسابغ نعمته، وتشكرونه عليه، نسقيكم مما في بطونها من الألبان سائغة للشاربين، أو مما استقر في بطونها من العلف فإن اللبن يتكون منه، ولكم فيها منافع كثيرة، سوى الألبان، وهي منافع الأصواف والأوبار والأشعار. ومنها تأكلون أي: من لحومها، عليها

أي: على الأنعام في البر، على الفلك

فى البحرحملون

في أسفاركم ومتاجركم، والمراد بالأنعام في الحمل الإبل لأنها هي المحمول عليها في البر، فهي سفائن العرب، كما قال ذو الرمة:

سفينة بر تحت خدي زمامها يريد ناقته. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ولقد خلقنا فوق قلوبكم سبعة حجب، فمن خرقها أفضى إلى فضاء شهود ذاتنا وأنوار صفاتنا، وهي حجاب المعاصي والذنوب، وحجاب النقائص والعيوب، وحجاب الغفلات، وحجاب العوائد والشهوات، وحجاب الوقوف مع حلاوة المعاملات، وحجاب الوقوف مع الكرامات والمقامات، وحجاب حس الكائنات، فمن خرق هذه الحجب بالتوبة والتزكية واليقظة والعفة والرياضة، **والأنس بالله** والغيبة عما سواه، ارتفعت عنه الحجب، ووصل

---

(١) الدبس: عسل التمر وعصارته.. انظر اللسان (دبس ٢/ ١٣٢٣) .." (١)

"وألطف من هذا أن يكتفي بعلم الله، فيشتغل بمولاه، ولا يلتفت إلى إنجاز وعد ولا ضمان، فيكل أمره إلى الله، وهذه حالة التسليم. وفوق هذه: التفويض، وهو أن يكل أمره إليه، ولا يختار حالا على حال، فيشتغل بمولاه ويغيب عن نفسه وعن كل ما سواه، يعلم أنه مملوك لسيده، والسيد أولى من العبد بنفسه. فإذا ارتقى عن هذه الحالة وجد الراحة في المنع، ويستعذب ما يستقبله من الرد، فهي رتبة الرضا، ويحصل له في هذه الحالة، من فوائد الرضا ومطالعته، ما لا يحصل لمن دونه من الحلاوة في وجود المقصود.

وبعد هذا: الموافقة وهو ألا يجد الراحة في المنع ولا في العطاء، وإنما يجد حلاوة نسيم القرب، وزوائد الأنس بنسيان كل أرب.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٥٦٨

فكما أن حلاوة الطاعات تتصاغر عند برد الرضا- ويعدون ذلك حجابا- كذلك أهل **الأنس بالله** يعدون الوقوف مع حلاوة الرضا والاشتغال بلطائفه نقصانا وحجابا. ثم بعد هذا استيلاء سلطان الحقيقة، بما يأخذ العبد عن جملته بالكلية، فيعبر عن هذه الحالة بالخمود، والاستهلاك، والوجود، والاصطلام، والفناء، - وهذا هو عين التوحيد الخاص- فعند ذلك لا أنس، ولا هيبة، ولا لذة، ولا راحة، ولا وحشة، ولا آفة. يعني: تغيب المقامات بلذاتها وراحتها، عند تحقق الفناء، ثم قال: هذا بيان ترتيبهم، فأما ما دون ذلك فالإخبار عن أحوال المتوكلين، على تباين شرفهم، يختلف على حسب اختلاف حالهم. انتهى بالمعنى.

وقال أيضا: ويقال: التوكل في الأسباب الدنيوية ينتهي إلى حد، وأما التوكل على الله في إصلاح آخرته: فهو أشد غموضا وأكثر خفاء، فالواجب، في الأسباب الدنيوية، أن يكون السكون عند طلبها غالبا، والحركة تكون ضرورة، وأما في أمر الآخرة وما يتعلق بالطاعة، فالواجب البدار والجد والانكماش، والخروج عن أوطان الكسل، وترك الجنوح إلى الفشل. والذي يوصف بالتواني في العبادات والتباطؤ في تلافي ما ضيعه من إرضاء الخصوم، والقيام بحق الواجبات، ثم يعتقد في نفسه أنه متوكل على الله، فهو متمن معلول الحال، ممكور مستدرج، بل يجب أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه، ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته، ولا يستند إلى سكونه وحركته، ويتبرأ من حوله وقوته، ثم يحسن الظن بربه. ومع حسن ظنه بربه لا ينبغي أن يخلو من مخافته، اللهم إلا أن يغلب على قلبه ما يشغله في الحال من كشوفات الحقائق عن الفكرة في العواقب فإن ذلك- إذا حصل- فالوقت غالب، وهو أحد ما قيل في قولهم: الوقت سيف. هـ.

ثم ذكر من أوصاف الرحمن، الذي نفر المشركون عن الخضوع له، ما يبين عظمته وكبرياءه، ونفوذ قدرته المستوجبة للخضوع والانقياد له ردا على امتناع الكفرة منه، فقال:

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٦١ الى ٦٢]

تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا (٦١) وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا (٦٢)." (١)

"من الكتاب، وعرف مدلوله ومقصوده، لكن من السياسة أن يتدرج المريد في تركها شيئا فشيئا، حتى يخرج عنها، أو يغيب عن شغلها بالكلية، وإن كانت بيده. فلما خرجوا عن عرش نفوسهم لله، وتوجهوا إليه، ورأى ذلك منهم، قال: هذا من فضل ربي، حيث وقعت الهداية على يدي، ليبلوني، أشكر أم أكفر.. الآية. قال نكروا لها عرشها، أي:

اعرضوا عليها الدنيا، وأروها عرشها التي كانت عليه، متغيرا عن حاله الأولى- لأنه كان معشوقا لها، والآن صار ممقوتا لغناها بالله- ننظر أتهتدي إليه، وترجع إلى محبته، فيكون علامة على عدم وصولها، أم تكون من الذين لا يهتدون إليه أبدا، فتكون قد تمكنت من **الأنس بالله**، فلما جاءت وأظهر لها عرشها اختبارا، قيل: أهكذا عرشك؟ قالت: كأنه هو، وأوتينا العلم بالله من قبل هذه الساعة، وكنا منقادين لمراده، فلن نرجع إلى ما خرجنا عنه لله أبدا. وصدها عن الحضرة ما كانت تعبد

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١١٣/٤

من الهوى، من دون محبة الله، إنها كانت من قوم كافرين، منكرين للحضرة، غير عارفين بها. قيل لها حين رحلت عن عرشها: ادخلي دار الحضرة، فلما رأت بحر الوحدة، يتموج بتيار الصفات، دهشت، وحسبته لجة، يغرق صاحبه في بحر الزندقة، قال لها رئيس البحرية- وهو شيخ التربية: إنه بحر منزه متصل، لا أول له، ولا آخر له. ليس مثله شيء، ولا معه شيء، محيط بكل شيء، وماح لكل شيء. ثم اعترفت أنها ظالمة لنفسها، مشغولة بهواها، قبل أن تعرف هواه، فلما عرفته غابت عن غيره، واستسلمت وانقادت له. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة صالح عليه السلام فقال:

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٤٥ الى ٤٧]

ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون (٤٥) قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون (٤٦) قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون (٤٧)

قلت: (ولقد أرسلنا) : عطف على (ولقد آتينا داود ...) الخ.

يقول الحق جل جلاله: والله لقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم نسبا صالحا، أن اعبدوا الله أي: بأن اعبدوه وحده، فإذا هم فريقان يختصمون أي: ففاجئوا التفرق والاختصام، ففريق مؤمن به،." (١)

"أضغاث الأحلام، ويجوز أن يكون قسما، أي: أقسم بالحق لتدخلن المسجد الحرام، وعلى الأول: جواب القسم محذوف، أي: والله لتدخلن المسجد الحرام، والجملة القسمية: استئناف بياني، كأن قائلا قال: ففيم صدقه؟ فقال: (لتدخلن المسجد إن شاء الله) . وهو تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد. قال ثعلب: استثنى الله فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون. وقال في القوت: استثنى الله معلما لعباده ورادا لهم إلى مشيئته، وهو أصدق القائلين، وأعلم العالمين. هـ. أو: للإشعار بأن بعضهم لا يدخلونه، لموت، أو: غيبة، أو غير ذلك، أو: هو حكاية لما قاله ملك الرؤيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أو لما قاله صلى الله عليه وسلم لأصحابه، حين قص عليهم، أي: والله لتدخلنها آمنين من غائلة العدو، فهو حال من فاعل «لتدخلن» والشرط معترض. محلقين رؤسكم ومقصرين أي: محلقا بعضكم، ومقصرا آخرون، لا تخافون بعد ذلك أبدا، فهو حال أيضا، أو استئناف، فعلم ما لم تعلموا من الحكمة في تأخير فتح مكة إلى العام القابل، فجعل من دون ذلك فتح مكة فتحا قريبا وهو فتح خيبر، لتستروح إليه قلوب المؤمنين، إلى أن يتيسر الفتح الموعود. والله تعالى أعلم.

الإشارة: العارف الكامل لا يركن إلى شيء دون الله تعالى، فلا يطمئن إلى وعد، ولا يخاف من وعيد، بل هو عبد بين يدي سيده، ينظر ما يبرز من زمن عنصر قدرته، فإن بشر بشيء في النوم أو اليقظة، لا يركن إليه، ولا يقف معه لأن غيب المشيئة غامض، وإن خوف بشيء في النوم أو غيره، لا يفزع ولا يجزع لأن الغنى بالله **والأنس به** غيبه عن كل شيء، وفي الله خلف من كل تلف «ماذا فقد من وجدك؟ «١» » والله يتولى الصالحين، ومن يتق الله يجعل له مخرجا.. الآية «٢» .

قال في الإبريز «٣» : الرؤيا المحزنة إنما هي اختبار من الله للعبد، هل يبقى مع ربه أو ينقطع عنه، فإن كان العبد متعلقا به

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤/٢٠٠

تعالى، ورأى الرؤيا المحزنة، لم يلتفت إليها، ولما يبال بها لعلمه بأنه منسوب إلى من بيده تصاريف الأمور، وأن ما اختاره تعالى سبقت به المشيئة، فلا يهوله أمر الرؤيا، ولا يلقي إليها بالا، وهذه لا تضره بإذن الله تعالى: وإذا كان العبد غير متعلق بربه، ورأى رؤيا محزنة، جعلها نصب عينيه، وعمر بها باطنه، وانقطع بها عن ربه، ويقدر أنها لا محالة نازلة به، فهذا هو الذي تضره لأن من خاف من شيء سلطه عليه. هـ.

---

(١) من مناجاة الشيخ ابن عطاء السكندرى. انظر تبويب الحكم للمتقى الهندي (ص ٤٢) .

(٢) الآية ٢ من سورة الطلاق.

(٣) لسيدى عبد العزيز الدباغ- رحمه الله تعالى.." (١)

"الإشارة: قال في الإحياء: اعلم أن رأس الخطايا والمهلكة هو حب الدنيا، ورأس أسباب النجاة هو: التجافي بالقلب عن دار الغرور. ثم قال: واعلم أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته **والأنس به** في الدنيا، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الذكر إلا بإقلاع حب الدنيا من القلب، ولا يقع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها، ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات، ولا تنقمع الشهوات بشيء كما تنقمع بنار الخوف المحرقة للشهوات. هـ. على نقل صاحب الجواهر.

ومن أسعده الله بلقاء شيخ التربية هان عليه معالجة النفس من غير تعب، في أقرب وقت، بحيث يغيبه عنها، ويزجه في الحضرة، في أقرب زمان، فيدخل في قوله تعالى: ﴿وجوده يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ فتحصل له النضرة والنظرة في الدنيا والآخرة، فيفنى عن نظره حس الكائنات، وتظهر أسرار الذات الأزلية للعيان بادية، فيستدل بالله على غيره، فلا يرى سواه، وينشد ما قال الشاعر:

فلم يبق إلا الله لم يبق كائن

فما ثم موصول ولا ثم بائن

بذا جاء برهان العيان فما أرى

بعيني إلا عينه إذ أعاين

قال القشيري: قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة ... ﴾ الخ، يقال: هذه الآية دليل على أنهم بصفة الصحو، ولا يداخلهم حيرة ولا دهش، لأن النضرة من أمارات البسط، والبقاء في حال اللقاء أتم من اللقاء، والرؤية عند أهل التحقيق تقتضي بقاء الرائي.. الخ كلامه. ﴿ووجوه يومئذ باسرة﴾ وهي وجوه أهل الغفلة، المحجوبين في الدنيا عن شهود الحق، تظن أن يفعل بها داهية فاقرة، لما فرطت في جنبه ـ تعالى ـ من عدم التوجه إليه، كلا، فلترتدع اليوم، ولتنهض قبل فوات الإبان، وهو إذا بلغت الروح التراقي، وقيل: من راق؟ والتفت الساق بالساق، إلى ربك يومئذ المساق، فيحصل الندم، وقد زلت القدم، فلا

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٠٦/٥

صدق بوجود الخصوصية عند أربابها، فيصحبهم ليزول عنه الغين والمرض، أي: غين الحجاب ومرض الخواطر والشكوك، ولا صلى صلاة القلوب، ولكن كذب بوجود الطبيب، وتولى عنه مع ظهوره، ثم ذهب إلى هواه ودنياه يتمطى، أولى لك فأولى، أي: أبعدك الله وطردك، ثم أولى لك فأولى، أيحسب الإنسان أن يتركه الحق سدى، من غير أن يرسل له داعيا يدعوه إلى الحق؟ ألم يك نطفة مهينة، ثم صوره ونفخ فيه من روحه، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ أي: القلوب والأرواح الميتة، بالعلم والمعرفة، بلى وعزة ربنا إنه لقادر، " من استغرب أن ينقذه الله من شهوته، وأن يخرجه من وجود غفلته، فقد استعجز القدرة الإلهية، وكان الله على كل شيء مقتدرا " وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله.." (١)

"إنكاري. والضمير في قوله: من بعده راجع إلى الخذلان المدلول عليه بقوله: وإن يخذلكم أو إلى الله، ومن علم أنه لا ناصر له إلا الله سبحانه، وأن من نصره الله لا غالب له، ومن خذله لا ناصر له، فوض أموره إليه، وتوكل عليه، ولم يشتغل بغيره، وتقديم الجار والمجرور على الفعل في قوله: وعلى الله فليتوكل المؤمنون: لإفادة قصره عليه. قوله: وما كان لنبي أن يغل أي ما صح له ذلك لتنافي الغلول والنبوة. قال أبو عبيد: الغلول: من المغنم خاصة، ولا نراه من الخيانة ولا من الحقد، ومما يبين ذلك أنه يقال من الخيانة: أغل يغل، ومن الحقد: غل يغل بالكسر، ومن الغلول: غل يغل بالضم يقال: غل المغنم غلولا، أي: خان بأن يأخذ لنفسه شيئا يستره على أصحابه فمعنى الآية على القراءة بالبناء للفاعل: ما صح لنبي أن يخون شيئا من المغنم، فيأخذه لنفسه من غير اطلاع أصحابه. وفيه تنزيه الأنبياء عن الغلول. ومعناها على القراءة بالبناء للمفعول: ما صح لنبي أن يغله أحد من أصحابه، أي:

يخونه في الغنيمة، وهو على هذه القراءة الأخرى: نهي للناس عن الغلول في المغانم وإنما خص خيانة الأنبياء مع كون خيانة غيرهم من الأئمة والسلاطين والأمراء حراما، لأن خيانة الأنبياء أشد ذنبا وأعظم وزرا ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة أي: يأت به حاملا له على ظهره، كما صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيفضحه بين الخلائق، وهذه الجملة تتضمن تأكيد تحريم الغلول، والتنفير منه، بأنه ذنب يختص فاعله بعقوبة على رؤوس الأشهاد، يطلع عليها أهل المحشر، وهي مجيئه يوم القيامة بما غله حاملا له، قبل أن يحاسب عليه يعاقب عليه. قوله: ثم توفى كل نفس ما كسبت أي: تعطي جزاء ما كسبت وافيا من خير وشر، وهذه الآية تعم كل من كسب خيرا أو شرا، ويدخل تحتها الغال دخولا أوليا، لكون السياق فيه. قوله: أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله الاستفهام للإنكار، أي: ليس من اتبع رضوان الله في أوامره ونواهيه فعمل بأمره واجتنب نهيه كمن باء، أي: رجع بسخط عظيم كائن من الله، بسبب مخالفته لما أمر به ونهى عنه، ويدخل تحت ذلك، من اتبع رضوان الله بترك الغلول واجتنابه، ومن باء بسخط من الله بسبب إقدامه على الغلول. ثم أوضح ما بين الطائفتين من التفاوت فقال: هم درجات عند الله أي: متفاوتون في الدرجات والمعنى: هم ذوو درجات، أو: لهم درجات، فدرجات من اتبع رضوان الله ليست كدرجات من باء بسخط من الله، فإن الأولين في أرفع الدرجات. والآخرين في أسفلها. قوله: لقد من الله على المؤمنين جواب قسم محذوف، وخص المؤمنين لكونهم المنتفعين ببعثته. ومعنى: من أنفسهم أنه عربي مثلهم وقيل: بشر مثلهم، ووجه المنة على الأول: أنهم يفقهون عنه، ويفهمون كلامه، ولا يحتاجون إلى

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٩٢/٧

ترجمان. ومعناها على الثاني: أنهم يأنسون به بجامع البشرية، ولو كان ملكا لم يحصل كمال **الأنس به** لاختلاف الجنسية، وقرئ: من أنفسهم بفتح الفاء، أي: من أشرفهم لأنه من بني هاشم، وبنو هاشم أفضل قريش، وقريش أفضل العرب، والعرب أفضل من غيرهم، ولعل وجه الامتنان على هذه القراءة: أنه لما كان من أشرفهم كانوا أطوع له وأقرب إلى تصديقه، ولا بد من تخصيص المؤمنين في هذه الآية بالعرب على الوجه الأول، وأما على الوجه الثاني: فلا حاجة إلى هذا التخصيص،." (١)

"عتابه لأحبابه ألطف عتاب. وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم، وغافر زلاتهم، ومقيم أعذارهم، ومصلح فسادهم، والدافع عنهم، والحامي عنهم، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم والمنجي لهم من كل كرب، والموفي لهم بوعده. وأنه وليهم الذي لا ولي لهم سواه، فهو مولاهم الحق، وينصرهم على عدوهم، فنعم المولى ونعم النصير.

وإذا شهدت القلوب من القرآن ملكا عظيما جوادا رحيما جميلا هذا شأنه، فكيف لا تحبه، وتنافس في القرب منه، وتنفق أنفاسها في التودد إليه، ويكون أحب إليها من كل ما سواه، ورضاه آثر عندها من رضى كل من سواه؟ وكيف لا تلهج بذكره، وتصير حبه والشوق إليه **والأنس به** هو غذاؤها وقوتها ودواؤها، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها؟

اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء حزننا. وأعنا على إكمال ما قصدناه بفضلك. يا أرحم الراحمين.." (٢)

"فجمع في هذا الحديث الشريف، في استعاذته صلى الله عليه وسلم أصول الشر وفروعه ومباديه وغاياته وموارده ومصادره. وهو مشتمل على ثمان خصال، كل خصلتين منها قرينتان

فقال: أعوذ بك من الهم والحزن

، وهما قرينان. فإن المكروه الوارد على القلب ينقسم باعتبار سببه إلى قسمين: فإنه إما أن يكون سببه أمرا ماضيا، فهو يحدث الحزن، وإما أن يكون توقع أمر مستقبل، فهو يحدث الهم، وكلاهما من العجز. فإن ما مضى لا يدفع بالحزن، بل بالرضاء والحمد والصبر والإيمان بالقدر، وقول العبد: قدر الله وما شاء فعل. وما يستقبل لا يدفع أيضا بالهم. بل إما أن يكون له حيلة في دفعه فلا يعجز عنه، وإما أن لا تكون له حيلة في دفعه، فلا يجزع منه، ويلبس له لباسه، ويأخذ له عدته، ويتأهب له أهبته اللائقة، ويستجن بجنة حصينة من التوحيد والتوكل والانطراح بين يدي الرب تعالى، والاستسلام له، والرضا به ربا في كل شيء، ولا يرضى به ربا فيما يحب دون ما يكره. فإذا كان هكذا لم يرض به ربا على الإطلاق، فلا يرضاه الرب له عبدا على الإطلاق.. فالهم والحزن لا ينفعان العبد البتة، بلا مضرتهما أكثر من منفعتهما، فإنهما يضعفان العزم، ويوهنان القلب، ويحولان بين العبد وبين الاجتهاد فيما ينفعه، ويقطعان عليه طريق السير، أو ينكسانه إلى وراء أو يعوقانه ويقفانه أو يحجبانه عن العلم الذي كلما رآه شمر إليه، وجد في سيره، فهما حمل ثقيل على ظهر السائر، بل إن عاقة الهم

---

(١) فتح القدير للشوكاني الشوكاني ٤٥٢/١

(٢) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٢٥٢/٢

والحزن عن شهواته وإرادته التي تضره في معاشه ومعاده، انتفع به من هذا الوجه، وهذا من حكمة العزيز الحكيم، أن سلط هذين الجندين على القلوب المعرضة عنه، الفارغة من محبته وخوفه ورجائه والإنابة إليه، والتوكل عليه، **والأنس به**، والفرار إليه، والانقطاع إليه، ليردها بما يبتليها به من الهموم والغموم والأحزان، والآلام القلبية، عن كثير من معاصيها وشهواتها المردية. وهذه القلوب في سجن من الجحيم في هذه الدار. وإن أريد بها الخير، كان حظها من سجن الجحيم في معادها، ولا تزال في هذا السجن، حتى تتخلص إلى فضاء التوحيد والإقبال على الله، **والأنس به**، وجعل محبته في محل دبيب خواطر القلب ووساوسه، بحيث يكون ذكره تعالى وحبه وخوفه ورجاؤه والفرح به والابتهاج بذكره، هو المستولي على القلب الغالب عليه، الذي متى فقده، فقد قوته، الذي لا قوام له إلا به، ولا بقاء له بدونه، ولا سبيل إلى خلاص القلب من هذه الآلام التي هي أعظم أمراضه، وأفسدها له، إلا بذلك، ولا بلاغ إلا بالله وحده، فإنه لا يوصل إليه إلا هو، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو، ولا يدل عليه إلا هو، وإذا أراد عبده لأمر هيأه له، فمنه الإيجاد ومنه." (١)

"يجد فيها وهج النار، وتلك الزفرات والحرقات. فإن القلب قد أحاطت به نيران بكل جانب. فهو في وسطها كالشاة في وسط التنور، ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة، أن جعل لهم في البرزخ تنور من نار، وأودعت أرواحهم فيه، إلى حشر أجسادهم، كما أراها الله نبيه صلى الله عليه وسلم في المنام في «١» الحديث المتفق على صحته.

التاسع- أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها. وإطلاق البصر يشتت عليه ذلك ويحول عليه بينه وبينها. فتنفرط عليه أموره ويقع في اتباع هواه وفي الغفلة عن أمر ربه، قال تعالى: ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا [الكهف: ٢٨] ، وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه.

العاشر- أن بين العين والقلب منفذا وطريقا يوجب انفعال أحدهما عن الآخر.

وأن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده. فإذا فسد القلب فسد النظر. وإذا فسد النظر فسد القلب. وكذلك في جانب الصلاح. فإذا خربت العين وفسدت، خرب القلب وفسد، وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ. فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه **والأنس به** والسرور بقربه فيه. وإنما يسكن فيه أضداد ذلك. فهذه إشارة إلى بعض فوائد غض البصر، تطلعك على ما وراءها. انتهى.

ثم أمر الله تعالى النساء بما أمر به الرجال. وزاد في أمرهن، ما فرضه من رفض حالة الجاهلية المألوفة قبل لهن، بقوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة النور (٢٤) : آية ٣١]

وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون (٣١)

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٢/٤٤٤

(١) أخرجه البخاري في: التعبير، ٤٨- باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، عن سمرة بن جندب، حديث رقم ٥٠١.."

(١)

"للنور، وامتناع عودها إلى الصفاء الأول الفطري. كالماء الكبريتي مثلا، إذ لو روق أو صعد لما رجع إلى الطبيعة المائية المبردة، لاستحالة جوهرها. بخلاف الماء المسخن الذي استحالت كيفيته دون طبيعته ولهذا استحقوا الخلود في العذاب.

وحكم عليهم بقوله: ثم إنهم لصالوا الجحيم انتهى.

قال ابن القيم في (بدائع الفوائد) في هذه الآية ما مثاله: جمع لهم سبحانه بين العذابين عذاب الحجاب وعذاب النار. فألم الحجاب يفعل في قلوبهم وأرواحهم، نظير ما تفعله النار في أجسامهم. كحال من حيل بينه وبين أحب الأشياء إليه في الدنيا، وأخذ بأشد العذاب. فإن أخص عذاب الروح أن تتعلق بمحبوب لا غنى لها عنه، وهي ممنوعة من الوصول إليه. فكيف إن حصل لها، مع تواري المحبوب عنها وطول احتجابه، بغضه لها ومقته وطرده وغضبه الشديد عليها؟ فأي نسبة لألم البدن إلى هذا الألم الذي لا يتصوره إلا من بلي به أو بشيء منه؟ فلو توهمت النفوس ما في احتجاب الله سبحانه عنها يوم لقائه من الألم والحسرة، لما تعرضت لأسباب ذلك الاحتجاب. وأنت ترى المحبين في الدنيا لصورة، منتهى حسنها إلى ما يعلم، كيف يضجون من ألم احتجاب محبوبهم عنهم وإعراضه وهجره؟ ويرى أحدهم كالموت أو أشد منه من بين ساعة، كما قال:

وكنت أرى كالموت من بين ليلة ... فكيف ببين كان ميعاده الحشر

وإنما يتبين الحال في هذا بمعرفة ما خلقت له الروح وما هيئت له وما فطرت عليه، وما لا سعادة لها ولا نعيم ولا حياة إلا بإدراكه.

فاعلم أن الله سبحانه خلق كل عضو من الأعضاء لغاية ومنفعة، فكماله ولذته في أن يحصل فيه ما خلق له، فخلق العين للإبصار والأذن للسمع والأنف للشم واللسان للنطق واليد للبطش والرجل للمشي والروح لمعرفته ومحبته والابتهاج بقربه والتنعم بذكره. وجعل هذا كمالها وغايتها. فإذا تعطلت من ذلك كانت أسوأ حالا من العين والأذن واللسان واليد والرجل، التي تعطلت عما خلقت له، وحيل بينها وبينه. بل لا نسبة لألم هذه لروح إلى ألم تلك الأعضاء المعطلة البتة. بل ألمها أشد الألم. وهو من جنس ألمها إذ فقدت أحب الأشياء إليها وأعزه عليها، وحيل بينها وبينه، وشاهدت غيرها قد ظفر بوصله وفاز بقربه ورضاه. والروح لا حياة لها ولا نعيم ولا سرور ولا لذة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودها وإلهها ومرادها، الذي لا تقر عينها إلا بقربه **والأنس به** والعكوف بكليتها على محبته والشوق إلى لقائه. فهذا غاية." (٢)

"ونظرت إليه إذا وجهت إليه بصرك ورأيته، وتقول: نظرته بمعنى انتظرته ومنه (ما ينظرون إلا صيحة واحدة) (٣٦: ٤٩) أذن الله – تعالى – لهم بهذه الكلمة (انظرنا) وأمرهم بالسماع للنبي ليعوا عنه ما يقول من الدين وهو أمر يتضمن

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٣٧٤/٧

(٢) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٤٣٢/٩

الطاعة والاستجابة. ثم ختم الآية بقوله: (وللكافرين عذاب أليم) لبيان أن ما صدر عن اليهود من سوء الأدب في خطاب الرسول هو أثر من آثار الكفر الذي يعذبون عليه العذاب الموجع أشد الإيجاع، وللتنبيه على أن التقصير
في الأدب معه – صلى الله عليه وسلم – ذنب مجاور للكفر يوشك أن يجر إليه، فيجب الاحتراس منه بترك الألفاظ الموهمة للمساواة، بله الألفاظ المنافية للآداب.

أقول: لا شك أن من يعامل أستاذه ومرشده معاملة المساواة في القول والعمل، يقل احترامه له وتزول هيبته من نفسه حتى تقل الاستفادة منه أو تعدم، وإذا لم تزل الاستفادة منه من حيث كونه معلما، فإنها تقل وتزول لا محالة من حيث كونه مربيا؛ لأن المدار في التربية على التأسي والقدوة، ومن أراه مثلي لا أرضاه إماما وقدوة لي، فإن رضيته بالمواضعة والتقليد وكذبتني المعاملة، فأي قيمة لهذا الرضى، والعبرة بما في الواقع ونفس الأمر، وهو أن من اعتقد أن امرأ فوقه علما وكمالا، وأنه في حاجة للاستفادة من علمه وإرشاده ومن أخلاقه وآدابه، فإنه لا يستطيع أن يساوي نفسه به في المعاملة القولية ولا الفعلية، إلا ما يكون من فلتات اللسان ومن اللمم، وعن مثل هذا نهى الصحابة – رضي الله عنهم –؛ لئلا يجرهم **الأنس به** – صلى الله عليه وسلم – وكرم أخلاقه إلى تعدي حدود الأدب الواجب معه الذي لا تكمل التربية إلا بكماله، وهو – تعالى – يقول: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (٣٣: ٢١) الآية.

(الأستاذ الإمام) : إنما كان عدم الإصغاء لما يقوله الرسول – عليه الصلاة والسلام – وخطابه خطاب الأكفاء والنظراء مجاورا للكفر؛ لأنه يتكلم عن الله عز وجل لسعادة من يسمع ويعقل ويأخذ ما يؤمر به بالأدب ويسأل عما لا يفهمه بالأدب، ومن فاتته هذه السعادة فهو الشقي الذي لا يعدل بشقائه شقاء. ومعنى هذه المجاورة أن سوء الأدب بنحو ما حكي عن اليهود في سورة النساء، هو من الكفر الصريح، ولذلك قال بعده: (ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) (٤: ٤٦) فالألفاظ التي تحاكي الألفاظ التي توعدوا عليها بهذا الوعيد على أنها كفر إذا صدرت من المؤمن غير محرفة ولا مقصودا بها ما كانوا يقصدون، تسمى مجاورة لألفاظ الكفر؛ لأنها موهمة وخارجة عن حدود الأدب اللائق بالمؤمنين.

(قال) : إن لمن جاء بعد الرسول حظا من هذا التأديب، وليس هو خاصا
بمن كان في عصره من المؤمنين، فهذا كتاب الله الذي كان يتلوه عليهم، وكان يجب الاستماع له والإنصات لأجل تدبره، هو الذي يتلى علينا بعينه، لم يذهب منه شيء، وهو كلام الله الذي به." (١)

"اللسان، وقوة البيان، من شعر وخطابة، ومفاخرة ومنافرة، إذ كانوا يؤمون أسواق موسم الحج وأشهرها عكاظ من جميع النواحي لإظهار بلاغتهم وبراعتهم، فكان ذلك أعظم الأسباب لارتقاء لغتهم، ولوجود الحكمة في شعرهم، فكان من الغريب أن يزهد في مشاركتهم فيه بنفسه، وفي روايته لما عساه يسمعه منه، وقد سمع بعد النبوة زهاء مائة قافية من شعر أمية فقال: ((إن كاد ليسلم)) وقال: ((آمن شعره وكفر قلبه)) وقال: ((إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر حكما)) رواه أحمد وأبو داود من حديث ابن عباس، وأما قوله: ((إن من البيان لسحرا)) فقد رواه مالك وأحمد والبخاري وأبو داود والترمذي

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٣٣٩/١

من حديث ابن عمر.

قلنا: إن استعداد محمد – صلى الله عليه وسلم – للنبوة والرسالة فطري لم يكن فيه شيء من كسبه بعلم ولا عمل لساني ولا نفسي، ولم يرو عنه أنه كان يرجوها كما روي عن أمية بن أبي الصلت، بل روي عن خديجة – رضي الله عنها – أنها لما سمعت من غلامها ميسرة أخبار أمانته وفضائله وكراماته وما قال بحيرى الراهب فيه تعلق أملها بأن يكون

هو النبي الذي يتحدثون عنه، ولكن هذه الروايات لا يصل شيء منها إلى درجة المسند الصحيح كحديث بدء الوحي الذي أوردناه آنفا، فإن قيل إنه يقويه حلفها بالله إن الله تعالى لا يخزيه أبدا، قلنا: إنها عللت ذلك بما ذكرته من فضائله، ورأت أنها في حاجة إلى استفتاء ابن عمها أمية في شأنه.

وأما اختلاؤه – صلى الله عليه وسلم – وتعبده في الغار عام الوحي فلا شك في أنه كان عملا كسبيا مقويا لذلك الاستعداد السلبي من العزلة وعدم مشاركة المشركين في شيء من عباداتهم ولا عاداتهم، ولكنه لم يكن يقصد الاستعداد للنبوة ؛ لأنه لو كان لأجلها لاعتقد حين رأى الملك أو عقب رؤيته حصول مأموله وتحقق رجائه ولم يخف منه على نفسه، وإنما كان الباعث لهذا الاختلاء، والتحنث اشتداد الوحشة من سوء حال الناس والهرب منها إلى **الأنس بالله** تعالى، والرجاء في هدايته إلى المخرج منها، كما بسطه شيخنا الأستاذ الإمام في تفسير قوله تعالى من سورة الضحى: (ووجدك ضالا فهدى) (٩٣: ٧) وما يفسره من قوله عز وجل في سورة الشورى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) (٤٢: ٥٢ و٥٣) وألم به في رسالة التوحيد إلماما مختصرا مفيدا، فقال رحمه الله تعالى: ((من السنن المعروفة أن يتيما فقيرا أميا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه لا سيما إن كان من ذوي قرابته وأهل عصبته،." (١)

"وجه الرأى لدى كل منهما– إن داود قدر الضرر فى الحرث فكان مساويا لقيمة الغنم فسلم الغنم للمجنى عليه، وإن سليمان قدر منافع الغنم بمنافع الحرث فحكم بها، وكان حكمهما بالاجتهاد دون الوحى، إذ لو كان به ما أمكن تغييره.

نعم الله على داود عليه السلام

(١) (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين) أي وسخرنا الجبال والطير لداود تقدس الله معه بحيث تتمثل له

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ١٥٩/١١

مسبحة، فيكون ذلك أملك لوجدانه وجميع مشاعره، فيستغرق فى التسبيح، وكنا فاعلين لأمثاله، فليس ذلك ببدع منا وإن كنتم أنتم تعجبون منه، فإن المستغرقين فى التسبيح والتقديس يحصل لهم من **الأنس بالله** ما يجعل العالم كله فى نظرهم مسبحا، وكأن العوالم كلها تنطق لهم به بلسان أفصح من لسان المقال، ولا يدرك هذا أحد إلا بوجدانه.

ونحو الآية قوله: «وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم» .

(٢) (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم) أي وعلمناه صنعة الدروع وقد كانت صفائح فجعلها حلقا، فتمنع عنكم إذا لبستموها ولقيتم أعداءكم- أذى الحرب من قتل وجرح ونحوهما.

(فهل أنتم شاكرون؟) أي فاشكروا الله على ما يسره لكم من هذه الصنعة التي تمنع عنكم غوائل الحروب وتقيكم ضرها وعظيم أذاها.

نعم الله على سليمان عليه السلام

ورث الله سليمان من داود ملكه ونبوته وزاده أمرين أشار إليهما بقوله:

(١) (ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها) أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة شديدة الهبوب تارة، ورخاء لينة تارة أخرى.." (١)

"الله أورثهم الجنة يتبوءون من خيراتها حيث يشاءون وأنى يشاءون مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من نعيم القلوب والأرواح، ومن نعيم الأبدان والأجسام: ﴿على سرر موضونة - متكئين عليها متقابلين - يطوف عليهم ولدان مخلدون - بأكواب وأباريق وكأس من معين - لا يصدعون عنها ولا ينزفون - وفاكهة مما يتخيرون - ولحم طير مما يشتهون - وحور عين - كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ [الواقعة: ١٥ - ٢٣] خيرات الأخلاق، حسان الوجوه، قد جمع الله لهن حسن البواطن والظواهر، فهن سرور النفس، وقرة النواظر.

وتمام ذلك أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدا، وأنه يقال لهم: (إن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا) ، فلهم كل ما يشاءون فيها وتتعلق به أمانيهم، ولهم فوق ذلك مما لم تبلغه أمانيهم، ولهم نعيم أعلى من ذلك كله، وهو التمتع بالنظر إلى وجهه الكريم، وسماع خطابه، والابتهاج برضاه وقربه، والسرور بمحبته، وذكره وحمده، والثناء عليه وشكره، مما يشاهدون من كثرة الخيرات، وسوابغ النعم والهبات، وزيادة النعيم وتواصله، ومما يزدادون من معرفته **والأنس به**، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام.

وأما الكافرون المجرمون: فيحاسبهم الله على ما أسلفوه من الجرائم، ويقرعهم ويخزيهم بين الخلائق، ويعطون كتبهم من وراء ظهورهم بشمائلهم، وتسود منهم الوجوه، وتخف موازينهم، ويساقون إلى جهنم جياعا عطاشا منزعجين مرعوبين زمرا، كل

---

(١) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٥٨/١٧

طائفة تحشر مع نظيرها من أهل الشر: ﴿حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها﴾ [الزمر: ٧١] في وجوههم، ففاجأهم حرها المفظع، وحل بهم." (١)

"﴿٢٧ - ٢٩﴾ ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب * الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ .

يخبر تعالى أن الذين كفروا بآيات الله يتعنتون على رسول الله، ويقترحون ويقولون: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا فأجابهم الله بقوله: ﴿قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ أي: طلب رضوانه، فليست الهداية والضلال بأيديهم حتى يجعلوا ذلك متوقفا على الآيات، ومع ذلك فهم كاذبون، ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾

ولا يلزم أن يأتي الرسول بالآية التي يعينونها ويقترحونها، بل إذا جاءهم بآية تبين ما جاء به من الحق، كفى ذلك وحصل المقصود، وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها، فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا فلم يؤمنوا بها لعاجلهم العذاب.

ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذاتها.

﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ أي: حقيق بها وحري أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء ألذ -[٤١٨]- للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها، **والأنس به** ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له، يكون ذكرها له، هذا على القول بأن ذكر الله، ذكر العبد لربه، من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك.

وقيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين، فعلى هذا معنى طمأنينة القلوب بذكر الله: أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها، فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين، وبذلك تطمئن القلوب، فإنها لا تطمئن القلوب إلا باليقين والعلم، وذلك في كتاب الله، مضمون على أتم الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه فلا تطمئن بها، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام.

﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ وهذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله وتدبره، وتدبر غيره من أنواع العلوم، فإنه يجد بينها وبينه فرقا عظيما. ثم قال تعالى:." (٢)

"[سورة الإنسان (٧٦) : آية ٢٧]

إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا (٢٧)

تعليل للنهي عن إطاعتهم في قوله: ولا تطع منهم آثما أو كفورا [الإنسان: ٢٤] ، أي لأن خلقهم الانصباب على الدنيا

---

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن عبد الرحمن السعدي ٤٣/١

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٤١٧

مع الإعراض عن الآخرة إذ هم لا يؤمنون بالبعث فلو أعطاهم لتخلق بخلقهم قال تعالى: ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء الآية [النساء: ٨٩] . فموقع إن موقع التعليل وهي بمنزلة فاء السببية كما نبه عليه الشيخ عبد القاهر.

وهؤلاء إشارة إلى حاضرين في ذهن المخاطب لكثرة الحديث عنهم، وقد استقريت من القرآن أنه إذا أطلق هؤلاء دون سبق ما يكون مشارا إليه فالمقصود به المشركون، وقد ذكرت ذلك في تفسير قوله تعالى: فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين في سورة الأنعام [٨٩] وقوله تعالى: فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء في سورة هود [١٠٩] .

وقد تنزه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن محبة الدنيا

فقال: «ما لي وللدنيا»

فليس له محبة لأمورها عدا النساء والطيب كما

قال: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب»

. فأما النساء فالميل إليهن مركوز في طبع الذكور، وما بالطبع لا يتخلف، وفي **الأنس بهن** انتعاش للروح فتناوله محمود إذا وقع على الوجه المبرأ من الإيقاع في فساد وما هو الأمثل تناول الطعام وشرب الماء قال تعالى: ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية [الرعد: ٣٨] .

وأما الطيب فلأنه مناسب للتزكية النفسية.

وصيغة المضارع في يحبون تدل على تكرر ذلك، أي أن ذلك دأبهم وديدنهم لا يشاركون مع حب العاجلة حب الآخرة.

والعاجلة: صفة لموصوف محذوف معلوم من المقام تقديره: الحياة العاجلة، أو الدار العاجلة. والمراد بها مدة الحياة الدنيا.

وكثر في القرآن إطلاق العاجلة على الدنيا كقوله: كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة [القيامة: ٢٠، ٢١] فشاع بين المسلمين تسمية الدنيا بالعاجلة.." (١)

"كلام الله بالإيناس لموسى قال له: ﴿وما تلك بيمينك ياموسى﴾ [طه: ١٧]

كان يكفي موسى أن يقول: عصا، وتنتهي إجابته عن السؤال، ولو قال موسى: عصا، لكان ذلك منه عدم استيعاب لتقدير إيناس الله له بالكلام، لكن سيدنا موسى عليه السلام انتهز سؤال الله له ليطيل **الأنس بالله** فيقول: ﴿قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى﴾ [طه: ١٨]

تأمل التطويل في إجابة موسى. إن كلمة ﴿هي﴾ زائدة، و ﴿أتوكأ عليها﴾ زائدة أي غير محتاج إليها في إفادة المعنى، و ﴿وأهش بها على غنمي﴾ تطويل أكثر «و ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ رغبة منه في إطالة الحديث أكثر.

إذن فكلام الله والنظر إليه سبحانه افضل النعم التي ينعم الله بها على المؤمنين يوم القيامة.

فإذا كان الله سيمنع عن الكافرين وسائل التكريم المادي فلا يكلمهم، فهذه مسألة صعبة. ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ وبعد أن يحرمهم من الكلام والاستئناس بحضرته؛ ولا يطهرهم من الخبائث التي ارتكبوها؛ ولا

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٤٠٧/٢٩

يجعلهم أهلا لقربه، بعد ذلك يعذبهم عذابا شديدا؛ كأن فيه عذابا سابقا؛ ثم يأتي العذاب الأشد، لأنهم لابد أن يلاقوا عذابا مضاعفا، لأنهم كتموا منهج الله عن خلق الله، فتسببوا في إضلال الخلق، فعليهم وزر ضلالهم وأوزار فوق أوزارهم لأنهم أضلوا سواهم.

ومسألة كلام الله للناس أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «." (١)

"كل ذلك آيات من الحق لإثبات صدق الرسول في البلاغ عنه، وهذا الإثبات مشروط بشروط: أولها أن يكون النبوغ قد بلغ درجة قصوى في هذا المجال الذي تحدث فيه تلك المعجزة، والمثال على ذلك: خرق الحق سبحانه لناموس العصا وهي فرع من شجرة وجعل موسى عليه السلام يلقيها فإذا هي حية تسعى. وما أجراه الله على عصا موسى لم يكن سحرا ولكنه نقلها من جنس إلى جنس في عصر نبغ فيه الناس في السحر، ونعلم أن موسى أنس إلى ربه فقال وأطنب وأسهب وأطال: ﴿هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾ [طه: ١٨] .

وعرف موسى من بعد مقام الأنس والانجذاب مقام الخشية فأوجز قائلا: ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ [طه: ١٨] .

لقد عرف موسى عليه السلام أنه يخاطب مولاه فأطال **الأنس به** وعرف أيضا مراعاة المقامات وانتقل من الانجذاب والأنس إلى مقام الرهبة فقال: (ولي فيها مآرب أخرى) .

وجاء الأمر بإلقاء العصا: ﴿ألقها ياموسى﴾ [طه: ١٩] .

وهنا خرجت العصا عن ناموسها الذي يعلمه موسى عليه السلام فلم تعد للتوكؤ والهش على الغنم، ولكنها تنتقل من جنس الخشب إلى جنس الحيوان فتصير حية: ﴿فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾ [طه: ٢٠] .

ولذلك كان لا بد أن تدهش المسألة موسى عليه السلام، لذلك أوجس خيفة.

ولكن موسى عندما عرف سر عصاه لم يوجس خيفة بل تحدى السحرة الذين جاء بهم فرعون في يوم الزينة، وعرف موسى أنه ليس بساحر مثلهم ولكن الله أتاه معجزة." (٢)

"يعوضه الله بأنه بدلا من أن يكون في معية النعمة، يكون في معية المنعم وهو الله سبحانه. ولذلك يقول في حديث قدسي:

«عبدي فلان مرض فلم تعدني. فيقول له: يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول له: أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده»

قولوا لي بالله: أيضيق أي مريض عندما يعرف أن الصحة كانت نعمة من الله وفارقته، ولكن المرض جعله مع المنعم، وهو الله سبحانه وتعالى؟ لا، بل إن ذلك يخفف عنه وطأة المرض، ويجعله يشعر أن **الأنس بالله** يخفف عنه الآلام. لكنك للأسف تجد الإنسان غير منطقي مع نفسه، فالعالم خلق من أجل الإنسان. والإنسان خلق ليعبد الله. ولكنك تجده لا يلتفت لما خلق من أجله، بل يلتفت للأشياء التي خلقت له. وقد كان من المنطقي أن ينشغل بما خلق من أجله.

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ٢/٧٢٤

(٢) تفسير الشعراوي الشعراوي ٦/٣٤٥٤

وإذا أخذنا مثلا منطق الإنسان مع الزمن، نجد أن الزمن إما أن يكون حاضرا أو ماضيا أو مستقبلا. فإذا أردنا أن نذهب إلى ما لا نهاية نقول: إن الزمن حاضر وأزلي وأبدي.

والأزلي: هو القديم بلا بداية. والأبد: هو المستقبل بلا نهاية. والحاضر: هو ما نعيش فيه.

والوجود الذي تراه أمامك خلقه الحق سبحانه واجب الوجود وبكلمة «كن» جاء كل «ممكن الوجود» ؛ لأن كل وجود يحتاج إلى موجد هو وجزد ممكن، وسيأتي له عدم. أما الوجود غير المحتاج إلى موجد فهو وجود." (١)

"أما عصا موسى عليه السلام فلم تكن تخييلا، بل وجدها السحرة حية حقيقية، ولقفت بالفعل ما صنعوا؛ ولذلك خروا ساجدين، وأعلنوا الإيمان برب موسى وهارون.

هم إذن لم يعلنوا الإيمان بموسى وهارون، بل أعلنوا الإيمان:

﴿برب هارون وموسى﴾ [طه: ٧٠] .

لأنهم عرفوا بالتجربة أن ما ألقاه موسى ليس سحرا، بل هو من فعل خالق أعلى.

وكان ثبات موسى عليه السلام في تلك اللحظة نابعا من التدريب الذي تلقاه من ربه، فقد سأله الحق سبحانه:

﴿وما تلك بيمينك ياموسى قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾ [طه: ١٧١٨] .

وقد أجمل موسى وفصل في الرد على الحق سبحانه؛ إيناسا وإطالة للأنس بالله تعالى، وحين رأى أنه أطال الإيناس أوجز وقال بأدب:

﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ [طه: ١٨] .

إذن: فقد أدركته أولا شهوة **الأنس بالله** تعالى، وأدرك ثانيا أدب التخاطب مع الله تعالى، ودربه الحق سبحانه على مسألة العصا حين أمره." (٢)

"وهكذا يمكن أن تذهب عنك أي ضيق، أن تسبح الله. وإذا ما جافاك البشر أو ضايقك الخلق؛ فاعلم أنك قادر على **الأنس بالله** عن طريق التسبيح؛ ولن تجد أرحم منه سبحانه، وأنت حين تسبح ربك فأنت تنزهه عن كل شيء وتحمده، لتعيش في كنف رحمته.

ولذلك نجده سبحانه يقول في موقع آخر: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤] .

ولذلك إذا ضاق صدرك في الأسباب فاذهب إلى المسبب.." (٣)

"وهكذا أطال موسى مدة **الأنس بالله** والحديث معه سبحانه، لذلك سأله: يا رب، أيوجد في الأرض أعلم مني؟ فأجابه ربه تبارك وتعالى: نعم في الأرض من هو أعلم منك، فاذهب إلى مجمع البحرين، وهناك ستجد عبدا من عبيدي هو

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ٥١٩٧/٩

(٢) تفسير الشعراوي الشعراوي ٦١٣٤/١٠

(٣) تفسير الشعراوي الشعراوي ٧٧٨٦/١٣

أعلم منك، فأخذ موسى فتاه وذهب إلى مجمع البحرين.

وقد ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن موسى عليه السلام خطب مرة فسئل: من أعلم؟ فقال: أنا يعني من البشر، فأخبره الله تعالى: لا بل في الأرض من هو أعلم منك من البشر حتى لا يغتر موسى عليه السلام بما أعلمه الله.

ثم يقول تعالى: ﴿لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ [الكهف: ٦٠]

لا أبرح: أي لا أترك، والبعض يظن أن لا أبرح تعني: لا أترك مكاني الذي أنا فيه، لكنها تعني: لا أترك ما أنا بصدده، فإن كنت قاعدا لا أترك القعود، وإن كنت ماشيا لا أترك المشي، وقد قال موسى عليه السلام هذا القول وهو يبتغي بين البحرين، ويسير متجها إليه، فيكون المعنى: لا أترك السير إلى هذا المكان حتى أبلغ مجمع البحرين.

وقد وردت مادة (برح) في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي. .﴾ [يوسف: ٨٠] قالها كبيرهم بعد أن أخذ يوسف أخاه بنيامين ومنعه من الذهاب معهم، فهنا استحى الأخ الأكبر من مواجهة أبيه الذي أخذ عليهم العهد والميثاق أن يأتوا به ويعيدوه إليه.." (١)

"إلقاء العصا له في القرآن ثلاث مراحل: الأولى: هي التي واكبت اختيار الله لموسى ليكون رسولا، حين قال له: ﴿وما تلك بيمينك ياموسى﴾ [طه: ١٧] وقلنا: إن موسى عليه السلام أطال في إجابة هذا السؤال لحرصه على إطالة مدة **الأنس بالله** عز وجل فقال: ﴿هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى﴾ اطه: ١٨] .." (٢)

"عليه السلام أراد أن يطيل أمد **الأنس بالله** والبقاء في حضرته تعالى، ولما أحس موسى أنه أطال في هذا المقام أجمل، فقال: ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ [طه: ١٨] فللعصا مهام أخرى كثيرة في حياته.

وهنا يقول سبحانه: ﴿وألق عصاك﴾ [النمل: ١٠] يعني: إن كانت العصا بالنسبة لك بهذه البساطة، وهذه مهمتها عندك فلها عندي مهمة أخرى، فانظر إلى مهمتها عندي، وإلى ما لا تعرفه عنها.

﴿وألق عصاك﴾ [النمل: ١٠] فلما ألقى موسى عصاه وجدها ﴿تهتز كأنها جآن﴾ [النمل: ١٠] يعني: حية تسعى وتتحرك، والعجيب أنها لم تتحول إلى شيء من جنسها، فالعصا عود من خشب، كان فرعا في شجرة، فجنسه النبات ولما قطعت وجفت صارت جمادا، فلو عادت إلى النباتية يعني: إلى الجنس القريب منها واخضرت لكانت عجيبة.

أما الحق تبارك وتعالى فقد نقلها إلى جنس آخر إلى الحيوانية، وهذه قفزة كبيرة تدعو إلى الدهشة بل والخوف، خاصة وهي ﴿تهتز كأنها جآن﴾ [النمل: ١٠] أي: تتحرك حركة سريعة هنا وهناك.

وطبيعي في نفسية موسى حين يرى العصا التي في يده على هذه الصورة أن يخاف ويضطرب ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ [طه: ٦٧٦٨] .

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ٨٩٤٩/١٤

(٢) تفسير الشعراوي الشعراوي ١٠٥٦٠/١٧

ومعنى: ﴿الأعلى﴾ [طه: ٦٨] إشارة إلى أنه تعالى يعده لمهمة كبرى، وأن لهذه العصا دورا من الخصوم، وسوف ينتصر عليهم، ويكون هو الأعلى.." (١)

"أن يبيعه العصفور، فلما اشتراه عمر وصار في حوزته أطلقه، فقال الغلام: فو الله ما قصرت بعدها حيوانا على **الأنس به**.

وسبق أن تكلمنا عن مسألة التسخير، وكيف أن الله سخر الجمل الضخم بحيث يسوقه الصبي الصغير ولم يسخر لك مثلا البرغوث فلو لم يذلل الله لك هذه المخلوقات ويجعلها في خدمتك ما استطعت أنت تسخيرها بقوتك.

وقوله تعالى: ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة. .﴾ [لقمان: ٢٠] أسبغ: أتم وأكمل، ومنها قوله تعالى عن سيدنا داود: ﴿أن اعمل سابغات ... ﴾ [سبأ: ١١] أي: دروعا ساترة محكمة تقي لابسها من ضربات السيوف وطعنات الرماح، والدروع تجعل على الأعضاء الهامة من الجسم كالقلب والرئتين، وقد علم الله تعالى داود أن يصنع الدروع على هيئة الضلوع، ليست ملساء، إنما فيها نتوءات تتحطم عليها قوة الضربة، ولا تتزحلق فتصيب مكانا آخر.

وروي أن لقمان رأى دواد - عليه السلام - يعجن الحديد بين يديه فتعجب، لكنه لم يبادر بالسؤال عما يرى وأمهله إلى أن انتهى من صنعته للدرع، فأخذه ولبسه وقال: نعم لبوس الحرب أنت، فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله فظلت حكمة تتردد إلى آخر الزمان.

فمعنى أسبغ علينا النعمة: أتمها إتماما يستوعب كل حركة." (٢)

"عن ابن عباس وغيره، فإن مصاحف الإسلام كلها قد ثبت فيها ﴿حتى تستأنسوا﴾ وصح الإجماع فيها من لدن مدة عثمان، فهي التي لا يجوز خلافها، وإطلاق الخطأ والوهم على الكتاب في لفظ أجمع الصحابة عليه قول لا يصح عن ابن عباس، وقد قال -عز وجل-: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [(٤٢) سورة فصلت] وقال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [(٩) سورة الحجر] وقد روي عن ابن عباس أن في الكلام تقديما وتأخيرا، والمعنى: حتى تسلموا على أهلها، وتستأنسوا، حكاه أبو حاتم، قال ابن عطية: ومما ينفي هذا القول عن ابن عباس وغيره أن ﴿تستأنسوا﴾ متمكنة في المعنى، بينة الوجه في كلام العرب، وقد قال عمر للنبي -صلى الله عليه وسلم-: استأنس يا رسول الله، وعمر واقف على باب الغرفة، الحديث المشهور، وذلك يقتضي أنه طلب **الأنس به** -صلى الله عليه وسلم- فكيف يخطئ ابن عباس أصحاب الرسول في مثل هذا.

قلت: قد ذكرنا من حديث أبي أيوب أن الاستئناس إنما يكون قبل السلام، وتكون الآية على بابها، لا تقديم فيها ولا تأخير، وأنه إذا دخل سلم، والله أعلم.

الخامسة: السنة في الاستئذان ثلاث مرات لا يزاد عليها ..

فيقول: السلام عليكم، فإن أجيب وإلا كرر، السلام عليكم، السلام عليكم، ثلاث مرات، ومنهم من يقول: أن السلام

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ١٧/١٠٧٤٥

(٢) تفسير الشعراوي الشعراوي ١٩/١١٦٨١

ثلاثا، معناه أن يسلم عند الباب، يعني يقول: السلام عليكم أأدخل؟ ثم إذا دخل المحل سلم عليهم، ثم إذا أراد الانصراف سلم، فهذه ثلاث مرات، لكن هذه غير الظاهر من لفظ الخبر، لأن التكرار ثلاثا قد لا يسمع صاحب البيت السلام من أول مرة، قد لا يسمعه في المرة الثانية، فيحتاج إلى ثالثة، فإذا سلم ثالثة ولم يؤذن له ينصرف، على ما في حديث أبي موسى وسيأتي.

طالب: .... ما يجمع بين الاستئناس والسلام والاستئذان.." (١)

(٢)

"وفي الجملة ينبغي أن يتفقد كل حال وكل أمر للنفس فيه فرح واستبشار، من نعمة أو وجود لذة أو أنس بشيء، فيقطعه عنها، وأنه كلما هويت النفس شيئاً أعطاها فرحت به، فينبغي له أن يمنعها ولو شربة من ماء بارد تريد أن تشربها، فيمنعها في تلك الفورة التي تشوفت لوجود بردها ولذتها، حتى تسكن تلك الفورة، وينغص عليها، ثم يسقيها بعد ذلك حتى يملأها غماً، ويوقرها هماً، لأن من شأنها إذا حبس عنها هذه الأفراح بهذه الأشياء وبهذه الأحوال، فكأنه يصيرها في سجن، فيقترب إلى الله عز وجل بغمها وهمها، فيجعل الله عز وجل له ثوابه نوراً على القلب، فيزداد القلب بذلك النور قوة على منع النفس شهواتها، وعلى أخذ سلطانها، ويستولي عليها وهي تذل وتذبل، والعدو يخسأ ويتحير، ويبطل كيده ومكره؛ حتى إذا انتهى إلى أعمال البر، فكل عمل يراها تفرح به أو تأنس به، يقطع عنها ذلك العمل، حتى إنه لو قرأ القرآن فرجع فيه وغنى، منعها ذلك، لأنها متى وجدت شيئاً مفروحاً به، أنست واطمأنت إليه، ومدت القلب إلى ذلك الأنس، فمتى يصل القلب إلى **الأنس بالله** عز وجل، والطمأنينة إليه، والوله إلى عظمته. وصفاء الحب له، فهذا صدق المريدين ربهم عز وجل، والسائرين إليه، والطالبين له في منازل القربة.

فينبغي أن ينفي كل فرح للنفس فيه نصيب، حتى يصل إلى ربه تعالى، فإذا وصل إلى ربه عز وجل امتلأ قلبه به فرحاً وسروراً ويقيناً، فكل شيء مد إليه يدا من

دنيا أو آخره لم يضره، لأنه منه يقبل، فإذا قبل منه حمده عليه وشكره، وكانت جوارحه مستقيمة، حافظة للحدود، معتصمة بخوف الله عز وجل، ولسانه ذاكر، وبدنه شاكر صابر، لأنه امتلأ قلبه بالله تعالى فرحاً، فلم تجد أفراح الدنيا فيه مكاناً،." (٣)

---

(١) التعليق على تفسير القرطبي - عبد الكريم الخضير عبد الكريم الخضير ١١/٧

(٢) التعليق على تفسير القرطبي - عبد الكريم الخضير عبد الكريم الخضير ١١/٧

(٣) رياضة النفس، الترمذي، الحكيم ص/٥٤

"٢٧٧٢ - أحمد بن محمد بن مسروق أبو العباس الصوفي يعرف بالطوسي حدث عن خلف بن هشام البزار، ومحمد بن إسحاق المسيبي، وعلي ابن المديني، ومحمد بن حسان السمتي، وعلي بن الجعد، وداود بن رشيد، وهناد بن السري، ومحمد بن حميد الرازي، والحارث المحاسبي، وأحمد بن إبراهيم الدورقي، ومحمد بن الحسين البرجلاني، والزبير بن بكار.
روى عنه محمد بن مخلد، وأبو عمرو ابن السماك، وجعفر الخلدي، وأبو بكر الشافعي، وحبيب بن الحسن القزاز، ومخلد بن جعفر الدقاق، والحسين بن محمد بن عبيد العسكري، وغيرهم.
وكان معروفا بالخير مذكورا بالصلاح.
أخبرنا أبو الحسين أحمد بن الحسين بن أحمد الواعظ، قال: سمعت جعفر بن محمد بن نصير الخلدي، يقول: سمعت أحمد بن محمد بن مسروق، يقول: الحب قيد المحبين إذا صح، وزمام المحبوبين إلى المحبين تعطف من الحق على المحبوب بصدقه.
حدثنا عبد العزيز بن علي الوراق لفظا، قال: حدثني علي بن عبد الله بن الحسن الهمذاني بمكة، قال: حدثنا الخلدي، قال: حدثني أحمد بن مسروق، قال: دخلت إلى الري فقصدت أبا موسى الدولابي، وكان في ذلك الوقت من أشرف من يذكر، فلقيته فسلمت عليه وأقمت عنده في منزله ثلاثة أيام، وكان له تلامذة يتكلم عليهم، فأردت الخروج فوقفت عليه لأودعه، فابتدأني، وقال: يا غلام، الضيافة ثلاثة أيام، وما كان فوق ذلك فهو صدقة منك علي.
أخبرنا أحمد بن علي بن الحسن المحتسب، قال: حدثنا الحسن بن الحسين الفقيه الهمذاني، قال: سمعت جعفر الخلدي، يقول: سمعت أبا العباس بن مسروق، يقول: أردت السفر فودعت والدتي وخرجت ومضى لي أيام، فلما كان في يوم من الأيام وقفت وقفة، فلم يكن لي قدم إلى قدام، ولم أدر ما العلة! فرجعت، فجئت باب الدار، ففتحت الجارية الباب، فرأيت والدتي في بيت الدهليز وقد لبست سوادا فهالني ذاك منها، فقلت لها: يا أمي أيش الخبر؟ فقالت: يا بني اعتقدت من وقت خرجت أن ألزم هذا البيت، وأصوم، ولا أدخل الدار، حتى تجيء فعلمت أن رجوعي وتلك الوقفة كان لأجلها.
أخبرنا أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري، قال: سمعت محمد بن الحسين السلمي، يقول: سمعت أبا بكر الرازي، يقول: سمعت الجريري، يقول: دعانا أبو العباس بن مسروق ليلة إلى بيته، فاستقبلنا صديق لنا، فقلنا: ارجع معنا فنحن في ضيافة الشيخ، فقال: أنه لم يدعني فقلت: نحن نستثني كما استثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة، فرددناه فلما بلغ باب الشيخ أخبرناه بما قال وقلنا له، فقال: جعلت موضعي من قلبك أن تجيء إلى منزلي من غير دعوة على كذا وكذا إن مشيت إلى الموضع الذي تقعد فيه إلا على خدي! وألح ووضع خده على الأرض وحمل الرجل ووضع قدمه على خده من غير أن يوجعه وسحب الشيخ وجهه على الأرض إلى أن بلغ موضع جلوسه.
حدثنا عبد العزيز بن علي الوراق، قال: حدثنا علي بن عبد الله الهمذاني، قال: حدثنا محمد بن جعفر، عن أحمد بن مسروق، قال: رأيت كأن القيامة قد قامت، والخلق مجتمعون إذ نادى مناد: الصلاة جامعة، فاصطف الناس صفوفا، وأتاني ملك عرض وجهه قدر ميل في طول مثل ذلك، فقال: تقدم فصل بالناس، فتأملت وجهه فإذا بين عينيه مكتوب: جبريل أمين الله، قلت: فأين النبي صلى الله عليه وسلم فقال: هو مشغول بنصب الموائد لإخوانه الصوفية! فقلت: وأنا من الصوفية؟ قيل: نعم، ولكن شغلك كثرة الحديث، فكدت أبكي، فإذا بجنيد يشير إلي أن لا تخاف، لا نأكل حتى تجيء، فانتبهت فياليتني صليت أو أكلت! أخبرنا محمد بن علي بن يعقوب المعدل، قال: حدثنا عمر بن أحمد بن عثمان الواعظ، قال:

حدثنا جعفر بن محمد بن نصير، قال: حدثني أبو العباس بن مسروق، قال: أصبحت عن مجلس الزعفراني فجئت، وهو يحدث، وليس معي محبرة فطلبت من أجلس إليه فأكتب من محبرته، فرأيت شيخا وشابا جالسين في باب، فجلست إليهما وبينهما محبرة، فاستأذنت الشيخ، فقلت أكتب: من المحبرة فقال الشيخ للشاب: يا حبيب يكتب من المحبرة؟ فقال الشاب: يا محب الأمر لك، فقال لي: أكتب، فعجبت من كلامهما، فطأطأت رأسي، فرأيت على المحبرة مكتوبا خرطا:

تمكن في الفؤاد فما يبالي أطال الهجر أم منح الوادا

قال فصحت وأغمي علي، فما أفقت حتى انقضى المجلس أخبرنا عبد الكريم بن هوازن، قال: سمعت أبا عبد الرحمن السلمي، يقول: سمعت محمد بن الحسن البغدادي، يقول: سمعت جعفر بن محمد بن نصير، يقول: سمعت أبا العباس بن مسروق، يقول: قدم علينا شيخ، فكان يتكلم علينا في هذا الشأن بكلام حسن، وكان عذب اللسان، جيد الخاطر، فقال لنا في بعض كلامه: كل ما وقع لكم في خاطركم فقولوه لي! فوقع في قلبي أنه يهودي، وكان الخاطر يقوي ولا يزول، فذكرت ذلك للجريري، فكبر عليه ذلك، فقلت: لا بد من أن أخبر الرجل بذلك، فقلت له: تقول لنا ما وقع لكم في خاطركم فقولوه لي، أنه يقع لي أنك يهودي! فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه، وقال: صدقت، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، وقال: قد مارست جميع المذاهب، وكنت أقول إن كان مع قوم منهم شيء فمع هؤلاء، فداخلتكم لاعتبركم، وأنتم على الحق، وحسن إسلامه.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الحيري، قال: حدثنا محمد بن الحسين بن موسى السلمي، قال: وأخبرنا أبو نعيم الحافظ، قال: سمعت محمد بن الحسين، يقول: سمعت عبد الله بن عطاء أبا سعيد، يقول: في رؤيا طويلة للجنيد، قال فيها: فرأيت قوما من الأبدال في المنام، فقلت: ببغداد أحد من الأولياء؟ قالوا: نعم أبو العباس بن مسروق فقلت متعجبا: أبو العباس بن مسروق؟ فقالوا: نعم أبو العباس بن مسروق من أهل **الأنس بالله** عز وجل واللفظ للحيري.

حدثني علي بن محمد بن نصر، قال: سمعت حمزة بن يوسف، يقول: سمعت الدارقطني، يقول: أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق ليس بالقوي يأتي بالمعضلات.

أخبرنا عبد العزيز بن علي الوراق، قال: سمعت الحسين بن محمد بن عبيد الدقاق، يقول: توفي أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق في يوم الأحد لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين ومائتين، وسنة أربع وثمانون سنة على ما ذكر، ودفن في مقابر باب حرب.

ورأيت في كتاب ابن المنادي: سنة ثمان وتسعين ومائتين، أخبرنا محمد بن عبد الواحد، قال: حدثنا محمد بن العباس، قال: قرئ على ابن المنادي وأنا أسمع، وأخبرنا السمسار، قال: أخبرنا الصفار، قال: حدثنا ابن قانع، قالا جميعا: إن أبا العباس بن مسروق مات في سنة ثمان وتسعين ومائتين، زاد ابن المنادي: في صفر.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد الحيري، قال: أخبرنا محمد بن الحسين السلمي، قال: سمعت محمد بن عبد الله الحافظ، يقول:

سمعت أبا بكر أحمد بن محمد بن سهل الصوفي بمكة، يقول: رأيت أبا العباس بن مسروق في المنام، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، فقلت: ما فعل الجنيد؟ فقال في القدس.." (١)

"٤١٦ - محمد بن علي بن الحسن بن مقلة، أبو علي الوزير، [المتوفى: ٣٢٨ هـ]

صاحب الخط المنسوب.

ولي بعض أعمال فارس، وتنقلت به الأحوال حتى وزر للمقتدر سنة ست عشرة، ثم قبض عليه بعد عامين وصادره وعاقبه ونفاه إلى فارس.

قال ابن النجار: فأول تصرف كان له وسنه إذ ذاك ست عشرة سنة، وذلك في سنة ثمان وثمانين ومائتين. وقرر له كل شهر محمد بن داود بن الجراح ستة دنانير، ولما استعفى علي بن عيسى من الوزارة أشار على المقتدر بأبي علي، فوزر له، ثم نفي وسجن بشيراز.

وقد حدث عن: أبي العباس ثعلب، وعن: ابن دريد.

روى عنه: ولده أحمد، وعمر بن محمد بن سيف، وأبو الفضل محمد بن الحسن ابن -[٥٥٩]- المأمون، وعبد الله بن علي بن عيسى بن الجراح، ومحمد بن أحمد بن ثابت.

قال الصولي: ما رأيت وزيرا منذ توفي القاسم بن عبيد الله أحسن حركة، ولا أظرف إشارة، ولا أملح خطا، ولا أكثر حفظا، ولا أسلط قلما، ولا أقصد بلاغة، ولا آخذ بقلوب الخلفاء من محمد بن علي. وله بعد هذا كله علم بالإعراب وحفظ للغة.

قلت: روى ابن مقلة عن ثعلب:

إذا ما تعيب الناس عابوا فأكثروا ... عليك وأبدوا منك ما كنت تستر

فلا تعبن خلقا بما فيك مثله ... وكيف يعيب العور من هو أعور

وقال أبو الفضل ابن المأمون: أنشدنا أبو علي بن مقلة لنفسه:

إذا أتى الموت لميقاته ... فخل عن قول الأطباء

وإن مضى من أنت صب به ... فالصبر من فعل الألباء

ما مر شيء ببني آدم ... أمر من فقد الأحباء

وقال محمد بن إسماعيل الكاتب المعروف بزنجي قال: لما نكب أبو الحسن بن الفرات أبا علي بن مقلة لم أدخل إليه إلى حبسه ولا كاتبته خوفا من ابن الفرات، فلما طال أمره كتب إلي:

ترى حرمت كتب الأخلاء بينهم ... ابن لي، أم القرطاس أصبح غاليا؟

فما كان لو ساءلتنا كيف حالنا ... وقد دهمتنا نكبة هي ما هيا

صديقك من راعاك عند شديدة ... وكل تراه في الرخاء مراعيا

فهبك عدوي لا صديقي، فربما ... تكاد الأعادي يرحمون الأعاديا

---

(١) تاريخ بغداد ت بشار، الخطيب البغدادي ٢٧٩/٦

وأنفذ في طي الورقة ورقة إلى الوزير، فكانت: أمسكت أطال الله بقاء الوزير، عن الشكوى حتى تناهت البلوى في النفس والمال، والجسم والحال، إلى ما فيه شفاء للمنتقم، وتقويم للمجترم، وحتى أفضيت إلى الحيرة والتبلد، وعيالي إلى الهتكة والتلدد. ولا أقول إن حالا أتاها الوزير، أيده الله، في أمري، إلا بحق واجب، وظن غير كاذب، وعلى كل -[٥٦٠]- حال، فلي ذمام وحرمة، وصحبة وخدمة. إن كانت الإساءة أضاعتها، فرعاية الوزير، أيده الله، تحفظها، ولا مفزع إلا إلى الله ولطفه، ثم كنف الوزير وعطفه. فإن رأى أطال الله بقاءه، أن يلحظ عبده بعين رأفته، وينعم بإحياء مهجته، وتخليصها من العذاب الشديد، والجهد الجهيد ويجعل له من معروفه نصيبا، ومن البلوى فرجا قريبا، فعل إن شاء الله.

ومن شعره:

لست ذا ذلة إذا عضني الدهـ ... ـر ولا شامخا إذا واتاني

أنا نار في مرتقى نفس الحا ... سد ماء جار مع الأخوان

وروى الحسين بن الحسن الواثقي، وكان يخدم في دار ابن مقلة مع حاجبه، أن فاكهة ابن مقلة لما ولي الوزارة الأولة كانت تشترى له في كل يوم جمعة بخمسمائة دينار. وكان لا بد له أن يشرب بعد الصلاة من يوم الجمعة، ويصطبح يوم السبت.

وحكى أنه رأى الشبكة التي كان أفرخ فيها ابن مقلة الطيور الغريبة، قال: فعمد إلى مربع عظيم، فيه بستان عظيم عدة جربان شجر بلا نخل، فقطع منه قطعة من زاوية كالشابورة، فكان مقدار ذلك جريبين بشباك إبريسم، وعمل في الحائط بيوتا تأوي إليها الطيور وتفرخ فيها، ثم أطلق فيها القماري، والدباسي، والتغابطة، والنوبيات، والشحرور، والزرياب، والهزار، والببغ، والفواخت، والطيور التي من أقاصي البلاد من المصوتة، ومن المليحة الريش مما لا يكسر بعضه بعضا. فتوالدت ووقع بعضها على بعض. فتولدت بينها أجناس. ثم عمد إلى باقي الصحن فطرح فيه الطيور التي لا تطير، كالطواويس، والحجل، والبط، وعمل منطقة أقفاص فيها فاخر الطيور. وجعل من خلف البستان الغزلان، والنعام، والأيل، وحمر الوحش. ولكل صحن أبواب تنفتح إلى الصحن الآخر، فيرى من مجلسه سائر ذلك.

وقال محمد بن عبد الملك الهمذاني في تاريخه: إن أبا علي بن مقلة حين شرع في بناء داره، التي من جملتها البستان المعروف بالزاهر، على دجلة، جمع ستين منجما حتى اختاروا له وقتا لبنائه. فكتب إليه شاعر: -[٥٦١]-

قل لابن مقلة مهلا لا تكن عجلا ... واصبر فإنك في أضغاث أحلام

تبني بأنقاض دور الناس مجتهدا ... دارا ستهدم أيضا بعد أيام

ما زلت تختار سعد المشتري لها ... فلم توق به من نحس بهرام

إن القرآن وبطليموس ما اجتمعا ... في حال نقض ولا في حال إبرام

قال: فأحرقت هذه الدار بعد ستة أشهر، فلم يبق فيها جدار.

وعن الحسن بن علي بن مقلة قال: كان أمر أخي قد استقام مع الراضي وابن رائق، وأمرا برد ضياعه. وكان الكوفي يكتب لابن رائق، وكان خادم أبي علي قديما. وكان ابن مقاتل مستوليا على أمر ابن رائق، وأبو علي يراه بصورته الأولى، وكانا يكرهان أن ترد ضياع أبي علي ويدافعان. وكان الكوفي يريد من أبي علي أن يخضع له، وأبو علي يتحامق. فكنا نشير إليه بالمداراة وهو يقول: والله لا فعلت، ومن هذا الكلب أوضعني الزمان هكذا بمرة؟!.

فاتفق أنهما أتياه يوما، فما قام لهما ولا احترمهما، وشرع يخاطبهما بإذلال زائد. ثم أخذ يتهدد ويتوعد كأنه في وزارته. فكان ذلك سببا في قطع يده وسجنه.

وقال محمد بن جني صاحب أبي علي قال: كنت معه في الليلة التي عزم فيها على الاجتماع بالراضي بالله وعنده أنه يريد أن يستوزره. قال: فلبس ثيابه وجاؤوه بعمامة، وقد كانوا اختاروا له طالعا ليمضي فيه إلى الدار، فلما تعمم استطولها خوفا من فوات وقت اختيار المنجمين له فقطعها بيده وغرزها، فتطيرت من ذلك عليه.

ثم انحدرنا إلى ذكي الحاجب ليلا، فصعدت إليه، واستأذنت له، فقال: قل له: أنت تعلم أني صنيعتك، وأنك استحجبتني لمولاي، ومن حقوقك أن أنصحك. قل له: انصرف ولا تدخل. فعدت فأخبرته، فاضطرب، وقال لابن غيث النصراني، وكان معه في السميرية: ما ترى؟ فقال له: يا سيدي ذكي عاقل، وهو لك صنيعة، وما قال هذا إلا وقد أحس بشيء، فارجع. فسكت ثم قال: هذا محال، وهذه عصبية منه لابن رائق. وهذه رقاع الخليفة عندي بخطه، يحلف لي فيها بالأيمان الغليظة، كيف -[٥٦٢]- يخفرني؟ ارجع وقل له يستأذن. فرجعت فأعلمته، فحرك رأسه، وقال: ويحك يتهمني؟ قل له: والله لا استأذنت لك أبدا، ولا كان هذا الأمر بمعاونتي عليك. فجئت فحدثته، فقام في نفسه أن هذا عصبية من ذكي لابن رائق، وقال: لو عدلنا إلى باب المطبخ. فعدلنا إليه وقال: اصعد واستدع لي فلانا الخادم. فأتيته، فعدا مسرعا يستأذن له، فجئته فأخبرته، فقال: ارجع وقف في موضعك لئلا يخرج فلا يجدك. فرجعت فخرج إلي وجاء معي إلى السميرية، وسلم عليه، ولم يقبل يده وقال: قم يا سيدي. فأنكر ذلك ابن مقلة وقال لي سرا: ويحك ما هذا؟ قلت: ما قال لك ذكي. قال: فما نعمل؟ قلت: فات الرأي. فأخذ يكرر الدعاء والاستخارة، وقال: إن طلعت الشمس ولم تروا لي خبرا فانجوا بأنفسكم. قال: ومضى، وغلق الخادم الباب غلقا استربت منه. ووقفنا إلى أن كادت الشمس أن تطلع، فقلنا: في أي شيء وقوفنا، والله لا خرج الرجل أبدا. فانصرفنا وكان آخر العهد به. فلما بلغنا منازلنا حتى قيل: قد قبض على ابن مقلة، وقطعت يده من يومه بحضرة الملأ من الناس.

وقال إبراهيم بن الحسن الديناري: سمعت الحسين ابن الوزير ابن مقلة يحدث أن الراضي بالله قطع لسان أبيه قبل موته وقتله بالجوع. قال: وكان سبب ذلك أن الراضي تندم على قطع يده، واستدعاه من حبسه واعتذر إليه. وكان بعد ذلك يشاوره في الأمر بعد الأمر، ويعمل برأيه ويخلو به، ورفهه في محبسه، ونادمه سرا على النبيذ، وأنس به ونبل في نفسه، وزاد ندمه على قطع يده. فبلغ ذلك ابن رائق، فقامت قيامته، فدس على الخليفة من أشار عليه بأن لا يدنيه، وقال له: إن الخلفاء كانت إذا غضبت لم ترض، وهذا قد أوحشته فلا تأمنه على نفسك. فقال: هذا محال، فهو قد بطل عن أن يصلح لشيء، وإنما تريدون أن تحرموني **الأنس به**. فقيل له: ليس الأمر كما يقع لك، وهو لو طمع في أنك تستوزره لكلمك، فإن شئت فاطمعه في الأمر حتى ترى، وقد كان أبي يتعاطى أن يكتب باليسرى، فجاء خطه أحسن من كل خط، لا يكاد أن يفرق من خطه باليمين، وجاءتني رقاعه مرات من الحبس باليسرى، فما أنكرته. -[٥٦٣]-

قال: وتوصل ابن رائق إلى قوم من الخدم بأن يقولوا لابن مقلة: إن الخليفة قد صح رأيه على استيزارك، وسيخاطبك على هذا، وبشرناك بهذا لنستحق البشارة عليك. فلم يشك في الأمر وقالوا هم للراضي: جربه وخاطبه بالوزارة لترى ما يجيبك

به. فخاطبه بذلك، فأراه أبي نفورا شديدا من هذا وقصورا عنه. فأخذ الراضي يحلف له على صحة ما في نفسه من تقليده ولو علم أن فيه بقية لذلك وقياما به. فقال: يا أمير المؤمنين إذا كان الأمر هكذا فلا يغمك الله بأمر يدي، فإن مثلي لا يراد منه إلا لسانه ورأيه وهما باقيان. وأما الكتابة فلو كنت باطلا منها لما ضرني ذلك، وكان كاتب ينوب عني. ولست أخلو من القدرة على تعليم العلامات باليسرى. ولو أنها ذهبت اليسرى أيضا حتى أحتاج أن أشد قلما على اليمنى لكنت أحسن خطا. فلما سمع ذلك تعجب واستدعى دواة فكتب باليسرى خطا لا يشك أنه خطه القديم، ثم شد على يمينه القلم. فكتب به في غاية الحسن. فقامت قيامة الراضي واشتد خوفه منه. فلما قام إلى محبسه أمر أن تنزع ثيابه عنه: وأن يقطع لسانه ويلبس جبة صوف، ولا يترك معه في الحبس إلا دورق يشرب منه، ووكل به خادما صبيا أعجميا، فكان لا يفهم عنه ولا يخدمه. ثم فرق بينه وبين الخادم، وبقي وحده. فكان الخدم يقولون لي بعد ذلك: إنهم كانوا يرونه من شقوق الباب يستقي بفيه ويده الصحيحة من البئر للوضوء والشرب. ثم أمر الراضي أن يقطع عنه الخبز، فقطع عنه أياما ومات. وكان مولده في سنة اثنتين وسبعين ومائتين.

وقال غيره: استوزره القاهر بالله ثم نكبوه. ثم وزر للراضي بالله قليلا، ثم مسك سنة أربع وعشرين وضرب وعلق وصودر، وأخذ خطه بألف ألف دينار، ثم تخلص.

ثم إن أبا بكر محمد بن رائق لما استولى على الأمور وعظم عند الراضي احتاط على ضياع ابن مقلة وأملاكه. فأخذ في السعي بابن رائق وألب عليه، وكتب إلى الراضي يشير عليه بإمساكه، وضمن له إن فعل ذلك وقلده الوزارة استخرج له ثلاثة آلاف ألف دينار. وسعى بالرسالة علي بن -[٥٦٤]- هارون المنجم، فأطمعه الراضي بالإجابة. فلما حضر حبسه، وعرف ابن رائق بما جرى، وذلك في سنة ست وعشرين. فطلب ابن رائق من الراضي قطع يد ابن مقلة. فقطعت وحبس. ثم ندم الراضي وداواه حتى برئ. فكان ذلك لعل بدعاء ابن شنبوذ المقرئ عليه بقطع اليد. فكان ينوح ويبكي على يده ويقول: كتبت بها القرآن وخدمت بها الخلفاء.

ثم أخذ يراسل الراضي ويطمعه في الأموال. وكان يشد القلم على زنده ويكتب. فلما قرب بجكم التركي، أحد خواص ابن رائق، من بغداد، أمر ابن رائق بقطع لسان ابن مقلة فقطع. ولحقه ذرب، وقاسى الذل، ومات في السجن وله ستون سنة.

ومن شعره قوله:

ما سئمت الحياة لكن توثقت ... بأيمانهم فبانت يميني

بعت ديني لهم بدنياي حتى ... حرموني دنياهم بعد ديني

ولقد حطت ما استطعت بجهدي ... حفظ أرواحهم فما حفظوني

ليس بعد اليمين لذة عيش ... يا حياتي! بانت يميني فبيني." (١)

"٣٠٦ - أحمد بن الحسن بن عنان، أبو العباس الكنكشي الزاهد. [المتوفى: ٤٤٩ هـ]

كان من كبار مشايخ الطريق بالدينور. له معارف وتصانيف، وعاش تسعين سنة، ولقي الكبار وحكى عنهم.

---

(١) تاريخ الإسلام ت بشار، الذهبي، شمس الدين ٥٥٨/٧

روى عنه ابنه سعيد، أحد شيوخ السلفي، جزءا فيه حكايات، وقد صحب أبا العباس أحمد الأسود مريد الشيخ عيسى القصار، وعيسى من كبار تلامذة ممشاذ الدينوري، وذكر أن شيخه أبا العباس الأسود عاش مائة سنة.

قال السلفي: صنف أبو العباس الكنكشي ستين مصنفا، وقد رأيت بعضها فوجدت كلامه في غاية الحسن، وكان غزير الفضل، متفننا، عارفا، عابدا، سفياني المذهب. لم يكن له نظير بتلك الناحية، وله أصحاب ومريدون، وبحكمه ربط كثيرة.

ومن كلامه: حقيقة **الأنس بالله** الوحشة مما سواه.

وقال: عمل السر سرمد، وعمل الجوارح منقطع.

وقال: من عرف قدر ما يبذله لم يستحق اسم السخاء.

قال: وسمعت أحمد الأسود يقول: السكون إلى الكرامات مكر وخدعة.." (١)

"بَينَ السُيوفِ وَعَينَيهِ مُشاكَلَةٌ ... مِن أَجلِها قيلَ لِلأَغمادِ أَجفانُ

وإن كان أخذه من قول أبي الطيب (١): (من الكامل)

وَلِذا اِسمُ أَغطِيَةِ العُيونِ جُفونُها ... مِن أَنَّها عَمَلَ السُيوفِ عَوامِلُ

ولا أخِلُّ بغِزلان أغازِلُها ... ولو دهتني أسودُ الغِيل بالغيَلِ

اللغة: أخلّ بكذا: تركه، والغزلان: جمع غزال، أغازلها: أحادثها، دهتني: أصابته الداهية، والغيل: موضع الأسد، وفلان قليل الغائلة أي الشر.

الإعراب: أغازلها: فعل مضارع، وموضعه نصب / للمفعولية، والجملة في [٥٠ ب] موضع جر صفة لغزلان، دهتني: فعل ماض، والتاء علامة التأنيث للفاعل، والنون للوقاية، والياء ضمير المفعول، وهو المتكلم، أسود: جمع أسد، وهو مرفوع على أنه فاعل دهت.

المعنى: الكلام في هذا البيت كالكلام في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نعم العبد صهيب، وقد تكلم عليه القرافي (٢) وغيره، فلا نطيل بذكره، ومعناه: لو دهتني أسود الغيل بالغيل ما أخللت بغزلان أغازلها، فكيف وما دهتني، فعدم إخلالي بطريق أولى، فالإخلال مرتبط بدهاء الأسود، وتخريجه على ما قال القرافي أنّ الغالب على الأوهام أنّ الإنسان يخل بمحادثة مَنْ يحادثه إذا دهته الأسود باغتيالها، فقطع الشاعر هذا الربط، وقال: ما أخل بمحادثة هذه الغزلان مع وجود دهاء الأسود، واغتيالها إياي، وهذه مبالغة كبيرة عظيمة في الشغل بالمحبوب **والأنس به** عن كل ما يذهل النفوس، ويشغل القلوب التي ترتاع وتنفر من حصوله، ولقد بالغ أبو الحسن علي بن رشيق في قوله (٣): (مجزوء الرجز)

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ في السَّفينَةِ والرَّدى ... مُتَوَقَّعٌ بِتَلاطُمِ الأَمْواجِ

وَالجَوُّ يَهْطِلُ والرِّياحُ عَواصفٌ ... وَاللَّيْلُ مُسْوَدُّ الذَّوائِبِ داجِ

وَعَلى السَّوَاحِلِ لِلأَعادي غارَةٌ ... يُتَوَقَّعُونَ لِغارَةٍ وَهِياجِ

---

(١) تاريخ الإسلام ت بشار، الذهبي، شمس الدين ٩/٧٢١

وَعَلَت لأَصْحابِ السَّفينَةِ ضَجَّةٌ ... وَأَنا وَذِكْرُكِ في أَلَذِّ تَناجي

والأصل في هذا المعنى قول عنترة (٤): (من الكامل)

ولقَدْ ذكرتُكِ والرِّماحُ نواهلٌ ... مني وبيضُ الهندِ تقطرُ مِن دمي.

---

(١) ديوانه ١/ ٢٢٣

(٢) شهاب الدين القرافي المالكي الأصولي: أحمد بن إدريس المشهور بالقرافي الشيخ الإمام العالم الفقيه الأصولي شهاب الدين الصنهاجي الأصل من قرية من كورة بوش من صعيد مصر الأسفل تعرف ببهفشيم ونسب إلى القرافة ولم يسكنها وإنما سئل عنه عند تفرقة الجامكية بمدرسة الصاحب ابن شكر فقيل هو بالقرافة فقال بعضهم: اكتبوه القرافي، فلزمه ذلك. وكان مالكياً إماماً في أصول الفقه وأصول الدين عالماً بالتفسير وبعلوم أخر. درس بالمدرسة الصالحية. الوافي بالوفيات، ص ٤٤٨١/ الموسوعة الشعرية.

(٣) ديوانه (م)

(٤) ديوانه، ص ١٥٠." [1]

"وطلبت أحسن الأشياء عند الناس فلم أر حديثاً أحسن من حسن الخلق، قيل لحكيم هل تعرف نعمة لا يحسد عليها وبلية لا يرحم صاحبها قال نعم التواضع والكبر، قيل لبعضهم لم لا تتزوج؟ فقال لو قدرت أن أطلق نفسي لطلقتها، قيل لبعض العباد ما أصبرك على الوحدة؟ فقال أنا جليس الرب إن شئت أن يناجيني قرأت كتابه وإن شئت أن اناجيه صليت له، قال ذو النون المصري رحمه الله **الأنس بالله** نور ساطع والأنس بالخلق غم واقع، قال العتابي: الدنيا نوم والآخرة يقظة والواسطة بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام، رب حرب ثار من لفظة ورب حب غرس من لحظة، إدمان الناظر يكشف الخبر، إن حفظت عينيك حفظت كل الجوارح، وإن أطلقتهما أوقعاك في الفضائح، علامة القطيعة من الصديق أن يؤخر الجواب ولا يبتدئ بكتاب، وقال حكيم من أكثر النوم لم يجد في عمره بركة ومن أكثر الأكل لم يجد لذة العبادة، إذا كانت الغاية الزوال فما الجزع من تصرف الأحوال، الفقر هو الموت الأحمر

والجوران دام دمر والأعمى ميت وإن لم يقبر، أفضل من السؤال ركوب الأهوال، من تزين بغير ما هو فيه فضح الامتحان ما يدعيه، من عاتب على كل ذنب أخاه صد عنه وقلاه، ليس مع الخلاف ائتلاف استصلاح العدو بحسن المقال أحسن من استصلاحه بحسن الفعال، من طلب ما لا يكون طال تعبه ومن فعل ما لا يحسن كان فيه عطبه، كل امرئ يميل إلى شكله، ليس العجب من جاهل يصحب جاهلاً إنما العجب من عاقل جفا عاقلاً، كل شيء يميل إلى ندّه وينفر عن ضده، قال الشاعر:

ولا يألف الإنسان إلا نظيره ... وكل امرئ يصبو إلى ما يشاكله

لا يغرنك كبر الجسم ممن صغر في العلم ولا طول القامة ممن قصر في الاستقامة فإن الدرة على صغرها خير من الصخرة

---

(١) شرح لامية العجم للدميري، الدَّمِيري ص/٨٧

على كبرها، ليس لضجور رياسة ولا لبخيل صديق، لا تعمل عملاً لا ينفعك، إياك والأخلاق الدنية فإنها تضع الشرف وتهدم المجد، ترك الذنب خير من الاستغفار.

ضرب مثل

حكي أن فرساً كان لرجل من الشجعان وكان يكرمه ويحسن القيام بخدمته ولا يصبر عنه ساعة ويعده لمهماته وكان يخرج به في كل غداة إلى مرج واسع فينزل عنه سرجه ولجامه ويطيل رسنه فيتمرغ ويرعى حتى ترتفع الشمس فيرده إلى منزله وأنه خرج يوماً على عادته إلى المرج فلما نزل عنه واستقرت قدماه على الأرض نفر عنه." (١)

"هو خال أحمد بن الرفاعي وبصحبته تخرج ينتمي إليه جماعة كثيرة من ذوي الأحوال، وأرباب المقامات، وكانت أمة تدخل، وهي حامل على شيخه الشيخ محمد الشنبكي فينهض لها قائماً، وتكرر منه ذلك فسألوه عن ذلك فقال رضي الله عنه: أنا أقوم للجنين الذي في بطنها فإنه أحد المقربين إلى الله تعالى أصحاب المقامات، وسيصير له شأن عظيم لم يكب به جواد الطريقة حتى مات على الإقبال على الله عز وجل. ومن كلامه رضي الله عنه من عرف الدنيا زهد فيها، ومن عرف الله آثر رضاه، ومن لم يعرف نفسه فهو في أعظم الغرور وكان رضي الله عنه يقول: ما ابتلى الله عز وجل عبداً بشيء أشد من الغفلة عنه والفترة، وإذا أحب الله عبداً أعاذه من الغفلة، والمنام، وكان رضي الله عنه يقول: كلما ارتفعت منزلة القلب كانت العقوبة عليه أسرع، وكان رضي الله عنه يقول: الصبر زاد المضطرين، والرضا درجة العارفين فمن صبر على صبره فهو بر الصابر، وكان رضي الله عنه يقول: من فر بدينه إلى الله عز وجل، وهو يتهمه في رزقه فهو يفر له لا إليه وكان رضي الله عنه يقول: كل موجود في الدنيا لا يكون عوناً على تركها فهو عليك لا لك وكان يقول: لك ثلاث خصال من صفات الأولياء الثقة بالله تعالى في كل شيء، والفناء بالاستناد إليه عن كل شيء، والرجوع إليه في كل حال، وكان رضي الله عنه يقول: الإرادة هي أن تشير إلى الله تعالى فتجده أقرب من الإشارة، والتوكل رد الأمر كله إلى واحد ونقصان كل مخلص في إخلاصه رؤية إخلاصه، وكماله شهوده الرياء في إخلاصه، وكان يقول: **الأنس بالله** استبشار القلوب بقرب الله عز وجل وسرورها به، ونظرها في سكونها إليه، وغفلتها عن كل ما سواه، وأن لا تشير إليه حتى يكون هو المشير إليها.

وكان رضي الله عنه يقول: من اغتر بصفاء العبودية داخله نسيان الربوبية، ومن شهد صنع الربوبية في إقامة العبودية فقد انقطع عن نفسه وسكن إلى ربه عز وجل، وحينئذ يسلم من الاستدراك وهو هنا فقدان اليقين لأنه باليقين يستبين فوائد الغيب، وكان رضي الله عنه يقول: الكشف سواطع نور لمعت في القلوب بتمكين معرفة حملة السرائر في الغيوب من غيب

(١) نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن، الشرواني، أحمد ص/١٨٥

إلى غيب حتى يشهد الأشياء من حيث يشهدها الحق فيتكلم عن ضمائر الخلق، وإذا ظهر الحق على السرائر لم يبق لها فضلة لرجاء، ولا خوف وكان رضي الله عنه يقول: سمعت خالي منصوراً رضي الله عنه يقول: المحب لم يزل سكران في خماره حيران في شرابه لا يخرج من سكرة إلا إلى حيرة، ولا من حيرة إلا إلى سكرة. سكن الشيخ منصور رضي الله عنه نهر دفلى من أرض البطائح، واستوطنها إلى أن مات بها، وقبره ظاهر يزار ولما حضرته الوفاة قالت له زوجته أوص لولدك فقال بل لابن أختي أحمد فكررت عليه القول فقال لابنه، ولابن أخته ائتياني بنجيل من أرض كذا فأتاه ابنه بنجيل كثير، ولم يأته ابن أخته بشيء فقال له: يا أحمد لم لم تأت بنجيل فقال وجدته كله يسبح الله عز وجل فلم أستطع أن أقلع منه شيئاً فسكتت زوجته رضي الله تعالى عنه.

ومنهم الشيخ تاج العارفين أبو الوفاء

رضي الله تعالى عنه ورحمه." (١)

"منسوب إلى بني رفاعة قبيلة من العرب، وسكن أم عبيدة بأرض البطائح إلى أن مات بها رحمه الله تعالى وكانت انتهت إليه الرياسة في علوم الطريق، وشرح أحوال القوم، وكشف مشكلات منازلاتهم، وبه عرف الأمر بتربية المريدين بالبطائح، وتخرج بصحبته جماعة كثيرة، وتتلمذ له خلائق لا يحصون ورثاه المشايخ والعلماء، وهو أحد من قهر أحواله، وملك أسراره وكان له كلام عال على لسان أهل الحقائق، وهو الذي سئل عن وصف الرجل المتمكن فقال: هو الذي لو نصب له سنان على أعلى شاهق جبل في الأرض، وهبت الرياح الثمان ما غيرته.

وكان رضي الله عنه يقول: الكشف قوة جاذبة بخاصيتها نور عين البصيرة إلى فيض الغيب فيتصل نورها به اتصال الشعاع بالزجاجة الصافية حال مقابلتها المنيع إلى فيضه ثم يتقاذف نوره منعكساً بضوئه على صفاء القلب ثم يترقى ساطعاً إلى عالم العقل فيتصل به اتصالا معنوياً له أثر في استفاضة نور العقل على ساحة القلب فيشرق نور العقل على إنسان عين السر فيرى ما خفي عن الأبصار موضعه، ودق عن الأفهام تصوره، واستتر عن الأغيار مرآه.

وكان رضي الله عنه يقول: الزهد أساس الأحوال المرضية، والمراتب السنية، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل، والمنقطعين إلى الله، والراضين عن الله، والمتوكلين على الله فمن لم يحكم أساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده، وكان رضي الله عنه يقول: الفقراء أشراف الناس لأن الفقر لباس المرسلين، وجلباب الصالحين، وتاج المتقين، وغنيمة العارفين، ومنية المريدين، ورضا رب العالمين، وكرامة لأهل ولايته، وكان يقول: **الأنس بالله** لا يكون إلا لعبد قد كملت طهارته، وصفا ذكره، واستوحش من كل ما يشغله عن الله تعالى فعند ذلك آنسه الله تعالى به وأراده بحق حقائق الأنس فأخذه عن وجد طعم الخوف لما سواه، وكان رضي الله عنه يقول: المشاهدة حضور بمعنى قرب مقرون بعلم اليقين، وحقائق حق اليقين، وكان رضي الله عنه يقول: التوحيد، وجدان تعظيم في القلب يمنع من التعطيل، والتشبيه، وكان يقول: لسان الورع يدعو إلى ترك الآفات، ولسان التعبد يدعو إلى دوام الاجتهاد، ولسان المحبة يدعو إلى الذوبان، والهيمان ولسان المعرفة يدعو إلى الفناء والمحو ولسان التوحيد يدعو إلى الإثبات، والحضور، ومن أعرض عن الأعراض أدباً فهو الحكيم المتأدب.

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني، ص/١٣٥

وكان رضي الله عنه يقول: لو تكلم الرجل في الذات والصفات كان سكوته أفضل ومن خطا من قاف إلى قاف كان جلوسه أفضل وكان رضي الله عنه يقول: لما مررت، وأنا صغير على الشيخ العارف بالله تعالى عبد الملك الخرنوبي أوصاني قال لي يا أحمد احفظ ما أقول لك فقلت: نعم. فقال رضي الله عنه: ملتفت لا يصل، ومتسلل لا يفلح، ومن لم يعرف من نفسه النقصان فكل أوقاته نقصان فخرجت من عنده، وجعلت أكررها سنة ثم رجعت إليه فقلت له أوصني فقال: ما أقبح الجهل بالألباء، والعملة بالأطباء، والجفاء بالأحباء ثم خرجت، وجعلت أرددها سنة فانتفعت بموعظته وكان رضي الله عنه يقول: أكره للفقراء دخول الحمام وأحب لجميع أصحابي الجوع، والعري والفقر والذل، والمسكنة، وأفرح لهم إذا نزل بهم ذلك، وكان يقول: الشفقة على الإخوان مما يقرب إلى الله تعالى وكان رضي الله عنه يقول: إذا جئتم ولم تجدوا عندي ما يأكله ذو كبد فاسألوني الدعاء أدع لكم فإني حينئذ لي أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم قال الشيخ يعقوب رضي الله عنه خادمه نظر سيدي أحمد رضي الله عنه إلى النخلة فقال: يا يعقوب انظر إلى النخلة لما رفعت رأسها جعل الله تعالى ثقل حملها عليها ولو حملت مهما حملت وانظر إلى شجرة اليقطين لما وضعت نفسها ألقت خدها على الأرض جعل ثقل حملها على غيرها، ولو حملت مهما حملت لا تحس به.." (١)

"قلت: والمراد صحبتهم من غير إرشاد وتعليم، وإلا فإرشاد مثل هؤلاء هو المطلوب من كل فقير، وكان يقول: الإخلاص ما خفي على النفس درايته، وعلى الملك كتابته، وعلى الشيطان غوايته، وعلى الهوى إمالته، وكان رضي الله عنه يقول: إياكم والمحاكمات قبل إحكام الطريق، وتمكن الأحوال فإنها تقطع بكم عن درجات الكمال، وكان يقول: كل فقير لا يعرف زيادته، ونقصه في كل نفس فليس بفقير، وكان يقول: الفقر فخر، والعد غنم، والصمت نجاة، والإياس راحة، والزهد عافية، ونسيان الحق طرفة عين خيانة، وكان يقول: الحضور مع الحق جنة، والغيبة عنه نار، والقرب منه لذة والبعد عنه حسرة، **والأنس به** حياة، والاستيحاش منه موت، وكان يقول: طلب الإرادة قبل تصحيح التوبة غفلة، وكان يقول: من قطع موصولا بربه قطع به، ومن أشغل مشغولا بربه أدركه المقت في الوقت. ومكث رضي الله عنه سنة في بيته لا يخرج إلا للجمعة فاجمع الناس على باب داره، وطلبوا منه أن يتكلم عليهم فلما ألزموه خرج فرأى عصافير على سدرة في الدار فلما رأته في الدار فرت فرجع، وقال لو صلحت للحديث عليكم لم تفر مني الطيور ثم رجع، وجلس في البيت سنة أخرى ثم جاءوا إليه فخرج فلم تفر منه الطيور فتكلم على الناس، ونزلت الطيور تضرب بأجنحتها، وتصفق حتى مات منها طائفة، ومات رجل من الحاضرين، وكان يقول: كل بدل في قبضة العارف لأن ملك البدل من السماء إلى الأرض، وملك العارف من العرش إلى الثرى وكان الله تعالى قد أذل له الوحوش، ومر يوماً على حمار، والسبع قد أكل نصفه، وصاحبه ينظر إليه من بعد لا يستطيع أن يقرب منه فقال لصاحب الحمار تعال فذهب به إلى الأسد، وقال له أمسك بأذن الأسد، واستعمله مكان حمارك فأخذ بأذنه، وركبه وصار يستعمله سنين موضع حماره حتى مات، وقيل له مرة في المنام حقيقة سرك في توحيدك فقال: سري مسرور بأسرار تستمد من البحار الإلهية التي لا ينبغي بثها لغير أهلها إذ الإشارة تعجز عن وصفها وأبت الغيرة الإلهية إلا أن تسترها، وهي أسرار محيطة بالوجود لا يدركها إلا من كان وطنه مفقوداً، وكان في عالم الحقيقة بسره موجوداً

(١) الطبقات الكبرى للشعراني، ص/١٤٢

يتقلب في الحياة الأبدية، وهو بسره طائر في فضاء الملكوت، ويسرح في سرادقات الجبروت، وقد تخلق بالأسماء، والصفات، وفني عنها بمشاهدة الذات هناك قراري، ووطني، وقرة عيني، ومسكني، والحق تعالى في غنى عن الكل قد أظهر في وجودي بدائع قدرته، وأقبل علي بالحفظ، والتوفيق، وكشف لي عن مكنون التحقيق فحياتي قائمة بالوحدانية، وإشاراتي إلى الفردانية فروحي راسخ في علم الغيب يقول لي مالكي يا شعيب كل يوم جديد على العبيد، ولدينا مزيد رضي الله عنه.

ومنهم أبو محمد عبد الرحيم المغربي القناوي

رضي الله تعالى عنه." (١)

"سباشي التركي أبو طاهر الحاجب الملقب بالسعيد ذي الفضيلتين مولى شرف الدولة أبي الفوارس ابن عضد الدولة أبي شجاع الديلمي. كان كثير الصدقة، فائض المعروف، متفقدا للفقراء، متقدا للفقراء، قال محب الدين ابن النجار: حتى أن أهل بغداد إلى يومنا هذا إذا رأوا على أحد ثوبا جديدا قالوا: رحم الله السعيد: كان يكسو المساكين، وهو الذي بنى قنطرة الخندق الذي عند مقبرة باب حرب وقنطرة الياسرية وقنطرة الزياتين، وأوقف قرية دباها على المارستان، وكان ارتفاعها أربعين كرا وألف دينار. ووقف على الجسرخان النرسي بالكرخ، ووقف عليه بزيثي بالقفص وسد بثق الخالص وحفر ذنابة دجيل، وساق منها الماء إلى مقابر قريش، وعمل المشهد بكرخ زاذويه بقرب وسط، وحفر المصانع عنده وفي طريقه. وله آثار كثيرة بطريق مكة، وكان الإصفهارية قد أخرجوا يوم العيد جنائبهم بمراكب الذهب وأظهروا الزينة، فقال له بعض أصحابه: لو كان لنا شيء أظهرناه! فقال له السعيد: ألا أنه ليس في جنائبهم قنطرة الياسرية والخندق وتوفي سنة ثمان وأربع مائة.

المغني

سباط، قال إسحاق: كان من فحول المغنين مع عفة ومروءة. غنى في زمان بين أمية ومات حدث السن ابن بضع وعشرين سنة، وهو أستاذ إبراهيم أبي، له أغان كثيرة، حدثني أبو الحسن مولى بني هاشم عن إبراهيم بن المهدي قال: كنت يوما عند الرشيد ومعنا جعفر بن يحيى بن خالد وإسماعيل بن جامع والحارث بن يسخنر النديم وإبراهيم الموصلي وأبو صدقة، فتذاكرنا الغناء وجيد الصوت، فقال الرشيد: تعالوا يختار كل واحد منا صوتا يكتبه في رقعة ، ثم نجمع رقاعنا معا، فإذا اختلفنا اخترنا خير اختيارنا وإن اتفقنا لم يغن لنا سواه يومنا أجمع، قال: ففعلنا ذلك، ثم أخرجنا رقاعنا فإذا فيها ثمانية أصوات كلها لسباط! قال: فلم يتغن لنا سائر اليوم غيرها.

العابد

سباع، أحمد محمد الموصلي الزاهد. جالس المضاء بن عيسى الزاهد، وروى عن عبد الواحد بن زيد، قال أحمد بن أبي الحواري: سمعت مضاء العابد يقول لسباع العابد: إلى أي شيء أفضى بهم الزهد؟ قال: إلى **الأنس به**! وجلس أبو سليمان وأنا معه إلى سباع، فقال له سباع: يا أبا سليمان لو كان لك عبدان أحدهما يعمل على الخوف منك والآخر يعمل على المحبة لك؟ فاضطرب أبو سليمان حتى ارتعدت فخذه فاتكى عليها فاضطربت فخذه الأخرى، فاتكى عليها، فلم يزل

(١) الطبقات الكبرى للشعراني، ص/١٥٨

كذلك حتى سكتنا عنه، وتوفي رحمه الله تعالى في...

سبرة

ابن فاتك الأسدي

سبرة. ويقال سمرة بن فاتك الأسدي، عم أيمن بن خريم بن فاتك. له صحبة ورواية، وشهد فتح دمشق وهو الذي تولى قسمة المساكين بين أهلها بعد الفتح، وكانت داره بها في زقاق الأسديين المتاخم لباب الجابية عن يسرة الداخل، وكان ينزل الرومي في العلو وينزل المسلمين في السفل لئلا يضر المسلم بالرومي! وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " نعم الفتى سبرة، لو أخذ من لمته وقصر مئزره أو شمر من إزاره " فذهب فأخذ من لمته وقصر من إزاره.

أبو الربيع الجهني

سبرة بن معبد، ويقال ابن عوسجة أو ثرية الجهني. له صحبة، سكن المدينة وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث. وروى عنه ابنه الربيع، وكان رسول علي إلى معاوية بعد قتل عثمان، فطلب بيعته من المدينة، فلم يجبه ورده. وكان له دار في المدينة في جهينة. وتوفي في حدود الستين من الهجرة. وروى له مسلم.

الصحابي سبرة بن الفاكه

ويقال: ابن أبي فاكه، كوفي. روى عنه سالم بن أبي الجعد.

الصحابي سبرة بن يزيد

أبي سبرة

له ولأبيه أبي سبرة صحبة، ولأخيه عبد الرحمن صحبة أيضا. وسبرة هذا هو عم خيثمة بن عبد الرحمن صاحب عبد الله بن مسعود.

الألقاب

سبط زيادة: الحسن بن عبد الكريم.

سبط بن الجوزي: يوسف بن قزاوغلي.

أبو الوحش الأسدي

سبع بن خلف بن محمد أبو الوحش الأسدي الأديب المعروف بوحيش تصغير وحش. شاعر دمشقي، روى عنه أبو المواهب ابن صصري. وقال: مات في عاشر رجب سنة تسع وسبعين وخمس مائة، وروى له، قال: أنشدني لنفسه من الكامل:

يمت دار أبي فلان قاصدا ... بمدائحي فيه وحسن مقاصدي." (١)

"وقال: يذم قريته القطيفة: من الوافر

على ذم القطيفة اجتمعنا ... وإن حشيت ببرد قد تكرر

وقد أضحى عليها للزميتا ... بياض مثلما قد ذر سكر

---

(١) الوافي بالوفيات، ٣١/٥

ولم يكن المكفن غير شخص ... يكون إلى نواحيها مسير

وقال: من مجزوء الكامل

هذي القطيفة التي ... لا تشتهي عقلا ونقلا

حشيت ببرد يابس ... فلأجل ذاك الحشو تقلى

وقال: من الخفيف

لا تلوموا دمشق إن جئتموها ... فهي قد أوضحت لكم ما لديها

إنها في الوجوه تضحك بالزه ... رضي الله عنه لمن جاء في الربيع إليها

وتراها بالثلج تبصق في لح ... ية من مر في الشتاء عليها

وقال من أبيات: من الخفيف

قل للعين طيف إلفك سار ... فتباهي له ولو بعواري

فتهيت لقربه وتهادت ... من دموع إليه بين جواري

يتسابقن خدمه فتراهن ... لديها كالدر أو كالدراري

منها: من الخفيف

مفرد في جماله إن تبدى ... خجلت منه جملة الأقمار

كيف أرجو الوفاء منه وعامل ... ت غريما من لحظه ذا انكسار

ذو حواش تلوح من قلم الري ... حان في خده فجل الباري

فيه وجدي محقق وسلوي ... وكلام العذول مثل الغبار

فلساني في وصفه قلم الشع ... ر ورقي المكتوب بالطومار

عبد الله بن عبد العزيز

أبو عبيد البكري عبد الله بن عبد العزيز بن أبي مصعب البكري، أبو عبيد الأندلسي. كان أميرا بساحل كورة لبلة، وصاحب جزيرة سلطيش، بلد صغيرة من قرى إشبيلية. وكان متقدما من مشيخة أولي البيوت وأرباب النعم بالأندلس، فغلبه ابن عباد على بلده وسلطانه، فلاذ بقرطبة. ثم صار إلى محمد بن معن صاحب المرية، فاصطفاه لصحبته وأثر مجالسته **والأنس به**، ووسع راتبه. وكان ملوك الأندلس تتهادى مصنفاته. ومن شعره: من الطويل

وما زال هذا الدهر يلحن في الورى ... فيرفع مجرورا ويخفض مبتدا

ومن لم يحط بالناس علما فإنني ... بلوتهم شتى مسودا وسيدا

وكان معاقرا للراح لا يصحو من خمارها يدمنها أبدا، فلما دخل رمضان قال يخاطب نديمين له: من الطويل

خليلي إني قد طربت إلى الكاس ... وتقت إلى شم البنفسج والآس

فقوما بنا نلهو ونستمع الغنا ... ونسرق هذا اليوم سرا من الناس

فإن نطقوا كنا نصارى ترهبوا ... وإن غفلوا عدنا إليهم من الراس

وليس علينا في التعلل ساعة ... وإن رتعت في عقب شعبان من باس

وحدث عن أبي مروان ابن حيان وأبي بكر المصحفي، وأجاز له ابن عبد البر، وكان إماما لغويا أخباريا متفننا، صنف كتاب أعلام النبوة وأخذه الناس عنه، وصنف اللآلي في شرح نوادر أبي علي القالي، والمقال في شرح الأمثال لأبي عبيد، و اشتاق الأسماء، ومعجم ما استعجم من البلاد والمواضع والنبات، وغير ذلك. وتوفي في شوال سنة سبع وثمانين وأربعمائة.

أبو موسى الضرير عبد الله بن عبد العزيز، أبو القاسم الضرير النحوي المعروف بأبي موسى. كان يؤدب المهتدي، وكان من أهل بغداد، وسكن مصر وحدث بها عن أحمد بن جعفر الدينوري، وجعفر بن مهلهل بن صفوان الراوي عن ابن الكلبي. وروى عنه يعقوب بن يوسف بن خرزاد النجيرمي. وله كتاب في الفرق وكتاب في الكتابة والكتاب.

العمري الزاهد العابد." (١)

"وذكر أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق فما قرأته في سيرة أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون قال: وفي هذه السنة في صفر منها - يعني سنة ثمان وسبعين ومائتين - مات أبو أحمد الموفق وعقد العهد لابنه أبي العباس، وكان للموفق غلام خادم من جلة غلمانه يعرف براغب، فلما مات مولاه أحزنه موته، فأحب أن يسكن طرسوس، فاستأذن في ذلك، فأذن له، فخرج قاصدا يريد الثغر، وكان خمارويه يومئذ بدمشق فلما بلغ راغب إلى حلب وهم بالدخول إلى طرسوس قيل له: طرسوس من عمل أبي الجيش، وهو بالقرب منك، فلو صرت إليه زائرا وقضيت حقه، وعرفته ما عزمت عليه من المقام بالثغر ما ضرك ذلك، وكان أجل لمحلك وأقوى لك على ما تريده، فبعث بثقله وجميع ما كان معه مع غلام له يعرف بمكنون وأمره أن يتقدمه إلى طرسوس، ورحل هو مخفا إلى دمشق، فلقي أبا الجيش فأحسن أبو الجيش تلقيه وسر بنظره ووصله وأحسن إليه وكان يكثر عنده ويحادثه، وكانت لراغب عارضه وبيان وحسن عبارة وكان قد رأى الخلفاء وعرف كثيرا من أخبارهم، فكان يصل مجلسه بشي من أخبارهم وسيرهم، فأنس به خمارويه، وكان يستريح إلى حديثه ومذاكرته، فلما رأى راغب ما يخصه به خمارويه من التكرمة **والأنس به** والاستدعاء إذا تأخر استحيا أن يذكر له الخروج إلى طرسوس، فلما طال مقامه بدمشق ظن مكنون غلامه أن أبا الجيش قد قبض عليه ومنعه من الخروج إلى الثغر، فأذاع ما ظنه عند المطوعة وشكاه إليهم، وأكثر هؤلاء المطوعة من أهل الجبل وخراسان، معهم غلظ الأعجمية وسوء أدب الصوفية فأحفظهم هذا القول وظنوه حقا، فقالوا: تعمد إلى رجل قد خرج إلى سبيل الله محتسبا نفسه لله عز وجل. وفي مقام مثله في الثغر قوة للمسلمين وكتب لأعدائهم من الكافرين، فتقبض عليه وتمنعه من ذلك جرأة على الله فتلففوا وتجمعوا ومشى بعضهم إلى بعض وأقبلوا إلى واليهم وهو ابن عم خمارويه، فشغبوا عليه، فأدخلهم إليه ليسكن منهم ويعدهم بما يحبون، فقبضوا عليه وقالوا: لا تزال في إعتقالنا أو يطلق صاحبك صاحبنا، فإن قتله قتلناك به، وتسرع سفلهم إلى داره فنبهت وهتكت حريمه ولحقه كل ما يكره، وجاءت الكتب إلى أبي الجيش بذلك فأحضر راغبا وأقرأه الكتب: وقال له: والله ما منعناك ولا حظرنا عليك الخروج ولقد سررنا بقربك وما أوليت وأوليناك إلا جميلا، وقد جنى علينا سوء ظن غلامك ما لم نجنه فإذا شئت

---

(١) الوافي بالوفيات، ٥/٤٢٣

فارحل مصاحبا، وقل لأهل طرسوس: يا جهلة ما يومنا فيكم بواحد تتسرعون إلى ما نكره مرة بعد أخرى ونغضي عنكم، ويحلم الله عز وجل، ولولا المحافظة على ثغر المسلمين وعز الإسلام لا خشية منكم ولا من كثرتكم، وإلى الله الشكوى، ولولا الخوف من غضبه عز وجل لجازيناكم على أفعالكم، فودعه راغب وحل إلى طرسوس، فلما صح عند أهل طرسوس خبر راغب أطلقوا عند محمد بن موسى بن طولون، فلما أطلق قال: أصلح الله بلدكم، ورحل عنهم فسكن بيت المقدس، وكان له دين وفيه خير كثير.

وقرأت في سيرة الأخشيد: تأليف أبي محمد بن زولاق قال: وحدثني أحمد ابن عبيد الله عن أبيه قال: قال: طغج كنت بدمشق أخلف أبا الجيش فجاءني كتابه يأمرني بالمسير إلى طرسوس، وأقبض على راغب وأقتله فسرت إلى طرسوس، وكان شتاء عظيما فما أمكن أحد أن يتلقاني، فلقيني راغب وحده في غلمانه، وكان له مائتا غلام قد أشحو العدو، فأنزلني وخدمني وقضى حقي فأمسكت عنه وحضرت معه غزاة أشجى فيها العدو فقال لي جماعة من أهل طرسوس: بالله إلا صنت هذا الرجل وأحسنت إليه، ففعلت وآثرت رضا الله عز وجل فانصرفت إلى دمشق وكتب إلى أبي الجيش أعتذر وذكرت أشياء منعتني من القبض على راغب.

قال طغج: فما شعرت وأنا بدمشق حتى وافى أبو الجيش فلقيته وخدمته وجلست معه ليلة الشرب فلما تمكن منه الشراب قال لي: يا طغج شعرت بأنه ما جاء بي إلى دمشق سواك، فاضطربت فلما رآني قد تغرت اقلب الحديث، وانصرفت وأنا خائف منه وعلمت أنه يقتلني كما قتل صافي غلام أبيه بدمشق لأنه سار إليه من مصر وقتله فقتل أبو الجيش تلك الليلة وكفاني الله أمره لأني عملت مع راغب لله فكفيت.." (١)

"(٢) ومولده ببعلبك في حادي عشر شهر رجب سنة إحدى وعشرين وست مئة قال شيخنا الذهبي رحمه الله تعالى انتفعت به يعني بصحبته وأكثرت عنه وقال شيخنا البرزالي دخلت بعلبك أربع مرات قرأت عليه فيها مسند الشافعي رضي الله عنه والثقفيات العشرة ومشيخة تخريج الشيخ شمس الدين بن أبي الفتح وهي ثلاثة عشر جزءا وسنن الشافعي رواية الطحاوي وعمن المزني ونحوا من عشرين جزءا وكان يقدم دمشق وفي كل مرة نسمع عليه ونستفيد منه كان قد قدم دمشق في شعبان فحصل **الأنس به** والسماع عليه وتوجه إلى بلده في آخر الشهر فوصل أول شهر رمضان وأقام أياما ولما كان يوم الجمعة خامس شهر رمضان الرابعة دخل إلى خزانة الكتب التي في مسجد الحنابلة فدخل هذا الفقير موسى المصري فضربه بعصا على رأسه ضربات ثم أخرج سكينا صغيرة فجرحه في رأسه فاتقى بيديه فأمسك وحمل إلى والي البلد وضرب فأظهر الاختلال في عقله وتجانن وحمل الشيخ إلى داره وأتم صومه يومه ثم إنه حصل له حمى واشتد مرضه إلى يوم الخميس دخل

---

(١) بغية الطلب في تاريخ حلب، ٤٥٧/٣

(٢) ٤٧٧

إلى رحمه الله تعالى في الساعة الثامنة ودفن بباب سطحا وتأسف الناس عليه علي بن محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن مفرج الفقيه شمس الدين الأنصاري الإسكندري الشافعي ." (١)

"وسبب هذا – والله اعلم – ان فى الدنيا جنة معجلة وهى معرفة الله ومحبته **والأنس به** والشوق الى لقائه وخشيته وطاعته والعلم النافع ل على ذلك فمن دله علمه على دخول هذه الجنة المعجلة فى الدنيا دخل الجنة فى الاخرة ومن لم يشم رائحتها لم يشم رائحة الجنة فى الأخرة ..

وكان ابو سليمان الداراني يعيب على من لبس عباءة وفى قلبه شهوة من شهوات الدنيا تساوى اكثر من قيمة العباءة يشير الى ان اظهار الزهد فى الدنيا باللباس الديني انما يصلح لمن فرغ قلبه من التعلق بها بحيث لا يتعلق قلبه بها بأكثر من قيمة ما لبسه فى الظاهر حتى يستوى ظاهرة وباطنة فى الفراغ من الدنيا ...

النوع الثانى : من يطلب بالعلم والعمل والزهد الرياسة على الخلق والتعاظم عليهم وان ينقاد الخلق ويخضعون له ويصرفون وجوههم اله وان يظهر للناس زيادة علمه علىالعلماء ليعلو به عليهم ونحو ذلك فهذا موعده النار لان قصد التكبر على الخلق محرم فى نفسه فاذا استعمل فيه آله الاخرة كانت اقبح وافحش من ان يستعمل فيه آلات الدنيا من المال والسلطان .

وفى " السنن " عن النبي صلى الله عليه وسلم : " من طلب العلم ليمارى به السفهاء او يجازى به العلماء او يصرف وجوه الناس اليه ادخله الله النار ".

وقال بعض السلف : " بلغنا ان الذى يطلب الاحاديث ليتحدث بها لا يجد ريح الجنة يعنى : من ليس له غرض فى طلبها الا ان يحدث بها دون العلمل بها ".

والشيخ عبد الرازق – رحمه الله – كان من العلماء العاملين – نحسبه كذلك والله حسيبه ولا نزكى على الله احدا – من البعدين عن الاضواء والشهرة ومحبة ان يراه الناس ويعرفوه .

ولست اقصد من هذا ال\ الدرس الى اخذ من سيرة الشيخ – رحمه الله – ان طالب العلم يترك الناس وينطوى على نفسه ولا ينصحهم ولا ينفعهم بل قصدت ان السائر فى الطلب والدعوة يكون على بصيرة من امره حتى لا ياتيه الشيطان من مدخل يجهل كونه يحبط عمله .." (٢)

"السماء ثم قال: قد علمت طول غمي وحزني وترددادي في أزقة الدنيا، فحتى متى تحبس أيها المحبوب؟ ثم سقط مغشيا عليه فجئت بماء فمسحت على وجهه فأفاق. فما عاش بعد ذلك إلا أياما حتى مات رحمه الله.إبراهيم بن موسى قال: رأيت فتحا الموصلي في يوم عيد أضحى وقد شم ريح القتار، فدخل إلى زقاق فسمعته يقول: تقرب المتقربون بقربانهم وأنا أتقرب إليك بطول حزني يا محبوب، كم تتركني في أزقة الدنيا محبوسا؟ ثم غشي عليه وحمل فدفناه بعد ثلاث.

عن بعض أصحاب فتح الموصلي قال: دخلت عليه يوما وقد مد كفيه يبكي، حتى رأيت الدموع من بين أصابعه تنحدر.

---

(١) أعيان العصر وأعوان النصر – موافق – محقق، ٣/٤٧٦

(٢) اتحاف النبلاء بسيرة العلامة عبد الرزاق عفيفى رحمه الله، ص/١٣٨

فدنوت منه لأنظر إليه فإذا دموعه قد خالطتها صفرة. فقلت: بالله يا فتح بكيت الدم؟ فقال: لولا أنك حلفتني بالله عز وجل ما أخبرتك، بكيت دما. فقلت: على ماذا بكيت الدموع؟ وعلى ماذا بكيت الدم؟ فقال: بكيت الدموع على تخلفي عن واجب حق الله عز وجل، وبكيت الدم على الدموع خوفا أن تكون ما صحت لي الدموع.قال الرجل: فرأيت فتحا بعد موته في المنام. فقلت: ما صنع الله بك؟ فقال غفر لي، قلت: فما صنع في دموعك؟ فقال: قربني ربي عز وجل وقال لي: يا فتح؛ الدمع على ماذا؟ قلت: يا رب على تخلفي عن واجب حقك. قال: فالدم لم بكيت؟ فقلت: يا رب على دموعي خوفا أن لا تصح لي فقال لي: يا فتح ما أردت بهذا كله؟ وعزتي لقد صعد إلي حافظاك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة.

سباع الموصلي

قال المضاء لسباع الموصلي يا أبا محمد إلى أي شيء أفضى بهم الزهد؟ قال: إلى **الأنس به.**

أحمد الموصلي." (١)

"أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان الداراني يقول في مناجاته: إنك إن طالبتني بشري طالبتك بكرمك، وإن أخذتني بذنوبي أتيتك بتوحيدك، وإن أسكنتني النار بين أعدائك لأخبرنهم بحبي لك.

قال أبو سليمان: كنت أنظر إلى الأخ من إخواني بالعراق فأعمل على رؤيته شهرا.

وقال أبو سليمان: إنما الأخ الذي تعظك رؤيته قبل أن يعظك بكلامه.

بات أبو سليمان ذات ليلة فلما انتصف الليل قام ليتهيأ، فلما أدخل يده في الإناء بقي على حالته حتى انفجر الصبح، وكان وقت الإقامة. فخشيت أن تفوته الصلاة فقلت: الصلاة يرحمك الله. فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم قال: يا أحمد أدخلت يدي في الإناء فعارضني معارض من سري: هب أنك غسلت بالماء ما ظهر منك فبماذا تغسل قلبك؟ فبقيت متفكرا حتى قلت بالغموم والأحزان فيما يفوتني من **الأنس بالله** عز وجل.

قال أبو سليمان: ما يسر العاقل أن الدنيا له منذ خلقت إلى أن تفنى، يتنعم فيها حلالا لا يسأل عنه يوم القيامة وأنه حجب عن الله عز وجل ساعة واحدة، فكيف بمن حجب أيام الدنيا وأيام الآخرة؟ أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان يقول: ربما مثل لي رأسي بين جبلين من نار، وربما رأيتني أهوي فيها حتى أبلغ قرارها وكيف تهنئ الدنيا من كانت هذه صفته؟ وسمعته يقول: إنما ارتفعوا بالخوف، فإن ضيعوا نزلوا وينبغي لعاقل وإن بلغ أعلى درجة أن يفزع قلبه بأسفل درجة من ذكر الموت والمقابر والبعث.

وقلت لأبي سليمان إني قد غبطت بني إسرائيل. قال: بأي شيء ويحك؟ قلت: بثمانمائة سنة بأربعمائة ينن حتى يصيروا كالشنان البالية وكالأوتار. قال: ما ظننت إلا أنك قد جئت بشيء، لا والله لا يريد الله عز وجل منا أن تيبس جلودنا على عظامنا ولا يريد منا إلا صدق النية فيما عنده، هذا إذا صدق في عشرة أيام نال ما نال ذاك في عمره.." (٢)

---

(١) مختصر صفة الصفوة، ٤٥٦/١

(٢) مختصر صفة الصفوة، ٤٧٨/١

"قال أبو الأشهب السائح: رأيت بين الثعلبية والخزيمية غلاما قائما يصلي عند بعض الأميال. قد انقطع عن الناس. فانتظرته حتى قطع صلاته ثم قلت له: ما معك مؤنس؟ قال: بلى. قلت: وأين هو؟ قال: أمامي وخلفي ومعي وعن يميني وعن شمالي وفوقي. فعلمت أن عنده معرفة. قلت: أما معك زاد؟ قال: بلى. قلت: وأين هو؟ قال: الإخلاص لله عز وجل والتوحيد والإقرار بنبيه وإيمان صادق، وتوكل واثق. قلت: هل لك في مرافقتي؟ قال: الرفيق يشغل عن الله عز وجل ولا أحب أن أرافق أحدا فأشتغل به عنه طرفة عين فيقطعني عن بعض ما أنا عليه. قلت: أما تستوحش في هذه البرية وحدك؟ قال: إن **الأنس بالله** عز وجل قطع عني كل وحشة حتى لو كنت بين السباع ما خفتها ولا استوحشت منها. قلت: فمن أين تأكل؟ فقال: الذي غذاني في ظلم الأحشاء والأرحام صغيرا قد تكفل برزقي كبيرا. قلت: ففي أي وقت تجيئك الأسباب؟ قال: لي حد معلوم ووقت مفهوم إذا احتجت إلى الطعام أصبته في أي موضع كنت، وقد علم ما يصلحني وهو غير غافل عني. قلت: ألك حاجة؟ قال: نعم. قلت: وما هي؟ قال: إن رأيتني فلا تكلمني ولا تعلم أحدا أنك تعرفني. قلت: لك ذلك، فهل حاجة غيرها؟ قال: نعم. قلت: وما هي؟ قال: إن استطعت أن لا تنساني في دعائك عند الشدائد إذا نزلت بك فافعل، قلت: كيف يدعو مثلي لمثلك وأنت أفضل مني خوفا وتوكلا؟ قال: لا تقل هذا إنك قد صليت لله عز وجل وصمت قبلي ولك حق الإسلام والمعرفة الإيمان. قلت: فإن لي أيضا حاجة. قال: وما هي؟ قلت: ادع الله لي. فقال: حجب الله طرفك عن كل معصية، وألهم قلبك الفكر فيما يرضيه حتى لا يكون لك هم إلا هو. قلت: يا حبيبي متى ألقاك؟ وأين أطلبك؟ فقال: أما في الدنيا فلا تحدث نفسك بلقائي فيها وأما الآخرة فإنها مجمع المتقين فإياك أن تخالف الله فيما أمرك وندبك إليه، وإن كنت تبتغي لقائي فاطلبني مع الناظرين إلى الله تبارك وتعالى في زمرتهم. قلت: وكيف علمت ذاك؟ قال: بغض طرفي له عن كل." (١)

"(٢) الليل الصوت ويا من يحيي العظام وهي رميم بعد الموت فدعوت بها وأنا ساجد فإذا أمي تقول يا أبا سليمان ما فعلت الغلة قال قلت لها قد قمت قالت نعم قال أحمد بن أبي الحواري بات أبو سليمان ذات ليلة فلما انتصف الليل قام ليتهيأ فلما أدخل يده في الإناء بقي على حالته حتى انفجر الصبح وحان وقت الإقامة فخشيت أن تفوت صلاته فقلت الصلاة يرحمك الله فقال لا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال يا أحمد أدخلت يدي في الإناء فعارضني عارض من سري هب أنك غسلت بالماء ما ظهر منك فبماذا تغسل قلبك فبقيت متفكرا فألهمت حتى قلت بالغموم والأحزان فيما يفوتني من **الأنس بالله** قال ابن أبي الحواري كنت مع أبي سليمان حين أراد الإحرام فلم يلب حتى سرنا ميلا وأخذه كالغشية في المحمل ثم افاق فقال يا أحمد إن الله تبارك وتعالى أوصى إلى موسى مر ظلمة بني إسرائيل أن يقلوا من ذكري فإني أذكر من ذكرني منهم باللعنة حتى يسكت ويحك يا أحمد بلغني أنه من حج من غير حله ثم لبى قال الله له لا لبيك ولا سعد يك حتى ترد ما في يديك فما يؤمننا أن يقال لنا ذلك قال أبو سليمان ينبغي للخوف أن يكون أغلب على الرجاء فإذا غلب الرجاء على الخوف فسد القلب قال أبو سليمان من أحسن في نهاره كوفئ في ليله ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره ومن

---

(١) مختصر صفة الصفوة، ٦٨/٢

(٢) ١٩٣

صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه والله تعالى أكرم من أن يعذي قلبا لشهوة تركت له قال أبو سليمان إذا سكنت الدنيا القلب ترحلت منه الآخرة ." (١)

"(٢) وحدث عن داود بن رشيد بسنده إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يغتسل بالصاع ويتوضأ بالمد توفي علي بن إبراهيم سنة خمس وقيل سنة ست وثلاث مئة علي بن إبراهيم بن نصرويه ابن سختام بن هزيمة بن إسحاق بن عبد الله بن أشكر بن كاك أبو الحسن السمرقندي الغزي الفقيه قدم دمشق حاجا سنة إحدى وأربعين وأربع مئة وحدث بها وبصور وبغداد حدث عن أبي بكر محمد بن أحمد بن مت الأسبيجي بسنده إلى أنس بن مالك قال عطس رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر قيل هما رجلان عطسا فشمت أحدهما وتركت الآخر قال إن هذا حمد الله عز وجل وإن هذا لم يحمد الله عز وجل حدث عن أخيه إسحاق بسنده إلى أحمد بن قطن بن أبي قطن قال سئل ذو النون وأنا حاضر عنده متى يجد العبد حلاوة **الأنس بالله** عز وجل قال إذا قطع العلائق ورفض الخلائق وكان من أهل الحقائق وعمل بالرقائق فحينئذ ينجو من البوائق قال وأنشدني أخي قال أنشدني أبو العباس البلخي بمدينة السلام في هذا المعنى من الطويل وما الزهد إلى في انقطاع العلائق وما الحب إلا في وجود الحقائق وما الحب إلا حب من مال قلبه عن الخلق مشغولا برب الخلائق فصد عن الدنيا ولم يرض بالمنى وصار إلى المولى بأرضى الطرائق كان من أهل العلم والتقدم في الفقه على مذهب أبي حنيفة وولد سنة خمس وستين وثلاث مئة وتوفي سنة تسع وثلاثين وأربع مئة ." (٣)

"(٤) حدثت عن الشريف أبي إبراهيم أحمد بن القاسم بن الميمون بن حمزة بسندها إلى عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من با ع نخلا قد أبرت فثمرتها للبائع إلا أن يشترط المبتاع ولدت سنة ثلاث وأربع مئة وتوفيت سنة سبع وخمس مئة مؤمنة بنت بهلول إحدى النسوة العابدات قال ابن أبي الحواري سمعت مؤمنة تقول إلهي وسيدي لا تجمع علي الأمرين فقدانك والعذاب قال وسمعتها تقول ما طابت الدنيا والآخرة إلا به ومعه وقالت الغافل ينام ولا يقوم ولا تطيب ساعة لا يكون فيها ذكر الله عز وجل وقالت مؤمنة ما النعيم إلا في **الأنس بالله** والموافقة لتدبيره قال ابن أبي الحواري قالت لي مؤمنة الصغيرة أنا في شيء قد شغل قلبي قلت ما هو قالت أريد أن أعرف نعمة الله علي طرفة عين أو أعرف تقصيري عن شكر النعمة طرفة عين فقلت لها أنت تريدين ما لا تهتدي إليه عقولنا مهدية بنت إبراهيم بن محمد ابن صالح بن سنان القرشي وجدت في كتاب أبيها بسنده إلى النعمان بن بشير أنه قال على منبر الكوفة وهو يغمز أذنيه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الحلال بين وإن الحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات متى يدعهن المرء ." (٥)

---

(١) مختصر تاريخ دمشق – موافق ومحقق، ١٩٣/١٤

(٢) ١٩٦

(٣) مختصر تاريخ دمشق – موافق ومحقق، ١٩٦/١٧

(٤) ٩٣

(٥) مختصر تاريخ دمشق – موافق ومحقق، ٩٣/٢٦

"(١) قلت يا راهب فأيما العقل قال أوله المعرفة وفرعه العلم وثمرته السنة قلت يا راهب متى يجد العبد حلاوة الإيمان **والأنس بالله** قال إذا صفا الود وجادت المعاملة قلت يا راهب متى يصفو الود قال إذا اجتمعت الهموم فصارت في الطاعة قلت يا راهب متى تخلص المعاملة قال إذا اجتمعت الهموم فصارت واحدة قلت يا راهب عظني وأوجز قال لا يراك الله حيث يكره قلت زدني من الشرح لأفهم قال كل حلالا وارقد حيث شئت قلت يا راهب لقد تحليت بالوحدة! قال يا فتى لو ذقت طعم الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك الوحدة رأس العبادة ومؤنسها الفكرة قلت يا راهب فما أشد ما يصيبك في صومعتك من هذه الوحدة قال يا فتى ليس في الوحدة شدة الوحدة أنس المريدين قلت يا راهب ما أشد ذلك عليك قال تواتر الرياح العواصف في الليل الشاتي قلت تخاف أن تسقط فتموت فتبسم تبسما لم يفتح فاه ولكن أشرق وجهه وقال يا فتى هل العيش إلا في السقوط وما أشبهه من أسباب الموت! قلت فلم يشتد ذلك عليك إن كان ذلك قال يا فتى أما والله إذا اشتدت علي الريح وعصفت ذكرت عند ذلك عصوف الخلق في الموقف مقبلين ومدبرين لا يدرون ما يراد بهم حتى يحكم الله بين عباده وهو خير الحاكمين فصاح صيحة أفزعتني من شدتها يا طول موقفاه! قلت يا راهب بم يقطع الطريق إلى الآخرة قال بالسهر الدائم والظمأ في الهواجر قلت يا راهب فأين طريق الراحة قال في خلاف الهوى قلت يا راهب متى يجد العبد طعم الراحة قال عند أول قدم يضعها في الجنة قلت يا راهب لقد تخليت من الدنيا وتعلقت في هذه الصومعة قال يا فتى إنه من مشى على الأرض عثر ففرت فرار الأكياس من فخ الدنيا وخفت اللصوص على رحلي فتعلقت في هذه الصومعة وتحصنت بمن في السماء من فتنة من في الأرض لأنهم سراقون للعقول فتخوفت أن يسرقوا عقلي وذلك أن القلب إذا صافى صديقه ضاقت به الأرض وإذا أنا تفكرت في الدنيا تفكرت في الآخرة وقرب الأجل فأحببت الرحيل إلى رب لم يزل قلت يا راهب فمن أين تأكل قال من زرع لم أتول بذاره من بيدر اللطيف الخبير ثم قال يا فتى إن الذي خلق الرحا هو يأتيها بالطحين ثم أشار بيده إلى رحا ضرسه قلت يا راهب ." (٢)

"(٣) سباع أبو محمد الموصلي الزاهد صحب المضاء بن عيسى الزاهد وجالسه قال مضاء العابد لسباع العابد يا أبا محمد إلى أي شيء أفضى بهم الزهد قال إلى **الأنس به** وفي حديث آخر قال له يا أبا محمد أي شيء أفضى بهم إلى الزهد قال **الأنس بالله** سبرة ويقال سمرة بن العلاء ابن الضخم الدمشقي حدث عن الزهري أن أهل ذا الحليفة كانوا يجمعون مع النبي صلى الله عليه وسلم وذلك على مسيرة أميال من المدينة سبرة ويقال سمرة بن فاتك الأسدي أخو خريم بن فاتك له صحبة شهد فتح دمشق وهو الذي تولى قسمة المساكن بين أهلها بعد الفتح فكان ينزل الرومي في العلو وينزل المسلم في السفل لئلا يضر المسلم بالذمي وقيل إنه شهد بدرا روى سمرة بن فاتك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الميزان بيد الله يرفع قوما ويضع قوما وقلب ابن آدم بين اصبعين من أصابع الرب عز وجل إذا شاء أزاغه وإذا شاء أقامه ." (٤)

---

(١) ٢٩٨

(٢) مختصر تاريخ دمشق - موافق ومحقق، ٢٩٨/٣

(٣) ٢٠٤

(٤) مختصر تاريخ دمشق - موافق ومحقق، ٢٠٤/٩

" قال الوليد : فذكرت ذلك للأوزاعي فقال : صدق مالك

أحمد بن محمود أبو بكر الرسعني

حدث عن أبي عمير عدي بن أحمد عبد الباقي الأذني بسنده عن ابن عباس قال : سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : اقتلوا الفاعل والمفعول به

أحمد بن مردك بن زنجلة

أبو عبد الله ويقال أبو جعفر الرازي حدث عن أيوب بن عروة الكوفي بسنده عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا نكاح إلا بولي وشاهدين

توفي في مصر في جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومئتين

أحمد بن مسعود المقدسي قيل إنه دمشقي

حدث عن عمرو بن أبي سلمة بسنده عن جابر أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : من أبلى خيرا فلم يجد إلا الثناء فقد شكره ومن كتمه فقد كفره ومن تحلى بباطل فهو كلابس ثوبي زور

وحدث أيضا بسنده عن ابن عمر أن رجلا أتاه فقال : بم أهل رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : أهل بالحج فانصرف عنه ثم جاءه من العام المقبل فقال : بم أهل رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : ألم تأتني عام أول ؟ قال : بلى ولكن أنس بن مالك زعم أنه قرن فقال ابن عمر : إن أنسا كان يتولج على النساء مكشفات الرؤوس وإني كنت تحت ناقة رسول الله صلى الله عليه و سلم يمسني لعابها أسمعه يلبي بالحج

حدث أحمد بن مسعود الخياط ببيت المقدس سنة أربع وسبعين ومئتين

أحمد بن مسلمة بن جبلة بن مسلمة

ابن أوفى بن خارجة بن حمزة بن النعمان صاحب رسول الله صلى الله عليه و سلم أبو العباس العذري حدث عن أحمد بن عبد الله الدمشقي بسنده عن السليط بن سبيع وكان من بني عامر قال : كنت تاجرا وكان أكثر تجارتي في البحر فركبت من ذلك إلى بلاد الصين فأتيت على راهب من رهبان الصين كان على دين عيسى بن مريم وكان مؤمنا فناديته : يا راهب فأشرف من صومعته فقال : ما تشاء ؟ قلت : من تعبد ؟ قال : الذي هو خلقني وخلقك قلت : يا راهب فعظيم هو ؟ قال : نعم يا فتى عظيم في المنزلة قد حوت عظمته كل شيء لم يحلل بنفسه في الأشياء فيقال منها ولم يعتزل فيقال ناء عنها . قلت : يا راهب فأين الله من محل قلوب العارفين ؟ قال : يا فتى إن قلوب العارفين لا تعزب عن الله بعد إذ علم أنها إليه مشتاقة . قلت : يا راهب فما الذي قطع بالخلق عن الله ؟ قال : حب الدنيا لأنها أصل المعاصي ومنها تفجرت ولم تصل بهم إلى إبطال تركها قلة معرفة . ولتركها ثلاث منازل : فأولها منزلة ترك الحرام من القول والفعل والعزائم والرضا بما جل من ذلك أو دق حتى تطيع الله فيمن عصاه فيك وتعتزل الصديق والعدو فعند ذلك تتفجر ينابيع الحكمة من قلبك وتدع الهوى بنور الإيمان عليك

والمنزلة الثانية : ترك الفضول من القول والمقال والمنال حتى ترحم من ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك فعند ذلك تقاد بحلاوة طاعة الله عز و جل وبعزم الإرادة وترتبط بحبل الطاعة

والمنزلة الثالثة : ترك العلو والرئاسة واختيار التواضع والذلة حتى تصير مثل مملوك لسيده وبامراج النظر تطلعت النفس إلى فضول الشهوات فأظلم القلب فلم ير جميلا فيرغب فيه ولا قبيحا فيأنف منه وبضبط النظر ذلت النفس عن فضول الشهوات فانفتح القلب فأبصر جميلا يرغب فيه وانكشف العقل فأبصر

قلت : يا راهب فأيما العقل ؟ قال : أوله المعرفة وفرعه العلم وثمرته السنة . قلت : يا راهب متى يجد العبد حلاوة الإيمان **والأنس بالله** ؟ قال : إذا صفا الود وجادت المعاملة . قلت : يا راهب متى يصفو الود ؟ قال : إذا اجتمعت الهموم فصارت في الطاعة . قلت : يا راهب متى تخلص المعاملة ؟ قال : إذا اجتمعت الهموم فصارت واحدة ." (١)

" حج السائب مع النبي صلى الله عليه و سلم وهو ابن سبع سنين وذهبت به خالته إلى النبي صلى الله عليه و سلم وهو مريض فمسح رأسه ودعا له بالبركة وتوضأ النبي صلى الله عليه و سلم فشرب من وضوئه ونظر إلى خاتم بين كتفيه

ويقال : حج مع النبي صلى الله عليه و سلم وعمره عشر سنين

وقيل : ولد في سنة ثلاث من الهجرة ومات في سنة سبع وتسعين وهو ابن سبع وتسعين سنة

وقيل : مات وهو ابن أربع وتسعين سنة وكان جلدا معتدلا

وقال : علمت ما متعت به سمعي وبصري إلا بدعاء رسول الله صلى الله عليه و سلم ذهبت بي خالتي إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالت : إن ابن أختي شاك فادع الله له . قال : فدعا لي

وقيل توفي سنة اثنتين وثمانين . وقيل : سنة إحدى وتسعين

حدث السائب بن يزيد قال : ذهبت بي خالتي إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالت : يا رسول الله إن ابن أختي وجع فمسح رأسي ودعا لي بالبركة ثم توضأ فشربت من وضوئه ثم قام يصلي فقمت خلفه فرأيت الخاتم بين كتفيه

وحدث السائب بن يزيد قال : رأيت النبي صلى الله عليه و سلم قتل عبد الله بن خطل وأخرجوه من تحت أستار الكعبة فضرب عنقه بين زمزم والمقام ثم قال : لا يقتل قرشي بعد هذا صبرا

حدث عطاء مولى السائب قال : كان شعر السائب بن يزيد أسود من هامته إلى مقدم رأسه وكان سائر رأسه مؤخره وعارضيه ولحيته أبيض فقلت يوما : ما رأيت أحدا أعجب شعرا منك ! قال : فقال لي : أو لا تدري مم ذاك يا بني ؟ إن رسول الله صلى الله عليه و سلم مر بي وأنا ألعب مع الصبيان فمسح يده على رأسي وقال : بارك الله فيك فهو لا يشيب أبدا

قال ابن شهاب : ما اتخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم قاضيا ولا أبو بكر ولا عمر حتى قال عمر للسائب ابن أخت نمر : وجه عني بعض الأمر . حتى كان عثمان قال الزهري : بعض الأمور وقال : يعني صغيرها

وعن ابن شهاب عن السائب بن يزيد : أنه كان يعمل مع عبد الله بن عتبة بن مسعود على عشور السوق في عهد عمر بن الخطاب فكنا نأخذ من النبط نصف العشر مما تجروا به من الحنطة فقال ابن شهاب : فحدثت به سالم بن عبد

---

(١) مختصر تاريخ دمشق - مفهرس، ص/٤١٧

الله بن عمر فقال : لقد كان عمر يأخذ من القطنية العشور ولكن إنما وضع نصف العشر يسترضي النبط للحمل إلى المدينة

وقيل : مات السائب سنة ثمانين

السائب بن يسار أبو جعفر المديني

مولى بني ليث المعروف بسائب خاثر مغن معروف وكان غنى صوتا ثقيلا فقالوا : هذا غناء خاثر غير ممذوق . فلقب خاثرا

كان منقطعا إلى عبد الله بن جعفر فنسب إلى ولائه وكان عبد الله بن جعفر يخرج به إلى معاوية إذا خرج وغيره من القرشيين فقال معاوية لعبد الله بن جعفر : هذا الرجل الذي لا يخلو من رقاعكم ومن حوائجكم ترفعون اسمه في حوائجكم ! أي شيء صناعته ؟ قال له عبد الله بن جعفر : إن شئت يا أمير المؤمنين أن يدخل عليك حتى يسمعك بعض صناعته . فدخل على معاوية بن أبي سفيان وهو على وسادة قد جلس عليها فقال له عبد الله بن جعفر : أسمع أمير المؤمنين بعض ما عندك . قال : فأسمعه فلما سمع بعض ذلك قال : قم لا أقام الله رجليك والله لقد كدت أن أقوم عن وسادتي . قيل : إن سائبا قتل يوم الحرة

سباع أبو محمد الموصلي الزاهد

صحب المضاء بن عيسى الزاهد وجالسه

قال مضاء العابد لسباع العابد : يا أبا محمد إلى أي شيء أفضى بهم الزهد ؟ قال : إلى **الأنس به**

وفي حديث آخر : قال له : يا أبا محمد أي شيء أفضى بهم إلى الزهد ؟ قال : **الأنس بالله**

سبرة ويقال سمرة بن العلاء

ابن الضخم الدمشقي حدث عن الزهري : أن أهل ذا الحليفة كانوا يجمعون مع النبي صلى الله عليه و سلم وذلك على مسيرة أميال من المدينة

سبرة ويقال سمرة بن فاتك الأسدي

أخو خريم بن فاتك

له صحبة شهد فتح دمشق وهو الذي تولى قسمة المساكن بين أهلها بعد الفتح فكان ينزل الرومي في العلو وينزل المسلم في السفل لئلا يضر المسلم بالذمي . وقيل : إنه شهد بدرا

روى سمرة بن فاتك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " الميزان بيد الله يرفع قوما ويضع قوما وقلب ابن آدم بين اصبعين من أصابع الرب عز و جل إذا شاء أزاغه وإذا شاء أقامه

روي عن أبي مطيع : سبرة بالباء

وعن سمرة بن فاتك قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم " ." (١)

---

(١) مختصر تاريخ دمشق – مفهرس، ص/١٢٦١

" اشتهى أبو سليمان رغيفا حارا بملح فجئت به إليه فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يبكي ويقول : يا رب عجلت لي شهوتي لقد أطلت جهدي وشقوتي وأنا تائب فاقبل توبتي . قال أحمد : ولم يذق أبو سليمان الملح حتى لحق بالله عز و جل

قال أحمد : سمعت أبا سليمان يقول : قدم أهلي إلي مرة خبزا وملحا فكان في الملح سمسمة فأكلتها فوجدت رانها على قلبي بعد سنة

قال أبو سليمان : ما رضيت عن نفسي طرفة عين ولو أن أهل الأرض اجتمعوا على أن يضعوني كاتضاعي عن نفسي ما أحسنوا

وقال : من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة

وقال : إذا تكلف المتعبدون أن لا يتكلموا إلا بالإعراب ذهب الخشوع من قلوبهم

وقال أبو سليمان : ليس شيء أحب إلي من أن أكفى المؤونة يتحدث رجل وأسمع أنا ولربما حدثني الرجل بالحديث أنا أعلم به منه فأنصت إليه كأني ما سمعته قط ولربما مشيت إلى الرجل هو أولى بالمشي إلي مني إليه

وقال : من حسن ظنه بالله ثم لا يخاف فهو مخدوع

قال أحمد بن أبي الحواري : قال لي أبو سليمان : يا أحمد أيكون شيء أعظم ثوابا من الصبر ؟ قال : قلت : نعم الرضى عن الله عز و جل . قال : ويحك إذا كان الله تعالى يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب فانظر إلى ما يفعل بالراضي عنه

وقال أبو سليمان : أرجو أن أكون عرفت طرفا من الرضى لو أنه أدخلني النار لكنت بذلك راضيا

قال أبو سليمان : ربما مثل لي أني على قنطرة من قناطير جهنم بين حجرين فكيف يكون عيش من هو هكذا ؟

قال أبو سليمان : لولا الذنوب لسألناه أن يقيم القيامة ولكن إذا ذكرت الخطيئة قلت : أبقى لعلي أتوب

قال أبو سليمان : ما يسرني أن لي من أول الدنيا إلى آخرها أنفقه في وجوه البر وأني أغفل عن الله طرفة عين

قال رجل لأبي سليمان : أوصني فقال أبو سليمان : قال زاهد لزاهد : أوصني قال : لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك قال : زدني قال : ما عندي زيادة

قال أبو سليمان : وقعت أمي من فوق وتكسرت فأهمني أمرها فقلت : يا رب من يخدمها ؟ فجعلت أبكي في سجودي فإذا بهاتف يهتف : يا أبا سليمان قم إلى الحائط فخذ ما فيه وادع به فقمت فإذا بقرطاس ما رأيت على نقائه وبياضه بخط ما رأيت مثله حسنا تفوح منه رائحة المسك وإذا فيه مكتوب : يا مدرك الفوت بعد الفوت ويا من يسمع في ظلم الليل الصوت ويا من يحيي العظام وهي رميم بعد الموت فدعوت بها وأنا ساجد فإذا أمي تقول : يا أبا سليمان ما فعلت الغلة ؟ قال : قلت لها : قد قمت ؟ قالت : نعم

قال أحمد بن أبي الحواري : بات أبو سليمان ذات ليلة . فلما انتصف الليل قام ليتهيأ . فلما أدخل يده في الإناء بقي على حالته حتى انفجر الصبح وحان وقت الإقامة فخشيت أن تفوت صلاته فقلت : الصلاة يرحمك الله فقال : لا

حول ولا قوة إلا بالله ثم قال : يا أحمد أدخلت يدي في الإناء فعارضني عارض من سري : هب أنك غسلت بالماء ما ظهر منك فبماذا تغسل قلبك ؟ فبقيت متفكرا فألهمت حتى قلت : بالغموم والأحزان فيما يفوتني من **الأنس بالله**

قال ابن أبي الحواري : كنت مع أبي سليمان حين أراد الإحرام فلم يلب حتى سرنا ميلا وأخذه كالغشية في المحمل ثم افاق فقال : يا أحمد إن الله تبارك وتعالى أوصى إلى موسى : مر ظلمة بني إسرائيل أن يقلوا من ذكري فإني أذكر من ذكرني منهم باللعنة حتى يسكت ويحك يا أحمد ! بلغني أنه من حج من غير حله ثم لبى قال الله له : لا لبيك ولا سعد يك حتى ترد ما في يديك فما يؤمننا أن يقال لنا ذلك ؟

قال أبو سليمان : ينبغي للخوف أن يكون أغلب على الرجاء فإذا غلب الرجاء على الخوف فسد القلب

قال أبو سليمان : من أحسن في نهاره كوفئ في ليله ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره ومن صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه والله تعالى أكرم من أن يعذي قلبا لشهوة تركت له

قال أبو سليمان : إذا سكنت الدنيا القلب ترحلت منه الآخرة

قال : إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزحمها وإذا كانت الدنيا في القلب لم تزحمها الاخرة . إن الآخرة كريمة والدنيا لئيمة

قال أبو سليمان : ." (١)

" سئل ذو النون وأنا حاضر عنده : متى يجد العبد حلاوة **الأنس بالله** عز وجل ؟ قال : إذا قطع العلائق ورفض الخلائق وكان من أهل الحقائق وعمل بالرقائق فحينئذ ينجو من البوائق

قال : وأنشدني أخي قال : أنشدني أبو العباس البلخي بمدينة السلام في هذا المعنى : من الطويل

وما الزهد إلى في انقطاع العلائق ... وما الحب إلا في وجود الحقائق

وما الحب إلا حب من مال قلبه ... عن الخلق مشغولا برب الخلائق

فصد عن الدنيا ولم يرض بالمنى ... وصار إلى المولى بأرضى الطرائق

كان من أهل العلم والتقدم في الفقه على مذهب أبي حنيفة

وولد سنة خمس وستين وثلاث مئة وتوفي سنة تسع وثلاثين وأربع مئة

علي بن إبراهيم بن يوسف

أبو الحسن الشقيفي البصري الصوفي حدث عن جعفر الديبلي عن أبي القاسم جنيد بن محمد قال : كنت إذا قمت من عند أبي الحسن سري يقول : إذا قمت من عندي من تجالس ؟ فقلت له : حارثا المحاسبي . فقال : نعم خذ من علمه وأدبه . واحذر تشقيقه الكلام . قال : فلما وليت سمعته يقول : جعلك صاحب حديث صوفيا ولا جعلك صوفيا صاحب حديث

---

(١) مختصر تاريخ دمشق – مفهرس، ص/١٩٥١

وحدث عن إبراهيم بن أحمد بن المولد الرقي بسنده إلى إبراهيم بن أدهم قال : مررت بالشام بحجر منقور عليه مكتوب : أنت بما تعلم لا تعمل تطلب علم ما لا تعلم

وحدث عنه أيضا بسنده إلى أبي الحسن أحمد بن هارون قال : وجدت هذه الأبيات على حائط بصنعاء مكتوبة : من المتقارب

أحب الشمال وأهوى الجنوبا ... لأنهما يسعدان الكئيبا

تجيء الشمال بريح الحبيب ... فتفعل في القلب فعلا عجيبا

وتمضي الجنوب بشكوى المحب ... إلى من يحب فتشفي القلوبا

أعلل نفسي بمر الرياح ... لأني غريب أحب الغريبا

فطوبى لمن كان ذا فطنة ... يرى من يحب قريبا قريبا

علي بن إبراهيم القاضي

حدث بدمشق عن جعفر بن أحمد بسنده إلى سعيد بن عبد العزيز أنه قال : إذا كان الله معك فمن تخاف ؟ وإذا كان الله عليك فمن ترجو ؟ وحدث بدمشق عن محمد بن علي بن خلف بسنده إلى أبي سليمان الداراني قال : مفتاح الدنيا الشبع ومفتاح الآخرة الجوع

علي بن إسحاق بن رداء

أبو الحسين الغساني الطبراني قاضي طبرية

حدث عن علي بن نصر البصري بسنده إلى علي بن الحسين عن أبيه رفعه قال : إن الله عز وجل خلق عليين وخلق طينتنا منها وخلق طينة محبينا منها وخلق سجين وخلق طينة مبغضينا منها فأرواح محبينا تتوق إلى ما خلقت منه وأرواح مبغضينا تتوق إلى ما خلقت منه

كان علي بن رداء أحد الثقات والظرفاء من أهل الشام رحمه الله

علي بن إسحاق بن يحيى بن معاذ الكاتب

شاعر ولي معونة دمشق في أيام الواثق في سنة ست وعشرين ومئتين

كان رجاء بن أبي الضحاك يتولى خرج حيدتي دمشق والأردن في أيام الواثق وكان علي بن إسحاق بن يحيى بن معاذ يتولى معونة حيدتي دمشق والأردن خلافة أبيه فكانا إذا اجتمعا أمر رجاء في منزله بحضرة علي بن إسحاق ولا يؤمر علي بن إسحاق وكان ينكر رجاء إذا كان في منزل علي بن إسحاق أن يؤمر علي بن إسحاق بحضرته ؛ فقيل له في ذلك فقال : أنا أجل وأقدم بخراسان وأولى بالإمارة منه ؛ فأحفظ ذلك عليا حتى زور كتابا بولايته الخراج ووجه إلى رجاء يحضره ؛ فقيل لرجاء : وجه إلى شيوخ البلد وإلى الناس فاجمعهم عندك وشاورهم في ذلك ؛ فقال رجاء : افتحوا الباب ولا تمنعوا أحدا وحمله العجب على ترك التحرز

فوجه إليه علي بن إسحاق من أخرجه راجلا حتى جاء به إليه فحبسه ثم قتله وقتل ابنه وقتل كاتبه وطبيبه

فلما فعل ذلك غلظ على عيسى بن سابق وكان صاحب شرطة دمشق وشق ذلك أيضا على جماعة الوجوه من قواده وتشاوروا فيما بينهم فقالوا : قد أقدم هذا على أمر غليظ ونحن فقد علم السلطان موضعنا ومكاننا في البلد وإنا من أهله وتنائه فاتفقوا على أن يقبضوا على علي بن إسحاق فيتوثقوا منه ويكتبوا إلى السلطان بخبره ." (١)

" ووافانا المهدي فحدثته حديثها فوالله ما انتظر أن أعرف الجواب حتى وثب في وجهي مغضبا فقال : زينب الله ! إن هذا مقدار شكرك الله على نعمته وقد أمكنك الله من مثل هذه المرأة على هذه الحال التي هي عليها فوالله لولا محلك من قلبي لحلفت ألا أكلمك أبدا فقلت : قد اعتذرت إليها ورضيت ثم قصصت عليه قصتها كلها وما فعلت الخيزران بها فقال لخدام كان معه : احمل إليها مئة بدرة وادخل إليها أبلغها مني السلام وقل لها : والله ما سررت من دهر مثل سروري اليوم بمكانك وأنا أخوك ومن يوجب حقك فلا تدعي حاجة إلا سألتها ولولا أني أكره أن أحشمك لصرت إليك مسلما عليك وقاضيا لحقك

فمضى الخادم بالمال والرسالة ؛ فأقبلت إلينا معه فسلمت على المهدي وشكرت له فعله وأثنت على الخيزران عنده وقالت : ما علي من أمير المؤمنين حشمة أنا في عدد حرمه

وقعدت ساعة ثم قامت إلى منزلها فخلفها عند الخيزران كأنها لم تزل في ذلك القصر

فهذا الحديث خير لك من كتاب وقد وهبت لك كتاب

ملكة بنت داود بن محمد بن سعيد القرطكي

العالمة الصوفية من المعمرات حدثت عن الشريف أبي إبراهيم أحمد بن القاسم بن الميمون بن حمزة بسندها إلى عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : " من باع نخلا قد أبرت فثمرتها للبائع إلا أن يشترط المبتاع "

ولدت سنة ثلاث وأربع مئة وتوفيت سنة سبع وخمس مئة

مؤمنة بنت بهلول

إحدى النسوة العابدات

قال ابن أبي الحواري : سمعت مؤمنة تقول : إلهي وسيدي لا تجمع علي الأمرين : فقدانك والعذاب

قال : وسمعتها تقول : ما طابت الدنيا والآخرة إلا به ومعه

وقالت : الغافل ينام ولا يقوم ولا تطيب ساعة لا يكون فيها ذكر الله عز و جل

وقالت مؤمنة : ما النعيم إلا في **الأنس بالله** والموافقة لتدبيره

قال ابن أبي الحواري : قالت لي مؤمنة الصغيرة : أنا في شيء قد شغل قلبي قلت : ما هو ؟ قالت : أريد أن أعرف نعمة الله علي طرفة عين أو أعرف تقصيري عن شكر النعمة طرفة عين فقلت لها : أنت تريدين ما لا تهتدي إليه عقولنا

مهدية بنت إبراهيم بن محمد

---

(١) مختصر تاريخ دمشق – مفهرس، ص/٢٣٣٦

ابن صالح بن سنان القرشي وجدت في كتاب أبيها بسنده إلى النعمان بن بشير أنه قال على منبر الكوفة وهو يغمز أذنيه : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : " إن الحلال بين وإن الحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات متى يدعهن المرء يكن استبرأ لعرضه ودينه ومن يرتع فيهن يوشك أن يرتع في الحرام كالمرتع إلى جانب الحمى يوشك أن يقع في الحمى ألا وإن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه "

ميسون بنت بحدل بن أنيف بن دلجة

ابن قنافة بن عدي بن زهير بن حارثة الكلبية زوج معاوية بن أبي سفيان وأم يزيد بن معاوية كانت لبيبة

دخل عليها معاوية ومعه حديج الخصي فاستترت منه فقال لها معاوية : إن هذا بمنزلة المرأة فعلام تستترين منه ؟ فقالت له : كأنك ترى أن المثلة أحلت له مني ما حرم الله عليه

وحدثت ميسون عن معاوية أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : " سيكون قوم ينالهم الإخصاء فاستوصوا بهم خيرا "

أو نحو هذا من الكلام

وميسون : بياء معجمة باثنتين تحتها وسين غير معجمة وبالنون

ولما تزوجت ميسون معاوية ونقلت إلى دمشق وأسكنت قصرا من قصور الخلافة حنت ذات يوم إلى البادية فأنشأت تقول : - وقيل : إنه أسكنها الخضراء ؛ فذكرت البداوة وكرهت الحضارة فقالت : - " من الوافر "

للبس عباءة وتقر عيني ... أحب إلي من لبس الشفوف

وبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إلي من قصر منيف

وبكر يتبع الأظعان صعب ... أحب إلي من بغل زفوف

وخرق منن بني عمي نجيب ... أحب إلي من علج عليف

وكلب ينبح الطراق عني ... أحب إلي من قط ألوف

عليف : أي سمين والقط هاهنا : السنور والقط : الكتاب والقط : ساعة من الليل

فقال معاوية : جعلتني علجا وطلقها وألحقها بأهلها

مية مولاة معاوية بن أبي سفيان

وقف ابن الزبير على باب مية مولاة كانت لمعاوية ترفع حوائج الناس إليه

قال عمر بن شبة : فقلت : يا أبا بكر على مية ؟ قال : نعم إذا أعيتك الأمور من رؤوسها فأتها من أذنابها

قال : ." (١)

"إذن لم يقل -كما قال الشيخ الألباني- إن كل ما تراه بعينك فهو الله ، بل قال: يرى القلب فيها يد الله في كل شيء.وشتان شتان بين رؤية القلب ورؤية العين.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق - مفهرس، ص/٣٥٠٢

وقال سيد: ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئا في الكون إلا الله ، وفاعل يرى في هذه الجملة الثانية: ضمير مستتر تقديره هو يعود على القلب في الجملة الأولى.

فعبارة الأستاذ سيد: تصور ، رؤية القلب ، إحساس داخلي وإن الإمام ابن القيم لا يعتبر هذا ولا أكثر منه صراحة من قبيل القول بوحدة الوجود.

يقول ابن القيم في مدارج السالكين (١/٢٥١): (وفرق بين إسقاط الشيء عن درجة الوجود العلمي الشهودي ، وإسقاطه عن رتبة الوجود الخارجي العيني ، فشيخ الإسلام –يعني الهروي صاحب منازل السائرين– بل مشايخ القوم المتكلمين بلسان الفناء هذا مرادهم) هذه شهادة من إمام من أئمة السلف الذين يتذوقون أساليب البيان ، وتذوقوا طعم **الأنس بالله** من خلال السير صعدا على مدارج السالكين ، يقول ابن القيم: هذا الكلام السابق في تفسير عبارات الهروي صاحب المنازل ، يقول الهروي صاحب منازل السائرين: (الفناء: هو اضمحلال ما دون الحق علما ، ثم جحد ، ثم حقا ، وهو على ثلاث درجات).

قال ابن القيم في تفسيرها: (الفناء اضمحلال ما دون الحق جحدا).

(لا يريد به أن يعدم من الوجود بالكلية ، وإنما يريد اضمحلاله في العلم فيعلم أن ما دونه باطل وأن وجوده بين عدمين ، وأنه ليس له من ذاته إلا العدم فعدمه بالذات ، ووجوده بإيجاد الحق له ، فيفني في علمه ، كما كان فانيا في حال عدمه ، فإذا فني في علمه ارتقى إلى درجة أخرى فوق ذلك ، وهي جحد السوى وإنكاره ، وهذه أبلغ من الأولى لأنها غيبته عن السوى فقد يغيب عنه وهو غير جاحد له ، وهذه الثانية جحده وإنكاره.

ومن ههنا دخل الإتحادي وقال: المراد جحد السوى بالكلية ، وإنه ما ثم غير بوجه ما.." (١)

" عبد العزيز وغيرهم وحدث عن علي بن الحسين بن بندار الأنطاكي وأبي القاسم الجوهري صاحب المسند وجماعة

عرض عليه القراءات جماعة منهم أبو القاسم الهذلي وأبو القاسم ابن الفحام الصقلي وأبو الحسن علي بن بليمة وأبو الحسين الخشاب

وحدث عنه جعفر بن إسماعيل بن خلف الصقلي وعبد الغني بن طاهر وأبو عبد الله محمد بن أحمد الرازي وآخرون

وكان صحيح الرواية رفيع الذكر

توفي في رجب سنة ثلاث وخمسين وأربع مئة وهو في عشر المئة

٣٥٦ – عبد الرحمن بن أحمد

ابن الحسن بن بندار الرازي أبو الفضل العجلي المقرىء أحد الأعلام وشيخ الإسلام

ورد أن مولده بمكة ومازال ينتقل في البلدان على قدم التجريد **والأنس بالله**

ذكره أبو سعد ابن السمعاني فقال كان مقرئا فاضلا كثير التصانيف حسن السيرة زاهدا متعبدا خشن العيش منفردا قانعا باليسير يقرىء أكثر أوقاته ويروي الحديث وكان يسافر وحده ويدخل البراري

(١) عملاق الفكر الإسلامي (الشهيد سيد قطب)، ص/٣٧

سمع بمكة من أحمد بن فراس العبسقي وعلي بن جعفرالسيرواني ." (١)

"قلت: ومن تصانيفه " شرح منازل السائرين " ولم يتمه، وله نظم حسن في السلوك.

كتب عنه الذهبي والبرزالي، وسمع منه جماعة من شيوخنا وغيرهم، وكان له مشاركة جيدة في العلوم، وعبارة حسنة قوية، وفهم جيد، وخط حسن في غاية الحسن. وكان معمور الأوقات بالأوراد والعبادات، والتصنيف، والمطالعة، والذكر والفكر، مصروف العناية إلى المراقبة والمحبة، **والأنس بالله**، وقطع الشواغل والعوائق عنه، حثيث السير إلى وادي الفناء بالله، والبقاء به، كثير اللهج بالأذواق والتجليات، والأنوار القلبية، منزوياً عن الناس، لا يجتمع إلا بمن يحبه، ويحصل له باجتماعه به منفعة دينية.

ولم يزل على ذلك إلى أن توفي آخر نهار السبت سادس عشر ربيع الآخر سنة إحدى عشر وسبعمائة. بالمارستان الصغير بدمشق، وصُلِّي عليه من الغد بالجامع. ودفن بسفح قاسيون، قبالة زاوية السيوفي، رضي الله عنه.

محمد بن أحمد بن أبي نصر بن الدباهي البغدادي، الزاهد شمس الدين، أبو عبد الله بن أبي العباس: ولد سنة ست – أو سبع – وثلاثين وستمائة ببغداد.

وصحب الشيخ يحيى الصرصري، وكان خال والدته، والشيخ عبد الله كتيلة مدة، وسافر معه، وأجاز له التستري من ماردين، وجاور بمكة عشر سنين، ودخل الروم، والجزيرة، ومصر، والشام، ثم استوطن دمشق، وتوفي بها.

قال الشيخ كمال الدين بن الزملكاني عنه: شيخ صالح، عارف زاهد، كثير الرغبة في العلم وأهله، والحرص على الخير، والاجتهاد في العبادة، تخلى عن الدنيا، وخرج عنها، ولازم العبادة، والعمل الدائم والجد، واستغرق أوقاته في الخير، وكان لديه فضل. وعنده مشاركات جيدة في علوم. وله عبارة حسنة فيما يكتبه، وطلب الفوائد الدينية. متقشف ورع، صلب في الدين، مجانب لمن يخشى على دينه منه، محب للصالحين وأهل الخير، منقطع عن الناس مهيب. يقوم الليل ويكثر الصوم، ويطيل الصلاة بخشوع وإخبات واستغراق، ويتلو القران العظيم، لا يرى خالياً من أفعال الخير وأعمال البر، ويتصدق في السر، وينصح الإخوان، ويسعى في مصالحهم، ويحسن القيام على عياله، ويلازم الجماعات عْي الجامع، ولا يغشى السلاطين ولا الولاة، ولا أهل الدنيا، إلا عند ضرورة دينية. وكان يخشن مأكله وملبسه، ويحب طريق السلف الصالح، وإذا رآه إنسان عرف الجد في وجهه، يقوم فيما يظهر له من الحق، ويأمر بما يمكنه من المعروف، وينهى عما يقمر على النهي عنه من المنكر، ولم يزل كذلك حتى توفي.

قال البرزالي: أحد المشايخ العارفين الصالحين، وله كلام حسن. وجمع وتأليف، وهو حسن الجملة، عديم التكلف، وافر الإخلاص، متبع للسنة، حسن المشاركة في العلم، سيد من السادات.

وقال الذهبي: كان إماماً فقيه النفس، عارفاً بمعاملات القلوب، صحب خلقاً من المشايخ، وأخذ عنهم أخلاق القوم وطريقهم، وكان حسن المجالسة، متبعاً للسنة، محذراً من البدعة، كثير الطلب، ترك أباه ونعمته وتجرد، ودخل الروم، والجزيرة، والشام، ومصر، والحجاز، يصحب بقايا الصوفية، ويقتفي آثارهم، وحفظ كثيراً عنهم وعن مشايخ الطريق، وأنفق كثيراً من

---

(١) معرفة القراء الكبار، ٤١٧/١

الأموال من ميراثه على الفقراء.

وقرأ الفقه في شبيبته على مذهب أحمد، وجاور بالحرمين بضع عشرة سنة، وتأهَّلَ وولد له، فلما لمعت له أنوار شيخنا – يعني: ابن تيمية – وظفر بأضعاف تطلبه: ارتحل إلى دمشق بأهله، واستوطنها.

علقت عنه: أشياء، وسمعت من تأليفه خطبة بليغة، وصحبته بضع عشرة سنة، وسمعت منه جزءاً لإجازته من التشتبري.

قلت: سمع منه البرزالي، والذهبي، وذكراه في معجميهما.

قال الذهبي: ابتلي بضيق النَفَس سبعة أشهر، ثم بالاستسقاء.

وانتقل إلى رحمة الله يوم الخميس رابع عشر شهر ربيع الآخر، سنة إحدى عشر وسبعمائة. ودفن بقاسيون قبل الشيخ عماد الدين الواسطي بيومين. وأنشدني بعضهم:

الدهر ساومني عمري، فقلت له ... لا بعت عمري بالدنيا وما فيها

ثم اشتراه تفاريقاً بلا ثمن ... تبَّت يدا صفقة قد خاب شاريها

وذكر البرزالي: أنه توفي آخر نهار الخميس المذكور عند الغروب، وصلى عليه ضحى نهار الجمعة بالجامع، ودفن غربي تربة الشيخ أبي عمر، رضي الله عنهما.." (١)

"قلت: ومن تصانيفه "شرح منازل السائرين" ولم يتمه، وله نظم حسن في السلوك.

كتب عنه الذهبي والبرزالي، وسمع منه جماعة من شيوخنا وغيرهم، وكان له مشاركة جيدة في العلوم، وعبارة حسنة قوية، وفهم جيد، وخط حسن في غاية الحسن. وكان معمور الأوقات بالأوراد والعبادات، والتصنيف، والمطالعة، والذكر والفكر، مصروف العناية إلى المراقبة والمحبة، **والأنس بالله**، وقطع الشواغل والعوائق عنه، حثيث السير إلى وادي الفناء بالله، والبقاء به، كثير اللهج بالأذواق والتجليات، والأنوار القلبية، منزويا عن الناس، لا يجتمع إلا بمن يحبه، ويحصل له باجتماعه به منفعة دينية.

ولم يزل على ذلك إلى أن توفي آخر نهار السبت سادس عشر ربيع الآخر سنة إحدى عشر وسبعمائة. بالمارستان الصغير بدمشق، وصلي عليه من الغد بالجامع. ودفن بسفح قاسيون، قبالة زاوية السيوفي، رضي الله عنه.

محمد بن أحمد بن أبي نصر بن الدباهي البغدادي، الزاهد شمس الدين، أبو عبد الله بن أبي العباس: ولد سنة ست– أو سبع– وثلاثين وستمائة ببغداد.

وصحب الشيخ يحيى الصرصري، وكان خال والدته، والشيخ عبد الله كتيلة مدة، وسافر معه، وأجاز له التستري من ماردين، وجاور بمكة عشر سنين، ودخل الروم، والجزيرة، ومصر، والشام، ثم استوطن دمشق، وتوفي بها.." (٢)

" الدخول عليه في علته فغسلته وكفنته في كساء له وأخذت فرد باب من أبواب بيته وجعلته فوقه وشدته بشريط ثم قالت لإخوانه قد مات وقد فرغت من جهازه

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة، ص/٣٢٧

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي، ٢/٢٨٢

فدخلوا واحتملوه إلى قبره وأغلقت الباب خلفهم

٣٦٤ – ميمونة أخت إبراهيم إبن أحمد الخواص لأمه

كانت تسلك مسلك أخيها إبراهيم في الزهد والتقلل والورع والتوكل

أحمد بن سالم قال دق داق باب إبراهيم الخواص فقالت له أخته من تطلب فقال إبراهيم الخواص فقالت قد خرج فقال متى يرجع فقالت من روحه بيد غيره من يعلم متى يرجع

٣٦٥ – مؤمنة بنت بهلول

عيسى بن إسحاق الأنصاري قال سمعت مؤمنة بنت بهلول تقول ما النعيم إلا في **الأنس بالله** والموافقة لتدبيره

٣٦٦ – أم عيسى بنت إبراهيم الحربي

أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت ذكر لي أن أم عيسى بنت إبراهيم الحربي كانت فاضلة عالمة تفتي في الفقه ودفنت إلى جنب أبيها إبراهيم والسلام ." (١)

" سمع أبو الحسن بن أسلم من أصحاب الأعمش و أصحاب الثوري والأوزاعي في آخرين و توفي فصلى عليه ألف ألف تقريبا

٦٩١ – أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق الطوسي

أصله من طوس لكنه سكن بغداد و مات بها

جعفر بن محمد بن نصير قال سمعت أبا العباس بن مسروق يقول قدم علينا شيخ فكان يتكلم علينا بكلام حسن و كان عذب اللسان جيد الخاطر فقال لنا في بعض كلامه كل ما وقع لكم في خواطركم فقولوا لي فوقع في قلبي أنه يهودي و كان الخاطر يقوى و لا يزول فذكرت ذلك للحريري فكبر عليه ذلك فقلت لا بد من أن أخبر الرجل بذلك فقلت له تقول كل ما وقع في خاطركم فقولوه لي إنه يقع لي أنك يهودي فأطرق ساعة ثم رفع رأسه و قال صدقت أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدا رسول الله و قال قد مارست جميع المذاهب فأنتم على الحق و حسن إسلامه

أبو سعيد بن عطاء قال إن الجنيد رأى فيما يرى النائم قوما من الأبدال فسأل هل ببغداد أحد من الأولياء فقالوا نعم أبو العباس بن مسروق قال فقلت متعجبا أبو العباس بن مسروق فقالوا نعم أبو العباس بن مسروق من أهل **الأنس بالله** عزوجل على بن عبدالله بن جهضم قال أنا المفيد قال سمعت أحمد بن مسروق يقول كانت والدتي إذا كان يوم الجمعة تبكى ." (٢)

" ما أخبرتك بكيت دما فقلت على ماذا بكيت الدموع و على ماذا بكيت الدم فقال بكيت الدموع على تخلفي عن واجب حق الله عز و جل و بكيت الدم على الدموع خوفا أن تكون ما صحت لي الدموع

---

(١) صفة الصفوة، ٥٢٧/٢

(٢) صفة الصفوة، ١٢٨/٤

قال الرجل فرأيت فتحا بعد موته في المنام فقلت ماصنع الله بك فقال غفر لي قلت فما صنع في دموعك فقال قربني ربي عز و جل و قال لي يا فتح الدمع على ماذا قلت يا رب على تخلفي عن واجب حقك قال فالدم لم بكيت فقلت يا رب على دموعي خوفا أن لا تصح لي فقال لي يا فتح ما أردت بهذا كله و عزتي لقد صعد إلي حافظاك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة

أدرك فتح عيسى بن يونس وأقرانه وأسند عن عيسى و توفي سنة عشرين و مائتين

٧٢٥ – سباع الموصلي

أحمد بن أبي الحواري قال سمعت المضاء يقول لسباع الموصلي يأبا محمد إلى أي شيء أفضى بهم الزهد قال إلى **الأنس به**

٧٢٦ – أحمد الموصلي

عن أحمد الميموني من ولد ميمون بن مهران قال قدم علينا أحمد الموصلي فأتيته فقال لي يا أحمد إن تعمل فقد عمل العاملون قبلك وإن تعبد فقد تعبد المتعبدون قبلك أولئك الذين قربوا الآخرة و باعدوا الدنيا أولئك الذين و لي الله إقامتهم على الطريق ." (١)

" ثم قال يا أحمد أدخلت يدي في الإناء فعارضني معارض من سري هب أنك غسلت بالماء ما ظهر منك فبماذا تغسل قلبك فبقيت متفكرا حتى قلت بالغموم والأحزان فيما يفوتني من **الأنس بالله** عزوجل

أحمد بن أبي الحوراي قال سمعت أبا سليمان يقول ما يسر العاقل أن الدنيا له منذ خلقت إلىان تفنى يتنعم فيها حلالا لا يسأل عنه يوم القيامة وأنه حجب عن الله عزوجل ساعة واحدة فكيف بمن حجب أيام الدنيا وأيام الآخرة

أحمد بن أبي الحواري قال سمعت أبا سليمان يقول ربما مثل لي رأسي بين جبلين من نار وربما رأيتني أهوى فيها حتى أبلغ قرارها وكيف تهنئ الدنيا من كانت هذه صفته

و سمعته يقول إنما ارتفعوا بالخوف فإن ضيعوا نزلوا و ينبغي لعاقل وإن بلغ أعلى درجة أن يفزع قلبه بأسفل درجة من ذكر الموت والمقابر والبعث

و قلت لأبي سليمان إني قد غبطت بني إسرائيل قال بأي شيء ويحك قلت بثمانمائة سنة بأربعمائة سنة حتى يصيروا كالشنان البالية و كالأوتار قال ما ظننت إلا أنك قد جئت بشيء لا والله لا يريد الله عزوجل منا أن تيبس جلودنا على عظامنا و لا يريد منا إلا النية فيما عنده هذا إذا صدق في عشرة أيام نال ما نال ذاك في عمره ." (٢)

"مات سنة ثمان وخمسين ومائتين. وقبره بنيسابور يستسقى به، ويتبرك بزيارته. وكانوا ثلاثة اخوة: يحيى، وسماعيل، وابرهيم، وكلهم زهاد.

ومن كلامه: " لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه، ويوم حشره ميزانه " وقال: "كيف يكون زاهدا من لا ورع له؟!.تورع

---

(١) صفة الصفوة، ٤/١٨٩

(٢) صفة الصفوة، ٤/٢٢٧

عما ليس لك، ثم ازهد فيما لك " .

وقال: " من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء " .

وقال: " ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال: ان لم تنفعه فلا تضره، وان لم تسره فلا تغمه، وان لم تمدحه فلا تذمه " .

وقال: " الزهد ثلاثة أشياء: الخلوة، والقلة، والجوع " .

وقال: " أولياؤه أسراء نعمه، وأصفياؤه رهائن كرمه، وأحباؤه عبيد مننه.فهم أسراء نعم لا يطلقون، ورهائن كرم لا يفكون، وعبيد منن لا يطلقون " .

وقال: " الصبر على الخلوة من علامة الأخلاص " .

وقال: " بئس الصديق صديقا يحتاج أن يقال له: " اذكرني في دعائك!، وبئس الصديق صديقا يحتاج أن يعتذر إليه، وبئس الصديق صديقا يحتاج ان يعيش معه بالمداراة " .

وقال: " من سعادة المرء أن يكون خصمه فهما، وخصمي لا فهم له " . قيل له: " ومن خصمك؟ " قال: " نفسي!لا فهم لها،تبيع الجنة بما فيها من النعيم المقيم، والخلود فيها، بشهوة ساعة من دار الدنيا " .

وقال: " على قدر حبك لله يحبك الخلق؛وعلى قدر خوفك من الله يهابك الخلق؛ وعلى قدر شغلك بالله يشتغل في أمرك الخلق " .

وقال: " من كان غناه في كسبه لم يزل فقيرا " ؛ ومن كان غناه في قلبه لم يزل غنيا " ، ومن قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محروما " " .

وقال: " جميع الدنيا – من أولها إلى أخرها – لا تساوي غم ساعة، فكيف بغم عمرك فيها مع قليل نصيبك منها؟! " .

وقال: " إذا احب القلب الخلوة أوصله حب الخلوة إلى **الأنس بالله**، ومن انس بالله استوحش من غيره " .

وأنشد:

سلم على الخلق، وارحل نحو مولاكا ... واهجر على الصدق والاخلاص دنياكا

عساك في الحشر تعطى ما تؤمله ... ويكرم الله ذو الالاء مثواكا!

وقال: " العارف يخرج من الدنيا ولا يقضي وطره في شيئين: بكاؤه على نفسه، وثناؤه على ربه " .

وقال، في قوله تعالى:)فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى(: " الهي! هذا رفقك بمن يقول: أنا إله، فكيف بمن يقول: أنت إلهه!؟ " .

وكان يقول، في جملة دعائه: " الهي!، حبك اعطش كبدي!،وأوحشني من أهلي وولدي! " وروى انه قدم شيراز، فجعل يتكلم في علم الأسرار؛ فاتته أمراءه من نسائها، فقالت: "كم تريد أن تأخذ من هذه البلدة؟ " قال: " ثلاثين ألفا،اصرفها في دين على بخراسان " ، فقالت: " لك ذلك، على انك تأخذها وتخرج من ساعتك! " ،فرضى به، وحملت اليه، وخرج من الغد. فعوتبت تلك المرأة فيما فعلت، فقالت: " لأنه كان يظهر أسرار أوليائه للسوقة والعامة، ففوت عليه ذلك " .

وقال له رجل: " انك لتحب الدنيا " ، فقال: " أين السائل عن الأخرة؟ " قال)ها أنا! " ، قال)اخبرني أيها السائل

عنها، أبالطاعة تنال أم بالمعصية؟ " . قال: لا، بل بالطاعة " قال: " فاخبرني عن الطاعة، أبالحياة تنال، أم بالممات؟ " قال: " لا، بل بالحياة " قال: " فاخبرني عن الحياة، أبالقوت تنال، أم بغيره؟ " قال: " لا، بل بالقوت " قال: " فاخبرني عن القوت، أمن الدنيا هو، أم من الأخرة؟ " قال: " لا، بل من الدنيا " ، قال: " فكيف لا أحب دنيا قدر لي فيها قوت، اكتسب به حياة، أدرك بها طاعة، أنال بها الأخرة؟! " . فقال الرجل: " اشهد ان ذلك معنى قول النبي،صلى الله عليه وسلم:)أن من البيان لسحرا(.

خرج يحيى إلى بلخ، وأقام بها مدة، ورجع إلى نيسأبور، ومات بها كما سلف.

ومن شعره:

أموت بدائي لا أصيب دوائيا ... ولا فرجا مما أرى من بلائيا

إذا كان داء العبد حب مليكه ... فمن، دونه، يرجو طبيبا مداويا؟!

ومنه:

دعني أدارى الحب من كل جانب ... فليس لها مني سبيل ومهرب

وحملتني مالا تطيق جوارحي ... فسرك في الأحشاء منى مغيب

ومن كلامه أيضا: " صبر المحبين اشد من صبر الزاهدين، واعجبا!. كيف يصبرون؟! " .

وأنشد:

الصبر يجمل في المواطن كلها ... إلا عليك فانه لا يجمل

ومنه: " حقيقة المحبة مالا تنقص بالجفاء، ولاتزيد بالبر " .

وأنشد:

لم اسلم للأسقام تتلفها ... إلا لعلمي بان الوصل يحييها." (١)

"وأنبأنا أبو مسلم الكشي حدثنا إسماعيل الصابوني حدثنا إسحاق بن إبراهيم العدل حدثنا محمد بن أحمد بن حماد الوراق حدثنا أبو الحسن القناد الصوفي حدثنا أبو الحسن بن بشار العبد الصالح حدثني عبد الله بن أحمد قال: مرت بنا جنازة ونحن قعود على مسجد أبي فقال أبي ما كانت صنعة صاحب الجنازة قالوا كان يبيع على الطريق قال في فنائه أو فناء غيره قالوا في فناء غيره قال: عز علي عز علي إن كان فناء يتيم أو غيره فقد ذهبت أيامه عطلا ثم قال: قم نصلي عليه عسى الله أن يكفر عنه سيئاته قال: فكبر عليه أربع تكبيرات ثم حملناه إلى قبره ودفناه ونام أبي تلك الليلة وهو مغتم به فإذا نحن بامرأة من بعض جيراننا جاءت إلى أبي فقالت: يا أبا عبد الله ألا أبشرك بشارة؟ فقال لها: قولي يا مباركة أنت امرأة صالحة قالت نمت البارحة فرأيت صاحب الجنازة الذي مررت معه وهو يجري في الجنة جريا وعليه حلتان خضراوان فقلت له: ما فعل الله بك قال غضبان علي وقت خروج روحي فصلى علي أحمد بن حنبل فغفر ذنوبي ومتعني بالجنة.

---

(١) طبقات الأولياء، ص/٥٥

وأنبأنا علي المحدث عن أبي عبد الله الفقيه أنه قال: إذا رأيت البغدادي يحب أبا الحسن بن بشار وأبا محمد البربهاري فاعلم أنه صاحب سنة.

قلت أنا: وكان قد سمع جميع مسائل صالح لأبيه أحمد من صالح وحدث بها فسمعها من ابن بشار جماعة منهم أبو حفص بن بدر المغالي وأحمد البرمكي وغيرهم وكان شيوخ طائفتين يقصدونه ويعظمونه أبو محمد البربهاري وأبو بكر الخلال وأبو بكر عبد العزيز وأشكالهم.

وكان ابن بشار يقول في دعائه: اللهم صل على أبينا آدم الذي خلقته بيدك وأنحلته صورتك وأسجدت له ملائكتك وزوجته حواء أمتك فسبق (٥٩/٢) عليه قضاؤك وقدرك فأكل من الشجرة فأهبطته إلى الأرض.

وقال أحمد البرمكي: سألت أبا الحسن بن بشار عن حديث أم الطفيل وحديث ابن عباس في الرؤية فقال: صحيحان فعارض رجل فقال: هذه الأحاديث لا تذكر في مثل هذا الوقت فقال ابن بشار: فيدرس الإسلام منكرا على من منع السؤال عن الخبرين.

وقرأت بخط الوالد السعيد قدس الله روحه قال: رأيت في كتب أبي حفص البرمكي عن أبي بكر الخلال أو صاحبه سمعت ابن بشار يقول: من زعم أن الكفار يحاسبون يستحي من الله ثم قال: من صلى خلف من يقول هذه المقالة يعيد.

ومن خطه: قال أحمد البرمكي: سمعت ابن بشار يقول لست أشهد لأحد بالولاية ولا بالبداية حتى تجتمع فيه أربع خصال: قطع كل علاقة تقطع عن السباق وترك كل لذة فيها حساب والتبرم بالصديق والعدو وخفة الحال وقلة الادخار.

قال: وسمعته يقول وقد سئل من أين المطعم؟ فقال قد أكثر الناس فقوم يقولون له هاون في العطارين وكل هاون لي صدقة وكل عقار وقف وقال قوم آخرون يأكل من مغزل أخته قال ابن بشار فعجبت من ذلك قال الله تعالى الرجال قوامون على النساء ولم يقل النساء قوامون على الرجال هو لا يضيع الجاثليق وهو كافر يضيعني أنا من رغيف آكله وأنا مسلم؟ ثم قال: يا أهل المجلس من قال لكم من أهل الأرض إنه يعرف مطعم ابن بشار منذ أربعين سنة فقد كذب ومن قال لكم إن لابن بشار حاجة إلى مخلوق منذ أربعين سنة فقد كذب أو قال لكم أحد من أهل الأرض إن ابن بشار سأل مخلوقا حاجة منذ أربعين سنة فقد كذب.

قال وسأله رجل عن **الأنس بالله** عز وجل قال: لا يتكلم في الأنس إلا من انقطع عن قلبه حس وساوس الأنس ثم قال: أما ترون هذه الجارية التي يقال لها ناسي وتخدم هي بني أخته؟ قلنا: بلى قال: هي في الدار منذ أربع عشرين سنة اشك في الكلمة الثانية أني كلمتها.

قال: وكان يفتتح مجلسه إذا أراد أن يتكلم بقوله عز وجل وإنك لتعلم ما نريد (٦٠/٢) فقام إليه رجل فقال له رضي الله عنك وما الذي تريد؟ فقال له: وما حملك على المسألة عن ذلك وأنا أقول ذلك منذ أربعين سنة فما سألني أحد عنه فأقسم عليه فقال: هو يعلم أني ما أريد في الدنيا والآخرة سواه.." [١]

---

(١) طبقات الحنابلة، ٥٨/٢

"٥ – اخبرنا الحسنُ بنُ رَشِيق، إجازةً، قال: حدثنا عليُّ بنُ يعقوب بن سُوَيد الورَّاق، حدثنا محمدُ بنُ إبراهيم البغدادي، حدثنا محمدُ بنُ سعيدٍ الخُوارَزْمى، قال: سمعتُ ذا النون – وسئل عن المحبَّة – قال: " ان تُحبَّ ما أحَبَّ اللهُ؛ وتبْغضَ ما أبغض اللهُ؛ وتفعلَ الخيرَ كلَّه؛ وترفضَ كلَّ ما يشغَلُ عن الله؛ وألا تخافَ في اللهِ لومه لائم؛ مع العطْفِ للمؤمنين، والغِلْظة عَلَى الْكافرين؛ واتِّباع رسولِ الله، صلى الله عليه وسلم، في الدِّين " .

* * * ٦ – سمعتُ أبا بكرٍ محمدَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ شاذان الرازى، يقول: سمعتُ يوسفَ بن الحسين، يقول: سمعتُ ذا النون يقول: قال الله تعالى: " مَنْ كان لى مُطِيعاً، كنتُ له وَليّاً؛ فلْيثِق بى، ولْيحكُمْ علىّ. فَوَعزتى! لوْ سِألنى زوالَ الدنيا لازلْتُها له " .

* * * ٧ – أخبرنى محمدُ بن احمد بن يعقوب، إجازةً، أن عبدَ اللهِ بنَ محمد ابن مَيمون، حدثهم؛ قال: سألتُ ذا النون عن الصّوفي، فقال: " من إذا نطق، أبانَ نُطْقه عن الحقائق؛ وإن سكت نطقت عنه الجوارحُ بِقَطْعِ العلائق " .

٨ – وبه قال: سمعتُ ذا النون ، يقول: " **الأُنْسُ بالله**، من صَفاء القلْب مَعَ الله؛ والتفرُّد بالله، الانقطاعُ من كل شيءٍ سوى الله " .

* * * ٩ – سمعت أبا عثمان سعيدَ بنَ أحمد بن جعفر، يقول: سمعت محمدَ بن احمد بن محمد بن سهل، يقول: سمعت سعيدَ بن عثمان الخياط، يقول: سمعتُ ذا النُّون يقول: " من أراد التواضعَ فَلْيُوَجِّه نفسه إلى عَظَمةِ الله، فإنها تذوبُ وتصفو ومن نظر إلى سلطانِ الله، ذَهبَ سلطانُ نفسه؛ لأنّ النفوسَ كلَّها فقيرةٌ عند هَيْبَتِه " .

١٠ – قال: وسمعت سعيدَ بنَ عثمان، بقول: سمعت ذا النون يقول: " لم أرَ أجْهلَ من طِبيبٍ، يداوى سكرانَ، في وقت سُكْره. لن يكون لسكره دواء – حتى يُفيق – فيداَوى بالتَّوْبَة " .

١١ – وبه قال: سمعتُ ذا النون، يقول: " لم أر شيئاً أبْعثَ لِطَلَبِ الإخلاص، من الوحدة؛لأنه إذَا خلا، لم ير غيرَ الله تعالى؛ فإذا لم ير غيرَه، لم يُحرِّكْه إلا حكمُ الله. ومن أحبَّ الخَلْوة، فقد تعلَّق بعمودِ الأخلاص، واستمسك بركنٍ كبير من أركان الصدق " .

١٢ – وبه قال: سمعت ذا النون، يقول: " من علاماتِ المحبِّ لله، متابعةُ حبيبِ الله في أخلاقه، وافعاله، وأره، وسُنَنِهِ " .

١٣ – وسمعته يقول: " إذا صح اليقينُ في القلبِ، صح الخوفُ فيه " .

١٤ – سمعت منصورَ بنَ عبد الله، يقول: سمعتُ العباسَ بنَ يوسف، يقول: سمعت سعيدَ بن عثمان، يقول: أنشدنى ذو النون: أَموتُ و ما ماتَتْ إليك صَبابَتِي و لا قضَّيتُ مِن صِدْق حُبك أَوطاري مُنايَ، المنى كلُّ المنى، أنتَ لي مُنًى و أَنْتَ الغِنى، كلُّ الغِنى، عِنْد أقتاري و أنتَ مَدَى سُؤْلِي و غايةُ رَغْبَتِي و مَوضِعُ آمالي و مَكْنُونُ اضماري * * * تَحَمَّلَ قلبي فيك ما لا أَبُثُّه وَ إنْ طالَ سُقْمِي فيكَ أو طال إِضْراري و بَيْنَ ضُلوعي منكَ مَالَكَ قَدْ بدا و لَمْ يَبْدُ باديه لأهلٍ و لا جارٍ و بي مِنكَ، في الأحشاءِ، داء مُخامِر فقد هَدَّ مِنّي الركنَ و انْبَثَّ إسْراري * * * أَلَستَ دليلَ الرَّكْب، إنْ همُ تَحَيَّروا و مُنْقِذَ من أَشْفي عَلَى جُرُفٍ هاري؟ أَنَرتَ الهُدَى لِلْمُهْتَدِين، و لم يَكُنْ مِنَ النُّر في أيديهمُ عُشْرَ مِعْشار فَنَلْني بعفو مِنْك، أحيا بِقُرْبِه اَغِثْنِي بِيُسْرٍ منك، يَطْرُدُ إِعْساري ١٥ – قال، و سمعتُ ذا النون يقولُ: لَئِن مَدَدْتُ يدي إليك دَاعياً، لَطَالَما كَفَيْتَنِي ساهِياً.

أَ أَقْطَعُ مِنكَ رجاي، بما عَمِلتْ يداي؟. حَسْبي من سؤالي، علمُك بحالي " .

١٦ – و به قال ذو النون: "كُلُّ مُدَّعٍ محجوبٌ بدعواه عن شُهودِ الحق؛ لأن الحقَّ شاهدٌ لأهل الحقّ؛ لأن الله هو الحقُّ، و قولُه الحقُّ؛ و لا يحتاج أن يَدَّعي إذا كان الحقُّ شاهداً له؛ فأما إذا كان غَائِباً فحينئذٍ يَدَّعي. و إنما تقع الدعْوى للمحجوبين " .

١٧ – و به قال ذو النون: " من أَنِس بالخلق، فقد استمكنَ من بِساط الفراعِنَة. و من غُيِّبَ عن مُلاحظة نفسه، فقد اسْتَمكنَ من الإخلاص. و من كان حظه في الأشياء " هو " ، لا يبالي ما فاته، مما هو دونَه " .

* * *. " (١)

"١٨ – سمعت أبا الحسن، عليَّ بنَ محمدٍ القزويني، يقول: سمعت علي أحمد بن محمد البُزْناني، يقول: سمعتُ محمدَ بنَ الحسين، يقول: سمعت فارساً، يقول: سمعت يوسفَ بن الحسين، يقول: سمعت ذا النون يقول: " الصدقُ سيفُ الله فيأرضه، ما وُضع على شَيءٍ إلا قَطَعَهُ " .

١٩ – و بإسناده، قال ذو النون: " مَن تَزَيَّن بِعَمله، كانتْ حسناتُه سيِّئاتٍ. " * * * ٢٠ – سمعتُ أحمدَ بن عليّ بنِ جعفر، يقول: سمعتُ فارساً، يقول: سمعتُ يوسفَ بنَ الحسي، يقول: سمعت ذا النون، يقول: " بأوَّلِ قدم تطلُبُه، تُدْرِكُه و تَجِدُه " .

٢١ – و بإسناده، قال: سمعت ذا النون، يقول: " أدنى منازِلِ الأُنْس، أن يُلْقَى في النار، فلا يَغِيب همُّه عن مَأموله " .

* * * ٢٢ – سمعت أبا سعيدٍ، أحمدَ بنَ محمد بن رُمَيْح، الحافظ، يقول: سمعتُ أبا يَعَلى بنَ خلف، يقول: سمعت ابن البَرْقِيّ، يقول: سمعتُ ذا النون يقول: " **الأُنْس بالله** نور ساطع؛ و الأُنْس بالخَلقْ غَمٌّ واقِع " .

* * * ٢٣ – سمعت نَصْرَ بنَ محمدِ بن أحمد بن يعقوب العطار، يقول: سمعت أبا محمد البَلاَذُري، يقول: سمعتُ يوسفَ بن الحسين، يقول: سمعت ذا النون يقول: " للهِ عبادٌ تركوا الذنبَ استحياءَ من كَرَمه؛ بعد أن تركوه خوفاً من عُقوبَتِهِ. و لو قال لك: " اعملْ ما شئتَ، فلستُ آخُذُك بذنب " . كان ينبغي أن يزيدَك كرمُه استحياءً منه، و تركاً لمعصيته؛ إن كنتَ حُراً كريماً، عبداً شَكورًا. فكيف و قد حذَّرَك؟! " .

٢٤ – وبإسناده، قال ذو النون: " الخَوْف رقيبُ العملِ، والرجاءُ شَفِيع المِحَنِ " ٢٥ – وبإسناده، قال ذو النون: " اطلبْ الحاجة بلسان الفَقْرِ لا بلسان الحُكْم " .

* * * ٢٦ – سمعت أحمدَ بنَ على بن جعفر، يقول: سمعت الحسن بن سَهْل بن عاصم، يقول: سمعت عَلِيَّ بنَ عبد الله الكَرَجِي، يقول: سمعت ذا النون، يقول: " مِفْتاحُ العبادَة الفكرةُ. وعلامةُ الهوى متابعة الشهوات. وعلامةُ التوكلِ انقطاعُ المطامِع " .

* * *

٢٥ – سمعت احمد بنَ عليِّ بنِ جعفرٍ، يقول: سمعتُ فارساً، يقول: سمعت يوسُف بنَ الحسين، يقول: سمعتُ ذا النون،

---

(١) طبقات الصوفية، ص/٢٥

يقول: "كان لى صديقٌ فقيرٌ، فمات، فرأيتُه في النون، فقلت له: " ما فعل اللهُ بِكَ؟ " .قال: " قال لي: " قد غفرتُ لَكَ، بتَرَدُّدكَ إلى هؤلاء السِّفْل، أبناءِ الدنيا،في رغيف، قبلَ أن يُعطوك " .

* * * ٢٨ – سمعت أبا جعفرٍ، محمدَ بنَ أحمد بن سعيد الرازى، يقول: سمعت أبا الفضل، العباس بن حمزة، قال: سمعتُ ذا النون يقول: "كان الرجلُ، من أهْلِ العِلْم، يزدادُ بعلمه بُغضاً للدنيا، وتركاً لها؛ واليومَ، يَزْدادُ الرجلُ بعلمه، للدنيا حبّاً، ولها طَلَباً. وكان الرجلُ يُنفِق مالَه على عِلْمه؛ واليومَ يَكْسَبُ الرجلُ بعلمه مالاً. وكان يُرى على صاحب العلم، زيادةٌ في باطنه وظاهره؛ واليومَ، يُرَى على كثيرٍ من أهل العلم فسادُ الباطِنِ والظاهِرِ " .

* * * ٢٩ – سمعت أبا الحسين، محمَّدَ بنَ أحمد، الفارسي، يقول: سمعت فارساً، يقول: سمعتُ يوسفَ بن الحسين، يقول: سمعت ذا النون يقول: " العارفُ، كلَّ يوم، أَخْشعُ؛ لأنه – كلَّ ساعة – أقربُ " .

٣٠ – قال، وسمعت ذا النون يقول: " يا مَعْشر المريدين!. من أراد مِنْكم الطريقَ، فلْيَلْق العلماءَ بالجهلِ، والزهادَ بالرَّغْبَةِ، واهلَ المعرفةِ بالصمت " .

٣١ – سمعتُ أبا جعفرٍ الرازى، يقول: سمعت العباسَ بنَ حمزة، يقول: سمعتُ ذا النون، يقول: " إن العارف لا يَلْزم حالةً واحدةً، إنما يلزمُ ربَّه في الحالاتِ كلِّها " .

٣ – إبراهيم بنُ أَدْهم

و منهم إبراهيم بن أدهم، أبو إسحاق. من أهل بَلْخ كان من أبناء الملوك و المَياسير. خرج متصيّداً، فهتف به هاتف، أيقظه من غَفْلَتِه. فترك طريقته، في التَّزَيُّن بالدنيا، و رَجَع إلى طريقة أهل الزُّهْد و الورع. و خرج إلى مكة، و صحب بها سفيان الثَّوري، و الفُضَيْل بن عِياض. و دخل الشام، فكان يعمل فيه، و يأكل من عمل يده؛ و بهامات. و أسند الحديث:." (١)

"يا غلامُ! احفَظْ عنى واعْقِل .واحتملْ ولا تَعْجَل. فإن التَّأَنِّيَ معه الحِلْمُ والحياءُ، وان السَّفَه معهُ الخُرْق والشُّؤم. قال: فسالتْ عيناىَ، وقلتُ: واللهِ! ما حملني على مُفارَقَةِ أَبَوَيَّ، والخروجِ من مالى، إلا حبُّ الأَثَرَةِ لله. ومع ذلك، الزهدُ في الدنيا، والرغبةُ في جِوار الله تعالى. فقال: إياك والبخلَ!قلت: ما البخلُ؟. فقال: أما البخلُ – عند أهل الدنيا – فهو ان يكونَ الرجلُ بخيلاً بمالِه. وأما الذي عند أهلِ الآخرة، فهو الذي يبخلُ بنفسِه عن الله تعالى. أَلّاَ وإنَّ العبدَ إذا جادَ بنفسه لله، أُورِث قلبُه الهُدى والتُّقى؛ وأُعطِيَ السكينةَ والوقارَ، والعِلْمَ الراجِحَ، والعقلَ الكاملَ. ومع ذلك تُفتَح له أبوابُ السماء، فهو ينظرُ إلى أبوابها بقلبهِ كيف تفُتَح، وإن كان في طريق الدنيا مطروحاً. فقال له رجل من أصحابه: اضْرِبَه فَأَوْجِعْه، فإنا نراه غلاماً قد وُفِّق لولاية الله تعالى. قال: فتعجب الشيخ من قول أصحابه: قد وُفِّقَ لولاية الله تعالى. فقال لى: يا غلامُ! أما إنَّك ستصحبُ الخيارَ؛ فكن لهم أرضاً يَطَأُون عليكَ؛ وإن ضَرَبوك، وشَتَموك، وطردوك، وأسمعوك القبيحَ. فإذا فعلوا بك ذلك، ففَكِّرْ في نفسك: من أين أُتيت؟. فإنك إذا فعلتَ ذلك، يؤيِّدُك اللهُ بنصره؛ ويُقْبِل بقلوبهم عليك. واعلم ان العبدَ إذا قَلاه الخيارُ، واجتنب صُحبتَه الورعون، وأَبغضه الزاهدون؛ فإنَّ ذلك اسْتِعْتَابٌ من الله تعالى، لكي يُعتِبه؛ قلبَه الضلالةَ،

---

(١) طبقات الصوفية، ص/٢٦

مع حِرْمان الرِّزق، وجفاءَ من الأهل، ومَقْتٍ من الملائكة، وإعْراضٍ من الرسل بوجوههم. ثم لم يُبَالِ في أى وادٍ يُهلِكُه. قال، قلت: إني صحبتُ – وأنا ماشٍ بين الكوفة ومكَّةَ – رجلا. فرأيتُه – إذا أمسى – يصلِّي ركعتين، فيهما تجاوز؛ ثم يتكلمُ بكلامٍ خَفي، بينه وبين نفسه؛فإذا جَفْنَةٌ من ثَريد عن يمينه، وكُوزٌ من ماء؛ فكان يأكلُ ويُطعِمُني. قال: فبكى الشيخُ عند ذلك، وبكى مَنْ حوله، ثم قال: يا أبيَّ! – أو: يا أخي – ذاك أخي داودُ. ومَسْكَنُه من وراء بَلْخ، بقرية يقال لها: " البارِدَةُ الطَّيِّبَة " .وذلك أن البقاع تَفَاخَرتْ بكينونةِ داود فيها. يا غلام! ما قال لك؟ وما علَّمكَ؟ قال: قلتُ:علَّمَني " اسم الله الأعظم " . فسأل الشيخُ: ما هو؟. فقلت:إنه يتعاظم عليّ ان انطقَ به. فإني سألتُ به مرةً، فإذا برجلٍ آخذٍ بحُجْزَتي؛ وقال: سَلْ تُعْطَه. فراعَني؛ فقال: لا رَوْعَ عليك! أنا أخوك الخَضْرُ. إنَّ أخي داودَ علمك إياه. فإياك أن تدعوَ به إلا في برّ!. ثم قال: يا غلامُ!إن الزاهدين في الدنيا، قد اتخذوا الرضا عن الله لِباساً، وحُبَّه دِثاراً، والأَثَرَةَ له شِعاراً. فتفضُّلُ اللهِ – تعالى – عليهم، ليس كتَفَضُّلِهِ على غيرهم. ثم ذهب عنى. فتعجب الشيخ من قولي. ثم قال: إن الله سيَبْلغ بمن كان في مِثالك، ومن تبعك من المهتدين. ثم قال: يا غلامُ! أنَّا قد أَفَدْناك ومَهَّدْناك، وعلَّمناك علماً. ثم قال بعضهم: لا تطمع في السَّهر مع الشِّبَع، و لا تَطمعْ في الحُزن مع كثرةِ النوم، و لا تَطْمَع في الخوفِ لله مع الرغبةِ في الدنيا؛ و لا تطمع في **الأُنْس بالله** مع الأُنْس بالمخلوقين؛ و لا تطمع في إلهام الحكمةِ مع تَرْك التقوى؛ و لا تطمع في الصِّحة في أمورك مع مُوافَقَة الظَّلَمَة؛ و لا تطمع في حُب الله مع محبة المال و الشرف؛ و لا تطمع في لِين القلب مع الجفاء لليتيم و الارْمَلَة و المسكين؛ و لا تطمع في الرِّقة مع فضول الكلام؛ و لا تطمع في رحمة الله مع ترك الرحمة للمخلوقين؛ و لا تطمع في الرُّشْد مع ترك مُجالسة العلماء؛ و لا تطمع في الحب لله مع حُبّ المِدْحة؛ و لا تطمع في الوَرَع مع الحِرْص في الدنيا؛ و لا تطمع في الرّضا و القناعة مع قلة الورع. ثم قال بعضهم: يا إلهنا! احجُبْه عنا، و احجُبْنا عنه!. قالإبرهيم: فما أَدْرِي أين ذهبوا.

* * * ٣ – سمعتُ أحمدَ بن عليّ بنِ الحسن المقرىءَ، يقول: سمعتُ محمد بنَ غالِب التَّمْتَام، يقول: "كتب إبراهيمُ بنُ أدهم إلى سُفيان الثَّوري: " مَنْ عَرَف ما يطلبُ، هان عليه ما يَبْذُل. و من أَطْلَق بَصرَه، طال أسفه ومن أطلق أمَلَه، ساء عَمَلُه. و من أطلق لسانَه، قتل نَفْسَه " .." (١)

"١٥ – أخبرني أبُو العبَّاسِ، أحمدُ بنُ عَبْدِ اللهِ القِرْمِيسِينيُّ، مشافهةً و مُناوَلَةً، أنّ أباه حدَّثه، قال: حدَّثَنا عليُّ بنُ عبد الحميد الغَضَائِريُّ قال: سمعتُ السَّرِيَّ، يقول: " قَلِيلٌ في سُنَّةٍ، خَيْرٌ من كثيرٍ مع بِدْعَةٍ. كيف يَقِلُّ عَمَلٌ مع التَّقْوَى؟! " .

١٦ – و بهذا الإسناد، قال السريُّ: " الأمورُ ثلاثةٌ: اَمْرٌ بانَ لك رُشْدُه، فاتّبِعْه؛ و أَمْرٌ بانَ لَكَ غَيُّه، فاجْتَنِبْه؛ و أَمْرٌ أَشْكَلَ علَيْك، فَقِفْ عِنْدَه، و كِلْهُ إلى اللهِ عَزَّ و جَلَّ. و لْيَكُنْ اللهُ دَليلَك. و اجعلْ فَقْرَكَ إليه، تَسْتَغْنِ به عَمَّنْ سواه " .

١٧ – و به قال السَّرِيُّ: " الأدب تَرْجُمان العقل " .

١٨ – و به قال السَّرِيُّ: " ما أَكْثَرَ مَنْ يصفُ الصِّفَةَ، و أقلَّ من يُوافِقُ فِعْلُه صفتَه ؟ " .

١٩ – و به قال السَّرِيُّ: " أقوى القوَّةِ غَلَبَتُك نَفْسَك، و من عَجَز عن أَدَبِ نَفْسِه كان عن أَدَبِ غَيْرِه أعْجَزُ؛ و من أَطَاعَ

---

(١) طبقات الصوفية، ص/٢٨

مَنْ فَوْقَهُ أَطَاعَهُ من دُونَهُ.

٢٠ – و به قال السَّرِيُّ: " مَن خافَ اللهَ خَافَهُ كلُّ شيءٍ " .

٢١ – و به قال السَّرِيُّ: " لِسانُكَ تَرْجُمانُ قَلْبك؛ و وَجْهُكَ مرآةُ قلبك؛ يَتَبَيَّنُ على الوَجْهِ ما تُضْمِرُ القُلوبُ " .

٢٢ – و به قال السري: " القُلوبُ ثلاثَةٌ: قَلْبٌ مثلُ الجَبَلِ، لا يُزِيلُهُ شيءٌ؛ و قلبٌ مثل النَّخْلَةِ، أَصْلُها ثابتٌ و الريحُ تُمِيلُها؛ و قَلْبٌ كالرِيّشةِ، يَميلُ مَعَ الرِّيحِ يميناً و شمالاً " .

٢٣ – و به قال السري: " لا تَصْرِمْ أَخَاكَ عَلَى ارْتِيابٍ. و لا تَدَعْهُ دونَ الاسْتِعْتَابِ " .

٢٤ – و به قال: " إن اغْتَمَمْتَ لِمَا يَنْقُصُ مِنْ مالِك، فابكِ عَلَى ما ينقُصُ مِنْ عُمْرِك " .

٢٥ – و به قال السَّرِيُّ: " مِن عَلامةِ المعْرِفَة بالله القيامُ بحقوق الله، و إيثارُه على النفْس، فيما أَمكَنَتْ فيه القدرةُ " .

٢٦ – و به قال السَّرِيُّ: " مِنْ قِلّةِ الصِّدْقِ كَثْرَةُ الخُلَطاءِ " .

٢٧ – و به قال السَّرِيُّ: " حُسْنُ الخُلُقِ كفُّ الاذى عن الناسِ؛ و احْتِمالُ الأذى عنْهم بلا حِقْدٍ و لا مُكافَأَةٍ " .

٢٨ – و به قال السَّرِيُّ: " مِنْ علامةِ الاسْتِدْرَاجِ العَمَى عن عُيُوبِ النّفْسِ " .

٢٩ – و به قال السَّرِيُّ: " خَيْرُ الرِّزْقِ ما سَلِمَ من خَمْسَة: من الآثام في الاكْتِسابِ؛ و المَذَلّةِ و الخُضوعِ في السُّؤال؛ و الاغِشِّ في الصِّناعة؛ و أَثْمانِ آلَةِ المَعاصِي؛ و مُعامَلَةِ الظَّلَمَةِ " .

٣٠ – و به قال السَّرِيُّ: " أحسنُ الأشياءِ خمسةٌ: البُكاءُ عَلَى الذُّنوب؛ و إصْلاحُ العُيُوبِ؛ و طاعةُ عَلاّمِ الغُيوبِ؛ و جَلاءُ الرَّيْنِ منَ القلوب؛ و أَلاّ تكونَ لِكلِّ ما تَهْوَى رَكوبُ " .

٣١ – و بهذا الإسناد، قال السَّرِيُّ: " خمسةُ أشياءَ، لا يسكُنُ في القَلْبِ معها غيرُها: الخوفُ من الله وَحْدَه؛ و الرجاءُ لله وحدَه؛ و الحبُّ لله وَحْده؛ و **الأُنْسُ بالله** وَحْدَه " .

* * *

٣٢ – سمعتُ أبا الحسين محمَّدَ بنَ أحمدَ بن إبرهيمَ، الفارِسيَّ، يقول: سمعتُ محمَّدَ بنَ الحسين، يقول: سمعتُ عليَّ بنَ عبد الحميد الغَضَائِرِيَّ، بحَلَب، يقول: سمعتُ السَّرِيَّ، يقولُ: " أجْلَدُ الناسِ مَنْ مَلَك غَضَبَه " .

٣٣ – و بهذا الإسنادِ، قال السَّرِيُّ: " مَنْ تَزَيَّن للناس بما لَيْس فيه، سَقَط من عَيْنِ اللهِ عز وجل " .

٣٤ – و به قال السَّرِيُّ: " لَن يَكْمُلَ رجلٌ حتى يُؤْثِرَ دينَه على شَهْوَتِه؛ و لَن يَهْلِكَ حتى يُؤْثِر شَهْوَتَه على دِينِه " .

* * * ٣٥ – سمعتُ أبا نصرٍ الطُّوسِيَّ، يقولُ: سمعتُ جَعْفرًا الخُلْدِيَّ، يقولُ: سمعت الجُنَيْدَ، يقولُ: قال رجل لِسَرِيِّ السَّقَطِيِّ: "كيف أنت؟ " فقال: من لم يَبِتْ و الحُبُّ حَشْوُ فُؤادِهِ لم يَدْرِ كَيْفَ تَفَتَّتُ الاكْبادُ * * * ٣٦ – سمعتُ أبا الحَسَنِ بن مِقْسَمٍ ببغداد، سمعتُ جعفرًا الخُلْدِيَّ، يقولُ: سمعتُ الجُنَيْدَ، يقولُ: سمعتُ السَّرِيَّ، يقولُ: إذا ابتَدَأَ الإنْسَانُ بالنُّسُك ثم كَتَبَ الحديثَ فَتَرَ؛ و إذا ابْتَدأَ بكَتْبِ الحديثِ، ثم تَنَسَّكَ، نَفَذَ " .

٦ – الحارث المحاسبي." (١)

---

(١) طبقات الصوفية، ص/٣٢

"١ – سمعتُ أبا بكرٍ، محمَّد بن عبد الله الطَبَرِيَّ، يقول: سمعتُ عليَّ ابن سَهْل بن الأَزْهَر، يقول: " المبادَرَة إلى الطاعات من علاماتِ التوفيق، والتقاعُد عن المخالفات من علامات حُسْن الرعاية، ومراعاةُ الأَسْرار من علاماتِ التَّيقظ، واظهارُ الدَّعاوَى من رُعونات البشرية. ومن لم يُصَحِّح مبادىء إرادَتِه لا يَسْلَم فى مُنْتَهى عواقبه. " ٢ – وسمعتُ محمداً يقول: سمعتُ عَلِيّاً يقول: " الغافلون يعيشون فى حِلْم الله، والذاكرون يعيشون فى قُرْب الله، والمُحِبُّون يعيشون فى **الأُنْس بالله**، والشوقِ إليه. " .

* * * ٣ – سمعتُ أبا نصرٍ الطُّوسِيَّ يقول: سمعتُ أبا جعفرٍ الأصبهانى، يقول: سمعتُ عليَّ بن سهل، يقول: " الحضورُ أفضلُ من اليقين، لأنَّ الحضورَ وَطَنَاتٌ، واليقين خَطَرات. " .

* * * ٤ – سمعتُ أبا نصرٍ يقول.سمعتُ أبا سَلْم الأصفهانى، يقول: سمعتُ عيَّ ابن سَهْل، يقول: " حرام على من عرف الله أن يَسْكُن إلى شىء غيره " .

* * * ٥ – وسمعتُ أبا نصرٍ يقول: " سمعتُ أبا سَلْم، يقول: سمعتُ أبا جعفرٍ الحداد يقول سمعتُ عليَّ بن سهل يقول: " من وَقْت آدم إلى قيام الساعة، الناسُ يقولون: القَلْبُ! القَلْبُ!.وأنا أحبُ أن أرى رَجُلاً يصف لى، أَيْشُ القلبُ، وكيف القلبُ، فلا أرى. " .

٦ – وبإسناده، قال عليٌّ: " **الأُنْس بالله** ان تَسْتَوْحِش من الخَلق، إلا من أَهْل ولاية الله.فإن الأُنْس بأَهل ولاية الله هو **الأُنْس بالله** " .

٧ – وبإسناده، قال عليٌّ: " لا يَغُرَّنَّك من الأحْمَق كَثْرَة الالتفات وسُرْعةُ الجوابِ. " .

٨ – وبإسناده، قال عليٌّ: " العَقْل مع الرُّوح، يدعوان إلى الآخرةِ، ومخالفةِ الهوى والشهواتِ؛فلذلك سُمِّى روحا. " .

٩ – وبإسناده، قال عليٌّ: " المُسْتَهْتِرِ السالى باللهعن كلِّ شىء. " .

١٠ – وبإسناده، قال عليٌّ: " من فَقُه قلبُه أورثَه ذلك الإعْراضَ عن الدُّنيا وأبْنائِها.فإنَّ مِنْ جَهْل القلب متابعةَ سرور لا يدوم. " .وأنشد: لَيْتِنى مِتُّ، فاسترحتُ فَإِنِّ كُلَّمَا قُلْتُ قد قَرُبتُ بَعُدتُ ١١ – وبإسناده قال عليّ: " الفقيهُ مَن لا يدخل تحت المنسوباتِ إليه. " .

١٢ – وبإسناده، قال عليٌّ: " أعاذَنا اللهُ وإياكُم من غُرور حُسْن الأعمال، مع فَسادِ بواطن الأسرار. " .

١٣ – وبإسناده، قال عليٌّ: " التَّصَوُّف التبرى عمَّن دونه، والتَخلِّى عمن سواه " .

١٤ – وبإسناده، قال عليٌّ: " العقلُ والهوى متنازعان؛ فَمُعين العقل التوفيق، وقَرِين الهوى الخِذْلان؛ والنفس واقِفَةٌ بينهما، فأيُّهما ظَفِر كانت فى حَيّزه. " .

١٥ – وبإسناده قال عليٌّ : " التمستُ الغنى فوجدتُه فى العِلْم؛والتمستُ الفَخْر فوجدتُه فى الفَقْر؛والتمستُ العافية فوجدتُها فى الزُّهد؛والتمستُ قِلّة الحساب فوجدتُها فى الصِّمت؛والتمستُ الراحةَ فوجدتُها فى الأياس. " .

١٦ – وبإسناده، قال عليٌّ: " رأيتُ الناسَ قد أَسَرَهم تعظيمُ نفوسِهم، وتحسينُ ألفاظهم؛ فلا يتفرَّغون منهما إلى مَنْ عظَّمهم بتخصيص الخِلْقة، وأنطق ألسِنَتَهم بتوحيده. " .

١٧ – وبإسناده، قال: سُئِل عليٌّ عن حقيقة التوحيد، فقال: " قريبٌ من الظُّنون، بعيدٌ من الحقائق. " .وأنشد لبعضهم: فقُلتُ لأصحابي: هى الشمسُ، ضَوْءُها قريبٌ، ولكنْ فى تناولها بُعْدُ ١٦ – أبو العباس بن مسروق الطوسي ومنهم أبو العبَّاس بنُ مَسْروقٍ، واسمُهُ أحمدُ بنُ محمد بنِ مَسْروق، من أهل طُوس. سكن بغدادَ، ومات بها.
صحب الحارثَ بنَ أَسَد المحاسِبِيَّ، والسَّرِيَّ بنَ المُغَلِّس السَّقَطِيَّ، ومحمد بن منصور الطوسى، ومحمد بن الحُسَين البُرْجُلاَنِيَّ.
وهو من قُدَماء مشايخ القوم وجِلّتِهم. وتُوُفِّ ببغدادَ سنة تسعٍ وتسعين ومائتين.
وأسند الحيثَ:." (١)

"وتولى الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار عمارة جامع الصالح فجددوا مبانيها وأعادوا ما تهدم منها ثم جددت عمارة الجامع الأزهر على يد القاضي نجم الدين محمد بن حسين بن علي الأسعردي محتسب القاهرة في سنة خمس وعشرين وسبعمائة ثم جددت عمارته في سنة احدى وستين وسبعمائة عندما سكن الأمير الطواشي سعد الدين بشير الجامدار الناصري في دار الأمير فخر الدين أبان الزاهدي الصالحي النجمي بخط الأبارين بجوار الجامع الأزهر بعدما هدمها وعمرها داره التي تعرف هناك إلى اليوم بدار بشير الجامدار فأحب لقربه من الجامع أن يؤثر فيه أثرا صالحا فأستأذن السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون في عمارة الجامع وكان أثيرا عنده خصيصا به فأذن له في ذلك وكان قد استجد بالجامع عدة مقاصير ووضعت فيه صناديق وخزائن حتى ضيقته فأخرج الخزائن والصناديق ونزع تلك المقاصير وتتبع جدرانه وسقوفه بالاصلاح حتى عادت كأنها جديدة وبيض الجامع كله وبلطه ومنع الناس من المرور فيه ورتب فيه مصحفا وجعل له قارئا وأنشأ على باب الجامع القبلي خالوثا لتسبيل الماء العذب في كل يوم وكل فوقه مكتب سبيل لأقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز ورتب للفقراء المجاورين طعاما يطبخ كل يوم وأنزل إليه قدورا من نحاس جعلها فيه ورتب فيه درسا للفقهاء من الحنفية يجلس مدرسهم لألقاء الثنية في المحراب الكبير ووقف على ذلك أوقافا جليلة باقية إلى يومنا هذا ومؤذنوا الجامع يدعون في كل جمعة وبعد كل صلاة للسلطان حسن إلى هذا الوقت الذي نحن فيه وفي سنة أربع وثمانين وسبعمائة ولي الأمير العلواشي بهادر المقدم على المماليك السلطانية نظر الجامع الأزهر فتنجز مرسوم السلطان الملك الظاهر برقوق بأن من مات من مجاوري الجامع الأزهر عن غير وارث شرعي وترك موجودا فإنه يأخذه المجاورون بالجامع ونقش ذلك على حجر عند الباب الكبير البحري وفي سنة ثمانمائة هدمت منارة الجامع وكانت قصيرة وعمرت أطول منها فبلغت التنقه عليها من مال السلطان خمسة عشر ألف درهم نقرة وسلت في ربيع الآخر من السنة المذكورة فعلقت القناديل فيها ليلة الجمعة من هذا الشهر وأوقدت حتى اشتعل الضوء من أعلاها إلى أسفلها واجتمع القراء والوعاظ بالجامع وتلوا ختمة شريفة ودعوا للسلطان فلم تزل هذه المئذنة إلى شوال سنة سبع عشرة وثمانمائة فهدمت لميل ظهر فيها وعمل بدلها منارة من حجر على باب الجامع البحري بعدما هدم الباب وأعيد بناءه بالجرور كبت المنارة فوق عقده وأخذ الحجر لها من مدرسة الملك الأشرف خليل التي كانت تجاه قلعة الجبل وهدمها الملك الناصر فرج بن برقوق وقام بعمارة ذلك الأمير تاج الدين التاج الشوبكي والي القاهرة ومحتسبها إلى أن تمت في جمادي الآخرة سنة ثمان عشرة وثمانمائة فلم تقم غير قليل ومالت حتى كادت تسقط

(١) طبقات الصوفية، ص/٧٥

فهدمت في صفر سنة سبع وعشرين وأعيدت وفي شوال منها ابتدئ بعمل الصهريج الذي بوسط الجامع فوجد هناك آثار فسقية ماء ووجد أيضا رمم أموات وتم بناؤه في ربيع الأول وعمل بأعلاء مكان مرتفع له قبة يسبل فيه الماء وغرس بصحن الجامع أربع شجرات فلم تفلح وماتت ولم يكن لهذا الجامع ميضأة عندما بني ثم عملت ميضأته حيث المدرسة الأقبغاوية إلى أن بنى الأمير أقبغا عبد الواحد مدرسة المعروفة بالمدرسة الأقبغاوية هناك وأما هذه الميضأة التي بالجامع الآن فإن الأمير بدر الدين جنكل بن البابا بناها ثم زيد فيها بعد سنة عشر وثمانمائة ميضأة المدرسة الأقبغاوية وفي سنة ثمان عشرة وثمانمائة ولي نظر هذا الجامع الأمير سودوب القاضي حاجب الحجاب فجرت في أيام نظره حوادث لم يتفق مثلها وذلك إنه لم يزل في هذا الجامع منذ بنى عدة من الفقراء يلازمون الاقامة فيه وبلغت عدتهم في هذه الأيام سبعمائة وخمسين رجلا ما بين عجم وزيالعة ومن أهل ريف معسر ومغاربة ولكل طائفة رواق يعرف بهم فلا يزال الجامع عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم الفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر فيجد الانسان إذا دخل هذا الجامع من **الأنس بالله** والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى وكل قليل تحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز." (١)

"كان يدرس بالجامع الأزهر العلوم النقلية والعقلية يقول المقريزي :

" فلا يزال الجامع الأزهر عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم والفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من **الأنس بالله** والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره " .

ويستدل من نماذج الإجازات العلمية التي أوردها القلقشندي على كتب الدراسة التي كانت تدرس في الجامع الأزهر وغيره من مدارس مصر ومنها : كتب الحديث الستة : وهي " صحيح البخاري " و " صحيح مسلم " و " سنن أبي داود " و " الترمذي " و " النسائي " و " ابن ماجة " و " المسانيد " و " عمدة الأحكام " للحافظ عبد الغني المقدسي و " شذور الذهب " للشيخ جمال الدين بن هشام و " المنهاج في فقه الإمام الشافعي " لأبي زكريا النووي و "كتاب الأربعين حديثا " للشيخ محيي الدين النووي – و " الورقات في الأصول " لإمام الحرمين و " اللمحة البدرية في النحو " للشيخ أثير الدين أبي حيان وغير ذلك من الكتب .

وقد جرت العادة على تدريس العلوم النقلية التي عبر عنها ابن خلدون . بأنها مختصة بالملة الإسلامية في الصباح . أما العلوم الأخرى فكانت تدرس بعد العصر

ومن أشهر العلماء الذين درسوا بالأزهر :

ابن زولاق – (ت ٧٨٣ هـ) ومن تصانيفه : كتاب " فضائل مصر " – وكتاب " قضاة مصر " .

ومنهم أيضا أبو عبد الله القضاعي الذي ولد بمصر في أواخر القرن الرابع الهجري وتوفي بها سنة (٤٥٤ هـ) وقد ألف عدة كتب في الفقه والتاريخ منها

(١) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ٥٢/٢

كتاب " مناقب الإمام الشافعي وأخباره " – وكتابا في خطط مصر سماه " المختار " وكان هذا الكتاب عونا للمقريزي على كتابه " المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار " .

الأزهر وجهوده في مجال العلم والمعرفة :

إن الأزهر قد أمضى أكثر من ألف عام في ميادين العلم والمعرفة والثقافة خدمة للأمة الإسلامية خاصة وللإنسانية عامة .." (١)

"كان يدرس بالجامع الأزهر العلوم النقلية والعقلية يقول المقريزي :

" فلا يزال الجامع الأزهر عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم والفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من **الأنس بالله** والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره " .

ويستدل من نماذج الإجازات العلمية التي أوردها القلقشندي على كتب الدراسة التي كانت تدرس في الجامع الأزهر وغيره من مدارس مصر ومنها : كتب الحديث الستة : وهي " صحيح البخاري " و " صحيح مسلم " و " سنن أبي داود " و " الترمذي " و " النسائي " و " ابن ماجة " و " المسانيد " و " عمدة الأحكام " للحافظ عبد الغني المقدسي و " شذور الذهب " للشيخ جمال الدين بن هشام و " المنهاج في فقه الإمام الشافعي " لأبي زكريا النووي و "كتاب الأربعين حديثا " للشيخ محيي الدين النووي – و " الورقات في الأصول " لإمام الحرمين و " اللمحة البدرية في النحو " للشيخ أثير الدين أبي حيان وغير ذلك من الكتب .

وقد جرت العادة على تدريس العلوم النقلية التي عبر عنها ابن خلدون . بأنها مختصة بالملة الإسلامية في الصباح . أما العلوم الأخرى فكانت تدرس بعد العصر

ومن أشهر العلماء الذين درسوا بالأزهر :

ابن زولاق – (ت ٧٨٣ هـ) ومن تصانيفه : كتاب " فضائل مصر " – وكتاب " قضاة مصر " .

ومنهم أيضا أبو عبد الله القضاعي الذي ولد بمصر في أواخر القرن الرابع الهجري وتوفي بها سنة (٤٥٤ هـ) وقد ألف عدة كتب في الفقه والتاريخ منها

كتاب " مناقب الإمام الشافعي وأخباره " – وكتابا في خطط مصر سماه " المختار " وكان هذا الكتاب عونا للمقريزي على كتابه " المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار " .

الأزهر وجهوده في مجال العلم والمعرفة :

إن الأزهر قد أمضى أكثر من ألف عام في ميادين العلم والمعرفة والثقافة خدمة للأمة الإسلامية خاصة وللإنسانية عامة .." (٢)

---

(١) سيرة حياة الشيخ عبد الرزاق عفيفى، ١/٢٤٦

(٢) سيرة حياة الشيخ عبد الرزاق عفيفى، ٢/١٥

"٣٨ – أخبرنا أبو الحسين عبد العزيز بن الحسين الهمذاني ، ببغداد ، أخبرنا جعفر بن محمد بن نصير ، أخبرنا أبو القاسم الجنيد ، قال : كلمت يوما الحسن المسوحي في شيء من **الأنس بالله** ، فقال لي : « ويحك (١) وما الأنس لو مات من تحت السماء ما استوحشت »

---

(١) ويْح : كَلمةُ تَرَحُّمٍ وتَوَجُّعٍ، تقالُ لمن وَقَع في هَلَكَةٍ لا يَسْتَحِقُّها. وقد يقال بمعنى المدح والتَّعجُّب." (١)

"٢٨٧- وأخبرنا الحسن بن أحمد، أنا إسماعيل، أنا أبو إسماعيل أحمد بن حمزة بن محمد الصوفي الهروي، حدثني أبو عياض أحمد بن محمد بن يعقوب، ثنا منصور الحراني، ثنا منصور الحربي، ثنا جعفر بن محمد قال: سمعت الجنيد بن محمد قال: كلمت يوماً حسن المسوحي في شيء، عن **الأنس بالله** تعالى فقال لي: وهل تدري ما **الأنس بالله** تعالى؟! والله لو مات من تحت أديم السماء لما استوحشت.." (٢)

" ٥٧ – حدثنا أحمد قال حدثنا محمد بن عبد الملك الدقيقي قال حدثنا يزيد بن هارون قال حدثنا محمد بن عمرو عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال قال أبو واقد الليثي تابعنا الأعمال فلم نجد شيئا أبلغ في طلب الآخرة من الزهد في الدنيا

٥٨ – حدثنا أحمد قال حدثنا جعفر بن أحمد قال حدثنا أبو مسهر قال حدثنا سعيد بن عبد العزيز قال قال أبو واقد ما وجدنا شيئا أعون على أخلاق الإيمان من الزهادة

٥٩ – حدثنا أحمد قال حدثنا جعفر الرواس قال حدثنا أحمد قال حدثنا ابن حجر قال قال ابن المبارك ما رأيت شيئا يقوى به على العبادة مثل الجوع والزهادة

٦٠ – حدثنا أحمد قال حدثنا ابن أبي الدنيا قال حدثنا عون بن إبراهيم قال سمعت المضاء يقول لسباع الموصلي يا أبا محمد إلى أي شيء أفضى بهم الزهد قال إلى **الأنس به** ." (٣)

" النبي صلى الله عليه و سلم قال المرء مع من أحب

٥٨ – سمعت أبا الحسن علي بن عبيد الله بن محمد الكسائي بمصر يقول سمعت أبا محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ يقول سمعت عبد الله بن جعفر بن الورد يقول سمعت عبيد الله بن محمد بن عبد الرحيم البرقي يقول سمعت ذا النون المصري يقول **الأنس بالله** تعالى نور ساطع والأنس بالناس غم واقع

---

(١) الأربعون في شيوخ الصوفية للماليني، ص/٤٨

(٢) اللطائف من دقائق المعارف لأبي موسى المديني، ص/١٦٣

(٣) الزهد وصفة الزاهدين، ص/٤٢

٥٩ – أخبرنا أبو الحسن علي بن عبيد الله بن محمد الهمداني بمصر حدثنا أبو الفتح محمد بن أحمد بن علي النحوي بالرملة حدثني أبي أنشدنا إبراهيم بن السري الزجاج لأبي العتاهية ... اصبر لدهر نال منك ... فهكذا مضت الدهور ." (١)

"النبي صلى الله عليه وسلم قال المرء مع من أحب

٥٨ سمعت أبا الحسن علي بن عبيد الله بن محمد الكسائي بمصر يقول سمعت أبا محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ يقول سمعت عبد الله بن جعفر بن الورد يقول سمعت عبيد الله بن محمد بن عبد الرحيم البرقي يقول سمعت ذا النون المصري يقول **الأنس بالله** تعالى نور ساطع والأنس بالناس غم واقع

٥٩ أخبرنا أبو الحسن علي بن عبيد الله بن محمد الهمداني بمصر حدثنا أبو الفتح محمد بن أحمد بن علي النحوي بالرملة حدثني أبي أنشدنا إبراهيم بن السري الزجاج لأبي العتاهية ٪ اصبر لدهر نال منك ٪ فهكذا مضت الدهور

". (٢)

" يمت ذكره ولقد خلد من بقي على الأيام نظمه ونثره والله يتولاه بعفوه وغفرانه ويحييه بروحه وريحانه وأنا كاتب من ظرف ملحه ولفظ غرره ما هو غذاء القلب ونسيم العيش وقوت النفس ومادة الأنس

فصل من رقعة له إلى الخوارزمي

وهو أول ما كاتبه به

(أنا لقرب دار الأستاذ أطال الله بقاءه ... كما طرب النشوان مالت به الخمر)

(ومن الارتياح للقائه ... كما انتفض العصفور بلله القطر)

(ومن الامتزاج بولائه ... كما التقت الصهباء والبارد العذب)

(ومن الابتهاج بمزاره ... كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب)

ومن رقعة له إلى غيره

(وعلي أن أسعى وليس ... علي إدراك النجاح) – من مجزوء الكامل –

وقد حضرت داره وقبلت جداره

وما بي حب للحيطان ولكن شغف بالقطان ولا عشق للجدران ولكن شوق إلى السكان

ومن أخرى لا أزال لسود الانتقاد وحسن الاعتقاد أبسط يمين العجل وأمسح جبين الخجل ولضعف الحاسة في الفراسة أحسب الورم شحما والسراب شرابا حتى إذا تجشمت موارده لأشرب بارده لم أجده شيئا ." (٣)

(١) مشيخة ابن الحطاب، ص/١٦٥

(٢) مشيخة الشيخ الأجل أبي عبد الله محمد الرازي، ص/١٦٥

(٣) قرى الضيف، ٢٩٦/٤

" عن الناس فانتظرته حتى قطع صلاته ثم قلت له ما معك مؤنس قال بلى قلت وأين هو قال أمامي ومعي وخلفي وعن يميني وعن شمالي وفوقي

فعلمت أن عنده معرفة

فقلت أما معك زاد قال بلى قلت فأين هو قال الإخلاص لله عز و جل والتوحيد له والإقرار بنبيه صلى الله عليه و سلم وإيمان صادق وتوكل واثق

قلت هل لك في مرافقتي قال الرفيق يشغل عن الله ولا احب أن أرافق أحدا فأشتغل به عنه طرفة عين

قلت اما تستوحش في هذه البرية وحدك فقال إن **الأنس بالله** قطع عني كل وحشة حتى لو كنت بين السباع ما خفتها ولا استوحشت منها

قلت فمن أين تأكل فقال الذي غذاني في ظلم الأرحام صغيرا قد تكفل برزقي كبيرا

قلت ففي أي وقت تجيئك الأسباب فقال لي جد معلوم ووقت مفهوم إذا احتجت إلى الطعام أصبته في أي موضع كنت وقد علم ما يصلحني وهو غير غافل عني

قلت ألك حاجة قال نعم قلت وما هي قال إذا رأيتني فلا تكلمني ولا تعلم أحدا أنك تعرفني

قلت لك ذاك فهل حاجة غيرها قال نعم قلت وما هي قال إن استطعت لا تنساني في دعائك وعند الشدائد إذا نزلت بك فافعل

قلت كيف يدعو مثلي لمثلك وأنت أفضل مني خوفا وتوكلا قال لا تقل هذا إنك قد صليت لله عز و جل قبلي ولك حق الإسلام ومعرفة الإيمان

قلت فإن لي أيضا حاجة قال وما هي قلت ادع الله لي فقال حجب الله طرفك عن كل معصية وألهم قلبك الفكر فيما يرضيه حتى لا يكون لك هم إلا هو ." (١)

" العبد ، ومن ثبت ذلك في قلبه ؛ آنسه بالوحدة ، فأنس بها ، واستوحش من المخلوقين ، وذلك حين يرى عذوبة حب الخلوة في أعضائه كما يجري الماء في أصول الشجر ؛ فأورقت أغصانها ، وأثمرت عيدانها ، ولزمه حزن ما يحزنه يوم القيامة ، وخالط سويداء قلبه ؛ فهاج من الخلوة فنون من أصول الزهد في الدنيا ، وإذا صار العبد إلى درجة الخلوة ، وصبر على ذلك ، ودام عليه ؛ نقله ذلك إلى حب الخلوة : فأول ما يهيج من حب الخلوة : طلب العبد الإخلاص والصدق في جميع قوله فيما بينه وبين ربه ، وورثته الخلوة راحة القلب من غموم الدنيا ، وترك معاملة المخلوقين في الأخذ والإعطاء ، وسقط عنه وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومداهنة الناس . ويهيج من حب الخلوة : خمول النفس ، والأغماض في الناس ، وهو أول طريق الصدق ، ومنه الإخلاص . ويهيج من حب الخلوة : الزهد في معرفة الناس ، **والأنس بالله** ، والاستثقال بمجالسة غير أهل اذكر . ويورث حب الخلوة : طول الصمت في غير تكلف ، وغلبة الهوى وهو الصبر ، ومنها يظهر الحلم وألاناة . ويهيج من حب الخلوة : شغل العبد بنفسه ، وقلة اشتغاله بذكر غيره ، وطلب السلامة مما فيه

---

(١) ذم الهوى، ص/١٤٢

الناس . ويهيج من حب الخلوة : كثرة الهموم والأحزان ، ومنه ما يهيج الفكر وهو افضل العبادة ، ومخرجه من خالص الذكر . ويهيج من حب الخلوة : الأعمال التي تغيب عن أعين العباد وتظهر لله ،

". (١)

"٣- سمعت أبا محمد عبد الغني بن سعيد يقول: سمعت عبد الله بن جعفر بن الورد يقول: سمعت عبيد الله بن عبد الرحيم البرقي يقول: سمعت ذا النون #٢٩# يقول: **الأنس بالله** نورٌ ساطع، والأنس بالناس غم واقعٌ.." (٢)

"مذهبنا أنه لا يلزمه أن يقسم لنسائه بل له اجتنابهن كلهن ، لكن يكره تعطيلهن مخافة من الفتنة عليهن والإضرار بهن ، فإن أراد القسم لم يجز له أن يبتدئ بواحدة منهن إلا بقرعة ويجوز أن يقسم ليلة ليلة وليلتين ليلتين وثلاثا ثلاثا ولا يجوز أقل من ليلة ولا يجوز الزيادة على الثلاثة إلا برضاهن هذا هو الصحيح في مذهبنا .

وفيه أوجه ضعيفة في هذه المسائل غير ما ذكرته واتفقوا على أنه يجوز أن يطوف عليهن كلهن ويطأهن في الساعة الواحدة برضاهن ولا يجوز ذلك بغير رضاهن وإذا قسم كان لها اليوم الذي بعد ليلتها . ويقسم للمريضة والحائض والنفساء لأنه يحصل لها **الأنس به** ، ولأنه يستمتع بها بغير الوطء من قبلة ونظر ولمس وغير ذلك .

قال أصحابنا وإذا قسم لا يلزمه الوطء ولا التسوية فيه بل له أن يبيت عندهن ، ولا يطأ واحدة منهن وله أن يطأ بعضهن في نوبتها دون بعض ، لكن يستحب ألا يعطلهن وأن يسوي بينهن في ذلك كما قدمناه والله أعلم .." (٣)

"قال السخاوي في «تخريج أحاديث الأربعين»: حديث حسن وبين ذلك، ثم قال: وبالجملة فالحديث ثابت من حديث الليلة وغيره ممن قدمناه، ولذا أورده الضياء في المختارة من هذا الوجه بل صححه العراقي في «أمياله» تبعا للترمذي، وقال ابن منده: إسناده مشهور ورواته ثقات اهـ.g وقد أورده جماعة من طرق عن ابن عباس، وجاء أنه وصاه بذلك، وعن علي وأبي سعيد رواه العسكري في كتاب الأمثال، وسهل ابن سعد رواه ابن مردويه، وعبد ابن جعفر رواه ابن عاصم في السنة. وقد خرج طرقها كلها السخاوي؛ وقال: قال أبو جعفر العقيل، كل أسانيد هذا الحديث لينة وبعضها أصلح من بعض، وليس هذا بجيد. فحديث ابن عباس حسن جيد، وأصح طرقه رواية حنش كما صرح به ابن منده وغيره وهي التي أخرج الترمذي الحديث من طريقها (وفي رواية غير الترمذي) وهو عبدبن حميد في «مسنده» لكن بإسناد ضعيف، وقد رواه أحمد بإسنادين منقطعين ولفظه أتم من حديث عبدبن حميد وقد أوردته في «شرح الأذكار» (احفظ الله تجده أمامك، تعرف) بتشديد الراء: أي: تحب (إلى الله في الرخاء) بالدأب في الطاعات والإنفاق في وجوه القرب والمثوبات حتى تكون متصفا عنده بذلك معروفا به (يعرفك في الشدة) بتفريجها عنك وجعله لك من كل ضيق فرجا ومن كل هم مخرجا بواسطة ما سلف منك من ذلك التصرف. وقيل: إنه على حذف مضاف: أي تعرف إلى ملائكة الله في الرخاء بالتزام طاعته تعالى

(١) العزلة والإنفراد، ص/١٦٩

(٢) فوائد عبد الغني بن سعيد الأزدي، ص/٢٨

(٣) شرح النووي على مسلم، ٥/١٩٦

والتزام عبوديته يعرفك في الشدة بواسطة شفاعتهم عنده في تفريج كربك وغمك. وتعقب بأنه تكلف فالأول أولى. ومعرفة العبد ربه ضربان: عامة وهي الإقرار بوحدانيته وربوبيته والإيمان به. وخاصة وهي الانقطاع إليه **والأنس به** والطمأنينة بذكره والحياء منه وشهوده في كل حال. ومعرفة الله تعالى كذلك عامة، وهي علمه بعباده واطلاعه على أعمالهم وخاصة وهي محبته لعبده وتقريبه إليه وإجابة دعائه وإنجاؤه من الشدائد، فلا يظفر بهذه الخاصة إلا من تحلى بتلك الخاصة (واعلم أن ما ‎(١)".)

"٧٨٨٤ . (وعن أبي سعيد الخدري رضيالله عنه قال: قال رسول الله إذا تثاوب) تقدم أنه عند مسلم بالواو (أحدكم فليمسك بيده على فيه) وفي نسخة فمه بالميم وذلك كراهية صورة التثاؤب المحبوبة للشيطان (فإن الشيطان يدخل فيه) أي في الإنسان عند انفتاح فمه حال التثاؤب فيمنعه من ذلك بوضع اليد على الفم سدا لطريقه ومبالغة في منعه وتعويقه (رواه مسلم) وأشار السيوطي في «الجامع الصغير» إلى أن البخاري أخرجه أيضا، وقد أخرجه أحمد وأبو داود بلفظ «فإن الشيطان يدخل من التثاؤب» وعند ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ «إذا تثاوب أحدكم فليضع يده على فيه، ولا يعوي فإن الشيطان يضحك منه».

١٤٣ ـ باب استحباب المصافحة

قال السيوطي: هي مفاعلة من الصفحة والمراد بها الإفضاء بصفحة اليد إلى صفحة اليد قال الكرماني: وهو مما يؤكد المحبة (وبشاشة الوجه) قال في «النهاية»: بشاشة اللقاء الفرح بالمرئى والانبساط إليه **والأنس به** (عند اللقاء) ظرف تنازعه كل من المصدرين المذكورين قبله (وتقبيل يد الرجل الصالح) إعظاما له لصلاحه لا لأمر دنيوي قام به (وتقبيل ولده) ولو كبيرا (شفقة) مفعول له والشفقة هي الحنو والعطف (ومعانقة القادم من سفر) أي ما لم يكن أمرد جميلا غير محرم له (وكراهة الانحناء) أي ثنى الرجل قامته عند اللقاء.

١٨٨٥ . (وعن أبي الخطاب قتادة) هو ابن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري (قال: قلت لأنس: أكانت المصافحة في أصحاب النبي) الظرف مستقر: أي كانت موجودة فيما بينهم أي وذلك معيار كونها مشروعة لأن الاجتماع السكوتي حجة (قال نعم. رواه البخاري) في الاستئذان.

(١٧٩/٦)." ‎(٢)

"قال السخاوي في «تخريج أحاديث الأربعين»: حديث حسن وبين ذلك، ثم قال: وبالجملة فالحديث ثابت من حديث الليلة وغيره ممن قدمناه، ولذا أورده الضياء في المختارة من هذا الوجه بل صححه العراقي في «أمياله» تبعا للترمذي، وقال ابن منده: إسناده مشهور ورواته ثقات اهـ.g وقد أورده جماعة من طرق عن ابن عباس، وجاء أنه وصاه بذلك، وعن علي وأبي سعيد رواه العسكري في كتاب الأمثال، وسهل ابن سعد رواه ابن مردويه، وعبد ابن جعفر رواه ابن عاصم في

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لـ ابن علان الصديقي، ٢٩١/١

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لـ ابن علان الصديقي، ٣٠١/١

السنة. وقد خرج طرقها كلها السخاوي؛ وقال: قال أبو جعفر العقيل، كل أسانيد هذا الحديث لينة وبعضها أصلح من بعض، وليس هذا بجيد. فحديث ابن عباس حسن جيد، وأصح طرقه رواية حنش كما صرح به ابن منده وغيره وهي التي أخرج الترمذي الحديث من طريقها (وفي رواية غير الترمذي) وهو عبدبن حميد في «مسنده» لكن بإسناد ضعيف، وقد رواه أحمد بإسنادين منقطعين ولفظه أتم من حديث عبدبن حميد وقد أوردته في «شرح الأذكار» (احفظ الله تجده أمامك، تعرف) بتشديد الراء: أي: تحب (إلى الله في الرخاء) بالدأب في الطاعات والإنفاق في وجوه القرب والمثوبات حتى تكون متصفا عنده بذلك معروفا به (يعرفك في الشدة) بتفريجها عنك وجعله لك من كل ضيق فرجا ومن كل هم مخرجا بواسطة ما سلف منك من ذلك التصرف. وقيل: إنه على حذف مضاف: أي تعرف إلى ملائكة الله في الرخاء بالتزام طاعته تعالى والتزام عبوديته يعرفك في الشدة بواسطة شفاعتهم عنده في تفريج كربك وغمك. وتعقب بأنه تكلف فالأول أولى. ومعرفة العبد ربه ضربان: عامة وهي الإقرار بوحدانيته وربوبيته والإيمان به. وخاصة وهي الانقطاع إليه **والأنس به** والطمأنينة بذكره والحياء منه وشهوده في كل حال. ومعرفة الله تعالى كذلك عامة، وهي علمه بعباده واطلاعه على أعمالهم وخاصة وهي محبته لعبده وتقريبه إليه وإجابة دعائه وإنجاؤه من الشدائد، فلا يظفر بهذه الخاصة إلا من تحلى بتلك الخاصة (واعلم أن ما." (١)

"٧٨٨٤ ـ (وعن أبي سعيد الخدري رضيالله عنه قال: قال رسول الله إذا تثاوب) تقدم أنه عند مسلم بالواو (أحدكم فليمسك بيده على فيه) وفي نسخة فمه بالميم وذلك كراهية صورة التثاؤب المحبوبة للشيطان (فإن الشيطان يدخل فيه) أي في الإنسان عند انفتاح فمه حال التثاؤب فيمنعه من ذلك بوضع اليد على الفم سدا لطريقه ومبالغة في منعه وتعويقه (رواه مسلم) وأشار السيوطي في «الجامع الصغير» إلى أن البخاري أخرجه أيضا، وقد أخرجه أحمد وأبو داود بلفظ «فإن الشيطان يدخل من التثاؤب» وعند ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ «إذا تثاوب أحدكم فليضع يده على فيه، ولا يعوي فإن الشيطان يضحك منه».

١٤٣ ـ باب استحباب المصافحة

قال السيوطي: هي مفاعلة من الصفحة والمراد بها الإفضاء بصفحة اليد إلى صفحة اليد قال الكرماني: وهو مما يؤكد المحبة (وبشاشة الوجه) قال في «النهاية»: بشاشة اللقاء الفرح بالمرئى والانبساط إليه **والأنس به** (عند اللقاء) ظرف تنازعه كل من المصدرين المذكورين قبله (وتقبيل يد الرجل الصالح) إعظاما له لصلاحه لا لأمر دنيوي قام به (وتقبيل ولده) ولو كبيرا (شفقة) مفعول له والشفقة هي الحنو والعطف (ومعانقة القادم من سفر) أي ما لم يكن أمرد جميلا غير محرم له (وكراهة الانحناء) أي ثنى الرجل قامته عند اللقاء.

١٨٨٥ ـ (وعن أبي الخطاب قتادة) هو ابن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري (قال: قلت لأنس: أكانت المصافحة

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ٢٨٦/١

في أصحاب النبي) الظرف مستقر: أي كانت موجودة فيما بينهم أي وذلك معيار كونها مشروعة لأن الاجتماع السكوتي حجة (قال نعم. رواه البخاري) في الاستئذان.." (١)

"وقال النووي: (وقال المحققون إنها تنتقل فتكون سنة في ليلة سبع وعشرين، وفي سنة ليلة ثلاث وعشرين، وسنة إحدى وعشرين، وهذا أظهر، وفيه جمع بين الأحاديث المختلفة فيها، ثم نقل عن القاضي عياض أن هذا قول مالك والثوري وأحمد وإسحاق وأبي ثور وغيرهم).

بَاب الاعتِكَاف

لما فرغ المصنف من ذكر أحاديث الصيام ذكر أحاديث الاعتكاف لأن الاعتكاف يشرع مع الصيام غالبا ولأن وقته المشروع شهر رمضان ولذلك جرت عادة الفقهاء إلحاقه بكتاب الصيام. والاعتكاف لغة المكث وملازمة الشيء. لقوله تعالى: (سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ). واصطلاحا: لزوم مسجد لطاعة الله وذكره. إذن فحقيقة الاعتكاف المكث في المسجد بنية التقرب لله والتلاوة والذكر والدعاء أمر زائد لا يشترط في صحته. قال ابن رجب: (فمعنى الاعتكاف قطع العلائق عن الخلائق للاتصال بخدمة الخالق وكلما قويت المعرفة بالله والمحبة له **والأنس به** أورثت صاحبها الانقطاع إلى الله تعالى بالكلية على كل حال). وأجمع الفقهاء على استحبابه وعدم وجوبه. قال ابن المنذر : (أجمع أهل العلم على أن الاعتكاف سنة لا يجب على الناس فرضا إلا أن يوجب المرء على نفسه الاعتكاف نذرا فيجب عليه). ويجوز سائر السنة إلا أنه في رمضان أفضل ويتأكد في العشر الأواخر. والصحيح أنه لا يشترط الصوم في لاعتكاف .والصحيح أنه لا يشترط أن يكون في الجامع وإن كان أفضل ولا يشترط أيضا كونه في المساجد الثلاث المسجد الحرام ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ومسجد الأقصى وما روي في ذلك لا يصح معلول بالوقف على حذيفة ومتنه مخالف لظاهر الآية التي تشترط المسجد فقط. قال تعالى: (وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ). والمسجد يشمل كل موضع يدخل فيما وقف له فيصح الاعتكاف في الرحبة والمرافق والمنارة وغيرها مما يدخل في سور المسجد. ويبطل الاعتكاف بمباشرة المرأة والردة والحيض والاشتغال بالدنيا والخروج بلا حاجة وقطع النية.." (٢)

"- قد يرى بعض الناس أنوارًا ساطعة في الأفق (١) .

المبحث الثالث: ما ذا يستحب فيها؟

يستحب فيها الصلاة والدعاء والاستغفار، لقوله – صلى الله عليه وسلم – : (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه) متفق عليه.

وكثرة الدعاء لا سيما بما ورد، ومنه:(اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعفوعنى) (٢) .

وأما تخصيصها بعمرة فليس بمشروع، وقد نبه شيخنا ابن عثيمين رحمه الله على أن تحرى العمرة في ليلة القدر قد يكون

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ١٧٩/٦

(٢) زبدة الكلام في شرح كتاب الصيام من عمدة الأحكام، ص/٣٢

بدعة؛ لأنه تخصيص بما لم يأت دليل من الشارع على تخصيصه.

والعمرة خصت في رمضان كله، لقوله – صلى الله عليه وسلم – "عمرة في رمضان تقضى حجة" أو قال:"حجة معي". رواه مسلم.

من فوائد الأحاديث:

١– أن الله تعالى قد يكرم بعض عباده فيريه في منامه ما ينفعه.

٢– أن الرؤيا الصالحة إذا تواطأت ودلت القرينة على صدقها ولم تخالف الشرع فإنه يعمل بها.

٣– محبة النبي – صلى الله عليه وسلم – للتيسير على أمته.

باب الاعتكاف

الاعتكاف لغة: لزوم الشيء وحبس النفس عليه.

وشرعاً: لزوم مسجد لعبادة الله تعالى.

والاعتكاف مشروع بالكتاب والسنة من قول النبي – صلى الله عليه وسلم – ومن فعله وإقراره، وهو من أجل الطاعات وأفضل القربات لما فيه من التفرغ لعبادة الله وتخلي القلب والبدن عن مشاغل الدنيا.

قال ابن رجب رحمه الله: "معني الاعتكاف وحقيقته: قطع العلائق عن الخلائق، للاتصال بخدمة الخالق، وكلما قويت المعرفة بالله، والمحبة له، **والأنس به**، أورثت صاحبها الانقطاع إلى الله بالكلية على كل حال" (٣) .

والاعتكاف في رمضان وفي العشر الأواخر منه، تأسيا بالنبي – صلى الله عليه وسلم – .

وهذه منا سبة ذكر باب الاعتكاف في كتاب الصوم.

---

(١) ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في "الفتاوى" (٢٥/٢٨٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥١٣) وقال: "حديث حسن صحيح".

(٣) "اللطائف" ص (٢٠٣).." [1]

"المعرفة عن أحمد بن حنبل أنه قال أحاديث بشر بن عبيد موضوعة كذب قلت رواه البيهقي من طرق والضعيف إذا روي من طريق يصير حسنا فيحتج به ذكره النووي في شرح المهذب وعن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال أقل ما يستحيل به المرأة عشرة دراهم ذكره البيهقي أبو عمر بن عبد البر

٨٤١٥ – حدثنا (سليمان بن حرب) حدثنا (شعبة) عن (عبد العزيز بن صهيب) عن (أنس) أن عبد الرحمان بن عوف تزوج امرأة على وزن نواة فرأي النبي بشاشة العرس فسأله فقال إني تزوجت امرأة على وزن نواة

مطابقته للترجمة من حيث إن النبي لما سمع من عبد الرحمن ما قاله سكت فيدل على أن المهرة غير مقدر وأنه على التراضي بين الزوجين والنواة زنة خمسة دراهم

---

(١) شرح كتاب الصيام من عمدة الأحكام – بندر العبدلي، ص/٣٧

والحديث أخرجه مسلم في النكاح عن إسحاق بن إبراهيم ومحمد بن قدامة

قوله بشاشة العرس وهي الفرح الذي حصل منه وبشاشة اللقاء الفرح بالمرء والانبساط إليه **والأنس به** ويروي فرأى النبي شيئا يشبه العرس قال ابن قرقول كذا في كتاب الأصيلي والقابسي والنسفي وبعض رواة البخاري وهو تصحيف وصوابه بشاشة العرس كالأبي ذر وابن السكن ويروي العروس وفي رواية مسلم قال (عبد الرحمن بن عوف) رآني رسول الله وعلي بشاشة العرس وفي رواية له عن أنس بن مالك أن النبي رأى على عبد الرحمن أثر صفرة فقال ما هذا قال يا رسول الله تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب قال فبارك الله لك أو لم ولو بشاة

وعن قتادة عن أنس أن عبد الرحمان بن عوف تزوج امرأعة على وزن نواة من ذهب

هو عطوف على قوله عن عبد العزيز بن صهيب وهي رواية شعبة عنهما فبين أن عبد العزيز بن صهيب أطلق عن أنس النواة وقتادة زاد أنها من ذهب ويحتمل أن يكون قوله وعن قتادة معلقا

٥٠ -(باب التزويج على القرآن وبغير صداق)

أي هذا باب في بيان التزويج على تعليم القرآن والتزويج بغير صداق أي بغير ذكر صداق مالي." (١)

""""""""" صفحة رقم ٤٩ """""""

ورضاه بقضائه وتعلق قلبه به دائما وصدق الالتجاء إليه والتوكل والاعتماد عليه ، وقطع تعلق القلب بالأسباب كلها ودوام لهج القلب واللسان بذكره **والأنس به** والتنعم بالخلوة بمناجاته ودعائه وتلاوة كتابه بالتدبر والتفكر .

وفي الجملة : فكان خلقه (صلى الله عليه وسلم) القرآن ، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه ، فأكمل الخلق من حقق متابعته وتصديقه قولا وعملا وحالا وهم الصديقون من أمته الذين رأسهم : أبو بكر - خليفته بعده - وهم أعلى أهل الجنة درجة بعد النبيين كما قال (صلى الله عليه وسلم) : " إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون (١٢٨) الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم " قالوا " : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء ما يبلغها غيرهم ، قال : " إي والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين " . خرجاه في " الصحيحين " من حديث أبي سعيد (١٢٩) .

الخصلة الثانية : أن يحب المرء لا يحبه إلا لله . والحب في الله من أصول الإيمان وأعلى درجاته . وفي " المسند " (١٣٠) عن معاذ بن أنس الجهني أن النبي (صلى الله عليه وسلم) سئل عن أفضل الإيمان ، فقال : أن تحب لله وتبغض لله وتعمل لسانك في ذكر الله " . وفيه - أيضا - عن عمرو بن الجموح ، عن النبي (صلى الله عليه وسلم) : لا يحق." (٢)

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٣٣٨/٢٩

(٢) فتح الباري . لابن رجب موافقا للمطبوع، ٤٩/١

"إحداهما : فرض ، وهي المحبة المقتضية لفعل أوامره الواجبة والانتهاء عن زواجره المحرمة والصبر على مقدوراته المؤلمة ، فهذا القدر لابد منه في محبة الله ، ومن لم تكن محبته على هذا الوجه فهو كاذب في دعوى محبة الله ، كما قال بعض العارفين : من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده فهو كاذب ، فمن وقع في ارتكاب شيء من المحرمات أو أخل بشيء من فعل الواجبات فلتقصره في محبة الله حيث قدم محبة نفسه وهواه على محبة الله ، فإن محبة الله لو كملت لمنعت من الوقوع فيما يكرهه . وإنما يحصل الوقوع فيما يكرهه لنقص محبته الواجبة في القلوب وتقديم هوى النفس على محبته وبذلك ينقص الإيمان كما قال صلى الله عليه وسلم : " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن " (١) الحديث .

والدرجة الثانية من المحبة – وهي فضل مستحب –: أن ترتقي المحبة من ذلك إلى التقرب بنوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق الشبهات والمكروهات ، والرضى بالأقضية المؤلمات ، كما قال عامر بن عبد قيس : أحببت الله حبا هون علي كل مصيبة ورضاني بكل بلية ، فما أبالي مع حبي إياه على ما أصبحت ، ولا على ما أمسيت (٢) . و قال عمر بن عبد العزيز أصبحت ومالي سرور إلا في مواقع القضاء والقدر ، ولما مات ولده الصالح قال : إن الله أحب قبضه ، وأعوذ بالله أن تكون لي محبة تخالف محبة الله . وقال بعض التابعين في مرضه : أحبه إلي أحبه إليه . وأما محبة الرسول : فتنشأ عن معرفته ومعرفة كماله وأوصافه وعظم ما جاء به ، وينشأ ذلك في معرفة مرسله وعظمته –كما سبق – ، فإن محبة الله لا تتم إلا بطاعته ، ولا سبيل إلى طاعته إلا بمتابعة رسوله ، كما قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ [آل عمران : ٣١] ومحبة الرسول على درجتين – أيضا : إحداهما : فرض ، وهي ما اقتضى طاعته في امتثال ما أمر به من الواجبات والانتهاء عما نهى عنه من المحرمات والرضى بذلك ، وأن لا يجد في نفسه حرجا مما جاء به ويسلم له تسليما ، وأن لا يتلقى الهدى من غير مشكاته ولا يطلب شيئا من الخير إلا مما جاء به .

الدرجة الثانية : فضل مندوب إليه ، وهي : ما ارتقى بعد ذلك إلى اتباع سنته وآدابه وأخلاقه والاقتداء به في هديه وسمته وحسن معاشرته لأهله وإخوانه وفي التخلق بأخلاقه الظاهرة في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة وفي جوده وإيثاره وصفحه وحلمه واحتماله وتواضعه ، وفي أخلاقه الباطنة من كمال خشيته لله ومحبته له وشوقه إلى لقائه ورضاه بقضائه وتعلق قلبه به دائما وصدق الالتجاء إليه والتوكل والاعتماد عليه ، وقطع تعلق القلب بالأسباب كلها ودوام لهج القلب واللسان بذكره **والأنس به** والتنعم بالخلوة بمناجاته ودعائه وتلاوة كتابه بالتدبر والتفكر .

(١) البخاري (فتح : ٢٤٧٥) ، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة .

(٢) أخرجه أبو نعيم في " الحلية " (٢ / ٨٩– ٩٠) بنحوه .." (١)

" فالجسد عيشه : الأكل والشرب والنكاح واللباس والطيب وغير ذلك من اللذات الحسية ففيه بهذا الاعتبار مشابهة بالحيوانات في هذه الأوصاف

(١) فتح الباري لابن رجب، ٢٤/١

وأما الروح فهي لطيفة وهي روحانية من جنس الملائكة فقوتها ولذتها وفرحها وسرورها في معرفة خالقها وبارئها وفاطرها وفي ما يقرب منه من طاعته في ذكره ومحبته **والأنس به** والشوق إلى لقائه

فهذا هو عيش النفس وقوتها فإذا فقدت ذلك مرضت وهلكت أعظم مما يهلك الجسد بفقد طعامه وشرابه ولهذا يوجد كثير من أهل الغنى والسعة يعطي جسده حظه من التنعيم ثم يجد ألما في قلبه ووحشة فيظنه الجهال أن هذا يزول بزيادة هذه اللذات الحسية وبعضهم يظن أنه يزول بإزالة العقل بالسكر وكل هذا يزيد الألم والوحشة ." (١)

" نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم

وتتعب فيما سوف تكره غبه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم

فالصالحون كلهم قللوا من عيش الأجساد وكثروا من عيش الأرواح لكن منهم من قلل من عيش بدنه ليستوفيه في الآخرة وهذا تاجر ومنهم من فعل ذلك خوفا من الحساب عليه في الآخرة

والمحققون فعلوا ذلك تفريغا للنفس عما يشغل عن الله لتتفرغ القلوب للعكوف على طاعته وخدمته وذكره وشكره **والأنس به** والشوق إلى لقائه ." (٢)

" أصلي بذكراكم إذا كنت خاليا ... ألا إن تذكار الأحبة تسبيح

الطبقة الثانية من إذا أقلقهم الشوق سكنهم **الأنس بالله** فاطمأنت قلوبهم بذكره وأنسوا بقربه

وهذه حال الرسول وخواص العارفين من أمته وسئل الشبلي بماذا تستريح قلوب المحبين والمشتاقين فقال بسرورهم بمن أحبوه واشتاقوا إليه

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ... ولولا ما أؤمل ما حييت

فأحيا بالمنى وأموت شوقا ... فكم أحيا عليك وكم أموت

كانت بعض الصالحات تقول أليس عجبا أن أكون حية بين أظهركم وفي قلبي من الاشتياق إلى ربي مثل شعل النار التي لا تطفأ ." (٣)

"شرح سنن أبي داود [١٦١]

لقد فتح الله تعالى لعباده أبواب رحمته الواسعة ليدخلوها بأنواع القرب وأعمال البر، وإن مما تستجلب به رحمة الله تعالى من أعمال البر صلاة الليل، حيث يغمر الكون السكون عقب صلاة المغرب فيقوم العبد يراوح بين قدميه تبتلاً لربه جل جلاله، أو يلهج لسانه بذكر الله وقراءة القرآن، مع انتظاره ساعات الليل الآخر ليحظى فيها بمكابدة الظلمات بعد راحة البدن، بحرص عظيم يورثه كتابة الأجر له لو نام ففاته ذلك الحظ، ويدعوه إلى قضائه بعد فجره ليكتب له أجر عمله في ليلته.

---

(١) شرح حديث لبيك، ص/٥٩

(٢) شرح حديث لبيك، ص/٦٩

(٣) شرح حديث لبيك، ص/١٠٠

ما جاء فيمن نام عن حزبه

شرح حديث (من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر...)

قال المصنف رحمه الله تعالى: [باب من نام عن حزبه. حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا أبو صفوان عبد الله بن سعيد بن عبد الملك بن مروان ، ح: وحدثنا سليمان بن داود و محمد بن سلمة المرادي قالا: حدثنا ابن وهب -المعنى- عن يونس عن ابن شهاب أن السائب بن يزيد و عبيد الله أخبراه أن عبد الرحمن بن عبد -قالا عن ابن وهب : ابن عبد القاري - قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل)]. قال الإمام أبو داود السجستاني رحمه الله تعالى: [باب من نام عن حزبه]، أي: ماذا يصنع؟ والمراد بحزبه القرآن الذي التزم به، أو حدده لنفسه بأن يقرأه كل ليلة، وقيل: إن المقصود بذلك ما كان يقرؤه في صلاته من الليل، ومعناه أنه يصلي صلوات ويقرأ فيها مقداراً من القرآن، هذا هو الحزب، وإذا كان المقصود بذلك قراءة القرآن فإنه يقرأ حزبه بعد طلوع الفجر إلى وقت الظهر؛ لأن قراءة القرآن تكون في كل وقت، وأما الصلاة، وكونه يقرأ فيها فإنها لا تكون بعد الفجر إلى طلوع الشمس، وإنما تكون في الضحى إلى الزوال، وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم -كما ثبت في صحيح مسلم - أنه كان إذا مرض أو حصل له شيء يمنعه من صلاة الليل صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة قضاءً لصلاته في الليل، وكان من عادته أن يصلي إحدى عشرة ركعة، فيجعلها اثنتي عشرة ركعة لئلا يكون الوتر بالنهار، فيأتي بمقدار الصلاة ويزيدها ركعة حتى تكون في النهار شفعاً ولا تكون وتراً. وعلى هذا فيحتمل أن يكون الحزب قراءة القرآن من غير صلاة، ويحتمل أن يكون قراءة القرآن داخل الصلاة، وأنه يصلي صلوات وركعات معلومة يقرأ فيها مقداراً معيناً من القرآن يلتزم به في كل ليلة، فإذا نام عن ذلك أو عن بعضه فإنه يأتي به بعد صلاة الفجر إلى صلاة الظهر.

تراجم رجال إسناد حديث (من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر...)

قوله: [حدثنا قتيبة بن سعيد]. هو قتيبة بن سعيد بن جميل بن طريف ، وهو ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [حدثنا أبو صفوان عبد الله بن سعيد بن عبد الملك بن مروان]. أبو صفوان عبد الله بن سعيد بن عبد الملك بن مروان ، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب إلا ابن ماجة . [ح وحدثنا سليمان بن داود]. هو: المهري المصري ، ثقة، أخرج له أبو داود و النسائي . [ومحمد بن سلمة المرادي]. هو محمد بن سلمة المرادي المصري ، وهو ثقة، أخرج حديثه مسلم و أبو داود و النسائي و ابن ماجة . [حدثنا ابن وهب]. هو: عبد الله بن وهب المصري ، ثقة فقيه، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [المعنى]. أي أن الطريقين متفقتان في المعنى. [عن يونس بن يزيد الأيلي]. هو ثقة، أخرج له أصحاب الكتب

الستة. [عن ابن شهاب]. هو: محمد بن مسلم بن عبيد الله الزهري ، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [أن السائب بن يزيد]. السائب بن يزيد صحابي صغير، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [وعبيد الله]. هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وهو ثقة، من فقهاء المدينة السبعة في عصر التابعين، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [أخبراه أن عبد الرحمن بن عبد]. هو عبد الرحمن بن عبد القاري و(عبد) غير مضافة إلى (القاري)، و(عبد) منونة، قيل: له رؤية، وقيل: ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [قالا عن ابن وهب : ابن عبد القاري]. أي أن سليمان بن داود ومحمد بن سلمة المرادي قالا في روايتهما عن ابن وهب في: عن ابن عبد القاري ، أي: عبد الرحمن بن عبد القاري. أي أنه في الطريق الثانية ما ذكر اسم عبد الرحمن ، ولكن ذكرت نسبته إلى أبيه، وذكرت نسبته القاري -بالياء المشددة- نسبة إلى قبيلة. [قال: سمعت عمر بن الخطاب]. عمر بن الخطاب هو أمير المؤمنين، وثاني الخلفاء الراشدين الهادين المهديين، صاحب المناقب الجمة، والفضائل الكثيرة رضي الله تعالى عنه وأرضاه، وحديثه عند أصحاب الكتب الستة.

من نوى القيام فنام

شرح حديث (ما من امرئ تكون له صلاة بليل يغلبه عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته...)

قال المصنف رحمه الله تعالى: [باب من نوى القيام فنام حدثنا القعنبي عن مالك عن محمد بن المنكدر عن سعيد بن جبير عن رجل عنده رضيٍّ أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما من امرئ تكون له صلاة بليل يغلبه عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته، وكان نومه عليه صدقة)]. أورد أبو داود رحمه الله [باب من نوى القيام فنام]. يعني: غلبه النوم وكان ينوي القيام، أي: ومن عادته أنه يقوم، ولكنه حصل له أنه غلبه النوم، فإن الله يكتب له أجر قيامه ذلك الذي كان يعمله في الحالات التي لم ينم فيها، فيكتب الله له أجر قيامه، ويكون نومه عليه صدقة، أي أنه استفاد من الأجر كالأجر الذي كان يحصله لو صلى، وهذا النوم الذي حصل له يكون صدقة عليه، فيكون قد استفاد الأجر والنوم، وهذا -كما هو معلوم- في حق من كان حريصاً على الصلاة، وكان ملازماً لها ولكنه حصل له في بعض الأحيان أن غلبه النوم، فإن الله تعالى يثيبه ويأجره مثلما كان يأجره وهو مستيقظ يصلي لم يحصل له نوم، وهذا من فضل الله وكرمه وإحسانه. ومعلوم أن الإنسان حين ينوي الخير ويقصده ويعزم عليه ولا يتمكن منه فإن الله يأجره على ذلك. وأما الحديث الذي يروى ويذكر بلفظ: (نية المؤمن خير من عمله) فهو غير صحيح، وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في غزوة تبوك: (إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، حبسهم العذر) يعني أنهم مجاهدون بنياتهم، وصاروا في حكم المجاهدين، ولهذا قالوا: يكون الجهاد باللسان، وبالمال، وبالنفس، وبالنية. وهذا من فضل الله عز وجل وكرمه وإحسانه، وهو أنه يثيب المؤمن على نيته وعلى قصده.

تراجم رجال إسناد حديث (ما من امرئ تكون له صلاة بليل يغلبه عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته...)

قوله: [حدثنا القعنبي]. هو عبد الله بن مسلمة بن قعنب ، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة إلا ابن ماجة . [عن مالك]. هو مالك بن أنس ، إمام دار الهجرة، أحد أصحاب المذاهب الأربعة المشهورة من مذاهب أهل السنة، وحديثه أخرجه أصحاب الكتب الستة. [عن محمد بن المنكدر]. محمد بن المنكدر ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن سعيد بن جبير]. سعيد بن جبير ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن رجل عنده رضيٍّ]. يعني: يوثقه ويثني عليه، وقد جاء في سنن النسائي أنه الأسود بن يزيد النخعي الكوفي، وهو ثقة مخضرم، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن عائشة]. هي عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وأرضاها، الصديقة بنت الصديق ، وهي من أوعية السنة وحفظتها، وهي أحد سبعة أشخاص عرفوا بكثرة الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم.

أي الليل أفضل

شرح حديث (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر...)

قال المصنف رحمه الله تعالى: [باب: أي الليل أفضل حدثنا القعنبي عن مالك عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعن أبي عبد الله الأغر عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟)]. أورد أبو داود هذه الترجمة، وهي: [أي الليل أفضل؟] يعني: ليصلى ويدعى فيه. والجواب أن من كان يتمكن من القيام ويستيقظ فإن صلاته في آخر الليل أفضل من صلاته في أول الليل، وإذا كان لا يتمكن من الاستيقاظ فإن الأولى في حقه والأفضل أن يصلي في أول الليل؛ لئلا يفوت على نفسه صلاة الليل، فإذا كان ليس من عادته أنه يستيقظ في آخر الليل فليصل أول الليل؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم جاء عنه هذا وهذا، والرسول صلى الله عليه وسلم من كل الليل قد أوتر، من أوله ووسطه وآخره، وكل ذلك سائغ وجائز، ولكن الناس فيهم من يستيقظ آخر الليل، فالأفضل في حقه أن يصلي آخر الليل، وفيهم من لا يتحقق بأنه يستيقظ آخر الليل، فهذا الأولى في حقه أن يصلي في أول الليل، كما جاء عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال: (أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بثلاث: ركعتي الضحى، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وأن أوتر قبل أن أنام). وكذلك وصيته لأبي الدرداء حيث قال: (أوصاني حبيبي صلى الله عليه وسلم بثلاث: ركعتي الضحى، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وأن أوتر قبل أن أرقد) رواه مسلم . إذاً: المسألة فيها تفصيل، فآخر الليل أفضل لمن تمكن منه، ومن لم يتمكن منه فإنه لا يفوت على نفسه أول الليل؛ لأنه إذا كان يفوت على نفسه آخر الليل ولم يصل أول الليل فإنه يذهب عليه الليل دون أن يعمل شيئاً، فكونه يأتي بوتره وصلاته في الليل، ولا يعرضها للفوات، هو الذي ينبغي. وقد أورد أبو داود حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: (ينزل ربنا تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يستغفرني فأغفر له؟ من يسألني فأعطيه؟). وهذا يدل على أن آخر الليل والثلث الأخير من الليل هو وقت نزول الله عز وجل، وهذا

من صفات الله عز وجل، وهو أنه ينزل نزولاً يليق بكماله وجلاله دون المشابهة لخلقه، ودون تكييف، بل كما يليق به سبحانه وتعالى. ومعلوم أن ذاته لا يعلم كنهها، وصفاته لا يعلم كنهها، فالعباد لا يعرفون كنه ذات الله عز وجل، وكذلك لا يعرفون كنه صفاته، ولهذا فإن مذهب السلف في هذا الباب هو أن أحاديث الصفات تذكر كما وردت من غير تكييف لها، ومن غير تشبيه لله بخلقه، ومن غير تعطيل أو تأويل أو تحريف، بل على حد قول الله عز وجل: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشورى:١١] فأثبت السمع والبصر بقوله: ((وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ))، ونفى المشابهة بقوله: ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)) فهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة. والنزول لا نعرف كنهه كما أن الذات لا نعرف كنهها، ومن القواعد في هذا الباب أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، فكما أننا نثبت لله ذاتاً لا تشبه الذوات فنحن نثبت له صفات لا تشبه الصفات، بل صفات الباري كما يليق بكماله وجلاله، وصفات المخلوقين تليق بضعفهم وافتقارهم، ولا يشبه المخلوق الخالق في شيء من صفاته، والله تعالى لا يشبه أحداً من خلقه في صفاتهم، بل صفات الباري تليق بكماله وجلاله، وصفات المخلوقين تليق بضعفهم وافتقارهم. فلا تكييف ولا تشبيه، ولا تعطيل ولا تحريف، ولكن إثبات مع التنزيه؛ لقول الله تعالى: ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)).

تراجم رجال إسناد حديث (ينزل ربنا تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر...)

قوله: [حدثنا القعنبي عن مالك عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن]. القعنبي و مالك و ابن شهاب مر ذكرهم. و أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف المدني ثقة فقيه، أحد فقهاء المدينة السبعة في عصر التابعين على أحد الأقوال الثلاثة في السابع منهم، وحديثه أخرجه أصحاب الكتب الستة. [عن أبي عبد الله الأغر]. هو: سلمان الأغر ، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن أبي هريرة]. هو أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكثر الصحابة حديثاً على الإطلاق رضي الله عنه وأرضاه.

وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل

شرح حديث (إن كان رسول الله ليوقظه الله عز وجل بالليل...)

قال المصنف رحمه الله تعالى: [باب: وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل. حدثنا حسين بن يزيد الكوفي حدثنا حفص عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: (إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوقظه الله عز وجل بالليل، فما يجيء السحر حتى يفرغ من حزبه)]. أورد أبو داود [باب وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل]. والنبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي قبل السحر، فإذا جاء وقت السحر يكون قد فرغ من حزبه ومن صلاته صلى الله عليه وسلم، ويستريح بعد ذلك، وكان ينام أول الليل، ويستيقظ في الثلث الأخير، فيكون في السدس الخامس من الأسداس، ويبقى السدس الأخير الذي هو السحر يستريح فيه ويستعد للصلاة صلى الله عليه وسلم، فكانت صلاته في

الثلث الأخير، ولكنها ليست متصلة بطلوع الفجر، وإنما تنتهي قبل حصول السحر، ولهذا جاء أن الأذان الأول يوقظ النائم ويرجع القائم، فالقائم يستريح، والنائم يستيقظ حتى يستعد للصلاة، وحتى يصلي وتره، وحتى يستعد للصيام بأن يستحر إذا كان يريد أن يصوم. تقول عائشة رضي الله عنها: (إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوقظه الله عز وجل بالليل، فيما يجيء السحر حتى يفرغ من حزبه). قولها: [(حتى يفرغ من حزبه)] أي: من صلاته وقراءته صلى الله عليه وسلم، تعني أن المقدار الذي يقرؤه من القرآن الذي يكون في الصلاة لا يأتي وقت السحر إلا وقد فرغ منه صلى الله عليه وسلم. والذي جاء عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يزيد في رمضان ولا غير رمضان على إحدى عشرة ركعة صلى الله عليه وسلم.

تراجم رجال إسناد حديث (إن كان رسول الله ليوقظه الله عز وجل بالليل..)

قوله: [حدثنا حسين بن يزيد الكوفي]. حسين بن يزيد الكوفي لين الحديث، أخرج له أبو داود و الترمذي . [حدثنا حفص]. هو: ابن غياث ، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن هشام بن عروة]. هشام بن عروة ، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن أبيه]. أبوه هو عروة بن الزبير بن العوام ، ثقة فقيه، أحد فقهاء المدينة السبعة في عصر التابعين، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن عائشة]. عائشة رضي الله عنها قد مر ذكرها.

شرح حديث (كان إذا سمع الصراخ قام فصلى)

قال المصنف رحمه الله تعالى: [حدثنا إبراهيم بن موسى قال: حدثنا أبو الأحوص ، ح: وحدثنا هناد عن أبي الأحوص - وهذا حديث إبراهيم - عن أشعث عن أبيه عن مسروق قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لها: أي حينٍ كان يصلي؟ قالت: (كان إذا سمع الصراخ قام فصلى)]. أورد أبو داود حديث عائشة رضي الله عنها وقد سألها مسروق عن الوقت الذي يقوم فيه النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: (كان إذا سمع الصراخ قام فصلى) وجاء في مسلم وغيره (الصارخ) بدل الصراخ، والمراد بالصارخ الديك، أي: أذان وصوت الديك، وكانت الديكة في الغالب تصيح ويحصل منها الصياح بعد نصف الليل عندما يجيء النصف الثاني، وهذا معناه أن نصف الليل الأول كان النبي صلى الله عليه وسلم ينام فيه، ولكنه كان في بعض الأحيان يوتر من أول الليل، كما جاء عن عائشة أنه من كل الليل قد أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أوله ووسطه وآخره، فانتهى وتره إلى السحر، وفعله صلى الله عليه وسلم ليبن أن الكل جائز وسائغ، ولكن كونه في آخر الليل لمن تمكن منه أولى وأفضل. والديك إذا حصل منه ذلك فلكونه يرى ملكاً، والحمار ينهق إذا رأى شيطاناً، كما جاء ذلك في صحيح البخاري .

تراجم رجال إسناد حديث (كان إذا سمع الصراخ قام فصلى)

قوله: [حدثنا إبراهيم بن موسى]. إبراهيم بن موسى ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [حدثنا أبو الأحوص]. هو سلام بن سليم الحنفي ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [ح: وحدثنا هناد]. هو: ابن السري ، ثقة، أخرج حديثه

البخاري في (خلق أفعال العباد) ومسلم وأصحاب السنن. [عن أشعث]. هو: ابن سليم أبو الشعثاء ، ثقة، أخرج له أصحاب الستة. [عن أبيه]. هو سليم بن الأسود أبو الشعثاء ، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن مسروق]. هو مسروق بن الأجدع ، وهو ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن عائشة]. عائشة قد مرّ ذكرها.

شرح حديث (ما ألفاه السحر عندي إلا نائماً)

قال المصنف رحمه الله تعالى: [حدثنا أبو توبة عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما ألفاه السحر عندي إلا نائماً، تعني النبي صلى الله عليه وسلم)]. أورد أبو داود حديث عائشة أنها قالت: [(ما ألفاه السحر عندي إلا نائماً)] ومعناه أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي صلاته قبل أن يجيء السحر كما سبق في الحديث الذي مر، بحيث لا يأتي السحر إلا وقد أنهى حزبه، أي أنه كان في السحر يستريح استعداداً لصلاة الفجر صلى الله عليه وسلم، فهذا مثل الحديث المتقدم.

تراجم رجال إسناد حديث (ما ألفاه السحر عندي إلا نائماً)

قوله: [حدثنا أبو توبة]. هو أبو توبة الربيع بن نافع ، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة إلا الترمذي . [عن إبراهيم بن سعد]. إبراهيم بن سعد ، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن أبيه]. هو: سعد بن إبراهيم ، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن أبي سلمة عن عائشة]. أبو سلمة و عائشة مر ذكرهما.

شرح حديث (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى)

قال المصنف رحمه الله تعالى: [حدثنا محمد بن عيسى حدثنا يحيى بن زكريا عن عكرمة بن عمار عن محمد بن عبد الله الدؤلي عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة عن حذيفة رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى)]. أورد أبو داود حديث حذيفة رضي الله عنه [(كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى)] وهذا أعم من صلاة الليل، فهو أعم من الترجمة؛ لأنه لا يختص بصلاة الليل. قوهل: [(كان إذا حزبه أمر صلى)] يعني: فزع إلى الصلاة صلى الله عليه وسلم، وذلك أن الصلاة فيها **الأنس بالله** عز وجل، ومناجاته، والتسلية عن الشيء الذي أحزنه وحزبه وأهمه، فكان يفزع إلى الصلاة صلى الله عليه وسلم، ولا شك في أن الصلاة في الليل هي خير الصلاة بعد الفريضة.

تراجم رجال إسناد حديث (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى)

قوله: [حدثنا محمد بن عيسى]. هو محمد بن عيسى الطباع ، وهو ثقة، أخرج حديثه البخاري تعليقاً وأبو داود و الترمذي في الشمائل والنسائي و ابن ماجة . [حدثنا يحيى بن زكريا]. هو يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ، وهو ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن عكرمة بن عمار]. عكرمة بن عمار صدوق يغلط، أخرج حديثه البخاري تعليقاً ومسلم وأصحاب السنن. [عن محمد بن عبد الله الدؤلي]. محمد بن عبد الله الدؤلي ، مقبول أخرج حديثه أبو داود . [عن عبد العزيز ابن

أخي حذيفة]. عبد العزيز ابن أخي حذيفة وثقه ابن حبان ، وذكره بعضهم في الصحابة، أخرج له أبو داود . [عن حذيفة]. هو حذيفة بن اليمان ، الصحابي ابن الصحابي رضي الله عنهما، وحديثه أخرجه أصحاب الكتب الستة.

شرح حديث (...فأعني على نفسك بكثرة السجود)

قال المصنف رحمه الله تعالى: [حدثنا هشام بن عمار حدثنا الهقل بن زياد السكسكي حدثنا الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة قال: سمعت ربيعة بن كعب الأسلمي يقول: (كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم آتيه بوضوئه وبحاجته فقال: سلني ؟ فقلت: مرافقتك في الجنة، قال: أو غير ذلك ؟ قلت: هو ذاك، قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود)]. أورد أبو داود حديث ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه أنه كان يبيت مع النبي صلى الله عليه وسلم ويخدمه، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: (سلني؟ فقال: مرافقتك في الجنة، قال: أو غير ذلك؟ قال: هو ذاك)، يعني: هذا هو الذي أريد، قال: [(فأعني على نفسك بكثرة السجود)] ومعناه: اشتغل واجتهد في العبادة والصلاة. ولا شك في أن الوقت الذي فيه الإتيان بالصلاة على وجه أكمل هو الليل، والحديث يشمل الصلاة في الليل وغير الليل، ولا يختص بالليل، ولكن الصلاة في الليل لها فضيلة ومزية، ولهذا أورده أبو داود رحمة الله عليه فيما يتعلق بصلاة الليل، ولكنه لا يختص بذلك، بل يمكن أن الإنسان يصلي في الضحى، ويصلي بعد الظهر وبعد المغرب، وفي كل الأوقات التي تجوز الصلاة فيها. والمراد بقول النبي صلى الله عليه وسلم: [(أعني على نفسك بكثرة السجود)] كثرة الصلاة، وليس المقصود السجود بدون صلاة، وإنما يصلي؛ لأن الصلاة يطلق عليها سجود، ويقال للركعة: سجدة، كما في قوله تعالى: وَأَدْبَارَ السُّجُودِ [ق:٤٠] يعني: أدبار الصلوات. فالسجود المقصود به الصلاة، وليس المقصود به خصوص السجود، وهو كون الإنسان يسجد بدون صلاة؛ لأن التطوع والتنفل لا يكون بأقل من ركعتين، إلا الوتر فإنه يكون ركعة واحدة، وأما السجود وحده فلا يكون إلا في سجود الشكر أو التلاوة، أي: السجود بدون ركوع وبدون قيام. قوله: [(فقال: سلني، فقلت: مرافقتك في الجنة)]. هذا هو الذي يريده، فهو يريد من النبي صلى الله عليه وسلم أن يشفع له وأن يدعو له، أو يخبر عنه بأنه من أهل الجنة مرافق له، فالرسول صلى الله عليه وسلم قال له: [(أعني على نفسك بكثرة السجود)]؛ لأن هذا مما يعين على تحقيق مطلوبك وبغيتك. وهذا -كما هو معلوم- له ولغيره؛ لأنه لو كان شهد له أو أعطاه ما يخصه لم يكن للناس شيء، فغيره له أن يعمل بمثل هذا العمل، ويكثر الصلاة، وهذا من أسباب دخول الجنة. قوله: [(مرافقتك في الجنة)]. الذي يبدو أن يكون معه في الجنة، وليس بلازم أن يكون في منزلته صلى الله عليه وسلم، ومن المعلوم أن الإنسان إذا كان معه في الجنة فقد ظفر بالخير العظيم، المهم أن يكون الإنسان في الجنة، وأما كونه تكون له منزلة النبي صلى الله عليه وسلم فمنزلة النبي صلى الله عليه وسلم تخصه، وليس معنى ذلك أن الناس لا يرون النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة، بل يرونه ويراهم، ولكن ليست منزلته منزلتهم، كما أنهم مع تفاوت الدرجات يرى بعضهم بعضاً.

تراجم رجال إسناد حديث (... فأعني على نفسك بكثرة السجود)

قوله: [حدثنا هشام بن عمار]. هشام بن عمار صدوق، أخرج له البخاري وأصحاب السنن. [حدثنا الهقل بن زياد

السكسكي]. الهقل بن زياد السكسسكي ، ثقة، أخرج له مسلم وأصحاب السنن. [حدثنا الأوزاعي]. هو: عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي أبو عمرو ، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن يحيى بن أبي كثير]. هو يحيى بن أبي كثير اليمامي ، وهو ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن أبي سلمة]. أبو سلمة قد مر ذكره. [سمعت ربيعة بن كعب الأسلمي]. ربيعة بن كعب الأسلمي هو صحابي، أخرج حديثه البخاري في الأدب المفرد ومسلم وأصحاب السنن.

شرح حديث: (كانوا يتيقظون ما بين المغرب والعشاء يصلون)

قال المصنف رحمه الله تعالى: [حدثنا أبو كامل حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه في هذه الآية: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ [السجدة:١٦] قال: كانوا يتيقظون ما بين المغرب والعشاء يصلون، وكان الحسن يقول: قيام الليل]. أورد أبو داود هذا الأثر عن أنس بن مالك رضي الله عنه في تفسير هذه الآية، وهي قوله تعالى: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ قال: (كانوا يتيقظون ما بين المغرب والعشاء يصلون). يعني أنهم يصلون الليل قبل العشاء وبعدها، ومعنى ذلك أنهم كانوا مستيقظين منتبهين في ذلك الوقت، لا ينامون ويعرضون صلاة العشاء للضياع والتأخر كما هو شأن المنافقين الذين ينامون ولا يصلون العشاء ولا يحضرون، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر) ولهذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يكره النوم قبلها والحديث بعدها؛ لأن النوم قبلها يؤدي إلى ضياعها وتأخيرها، وخروجها عن وقتها، والتساهل فيها، وإذا كان الإنسان مستيقظاً فإنه يكون مصلياً في ذلك الوقت، ويكون في نفس الوقت متمكناً من أداء صلاة العشاء، فقد جاء عن بعض السلف كأنس وغيره من التابعين أنهم قالوا في قوله تعالى: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ إن ذلك ما بين صلاة المغرب والعشاء. كما جاء في هذا الأثر، وجاء أنها صلاة الليل، وهنا قال الحسن : هو قيام الليل، وليس معنى ذلك أن فعلهم هذا يكون قبل العشاء فقط؛ لأن الوتر لا يؤتى به إلا بعد العشاء. نعم إذا جمع بين الصلاتين المغرب والعشاء جمع تقديم فله أن يصلي ما شاء ويوتر ولو لم يدخل وقت العشاء؛ لأن العشاء بها فحل الإتيان بالوتر والإتيان بصلاة الليل كاملة، بحيث يصلي الإنسان وينام وقد أتى بوتره وصلاته. قوله: [وكان الحسن يقول: قيام الليل]. يعني أن الصلاة في قوله: ((تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ)) المقصود بها قيام الليل.

تراجم رجال إسناد حديث: (كانوا يتيقظون ما بين المغرب والعشاء يصلون)

قوله: [حدثنا أبو كامل]. هو أبو كامل الجحدري الفضيل بن حسين ، وهو ثقة، أخرج له البخاري تعليقاً ومسلم و أبو داود و النسائي . [حدثنا يزيد بن زريع]. يزيد بن زريع ، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [حدثنا سعيد]. هو سعيد بن أبي عروبة ، وهو ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن قتادة]. هو قتادة بن دعامة السدوسي البصري ، وهو ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن أنس]. هو أنس بن مالك رضي الله عنه، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحد السبعة المعروفين بكثرة الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم.

شرح أثر أنس في تفسير: (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون)

قال المصنف رحمه الله تعالى: [حدثنا محمد بن المثنى حدثنا يحيى بن سعيد وابن أبي عدي عن سعيد عن قتادة عن أنس رضي الله عنه في قوله عز وجل: كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ [الذاريات:١٧] قال: كانوا يصلون فيما بين المغرب والعشاء، زاد في حديث يحيى : وكذلك ((تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ))]. أورد أبو داود هذا الأثر عن أنس ، وهو مثل الذي قبله في قوله: ((تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ))، وفيه الزيادة في قوله: ((كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)) أنهم كانوا يصلون بين المغرب والعشاء، والكلام فيه كالذي قبله.

تراجم رجال إسناد أثر أنس في تفسير: (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون)

قوله: [حدثنا محمد بن المثنى]. هو أبو موسى الزمن العنزي ، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة، بل هو شيخ لأصحاب الكتب الستة. [حدثنا يحيى بن سعيد]. هو يحيى بن سعيد القطان البصري ، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [وابن أبي عدي]. هو محمد بن إبراهيم بن أبي عدي ، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن سعيد]. سعيد و قتادة و أنس قد مر ذكرهم.

افتتاح صلاة الليل بركعتين

شرح حديث (إذا قام أحدكم من الليل فليصل ركعتين خفيفتين)

قال المصنف رحمه الله تعالى: [باب افتتاح صلاة الليل بركعتين. حدثنا الربيع بن نافع أبو توبة حدثنا سليمان بن حيان عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا قام أحدكم من الليل فليصل ركعتين خفيفتين)]. أورد أبو داود رحمه الله هذه الترجمة، وهي: [باب افتتاح صلاة الليل بركعتين]. وصلاة الليل هي بعد سنة العشاء؛ لأن سنة العشاء راتبة متعلقة بالعشاء ومرتبطة بها، وصلاة الليل بعد ذلك، والترجمة فيها أن صلاة الليل تفتتح بركعتين خفيفتين؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفتتح صلاة الليل بركعتين خفيفتين، وقيل: إن هاتين الركعتين يكون بهما التوفيق بين ما روي من كونه صلى الله عليه وسلم كان يصلي إحدى عشرة ركعة، وكونه كان يصلي ثلاث عشرة ركعة، فمن العلماء من قال: هما الركعان الخفيفتان قبل صلاة الليل، فعلى قول إنها إحدى عشر يكون المعنى أنه ما حسبت الركعتان، وعلى أنها ثلاث عشرة تكون قد حسبت الركعتان. وقيل: إن المقصود بالركعتين الفارقتين بين الإحدى عشرة والثلاث عشرة هما اللتان كان يأتي بهما النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس بعد الوتر، وقيل: ركعتا الفجر، وقيل: هما سنة الوضوء، والمعروف عنه صلى الله عليه وسلم ما قالت عائشة من أنه ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، فثلاث عشرة يجمع بينها وبين إحدى عشرة بمثل هذه الأقوال التي أشرت إليها، وقد قالها بعض أهل العلم.

تراجم رجال إسناد حديث (إذا قام أحدكم من الليل فليصل ركعتين خفيفتين)

قوله: [حدثنا الربيع بن نافع أبو توبة حدثنا سليمان بن حيان]. الربيع بن نافع مر ذكره، وسليمان بن حيان هو أبو خالد الأحمر ، صدوق يخطئ، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن هشام بن حسان]. هشام بن حسان ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن ابن سيرين]. محمد بن سيرين ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن أبي هريرة]. أبو هريرة قد مر ذكره.

إسناد آخر لحديث: (إذا قام أحدكم من الليل فليصل ركعتين خفيفتين) وتراجم رجال إسناده

قال المصنف رحمه الله تعالى: [حدثنا مخلد بن خالد حدثنا إبراهيم -يعني ابن خالد - عن رباح بن زيد عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (إذا...) بمعناه، زاد: (ثم ليطول بعد ما شاء)]. أورد أبو داود هذا الحديث، ولكنه موقوف على أبي هريرة . قوله: (قال: إذا ... بمعناه). أي: مثل ما تقدم، فهو إحالة على الرواية السابقة، وزاد: [(ثم ليطول بعد ما شاء)] يعني: بعد الركعتين الخفيفتين يطول ما شاء. قوله: [حدثنا مخلد بن خالد]. مخلد بن خالد ثقة، أخرج له مسلم و أبو داود . [حدثنا إبراهيم -يعني ابن خالد]. إبراهيم بن خالد ثقة، أخرج له أبو داود و النسائي . [عن رباح بن زيد]. رباح بن زيد ثقة، أخرج له أبو داود و النسائي . [عن معمر]. هو معمر بن راشد الأزدي ثم البصري، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن أيوب]. هو أيوب بن أبي تميمة السختياني ، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن ابن سيرين عن أبي هريرة]. ابن سيرين و أبو هريرة مر ذكرهما.

ذكر من وقف الحديث على أبي هريرة وذكر تراجمهم

قال المصنف رحمه الله تعالى: [قال أبو داود : روى هذا الحديث حماد بن سلمة وزهير بن معاوية وجماعة عن هشام عن محمد أوقفوه على أبي هريرة ، وكذلك رواه أيوب و ابن عون أوقفوه على أبي هريرة ، ورواه ابن عون عن محمد قال فيهما تجوز]. هذا الحديث مثل الذي قبله موقوف على أبي هريرة . قوله: (روى هذا الحديث حماد بن سلمة). حماد بن سلمة أخرج حديثه البخاري تعليقاً ومسلم وأصحاب السنن. [وزهير بن معاوية وجماعة]. زهير بن معاوية ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن هشام عن محمد]. هشام بن حسان و محمد بن سيرين قد مر ذكرهما. [وكذلك رواه أيوب و ابن عون أوقفوه على أبي هريرة]. أيوب مر ذكره، وابن عون هو عبد الله بن عون ، وهو ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [ورواه ابن عون عن محمد قال: فيهما تجوز]. فيهما تجوز يعني: بدل قوله: [خفيفتين]، قال: [فيهما تجوز]، وهذا يدل على أنهما ركعتان خفيفتان.

شرح حديث (أي الأعمال أفضل؟ قال طول القيام)

قال المصنف رحمه الله تعالى: [حدثنا ابن حنبل -يعني أحمد - حدثنا حجاج قال: قال ابن جريج : أخبرني عثمان بن أبي سليمان عن علي الأزدي عن عبيد بن عمير عن عبد الله بن حبشي الخثعمي رضي الله عنه: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: أي الأعمال أفضل ؟ قال: طول القيام)]. أورد أبو داود حديث عبد الله بن حبشي الخثعمي [(أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أي الأعمال أفضل؟ قال: طول القيام)]، وورد في بعض الروايات: (أي الصلاة أفضل؟) وهذا هو الذي يوافق الجواب؛ لأن المقصود به طول القيام وقراءة القرآن في الصلاة.

تراجم رجال إسناد حديث (أي الأعمال أفضل؟ قال طول القيام)

قوله: [حدثنا ابن حنبل -يعني أحمد -]. هو أحمد بن حنبل الإمام المشهور، أحد أصحاب المذاهب الأربعة، وحديثه أخرجه أصحاب الكتب الستة. [حدثنا حجاج]. هو حجاج بن محمد المصيصي ، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [قال ابن جريج]. هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج المكي ، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [أخبرني عثمان بن أبي سليمان]. هو ثقة، أخرج له البخاري تعليقاً ومسلم و أبو داود و الترمذي في الشمائل والنسائي و ابن ماجة . [عن علي الأزدي]. هو علي بن عبد الله البارقي الأزدي ، وهو صدوق ربما وهم، أخرج له مسلم وأصحاب السنن. [عن عبيد بن عمير]. عبيد بن عمير ، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. [عن عبد الله بن حبشي الخثعمي]. عبد الله بن حبشي الخثعمي صحابي أخرج حديثه أبو داود و النسائي ."

". (١)

""""""" صفحة رقم ٤٣٧ """""""

الدار والفرس والمرأة ، فهناهم النبى عليه السلام عن الطيرة فلم ينتهوا فبقيت فى هذه الثلاثة الشياء التى كانوا يلزمون التطير فيها . ومثله قوله تعالى عن أهل القرية حين قالوا : (إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم . . . قالوا طائركم معكم) أى : حظكم من الخير والشر معكم ليس هو من شؤمنا وكذلك قوله عليه السلام فى الدار : (اتركوها ذميمة) فإنما قال ذلك لقوم علم منهم أن الطيرة والتشاؤم غلب عليهم وثبت فى نفوسهم ؛ لأن ازاحة مايثبت فى النفس عسير ، وقد قال عليه السلام : (ثلاثة لا يسلم منهن أحد : الطيرة والظن والحسد ؛ فإذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا حسدت فلا تبغ ، وإذا ظننت فلا تحقق) . وليس فى قوله عليه السلام : (دعوها ذميمة) أمر منه بالتطير ، وكيف وقد قال : لايطرة ؟ وإنما أمرهم بالتحول عنها لما قد جعل الله فى غرائز الناس من استثقال ماناالهم فيه الشر وإن كان لاسبب له فى ذلك ، وحب من جرى لهم الخير على يديه وإن لم يردهم به ، وكان النبى عليه السلام يستحب الاسم الحسن والفأل الصالح ، وقد جعل الله فى فطرة الناس محبة الكلمة الطيبة والفأل الصالح **والأنس به** ، كما جعل فيهم الارتياح للبشرى والمنظر الأنيق ، وقد يمر الرجل

(١) شرح سنن أبي داود - عبدالمحسن العباد، ص/٢

بالماء الصافى فعجبه وهو لايشربه وبالروضه المنثورة فتسره وهي لاتنفعه ، وفى بعض الحديث (أن الرسول عليه السلام كان يعجبه الأترج ويعجبه الفغية وهي نور الحناء) .." [1]

"- قد يرى بعض الناس أنوارًا ساطعة في الأفق (١).

المبحث الثالث: ما ذا يستحب فيها؟

يستحب فيها الصلاة والدعاء والاستغفار، لقوله - صلى الله عليه وسلم - : (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه) متفق عليه.

وكثرة الدعاء لا سيما بما ورد، ومنه:(اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعفوعنى) (٢).

وأما تخصيصها بعمرة فليس بمشروع، وقد نبه شيخنا ابن عثيمين رحمه الله على أن تحرى العمرة في ليلة القدر قد يكون بدعة؛ لأنه تخصيص بما لم يأت دليل من الشارع على تخصيصه.

والعمرة خصت في رمضان كله، لقوله - صلى الله عليه وسلم - "عمرة في رمضان تقضى حجة" أو قال:"حجة معي". رواه مسلم.

من فوائد الأحاديث:

١- أن الله تعالى قد يكرم بعض عباده فيريه في منامه ما ينفعه.

٢- أن الرؤيا الصالحة إذا تواطأت ودلت القرينة على صدقها ولم تخالف الشرع فإنه يعمل بها.

٣- محبة النبي - صلى الله عليه وسلم - للتيسير على أمته.

باب الاعتكاف

الاعتكاف لغة: لزوم الشيء وحبس النفس عليه.

وشرعاً: لزوم مسجد لعبادة الله تعالى.

والاعتكاف مشروع بالكتاب والسنة من قول النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن فعله وإقراره، وهو من أجل الطاعات وأفضل القربات لما فيه من التفرغ لعبادة الله وتخلي القلب والبدن عن مشاغل الدنيا.

قال ابن رجب رحمه الله: "معني الاعتكاف وحقيقته: قطع العلائق عن الخلائق، للاتصال بخدمة الخالق، وكلما قويت المعرفة بالله، والمحبة له، **والأنس به**، أورثت صاحبها الانقطاع إلى الله بالكلية على كل حال"(٣).

والاعتكاف في رمضان وفي العشر الأواخر منه، تأسيا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - .

وهذه منا سبة ذكر باب الاعتكاف في كتاب الصوم.

---

(١) ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في "الفتاوى" (٢٨٦/٢٥).

---

(١) شرح صحيح البخارى . لابن بطال، ٤٣٧/٩

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥١٣) وقال: "حديث حسن صحيح".

(٣) "اللطائف" ص (٢٠٣).." (١)

" وحدك فقال كيف أستوحش وهو يقول أنا جليس من ذكرني وقيل لآخر نراك وحدك فقال من يكن الله معه كيف يكون وحده وقيل لآخر أما معك مؤنس قال بلى قيل أين هو قال أمامي ومعي وخلفي وعن يميني وعن شمالي وفوقي وكان الشبلي ينشد إذا نحن أدجلنا وأنت أمامنا في المطايا بذكرك هاديا وقوله صلى الله عليه و سلم تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة يعني أن العبد إذا اتقى الله وحفظ حدوده وراعى حقوقه في حال رخائه فقد تعرف بذلك إلى الله وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة فعرفه ربه في الشدة روعي له تعرفه إليه في الرخاء فنجاه من الشدائد بهذه المعرفة وهذه معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه ومحبته له وإجابته لدعائه فمعرفة العبد لربه نوعان أحدهما المعرفة العامة وهي معرفة الإقرار به والتصديق والإيمان وهو عامة للمؤمنين والثاني معرفة خاصة تقتضي ميل القلب إلى الله بالكلية والانقطاع إليه **والأنس به** والطمأنينة بذكره والحياء منه والهيبة له وهذه المعرفة الخاصة هي التي يدور حولها العارفون كما قال بعضهم مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها قيل له وما هو قال معرفة الله عز و جل وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي أحب أن لا أموت حتى أعرف مولاي وليس معرفته الإقرار به ولكن المعرفة إذا عرفته استحييت منه ومعرفة الله أيضا لعبده نوعان معرفة عامة وهي علمه تعالى بعباده واطلاعه على ما أسروه وما أعلنوه كما قال ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ق قال هو أعلم بكم إذا أنشأكم من الأرض وإذا أنتم أجنة في بطون أمهاتكم النجم والثاني معرفة خاصة وهي تقتضي محبته لعبده وتقريبه إليه وإجابة دعائه وإنجائه من الشدائد وهي المشار إليها بقوله صلى الله عليه و سلم فيما يحكي عن ربه ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وفي رواية ولئن دعاني لأجيبنه ولما هرب الحسن من الحجاج دخل إلى بيت حبيب بن محمد فقال له حبيب يا أبا سعيد أليس بينك وبين ربك ما تدعوه به فيسترك من هؤلاء ادخل البيت فدخل ودخل الشرط على أثره فلم يروه فذكر ذلك للحجاج فقال بل كان في البيت إلا أن الله طمس أعينهم فلم يروه واجتمع الفضيل بن عياض بشعوانه العابدة فسألها الدعاء فقالت يا فضيل وما بينك وبينه ما إن دعوته أجابك فغشي على الفضيل وقيل لمعروف وما الذي ." (٢)

" يشغل عن الله وقال كل ما يشغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو مشئوم وقال الزهد في الدنيا على طبقتين منهم من يزهد في الدنيا فلا يفتح له فيها روح الآخرة ومنهم من إذا زهد فيها فتح له فيها روح الآخرة فليس شيء أحب إليه من البقاء ليطيع وقال ليس الزاهد من ألقى هموم الدنيا واستراح منها إنما الزاهد من زهد في الدنيا وتعب فيها للآخرة فالزهد في الدنيا يراد به تفريغ القلب من الاشتغال بها ليتفرغ لطلب الله ومعرفته والقرب منه **والأنس به** والشوق إلى لقائه وهذه الأمور ليست من الدنيا كما كان النبي صلى الله عليه آله وسلم يقول حبب إلى من دنياكم النساء والطيب وجعلت

---

(١) شرح كتاب "الصيام" من "عمدة الأحكام "، ص/٣٧

(٢) جامع العلوم والحكم، ص/١٨٩

قرة عيني في الصلاة ولم يجعل الصلاة مما حبب إليه من الدنيا كذا في المسند والنسائي وأظنه وقع في غيرهما حبب إلى من دنياكم ثلاث فأدخل الصلاة في الدنيا ويشهد لذلك حديث الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه أو عالما أو متعلما أخرجه ابن ماجه والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة مرفوعا وروي نحوه من غير وجه مرسلا ومتصلا وخرجه الطبراني من حديث أبي الدرداء مرفوعا قال الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما ابتغى به وجه الله وخرجه ابن أبي الدنيا موقوفا وخرجه أيضا من رواية شهر بن حوشب عن عبادة قال أراه رفعه قال يؤتى بالدنيا يوم القيامة فيقال ميزوا منها ما كان لله عز و جل وألقوا سائرها في النار فالدنيا وكل ما فيها ملعونة أي مبعدة عن الله لأنها تشغل عنه إلا العلم النافع الدال علي الله وعلي معرفته وطلب قربه ورضاه وذكر الله وما والاه مما يقرب من الله فهذا هو المقصود من الدنيا فإن الله إنما أمر عباده بأن يتقوه ويطيعوه ولازم ذلك دوام ذكره كما قال ابن مسعود تقوي الله حق تقواه أن يذكر فلا ينسي وإنما شرع الله إقام الصلاة لذكره وكذلك الحج والطواف وأفضل أهل العبادات أكثرهم لله ذكرا فيها فهذا كله ليس من الدنيا المذمومة وهو المقصود من إيجاد الدنيا وأهلها كما قال تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون الذاريات وقد ظن طوائف من الفقهاء والصوفية أن ما يوجد في الدنيا من هذه العبادات أفضل مما يوجد في الجنة من النعيم قالوا لأن نعيم الجنة حظ العبد والعبادات في الدنيا حق الرب وحق الرب أفضل من حظ العبد وهذا غلط ويقوي غلطهم قول كثير من المفسرين في قوله من جاء بالحسنة فله خير منها النمل قالوا الحسنة لا إله إلا الله وليس شيء خيرا منها ولكن الكلام على التقديم والتأخير والمراد فله منها خير أي له خير بسببها ولأجلها والصواب إطلاق ما جاءت به نصوص الكتاب والسنة أن الآخرة خير من الأولى مطلقا وفي صحيح الحاكم عن المستورد بن شداد قال كنا عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتذكروا الدنيا والآخرة فقال بعضهم إنما الدنيا بلاغ للآخرة وفيها العمل وفيها الصلاة وفيها الزكاة وقالت طائفة منهم الآخرة فيها الجنة وقالوا ما شاء الله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما الدنيا في الآخرة إلا كما يمشي أحدكم إلى ." (١)

" وسلم قال لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله فإذا أحب لله وأبغض لله فقد استحق ولاية من الله إن أوليائي من عبادي وأحبائي من خلقي الذين يذكرون بذكري وأذكر بذكرهم وسئل المرتعش بم تنال المحبة قال بموالاة أولياء الله ومعادة أعدائه وأصله الموافقة وفي الزهد للإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال قال موسي عليه السلام يارب من هم أهلك الذين تظلهم تحت ظل عرشك قال ياموسي هم البريئة أيديهم الطاهرة قلوبهم الذين يتحابون بجلالي الذين إذا ذكرت ذكروا بي وإذا ذكروا ذكرت بهم الذين يسبغون الوضوء في المكاره وينيبون إلى ذكري كما تنيب النسور إلى أوكارها ويكلفون بحبي كما يكلف الصبي بحب الناس ويغضبون لمحارمي إذا استحلت كما يغضب النمر إذا حورب قوله فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وفي بعض الروايات وقلبه الذي يعقل به ولسانه الذي ينطق به المراد من هذا الكلام أن من اجتهد بالتقرب إلى الله تعالى بالفرائض ثم بالنوافل قربه إليه ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان فيصير يعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبته وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله **والأنس به** والشوق إليه حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدا له بعين البصيرة

(١) جامع العلوم والحكم، ص/٢٩٨

كما قيل ساكن في القلب يعمره لست أنساه فأذكره غاب عن سمعي وعن بصري فسويد القلب يبصره قال الفضيل بن عياض إن الله تعالى يقول كذب من ادعي محبتي ونام عني أليس كل محب يحب خلوة محبوبه ها أنا مطلع على أحبابي وقد مثلوني بين أعينهم وخاطبوني على المشاهدة وكلموني بحضوره غدا أقر أعينهم في جناني ولا يزال هذا الذي في قلوب المحبين المقربين يقوي حتى تمتلئ قلوبهم به فلا يبقي في قلوبهم غيره ولا تستطيع جوارحهم أن تنبعث إلا بموافقة ما في قلوبهم ومن كان حاله هذا قيل فيه ما بقي في قلبه إلا الله والمراد معرفته ومحبته وذكره وفي هذا المعنى الأثر المشهور ما وسعني سمائي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن وقال بعض العارفين احذروه فإنه غيور لا يحب أن يري في قلب عبده غيره وفي هذا المعنى يقول بعضهم ليس للناس موضع في فؤادي زاد فيه هواك حتى ملاه وقال آخر ." (١)

" يقول قال رسول الله صلى الله عليه و سلم الشيطان يهم بالواحد والاثنين فإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم

قال أبو عمر كأن مالكا – رحمه الله – يجعل الحديث الثاني في هذا الباب تفسيرا للأول

والمعنى أن الجماعة – وأقلها ثلاثة – لا يهم بهم الشيطان ويبعد عنهم – وإنما سمي الواحد شيطانا والاثنان شيطانان لأن الشيطان في أصل اللغة هو البعيد من الخير من قولهم نوى شطون أي بائنة بعيدة فالمسافر وحده يبعد عن خير الرفيق وعونه **والأنس به** وتمريضه ودفع وسوسة النفس بحديثه ولا يؤمن على المسافر وحده أن يضطر إلى المشي بالليل فتعرضه الشياطين المردة هازلين ومتلاعبين ومفزعين

وقد بلغنا ذلك عن جماعة المسافرين إذا سافروا منفردين وكذلك الاثنان لأنه إذا مر أحدهما في حاجتهما بقي الآخر وحده فإن شردت دابته أو نفرت أو عرض له في نفسه أو حاله شيء لم يجد من يعينه ولا من يكفيه ولا من يخبر بما يطرقه فكأنه قد سافر وحده وإذا كانوا ثلاثة ارتفعت العلة المخوفة في الأغلب لأنه لا يخرج الواحد مرة في الحاجة ويبقى الاثنان ثم يخرج الآخر مرة أخرى ويبقى الاثنان يكون هذا دأبا في الأغلب في أمورهم وإن خرج الاثنان لم يطل مكث الواحد وحده

هذا ونحوه والله أعلم بما أراد رسوله بقوله ذلك صلى الله عليه و سلم

وقد روى عبد الرحمن بن أبي الزناد هذا الحديث عن عبد الرحمن بن حرملة وعن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال إن الشيطان يهم بالواحد وبالاثنين فإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم

فوصله وأسنده

وقد ذكرنا إسناده في التمهيد

وقد روي عن عمر بن الخطاب من وجوه قد ذكرتها في التمهيد أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد

واختلف فيه على عبد الملك بن عمير اختلافا كثيرا

قال أبو عمر أبعد ها هنا بمعنى بعيد – والله أعلم ." (٢)

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص/٣٦٥

(٢) الاستذكار، ٨/٥٣٠

"بشر : فيه ﴿ ما من رجل له إبل وبقر لا يؤدي حقها إلا بطح لها يوم القيامة بقاع قرقر كأكثر ما كانت وأبشره ﴾ أي أحسنه، من البشر وهو طلاقة الوجه وبشاشته. ويروى ﴿ وآشره ﴾ من النشاط والبطر، وقد تقدم. وفي حديث توبة كعب ﴿ فأعطيته ثوبي بشارة ﴾ البشارة بالضم: ما يعطى البشير. كالعمالة للعامل، وبالكسر الاسم، لأنها تظهر طلاقة الإنسان وفرحه. وفي حديث عبد الله ﴿ من أحب القرآن فليبشر ﴾ أي فليفرح وليسر، أراد أن محبة القرآن دليل على محض الإيمان. من بشر يبشر بالفتح، ومن رواه بالضم فهو من بشرت الأديم أبشره إذا أخذت باطنه بالشفرة، فيكون معناه فليضمر نفسه للقرآن، فإن الاستكثار من الطعام ينسبه إياه. وفي حديث عبد الله بن عمرو ﴿ أمرنا أن نبشر الشوارب بشرا ﴾ أي نحفيها حتى تبين بشرتها، وهي ظاهر الجلد، ويجمع على أبشار. ومنه الحديث ﴿ لم أبعث عمالي ليضربوا أبشاركم ﴾. ومنه الحديث ﴿ أنه كان يقبل ويباشر وهو صائم ﴾ أراد بالمباشرة الملامسة. وأصله من لمس بشرة الرجل بشرة المرأة. وقد تكرر ذكرها في الحديث. وقد ترد بمعنى الوطء في الفرج وخارجا منه. ومنه حديث نجية ﴿ ابنتك المؤدمة المبشرة ﴾ يصف حسن بشرتها وشدتها. وفي حديث الحجاج ﴿كيف كان المطر وتبشيره ﴾ أي مبدؤه وأوله. ومنه: تباشير الصبح: أوائله

بشش : فيه ﴿ لا يوطن الرجل المساجد للصلاة إلا تبشبش الله به كما يتبشبش أهل البيت بغائبهم ﴾ البش: فرح الصديق بالصديق، واللطف في المسألة والإقبال عليه، وقد بششت به أبش. وهذا مثل لتلقيه إياه ببره وتقريبه وإكرامه. ومنه حديث علي ﴿ إذا اجتمع المسلمان فتذاكرا غفر الله لأبشهما بصاحبه ﴾. ومنه حديث قيصر﴿ وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب ﴾ بشاشة اللقاء: الفرح بالمرء والانبساط إليه والأنس به

بشع : فيه ﴿كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل البشع ﴾ أي الخشن الكريه الطعم، يريد أنه لم يكن يذم طعاما. ومنه الحديث ﴿ فوضعت بين يدي القوم وهي بشعة في الحلق ﴾

بشق : في حديث الاستسقاء ﴿ بشق المسافر ومنع الطريق ﴾ قال البخاري: أي انسد وقال ابن دريد: بشق: أسرع، مثل بشك. وقيل معناه تأخر. وقيل حبس. وقيل مل. وقيل ضعف. وقال الخطابي: بشق ليس بشيء وإنما هو لثق من اللثق: الوحل، وكذا هو في رواية عائشة، قالت: فلما رأى لثق الثياب على الناس. وفي رواية أخرى لأنس أن رجلا قال لما كثر المطر: يا رسول الله إنه لثق المال. قال ويحتمل أن يكون مشق، أي صار مزلة وزلقا، والميم والباء يتقاربان. وقال غيره: إنما هو بالباء من بشقت الثوب وبشكته إذا قطعته في خفة، أي قطع بالمسافر. وجائز أن يكون بالنون، من قولهم نشق الظبي في الحبالة إذا علق فيها. ورجل نشق: إذا كان ممن يدخل في أمور لا يكاد يخلص منها

بشك : في حديث أبي هريرة ﴿ أن مروان كساه مطرف خز فكان يثنيه عليه أثناء من سعته، فانشق، فبشكه بشكا ﴾ أي خاطه. البشك: الخياطة المستعجلة المتباعدة

بشم : في حديث سمرة بن جندب ﴿ وقيل له إن ابنك لم ينم البارحة بشما، قال: لو مات ما صليت عليه ﴾ البشم: التخمة عن الدسم. ورجل بشم بالكسر. ومنه حديث الحسن ﴿ وأنت تتجشأ من الشبع بشما ﴾. وفي حديث عبادة ﴿ خير مال المسلم شاء تأكل من ورق القتاد والبشام ﴾ البشام: شجر طيب الريح يستاك به، واحدتها بشامة. ومنه حديث

عمرو بن دينار ﴿ لا بأس بنزع السواك من البشامة ﴾. ومنه حديث عتبة بن غزوان ﴿ ما لنا طعام إلا ورق البشام ﴾.
٣باب الباء مع الصاد
بصبص : في حديث دانيال عليه السلام ﴿ حين ألقي في الجب وألقي عليه السباع فجعلن يلحسنه ويبصبصن عليه ﴾ يقال بصبص الكلب بذنبه إذا حركه، وإنما يفعل ذلك من طمع أو خوف." (١)

"(أي) بفتح الهمزة وتخفيف الياء مقلوب يا وهو حرف نداء ذكره أبو البقاء (أخي) ناداه نداء تعطف وشفقة ليكون أدعى الى الامتثال (اني موصيك بوصية) بليغة عظيمة النفع لمن فتح الله قفل قلبه وجعل خليقته مستقيمة وأذنه سميعة (فاحفظها) عني (لعل الله أن ينفعك بها) أي يتدبرها واستحضارها والعمل بمضمونها (زر القبور) أي قبور المؤمنين لا سيما الصالحين فانك (تذكر بها) أي بزيارتها أو بمشاهدة القبور والأعتبار باهل النشور (الآخرة) لان من رأى مصارع اخوانه وعلم أنه عن قرب صائر اليهم تذكر الآخرة لا محالة واللاولى كون الزيارة (بالنهار) أي فيه لان في الليل وحشة وهذا أرادبه من لم يحصل له مقام **الأنس بالله** وكونها (أحيانا) أي غبالا في كل وقت (ولا تكثر) منها فان الاكثار منها ربما أعدم الامل وضيع ما هواهم منها (واغسل الموتى فان معالجة جسد خاو) فارغ من الروح (عظة بليغة) وهو دواء للنفوس القاسية والطباع الجاسية (وصل على الجنائز) التي تطلب الصلاة عليها من عرفت منهم ومن لم تعرف فانك ان تفعل ذلك (يحزن قلبك فان الحزين في ظل الله تعالى) أي في ظل عرشه أو تحت كنفه (معرض لكل خير) بضم الميم وشدة الراء المفتوحة (وجالس المساكين) أي والفقراء ايناسالهم وجبر الخواطرهم فانه تعالى قال أنا عند المنكسرة قلوبهم (وسلم عليهم) أي ابدأهم بالسلام (اذا لقيتهم) في الطرق ببشر وبشاشة (وكل مع صاحب البلاء) كالاجذم والابرص ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ هامش قوله الجنائز يحزن الخ هكذا في نسخ الشرح والذي في نسخ المتن المعتمدة لعل ذلك يحزن اه ". (٢)

"فليس ذلك محصورا في رثاثة الحالِ، ولا قذارة الثيابِ، بل الولايةُ في كل مؤمنٍ تقيٍّ كما قال تعالى: أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) [يونس/٦٢-٦٤]
بمعنى أنه لا يشترط له أن يكون ذو حرقة يتصنع الولاية، إذ الخرقة لا تجلب الولاية ،وليست ميزانا لها وإنما ميزان الولاية: الإيمان والتقوى.
==================

المبحثُ العاشر

ماذا يعطي الله تعالى من تقرب إليه بالفرائض والنوافل ؟

---

(١) جامع غريب الحديث، ١/٨٩

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير ـ للمناوى، ١/٨٥١

قوله : (فإذا أحببتُه ، كنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يُبصرُ به ، ويدَه التي يبطش بها ، ورجلَه التي يمشي بها) ، وفي بعض الروايات : (وقلبَه الذي يعقل به ، ولسانه الذي ينطق به).

المراد بهذا الكلام : أنَّ منِ اجتهدَ بالتقرُّب إلى الله بالفرائضِ ، ثمَّ بالنوافل ، قَرَّبه إليه ، ورقَّاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان ، فيصيرُ يَعبُدُ الله على الحضورِ والمراقبة كأنه يراه ، فيمتلئُ قلبُه بمعرفة الله تعالى ، ومحبَّته ، وعظمته ، وخوفه ، ومهابته ، وإجلاله ، **والأُنس به** ، والشَّوقِ إليه ، حتّى يصيرَ هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهداً له بعين البصيرة كما قيل :

ساكنٌ في القلب يَعْمُرُه لَسْتُ أنساهُ فأَذْكُرُه

غَابَ عَنْ سمعي وعن بصري فسُوَيدا القلب تُبصِرُه

قال الفضيلُ بن عياض : إن الله يقول : ((كذَب من ادَّعى محبَّتي ، ونام عنِّي ، أليس كل محبٍّ يُحبّ خلوة حبيبه ؟ ها أنا مطَّلعٌ على أحبابي وقد مثَّلوني بين أعينهم ، وخاطبوني على المشاهدة ، وكلَّموني بحضورٍ ، غداً أُقِرُّ أعينهم في جناني))(١).

---

(١) – أخرجه : الدينوري في "المجالسة" (١٣٢) ، وعبد الحق الأشبيلي في " التهجد " (١٠٤٦) و(١٠٤٧) .."
(١)

"فأعرضت عنه فقد أمرضك.

الأنس بالله

إذا أوحشك من نفسك وآنسك به فقد أحبّك.

علامة القبول

إذا قبلك نسب إليك ما لم تفعل، وإذا سخطك نسب إلى غيرك ما فعلت.

الإخلاص

إذا كان لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه إنا إذاً لهالكون.

موثق ومعتق

عبد الذنب موثق، وعبد الطاعة معتق.

عبد العبد وعبد السيد

---

(١) الخلاصة في شرح حديث الولي، ص/٤١٣

عبد العبد يستطيع فكاك نفسه بالمال، وعبد السيد لا يستطيع فكاك نفسه إلا بالأعمال.

المعصية والطاعة

المعصية سجن وشؤم وعار، والطاعة حرية ويمن وفخار.

لحظات!

بين المعصية والطاعة صبر النفس عن هواها لحظات.." (١)

"... ٤٤٩٨- قتل بعد قبول الدية: يعني أو بعد العفو، أو القصاص، وهو تفسير لقوله: "اعتدى"، "فله عذاب اليم" - البقرة ١٧٨-: في الآخرة بالنار، وأما في الدنيا فقال الإمام مالك وغيره عن بعض العلماء: هو كمن قتل ابتداء إن شاء الولي قتله، وإن شاء عفى عنه، قاله ابن عطية(١).

... ٤٤٩٩- كتاب الله: بالرفع والنصب، مبتدأ أو إغراء. القصاص: خبر أو بدل، أي حكم كتاب الله القصاص، يعني حيث وقع الامتناع عن العفو أو قبول الدية.

... ٤٥٠٠- الربيع: بنت النضر. الأرش: أي الدية. إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره: أي جعله بارا في قسمه وفعل ما أراده، قال العارف: (القسم على الله إذلال وانبساط يثور من مقام **الأنس بالله**، والتحقق بمحبته الخاصة، ولا يتفق إلا من محبوب مأخوذ عنه، ليس عليه بقية من نفسه، ولا شعور بوجوده وأنانيته، وإلا رد في وجهه، وكان سبب عطبه لسوء أدبه).

٢٤- " يأيها الذين ءامنوا كتب عليكم الصيام ":

أي فرض، "كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون" - البقرة ١٨٣-: المعاصي، فإنه يكسر الشهوة التي هي مبدؤها، واختلف في التشبيه في قوله: "كما"، فقيل هو على الحقيقة، فيكون صيام رمضان كتب على من قبلنا، وهو قول الحسن والسدي(٢) والشعبي(٣)

---

(١) - في المحرر الوجيز ٢/٨٧.

(٢) - عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري.

محدث راوية، نشأ بالكوفة، وكان قاضيا لعمر بن عبد العزيز.

توفي بالكوفة عام ١٠٣هـ.

ترجمته في: حلية الأولياء ٤/٣١٠، وتاريخ بغداد ٢٢٧/١٢، وتهذيب التهذيب ٦٥/٥.

(٣) - إسماعيل بن عبد الرحمن السدي.

---

(١) هكذا علمتني الحياة، ص/٣٦

تابعي سكن الكوفة.

كان إماما عارفا بالأيام والمغازي.

توفي سنة ١٢٨هـ.

ترجمته في: أعيان الشيعة للعاملي ١٢/٩.." (١)

"على أحمد بن حنبل فقالت : يا أبا عبدالله، أنين المريض أشكوى هو ؟ قال : أرجو ألا يكون شكوى، ولكن اشتكي لله).

١٧ - باب قول المريض: قوموا عني :

أي جواز قوله ذلك إذا وقع من الحاضرين عنده ما يقتضي ذلك.

٥٦٦٩ - هلم : تعالوا. قد غلب عليه الوجع : فلا تشقوا عليه بإملاء الكتاب، لأنه فهم منه عدم وجوب ذلك. حسبنا / : يكفينا. قوموا : عني. الرزية: المصيبة.

ابن حجر : (يؤخذ منه أن الأدب في العيادة ألا يطول العائد عند المريض حتى يضجره، وألا يتكلم عنده بما يزعجه، وجملة آداب العيادة عشرة أشياء، ومنها مالا يختص بالعيادة : ألا يقابل الباب عند الاستئذان، وأن يدق الباب برفق، وألا يبهم نفسه كأن يقول أنا، وألا يحضر في وقت يكون غير لائق بالعيادة كوقت شرب المريض للدواء، وأن يخفف الجلوس، وأن يغض البصر، وأن يقلل السؤال، وأن يظهر الرقة، وأن يخلص الدعاء، وأن يوسع للمريض في الأجل ويشير عليه بالصبر لما فيه من جزيل الأجر ويحذره من الجزع لما فيه من الوزر)هـ(١).

زاد المناوي : (وما اعتيد من ختم مجلس الزيارة بقراءة الفاتحة فهو حسن، قال بعضهم : لكن لم يرد فيه بخصوصه خبر ولا أثر، وورد في أثر السلف : كانوا يتفرقون على قراءة سورة الإخلاص).

وقال الأبي : (لا يبعد أن يكون من آداب العيادة أن يضع العائد يده على المريض، لما جاء عن ابن مسعود من فعل ذلك)هـ.

وقال ابن عبدالبر : (لا خلاف بين العلماء والحكماء أن السنة في العيادة التخفيف، إلا أن يكون المريض يدعو الصديق إلى **الأنس به**؛ وقال الشعبي: عيادة حمقى العواد أشد على المريض من مرض صاحبهم، يجيئون في غير وقت عيادة، ويطيلون الجلوس.

قال أبو عمر : لقد أحسن ابن جرار في نحو هذا حيث يقول :

إن العيادة يوم بين يومين -

لا تبرمن مريضا في مساءلة - ... واجلس قليلا كلحظ العين بالعين

يكفيك من ذلك تسئال بحرفين)

هـ من التمهيد (٢) .

---

(١) إتحاف القاري بدرر البخاري، ٦/٢٠

(١) – الفتح ١٠/١٥٦.

(٢) – التمهيد ١/١٩٧.." (١)

" قال ههنا أهل بيت من الأعراب فانظر فنظرت فإذا هي عندهم وقد أنتجت فأخذتها وولدها قال أبو محمد الفارق التي قد حملت ففارقت صواحبها وقال عكرمة كنا جلوسا عند بن عباس فمر طائر يصيح فقال رجل من القوم خير خير فقال بن عباس لا خير ولا شر وكان رسول الله صلى الله عليه و سلم يستحب الاسم الحسن والفأل الصالح وحدثني الرقاشي قال نا الأصمعي قال سألت بن عون عن الفأل فقال هو أن يكون مريضا فيسمع يا سالم أو يكون باغيا فيسمع يا واجد قال أبو محمد وهذا أيضا مما جعل في غرائز الناس استحبابه **والأنس به** كما جعل على ألسنتهم من التحية بالسلام والمد في الأمنية والتبشير بالخير وكما يقال أنعم واسلم وأنعم صباحا وكما تقول الفرس عش ألف نوروز والسامع لهذا يعلم أنه لا يقدم ولا يؤخر ولا يزيد ولا ينقص ولكن جعل في الطباع محبة الخير والارتياح للبشرى والمنظر الأنيق والوجه الحسن والاسم الخفيف ." (٢)

"منزلة المحبة هي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال، التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى مقامات لم يكونوا بدونها أبدا واصليها، وتبوءهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائما إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب، تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة: أن المرء مع من أحب ، فيالها من نعمة على المحبين سابغة(١).

وقال أيضا : إن محبة الله سبحانه ، **والأنس به** ، والشوق إلى لقائه ،

والرضى به وعنه، أصل الدين وأصل أعماله وإرادته...ومحبته تعالى، بل كونه أحب إلى العبد من كل ما سواه على الإطلاق

(١) إتحاف القاري بدرر البخاري، ٩/٤٦

(٢) تأويل مختلف الحديث، ص/١٠٨

من أعظم واجبات الدين، وأكبر أصوله، وأجل قواعده، ومن أحب معه مخلوقا مثل ما يحبه فهو من الشرك الذي لا يغفر لصاحبه ولا يقبل معه عمل، قال تعالى: ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ؟ [البقرة: ١٦٥](٢).

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم : ٣/٦-٧.

(٢) إغاثة اللهفان ٢/١٩٢-١٩٣.." (١)

"أيضاً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . رضي الله عنه . قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله – صلى الله عليه وسلم –: إِنَّ الله قَالَ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ استعاذني لأعيذنه، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(١).

فمن هذين النصين يتبين أن من أهم آثار محبة الله للعبد :

١- محبة الملائكة له.

٢- ومحبة أهل الأرض له.

٣- ورعاية الله تعالى وعنايته وحفظه له.

٤- استجابة دعائه وإعطاؤه سؤله.

٥- توفيقه له في هذه الحياة وتسديده.

٦- طمأنينة قلبه، وانشراح صدره، وأمن في نفسه وأهله وماله.

* * *

سابعا: شيء من أحوال السلف في باب المحبة :

إن محبة الله غالية، وهي الغاية القصوى من المقامات، التي شمر لها السابقون أزرهم وشدوا مئزرهم، وقد اهتم بها السلف الصالح أيما اهتمام، يقول ابن القيم رحمه الله: «وأما محبة الرب سبحانه فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية، أحلى ولا ألذ، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من محبته **والأنس به**، والشوق إلى لقائه، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة» (٢).

---

(١) ثلاث من كن فيه، ص/١٧

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، برقم: (٦٥٠٢).

(٢) إغاثة اللهفان ٢/ ١٩٤، باختصار.." [١]

"، وقيل لآخر : نراك وحدك ؟ فقال : من يكن الله معه ، كيف يكون وحده ؟ ، وقيل لآخر : أما معك مؤنس ؟ قال : بلى ، قيل له : أين هو ؟ قال : أمامي(١) ، وخلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، وفوقي . وكان الشبلي ينشد :

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا

كفى لمطايانا بذكرك هاديا(٢)

قوله – صلى الله عليه وسلم – : ((تعرف إلى الله في الرخاء ، يعرفك في الشدة)) يعني : أن العبد إذا اتقى الله ، وحفظ حدوده ، وراعى حقوقه في حال رخائه ، فقد تعرف بذلك إلى الله ، وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة ، فعرفه ربه في الشدة ، ورعى له تعرفه إليه في الرخاء ، فنجاه من الشدائد بهذه المعرفة، وهذه معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه ، ومحبته له، وإجابته لدعائه .

فمعرفة العبد لربه نوعان :

أحدهما : المعرفة العامة ، وهي معرفة الإقرار به والتصديق والإيمان ، وهذه عامة للمؤمنين .

والثاني : معرفة خاصة تقتضي ميل القلب إلى الله بالكلية ، والانقطاع إليه ، **والأنس به** ، والطمأنينة بذكره ، والحياء منه ، والهيبة له ، وهذه المعرفة الخاصة هي التي يدور حولها العارفون ، كما قال بعضهم : مساكين أهل الدنيا ، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها ، قيل له : وما هو ؟ قال : معرفة الله – عز وجل – .

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي : أحب أن لا أموت حتى أعرف مولاي ، وليس معرفته الإقرار به ، ولكن المعرفة التي إذا عرفته استحييت منه(٣) .

---

(١) زاد بعدها في (ج) : ((ومعي)) .

(٢) قائل هذا البيت هو عمرو بن شاس الأسدي ، له صحبة شهد الحديبية ، وكان ذا قدر وشرف ومنزلة في قومه . انظر : الإصابة ٤/٢٠٥-٢٠٦ (٦٤٨٨) .

(٣) ذكره ابن الجوزي في " صفة الصفوة " ٤/١٩٦ بلفظ : ما أغبط أحدا إلا من عرف مولاه ، وأشتهي أن لا أموت حتى أعرفه معرفة العارفين الذين يستحبونه ، لا معرفة التصديق .." [٢]

---

[١] ثلاث من كن فيه، ص/٣٩

[٢] جامع العلوم والحكم محقق، ١٦/٢١

"فالزهد في الدنيا يراد به تفريغ القلب من الاشتغال بها ؛ ليتفرغ لطلب الله ، ومعرفته ، والقرب منه ، **والأنس به** ، والشوق إلى لقائه ، وهذه الأمور ليست من الدنيا كما كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول : ((حبب إلي من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة)) (١) ، ولم يجعل الصلاة مما حبب إليه من الدنيا ، كذا في " المسند " (٢) و" النسائي " (٣) ، وأظنه وقع في غيرهما : ((حبب إلي من دنياكم ثلاث)) (٤) ، فأدخل الصلاة في الدنيا ، ويشهد لذلك حديث : ((الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله وما والاه ، أو عالما أو متعلما)) خرجه ابن ماجه (٥) والترمذي (٦)

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) المسند ١٢٨/٣ و١٩٩ و٢٨٥ من حديث أنس بن مالك ، به .

(٣) في " المجتبى " ٦١/٧ و٧٢ من حديث أنس بن مالك ، به .

(٤) قال العلامة محمد عبد الرؤوف المناوي: ((من زاد كالزمخشري والقاضي لفظ ثلاث فقد وهم، قال الحافظ العراقي في "أماليه" لفظ ثلاث ليست في شيء من كتب الحديث وهي تفسد المعنى، وقال الزركشي : لم يرد فيه لفظ ثلاثة وزيادتها مخلة للمعنى فإن الصلاة ليست من الدنيا ، وقال ابن حجر في " تخريج الكشاف " : لم يقع في شيء من طرقه ، وهي تفسد المعنى إذ لم يذكر بعدها إلا الطيب والنساء ثم إنه لم يضفها لنفسه فما قال : أحب ، تحقيرا لأمرها ؛ لأنه أبغض الناس فيها لا لأنها ليست من دنياه بل من آخرته كما ظن إذ كل مباح دنيوي ينقلب طاعة بالنية فلم يبق لتخصيصه حينئذ وجه)) . فيض القدير ٤٨٩/٣ – ٤٩٠ (٣٦٦٩) ، وانظر : الكافي الشاف (١٨٣) ، والمقاصد الحسنة : ١٨٠ .

(٥) السنن (٤١١٢) .

(٦) في " جامعه " (٢٣٢٢) من حديث أبي هريرة ، به ، وقال : ((حسن غريب)) .

وأخرجه : أبو نعيم " الحلية " ١٥٧/٣ و٩٠/٧ من حديث جابر ، به .." (١)

"وفي " الزهد " (١) للإمام أحمد عن عطاء بن يسار ، قال : قال موسى – عليه السلام – : يا رب ، من هم أهلك الذين تظلهم في ظل عرشك ؟ قال : يا موسى ، هم البريئة أيديهم ، الطاهرة قلوبهم ، الذين يتحابون بجلالي ، الذين إذا ذكرت ذكروا بي ، وإذا ذكروا ذكرت بذكرهم ، الذين يسبغون الوضوء في المكاره ، وينيبون إلي ذكري كما تنيب النسور إلى وكورها ، ويكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالناس ، ويغضبون لمحارمي إذا استحلت ، كما يغضب النمر إذا حرب .

قوله : ((فإذا أحببته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها)) (٢) ، وفي بعض الروايات : ((وقلبه الذي يعقل به ، ولسانه الذي ينطق به)) (٣) .

---

(١) جامع العلوم والحكم محقق، ٣٠/٣٣

المراد بهذا الكلام : أن من اجتهد بالتقرب إلى الله بالفرائض ، ثم بالنوافل ، قربه إليه ، ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان ، فيصير يعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه ، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى ، ومحبته ، وعظمته ، وخوفه ، ومهابته ، وإجلاله ، **والأنس به** ، والشوق إليه ، حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدا له بعين البصيرة كما قيل :

ساكن في القلب يعمره

لست أنساه فأذكره

غاب عن سمعي وعن بصري

فسويدا القلب تبصره

قال الفضيل بن عياض : إن الله يقول : ((كذب من ادعى محبتي ، ونام عني ، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه ؟ ها أنا مطلع على أحبابي وقد مثلوني بين
أعينهم ، وخاطبوني على المشاهدة ، وكلموني بحضور ، غدا أقر أعينهم في
جناني)) (٤) .

---

(١) برقم (٣٨٩) .
(٢) سبق تخريجه .
(٣) سبق تخريجه .
(٤) أخرجه : الدينوري في "المجالسة" (١٣٢) ، وعبد الحق الأشبيلي في " التهجد " (١٠٤٦) و(١٠٤٧) .." [1]
"... ٤٤٩٨- قتل بعد قبول الدية: يعني أو بعد العفو، أو القصاص، وهو تفسير لقوله: "اعتدى"، "فله عذاب اليم" - البقرة ١٧٨-: في الآخرة بالنار، وأما في الدنيا فقال الإمام مالك وغيره عن بعض العلماء: هو كمن قتل ابتداء إن شاء الولي قتله، وإن شاء عفى عنه، قاله ابن عطية(١).
... ٤٤٩٩- كتاب الله: بالرفع والنصب، مبتدأ أو إغراء. القصاص: خبر أو بدل، أي حكم كتاب الله القصاص، يعني حيث وقع الامتناع عن العفو أو قبول الدية.
... ٤٥٠٠- الربيع: بنت النضر. الأرش: أي الدية. إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره: أي جعله بارا في قسمه وفعل ما أراده، قال العارف: (القسم على الله إذلال وانبساط يثور من مقام **الأنس بالله**، والتحقق بمحبته الخاصة، ولا

---

(١) جامع العلوم والحكم محقق، ٢٠/٤٠

يتفق إلا من محبوب مأخوذ عنه، ليس عليه بقية من نفسه، ولا شعور بوجوده وأنانيته، وإلا رد في وجهه، وكان سبب عطبه لسوء أدبه).

٢٤- " يأيها الذين ءامنوا كتب عليكم الصيام ":

أي فرض، "كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون" - البقرة ١٨٣-: المعاصي، فإنه يكسر الشهوة التي هي مبدؤها، واختلف في التشبيه في قوله: "كما"، فقيل هو على الحقيقة، فيكون صيام رمضان كتب على من قبلنا، وهو قول الحسن والسدي(٢) والشعبي(٣)

---

(١) - في المحرر الوجيز ٢/٨٧.

(٢) - عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري.

محدث راوية، نشأ بالكوفة، وكان قاضيا لعمر بن عبد العزيز.

توفي بالكوفة عام ١٠٣هـ.

ترجمته في: حلية الأولياء ٤/٣١٠، وتاريخ بغداد ١٢/٢٢٧، وتهذيب التهذيب ٥/٦٥.

(٣) - إسماعيل بن عبد الرحمن السدي.

تابعي سكن الكوفة.

كان إماما عارفا بالأيام والمغازي.

توفي سنة ١٢٨هـ.

ترجمته في: أعيان الشيعة للعاملي ١٢/٩.." (١)

"على أحمد بن حنبل فقالت : يا أبا عبدالله، أنين المريض أشكوى هو ؟ قال : أرجو ألا يكون شكوى، ولكن اشتكي لله).

١٧ - باب قول المريض: قوموا عني :

أي جواز قوله ذلك إذا وقع من الحاضرين عنده ما يقتضي ذلك.

٥٦٦٩ - هلم : تعالوا. قد غلب عليه الوجع : فلا تشقوا عليه بإملاء الكتاب، لأنه فهم منه عدم وجوب ذلك. حسبنا / : يكفينا. قوموا : عني. الرزية: المصيبة.

ابن حجر : (يؤخذ منه أن الأدب في العيادة ألا يطول العائد عند المريض حتى يضجره، وألا يتكلم عنده بما يزعجه، وجملة آداب العيادة عشرة أشياء، ومنها مالا يختص بالعيادة : ألا يقابل الباب عند الاستئذان، وأن يدق الباب برفق، وألا يبهم نفسه كأن يقول أنا، وألا يحضر في وقت يكون غير لائق بالعيادة كوقت شرب المريض للدواء، وأن يخفف الجلوس، وأن يغض البصر، وأن يقلل السؤال، وأن يظهر الرقة، وأن يخلص الدعاء، وأن يوسع للمريض في الأجل ويشير عليه بالصبر لما

---

(١) الفجر الساطع/الزرهوني -شرح البخاري، ٦/٢٠

فيه من جزيل الأجر ويحذره من الجزع لما فيه من الوزر)هـ(١).

زاد المناوي : (وما اعتيد من ختم مجلس الزيارة بقراءة الفاتحة فهو حسن، قال بعضهم : لكن لم يرد فيه بخصوصه خبر ولا أثر، وورد في أثر السلف : كانوا يتفرقون على قراءة سورة الإخلاص).

وقال الأبي : (لا يبعد أن يكون من آداب العيادة أن يضع العائد يده على المريض، لما جاء عن ابن مسعود من فعل ذلك)هـ.

وقال ابن عبدالبر : (لا خلاف بين العلماء والحكماء أن السنة في العيادة التخفيف، إلا أن يكون المريض يدعو الصديق إلى **الأنس به**؛ وقال الشعبي: عيادة حمقى العواد أشد على المريض من مرض صاحبهم، يجيئون في غير وقت عيادة، ويطيلون الجلوس.

قال أبو عمر : لقد أحسن ابن جرار في نحو هذا حيث يقول :

إن العيادة يوم بين يومين –

لا تبرمن مريضا في مساءلة – ... واجلس قليلا كلحظ العين بالعين

يكفيك من ذلك تسئال بحرفين)

هـ من التمهيد (٢) .

---

(١) – الفتح ١٥٦/١٠.

(٢) – التمهيد ١٩٧/١.." (١)

". (٢)

"٧٨ – ثنا هاشم ، ثنا ليث ، حدثني سعيد يعني المقبري ، عن ابن عبيدة عن سعيد بن يسار ، أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله A : « لا يتوضأ أحد فيحسن وضوءه ويسبغه (١) ، ثم يأتي المسجد لا يريد إلا الصلاة فيه إلا تبشبش (٢) الله D به كما يتبشبش (٣) أهل الغائب بطلعته »

---

(١) إسباغ الوضوء : إتمامه وإكماله واستيعاب أعضائه بالغسل

---

(١) الفجر الساطع/الزرهوني –شرح البخاري، ٤٦/٨

(٢) بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، ص/١٢٤

(٢) البش والبشاشة : فرح الصديق بالصديق، واللطف في المسألة والإقبال عليه

(٣) بشاشة اللقاء : الفرح بالمرء والانبساط إليه **والأنس به** واللطف إليه." (١)

"١١٠ – حدثني عون بن إبراهيم ، قال : ثنا أحمد بن أبي الحواري ، قال : سمعت مضاء ، يقول لسباع الموصلي : يا أبا محمد إلى أي شيء أقضى بهم الزهد ؟ قال : إلى **الأنس به**." (٢)

" يرى عليه أثر ذلك من رفض الدنيا لأنه من المحال أن يجتمع في القلب حب الله مع حب الدنيا فمن أحب الله لم ينظر إلى ما يناله من الدنيا ولا يكون له حاجة إلى غير من أحب

٦٩ قال وسمعت ذا النون يقول من علامات المحب لله ترك كل ما شغل عن الله عز وجل حتى يكون الشغل كله بالله وحده

٧٠ قال وسمعت ذا النون يقول دلائل أهل المحبة لله أن لا يأنس بسوى الله ولا يستوحش مع الله لأن حب الله إذا سكن في القلب آنس بالله لأن الله أجل في صدور العارفين من أن يحبوه لغيره

٧١ قال وسمعت ذا النون يقول من أحب الله استقل كل عمل بعمله

٧٢ قال وسمعت ذا النون يقول في صفة المؤمن إن لله لصفوة من خلقه وإن الله لخيرة من عباده فقيل يا أبا الفيض فما علامتهم قال إذا خلع العبد الراحة وأعطى المجهود في الطاعة وأحب سقوط المنزلة فقيل له يا أبا الفيض فما علامة إقبال الله عز وجل على العبد قال إذا رأيته صابرا شاكرا ذاكرا فذلك علامة إقبال الله عز وجل عليه فقيل له فما علامة إعراض الله عن العبد قال إذا رأيته ساهيا لاهيا معرضا عن ذكر الله عز وجل فذلك حين يعرض الله عنه فقيل له يا أبا الفيض فما علامة **الأنس بالله** قال إذا رأيته يوحشك عن خلقه فإنه يؤنسك من نفسه وإذا رأيته يؤنسك من خلقه فإنه يوحشك عن نفسه

٧٣ أخبرنا أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين قال سمعت منصور بن عبد الله يقول سمعت العباس بن يوسف الشكلي قال سمعت

." (٣)

" قال سمعت أبا عثمان الخياط يقول سمعت ذا النون يقول قال بعض العلماء ما أخلص العبد لله إلا أحب أن يكون في جب لا يعرف

١٤٠ وباسناده قال سمعت ذا النون يقول من صفة الحكيم حب خمول الذكر ومنه ذهاب الوحشة وسقوط الانس بغير الله فإذا انس الحكيم بالوحدة فقد اعتقد الإخلاص حينئذ تحركه الحكمة للحق والصواب إن شاء الله

---

(١) أمالي ابن بشران، ٨٤/١

(٢) الزهد، ١١١/١

(٣) الزهد الكبير، ص/٧٨

١٤١ وبإسناده قال سمعت ذا النون يقول إذا أحب القلب الخلوة فقد أوصله حب الخلوة إلى **الأنس بالله** ومن أنس بالله استوحش من غير الله فلله در قلوب أنست بجلال الله وارتعدت فرقا لهيبته

١٤٢ أخبرنا أبو الحسين بن بشران أنبأ أبو عمرو بن السماك ثنا حنبل بن إسحاق حدثني أبو عبد الله أحمد ثنا حجاج بن محمد قال سمعت شعبة يقول ربما ذهبت مع أيوب في الحاجة فأريد أن أمشي معه فلا يدعني ويخرج فيأخذ ههنا وها هنا لئلا يفطن له قال شعبة قال لي أيوب ذكرت وما أحب أن أذكر

١٤٣ أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال سمعت علي بن حمشاذ يقول سمعت العباس الأسفاطي يقول سمعت أحمد بن عبد الله بن يونس يقول سمعت سفيان الثوري يقول ما رأينا للإنسان خيرا له من أن يدخل في جحر

١٤٤ أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أنبأ أبو جعفر البغدادي ثنا علي بن المبارك الصنعاني ثنا زيد بن المبارك ثنا سهيل بن نعيم قال

". (١)

"

٤١٣ أخبرنا عبد الله بن يوسف ثنا إبراهيم بن فراس قال سمعت إبراهيم الخواص يقول قال بعض أهل المعرفة لا يطمع أحد في السهر مع الشبع ولا يطمع في الحزن مع كثرة النوم ولا يطمع في صحة أمره مع مخالطة الظلمة ولا يطمع في لين القلب مع فضول الكلام ولا يطمع في حب الله مع حب المال والشرف ولا يطمع في **الأنس بالله** مع الأنس بالمخلوقين ولا يطمع في الروح مع الرغبة في الدنيا

٤١٤ أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال سمعت أبا سعيد بن أبي حامد يقول سمعت أبا العباس السراج يقول سألت إبراهيم بن السري السقطي كيف كان يأكل أبوكم من مالكم قال كان يقول آكل من مالكم ما يحل لي من الميتة

٤١٥ أخبرنا عبد الله بن يوسف ثنا إبراهيم بن فراس قال قال أبو إسحاق الخواص إن الله يحب ثلاثا ويبغض ثلاثا فأما ما يحب فقلة الكلام وقلة النوم وقلة الأكل وأما ما يبغض فكثرة الكلام وكثرة الأكل وكثرة النوم

٤١٦ أخبرنا أبو سعد الماليني أنبأ أبو الحسن أحمد بن محمد بن يعقوب قال سمعت أبا القاسم المطرز يقول سمعت الجنيد يقول نبني أمرنا هذا على أربع لا نتكلم إلا عن وجد ولا نأكل إلا عن فاقة ولا ننام إلا عن غلبة ولا نسكت إلا عن خشية

٤١٧ أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ أخبرني جعفر الخواص حدثني الجنيد قال سمعت سري السقطي يقول حدثني أحمد بن أبي الحواري قال سمعت أبا سليمان الداراني يقول قدم إلي أهلي مرة خبزا وملحا فكان في الملح سمسمة فأكلتها فوجدت رانها على قلبي بعد سنة

---

(١) الزهد الكبير، ص/٩٨

". (١)

"داخلون في مسبغة وهي المجاعة وقيل لا يكون السغب إلا مع التعب (١) جمع مجسد بضم الميم وفتح السين المهملة بينهما جيم ساكنة وهو المصبوغ المشبع بالجسد وهو الزعفران أو العصفر (والخلوق) بفتح المعجمة طيب مركب يؤخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب يصفها بالفقر المدقع وعدم الزينة والطيب (٢) خشى أن يصيبه من دنياهم وأموالهم شيء فيصبح غنيا يطول حسابه يوم القيامة (٣) يعني الصراط (٤) الدحض بفتح الدال وسكون الحاء المهملتين وبفتح الحاء أيضا وآخره ضاد معجمة هو الزلق (٥) أي خفة وقلة نقدر على حملها (وقوله أحرى) أي أجدر وأحق (٦) جمع وقر بكسر الواو الحمل واكثر ما يستعمل في حمل البغل والحمار (هذا) وقد جاء في الأصل بعد قوله (وفي احمالنا اقتدار) ما لفظه وحدث مطر أيضا بالحديث اجمع في قول أحدهما أن تأتي عليه وفي أحمالنا اقتدار وقال الآخر ان تأتي عليه وفي أحمالنا اقتدار وقال الآخر أن تأتي عليه وفي احمالنا اضطمار احرى أن ننجو عن أن نأتي عليه ونحن مواقير وإنما ذكرت هذا محافظة على ما في الأصل وإلا فالحديث مستقيم بدونه (تخريجه) أورده المنذري باللفظ الذي اثبته في المتن إلا أنه قال (وفي احمالنا اقتدار واضطمارا حرى ان ننجو الخ) وقال رواه أحمد ورواته رواة صحيحة وكذلك قال الهيثمي (٧) (سنده) حدثنا سريج بن النعمان ويونس قالا ثنا بقية بن الوليد عن السرى بن ينعم عن مريح بن مسروق عن معاذ بن جبل الخ (غريبه) (٨) حذره النبي صلى الله عليه وسلم من التنعيم وان كان التنعيم بالمباح جائزا لكنه يوجب الأنس به والغفلة عن الله عز وجل والتعلق بزخارف الدنيا وعباد الله الصالحين ليسوا كذلك فيقتدي بهم لا سيما النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لم يتنعم في الدنيا (تخريجه) أورده المنذري وعزاه للامام احمد والبيهقي في الشعب وقال رواه احمد ثقات وكذلك قال الهيثمي (٩) (سنده) حدثنا سريج ثنا حشرج عن أبي نصيرة عن أبي عسيب الخ (غريبه) (١٠) قال في." (٢)

"(جة حم خز) ، وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

" (ما توطن رجل مسلم المساجد للصلاة والذكر) (١) (فشغله أمر أو علة ، ثم عاد إلى ما كان) (٢) (إلا تبشبش (٣) الله له – يعني حين يخرج من بيته – كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم) (٤) "

---

(١) (جة) ٨٠٠ ، (حم) ٨٣٣٢

(٢) (خز) ٣٥٩ ، انظر صحيح الترغيب والترهيب : ٣٢٧

(٣) البش : قال ابن الأثير في "النهاية" ١/١٣٠: فرح الصديق بالصديق، واللطف في المسألة والإقبال عليه .

بشاشة اللقاء : الفرح بالمرء والانبساط إليه والأنس به واللطف إليه .

قال ابن حبان : تبشبش الله جل وعلا لعبده الموطن المكان في المسجد للصلاة والخير إنما هو نظره إليه بالرأفة والرحمة والمحبة لذلك الفعل منه ، وهذا كقوله – صلى الله عليه وسلم – يحكي عن الله تعالى (من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا)

---

(١) الزهد الكبير، ص/١٧٧

(٢) الفتح الرباني/ الساعاتي (أجزاء منه)، ٦/١

يريد به من تقرب مني شبرا بالطاعة ووسائل الخير تقربت منه ذراعا بالرأفة والرحمة . (حب) ١٦٠٧
(٤) (حم) ٩٨٤٠ ، (جة) ٨٠٠ ، (حب) ١٦٠٧ ، ٢٢٧٨ ، انظر صحيح الترغيب والترهيب : ٣٢٧ ، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في (حب) : إسناده صحيح .." (١)

"قال ابن رجب: (معنى الاعتكاف وحقيقته: قطع العلائق عن الخلائق، للاتصال بخدمة الخالق، وكلما قويت المعرفة بالله، والمحبة له، **والأنس به**، أورثت صاحبها الانقطاع إلى الله تعالى بالكلية على كل حال)[(٣١٩)].

والاعتكاف سنة بإجماع أهل العلم، والأفضل الاعتكاف في رمضان في العشر الأواخر تأسياً بالنبي صلّى الله عليه وسلّم كما سيأتي، ولم ينقل أنه صلّى الله عليه وسلّم اعتكف في غير رمضان، إلا قضاءً لما اعتكف في شوال.

وأما قوله: (وقيام رمضان) فالمراد به: قيام الليل وإحياؤه بالطاعة من صلاة، وتلاوة، وذكر، ودعاء، ويحصل قيام الليل في رمضان بالصلاة، سواء صلى في أول الليل أم في آخره، وسواء صلى منفرداً أم مع الجماعة، لكن قيام رمضان مع الجماعة أفضل، والله تعالى أعلم.

فضل قيام رمضان

١/٦٩٧ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم قَالَ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

الكلام عليه من وجوه:

الوجه الأول: في تخريجه:

فقد أخرجه البخاري في كتاب «صلاة التراويح»، باب «فضل من قام رمضان» (٢٠٠٩)، ومسلم (٧٥٩) من طريق مالك، عن ابن شهاب، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة رضي الله عنه، به.

وقد جاء في روايات أخرى زيادة: «وما تأخر» ، ومن ذلك ما أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٢٧/٣) من طريق قتيبة بن سعيد قال: حدثنا سفيان، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، بزيادة «وما تأخر» ، قال ابن عبد البر: (إنها زيادة منكرة في حديث الزهري)[(٣٢٠)]، وذلك لأن الحديث رواه جماعة من الثقات من أصحاب سفيان بن عيينة عنه، عن الزهري، ولم يذكروا فيه «وما تأخر» ، وهم أكثر عدداً وأجود حفظاً ممن ذكرها، ومن هؤلاء: معمر، ومالك، وصالح بن كيسان، والليث، ويونس بن يزيد، وغيرهم[(٣٢١)]، فتكون زيادة غير محفوظة.." (٢)

" [ص ١٤٦] ١٥٣٧ - (اللهم بعلمك الغيب) الباء للاستعطاف والتذلل أي أنشدك بحق علمك ما خفي على خلقك مما استأثرت به (وقدرتك على الخلق) أي جميع المخلوقات من إنس وجن وملك وغيرها (أحيني ما علمت الحياة خيرا لي وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي) عبر بما في الحياة لاتصافه بالحياة حالا وبإذا الشرطية في الوفاة لانعدامها حال التمني أي إذا آل الحال أن تكون الوفاة بهذا الوصف فتوفني (اللهم وأسألك خشيتك) عطف على محذوف واللهم

---

(١) الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، ١٣٦٥/٢

(٢) منحة العلام ج٥، ص/٩٣

معترضة (في الغيب والشهادة) أي في السر والعلانية أو المشهد والمغيب فإن خشية الله رأس كل خير والشأن في الخشية في الغيب لمدحه تعالى من يخافه بالغيب (وأسألك كلمة الإخلاص) أي النطق بالحق (في الرضا والغضب) أي في حالتي رضا الخلق مني وغضبهم علي فيما أقوله فلا أداهن ولا أنافق أو في حالتي رضاي وغضبي بحيث لا تلجئني شدة الغضب إلا النطق بخلاف الحق ككثير من الناس إذا اشتد غضبه أخرجه من الحق إلى الباطل (وأسألك القصد) أي التوسط (في الغنى والفقر) وهو الذي ليس معه إسراف ولا تقصير فإن الغنى يبسط اليد ويطفيء النفس والفقر يكاد أن يكون كفرا فالتوسط هو المحبوب المطلوب (وأسألك نعيما لا ينفد) أي لا ينقضي وذلك ليس إلا نعيم الآخرة (وأسألك قرة عين) بكثرة النسل المستمر بعدي أو بالمحافظة على الصلاة لقوله وجعلت قرة عيني في الصلاة (لا تنقطع) بل تستمر ما بقيت الدنيا وقيل أراد قرة عينه أي بدوام ذكره وكمال محبته **والأنس به** . قال بعضهم : من قرت عينه بالله قرت به كل عين (وأسألك الرضا بالقضاء) أي بما قدرته لي في الأزل لأتلقاه بوجه منبسط وخاطر منشرح وأعلم أن كل قضاء قضيته خير فلي فيه خير . قال العارف الشاذلي : البلاء كله مجموع في ثلاث خوف الخلق وهم الرزق والرضا عن النفس والعافية والخير مجموع في ثلاث الثقة بالله في كل شيء والرضا عن الله في كل شيء واتقاء شرور الناس ما أمكن (وأسألك برد العيش بعد الموت) برفع الروح إلى منازل السعداء ومقامات المقربين والعيش في هذه الدار لا يبرد لأحد بل محشو بالغصص والنكد والكدر ممحوق بالآلام الباطنة والأسقام الظاهرة (وأسألك لذة النظر إلى وجهك) أي الفوز بالتجلي الذاتي الأبدي الذي لا حجاب بعده ولا مستقر للكمل دونه وهو الكمال الحقيقي قيد النظر باللذة لأن النظر إلى الله إما نظر هيبة وجلال في عرصات القيامة أو نظر لطف وجمال في الجنة إيذانا بأن المسؤول هذا (والشوق إلى لقائك) قال ابن القيم : جمع في هذا الدعاء بين أطيب ما في الدنيا وهو الشوق إلى لقائه وأطيب ما في الآخرة وهو النظر إليه ولما كان كلامه موقوفا على عدم ما يضر في الدنيا ويفتن في الدين قال (في غير ضراء مضرة) قال الطيبي : متعلق الظرف مشكل ولعله يتصل بالقرينة الأخيرة وهي الشوق إلى لقائك . سأل شوقا إليه في الدنيا بحيث يكون في ضراء غير مضرة أي شوقا لا يؤثر في سلوكي وإن ضرني مضرة ما قال :

إذا قلت أهدى الهجر لي حلل البلا . . . تقولين لولا الهجر لم يطب الحب

وإن قلت كربي دائم قلت إنما . . . يعد محبا من يدوم له كرب

ويجوز اتصاله بقوله أحيني إلى آخره . ومعنى ضراء مضرة : الضر الذي لا يصبر عليه (ولا فتنة مضلة) أي موقعة [ص ١٤٧] في الحيرة مفضية إلى الهلاك . وقال القونوي : الضراء المضرة حصول الحجاب بعد التجلي والتجلي بصفة تستلزم سدل الحجب والفتنة المضلة كل شبهة توجب الخلل أو تنقص في العلم والشهود (اللهم زينا بزينة الإيمان) وهي زينة الباطن ولا معول إلا عليها لأن الزينة زينتين زينة البدن وزينة القلب وهي أعظمها قدرا وإذا حصلت حصلت زينة البدن على أكمل وجه في العقبى ولما كان كمال العبد في كونه عالما بالحق متبعا له معلما لغيره قال (واجعلنا هداة مهتدين) وصف الهداة بالمهتدين لأن الهادي إذا لم يكن مهتديا في نفسه لم يصلح كونه هاديا لغيره لأنه يوقع الناس في الضلال من حيث لا يشعر وهذا الحديث أفرد بالشرح

(ن ك) وأحمد (عن عمار بن ياسر) قال : كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يدعو به ." (١)

" ٢٨٩٢ - (إياك والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين) لأن التنعم بالمباح وإن كان جائزا لكنه يوجب **الأنس به** ثم إن هذا محمول على المبالغة في التنعم والمداومة على قصده فلا ينافيه ما ورد في المستدرك وغيره أن المصطفى صلى الله عليه و سلم أهديت له حلة اشتريت بثلاثة وثلاثين بعيرا وناقة فلبسها مرة على أنه وإن داوم على ذلك فليس غيره مثله فإن المعصوم واقف على حدود المباح فلا يحمله ذلك على ما يخاف غائلته من نحو بطر وأشر ومداهنة وتجاوز إلى مكروه ونحو ذلك وأما غيره فعاجز عن ذلك فالتفريج على تنعمه بالمباح خطر عظيم لإبعاده عن الخوف قال العارف الجنيد : دخلت على العارف السري وهو يبكي فسألته فقال : جاءته البارحة الصبية فقالت : يا أبت هذا الكوز أعلقه لك يبرد فنمت فرأيت جارية من أحسن الخلق نزلت من السماء فقلت : لمن أنت قالت : لمن لا يشرب الماء المبرد فكسرت الكوز

(حم هب عن معاذ) قال الهيثمي : رجال أحمد ثقات وقال المنذري بعد ما عزاه لأحمد والبيهقي : رواة أحمد ثقات ." (٢)

" ٣٣٤٣ - (تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم) لأن تفريغ المحل شرط لتنزلات غيث الرحمة وما لم يتفرغ المحل لم يصادف الغيث محلا ينزل فيه ولو فرغ العبد المحل وهيأه وأصلحه لرأى العجائب وفضل الله لا يرده عن العبد إلا المانع الذي في قلبه من دنس الدنيا ودغلها وإذا تفرغ منها العبد وأقبل على ربه صنع له جميلا وهيأ له تدبيرا ينال به فوز العاجل والآجل وسعادة الدارين ولهذا [ص ٢٦١] قال بعضهم : هذا أصل عظيم في تمهيد الطريق إلى الحق تقدير بصرف هموم الدنيا المستولية على قلوب الورى الشاغلة لهم عن الإقبال على مولاهم وهمومها كل هم ينشأ عن الهوى في لذة من لذاتها كملبس ومأكل ومنكح ومال وحشم وجاه فكل هم منها يحجب عن الله وعن الآخرة بحسب قوته وضعفه ولا طهارة للقلب إلا بالفراغ منها هما هما ولهذا قال (ما استطعتم) أي لا تتكلفوا بالتفريغ منها كلها جملة واحدة فإنه غير ممكن بل بالتدريج حسبما يعرفه خواص المسلكين وإنما يزال الشيء بضده فيستحضر بدوام الذكر وصفاء القلب هما من هموم الآخرة فيدفع هما من هموم الدنيا وينزله مكانه وهكذا لو غلب عليه الحرص يستحضر التوكل أو الأمل يستحضر قرب الأجل أو العاجل استحضر الآجل أو الحرام استحضر غضب الملك العلام وهكذا حتى يدفع بجميع همومها فيسير إلى الحق بكليته ويقبل عليه بحقيقته (فإن من كانت الدنيا أكبر همه) أي أعظم شيء يهتم به ويصرف كليته إليه (أفشى الله تعالى ضيعته) أي كثر عليه معاشه ليشغله عن الآخرة (وجعل فقره بين عينيه) لأنه إذا رأى منه إقبالا على هذه الدنيا الدنيئة والشهوة الرديئة أعرض عنه حتى يتمكن حب هذه القاذورات منه ويتعالى في الغلو فيها فيضاد أقضية الله وتدبيره فيبوء بتدبيره ومن ثم قيل : من كانت الدنيا همه كثر في الدنيا والأخرى غمه (ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله له أمره وجعل غناه في قلبه وما

---

(١) فيض القدير، ٢/١٤٦

(٢) فيض القدير، ٣/١١٩

أقبل عبد بقلبه إلى الله تعالى إلا جعل قلوب المؤمنين تفد) أي تسرع (إليه بالود والرحمة) أي من تفرغ من هموم الدنيا أقبل قلبه على الله بكليته أي حبا ومعرفة وخوفا فدل على أن هذا الإقبال ممكن وثمرته عاجلة أن يجعل الله تعالى له محبة ورحمة في قلوب خواص عباده ثم بين أثر ذلك بقوله تفد إليه بالود أي تقبل على مهماته وخدمته محبة له ثم أكد ذلك بغاية المنى فقال : (وكان الله تعالى بكل خير إليه أسرع) أي إلى حبه وكفايته ومعونته من جميع عباده ليعرف بركة فراغ قلبه ومن الخير الذي يسرع الله به إليه ما قال المصطفى صلى الله عليه و سلم من جعل الهموم هما واحدا كفاه الله هموم الدنيا والآخرة ومن كانت الدنيا أكبر همه تخوف بأحوالها وتقلبها ورغب في الجمع والمنع وذلك سم قاتل فمن رفض ذلك انكشف له الغطاء فوجد الله كافيا له في كل أمر فرفع باله عن التدبير لنفسه وأقبل على ملاحظة تدبير الله واستراح وسخر إليه الناس وأفاض عليه الخير بغير حساب ولا قياس

فإن امرءا دنياه أكبر همه . . . لمستمسك منها بحبل غرور

قال الغزالي : ومن الأدوية النافعة في ذلك أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم من فوات لذات الدنيا فإنها لا آخر لها ولا كدر فيها فلذات الدنيا سريعة الدثور وهي مشوبة بالمكدرات فما فيها لذة صافية عن كدر وفي الإقبال على الأعمال الأخروية والطاعات الربانية تلذذ بمناجاته تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته وطول **الأنس به** ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأنس بمناجاته لكفى فكيف بما يضاف إليه من النعيم الأخروي لكن هذه اللذة لا تكون في الإبتداء بل بعد مدة حتى يصير له الخير ديدنا كما كان السوء له ديدنا

(طب) وكذا في الأوسط (عن أبي الدرداء) وضعفه المنذري وقال الهيثمي : فيه محمد بن سعيد بن حسان المصلوب وهو كذاب اه . وكذا ذكره غيره ." (١)

" ٣٣٦٤ - (تمعددوا) أي تشبهوا بمعد بن عدنان في تقشفهم وخشونة عيشهم وكانوا أهل تقشف وفي رواية ذكرها ابن الأثير تمعززوا أي تشددوا في الدين وتصلبوا من العز والقوة والشدة والميم زائدة كتمسكنوا من السكون (واخشوشنوا) أمر من الخشونة أي البسوا الخشن لا الحسن واطرحوا ذي العجمة وتنعمهم وإيثارهم لين العيش وفي رواية ذكرها ابن الأثير واخشوشبوا بالباء الموحدة (وانتضلوا (١) وامشوا حفاة) قال الرامهرمزي : يعني اقتدوا بمعد بن عدنان في لبس الخشن والمشي حفاة فهو حث على التواضع ونهي عن إفراط الترفه قال بعضهم : وقد أجمع العلماء والحكماء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك التنعم قال الغزالي رحمه الله : التزين بالمباح غير حرام لكن الخوض فيه يوجب **الأنس به** حتى يشق تركه واستدامة الزينة لا تمكن إلا بمباشرة أسباب في الغالب يلزم من مراعاتها إرتكاب المعاصي من المداهنة ومراعاة الخلق فالحزم اجتناب ذلك نعم يحرم على غني لبس ثوب خشن ليعطى لأن كل من أعطي شيئا لصفة ظنت فيه وخلى عنها باطنا حرم عليه قبوله ولم يملكه وروى الطبراني في الأوسط عن ابن عباس عن أبي بكر مرفوعا من مشى حافيا في طاعة الله لا يسأله الله عز و جل يوم القيامة عما افترض عليه قال الطبراني : تفرد به محمد وشيخه لم أرض ذكرهما قال بعضهم :

---

(١) فيض القدير، ٣/٢٦٠

ورد الحفاء من قول المصطفى صلى الله عليه و سلم وفعله وأخذ منه ندب الحفاء في بعض الأحوال بقصد التواضع حيث أمن مؤذيا وتنجيسا ويؤيده ندبه لدخول مكة بهذه الشروط قالوا : ومتى قصد بلباس أو نحوه نحو تكبر كان فاسقا

(طب) عن أبي حدرد وكذا أبو الشيخ [ابن حبان] [ابن حبان] وابن شاهين وأبو نعيم كلهم من حديث يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن أبي سعيد المقبري وهو ضعيف وقال الحافظ العراقي ورواه أيضا البغوي وفيه اختلاف ورواه ابن عدي من حديث أبي هريرة والكل ضعيف

---

(١) يحتمل أن المراد تعلموا الرمي بالسهام في الصحاح انتضل القوم وتناضلوا رموا السبق ." (١)

(د هـ) في الأدب وكذا البخاري في الأدب المفرد (عن أبي هريرة) قال : رأى رسول الله [ص ١٧٠] صلى الله عليه و سلم رجلا يتبع حمامة فذكره (هـ عن أنس) بن مالك (وعن عثمان) بن عفان (وعن عائشة) قال

" ٦٨٦٤ - (كان من أضحك الناس) لا ينافيه خبر أنه كان لا يضحك إلا تبسما لأن التبسم كان أغلب أحواله فمن أخبر به أخبر عن أكثر أحواله ولم يعرج على ذلك لندوره أو كل راو روى بحسب ما شاهد فالاختلاف باختلاف المواطن والأزمان وقد يكون في ابتداء أمره كان يضحك حتى تبدو نواجذه وكان آخرا لا يضحك إلا تبسما (وأطيبهم نفسا) ومع ذلك لا يركن إلى الدنيا ولا يشغله شاغل عن ربه بل كان استغراقه في حب الله إلى حد بحيث يخاف في بعض [ص ١٨٠] الأحيان أن يسري إلى قلبه فيحرقه وإلى قالبه فيهدمه فلذلك كان يضرب يده على فخذ عائشة أحيانا ويقول : كلميني ليشتغل بكلامها عن عظيم ما هو فيه لقصور طاقة قالبه عنه وكان طبعه **الأنس بالله** وكان أنسه بالخلق عارضا رفقا ببدنه . ذكره كله الغزالي

(طب) وكذا في الأوسط (عن أبي أمامة) الباهلي رمز المصنف لحسنه . قال الهيثمي : وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف ." (٢)

" ٧٤٤٨ - (لو خفتم الله حق خيفته لعلمتم العلم الذي لا جهل معه) لأن من نظر إلى صفات الجلال تلاشى عنده الخوف من غيره بكل حال وأشرق نور اليقين على فؤاده فتجلت له العلوم وانكشف له السر المكتوم ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ ﴿ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ قال الشاذلي : نمت ليلة في سياحتي فأطافت بي السباع إلى الصبح فما وجدت أنسا كتلك الليلة فأصبحت فخطر لي أنه حصل لي من مقام **الأنس بالله** فهبطت واديا فيه طيور حجل فأحسست بي فطارت فخفق قلبي رعبا فنوديت يا من كان البارحة يأنس بالسباع ما لك وجلت من خفقان الحجل لكنك البارحة كنت بنا واليوم بنفسك اه . وفي تاريخ ابن عساكر عن الرقي أنه قصد أبا الخير الأقطع مسلما فصلى المغرب ولم يقرأ الفاتحة مستويا فقال في نفسه ضاع سفري فلما سلم خرج فقصده سبع فخرج الأقطع خلفه وصاح على الأسد ألم أقل

---

(١) فيض القدير، ٢٦٨/٣

(٢) فيض القدير، ١٧٩/٥

لك لا تتعرض لأضيافي فتنحى ثم قال : اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم الأسد واستغلنا بتقوى القلب فخافنا الأسد ومن هذا القبيل ما حكى أن سفينة مرت في البحر فأرسوا على جزيرة فوجدوا فيها أمة سوداء تصلي ولا تحسن قراءة الفاتحة على وجهها وتخلط فيها ولا تحسن الركوع والسجود ولا عدد الركعات فقالوا لها : ما هو كذا افعلي كذا وكذا ثم سارت السفينة عنها بعيدا فإذا هم بها تجري على وجه الماء وتقول : قفوا علموني فإني نسيت فبكوا وقالوا : ارجعي وافعلي ما كنت تفعلين (ولو عرفتم الله حق معرفته) قال الحكيم : حق المعرفة أن يعرفه بصفاته العليا وبأسمائه الحسنى معرفة يستنير قلبه بها فلو عرفتموه كذلك (لزالت لدعائكم) وفي رواية بدعائكم بالموحدة (الجبال) لكنكم وإن عرفتموه لم تعرفوه حق معرفته فلم تنظروا إلى صنعه وحكمه وتدبيره فلم تكونوا من أهل هذه المرتبة ومن عرفه حق معرفته ماتت منه شهوة الدنيا والشبح بها وحب الرئاسة والثناء والحمد من الناس وزالت الحجب عن قلبه فأبصر ربه بعين قلبه ولبه ولم يخدعه غرور ولا خيال فزالت لدعائه الجبال فعلماء الظاهر عرفوا الله لكن لم ينالوا حق [ص ٣٢٠] المعرفة فلذلك عجزوا عن هذه المرتبة ومنعوا أن يكون لهم هذا بل ودونه بل ودونه كالمشي على الماء والطيران في الهواء وطئ الأرض لأحد ولو عرفوه حق المعرفة لماتت منهم شهوات الدنيا وحب الرئاسة والجاه والشح على الدنيا والتنافس في أحوالها وطلب العز وحب الثناء والمحمدة ترى أحدهم مصغيا لما يقول الناس له وفيه وعينه شاخصة إلى ما ينظر الناس إليه منه وقد عميت عيناه عن النظر إلى صنع الله وتدبيره فإنه تعالى كل يوم هو في شأن

(الحكيم) الترمذي (عن معاذ بن جبل) ." (١)

"جرى الكلب في العروق ، شبه حال الزاغين من أهل البدع في استيلاء تلك الأهواء عليهم ، وفي سراية تلك الضلالة منهم إلى الغير بدعوتهم إليها ، ثم تنفرهم من العلم وامتناعهم من قبوله حتى يهلكوا جهلا ، بحال صاحب الكلب وسريان تلك العلة في عروقه ومفاصله شبه الجنون ، ثم تعديته إلى الغير فلا يعض المجنون أحدا إلا كلب أي جن ، ويعرض له أعراض رديئة تشبه الماليخوليا مهلكة غالبا ، ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشا ، قاله الطيي. وفي هذا التشبيه فوائد : منها التحذير من مقاربة تلك الأهواء ومقاربة أصحابها ، وبيان ذلك أن داء الكلب فيه ما يشبه العدوى فإن أصل الكلب واقع في الكلب ، ثم إذا عض ذلك الكلب أحدا صار مثله ولم يقدر على الانفصال منه في الغالب إلا بالهلكة ، فكذلك المبتدع إذا أورد على أحد رأيه وإشكاله فقلما يسلم من غائلته ، بل إما أن يقع معه في مذهبه ويصير من شيعته ، وإما أن يثبت في قلبه شكا يطمع في الانفصال عنه فلا يقدر ، هذا بخلاف سائر المعاصي ، فإن صاحبها لا يضاره ولا يدخله فيها غالبا إلا مع طول الصحبة **والأنس به** ، والاعتياد لحضور معصيته ، وقد أتى في الآثار ما يدل على هذا المعنى ، فإن السلف الصالح نهوا عن مجالستهم ، ومكالمتهم ، وكلام مكالمهم ، وأغلظوا في ذلك ، قاله الشاطبي وبسط الكلام في شرح رواية معاوية أيضا ،

١٧٣- (٣٤) وعن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ : ((إن الله لا يجمع أمتي - أو قال : أمة محمد - على ضلالة ، ويد الله على الجماعة ، ومن شذ شذ في النار)) رواه الترمذي.

---

(١) فيض القدير، ٣١٩/٥

". (١)

"وهو التوسط بلا إفراط وتفريط (في الفقر والغنى) لأن المختار أن الكفاف أفضل من الفقر ومن الغنى قاله في اللمعات ، وقال المناوي : القصد أي التوسط في الفقر والغنى هو الذي ليس معه إسراف ولا تقتير ، فإن الغنى يبسط اليد ويطغي النفس ، والفقر يكاد أن يكون كفرا ، فالتوسط هو المحبوب المطلوب . وقال الشوكاني : القصد في كتب اللغة بمعنى استقامة الطريق والاعتدال ، وبمعنى ضد التفريط وهو المناسب هنا لأن بطر الغني ربما جر إلى الإفراط وعدم الصبر على الفقر ربما أوقع في التفريط فالقصد فيهما هو الطريقة القويمة (لا ينفد) بفتح الفاء وبالدال المهملة أي لا يفنى ولا ينقضي ولا ينقص ، وذلك ليس إلا نعيم الآخرة ، وأما غيره فكل نعيم لا محالة زائل (قرة عين لا تنقطع) يحتمل أن يراد الذرية التي لا تنقطع بعده ، بل تستمر ما بقيت الدنيا . ولعله مأخوذ من قوله تعالى ﴿ ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ (٢٥ : ٧٤) وقيل : أراد المداومة على الصلاة والمحافظة عليها لقوله ((وجعلت قرة عيني في الصلاة)) أو المراد ثواب الجنة الذي لا ينقطع فيكون تأكيدا لقوله ((نعيما لا ينفد)) فيكون بعد تخصيصا بعد تعميم ، وقيل : أراد قرة عينه أي بدوام ذكر الله وكمال محبته **والأنس به** (وأسألك الرضاء) بالمد ، وفي المستدرك الرضى أي بالقصر . قال الجوهري : الرضى مقصورا مصدر محض والاسم الرضاء ممدودا (بعد القضاء) وفي رواية للنسائي الرضاء بالقضاء أي بما قدرته لي في الأزل لأتلقاه بوجه منبسط وخاطر منشرح وأعلم أن كل قضاء قضيته لي فلي فيه خير ، قيل في وجه الأول : كأنه طلب الرضاء بعد تحقق القضاء وتقرره (برد العيش) أي طيبه وحسنه (بعد الموت) برفع الروح إلى منازل السعداء ومقامات المقربين ، والعيش في." (٢)

"لأن التنعم بالمباح وإن كان جائزا لكنه يوجب **الأنس به** ثم إن هذا محمول على المبالغة في التنعم والمداومة على قصده فلا ينافيه ما ورد في المستدرك وغيره أن المصطفى صلى الله عليه وسلم أهديت له حلة اشتريت بثلاثة وثلاثين بعيرا وناقة فلبسها مرة على أنه وإن داوم على ذلك فليس غيره مثله فإن المعصوم واقف على حدود المباح فلا يحمله ذلك على ما يخاف غائلته من نحو بطر وأشر ومداهنة وتجاوز إلى مكروه ونحو ذلك وأما غيره فعاجز عن ذلك فالتفريج على تنعمه بالمباح خطر عظيم لإبعاده عن الخوف ......

٢٦٦٩ إياك و الحلوب (صحيح) (م هـ) عن أبي هريرة .

الشرح:

أي احذر ذبح شاة ذات لبن فعولة بمعنى مفعولة يقال: ناقة حلوب أي هي مما يحلب قاله لأبي التيهان الأنصاري لما أضافه فأخذ الشفرة وذهب ليذبح له وفيه قصة طويلة مشهورة في الأطعمة كلاهما .....

---

(١) مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح، ١/٦٥٤

(٢) مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح، ٨/٦٠٠

٢٦٧٠ إياك و السمر بعد هدأة الرجل فإنكم لا تدرون ما يأتي الله في خلقه

(حسن) (ك) عن جابر .

الشرح:

(إياك والسمر بعد هدأة) بفتح وسكون (الرجل) بكسر الراء وسكون الجيم وفي رواية الليل بدل الرجل ذكره المصنف على حاشية نسخته (فإنكم لا تدرون ما يأتي الله تعالى في خلقه).

٢٦٧١ إياك و كل أمر يعتذر منه (حسن) (الضياء) عن أنس .

الشرح:." (١)

"(اللهم بعلمك الغيب) الباء للاستعطاف والتذلل أي أنشدك بحق علمك ما خفي على خلقك مما استأثرت به (وقدرتك على الخلق) أي جميع المخلوقات من إنس وجن وملك وغيرها (أحيني ما علمت الحياة خيرا لي وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي) عبر بما في الحياة لاتصافه بالحياة حالا وبإذا الشرطية في الوفاة لانعدامها حال التمني أي إذا آل الحال أن تكون الوفاة بهذا الوصف فتوفني (اللهم وأسألك خشيتك) عطف على محذوف واللهم معترضة (في الغيب والشهادة) أي في السر والعلانية أو المشهد والمغيب فإن خشية الله رأس كل خير والشأن في الخشية في الغيب لمدحه تعالى من يخافه بالغيب (وأسألك كلمة الإخلاص) أي النطق بالحق (في الرضا والغضب) أي في حالتي رضا الخلق مني وغضبهم علي فيما أقوله فلا أداهن ولا أنافق أو في حالتي رضاي وغضبي بحيث لا تلجئني شدة الغضب إلا النطق بخلاف الحق ككثير من الناس إذا اشتد غضبه أخرجه من الحق إلى الباطل (وأسألك القصد) أي التوسط (في الغنى والفقر) وهو الذي ليس معه إسراف ولا تقصير فإن الغنى يبسط اليد ويطغىء النفس والفقر يكاد أن يكون كفرا فالتوسط هو المحبوب المطلوب (وأسألك نعيما لا ينفد) أي لا ينقضي وذلك ليس إلا نعيم الآخرة (وأسألك قرة عين) بكثرة النسل المستمر بعدي أو بالمحافظة على الصلاة لقوله وجعلت قرة عيني في الصلاة (لا تنقطع) بل تستمر ما بقيت الدنيا وقيل أراد قرة عينه أي بدوام ذكره وكمال محبته **والأنس به**. قال بعضهم: من قرت عينه بالله قرت به كل عين (وأسألك الرضا بالقضاء) أي بما قدرته لي في الأزل لأتلقاه بوجه منبسط وخاطر منشرح وأعلم أن كل قضاء قضيته خير فلي فيه خير. قال العارف الشاذلي: البلاء كله مجموع في ثلاث خوف الخلق وهم الرزق والرضا عن النفس والعافية والخير مجموع في ثلاث الثقة بالله في كل شيء والرضا عن الله في كل شيء واتقاء شرور الناس ما أمكن (وأسألك برد العيش بعد الموت) برفع الروح إلى منازل." (٢)

"معنى الهمة

جاء في القاموس: (هـ م م): ((ما هم به من أمر ليفعل)).

---

(١) مصابيح التنوير على صحيح الجامع الصغير للألباني، ٣١/٢

(٢) مصابيح التنوير على صحيح الجامع الصغير للألباني، ١٢٤/٢

فالهمة هي الباعث على الفعل، وتوصف بعلو أو سفول، فمن الناس من تكون
همته عالية علو السماء، ومنهم من تكون همته قاصرة دنيئة سافلة تهبط به إلى أسوأ الدرجات.
وعرف بعضهم علو الهمة فقال:
((هو استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور)) (١)
قال ابن القيم (٢) رحمه الله تعالى، واصفا الهمة العالية:
((علو الهمة ألا تقف (أي النفس) دون الله، ولا تتعوض عنه بشيء سواه، ولا
ترضى بغيره بدلا منه، ولا تبيع حظها من الله وقربه **والأنس به** والفرح والسرور
والابتهاج به بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية.

---

(١) ((رسائل الإصلاح)): ٢/ ٨٦.
(٢) هو الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي، ولد سنة ٦٩١. وكان جريء الجنان، واسع العلم، كثير الصلاة والتلاوة، حسن الخلق، كثير التودد، توفي بدمشق سنة ٧٥١ رحمه الله تعالى، وكانت جنازته حافلة. انظر ((الدرر الكامنة)):٤/ ٢١ – ٢٣.." [1]

"وفضول النظر يدعو إلى الاستحسان، ووقوع صور المنظور فى قلب الناظر، فيحدث أنواعاً من الفساد فى قلب العبد منها:
أن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غضّ بصره لله أورثه حلاوة يجدها فى قلبه إلى يوم يلقاه.
ومنها: دخول الشيطان مع النظرة، فإنه ينفذ معها أسرع من نفوذ الهواء فى المكان الخالى، ليزين صورة المنظور، ويجعلها صنماً يعكف عليه القلبُ ، ثم يعده ويمنيه، ويوقد على القلب نار الشهوات ويلقى حطب المعاصى التى لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة.
ومنها: أنه يشغل القلب، وينسيه مصالحه، ويحول بينه وبينها، فينفرط عليه أمره، ويقع فى اتباع الهوى والغفلة.
قال الله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف: من الآية: ٢٨)

وإطلاق البصر يوجب هذه الأمور الثلاثة:
وقال أطباء القلوب: بين العين والقلب منفذ وطريق، فإذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد وصار كالمزبلة التى هى محل النجاسات والقاذورات والأوساخ، فلا يصلح لسكن معرفة الله ومحبته، والإنابة إليه، **والأنس به**، والسرور بقربه، وإنما يسكن فيه أضداد ذلك.
وإطلاق البصر معصية لله عز وجل لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ

---

(١) الهمة طريق إلى القمة، محمد بن موسى الشريف ١٣/١

خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (النور: الآية: ٣٠)

وما سعد من سعد فى الدنيا إلا بامتثال أمر الله، ولا نجاة للعبد فى الآخرة إلا بامتثال أوامر الله عز وجلَ.

وإطلاق البصر كذلك يُلبس القلب ظلمة، كما أن غضّ البصر لله عزّ." (١)

"أمرها كله وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين، وإذا كانت بضد ذلك فهي الأمارة بالسوء.

وذكر ابن القيم سرا لطيفا حيث قال عنه: يجب التنبيه عليه والتنبه له والتوفيق له بيد من أزمة التوفيق بيده.

-يريد رحمه الله أن يبين سر طمأنينة القلب ببيان وظيفته وعمله الذي خلق له وأنه بوجوده وقيامه به تحصل له الطمأنينة وبفقده تستحيل مهما كان البديل والعوض-.

قال: وهو أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالا إن لم يحصل له فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذي جعل له.

مثاله: كمال العين بالإبصار، وكمال الأذن بالسمع، وكمال اللسان بالنطق.

فإذا عدمت هذه الأعضاء القوى التي بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك.

وجعل كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته وابتهاجه في معرفته سبحانه، وإرادته، ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والشوق إليه، **والأنس به**.." (٢)

"علامات مرض القلب

ذكر ابن القيم –رحمه الله– أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به، كما له في حصول ذلك الفعل منه.

ومرضه أن يتعذر عليه الفعل الذي خلق له حتى لا يصدر منه أو يصدر مع نوع من الاضطراب.

فمرض اليد: أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين: أن يتعذر عليها النظر والرؤية، ومرض اللسان أن يتعذر عليه النطق، ومرض البدن: أن تتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف عنها.

ومرض (القلب) أن يتعذر عليه ما خلق له من معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه والإنابة إليه وإيثار ذلك على كل شهوة.

فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئا ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه **والأنس به** فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين.

بل إذا كان القلب خاليا من ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذابا له ولا بد، فيصير معذبا بنفس ما كان منعما به من جهتين:." (٣)

---

(١) تزكية النفوس، أحمد فريد ص/٢٩

(٢) إحسان سلوك العبد المملوك إلى ملك الملوك، عبد الكريم الحميد ١٥٣/١

(٣) إحسان سلوك العبد المملوك إلى ملك الملوك، عبد الكريم الحميد ١٦٠/١

"علامات صحة القلب

ذكر ابن القيم من علامات صحة القلب أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة ويحل فيها حتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها جاء إلى هذه الدار غريبا يأخذ منها حاجته ويعود إلى وطنه كما قال عليه السلام لعبد الله بن عمر: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور).

وكلما صح القلب من مرضه ترحل إلى الآخرة وقرب منها حتى يصير من أهلها.

وكلما مرض القلب واعتل آثر الدنيا واستوطنها حتى يصير من أهلها.

ومن علامات صحة القلب أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ويخبت إليه ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه الذي لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه **والأنس به**." [1]

"قال بعض العارفين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال محبة الله **والأنس به** والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره وطاعته.

وقال آخر: إنه ليمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وذكر من علامات صحة القلب أن لا يفتر عن ذكر ربه ولا يسأم من خدمته ولا يأنس بغيره إلا بمن يدله عليه ويذكره به ويذاكره بهذا الأمر. إنتهى.

قال ابن القيم: ومن تجريبات السالكين التي جربوها فألقوها صحيحة أن من أدمن (يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت) أورثه ذلك حياة القلب والعقل.

ثم قال رحمه الله: وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه شديد اللهج بها جدا، وقال لي يوما: لهذين الإسمين وهما (الحي القيوم) تأثير عظيم في حياة القلب، وكان يشير إلى أنهما الإسم الأعظم.." [2]

"﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي: حقيق بها، وحريٌّ بها أن لا تطمئنَّ لشيء سوى ذكره؛ فإنه لا شيء ألذ للقلوب، ولا أشهى، ولا أحلى من محبة خالقها، **والأنس به** ومعرفته)) (١).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: ((وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ (٢) دليل على أنها لا ترجع إليه إلا إذا كانت مطمئنة، فهناك ترجع إليه، وتدخل في عباده، وتدخل جنته، وكان من دعاء بعض السلف: ((اللهم هب لي نفسا مطمئنة إليك)) (٣).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١٧ – ٤١٨.

---

(١) إحسان سلوك العبد المملوك إلى ملك الملوك، عبد الكريم الحميد ١/١٦٦

(٢) إحسان سلوك العبد المملوك إلى ملك الملوك، عبد الكريم الحميد ١/١٦٨

(٢) سورة الفجر، الآيتان: ٢٧ – ٢٨.

(٣) مدارج السالكين، ٢/ ٥١٤، والأثر لم أجده إلا في التفسير القيم لابن القيم، ١/ ٤٩١.." (١)

"وهذا المشهد من أعظم المشاهد وأنفعها للعبد، وكلّما كان العبد أعظم توحيداً، كان حظُّه من هذا المشهد أتمَّ.

وفيه من الفوائد: أنه يحول بين القلب وبين العُجْب بالعمل، ورؤيته؛ فإنه إذا شهد أن الله سبحانه هو المانُّ به، الموفق له، الهادي إليه، شغله شهودُ ذلك عن رؤيته، والإعجاب به، وأن يصول به على الناس، فيُرفع من قلبه، فلا يعجب به، ومن لسانه، فلا يمنّ به، ولا يتكثّر به، وهذا شأن العمل المرفوع.

ومن فوائده: أنه يضيف الحمد إلى وليّه، ومستحقّه، فلا يشهد لنفسه حمداً، بل يشهده كلّه لله، كما يشهد النعمة كلّها منه، والفضل كله له، والخير كله في يديه، وهذا من تمام التوحيد، فلا يستقرّ قدمه في مقام التوحيد إلا بعلم ذلك وشهوده؛ فإذا علمه، ورسخ فيه، صار له مشهداً، وإذا صار لقلبه مشهداً، أثمر له من المحبة **والأنس بالله**، والشوق إلى لقائه، والتنعّم بذكره، وطاعته، ما لا نسبة بينه وبين أعلى نعيم الدنيا البتّة.

وما للمرء خير في حياته، إذا كان قلبه عن هذا مصدوداً، وطريق الوصول إليه عنه مسدوداً، بل هو كما قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (١).

المشهد السادس: مشهد التقصير: وأن العبد لو اجتهد في القيام بالأمر غاية الاجتهاد، وبذل وسعه، فهو مقصِّر، وحق الله سبحانه عليه أعظم، والذي ينبغي له أن يقابل به من الطاعة والعبودية

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٣.." (٢)

"المبحث الحادي والعشرون: الأسباب التي تزيل الغفلة وتجلب الخشوع في الصلاة

يجب ترك الأسباب التي تزيل الخشوع في الصلاة، أو تضعفه، والعمل بالأسباب التي تجلبه وتقوّيه، وهي كثيرة، منها الأسباب الآتية:

السبب الأول: معرفة الله تعالى: بأسمائه، وصفاته، وألوهيَّته، وربوبيَّته، فيجب على العبد أن يعلم أن الله تعالى له الأسماء الحسنى، والصفات العُلا؛ فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وما أثبته له رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، من غير تعطيل، ولا تحريف، ولا تَكْييفٍ، ولا تمثيل، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه، وما نفاه عنه رسوله – صلى الله عليه وسلم –، وأن الله تعالى هو: الخالق المالك لكل شيء، المدبّر له، لا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى، ولا مذلَّ لمن أعزَّ، ولا معزَّ لمن أذلَّ، ولا خافض لمن رفع، ولا رافع لمن خفض، ومن هذه صفاته وأسماؤه وأفعاله، فهو المستحقُّ للعبادة وحده، لا شريك له، ولا

---

(١) الخشوع في الصلاة في ضوء الكتاب والسنة، سعيد بن وهف القحطاني ص/٣٩

(٢) الخشوع في الصلاة في ضوء الكتاب والسنة، سعيد بن وهف القحطاني ص/٨٩

معبود بحقٍّ سواه، ولا ربَّ غيره، فيجب على العبد أن يعبد هذا الربَّ الكريم كأنه يراه؛ فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن معرفة الله نوعان:

النوع الأول: معرفة إقرار، وهي التي اشترك فيها الناس: البرُّ والفاجر، والمطيع والعاصي.

النوع الثاني: معرفة توجب الحياء منه، والمحبة له، وتعلّق القلب به، والشوق إلى لقائه، وخشيته، والإنابة إليه، **والأُنس به**، والفرار من الخلق إليه، وهذه هي المعرفة الخاصة، والناس يتفاوتون فيها؛ ولهذه المعرفة بابان واسعان:." (١)

"العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، والإخلاص من غير تحقيق هباء، قال تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ [الفرقان: ٢٣].

قال بعض السلف: رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية.

وقال بعض العارفين: إني أستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي إلى الخلاء.

وقال أبو الدرداء: إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو فيكون ذلك عونا لي على الحق، وقال علي كرم الله وجهه: روحوا القلوب فإنها إذا أكرهت عميت.

ولقد كان معروف الكرخي -رحمه الله تعالى- يضرب نفسه ويقول: يا نفسي أخلصي تتخلصي.

وقال يعقوب المكفوف: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته.

وقال سليمان: طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى.

وكتب عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إلى أبي موسى الأشعري: من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس

وكتب بعض الأولياء إلى أخ له: أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل.

وقال أيوب السختياني: تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال.

عشرة لا ينتفع بها:

يقول ابن القيم: عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها:

علم لا يعمل به.

وعمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء.

ومال لا ينفق منه فلا يستمتع به جامعه في الدنيا ولا يقدمه أمامه في الآخرة.

وقلب فارغ من محبة الله والشوق إليه **والأنس به.**

وبدن معطل من طاعته وخدمته.." (٢)

---

(١) الخشوع في الصلاة في ضوء الكتاب والسنة، سعيد بن وهف القحطاني ص/١٦٠

(٢) موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق، ياسر عبد الرحمن ١٠/١

"يبكي من معاص حرم الوصول إليها، وفريق يبكي على طاعة لم يوفقه الله لها.

منتهى الخوف

كان يحيى بن معاذ الرازي يقول: كيف يفرح المؤمن في دار الدنيا إن عمل سيئة خاف أن يؤخذ بها، وإن عمل حسنة خاف ألا تقبل منه، وهو إما مسيء وإما محسن.

وعن منصور بن عمار أنه قال: خرجت ليلة من الليالي وظننت أن النهار قد أضاء، فإذا أصبح علا، وإذا أنا بصوت شاب يدعو ويبكي وهو يقول: اللهم وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك، ولكن عصيتك إذ عصيتك بجهلي، وما أنا بنكالك (عقابك) جاهل، ولا لعقوبتك متعرض، ولا بنظرك مستخف، ولكن سولت لي نفسي، وأعانني عليها شقوتي وغرني سترك المرخي علي، فقد عصيتك وخالفتك بجهلي، فمن عذابك من يستنقذني؟ ومن أيدي زبانيتك من يخلصني؟ وبحبل من أتصل إن أنت قطعت حبلك عني؟ واسوأتاه إذا قيل للمخفين: جوزوا، وقيل للمثقلين: حطوا! فيا ليت شعري مع المثقلين أحط؟! أم مع المخفين أجوز؟! ويحي كلما طال عمري كثرت ذنوبي! ويحي كلما كبرت سني كثرت خطاياي، فيا ويلي كم أتوب، وكم أعود، ولا أستحي من ربي.

من أحسن الأشياء

كان السري السقطي يقول: أحسن الأشياء خمسة:

البكاء على الذنوب.

وإصلاح العيوب.

وطاعة علام الغيوب.

وجلاء الرين (ما يغطي القلب من سواد الذنوب) عن القلوب.

وألا تكون لما تهوى ركوب.

وقال: خمسة أشياء لا يسكن في القلب معها غيرها: الخوف من الله وحده، والرجاء من الله وحده، والحب لله وحده، والحياء من الله وحده، **والأنس بالله** وحده.." (١)

"ينزل به الموت وسكراته لم يذق نعيماً من نعيم الدنيا)) (١).

قوله: ((وأسألك قرة عين لا تنقطع)): وقرة العين هي من جملة النعيم الذي أسأله في الدنيا والآخرة؛ لأن النعيم منه ما هو منقطع، ومنه ما لا ينقطع، فمن قرّت عينه بالدنيا فقُرَّة عينه منقطعة، سروره فيها زائل؛ لأن لذاتها مشوبة بالفجائع والمنغصات، فلا تقرَّ عين المؤمن في الدنيا إلا بالله – عز وجل –، وذكره ومحبته **والأنس به**، والمحافظة على طاعته في الليل والنهار، ومن أعظمها الصلاة، كما قال المصطفى – صلى الله عليه وسلم –: ((وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ)) (٢)، وقرّة

---

(١) موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق، ياسر عبد الرحمن ١/٩٥

العين في الآخرة تشمل النعيم في البرزخ، وفي الجنة، وقرّة العين التي لاتنقطع هي التي لا تنتهي، فإنّ من قرّت عينه بالله جلّ وعلا فقد حصلت له قرة عين لا تنقطع في الدنيا، ولا في البرزخ، ولا في الآخرة.

قوله: ((وأسألك الرضى بعد القضاء)): سأل الرضى بعد حلول القضاء؛ لأنه حينئذ تتبين حقيقة الرضا، وأما الرضى قبل القضاء، فهو عزم ودعوى من العبد، فإذا وقع القضاء، فقد تنفسخ العزائم، وسؤال الله الرضى بعد القضاء يتضمن الرضا بما فيه من خير أو شر، فأما في الخير فيرضى ويقنع به ولا يتكلف في طلب

---

(١) مجموع رسائل ابن رجب، ص ١٧٣.

(٢) مسند أحمد، ٢١/ ٤٣٣، برقم ١٤٠٣٧، وعبد الرزاق، والنسائي في السنن الكبرى، ٥/ ٢٨٠، والطبراني في الكبير، ٢٠/ ٤٢٠، والحاكم، ٢/ ١٦٠، وجوّد إسناده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ١٣/ ٩٤، وفي صحيح الجامع، برقم ٣٠٩٨.." (١)

"العلائق، والله اعلم) (١) اهـ.

وقال أيضًا:

(علو الهمة: أن لا تقف دون الله، ولا تتعوض عنه بشيء سواه، ولا ترضى بغيره بدلاً منه، ولا تبيع حظها من الله، وقربه **والأنس به**، والفرح والسرور والابتهاج به، بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية، فالهمة العالية على الهمم: كالطائر العالي على الطيور، لا يرضى بمساقطهم، ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم، فإن "الهمة" كلما علت، بعدت عن وصوله الآفات إليها، وكلما نزلت قصدتها الآفات من كل مكان، فإن الآفات قواطع وجواذب، وهي لا تعلو إلى المكان العالي فتجتذب منه، وإنما تجتذب من المكان السافل، فعلو همة المرء: عنوان فلاحه، وسفول همته: عنوان حرمانه) (٢) اهـ.

والهمة طليعة الأعمال ومقدمتها، قال أحد الصالحين: "همتك فاحفظها، فإن، الهمة مقدمة الأشياء، فمن صلحت له همته وصدق فيها، صلح له ما وراء ذلك من الأعمال" (٣)، وعن عبيد الله بن زياد بن ظبيان قال: (كان لي خال من "كلب"، فكان يقول لي: "يا عبيد هِمَّ؛ فإن الهمة نصف المروءة ").

الهمةُ مولودةٌ مع الآدمي

قال ابن الجوزي في: "لفتة الكبد إلى نصيحة الولد":

(وما تقف همة إلا لخساستها، وإلا فمتى علت الهمة فلا تقنع

---

(١) "مدارج السالكين" (٣/ ٣ - ٤).

---

(١) شرح الدعاء من الكتاب والسنة، ماهر بن عبد الحميد بن مقدم ص/٤٤٣

(٢) "السابق" (٣/ ١٧١ - ١٧٢).

(٣) "بصائر تربوية" ص (١٣٧).." [1]

"وقال سليمان الداراني: "لو شك الناس كلهم في الحق، ما شككت فيه وحدي".

وقال بعض الصالحين: "انفرادك في طريق طلبك، دليل على صدق الطلب".

فعالي الهمة ترقى في مدارج الكمال بحيث صار لا يأبه بقلة السالكين، ووحشة الطريق لأنه يُحَصِّل مع كل مرتبة يرتقي إليها من **الأنس بالله** ما يزيل هذه الوحشة (١)، وإلا انقطع به السبيل.

[إن أول ثمرات العزة الإيمانية التي يحسها المؤمن: إدراكه ما في الإسلام من قوة الحقيقة التي يكفي لكي تعلن عن نفسها أن تتمثل في فرد واحد، وما في الآراء الجاهلية المخالفة من زيف الباطل، واحتياجها إلى سواد كثير، وعدد كبير من الأفراد، يأسر منظرهم كل ساذَج، فيغتر، وينطلي زيف الباطل عديه، دون أن يدرك ما هم فيه من الضلال.

---

(١) وتوضيح ذلك بمراتب الدين فهي ثلاثة كما جاء في حديث جبريل: "الإسلام، والإيمان، والإحسان، فالإسلام أخص من الإيمان من حيث المعنى، لكنه أعم من حيث الأفراد، والإيمان أخص من الإحسان من حيث المعنى، لكنه أعم من حيث الأفراد، فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، وليس كل مؤمن محسنًا، وفي هذه المراتب درجات ودرجات، فكلما ارتفع السالك درجة شعر بقلة في السالكين، فإذا لم يكن قد حصل مع ارتفاع كل درجة من **الأنس بالله** بقدر شعوره بقلة السالكين في هذه الدرجة، لاستولى عليه الشعور بالوحشة، فأحسن أحواله حينئذ أن ينقطع عن الرقي أو يمله وهو بذلك مغبون، وإما أن يعود القهقرى، وهو في هذه الحالة خاسر مردود، فلا ييأس، وليعاود السير عساه أن يربح فلا يخسر أبدًا.." (٢)

"يريد بنقصه قِصَر التعلُّق بذلك لعَدَم تمكُّن محبة المعبود سبحانه في القلب، والعبد لم يُخلق لهذا بل خُلق لتتعلق محبته خالصة لخالقه عزَّ وجلّ.

أمَّا الأكل والشرب والحور والقصور في الجنة فهي نُزُلٌ - أي ضيافة لأولياء الله (١) -، ولأن الربَّ سبحانه كريم وذو فضل عظيم، ولأن المخلوق قد رُكِّبتْ فيه الشهوة للنساء والأكل والشرب ولأن قَوَام جسمه بذلك، فهذه شهوات ولذات كما في الدنيا، وغاية ما هناك أنها أرفع وأكمل وأجمل وأدْوم ولكن ليست هي في نفسها وذاتها غاية بحيث يقتصر الطلب والإرادة والهمّة عليها، فهذا ناقص جداً - كما ذكر ابن القيم -، ولذلك فإنَّ الملائكة عليهم السلام لا يأكلون ولا يشربون وليست لهم شهوة إلى النساء ومع هذا فهم في نعيم لا يبلغه وصْفنا من قربهم لربهم وحبهم له وشوْقهم إليه.

وقال ابن القيم - رحمه الله - في وصف العارف بربه: (أنه لا يقطعه عن طلب مَن نسبة هذا النعيم الدائم - يعني الحور العين ومآكل الجنة ومشاربها ومساكنها - إلى نعيم معرفته ومحبته **والأنس به** والفرح بقربه كنسبة نعيم الدنيا إلى نعيم الجنة)

---

(١) علو الهمة، محمد إسماعيل المقدم ص/٩

(٢) علو الهمة، محمد إسماعيل المقدم ص/٤٢

انتهى (٢)؛ فتأمل هذا وكيف وصف – رحمه الله – نعيم الجنة المخلوق بالنسبة إلى نعيم معرفة المعبود ومحبته سبحانه كنسبة نعيم الدنيا إلى نعيم الجنة المخلوق مع أن الفرق بين نعيم الدنيا ونعيم الجنة عظيم

---

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ (الكهف: ١٠٧) قال ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره ٣/ ١٠٩: ﴿نُزُلاً﴾ أي ضيافة.

(٢) مدارج السالكين، ٣/ ٩٣.." [1]

"جداً، ف (موضع سوط في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها) كما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (١)، وقال ابن القيم – رحمه الله – يصف الأنس بالإله الحق سبحانه: (**والأنس به** سبحانه أعلى من الأنس بما يرجوه العابد من نعيم الجنة) (٢).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (٣): (فيسيرٌ من رضوانه ولا يقال له " يسير " أكبر من الجنان وما فيها!) انتهى؛ فتأمل قوله: (أكبر من الجنان وما فيها)!.

وقال عثمان بن سعيد الدارمي – رحمه الله –: (فأما في الآخرة فما أكبر نعيم أهل الجنة إلا النظر إلى وجهه، والخيبة لمن حُرِمه!) (٤).

ثم ذكر أن الله تعالى (احتجب من خلقه لِيَبْلُوَ بذلك إيمانهم أيّهم يؤمن به ويعرفه بالغيب ولم يره، وإنما يجزي العباد على إيمانهم بالغيب، لأن الله عز وجل لو تبدّى لخلقه وتجلى لهم في الدنيا لم يكن لإيمان الغيب هناك معنى، كما أنه لم يكفر به عندها كافر، ولا عصاه عاص، ولكن احتجب عنهم في الدنيا ودعاهم إلى الإيمان به بالغيب وإلى معرفته والإقرار بربوبيته، ليؤمن به من سبقت له منه السعادة، ويحق القول على الكافرين، ولوْ قد تجلى لهم لآمن

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٠٧٨) ورقم (٦٠٥٢) عن سهل بن سعد الساعدي – رضي الله عنه –.

(٢) مدارج السالكين، ٣/ ٩٥.

(٣) سورة التوبة، من الآية: ٧٢.

(٤) الرد على الجهمية، ص (٦٤).." [2]

"وإذا كان **الأنس به** سبحانه في الدنيا – كما يقول ابن القيم (١) – أعلى من الأنس بما يرجوه العابد من نعيم الجنة فالأمر إذاً عظيم، والاقتصار على التعلق بالحور العين قصورٌ ونقص!.

ثم قال ابن القيم – رحمه الله –: (وإرادة السِّوَى (٢) توقف السالك وتنكس الطالب وتحجب الواصل، فإياك وإرادة السوى وإن علا!، " تأمل قوله: وإن علا " فإنك تُحجب عن الله بقدْر إرادتك لغيره، قال تعالى عن عباده المقربين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ

---

(١) منازل الحور العين في قلوب العارفين برب العالمين، عبد الكريم الحميد ص/٧

(٢) منازل الحور العين في قلوب العارفين برب العالمين، عبد الكريم الحميد ص/٨

لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾ (٣) انتهى (٤).

وليس المراد أن المؤمن لا يريد من الله، أو يَحتقر مَا عظَّمَه الله من نعيم الجنة كالحُور والمآكل والمساكن وغيرها، وإنما المقصود معرفة حقيقة العبودية وألاّ يحتجب العبدُ عن إرادة رَبِّه لذاته ولو لم يكن هناك جنةً ولا ناراً (٥).

ولو لم يوجب محبة الله عز وجل إلا أنه خالق العبد ومالكه وسيّده، كيف ما يتصف به سبحانه من صفات الجمال والكمال والقلوب مفطورة على حب الصُّوَر الجميلة لكن المؤمن مُتعَبَّد بغَضِّ بَصَره لئلاّ تَنْتَقِش

---

(١) في: مدارج السالكين، ٣/ ٩٤. (٢) ... السِّوَى هنا: أي ما سِوى الله سبحانه.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٩.

(٣) مدارج السالكين، ٣/ ٩٥.

(٤) كما جاء ذلك في أثرٍ إلَهيٍّ عظيم تقدم ذِكْره وذكر مَن أورده من أهل العلم في ص (٤).." [١]

"شاء، فمحبة العبودية هي أشرف أنواع المحبة، وهي خالص حق الله على عباده) انتهى (١).

ومن أعظم القواطع عن محبة الله وعبوديته العشق الذي قال فيه ابن القيم: (إنه شرك في المحبة وفراغ عن الله، وتمليك للقلب والروح والحب لغيره).

وقال – رحمه الله –: (فإن إفساد عشق الصور للقلب فوق كل إفساد، بل هو خمر الروح الذي يُسكرها ويصدها عن ذكر الله وحبه، والتلذذ بمناجاته، **والأنس به**؛ ويُوجب عبودية القلب لغيره، فإن قلب العاشق متعبّد لمعشوقه، بل العشق لُبّ العبودية، فإنها كمال الذل والحب والخضوع والتعظيم) انتهى (٢).

ولاشك أن التعلق بالدنيا والسُّفْلِيَّات وشِدَّة الرغبة فيها يُوثِق القلب ويقيّد الروح أنْ تصعد لمرادها الحق، فَتَجُول في العالَم السُّفلي المظلم الموحِش فلا تجد سوى الظلمة والوحشة، وتكون بذلك مُعذّبة بحسب قوة ذلك التعلق وضعفه.

قال شيخ الإسلام – رحمه الله –: (وكلما كان قلبه في محبة الله وذكره وطاعته كان معلقاً بالمحل الأعلى، فلا يزال في عُلوٍّ مادام كذلك، فإذا أذنب

---

(١) روضة المحبين، ص (٥٢).

(٢) زاد المعاد، ٣/ ١٥٤.." [٢]

"وكيف لا تلهج بذكره، ويصير حبه والشوق إليه **والأنس به** هو غذاؤها وقوتها ودواؤها ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب (٢٨)﴾ [الرعد: ٢٨].

وقد خلق الله الإنسان في ظاهره وباطنه في أحسن تقويم، وجعله كالمرآة العاكسة لتجليات الأسماء الحسنى، فهو مرآة لها.

---

(١) منازل الحور العين في قلوب العارفين برب العالمين، عبد الكريم الحميد ص/٢١

(٢) منازل الحور العين في قلوب العارفين برب العالمين، عبد الكريم الحميد ص/٣٩

ويظهر ذلك كما يلي:

أولا: كما أن الظلام سبب لرؤية النور، فكذلك الإنسان يعرف بجهله وضعفه، وعجزه وفقره، وحاجته وقصوره، يعرف بذلك قدرة القدير وقوته، وعلمه وغناه، ورحمته سبحانه.

ثانيا: أن ما وهب الله الإنسان من العلم والقدرة، والسمع والبصر، والملك والحكمة، وغيرها من الصفات الجزئية، يعرف منها الصفات المطلقة الكلية لله سبحانه، ويعلم أن لهذا الكون العظيم ملكا عظيما، يعلم ما فيه، ويدبره، ويسمع كل صوت فيه، ويبصر كل صغيرة فيه.

ثالثا: وكذلك الإنسان مرآة عاكسة للأسماء الحسنى، من حيث ظهور نقوشها الظاهرة عليه، فيعرف من كونه مخلوقا اسم الخالق، ويظهر من حسن تقويمه اسم الرحمن الرحيم، ومن حيث تربيته اسم اللطيف الكريم. وهكذا في بقية الأسماء.

والله سبحانه ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فصفاته سبحانه كاملة، وصفاتنا ناقصة، وهو منزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

فعلمه سبحانه ليس كعلم المخلوق، لأن علم المخلوق كله نقص، نقص في ابتدائه، لأنه مسبوق بجهل، ونقص في غايته، لأنه يلحقه النسيان، ونقص في شموله، لأنه قاصر لا يعلم كل شيء، وهكذا في بقية الصفات الذاتية.

وهو سبحانه منزه أن تكون صفاته الفعلية كصفات المخلوقين كالاستواء على." (١)

"وذلك كله يملأ القلب بالإيمان، ويوحي إليه بوجود الله، وبجلال الله، وتدبير الله، وبحكمة الله، وبعلم الله، وبرحمة الله.

فإذا كان الإنسان مهتديا بنور الله، إلى جوار هذه المعارف العلمية عن هذا الكون، زادته هذه المعارف من الزاد الذي يحصل من التأمل في هذا الكون **والأنس به**، والاشتراك معه في تسبيحه بحمد الله، ولا يفقه تسبيح كل شيء بحمد الله إلا الموصول قلبه بالله.

وأما إن كانت هذه المعارف العلمية غير موصولة بالله، وغير مصحوبة ببشاشة الإيمان ونوره، فإنها تقود الأشقياء إلى مزيد من الشقوة، والبعد عن الله، والحرمان من بشاشة الإيمان، وفقد **الأنس بالله**: ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون (١٠١)﴾ [يونس: ١٠١].

وماذا تجدي الآيات والنذر إذا استغلقت القلوب، وتجمدت العقول، وتعطلت أجهزة الاستقبال والتلقي في الفطرة، واحتجب الإنسان بجملته عن هذا الوجود، فلم يسمع ولم ير ولم يتدبر؟.

إن كتاب الله تبارك وتعالى مملوء بالتعريف بعظمة الرب سبحانه.

فقد جعل الله هذا الكون العظيم معرضا جميلا واسعا .. تتجلى فيه عظمة الخالق .. وعظمه أسمائه وصفاته .. وعظمه أفعاله .. وعظمة مخلوقاته .. في معرض كوني كبير .. مفتوح طول الحياة لعموم البشرية .. يتجولون فيه فيزيد إيمانهم .. وتقوى عباداتهم.

فلا يحرم من نظر إلى ذلك وتأمله من الإيمان إلا محروم: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٣٨٦/١

وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون (٣٠)﴾ [الأنبياء: ٣٠].

إن الفطرة البشرية بها حاجة ذاتية إلى التدين، وإلى الاعتقاد بإله، وحين تصح وتستقيم، تجد في أعماقها اتجاها إلى إله واحد، وإحساسا قويا بوجود هذا الإله الواحد، وذلك مركوز في الفطر، يوقظه ويحييه ويزيده، النظر في الآيات." (١)

"والإيمان له ظاهر وباطن:

فظاهره قول اللسان، وعمل الجوارح .. وباطنه تصديق القلب، وانقياده لربه، ومحبته له، **والأنس به**، وإخلاص العمل له.

فلا ينفع ظاهر لا باطن له وإن حقن الدماء، وعصم المال والذرية.

ولا يجزي باطن لا ظاهر له، إلا إذا تعذر مؤقتا بعجز أو إكراه أو خوف هلاك.

وتخلف العمل ظاهرا مع عدم المانع دليل على فساد الباطن، وخلوه من الإيمان، ونقصه دليل على نقصه، وظهور العمل الصالح دليل قوة الإيمان، وأكثر الناس، أو كلهم يدعون الإيمان: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون (١٠٦)﴾ [يوسف: ١٠٦].

وأكثر المؤمنين عندهم إيمان مجمل، وأما الإيمان المفصل بما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - معرفة وعلما، وإقرارا ومحبة، ومعرفة بضده وكراهيته، فهذا إيمان خواص الأمة من الأنبياء والصديقين.

وكثير من الناس حظهم من الإيمان الإقرار بوجود الله، وأنه وحده الذي خلق السموات والأرض وهذا لا يكفي.

وآخرون الإيمان عندهم هو النطق بالشهادتين، سواء كان معه عمل أو لم يكن، وسواء وافق تصديق القلب أو خالفه.

وآخرون الإيمان عندهم عبادة الله بحكم أذواقهم ومواجيدهم، وما تهواه نفوسهم، من غير تقيد بما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

وآخرون عندهم الإيمان مجرد تصديق القلب بأن الله سبحانه خالق السموات والأرض، وأن محمدا عبده ورسوله، وإن لم يقر بلسانه ولم يعمل شيئا.

وآخرون عندهم الإيمان ما وجدوا عليه آباءهم وأسلافهم بحكم الاتفاق كائنا ما كان، يرونه حقا يجب اتباعه: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير (٢١)﴾ [لقمان: ٢١].

وآخرون عندهم الإيمان مكارم الأخلاق، وطلاقة الوجه، وإحسان الظن بكل." (٢)

"والغضب كالسبع إذا أفلته صاحبه أكله وأهلك غيره.

والحسد بمنزلة معاداة من هو أقدر منك.

والكبر بمنزلة منازعة الملك ملكه، فإن لم يقتلك طردك عنه.

وللإيمان علامات .. وللكفر علامات .. وللنفاق علامات.

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١/٦٧٨

(٢) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١/٦٩٠

وعلامة الإيمان:

أن نتوجه دائما إلى الله في جميع أحوالنا، وفي حل مشاكلنا، ولا نتوجه إلى غيره مهما كان، فهو وحده خالق كل شيء، ومالك كل شيء، والقادر على كل شيء، وخزائنه مملوءة بكل شيء: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون (١٨٦)﴾ [البقرة: ١٨٦].

وبقدر المجاهدة من أجل الدين، الله يرزق العبد الإيمان واليقين.

وإذا نزل بنا حال من جوع، أو مرض، أو خوف، أو غيرها نتوجه إلى الله، ونعمل ما عمله النبي – صلى الله عليه وسلم – في تلك الحال، وبذلك يكشف الله ما نزل بنا من سوء أو بلاء، ويبدل ما نكره بما يحب، وما يسوؤنا بما يسرنا.

فعند الخسوف نتوجه إلى الله ونصلي.

وعند الجدب والقحط نتوجه إلى الله، ونطلب السقيا منه، ونصلي.

وكذلك عند المرض نتوجه إلى الله، ونسأله الشفاء، ثم نتناول الدواء.

فنتوجه إلى الله دائما في طلب الخير، ودفع الشر في جميع الأحوال الصغيرة والكبيرة، ولا نتوجه إلى المخلوق أبدا: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون (٦٢)﴾ [النمل: ٦٢].

ومن علامات الإيمان:

كثرة ذكر الله .. ولزوم الطاعات .. والنفرة من المعاصي .. ولذة مناجاة الرب .. **والأنس بالله** .. ومحبته .. ومحبة كلامه ورسله وأوليائه .. ومحبة دينه وشرعه ..." (١)

"والإحسان درجات، والمحسنون درجات، أفضلهم الأنبياء ثم أتباع الأنبياء.

وكان الأغنياء من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – يذهبون إلى الفقراء لإعطائهم الصدقات والزكاة، ولما فقدت الدعوة إلى الله قعد الأغنياء فجاء الفقراء إلى أبواب الأغنياء فحدث في المسلمين أربع آفات:

الكبر في الأغنياء .. والذلة في الفقراء .. وشكوى الخالق إلى المخلوق .. وانشغال الخلق بطلب ما تكفل الله به عن أداء ما أمر الله به.

وجاءت الذلة على المسلمين في أكثر بلاد الإسلام، ووقف أكثر الناس بأبواب المخلوقين ينشدون العزة والغنى عند الذليل الفقير، وتركوا باب الغني الحميد.

والناس يتفاوتون في **الأنس بالله**، والأنس بغير الله.

فالمؤمن أنسه بالله وطاعته وامتثال أمره ولذة مناجاته.

فمن وجد أنسه بالله في الوحدة، وفقده بين الناس فهو صادق ضعيف.

ومن وجده بين الناس، وفقده في الخلوة فهو معلول.

ومن فقده في الخلوة وبين الناس فهو ميت مطرود.

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١/٦٩٣

ومن وجده في الخلوة وبين الناس فهو المحب الصادق القوي في حاله.
ومن كان فتحه في الخلوة لم يكن مزيده إلا منها، ومن كان فتحه بين الناس بنصحهم وإرشادهم كان مزيده معهم.
والراغبون ثلاثة أقسام:
راغب في الله .. وراغب فيما عند الله .. وراغب عن الله.
فالمحب راغب في الله .. والعامل راغب فيما عند الله .. والراضي بالدنيا من الآخرة راغب عنه.
ولا صلاح للقلب ولا نعيم له إلا بأن تكون رغبته إلى الله عز وجل وحده في جميع أحواله.
ومن كانت رغبته في الله كفاه الله كل مهم، وتولاه في جميع أموره، ودفع عنه كل شر، وصانه من جميع الآفات، ومن آثر الله على غيره آثره الله على غيره،." (١)

"٢ – فقه اليقين

قال الله تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون (٢٤)﴾ [السجدة: ٢٤].
وقال الله تعالى: ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون (٢)﴾ [الرعد: ٢].
اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، فاليقين روح أعمال القلوب، التي هي روح أعمال الجوارح.
ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورا وإشراقا، وانتفى عنه كل ريب وشك، وكل سخط وحيرة، وكل هم وغم.
وإذا وصل اليقين إلى القلب امتلأ بمحبة الله .. والخوف منه .. والرضا به .. والشكر له .. والتوكل عليه .. والإنابة إليه .. والتوجه إليه .. **والأنس به** .. وعدم الالتفات إلى غيره.
واليقين لا يساكن قلبا فيه سكون لغير الله.
واليقين: هو ظهور الشيء للقلب بحيث يصير نسبته إليه كنسبة المرئي إلى العين .. فلا يبقى معه شك ولا ريب أصلا .. وهذا نهاية الإيمان وهو مقام الإحسان.
ومن علامات اليقين:
النظر إلى الله في كل شيء .. والرجوع إليه في كل أمر .. والاستعانة به في كل حال .. والالفتات إليه في كل نازلة .. **والإنس به** في كل وقت .. وإرادة وجهه في كل حركة وسكون .. وعدم الالتفات عنه إلى غيره في كل حال.
وإذا استكمل العبد حقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة، والرخاء عنده مصيبة؛ لأن البلاء يرده إلى معبوده، والرخاء يشغله عن معبوده غالبا.." (٢)

"وأما اللذة الوهمية الخيالية فلذة الرياسة، والتعاظم على الخلق، والفخر والاستطالة عليهم، وهذه وإن كان طلابها أشرف نفوسا من طلاب اللذة الأولى، فإن آلامها وما توجبه من المضار والمفاسد أعظم من التذاذ النفس بها.

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٧٧٨/١
(٢) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٧٨٧/١

فإن صاحبها منتصب ومستعد لمعاداة كل من تعاظم وترأس عليه، واحتقار من دونه.

فهذه في الحقيقة ليست بلذة، وإن فرحت بها النفوس وسرت بحصولها.

وربما قيل أنه لا حقيقة للذة في الدنيا وإنما غايتها دفع آلام، كما يدفع ألم الجوع والعطش وألم الشهوة بالأكل والشرب والجماع، وألم الخمول وسقوط القدر عند الناس بالرياسة والجاه، لكن لا ريب أن اللذة أمر وجودي يستلزم دفع الألم بما بينهما من التضاد.

وأما اللذة العقلية الروحانية، فكلذة العلم والمعرفة، والاتصاف بصفات الكمال، من الكرم والجود والعفة، والشجاعة والصبر، والمروءة والحلم ونحوها، فالالتذاذ بذلك من أعظم اللذات، وهو لذة للأنفس العلوية الشريفة.

فإذا انضمت اللذة بذلك إلى لذة المعرفة بالله ومحبته وعبادته والرضا به عوضا عن كل شيء، صاحب هذه اللذة في جنة عالية، نسبتها إلى لذات الدنيا كنسبة لذة الجنة إلى لذة الدنيا.

فإنه ليس للقلب والروح، ألذ ولا أطيب، ولا أحل ولا أنعم، من لذة محبة الله، والإقبال عليه، وعبادته ورؤيته **والأنس به**.

ومثقال ذرة من هذه اللذة لا يعدله أمثال الجبال من لذات الدنيا.

وأكمل الناس لذة من جمع له بين:

لذة القلب .. ولذة الروح .. ولذة البدن.

فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة، ولا يقطع عليه لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه.

فهذا ممن قال الله فيه: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل." (١)

"خسرهما جميعا.

ومعرفة الرب تعالى ومحبته، والإيمان به، وتوحيده، والعمل بطاعته، **والأنس به** .. أكمل نعيم للعبد في الدنيا والآخرة .. ولذة هذا النعيم بالنسبة للذات الدنيا بنسبة الذرة للجبل أو القطرة للبحر، وهو كالجنة بالنسبة لما سواه من النعيم.

وقد أشار النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى هذه الجنة بقوله: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة قال حلق الذكر» أخرجه أحمد والترمذي (١).

ولذات الدنيا متاع وسبيل إلى لذات الآخرة، ولذلك ما خلقت الدنيا لذاتها، بل للتزود منها، والاستعانة بما فيها على طاعة الله وعبادته، فكل لذة أعانت على لذة الآخرة، وأوصلت إليها، لم يذم تناولها، بل يحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة.

وإذا علم العبد هذا، فليعلم أن أعظم نعيم الآخرة ولذاتها النظر إلى وجه الله جل جلاله، وسماع كلامه، والقرب منه كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: «فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» أخرجه مسلم (٢).

وأعظم الأسباب التي تحصل هذه اللذة، هو أعظم لذات الدنيا على الإطلاق، وهي لذة معرفته سبحانه، ولذة محبته، فإن ذلك هو لذة الدنيا ونعيمها العالي.

وأطيب ما في الدنيا معرفته سبحانه ومحبته، وألذ ما في الجنة رؤيته ومشاهدته، فمحبته ومعرفته قرة العيون، ولذة الأرواح،

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١٠٣٦/١

وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها.

فليست الحياة الطيبة إلا بالله ولله، والروح والقلب والبدن إنما خلقت لعبادة الله، والتلذذ بطاعته ومناجاته والقرب منه.

والطيبات نوعان:

---

(١) حسن: أخرجه أحمد برقم (١٢٥٥١)، انظر السلسلة الصحيحة رقم (٢٥٦٢).

وأخرجه الترمذي برقم (٣٥١٠)، صحيح سنن الترمذي رقم (٢٧٨٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٨١).." [1]

"والثانية: معرفة توجب الحياء من الله، والمحبة له، وتعلق القلب به، والشوق إليه، **والأنس به**، ومحبته، والإنابة إليه، والفرار من الخلق إليه.

وهذه أعلى المعارف وأعظمها، وتفاوت الخلق فيها لا يحصيه إلا الذي عرفهم بنفسه، وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم.

وكل يعبد الله ويطيعه ويتلذذ بذلك بحسب تلك المعرفة، وما كشف له منها، وقد قال أعرف الخلق به: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» أخرجه مسلم (١).

وأشعة لا إله إلا الله تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه، فلها نور في القلوب، وتفاوت أهلها في ذلك النور لا يحصيه إلا الله عز وجل.

فمن الناس من نور (لا إله إلا الله) في قلبه كالشمس .. ومنهم من نورها في قلبه كالقمر .. ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري .. ومنهم من نورها في قلبه كالمشعل العظيم .. ومنهم من نورها في قلبه كالسراج المضيء .. وآخر كالسراج الضعيف .. وهكذا.

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار، بحسب ما في قلوب المؤمنين من نور هذه الكلمة.

وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته، حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معه شبهة، ولا شهوة، ولا ذنبا إلا أحرقه، وهذا حال الصادق في توحيده الذي لم يشرك بالله شيئا.

فأي شبهة، أو شهوة أو ذنب أو معصية دنت من هذا النور أحرقها، فسماء إيمانه قد حرست من كل سارق لحسناته، فلا ينال منها السارق إلا عند غفلته، فإذا استيقظ وعلم ما سرق منه استنقذه من سارقه، أو حصل أضعاف مكسبه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٨٦).." [2]

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١/١٠٣٨

(٢) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٢/١٠٩٦

"الدنيا إلا متاع الغرور (٢٠)﴾ [الحديد: ٢٠].

فحل المال مكان الإيمان .. وحلت الشهوات مكان الأعمال .. وأعمال الدنيا مكان أعمال الدين .. فقام سوق الدنيا .. وتعطل سوق الدين عند كثير من المسلمين .. فنزلت بهم من الله المحن والشدائد: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا (٥٩)﴾ [مريم: ٥٩].

ومتى رأيت العقل يؤثر الفاني على الباقي فاعلم أنه قد مسخ.

ومتى رأيت القلب قد ترحل عنه حب الله، والاستعداد للقائه، وحل فيه حب المخلوق، والرضا بالحياة الدنيا فاعلم أنه قد خسف به.

ومتى رأيت نفسك تهرب من **الأنس بالله** إلى الأنس بالخلق، ومن الخلوة مع الله إلى حب الخلوة مع غيره، فاعلم أنك لا تصلح له.

والموجودون الآن من بني آدم أربعة أصناف:

الصنف الأول: مؤمنون بالله، تعلموا الدين، وعملوا بالدين، ودعوا إلى الدين، بنية النبي، وبيقين النبي، وبفكر النبي، وبترتيب النبي، فهؤلاء خير القرون، ونصرة الله معهم، وفي مقدمتهم الصحابة رضي الله عنهم.

الثاني: مؤمنون صالحون، لكنهم لا يقومون بالدعوة، فهم قانعون بالأعمال الصالحة، فالله يعطيهم في الدنيا حياة طيبة بقدر ما عملوا، وفي الآخرة لهم الجنة.

لكن في الدنيا إذا جاءت الأحوال والمصائب فغالبا لا يستطيعون حفظ أنفسهم من الفتن.

الثالث: مسلمون، ولكنهم غارقون في المعاصي والمحرمات.

وهؤلاء مقلدون للكفار، يحبون معاشرتهم، فهم عبيد لهم، ولشهواتهم.

الرابع: كفار ومشركون، وهؤلاء يبقون في الدنيا إلى آجالهم، ولكن إذا آذوا وقاتلوا الصنف الأول، فالله ينصر المؤمنين عليهم، ولو كانوا قليلي العدد والعدة.." (١)

"وقد خلق الله عز وجل في كل إنسان ثلاث أوان أساسية وهي:

الدماغ ... والقلب .. والمعدة.

فالدماغ آنية العقل والعلم .. والقلب آنية الإيمان والتوحيد .. والمعدة آنية الطعام والشراب .. فلكل آنية غذاء .. ولك غذاء ثمرة.

فالقلب محل الإيمان والتصديق، واليقين والتعظيم لرب العالمين، والخوف منه، والتوكل عليه، ومحبته **والأنس به**، ومعرفته، والانقياد له، والتسليم له سبحانه.

ولذا صار القلب محل نظر الله من العبد، كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» أخرجه مسلم (١).

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١٢٢١/٢

وأصل العلم الذي يورث العمل .. ويوجب خشوع القلب .. وخشيته لربه .. ومحبته له .. والقرب منه .. **والأنس به** .. والإقبال عليه .. ولزوم طاعته .. هو العلم بالله .. وهو معرفة أسمائه وصفاته .. وآلائه ونعمه .. وصفات جلاله وجماله .. ثم معرفة وعده ووعيده .. وماذا أعد الله من النعيم للمتقين .. وماذا أعد من العذاب للمجرمين.

ثم يتلوه العلم بأحكام الله .. وما يحبه ويرضاه من العبد من قول أو عمل أو حال أو اعتقاد .. ويستقيم على ذلك إلى أن يموت.

ومن فاته هذا العلم النافع، وقع في الأربع التي استعاذ منها النبي – صلى الله عليه وسلم – بقوله: «اللهم! إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها» أخرجه مسلم (٢).

والله تبارك وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم .. خلق القلب للإنسان يعلم به الأشياء .. وخلق العين يرى بها الأشياء .. وخلق الأذن يسمع بها الأصوات .. وخلق العقل يعقل به الأشياء ..

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٢٢).." [1]

"والسرور، وقرة العين، فوق ما يحصل لهم من التمتع بالأكل والشرب، والحور العين، ولا نسبة بين اللذتين والنعمتين البتة.

وكما أنه لا نسبة لنعيم ما في الجنة، إلى نعيم النظر إلى وجه الأعلى سبحانه، فكذلك لا نسبة لنعيم الدنيا إلى نعيم محبته ومعرفته والشوق إليه، **والأنس به.**

قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: «إن الله يقول لأهل الجنة، يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك، ربنا! وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى؟ يا رب! وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب! وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدا» متفق عليه (١).

والمخلوق كله، كبيره وصغيره، قويه وضعيفه، ليس عنده للعبد نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل.

بل الله الواحد القهار هو الذي يملك كل ذلك وحده دون سواه.

والعبد ضعيف مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره، وإلى من يجلب له منافعه برزقه، فلا بد له من ناصر ورازق، والله وحده هو الذي ينصر ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين.

ومن كمال إيمان العبد أن يعلم أن الله إذا مسه بسوء، لم يرفعه عنه غيره، وإذا ناله بنعمة، لم يرزقه إياها سواه.

وهذا يقتضي من العبد التوكل على الله، والاستعانة به، ودعاؤه وسؤاله وحده دون سواه، ومحبته وعبادته، لإحسانه إلى

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١٢٨٢/٢

عبيده، وإسباغ نعمه عليهم.

فإذا أحبوه وعبدوه وتوكلوا عليه، فتح الله لهم من لذيذ مناجاته، وعظيم الإيمان به، والإنابة إليه، ما هو أحب إليهم من قضاء حاجاتهم: ﴿وإن يمسسك الله بضر

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٥٤٩)، ومسلم برقم (٢٨٢٩)، واللفظ له.." [١]

"الأحوال.

والسرور على ثلاث مراتب:

الأولى: سرور ذوق طعم الإيمان، والإقبال على الله، **والأنس به**، وحلاوة مناجاته، والتلذذ بعبادته.

ففي القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا **الأنس بالله**، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفة الله، وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الالتجاء إليه، والفرار منه إليه.

وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه، والتسليم لقضائه وقدره، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره.

الثانية: سرور شهود العبد آلاء ربه ونعمه، وجماله وجلاله، فيقبل على الطاعات مسرورا، لأنه يراها غذاء لقلبه، وسرورا له، وقرة عين في حقه، ونعيما لروحه، يلتذ بها، ويتنعم بملابستها، أعظم مما يتنعم بملابسة الطعام والشراب.

فاللذات القلبية الروحانية أقوى وأتم من اللذات الجسمية، فلا يجد في العبادات كلفة، بل يسر بها، ويتلذذ بتكرارها والإكثار منها.

الثالثة: سرور سماع الإجابة، وهو سماع انقياد القلب والروح والجوارح لما سمعته الآذان، ويزيل بقايا الوحشة التي سببها ترك الانقياد التام.

وهو إذا دعا ربه سبحانه فسمع ربه دعاءه سماع إجابة، وأعطاه ما سأله أو أعطاه خيرا منه، حصل له بذلك سرور يمحو من قلبه آثار ما كان يجده من وحشة البعد.

فللعطاء والإجابة سرور وأنس وحلاوة في قلب العبد.

وللمنع وحشة ومرارة وضيق.

والفرح أعلى أنواع نعيم القلب ولذته وبهجته، ولا لذة له ولا سرور إلا بأن يكون ربه معبوده ومحبوبه ومطلوبه.

والفرح بالشيء فوق الرضا به، فإن الرضا طمأنينة وسكون وانشراح، والفرح." [٢]

"١٨ - علامات مرض القلب وصحته

قال الله تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١٢٩٢/٢

(٢) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١٣٣٩/٢

(١٢٤) وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون (١٢٥)﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

وقال الله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا (٦١)﴾ [النساء: ٦١].

خلق الله تبارك وتعالى كل عضو من أعضاء البدن لفعل خاص به، وجعل كماله في حصول ذلك الفعل منه.

ومرضه أن يتعذر عليه الفعل الذي خلق له، حتى لا يصدر منه، أو يصدر مع نوع من الاضطراب والنقص.

فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين أن يتعذر عليها النظر والرؤية، ومرض اللسان أن يتعذر عليه النطق، ومرض البدن أن تتعذر عليه حركته الطبيعية، أو يضعف عنها.

ومرض القلب أن يتعذر عليه ما خلق له من المعرفة بالله، ومحبته، والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك على جميع شهواته.

فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئا.

ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها، ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه، **والأنس به**، فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين.

بل إذا كان قلب العبد خاليا عن ذلك، عادت تلك الحظوظ واللذات عذابا له ولا بد، فيصير معذبا بنفس ما كان منعما به من جهتين:

من جهة حسرة فوته، وأنه حيل بينه وبينه مع شدة تعلق روحه به.

ومن جهة فوت ما هو خير له وأنفع وأدوم، حيث لم يحصل له.

وكل من عرف الله عز وجل أحبه، وأخلص له العبادة، ولم يؤثر عليه شيئا من." (١)

"ومن علامات أمراض القلوب عدولها عن الأغذية النافعة الموافقة لها إلى الأغذية الضارة .. وعدولها عن دوائها النافع إلى دائها الضار.

والقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي، والقلب المريض بضد ذلك، يؤثر الضار المهلك على النافع الشافي.

وأنفع الأغذية غذاء الإيمان .. وأنفع الأدوية دواء القرآن .. وكل منهما فيه الغذاء والدواء، والشفاء والرحمة.

ومن علامات صحة القلب أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة، ويحل فيها حتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها، جاء إلى هذه الدار غريبا يأخذ حاجته ويعود إلى وطنه كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك. أخرجه البخاري (١).

وكلما صح القلب من مرضه، ترحل إلى الآخرة، وقرب منها حتى يصير من أهلها، يعمل بأعمالها، ويجني من ثمارها.

وكلما مرض القلب واعتل، آثر الدنيا واستوطنها، حتى يصير من أهلها.

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١٣٦٧/٢

ومن علامات صحة القلب، أنه لا يزال يضرب على صاحبه، حتى ينيب إلى الله، ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه الذي لا حياة له ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه **والأنس به.**

ومن علامات صحته كذلك أن لا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره إلا بمن يدله عليه، ويذكره به.

ومن علامات صحته أنه إذا فاته فرض من فرائض الله، أو فاته ورده، وجد لفواته ألما عظيما، أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٦).." [(١)]

"السلطان الغاشم، وقوى المال الفاتن، وقوى الحديد والنار، فإذا هي كلها تنهزم أمام العقيدة الدافعة في روح الفرد المؤمن المتصل بربه.

وما هو الفرد الفاني المحدود الذي هزم تلك القوى جميعا، ولكنها قوة الله التي استمدت منها تلك الروح، والينبوع المتفجر الذي لا ينضب ولا ينحسر: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم (١٧)﴾ [الأنفال: ١٧].

إنها المنة الكبرى على العباد، منة الإيمان التي لا يملكها ولا يهبها إلا الله وحده، لمن يعلم أنه مستحق لها، وأهل للقيام بشكرها.

وماذا فقد من وجد **الأنس بالله** بالإيمان الذي يصله بربه، وقطع رحلته على هذه الأرض في ظلال شريعة الله وهداها.

وماذا وجد من فقد ذلك، ولو تقلب في أعطاف النعيم، وتمتع وأكل كما تأكل الأنعام، والأنعام أهدى منه، لأنها تعرف بفطرتها الإيمان، وتهتدي به إلى بارئها الكريم: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا (٤٤)﴾ [الفرقان: ٤٤].

والله تبارك وتعالى بالآيات الكونية، والآيات الشرعية، ينبه العقل الغافل، ويوقظه لمعرفة عظمة هذا الكون، وتناسقه وجماله، ومعرفة الخالق العظيم الذي أبدعه: ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان (٧) ألا تطغوا في الميزان (٨)﴾ [الرحمن: ٧، ٨].

فإلى جانب هذه العظمة في رفع هذه السماء الهائلة الواسعة، المملوءة بالمخلوقات التي تعبد ربها وتطيعه، وضع سبحانه الميزان، ميزان الحق وضعه ثابتا راسخا مستقرا رحمة بالعباد.

وضعه منهج حياة لتقدير القيم، قيم الأشخاص والأحداث، كي لا يختل تقويمها، ولا يضطرب وزنها، ولا تتبع الجهل والغرض والهوى.

وضعه في الفطرة، ووضعه في هذا المنهج الإلهي الذي جاءت به الرسل." [(٢)]

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٢/١٣٦٩

(٢) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٢/١٤٧٩

"الثاني: معرفة توجب الحياء منه، والمحبة له، وتعلق القلب به، والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، وخشيته، **والأنس به**، والفرار من الخلق إليه، والتوكل عليه وحده، والناس فيها متفاوتون.

ولهذه المعرفة بابان واسعان:

الأول: باب التفكر والتأمل في آيات القرآن، والفهم الخاص عن الله ورسوله.

الثاني: باب التفكر في آياته المشهودة وتأمل حكمة الله فيها، ومعرفة عظمته في بديع صنعها.

وجماع ذلك: الفقه في أسمائه وصفاته سبحانه، والفقه في أوامره ونواهيه، والفقه في قضائه وقدره، فمن أوتيه فليحمد الله بالعمل به، والدعوة إليه: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٤)﴾ [الجمعة: ٤].

ومن رحمة الله بعباده أن أرسل إليهم الرسل بآيات تبين الحق وتظهره، وتوضح المشكل، وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار، يرى بها الإنسان كل شيء جليا كما قال سبحانه: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ (١٠٤)﴾ [الأنعام: ١٠٤].

فيا أيها الإنسان .. عش ما شئت فإنك ميت .. وأحبب من شئت فإنك مفارقه .. واعمل ما شئت فإنك ملاقيه: ﴿إن إلينا إيابهم (٢٥) ثم إن علينا حسابهم (٢٦)﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

وكمال الإنسان لا بذاته، بل بإيمانه وعلمه وعمله، وأشرف العلوم وأجلها وأكملها وأزكاها:

العلم بالله وأسمائه وصفاته .. والعلم بدينه وشرعه.

فالأول معرفة المعبود، والثاني معرفة ما يتقرب به العبد إلى المعبود، ولا بد لكل عبد من هذا وهذا كل يوم.

الأول فيه غذاء قلبه وروحه، والثاني فيه عبودية بدنه وجوارحه.

وبذلك يكمل ظاهر الإنسان وباطنه، وسره وعلانيته، وقلبه وبدنه، ويسعد في." (١)

"والمعرفة حياة القلب مع الله **والأنس به**، وعبادته بما يرضيه.

والمعرفة على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: معرفة أسماء الله وصفاته، فلا يستقر للعبد قدم في المعرفة ولا في الإيمان حتى يؤمن بصفات الرب جل جلاله، ويعرفها معرفة تخرجه عن حد الجهل بربه.

فالإيمان بالأسماء والصفات هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان.

ولما كان أحب الأشياء إلى الله مدحه وحمده والثناء عليه بأسمائه وصفاته وأفعاله، كان إنكارها وجحدها أعظم الإلحاد والكفر بالله، وهو شر من الشرك وأقبح.

فإنه لا يستوي جحد صفات الملك وحقيقة ملكه، والتشريك بينه وبين غيره في الملك.

فالمعطلون أعداء الرسل بالذات، بل كل شرك في العالم فأصله التعطيل، فإنه لولا تعطيل كماله أو بعضه وظن السوء به لما أشرك به.

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٢/١٥٠٤

كما قال إبراهيم – صلى الله عليه وسلم – لقومه: ﴿أئفكا آلهة دون الله تريدون (٨٦) فما ظنكم برب العالمين (٨٧)﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧].

أي ما الذي ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء؟.

أظننتم أنه محتاج إلى الشركاء والأعوان؟.

أم ظننتم أنه يخفى عليه شيء من أحوال عباده حتى يحتاج إلى شركاء تعرفه كالملوك؟.

أم ظننتم أنه لا يقدر وحده على استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم؟.

أم هو قاس فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عباده؟.

أم هو ذليل محتاج إلى أولياء يتكثر بهم من قلة، ويتعزز بهم من ذلة؟.

أم يحتاج إلى ولد يساعده ويرث عنه ملكه، فيتخذ صاحبة يكون له الولد منها ومنه؟.." (١)

"قلبه وجوارحه متحركة فيما يرضي ربه .. مجتنبة لما يسخطه .. وألذ شيء لديه خلوته بربه والقيام بين يديه.

مسبحا له تارة .. ومكبرا له تارة .. وحامدا له تارة .. ومستغفرا له تارة .. وسائلا له تارة ... ومعظما له تارة.

فإذا حصل له ذلك فتح له باب حلاوة العبادة، بحيث لا يكاد يشبع منها، إذ يجد فيها اللذة والراحة.

فإذا دخل في الصلاة ود أن لا يخرج منها؛ لأنه يناجي مولاه، ويعبد الله كأنه يراه.

ثم يفتح له باب حلاوة استماع كلام الله وتلاوته فلا يشبع منه.

ثم يفتح له باب شهود عظمة الله المتكلم به، وعظمة أسمائه وصفاته، وجلاله وجماله.

ثم يفتح له باب الحياء من الله فيستحي منه، ويرزق دوام المراقبة للرقيب.

ثم يفتح له باب الشعور بالقيومية، فيرى تقلبات الكون وتصاريف الوجود بيده سبحانه فيتخذه وكيلا، ويرضى به مدبرا وكافيا.

وهكذا يترقى من معرفة إلى معرفة، ومن عمل إلى آخر، ومن منزلة إلى منزلة، حتى يلقى ربه مجاهدا صابرا محتسبا.

ومعرفة الله عز وجل تقوم على ثلاثة أركان:

الهيبة .. والحياء .. والأنس.

فإذا عرف قدرة الله وقوته وعظمته وجلاله جاءت عنده صفة الهيبة.

وإذا عرف نعم الله عليه وعلى غيره مع قلة الشكر، وكثرة المعاصي، جاء عنده الحياء.

وإذا عرف لطف الله ورحمته، وكرمه وجوده، وإنعامه وإحسانه، جاء عنده **الأنس بالله**، والوحشة من الخلق.

وليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم الآخرة إلا نعيم الإيمان بالله، والمعرفة به،." (٢)

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١٥١٥/٢

(٢) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١٥٢٢/٢

"أما من جهة نفسه:
فعليه أن يعتني بحفظ وفهم الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة، وكلام أهل العلم، وأن يخلص لله ويراقبه ويتقيه، ويعمل بما علم، وأن يكون هدفه إرضاء الله عز وجل، وأداء الواجب، وبراءة الذمة، ونفع الناس.
ولا يهدف بعلمه وعمله إلى مال ولا عرض من الدنيا، ولا يهدف للرياء والسمعة.
فطالب العلم له موقف مع ربه بالصدق والإخلاص، وله موقف مع نفسه بالعلم والعمل، وله موقف مع غيره بالتعليم وحسن الخلق.
وقبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده، وهذا كما أنه معلوم مشاهد في الذوات والأعيان فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات.
فإذا كان القلب مملوءا بالباطل اعتقادا ومحبة لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع.
وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير طاعة الله، لم يمكن شغلها بالطاعة إلا إذا فرغها من ضدها.
فكذلك قلب الإنسان المشغول بمحبة غير الله وإرادته، والشوق إليه **والأنس به**، لا يمكن شغله بمحبة الله وإرادته والشوق إليه إلا بتفريغه من تعلقه بغيره، ولا يمكن شغل حركة اللسان بذكره، والجوارح بخدمته، إلا إذا فرغها من ذكر غيره وخدمته.
فإذا امتلأ القلب بالشغل بالمخلوق، والعلوم التي لا تنفع، لم يبق فيه موضع للشغل بالله، ومعرفة أسمائه وصفاته وأحكام دينه.
وإذا امتلأ القلب بالشبه والشكوك والخيالات، والعلوم التي لا تنفع، والمفاكهات والمضحكات والحكايات ونحوها، ثم جاءته حقائق القرآن، والعلم الذي به كماله وسعادته، فلم تجد فيه فراغا لها ولا قبولا تعدته وتجاوزته إلى محل سواه.." (١)
"إن الإيمان كله خير، فها هو يجلب النفع، ويدر الضرع، وينمي الزرع، ويربح التجارة.
وإن اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا بالبلاء الذي أصابه فلم يصبر عليه، ولم يتماسك له، ولم يرجع إلى الله فيه. وخسر الآخرة بردته وانقلابه على وجهه، وانكفائه عن عقيدته، وانتكاسه عن الهدى الذي كان ميسرا له.
والمؤمن يعبد ربه شكرا له على هدايته له، وعلى اطمئنانه للقرب منه، **والأنس به**، ولمعرفته بجلاله وجماله وكماله يتوجه إليه بالعبادة وحده دون سواه.
فإن كان هناك جزاء من الرب لعبده فهو فضل من الله ومنة، لا استحقاقا على الإيمان والعبادة، فإن الإنسان كغيره عبد لله، والعبد مملوك لسيده، ومنعم عليه بجزيل النعم، وماذا عساه أن يؤدي شكر نعمة من النعم التي لا تحصى: ﴿وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار (٣٤)﴾ [ابراهيم: ٣٤].
والمؤمن لا يجرب إلهه فهو قابل ابتداء لكل ما يقدره له، مستسلم ابتداء لكل ما يجريه عليه، راض ابتداء بكل ما يناله من السراء والضراء، وليست هي صفقة في السوق بين بائع وشار، إنما هي إسلام المخلوق للخالق، وهناك السعادة والسلامة: ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١١٢)﴾ [البقرة: ١١٢].

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١٥٣٥/٢

والذي ينقلب على وجهه عند مس الفتنة يخسر الخسارة التي لا شبهة فيها ولا ريب، يخسر الطمأنينة والثقة والهدوء والرضى، إلى جوار خسارة المال أو الولد أو الصحة أو غيرها مما يفتن الله بها عباده، ويبتلي بها ثقتهم فيه، وصبرهم على بلائه، وإخلاصهم أنفسهم له، واستعدادهم لقبول قضائه وقدره.

ويخسر الآخرة وما فيها من نعيم وقربى ورضوان، فيا له من خسران، بل ذلك هو الخسران المبين.

فما أضل من يرتد على وجهه عند حصول الفتن، حيث أعرض عن ربه الذي." (١)

"إليه، **والأنس به**، والوحشة من غيره.

وكما أن القلب إذا أبغض شيئا وكرهه جد في الهرب منه، وإذا أحب شيئا جد في المسارعة إليه وطلبه.

ويوصف الله عز وجل بالمحبة ولا يوصف بالشوق؛ لأنه لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة، وكل من عرف ربه أحبه، ومن أحبه اشتاق إليه وإلى لقائه.

ولا محبوب في الحقيقة إلا الله سبحانه، ولا مستحق للمحبة التامة سواه.

فالإنسان يحب نفسه وبقاءه وكماله، ويكره ضد ذلك، وهذه جبلة كل حي، وهذا يقتضي غاية المحبة لله عز وجل.

فإن الإنسان إذا عرف ربه عرف قطعا أن وجوده ودوامه وكماله من الله، فهو عدم محض لولا فضل الله عليه بإيجاده، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل.

فمن عرف ربه أحبه، وكيف يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟." (٢)

"الثانية: الانقطاع عن النفس بمجانبة الهوى، وتنسم روح **الأنس بالله** عز وجل، فالنفس لا بد لها من التعلق، فلما انقطع تعلقها من هواها وجدت روح **الأنس بالله**، فأبصرت جمال وجلال معبودها، وطريقة الوصول إليه، وما أعده من النعيم لأوليائه.

وأدركت عيوب النفس وآفات الأعمال ومفسداتها، فانقطعت لربها ومولاها، الذي هو نعم المولى ونعم النصير.

الثالثة: الإعراض عما سوى الله، ولزوم الإقبال عليه، والاشتغال بمحابه، فلما كانت الدرجة الأولى انقطاعا عن الخلق، والثانية انقطاعا عن النفس، فالثالثة طلبا للسبق، وذلك بتصحيح الاستقامة بالإقبال على الله، وأن يشغله طلب الوصول إليه عن كل شيء، ويعلم أن قيام الخلق كلهم بالحق وحده، وقيامه عليهم بالربوبية والتدبير والتصريف.

الرابعة: انقطاع العبد عن مراده من ربه إلى مراد ربه منه، فلا يريد منه، بل يريد ما يريده الله منه من عبادته، وطاعته وتوحيده، منقطعا بذلك عن كل إرادة.

فيعبد ربه بما شرع، ويستعين به في جميع أموره، ويوحده بذلك كله، مريدا بذلك وجهه، منقطعا بذلك عن كل حظ ومراد يزاحم حق ربه ومراده.

فالتبتل معناه: الانقطاع إلى الله بالكلية بعيدا عن ملاحظة الأعواض، فالمتبتل ليس كالأجير الذي لا يخدم إلا لأجل الأجرة،

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١٧٤١/٢

(٢) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١٧٧٢/٢

فإذا أخذها انصرف عن باب المستأجر، بخلاف العبد فإنه يخدم بمقتضى عبوديته لا من أجل الأجرة ﴿فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين (٩٨) واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (٩٩)﴾ [الحجر: ٩٨، ٩٩].." [1]

"ففي المنع نقصان جاهه، وفي البذل نقصان ماله، وكلاهما مؤذيان، والسائل هو السبب في الإيذاء، وأذى المسلم محرم.

والفقراء أربعة:

فقير لا يسأل، وإن أعطي لا يأخذ، فهذا بأرفع المنازل.

وفقير لا يسأل، وإن أعطي أخذ، فهذا دونه.

وفقير يسأل عند الحاجة، فهذا دونه .. وهؤلاء كلهم محمودون.

وفقير يسأل من غير حاجة وضرورة، فهذا مذموم، وصاحبه مأزور غير مأجور.

قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: «من سأل الناس أموالهم تكثرا، فإنما يسأل جمرا، فليستقل أو ليستكثر» أخرجه مسلم (١).

وحب الدنيا رأس كل خطيئة، ومقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد، ويسمى ذلك فقرا، وإما بانزواء العبد عنها، ويسمى ذلك زهدا.

ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادة.

والدنيا ليست محذورة لعينها، بل لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى.

والفقر ليس مطلوبا لعينه، بل لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى، وعدم التشاغل به، وكم من غني شغله غناه عن ربه؟ وعن تنفيذ أوامره؟

وكم من فقير شغله فقره عن ربه، وعن امتثال أوامره؟ وصرفه عن حب الله **والأنس به**، وإنما الشاغل له حب الدنيا، والدنيا معشوقة الغافلين.

فالمحروم منها مشغول بطلبها .. والقادر عليها مشغول بحفظها وجمعها والتمتع بها، وتنميتها والاستكثار منها.

والفقير عن الخطر أبعد، وفراق المحبوب شديد، فإذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى، فيكون قدومك بعد الموت على ما تكرهه، وفراقك لما تحبه.

وكل من فارق محبوبا كان أذاه في فراقه بقدر حبه له وأنسه به، فعلى العاقل أن

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠٤١).." [2]

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١٨٨١/٢

(٢) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١٩١٥/٢

"الواجب، أو فعل المحرم خوفا منه، وهكذا الخوف من غير الله على وجه العبادة لغيره، واعتقاد أنه يعلم الغيب، أو يتصرف في الكون، أو ينفع أو يضر بغير مشيئة الله، كما يفعل المشركون مع آلهتهم.

وأسباب الخوف كثيرة:

فقد يكون الخوف بسبب جناية قارفها الخائف.

وقد يكون عن صفة في المخوف كمن وقع في مخالب سبع.

وقد يكون الخوف من صفة جبلية للمخوف منه كخوف من وقع في مجرى سيل، أو جوار حريق، فالماء من طبيعته الإغراق، والنار من طبيعتها الإحراق.

وكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى، ومعرفة صفاته، وأنه لو أهلك العالمين لم يبال، ولم يمنعه مانع.

وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي.

وتارة يكون بهما جميعا.

فإذا كملت معرفة العبد بربه أورثت جلال الخوف، واحتراق القلب، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن، وعلى الجوارح، وعلى الصفات. وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره على الأعمال أن يمنع عن المحظورات والمحرمات والشبهات.

ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه، ولا وصول إلى ذلك في الآخرة إلا بمحبته **والأنس به** في الدنيا، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة ولا تتم المعرفة إلا بالعمل ودوام الفكر، وانقطاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها، ولا يمكن ترك ذلك إلا بقمع الشهوات، ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف الذي يحرق كل شهوة.

فالخوف هو النار المحرقة للشهوات، وفضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات، وبقدر ما يكف عن المعاصي، ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف.." (١)

"والخوف قد يكون من الجاهل، وأيضا الخشية تكون بسبب عظمة المخشي، بخلاف الخوف فقد يكون من ضعف الخائف لا من قوة المخوف.

وكلما قوي إيمان العبد زاد خوفه، وزال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم، والشيطان يكيد ابن آدم بذلك كما قال سبحانه: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين (١٧٥)﴾ [آل عمران: ١٧٥].

والله عز وجل هو المقرب والمبعد، فليحذر القريب من الإبعاد، والمتصل من الانفصال، يعلم من يصلح للقرب منه، ومن لا يصلح كما قال سبحانه:

﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم (٢٣٥)﴾ [البقرة: ٢٣٥].

والله عز وجل غيور، لا يرضى ممن عرفه ووجد حلاوة معرفته، واتصل قلبه بمحبته، **والأنس به** أن يكون له التفات إلى غيره

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١٩٨٣/٢

البتة.

ومن غيرته سبحانه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والله سبحانه يغار أشد الغيرة على عبده أن يلتفت إلى غيره.

فإذا أذاق عبده حلاوة محبته، **والأنس به**، ثم ساكن غيره، باعده من قربه، وقطعه من وصله، وأوحش سره، وألبسه رداء الذل والصغار والهوان.

فإذا ضرب هذا القلب بسوط البعد والحجاب، وسلط عليه من يسومه سوء العذاب، وملئ من الهموم والغموم والأحزان، وصار محلا للجيف والأقذار، وبدل بالأنس وحشة، وبالعز ذلا، وبالقرب بعدا، كان هذا بعض جزائه.

فحينئذ تطرقه الطوارق والمؤلمات، وتعتريه وفود الأحزان والهموم بعد وفود المسرات.

ومن عرف ربه، وذاق حلاوة قربه ومحبته، ثم رجع عنه إلى مساكنة غيره، ثبط جوارحه عن طاعته، وعقل قلبه عن إرادته ومحبته، وأخره عن محل قربه،." (١)

"فمن ذاق حلاوة الإيمان بمعرفة الله، والقرب منه، **والأنس به**، لم يكن له أمل في غيره، وإن تعلق أمله بسواه فهو لإعانته على مرضاته ومحابه، فهو يؤمله لأجله، لا يؤمله معه.

والذي يقطع هذا الأمل قوة رغبته في المطلب الأعلى، الذي ليس شيء أعلى منه، ومعرفة خسة الدنيا وسرعة زوالها، فإن نعيم الدنيا بحذافيرها جنب نعيم الآخرة أقل من ذرة بجنب جبال الدنيا، ويسير من رضوانه سبحانه-ولا يقال له يسير- أكبر من الجنات وما فيها، فلا تعوق العبد أمنية عن سيره إلى ربه.

الثانية: ذوق العبد طعم **الأنس بالله**، **والأنس به** سبحانه أعلى من الأنس بما يرجوه العبد من نعيم الجنة.

فإذا ذاق العبد طعم **الأنس بالله** جد في إرادته وطاعته، **والأنس به**، فلا يتعلق به شاغل، ولا يشغله عن سيره إلى الله؛ لشدة طلبه الباعث عليه أنسه، الذي قد ذاق طعمه، وتلذذ بحلاوته لدوام ذكره، وصدق محبته، وإحسان عمله.

وقوة الأنس وضعفه على حسب قوة القرب من ربه، ولا يفسده عارض، والعارض ما سوى الله، وإرادة السوي وإن علا تحجب عن الله، وبقدر إرادتك لغيره تحجب عنه.

الثالثة: ذوق صاحب البعد طعم القرب.

فالبعد: أنس القلب بغير الله تعالى، والالتفات إلى ما سواه.

والقرب: تجريد التعلق به وحده، والانقطاع عما سواه.

وذوق صاحب الهمة طعم مناجاة الله، **والأنس به**، ومحبته، والقرب منه، حتى كأنه يخاطبه ويعتذر إليه، ويتملقه تارة، ويثني عليه تارة، حتى يبقى القلب ناطقا، وإن كان اللسان ساكتا و ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٢١)﴾ [الحديد: ٢١].." (٢)

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١٩٨٧/٢

(٢) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٢٠٢٢/٢

"٣٢ – فقه الصفاء

قال الله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون (٣٠)﴾ [فصلت: ٣٠].

وقال الله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون (١٨٦)﴾ [البقرة: ١٨٦].

معرفة العبد لأسماء الله وصفاته، وجلاله وجماله، وبره وإحسانه، ولطفه ورحمته، يوجب له قربه من ربه سبحانه، وقربه منه يوجب له **الأنس به**، والمحبة له، والهيبة منه.

والأنس ثمرة المحبة والطاعة، فكل عبد مطيع مستأنس، وكل عاص مستوحش.

والقلوب المشرقة بنور **الأنس بالله** تستحلي الذكر، وتستأنس به، طلبا للاستئناس بالمذكور، وتتغذى بسماع القرآن كما تتغذى وتتلذذ الأجسام بالطعام والشراب.

فإذا كان العبد محبا صادقا، طالبا لله، عاملا على مرضاته، كان غذاؤه بسماع القرآن، ولذته بتلاوته، والتفكر في معانيه ومواعظه، والعمل بأحكامه، والتأدب بآدابه.

وهذا الغذاء له لذة روحانية يصل نعيمها إلى القلوب والأرواح، وإن كان منحرفا فاسد الحال مغرورا مخدوعا كان غذاؤه بالسماع الشيطاني الذي هو قرآن الشيطان، المشتمل على الفحش والفجور ونحو ذلك من محاب النفوس ولذاتها، وحظوظها، وأصحابه أبعد الخلق من الله عز وجل.

وما أحسن القلوب الصافية الخالية من كدر الشرك والنفاق والبدعة والمعصية، المملوءة بنور العلم والإيمان والطاعات: ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون (١٣٨)﴾ [البقرة: ١٣٨].." (١)

"٣٣ – فقه السر

قال الله تعالى: ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين (٣١)﴾ [هود: ٣١].

وقال الله تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا (٢٨)﴾ [الكهف: ٢٨].

أصحاب السر هم الأخفياء والأتقياء الذين وصفهم النبي – صلى الله عليه وسلم – بقوله: «إن الله يحب العبد التقي، الغني، الخفي» أخرجه مسلم (١).

وقوله – صلى الله عليه وسلم –: «رب أشعث مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره» أخرجه مسلم (٢).

وهؤلاء الأخفياء ثلاث طبقات:

الأولى: طائفة علت هممهم فلم تقف دون الله، ولم تتعوض عنه بشيء سواه، ولا ترضى بغيره بدلا منه.

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٢٠٢٣/٢

ولا تبيع حظها من الله وقربه **والأنس به**، والفرح والسرور والابتهاج به بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية.
فالهمة العالية على الهمم كالطائر العالي على الطيور، وعلو همة المرء عنوان فلاحه وسعادته.
ومن علامات هؤلاء خلوص قصدهم من كل إرادة تزاحم مراد الرب تعالى، بل يصير القصد مجردا لمراده الديني الأمري، خالصا من الشوائب التي تعوقه عن مقصوده.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٦٥).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٢).." [١]

"٣٥ - فقه البسط

قال الله تعالى: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب (٢٨)﴾ [الرعد: ٢٨].
وقال الله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين (٢٢)﴾ [الزمر: ٢٢].
البسط: إرسال ظواهر العبد وأعماله على مقتضى العلم، ويكون باطنه مغمورا بالمراقبة والمحبة **والأنس بالله**، فيكون جماله في ظاهره وباطنه.
فظاهره قد اكتسى الجمال بموجب العلم، وباطنه قد اكتسى الجمال بالمحبة والرجاء، والخوف والمراقبة والأنس.
وقد جمع الله عز وجل بين جمال الظاهر والباطن في غير موضع كقوله سبحانه: ﴿يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون (٢٦)﴾ [الأعراف: ٢٦].
والله تبارك وتعالى هو الذي يحيي قلوب أوليائه وأرواحهم بإكرامه، ولطفه وبسطه، وهؤلاء بسطهم الحق سبحانه على لسان رسوله، وبسطهم هو ما كان عليه أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام مع القريب والبعيد من سعة الصدر، ودوام البشر، وحسن الخلق، والسلام على من لقيه، والمزاح بالحق مع الصغير والكبير أحيانا، ولين الجانب.
وأهل البسط ثلاث طوائف:
فطائفة بسطت رحمة للخلق، جعل الله انبساطهم مع الخلق رحمة لهم كما قال سبحانه: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين (١٥٩)﴾ [آل عمران: ١٥٩].
فالله عز وجل بسط هؤلاء مع خلقه ليقتدي بهم السالك، ويهتدي بهم الحيران،." [٢]
"وللورع مظاهر متعددة تختلف باختلاف أعضاء الإنسان ومصالحه:
فمنها الورع في النظر .. والورع في السمع .. والورع في الشم .. والورع في اللسان .. والورع في البطش .. والورع في الأكل

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٢٠٢٦/٢

(٢) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٢٠٣٤/٢

.. والورع في البطن .. والورع في الفرج .. والورع في البيع والشراء.

وملاك الدين الورع .. وآفتة الطمع، والورع من أعلى مراتب الإيمان، وأفضل درجات الإحسان.

وتمام الورع أن يعلم العبد خير الخيرين، وشر الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فمن لم يعلم ذلك فقد يدع واجبات، ويفعل محرمات، ويرى ذلك من الورع، كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ويرى ذلك ورعا، أو يدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة أو فجور ويرى ذلك من الورع.

وملاك الدين الورع، وآفتة الطمع، وزينة العلم الورع، والحلم، والتوكل.

وأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه، والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين، وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى، والخوف من المعصية خوف الصالحين.

وكل من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جناية، ولا يمكن أن يصل العبد إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته، **والأنس به** في الدنيا، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر.

فمن عرف الله تعالى عرف أنه فعال يفعل ما يشاء ولا يبالي، ويحكم ما يريد ولا يخاف.

ومن أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة وكمال الورع، والمؤمن إذا عرف ربه أحبه، وإذا أحبه أقبل إليه، وتورع عن كل ما لا يرضيه.." (١)

"خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز (٦٦) وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين (٦٧) كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود (٦٨)﴾ [هود: ٦٦ - ٦٨].

فلا سعادة ولا فلاح ولا نجاة في الدنيا والآخرة إلا بالإيمان والأعمال الصالحة: ﴿إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى (٧٤) ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى (٧٥) جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى (٧٦)﴾ ... [طه: ٧٤ - ٧٦].

وثواب الله عز وجل على الطاعات، وجزاؤه على السيئات، حاصل لكل عبد، وذلك في الدنيا والآخرة.

فثواب الله العاجل للعبد على الطاعات:

الأنس بالله .. ومحبته .. والتلذذ بمعرفته وطاعته وعبادته .. والرضا بقضائه .. والطمأنينة بذكره .. وبسط الرزق .. والكفاية والهداية .. وغير ذلك مما عجله الله سبحانه من ثواب الطاعات في الدنيا.

أما ثواب الطاعات الآجل فأنواع:

أحدها: النعيم المادي كالمطاعم والمشارب، والحور والقصور والولدان المخلدون للخدمة ونحو ذلك.

الثاني: النعيم الروحاني كالتعزز بجوار الله وقربه، وسماع كلامه وسلامه، وتبشيره بالرحمة والرضوان.

الثالث: رضا الرحمن، ورؤية رب العالمين، وهما أعلى نعيم الجنان كما قال سبحانه: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٢٠٧٤/٣

تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم (٧٢)﴾ ... [التوبة: ٧٢].

وأما عقوبة الله العاجلة على المعاصي فهي:

الوحشة من الله .. والإعراض عنه .. والاشتغال بما يبعده عنه .. ومحبة ما." (١)

"والعمل: هو امتثال أوامر الله في جميع الأحوال، وعبادة الله وحده لا شريك له.

الثاني: كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة أصلا، كالتلذذ بالمعاصي كلها، والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجة.

والتنعم والترفه بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث، والغلمان والجواري، والقصور والدور، ورفيع الثياب ولذائذ الأطعمة ونحوها من ألوان المتاع الذي تحبه النفوس كما قال سبحانه: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب (١٤)﴾ [آل عمران: ١٤].

فحظ العبد من هذا كله هي الدنيا المذمومة، باستثناء ما يحتاجه من المباح.

الثالث: كل حظ في العاجل معين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام، والحاجة من اللباس والسكن، وكل ما لا بد منه؛ ليتأتى للإنسان البقاء والصحة التي يتوصل بها إلى العلم والعمل الصالح.

فهذا ليس من الدنيا، فهو كالقسم الأول؛ لأنه معين على القسم الأول ووسيلة إليه، فمهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل، لم يكن به متناولا للدنيا، ولم يصر به من أبناء الدنيا.

وإن كان باعثه الحظ العاجل دون الاستعانة به على العلم والعمل التحق بالقسم الثاني، وصار من جملة الدنيا.

فالأول محمود .. والثاني مذموم .. والثالث حسب نية صاحبه.

وكل شيء في الدنيا يزول، ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا أربع صفات: إيمان القلب .. وأنسه بذكر الله .. وحبه لربه .. وعمله الصالح.

وهذه الصفات هي المنجيات المسعدات بعد الموت.

فقوة الإيمان تفطم العبد عن شهوات الدنيا، وتنشطه للعمل الصالح الذي ينال به شهوات الآخرة، وتملأ قلبه **بالأنس بالله**، ولذة مناجاته ومحبته ونسيان ما سواه.." (٢)

"﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون (١٥) أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون (١٦)﴾ ... [هود: ١٥ - ١٦].

والدنيا في الحقيقة لا تذم لذاتها، وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها، وهي قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار.

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٢٩٤٧/٤

(٢) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٣٢٤٨/٤

ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة، والإعراض عن الله والدار الآخرة، فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها، وهو الغالب على اسمها، صار لها اسم الذم عند الإطلاق.

وإلا فالدنيا مبنى الآخرة ومزرعتها .. ومنها زاد الجنة .. وفيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله .. ومحبة الله وذكره وابتغاء مرضاته.

وخير عيش يناله أهل الجنة في الجنة إنما كان بما زرعوه فيها .. وفيها مساجد أنبياء الله .. ومهبط وحيه .. وبيوت عبادته .. ومصلى ملائكته .. ومتجر أوليائه .. وفيها اكتسبوا رحمة الله .. وربحوا فيها العافية .. وفيها قرة العيون، وسرور القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح بذكر الله ومعرفته، وعبادته ومحبته، والتوكل عليه، والإنابة إليه، **والأنس به**، ولذة مناجاته، والإقبال عليه .. وفيها كلام الله ووحيه وهداه.

فالإيمان بالله، والطاعة لله ورسوله، وعبادة الله وحده لا شريك له، أفضل ما في هذه الدار، ودخول الجنة، والنظر إلى وجه الله جل جلاله، وسماع كلامه، والفوز برضاه، أفضل ما في الآخرة.

ففي الدنيا أفضل الأسباب، وفي الآخرة أفضل الغايات.

فهذا أفضل ما في هذه الدار .. وهذا أفضل ما في الدار الآخرة.

وقد بين الله عز وجل أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، وأن الباقيات الصالحات وهي الأقوال والأعمال الصالحة التي يبقى ثوابها .. ويدوم جزاؤها .. خير ما يؤمله العبد ويرجو ثوابه كما قال سبحانه: ﴿المال والبنون زينة." (١)

"فنفس الاضطرار يكون بانقطاع أمله مما سوى الله، فيضطر حينئذ بقلبه وروحه، ونفسه وبدنه إلى ربه ضرورة تامة.

فهذا النفس نفس مضطر إلى ما لا غنى عنه طرفة عين.

وضرورته إليه من جهة كونه ربه وخالقه، وفاطره وهاديه، وناصره وحافظه، ورازقه ومعينه ومعافيه، والقائم بجميع مصالحه.

ومن جهة كونه معبوده وإلهه وحبيبه الذي لا تكمل حياته ولا تنفع إلا بأن يكون هو وحده أحب شيء إليه.

وأما نفس الافتقار: فهو من نوع فس الاضطرار، وكأن نفس الاضطرار يقطع الخلق من قلبه، ونفس الافتقار يعلق القلب بربه.

وأما نفس الافتخار: فهو نتيجة هذين النفسين؛ لأنهما إذا صحا للعبد حصل له القرب من ربه **والأنس به**، والفرح به، وبالخلع التي خلعها ربه على قلبه وروحه، مما لا يقوم لبعضه ممالك الدنيا بحذافيرها.

فحينئذ يتنفس نفسا آخر يجد به من اللذة والراحة والانشراح ما يشبه نفس من جعل في عنقه حبل ليخنق به حتى يموت، ثم كشف عنه، فتنفس نفس من أعيدت عليه حياته، وتخلص من أسباب الموت.

والعبودية تنافي الافتخار، لكن العبد هنا لا يفتخر بذلك، ويختال على بني جنسه، بل هو فرح وسرور لا يمكن دفعه عن نفسه بما فتح عليه ربه ومنحه إياه، وخصه به، وأولى ما فرح العبد به فضل ربه عليه، فإنه تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ويحب الفرح بذلك؛ لأنه من الشكر: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون (٥٨)﴾

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٣٤٠٣/٤

[يونس: ٥٨].

ومن لا يفرح بنعمة المنعم لا يعد شكورا، فهو افتخار بما هو محض منة الله ونعمته على عبده، لا افتخار بما من العبد، فهذا هو الذي ينافي العبودية لا ذاك.

الحياة الثالثة: حياة الوجود:

وهي حياة بالحق، وهي حياة الواجد.." (١)

"وقد سأل موسى – صلى الله عليه وسلم – ربه عن أعلى أهل الجنة منزلة فقال: «أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر» قال: ومصداقه في كتاب الله عز وجل: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون (١٧)﴾ [السجدة:١٧]» أخرجه مسلم (١).

وهل تليق هذه المنزلة العظيمة إلا بمن قدم حب الله تعالى والشوق إليه على حب ما سواه، علما بأن من نال من الله تعالى هذه المنزلة نال لا شك أعلى النعيم المخلوق من الحور والقصور وغيرها مما في الجنة.

فهذا العبد قد جرد المحبة لله وإن كان يريد من ربه خير الدنيا والآخرة، فهذه إرادة خالصة جذبت قلبه إلى ربه جملة كما قال سبحانه: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا (٢٨)﴾ [الكهف: ٢٨].

فهذه حقيقة التوحيد والإخلاص: انجذاب القلب إلى الله تعالى بالكلية.

وهذا العبد لا يزال ربه يرقيه طبقا بعد طبق، ومنزلا بعد منزل إلى أن يوصله إليه، ويمكن له بين يديه، أو يموت في الطريق فيقع أجره على الله.

فالسعيد كل السعادة من أقبل على ربه، ولم يلتفت إلى ما سواه، **فالأنس به** سبحانه أعلى من كل ما يرجوه العابد من نعيم الجنة، والعبد يحجب عن الله بقدر إرادته لغيره، وليس معنى هذا أن الإنسان لا يريد من الله، أو يحتقر ما عظمه الله من نعيم الجنة كالحور، والمآكل والمساكن وغيرها، وإنما المقصود أن لا يحتجب العبد عن إرادة ربه لذاته، ولو لم يكن هناك جنة ولا نار.

ولو لم يوجب محبة الله عز وجل إلا أنه خالق العبد ومالكه وسيده، فضلا عن عظمة أسمائه وصفاته وجماله وجلاله.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٨٩).." (٢)

"(المعلم الحادي عشر: الإخلاص)

عليه السلام النية لها مرتبتان إحداها تمييز العادة عن العبادة ، الثاني تمييز العبادات بعضها عن بعض، ومن مراتب النية الإخلاص وهو قدر زائد على مجرد نية العمل فلابد من نية نفس العمل والمعمول له وهذا هو الإخلاص.

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٣٤١٤/٤

(٢) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٣٤٢٢/٤

ﷺ الإخلاص هو إفراد الله سبحانه بالقصد في الطاعة وتصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين ومن كل شائبة.

ﷺ الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والمحبة والتعظيم والإجلال وقصد وجه المعبود وحده دون شيء من الحظوظ سواه حتى لتكون صورة العملين واحدة وبينهما في الفضل ما لا يُحصيه إلا الله تعالى.

ﷺ اعلم رحمك الله أن من تنسب إليه شيء من الشر والظلم لا يُمكن أن تكون عابداً له مهما تكلَفت عبادته فنزَه ربك عمَا لا يليق بمقامه جل وعلا.

ﷺ المستقل حقيقة هو الله.

ﷺ سوء الظن بالله تلقين الشيطان ، وحسن الظن بالله تلقين من الله تعالى.

ﷺ مقاصد المكلفين في ميزان الشرع: المقصود الذي يجب أن يتوجَه إليه العبد هو الله وحده وأن هذا هو الإخلاص الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه ، إلا أن المقاصد تتنوع فيما بينها ذلك أن العباد يقصدون ربهم من جوانب مختلفة فمنهم الذي يعبده تعظيماً له وتوقيراً ، ومنهم الذي يقصد الدخول في طاعته وعبادته، ومنهم الذي يطلب رضوانه ورضاه ومنهم الذي يقصد **الأُنس به** والتلذذ بطاعته وعبادته ، ومنهم من يرجو التنعم برؤيته في يوم القيامة ، ومنهم من يطلب ثوابه من غير أن يستشعر ثواباً معيناً ، ومنهم من يطلب ثواب معيناً ، ومنهم من يخاف عقابه من حيث الجملة غير ناظر إلى عقاب معين ومنهم من يخشى عقاباً معيناً وتنوع المقاصد باب واسع ، والعبد قد يقصد هذا مرة وهذا مرة وقد يقصد أكثر من واحد من هذه المقاصد وكلها تنتهي إلى غاية واحدة وتعني في النهاية شيئاً واحداً أن العبد يريد الله سبحانه ولا يريد سواه وكل مطلب محقق للإخلاص وأصحاب هذه المقاصد على الصراط المستقيم وعلى الهدى والصواب ، وإن كان العبد لا ينبغي أن يُخلي قصده من الحب والخوف فإن قوام العبادة بهما ومدارها عليهما.." (١)

"وزوال ذلك **الأنس به** والقُرب منه ليمتحن عبده فإن أقام العبد على الرضا والحال واطمأنت نفسه وسكنت إلى غيره علم أنه لا يصلح فوضعه في مرتبته التي تليق به وإن استغاثه به سبحانه استغاثة الملهوف ودعاه دعاء المضطر رد الله عليه أحوج ما هو محتاج إليه فعظمت به فرحته وتمت به نعمته وعلم العبد حينئذٍ مقدار ربه فعضَ على شرعه بالنواجذ وثنَى عليه بالخناصر.

ﷺ من عمل بما يعلم ورَثه الله علم ما لم يعلم.

ﷺ المأمور (الواجب) يفعل منه الإنسان ما استطاع والمحظور (المحرم) يجتنبه

الإنسان كله وعلى هذا فلا يكون ما يُفعل من المحرم عند الضرورة حراماً بل هو حلال مباح.

ﷺ خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطَلع عليها الناس والله أعلم.

ﷺ من أحبه الله تعالى لا بد من ابتلائه كبر هذا البلاء أو صغر وهو على قدر

دينه وذلك لتمحيص هذا العبد وتطهيره من درن الذنوب والتعلق بغيره ، علماً أن هذا البلاء المقصود منه إصلاح العبد

(١) معالم الطريق إلى الله، أبو فيصل البدراني ص/٤٣

وليس إتلافه وللعلم أيضاً لا منافاة بين البلاء والحياة الطيبة.

ﷺ مما يُعين على الصبر ملاحظة حُسن الجزاء وانتظار روح ولذة الفرج.

ﷺ طريق الجنة محفوف بالمكاره.

ﷺ القنوط من رحمة الله واليأس من روحه من أعظم الخطايا وبعدها الأمن من مكر الله وهذا الذنبان هما أعظم الذنوب بعد الشرك.

ﷺ من أصلح باطنه (موضع نظر الله) أعانه الله على إصلاح ظاهره (موضع نظر الخلق).

ﷺ لا يحسن المبالغة في محاسبة النفس لأن ذلك قد يؤدي إلى انقباضها وانكماشها.

ﷺ النفس إن لم تُشغل بالطاعة شغلت صاحبها بالمعصية.

ﷺ المُنعم بالذات هو الله تعالى وما سواه فهو مُنعم لُمقابل يُريده منك أو من ربه أو من غيرك بغض النظر عن هذا المقابل فقد يكون محموداً ، والخلق كلهم لا يُريدونك إلا لأنفسهم ولا أحد يُريدك لنفسك وهو غنيٌ عنك غير الله تعالى.." (١)

"**الأنس بالله**

إذا تبين ما تقدم فاعلم أن هناك آثاراً أخرى يجدها الإنسان في نفسه ملازمة له كلزوم صفاته وهي انشراح الصدر والأنس الذي يحصل للمؤمن نتيجة خلوّ القلب من التعلق بغير مُتَعَلّقة الحق ونتيجة الشفاء والعافية من أدواء القلب الموجبة مُلاَزَمَة الألم والهم المتواصل والغم الذي ينغمر في بحره قلب المعرض عن إلهه الحق، لكن ليس المعنى أن المؤمن لا يغتم ولا يصيبه الهم فلابد من ذلك لكنه عارض ويزول إذ الأصل الأنس والسرور، كما أنه ليس المعنى أن الكافر والفاجر لا يُسَرّ وإنما سروره عارض ليس كما في قلب المؤمن، فَيُسَرّ بدنياه وشهواته وثمار غفلاته وجهله، وهذه كلها تفعل فعل المخدّر الذي يُوَاري الألم والغم والهم مع وجوده وثباته بل وزيادته، وهذه الأحوال لا فكاك منها.." (٢)

"وكانت العلامة فيما بينه وبين أبرويز أن ينصرف الرجل عن مجلس الناسك إذا ابتدأ في قصة الملك، وكان أبرويز قد وضع عيونا تحضر مجلس الناسك، متى جلس. فبكر الناسك، وقص على العامة، وزهد في الدنيا، ورغب في الآخرة. وحضره

---

(١) معالم الطريق إلى الله، أبو فيصل البدراني ص/٨٢

(٢) عوائق في طريق العبودية، عبد الكريم الحميد ص/٣٣

الرجل الخائن، فلما فرغ من قصصه، وأخذ في ذكر الملك، نهض الرجل، وجاءت عيون أبرويز فأخبرته بما كان. فإذ زال عنه الشك في أمره، وجهه إلى بعض البلدان، وكتب إلى عامله: قد وجهت إليك رجلا وهو قادم عليك بعد كتابي هذا في كذا وكذا. فأظهر بره، **والأنس به**، والثقة بناحيته. فإذا اطمأنت به الدار، فاقتله قتلة تحيي بها بيت النار، وتصل بها حرمة النوبهار. فإنه من فسدت نيته لغير علة في الخاصة والعامة، لم يصلح بعلة.

تقاضي الملك عن الصغائر

ومن أخلاق الملك التغافل عما لا يقدح في الملك، ولا يجرح المال، ولا يضع من العز، ويزيد في الأبهة. وعلى ذلك كانت شيم ملوك آل ساسان.." (١)

"٥٣ – قال إبراهيم: فنسأل الله تعالى العون والتوفيق والصدق والمحبة له **والأنس به** والرضى عنه والتسليم لأمره.." (٢)

"٦٠ – قال إبراهيم: يقال: صدق المحبة لله عز وجل بالقلب مداومة ذكر القلب بالفرح بالله وإيثار محبته وشدة **الأنس به**، وأن يشق عليه أن يحول بينه وبين الله تعالى حائل.." (٣)

"١٦٢ – قال إبراهيم: يقال: علامة المحب على صدق الحب ست خصال:

(١) إحداها دوام الذكر بقلبه بالسرور بمولاه.

(٢) والثانية إيثاره محبة سيده على محبة نفسه ومحبة الخلائق، يبدأ بمحبة مولاه قبل محبة نفسه ومحبة الخلائق.

(٣) والثالثة **الأنس به** والاستثقال لكل قاطع يقطع عنه أو شاغل يشغل عنه.

(٤) والرابعة الشوق إلى لقائه والنظر إلى وجهه.

(٥) والخامسة الرضا عنه في كل شديدة وضر ينزل به.

(٦) والسادسة اتباع رسوله.." (٤)

"خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان في حر شديد حتى إن أح دنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن رواحة

٣٥ – حدثنا إبراهيم قال حدثني أبي عن جدي يحيى بن يحيى قال أثنى رجل على مكحول في وجهه فقال مكحول الحمد لله نعمة ظهرت

---

(١) التاج في أخلاق الملوك الجاحظ ص/٩٧

(٢) المحبة لله لأبي إسحاق الختلي الختلي، إبراهيم بن عبد الله ص/٣١

(٣) المحبة لله لأبي إسحاق الختلي الختلي، إبراهيم بن عبد الله ص/٣٣

(٤) المحبة لله لأبي إسحاق الختلي الختلي، إبراهيم بن عبد الله ص/٧٠

٣٦ – حدثنا ابن الفيض قال أنشدني أبو الحسن أحمد بن موسى بن صاعد الفقيه الصوري بصور من شعره لنفسه من الطويل ... مجال قلوب العارفين بروضة ... سماوية من دونها حجب الرب ... ... معسكرها فيها ومجنى ثمارها ... تنسم روح **الأنس بالله** من قرب ... ... تكنفها من عالم السر حبه ... فلولا مدى الآجال ذابت من الحب ... ... وأنشقها سبحانه روح قربه ... وبرد نسيم جل عن منتهى الخطب ... ... وأروى صداها صرف كاسات حبه ... بأشهى من الماذي بالبارد العذب ... ... فيا لقلوب قربت فتقربت ... فحلت من المحبوب في أقرب القرب ... ... رضيها فأرضاها فجازت مدى الرضا ... وحلت من المحجوب في المنزل الرحب ... ... سرى سرها بين الحبيب وبينها ... فأضحى مصونا عن سوى الرب والقلب ...." (١)

"ويقال: إن كسرى أبرويز كان نصب رجلا يمتحن به من فسدت عليه نيته من رعيته وطعن في المملكة، فكان الرجل يظهر التأله والدعاء إلى التخلي من الدنيا والرغبة في الآخرة وترك أبواب الملوك، وكان يقص على الناس ويبكيهم ويشوب كلامه في خلال ذلك بذم الملك وتركه شرائع ملته وسنن سيرته ودينه الذي كان عليه، وكان هذا الرجل يمتثل ما حده له أبرويز ليمتحن بذلك خاصته، وكان من يسعى يخبر أبرويز بذلك، فيضحك ويقول: فلان في عقله ضعف وأنا أعلم أنه وإن كان بتكلم بما يتكلم لا يقصدني بسوء ولا المملكة بما يوهنها، ويظهر الاستهانة بأمره والثقة به والطمأنينة إليه، ثم توجه إليه في خلال ذلك من يدعوه فيأبى أن يجيبه ويقول: لا ينبغي لمن خاف الله أن يخاف أحدا سواه، فكان الطاعن على الملك والمملكة يكثر الخلوة بهذا الرجل والزيارة له **والأنس به**، فإذا خلوا تذاكرا أمر الملك فابتدأ الناسك فطعن فيه وأعانه الخائن وطابقه على ذلك وشايعه، فيقول الناسك: إياك وأن يظهر هذا الجبار على كلامك فإنه لا يحتمل لك ما يحتمله لي، فحص منه دمك، فيزداد الآخر إليه استنامة وبه ثقة، فإذا علم الناسك أنه قد بلغ من الطعن على الملك ما يستوجب به العقوبة في الشريعة قال لمن بحضرته: إني قاعد غدا مجلسا للناس أقص عليهم فاحضروه، ويقول لمن هو أشد به ثقة: احضر أنت فإنك رجل رقيق عند الذكر حسن النية ساكن الريح بعيد الصوت وإن الناس إذا رأوك قد حضرت زادت نياتهم خيرا وسارعوا إلى استجابتي، فيقول الرجل: إني أخاف من هذا الجبار فلا تذكره إن حضرت، وكانت العلامة بينه وبين أبرويز أن أبرويز قد كان وضع عيونا يحضرون متى جلس، فكان الناسك يقص على العامة ويزهد في الدنيا ويرغب في الآخرة والخائن حاضر، فيأخذ الناسك في ذكر الملك، فينهض الخائن، وتجيء عيون أبرويز فتخبره بما كان، فإذا زال الشك عنه في أمره وجهه إلى بعض البلدان وكتب إلى عامله: قد وجهت إليك برجل وهو قادم عليك بعد كتابي هذا فأظهر بره **والأنس به** والثقة إليه والسكون إلى ناحيته فإذا اطمأنت به الدار فاقتله قتلة تحيي بها بيت النار وتصل بها حرمة النوبهار، فإن من فسدت نيته بغير علة في الخاصة والعامة لم يصلح بعلة، ومن فسدت نيته بعلة صلحت بخلافها.." (٢)

(١) أخبار وحكايات للغساني الغساني، أبو الحسن ص/٢٩

(٢) المحاسن والمساوئ البيهقي، إبراهيم ص/٧٠

"٢٠٧٩ – حدثنا أحمد، نا أحمد بن علي، نا أحمد بن أبي الحواري؛ قال: سمعت مضاء يقول لسباع الموصلي: يا أبا محمد! أي شيء أفضى بهم إلى الزهد؟ قال: **الأنس بالله**.." (١)

"٢٨٣٥ – حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا؛ قال: قال بعض الزهاد: إن لله تبارك وتعالى عبادا لم توسخ الدنيا قلوبهم، ولم تغلل بالجهل صدورهم، أولئك هم المدلون بقدرته، المتعجبون في عظمته، المتلذذون في حكمته، الذين شغلوا به دون الأشياء، وقدموه في المحبة على الآباء والأبناء؛ فمنحهم محبته تعالى وأوجب لهم رحمته، واستودعهم الأرض والسماء، ودفع بهم عن عباده البلاء، المؤنسون بصمتهم، المشوقون إلى رؤيتهم، ملأت محبة الله صدورهم؛ فليس يجدون للكلام شهوة؛ ولا لغير **الأنس به** لذة، نظرهم اعتبار، وإغضاؤهم ازدجار، لم يضيعوا عملا وجدوا له صحة، ولم يرضوا أنفسهم على نفيسها علة، ولم يثقوا بعمل خاطبهم عن لسان المعصية، ووعدهم التوبة درك الأمنية، ولم يجعلوا سعيهم عليهم حجة، شاهدوا الدنيا بأجسادهم، وغابوا عنها بقلوبهم؛ فلا الدنيا بإقامتهم فيها عرفتهم، ولا الآخرة بقدومهم جهلتهم، خرجوا من الدنيا ولم يدروا ما شكلها، كأن لم يكونوا فيها قط من أهلها.." (٢)

"٣٠٣٨ – / ٥ – وأنشدنا لغيره في العارفين بالله تعالى:

(محل قلوب العارفين بروضة سماوية ... من دونها حجب الرب)

(معسكرها فيها ومجنى ثمارها ... تنسم روح **الأنس بالله** من قرب)." (٣)

"٦٠ – حدثنا أحمد، قال: حدثنا ابن أبي الدنيا قال: حدثنا عون بن إبراهيم قال: حدثنا أحمد بن أبي الحواري قال سمعت مضاء يقول لسباع الموصلي: «يا أبا محمد إلى أي شيء أفضى بهم الزهد؟» قال: «إلى **الأنس به**»." (٤)

"قائل لي ما يضنيك قلت له ... شخص تري عينيه عيني فيضنيني

إن القلوب لتطوى منك يا بن أخي ... إذا رأتك على مثل السكاكين

وقرأنا على أبي بكر بن دريد لرجل يصف جملا:

تبين القرنين فانظر ما هما ... أحجر أم مدرا تراهما

إنك لن تزل أو تغشاهما ... وتبرك الليل إلى ذراهما

القرنان: اللذان يبنيان على البئر يعرض عليهما الخشب، فالبعير ينفر منه أول ما يراه ثم يذل حتى يجيء فيبرك عنده من **الأنس به**.

وذرهما: كنفهما.

وأنشدني بعض أصحابنا لعلي بن العباس الرومي وأهدى قدحا إلى يحي بن المنجم:

---

(١) المجالسة وجواهر العلم الدِّينَوري، أبو بكر ٢٤٥/٥

(٢) المجالسة وجواهر العلم الدِّينَوري، أبو بكر ٤٠٩/٦

(٣) المجالسة وجواهر العلم الدِّينَوري، أبو بكر ١٣٩/٧

(٤) الزهد وصفة الزاهدين لابن الأعرابي ابن الأعرابي، أحمد بن بشر ص/٤٢

وبديع من البدائع يسبى ... كل عقل ويطبى كل طرف
دق في الحسن والملاحة حتى ... ما يوفيه واصف حق وصف
كفم الحب في الملاحة أو أشفي ... وإن كان لا يناغى بحرف
تنفذ العين فيه حتى تراها ... أخطأته من رقة المستشف
كهواء بلا هباء مشوب ... بضياء أرقق بذلك وأصف
وسط القدر لم يكبر لجرع ... متوال ولم يصغر لرشف
لا عجول على العقول جهول ... بل حليم عنهم في غير ضعف
ما رأى الناظرون قدا وشكلا ... فارسا مثله على بطن عكف
فيه لوز معقرب عطفته ... حكماء الغيوب أحسن عطف
مثل عطف الأصداغ في وجنات ... من غزال يزهى بحسن وظرف
وقرأت على أبي بكر بن دريد للمقنع الكندي:
يعاتبني في الدين قومي وإنما ... ديوني في أشياء تكسبهم حمدا
ألم ير قومي أوسر مرة ... وأعسر حتى تبلغ العسرة الجهدا." (١)

"قال: حدثنا حاتم بن عقيل، قال: ح يحيى بن إسماعيل قال: ح يحيى الحماني قال: ح إسحاق وهو حازم بن الحسين الحميسي، وفي بعض النسخ: الحمسي، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من قلب آدمي إلا وهو بين أصبعين من أصابع الله عز وجل، فإذا شاء أن يثبته ثبته، وإذا شاء أن يقلبه قلبه، وإنما مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة في ريح عاصف، تقلبها الرياح» قال الشيخ الإمام الزاهد المصنف رحمه الله: وصف النبي صلى الله عليه وسلم الرب بالأصابع، كما وصف الله تعالى نفسه باليد، والسمع، والبصر، فقامت -[١٢٣]- الدلائل على أن يده وسمعه وبصره ليست بجوارح، ولا أعضاء، ولا أصابع، ولا أجزاء، إذ هو عز وجل واحد أحد صمد فرد بعيد عن أوصاف الحدث، وعن شبه المخلوقين، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، فعلينا الإيمان به، والوصف له بما وصف نفسه به، ونفي أوصاف الحدث عنه، وتنزيهه عن التشبيه، والكيفية والدرك إلا من حيث الإقرار به والإيمان والتصديق له، فكذلك ما وصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإصبع، فعلينا التسليم له، وفي بعض النسخ: الإسلام له، والإيمان به، والتصديق على أنها صفة له على ما يستحقه، ويليق به من غير كيفية، ولا إدراك، ولا تشبيه. أو هو صلى الله عليه وسلم أعلم الخلق وأعرفهم وبأوصافه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا أعلمكم بالله عز وجل» ، وقال الله تعالى ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم: ٤] ، فالإصبع صفة لله عز وجل، ومن صفاته العدل، والفضل، فيجوز أن يكون معنى قوله: «بين أصبعين» أي: بين صفتين من صفات الله عز وجل، ويعني الفضل والعدل، وفي بعض النسخ: ويعني بالصفتين العدل والفضل لقوله: يقلبها، فيكون التقليب عن حالتين مختلفتين، وفي بعض النسخ: بين حالتين

(١) أمالي القالي أبو علي القالي ٢٨٠/١

مختلفتين مرة إلى كذا، ومرة إلى كذا، كما قال في حديث آخر: «يقلبها الريح ظهرا لبطن، فإذا قلب قلب عبد إلى هدى فهو فضل منه، وإذا قلبه إلى ضلال فهو عدل منه» ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب» ، ويسأله التثبيت، فالله تعالى يقلب قلوب أعدائه بعدل، والعدل صفة له، فهو يقلب قلوبهم من حال إلى حال، وكلها إرادة الشر بهم والضلال لقوله -[١٢٤]- عز وجل ﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾ [المائدة: ٤١] ، فهو يجعل في قلوبهم المرض، ويقلبها من المرض إلى الزيغ، ومن الزيغ إلى الدين، والدين إلى أن يجعلها في أكنة، ومنها إلى الطبع، ومن الطبع إلى الختم، وذلك عدل منه، وهو يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، قال الله عز وجل ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾ [البقرة: ١٠] ، وقال جل جلاله ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] ، وقال عز وجل ﴿كلا بل ران على قلوبهم﴾ [المطففين: ١٤] ، وقال جل جلاله ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ [الأنعام: ٢٥] ، وقال جل جلاله ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ [النساء: ١٥٥] ، وقال عز وجل ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ [البقرة: ٧] ، فهو عز وجل يفعل ذلك بالمنافقين والكافرين دون المؤمنين المخلصين، وله أن يفعل ما يشاء إذ هو المالك لهم، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فعلى هذا يقلب قلوب أعدائه، ومن سبق له من الله تعالى الشقاء فكفر وجحد وأشرك ونافق تعالى الله عن ظلم عباده علوا كبيرا، ويقلب قلوب أوليائه بفضله من حال إلى حال إرادة الخير لهم ليهتدوا ويوفقوا ويزيدهم إيمانا، قال الله تعالى ﴿ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم﴾ [الفتح: ٤] ، وتثبيتا لهم، كما قال الله عز وجل ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ [إبراهيم: ٢٧] ، فقلوب أوليائه المؤمنين المخلصين الذين سبقت لهم منه الحسنى تتقلب بين الخوف والرجاء، واللين والشدة، والوجل والطمأنينة، والقبض البسط، والشوق والمحبة، والأنس والهيبة، والله تعالى يقلبها بفضله قال الله عز وجل ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ [الأنفال: ٢] ، وقال الله تعالى ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ [الزمر: ٢٣] ، وقال الله تعالى ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ [الحجرات: ٣] ، وقال الله تعالى ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ [النور: ٢] ، وقال الله تعالى ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [الرعد: ٢٨] ، وقال ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾ [الزمر: ٢٢] ، وقال الله تعالى ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ [البقرة: ١٦٥] والله يقبض ويبسط، يقبض قلوبهم بالخوف منه، ويبسطها **بالأنس به** والذكر له، فقلوب عباده تتقلب بين هاتين الصفتين العدل والفضل، وهو يقلبها له الخلق والأمر -[١٢٥]- بين الهدى والضلال، ومنه التثبيت والإزالة، له الحكم وإليه المصير، وقلوب عامة المؤمنين تتقلب بين أحوال مختلفة بين يقين واضطراب، وغفلة وتيقظ، وسكون إلى الدنيا وميل إلى الآخرة، مرة إلى هذا، ومرة إلى هذا. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: إنما سمي القلب قلبا لأنه يتقلب. وقال بعض الحكماء: ما من شيء أشد على العبد من حفظ القلب بين ما يجول حول العرش، حتى تراه يجول حول الحش. وقال سهل بن عبد الله رحمة الله عليه: إنما على العبد ذم جوارحه، وحفظ حدود الله، وكف النفس عن شهواتها، فإذا فعل ذلك حفظ الله تعالى قلبه، وأصلح سره، وفي بعض الروايات: من صلح برانيه أصلح الله تعالى جوانيه معناه: من أصلح ظاهره بذم جوارحه، وحفظ حركاته، أعانه الله تعالى على حفظ قلبه. وقال بعض الحكماء: استجلب نور القلب بدوام

الحزن، واستفتح باب الحزن بطول الذكر، واطلب راحة البدن بإحجام القلب، واطلب إحجام القلب بترك خلطاء السوء، وقيل: موت القلب بالجهل، وحياة القلب بالعلم." (١)

"والرجاء طريق العمال إلى مقام العاملين، وقد وصف الله عز وجل الراجين مع الأعمال الصالحة لقوة رجائهم بالخوف، تكملة لصدق الرجاء وتتمة لعظيم الغبطة به، فقال تعالى وتقدس: (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) المؤمنون: ٦٠ وقال عز وجل مخبرا عنهم في حال وفائهم وأعمال برهم: (إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين) (فمن الله علينا) الطور: ٢٦ – ٢٧ وقال عز وجل: (يوفون بالنذر ويخافون يوما) الإنسان: ٧ من قبل أن الخوف مرتبط بالرجاء، فمن تحقق بالرجاء صارعه الخوف أن يقطع به دون ما رجا، وقال أهل العربية في معنى قوله تعالى: (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله) (الجاثية: ١٤ أي للذين لايخافون عقوبات الله تعالى، فإذا كان هذا أمره بالمغفرة لمن لا يرجو فكيف يكون غفره وفضله على من يرجو، وبعضهم يقول في معنى قوله تعالى: (ويرجون من الله ما لا يرجون) النساء: ١٠٤ أي تخافون منه ما لا يخافون، فلولا أنهما عند العلماء كشيء واحد ما فسر أحدهما بالآخر، ومن الرجاء **الأنس بالله** تعالى في الخلوات، ومن **الأنس به** الأنس بالعلماء والتقرب من الأولياء، وارتفاع الوحشة بمجالسة أهل الخير، وسعة الصدر والروح عندهم، ومن الرجاء سقوط ثقل المعاونة على البر والتقوى، لوجود حلاوة الأعمال والمسارعة إليها، والحث لأهلها عليها والحزن على فوتها والفرح بدركها، ومن ذلك الخبر المأثور من سرته حسنته وساءته سيئته، فهو مؤمن، والخبر المأثور: خيار أمتي الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساؤوا استغفروا لأن المؤمن على يقين من أمره وبصيرة من دينه، والخوف والرجاء وصف الموقن بالله تعالى فهو إذا عمل حسنة، أيقن بثوابها لصدق الوعد وكرم الموعد، وإذا عمل سيئة أيقن بالكراهة لها، وخاف المقت عليها لخوف الوعيد وعظمة المتوعد من قبل أن دخوله في الطاعة، دخول في محبة الله تعالى ومرضاته لما دل العلم عليه؛ فهذا رضا الله سبحانه وتعالى في الدنيا، فكيف لا يسره رضاه ومن قبل أن دخوله في المعصية دخول في غضب الله تعالى ومكارهه، بما دل العلم عليه فذلك الذي يسوءه لأن مقت الله تعالى اليوم معاصيه وسخطه غدا تعذيبه، ومن هذا قول الله عز وجل وهو أصدق القائلين: (ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم) غافر: ١٠ قال: لما نظروا إلى أنفسهم بتشويه خلقهم في النار مقتوها فنودوا لمقت الله في الدنيا على معاصيه أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم في العذاب، كما أن رضاه غدا تنعيمهم في جنته كذلك رضاه اليوم عملهم بطاعته ومرضاته؛ وهذا وصف عبد مراد مكاشف بعلم اليقين.

ومن هذا حديث زيد الخيل إذ قال للنبي صلى الله عليه وسلم: جئتك أسألك عن علامة الله تعالى فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال: كيف أصبحت فقال: أصبحت أحب الخير وأهله وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه وإذا فاتني شيء منه حزنت عليه." (٢)

"وقال أيضا الإخلاص فريضة لا تنال إلا بالخوف ولا ينال الخوف إلا بالزهد فقد صار الخوف يصلح للكافة إذ دخوله على العامة يخرجهم عن الحرام، ودخوله على الخاصة يدخلهم في الورع والزهد، لأن من خاف ترك، وقال أيضا: من

---

(١) بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلاباذي أبو بكر الكلاباذي ص/١٢٢

(٢) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد أبو طالب المكي ٣٦٥/١

أحب أن يرى خوف الله تعالى في قلبه فلا يأكل إلا حلالا ولا يصلح علم الرجاء إلا للخائف، وقال: الخوف ذكر والمحبة أنثى، ألا ترى أن أكثر النساء يدعون المحبة يريد بهذا أن فضل الخوف على الرجاء كفضل الذكر على الأنثى؛ وهذا كما قال لأن الخوف حال العلماء، والرجاء حال العمال، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على الكواكب.

وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل من علم أحب إلي من فضل من عمل، وخير دينكم الورع واعلم أن الخوف عند العلماء على غير ما يتصور في أوهام العامة وخلاف ما يعدونه من القلق والاحتراق أو الوله والانزعاج لأن هذه خطرات وأحوال ومواجيد للواهين وليست من حقيقة العلم في شيء، بمنزلة مواجيد بعض الصوفية من العارفين في أحوال المحبة، من احتراقهم ووهلهم.

والخوف عند العلماء إنما هو اسم لصحيح العلم وصدق المشاهدة، فإذا أعطى عبد حقيقة العلم وصدق اليقين سمي هذا خائفا، فلذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم من أخوف الخلق، لأنه كان على حقيقة العلم ومن أشدهم حبا لله تعالى، لأنه كان في نهاية القرب، وقد كان حالة السكينة والوقار في المقامين معا، والتمكين والتثبيت في الأحوال كلها، ولم يكن وصفه القلق والانزعاج، ولا الوله والاستهتار، وقد أعطي أضعاف عقول الخليقة وعلومهم، ووسع قلبه لهم، وشرح صدره للصبر عليهم.

فكان صلى الله عليه وسلم مع الأعرابي كأنه أعرابي، ومع الصبي بمعناه، ومع المرأة في نحوها، يقاربهم في علومهم، ويخاطبهم بعقولهم، ويظهر منه مثل وجدهم، ليعطيهم نصيبهم من **الأنس به**، ويوفيهم حقوقهم من الدرك منه، ولئلا تعظم هيبته في صدورهم، فينقطعون عن السؤال له **والأنس به** حكمة منه، لا يفطنون لها ورحمة منه قد جبل عليها، قد ألبس مواجيدهم لبسة، وأدخل ذلك عليه صبغة، بغير تكلف ولا تصنع، تعلم ذلك من الحكيم العليم، فلذلك وصفه عز وجل بخلقه، وتعجب من وصفه فقال تعالى: (وإنك لعلى خلق عظيم) القلم: ٤ قيل على أخلاق الربوبية، وقرئت بالإضافة ليكون عظم اسم الله سبحانه لا يظهر من حاله ونصيبه شيئا لقوة التمكين وفضل العقلاء ولا يبخس من نصيبهم منه شيئا لحقيقة العدل، ولا يتظاهر بشيء لحقيقة الزهد ونهاية الخشوع والتواضع، ولا يظهر عليه شيء لمكانة القوة ورسوخ العلم والحكمة، وعلى منهاجه وسنته وصف العارفين من أهل البلاء الذين هم الأمثل فالأمثل بالأنبياء.

وقال بعض أهل المعرفة: من طالب الخلق بعلمه وخاطبهم بعقله، فقد بخسهم." (١)

"فقلت له: يا أبا محمد يعني ابن عيينة قد أنعم عليه فشكر وابتلى فصبر وحبس النعمة كيف يكون زاهدا؟ فضربني بيده وقال: اسكت، من لم تمنعه النعماء من الشكر ولا البلوى عن الصبر فذلك الزاهد، ووافقهما الزهري فقال كذلك، وقد فصل ذلك أبو سليمان فقال ابن أبي الحواري: قلت له: أكان داود الطائي رحمه الله تعالى زاهدا؟ قال: نعم، قلت: بلغني أنه ورث من أبيه عشرين دينارا فأنفقها في عشرين سنة فكيف يكون زاهدا وهو يمسك الدنانير؟ فقال: أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد ولعمري أنا روينا عن رسول صلى الله عليه وسلم نعما بالمال الصالح للمرء الصالح والمال الصالح هو الحلال والمرء الصالح المنفق ماله بالليل والنهار سرا وعلانية في سبيل الله ابتغاء مرضاته كما وصفه الله تعالى ومدحه.

---

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد أبو طالب المكي ٣٩٣/١

وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا من يحب والذي يحبه الله تعالى ممن أعطاه الدنيا لا يخالف حبيبه إلى هواه ولا يؤثر نفسه على محبة مولاه تبارك وتعالى إذ قد تولاه فيما أعطاه.

وقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر والطاعم الشاكر هو الذي يستعين بطعمته على خدمة مولاه ويعبده شكرا لما أولاه، وقد قالوا في الزهد وصفان جامعان لأحوال القلوب، قال مضاء بن عيسى: قلت للسباع الموصلي: يا أبا محمد إلى أي شيء أفضى بهم الزهد؟ قال: إلى **الأنس بالله** تعالى، وقال عثمان بن عمارة: كان يقال: الورع يبلغ بالعبد إلى الزهد والزهد يبلغ به حب الله تعالى؛ فهذان الحالان غاية الطالبين الحب للجليل والأنس باللطيف، فمن لم يتحقق بالزهد لم يبلغ مقام الحب ولم يدرك حال الأنس ثم إن سرائر الغيوب في مقام الحب والخلة، وفي حال الأنس والقربة وفقنا الله وإياكم لما يحب وبلغنا ما نؤمل بفضله ورحمته ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم وهذا آخر كتاب الزهد.

تم الجزء الأول من قوت القلوب ويليه الجزء الثاني أوله

شرح مقام التوكل ووصف أحوال المتوكلين.." (١)

"الذليل، فلذلك وصف الله محبه بالذل للولي وبالعز على العدو، وقبح العز على الحبيب كقبح الذل للعدو، والله لا يصف أولياءه بقبيح، ومن علامات الحب: المجاهدة في طريق المحبوب بالمال والنفس، ليقرب منه ويبلغ مرضاته ويقطع كل قاطع يقطعه عنه بالمسارعة إلى قربه، كما قال تعالى: (وعجلت إليك رب لترضى) طه٨٤ وكما أمر حبيبه صلى الله عليه وسلم في قوله: وتبتل إليه تبتيلا فيه معنيان: أحدهما انقطع إليه انقطاعا عما سواه بالإخلاص له والأثرة على غيره، والأخرى: اقطع كل ما قطعك عنه

إليه أي اقطع كل قاطع حتى تصل إليه، فهذان من أدل الدليل على المحبة، ثم أن لا يخاف في حبه لومة لائم كمن الخلق لأمه على محبته أو على السلوك إليه بشق النفس وهجران الدار ورفض المال، ولا يرجو في محبته مدح مادح ولا يرغب في حسن ثناء العباد بإيثارك له على الأهل والمال، ثم وجود الأنس في الوحدة والروح بالخلوة، ولطف التملق في المناجاة والتنعم بكلامه والتنعم بمر أحكامه ووجد حلاوة الخدمة ورؤية البلاء منه نعمة، وقال ثابت البناني: كابدت القرآن عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة، ومن المحبة ترك السكون إلى غير محبوبه إذ هو السكن، وقال أبو محمد: خيانة المحب عند الله أشد من معصية العامة، وهو أن يسكن إلى غير الله ويستأنس بسواه، وفي قصة برخ، العبد الأسود الذي استسقى به موسى عليه السلام أن الله تعالى قال لموسى: إن برخا نعم العبد هو لي إلا أن فيه عيبا، قال: يارب، وما عيبه؟ قال: يعجبه نسيم السحر فيسكن إليه، ومن أحبني لم يسكن إلى شيء، فالسكون في هذا الموضع الاستراحة إلى الشيء **والأنس به**، والسكون في غير هذا الموضع النظر إلى الشيء والإدلال به والطمأنينة والقطع به، ذكرت هذه الحكاية لبعض أهل المعرفة فقال: لم يرد

---

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد أبو طالب المكي ٤٤٩/١

بهذا برخا إنما أراد به موسى، لأنه أقامه مقام المحبة فاستحى أن يواجهه بذلك، فعرض له ببرخ وكان هذا جوابا منه: إني سألته، لم أخبر موسى بعيبه وهو يحبه دون أن يخبره هو بعيب نفسه، فأجاب بهذا: فالمقربون من المحبين إنما نعيمهم بالله وروحهم وراحتهم إليه من حيث كان بلاؤهم منه، فإذا وجدوا ذلك في سواه كانت ذنوبا لهم عن غفلة أدخلت عليهم ليتوبوا منها إليه فيغفر لهم، وروينا أن عابدا عبد الله في غيضة دهرا، فنظر إلى طير قد عشش في شجرة يأوي إليها ويصفر عندها فقال: لو حولت مسجدي إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر قال: ففعل فأوحى الله إلى النبي عليه السلام: قل لفلان العابد: استأنست بمخلوق لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبدا فمن صدق المحبة وخالصها الانقطاع إلى الحبيب بوجود **الأنس به**، ومصادفة الاستراحة والروح عنده بمحادثة في المجالسة، ومناجاة في الخلوة وذوق حلاوة النعيم في ترك المخالفة لغلبة حب الموافقة، كما أنشدني بعضهم عن بعض المحبين: إليه أي اقطع كل قاطع حتى تصل إليه، فهذان من أدل الدليل على المحبة، ثم أن لا يخاف في حبه لومة لائم كمن الخلق لأمه على محبته أو على السلوك إليه بشق النفس وهجران الدار ورفض المال، ولا يرجو في محبته مدح مادح ولا يرغب في حسن ثناء العباد بإيثارك له على الأهل والمال، ثم وجود الأنس في الوحدة والروح بالخلوة، ولطف التملق في المناجاة والتنعم بكلامه والتنعم بمر أحكامه ووجد حلاوة الخدمة ورؤية البلاء منه نعمة، وقال ثابت البناني: كابدت القرآن عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة، ومن المحبة ترك السكون إلى غير محبوبه إذ هو السكن، وقال أبو محمد: خيانة المحب عند الله أشد من معصية العامة، وهو أن يسكن إلى غير الله ويستأنس بسواه، وفي قصة برخ، العبد الأسود الذي استسقى به موسى عليه السلام أن الله تعالى قال لموسى: إن برخا نعم العبد هو لي إلا أن فيه عيبا، قال: يارب، وما عيبه؟ قال: يعجبه نسيم السحر فيسكن إليه، ومن أحبني لم يسكن إلى شيء، فالسكون في هذا الموضع الاستراحة إلى الشيء **والأنس به**، والسكون في غير هذا الموضع النظر إلى الشيء والإدلال به والطمأنينة والقطع به، ذكرت هذه الحكاية لبعض أهل المعرفة فقال: لم يرد بهذا برخا إنما أراد به موسى، لأنه أقامه مقام المحبة فاستحى أن يواجهه بذلك، فعرض له ببرخ وكان هذا جوابا منه: إني سألته، لم أخبر موسى بعيبه وهو يحبه دون أن يخبره هو بعيب نفسه، فأجاب بهذا: فالمقربون من المحبين إنما نعيمهم بالله وروحهم وراحتهم إليه من حيث كان بلاؤهم منه، فإذا وجدوا ذلك في سواه كانت ذنوبا لهم عن غفلة أدخلت عليهم ليتوبوا منها إليه فيغفر لهم، وروينا أن عابدا عبد الله في غيضة دهرا، فنظر إلى طير قد عشش في شجرة يأوي إليها ويصفر عندها فقال: لو حولت مسجدي إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر قال: ففعل فأوحى الله إلى النبي عليه السلام: قل لفلان العابد: استأنست بمخلوق لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبدا فمن صدق المحبة وخالصها الانقطاع إلى الحبيب بوجود **الأنس به**، ومصادفة الاستراحة والروح عنده بمحادثة في المجالسة، ومناجاة في الخلوة وذوق حلاوة النعيم في ترك المخالفة لغلبة حب الموافقة، كما أنشدني بعضهم عن بعض المحبين:

ألذ جميل الصبر عما ألذه ... وأهوى لما أهواه تركا فاتركه." (١)

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد أبو طالب المكي ٨٩/٢

"مستحسن لأفعاله، ثم اللهج بذكره ومحبة من يذكره ومجالسة من يذكره، ودوام التشكي والحنين إليه وخلو القلب من الخلق، وسبق النظر إلى الخالق في كل شيء، وسرعة الرجوع إليه بكل شيء، ووجد **الأنس به** عند كل شيء، وكثرة الذكر له والتذكر بكل شيء، ومن علامة المحبة طول التهجد، وروي عن الله سبحانه: كذب من ادعى محبتي إذا جنه الليل نام عني، إلا أن بعضهم جعل سهر الليل في مقام بعينه، ذكر له هذا الخبر فقال: ذاك إذا أقامه مقام الشوق فأما إذا أنزل عليه السكينة وأواه بالأنس في القرب، استوى نومه وسهره، ثم قال: رأيت جماعة من المحبين، نومهم بالليل أكثر من سهرهم، وإمام المحبين وسيد المحبوبين رسوله الله صلى الله عليه وسلم كان ينام مثل ما يقوم، وقد يكون نومه أكثر من قيامه ولم يكن تأتي عليه ليلة حتى ينام فيها، ومن المحبة الخروج إلى الحبيب من المال بالزهد في الدنيا، والخروج إليه من النفس بإيثار الحق على جميع الأهواء، وقال الجنيد: علامة المحبة دوام النشاط والدؤوب بشهوة يفتر بدنه ولا يفتر قلبه، وقد قال بعض السلف: العمل عن المحبة لا يداخله الفتور، وقال بعض العلماء: والله ما استسقي محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل، ومن المحبة التناصح بالحق والتواصي به والصبر

على ذلك، كما وصف تعالى الرابحين من الصالحين، فقال تعالى: (إن الإنسان لفي خسر) (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) العصر: ٢ – ٣، لأن المحبين ليسوا كمن وصفه في قوله تعالى: (يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم) (إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) محمد: ٣٦ – ٣٧ يعني أن يسألكم محبوبكم من الأموال ويستقصي عليكم يخرج أحقادكم عليه. على ذلك، كما وصف تعالى الرابحين من الصالحين، فقال تعالى: (إن الإنسان لفي خسر) (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) العصر: ٢ – ٣، لأن المحبين ليسوا كمن وصفه في قوله تعالى: (يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم) (إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) محمد: ٣٦ – ٣٧ يعني أن يسألكم محبوبكم من الأموال ويستقصي عليكم يخرج أحقادكم عليه.

وروينا في مقرأ ابن عباس: ويخرج أضغانكم؛ يعني الأموال، فلو لم يدخل على هؤلاء الضعفاء إلا الشرك في محبة الأموال والشغل بها عن ذكر ذي الجلال، فخسروا ما ربح المخلصون من الأحباب، وفاتهم ما أدرك الصالحون من طوبى وحسن مآب، فالله تعالى يسأل أحبابه أموالهم وأنفسهم حتى لا يبقى لهم محبوب سواه ولئلا يعبدوا إلا إياه محبة منه وكشفا لمحبتهم واختبارا لأخبارهم في صدقهم وصبرهم، ولأنه جواد ملك لايسأل إلا كلية الشيء وجملته، وهو غيور لا يحب أن يشركه سواه في محبته، فلا يصبر عليه إلا من عرفه ولا يحبه إلا من صبر عليه، ولا يرضى بحكمه فيه إلا من أيقن به، إلا أنه لا يسأل الجملة كلها إلا لمن أحبه المحبة الخاصة، وذلك كله من نظام حكمته، وقيل لبعض المحبوبين وكان قد بذل المجهود في بذل ماله ونفسه، حتي لم يبق عليه منها بقية: ما كان سبب حالك هذه من المحبة؟ فقال: كلمة سمعتها من خلق لخلق عملت بي هذا البلاء، قيل: وما هي؟ قال: سمعت محبا قد خلا بمحبوبه وهو يقول: أنا والله أحبك بقلبي كله، وأنت معرض عني بوجهك كله، فقال له المحبوب: إن كنت تحبني فأي شيء تنفق علي فقال: ياسيدي، أملكك ما أملك، ثم أنفق عليك روحي حتى تهلك، فقلت:." (١)

---

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد أبو طالب المكي ٩١/٢

"والذي رويناه عن أبي سعيد الخراز دخل فيما ذكرناه عنهما، وأحسب أنه أخذه منها لأنهما أقدم منه، إلا أن قوله كان أحد عشر بيتا فقط، وجميع ما قدمنا ذكره من العلامات والدلالات هي أوصاف المحبين، وكل محب لله فعن محبة الله، لأن وجود العبد لمحبته لله علامة غيب محبة الله له، يبين ذلك الغيب له في هذه الشهادة إلا أن في المحبة مقامين، مقام تعريف ومقام تعرف، فمقام التعريف هومعرفة العموم وهذا قبل المحبة الخاصة، ومقام التعرف معرفة الخصوص وهذا بعد محبة العموم، وهو مزيد الحب الأول، وهذا محبة خصوص، وكذلك في المحبة مقامان، مقام محب وأعلى منه مقام محبوب، وهذا كما عبروا عن قولهم مريد ومراد، وعلى الحقيقة كل مريد لله فهو مراد بذلك، إلا أنهم جعلوا اسم مراد بوصف مخصوص يعرف به فيمتاز معه المبتدئ من المبادئ، والمنيب من المجتبي، والطالب من المطلوب، والراغب من المرغوب، والحافظ من المحفوظ، فكذلك لعمري ليس الحامل مثل المحمول، ولا الزائر كالمزور ولا الاشتياق كالحضور، ولا المحب مثل المحبوب، قال أبو موسى الدبيلي: عرضت على أبي يزيد البسطامي كتاب صاحبنا عبد الرحيم في الإخلاص فما أعجبه منه إلا حكاية أبي عاصم الشامي في الشوق، يعني أن عبد الرحيم ذكر الإخلاص في كتابه فقال: قيل لأبي عاصم وافد أهل الشام يشتاق إلى الله، فقال: لا، قيل: ولم؟ قال: إنما يشتاق إلى غائب، فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشتاق؟ قلت: سقط الشوق، وهذا مقام محبوب، وفي المشاهدة مقامان؟ مقام شوق ومقام أنس، فالشوق حال من القلق والانزعاج عن مطالعة العزة ومعاينة الأوصاف من وراء حجاب الغيب بخفايا الألطاف، وفي هذا المقام الحزن والانكسار، والأنس حال من القرب عن مكاشفة الحضور بلطائف القدرة، ففي هذا المقام السرور والاستبشار، وقال ضيغم: عجيب للخليقة كيف أرادت بك بدلا، وعجبت لهاكيف أنست بسواك، وقال الجنيد: علامة كمال الحب دوام ذكره في القلب بالفرح والسرور والشوق إليه **والأنس به**، وأثرة محبة نفسه، والرضا بكل ما يصنع وعلامة أنسه بالله استلذاذ الخلوة، وحلاوة المناجاة، واستفراغ كله حتى لا يكاد يعقل الدنيا وما فيها، ولا يحمل هذا على الأنس بالخلق، فيرتب على مدراج المعقول، كما لا يحمل المحبة على محبة الخلق فيكون بمعاني العقول، لأنه حال منها، أو إنما هو طمأنينة وسكون إليه، ووجد حلاوة منه، واستراحة وروح بما أوجدهم، وقد أنكر الأنس من لا مقام له فيه، كما أنكر المحبة أيضا من لا معرفة له بها لأنه تخيل فيه محبة المخلوق، وتمثل لها صفاتهم، فقال: لا يعرف المحبة ولا يعقلها إلا لمخلوق وليس إلا الخوف والهيبة، وممن ذهب إلى هذا القول: أحمد بن غالب المعروف بغلام خليل، أنكر على الجنيد وأبي سعيد والثوري كلامهم في المحبة، وليس." (١)

"هذا مذهب السلف ولا طريقة العارفين، كتب عامر بن عبد الله إلى بعض إخوانه: آنسك الله بنفسه، وقيل لإبراهيم بن أدهم وقد نزل من الجبل: من أين أقبلت؟ قال: من **الأنس بالله** وأنشدونا لبعض العارفين:

الأنس بالله لا يحويه بطال ... وليس يدركه بالحول محتال

والآنسون رجال كلهم نجب ... وكلهم صفوة لله عمال

وقد روينا في التفسير عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله عز وجل: (الذين آمنوا تطمئن قلوبهم بذكر الله) الرعد: ٢٨، قال: هشت إليه وأنست به، وفي مقام الأنس يكون التملق والمناجاة، ومعه تكون المحادثة والمجالسة، ومعنى من البسط،

---

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد أبو طالب المكي ١٠٤/٢

ولا يحب الله تعالى هذا النوع من الإدلال إلا ممن أقامه مقام الأنس، ولا يحسن ذلك إلا منهم لنحو قول موسى عليه السلام في مقام الأنس: يا رب لي ماليس لك، قال: وماهو؟ قال: لي مثلك وليس لك مثل نفسك، قال: صدقت، معنى قوله: مثلك أي لي أنت كقوله تعالي: (ليس كمثله) الشورى: ١١، معناه ليس كهو شيء لأنه لا مثل له، فيكون لمثله مثل إذ لا يكون لمثله مثل، والعرب تعبر بالمثل عن نفس الشيء وفوق هذا من البسط ما أخبر الله تعالى عنه أنه قال مواجها للجليل العظيم: إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون، وأعظم من هذا قوله: اذهب إلى فرعون، فقال مجيبا له، فأرسل إلى هارون ولهم علي ذنب، ومثله قوله: إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري فحسن هذا منه، لأنه أقامه مقام البسط بين يديه **والأنس به**، ولأن مكانه لديه مكان محبوب، فأدل به عليه فحمله ذلك، وهذا من غير موسى في غير هذا المقام من سوء الأدب بين يدي المرسل، ولم يحتمل ليؤنس عليه السلام خاطرا من هذا القول لما أقيم مقام القبض والخوف، حتى عوقب بالسجن في بطن الحوت في البحر، في ظلمات ثلاث، ونودي عليه إلى يوم الحشر، لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم، وقيل: عراء القيامة، ونهي الله تعالى حبيبه صلى الله عليه وسلم أن يقتدي به في القول والفعل فقال تعالى: (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادي وهو مكظوم) القلم: ٤٨، وقد قال تعالى: (منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) البقرة: ٢٥٣، واحتمل لإخوة يوسف ما عزموا عليه واعتقدوه وما فعلوه وما أسروه من قولهم: اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم إلى نحو ذلك من الكلام والفعال، ولقد عددت من أول قولهم ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا إلى رأس العشر من أخباره عنهم في قوله، وكانوا فيه من الزاهدين نيفا وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض، قد يجتمع في الكلمة الواحدة الأربعة والخمسة من الخطايا، ودون ذلك وفوقه بدقائق الاستخراج ومعرفة خفايا الذنوب، فغفر لهم ذلك إن كانوا في مقام محبوبين، ولم يحتمل لعزير." (١)

"ولا يؤثر علي شيئا من خلقي، وإن حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعا، وإن قطع بالمناشير لم يجد للمس الحديد ألما، وقد روينا عن الخليل الحبيب عليه السلام أنه قال: تحابوا في الله وتصافوا وتباذلوا وتخاللوا فيها، وليس من كرم الله تعالى أن اتخذ عبدا من عباده خليلا فنبه أن الخلة من الله تعالى كانت لأوليائه عن فرط كرمه وفضل آلائه، ألحقهم بكرامته وأهلهم بفضله لها وعظمهم عن نصيب تعظيمه فيها، والله الواسع الكريم ذو الفضل العظيم، إذا رفع عبدا جاوز به الحدود، وإذا خفضه وضعه تحت المحدود، وقد تكلم الجنيد رحمه الله تعالى في مقام من هذا وقد سئل عنه فقال: هو غاية الحب وهو مقام عزيز يستغرق العقول وينسي النفوس، وهو من أعلى علم المعرفة بالله تعالى، وقال: في هذا المقام يعلم العبد أن الله عز وجل يحبه ويقول العبد: بحقي عليك وبجاهي عندك ويقول: بحبك لي، قال: وهؤلاء هم المدلون على الله تبارك وتعالى، والمستأنسون بالله تعالي، وهم جلساء الله تعالى، قد رفع الحشمة بينه وبينهم وزالت الوحشة بينهم وبينه، فهم يتكلمون بأشياء هي عند العامة كفر بالله لما قد علموا أن الله تعالى يحبهم، وأن لهم عند الله جاها ومنزلة، ثم قال عن بعض العلماء: أما أهل **الأنس بالله** تعالى فليس إلى معرفتهم سبل، هذا من كلام الجنيد ونحو معناه حدثني به الخاقاني المقري، ولولا أنا روينا عنه ما ذكرناه لا ماكنا نشرح حال هؤلاء إشفاقا على الألباب كما قال المجلى:

---

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد أبو طالب المكي ١٠٥/٢

وأن أشرح ثناءك غير أني ... أجلك عن كتاب في كتاب

وقد كان شيخنا أبو بكر بن الجلاء رحمه الله كتب إلى شيخنا أبي الحسن بن سالم رحمه الله تعالى، يسأله عن مسائل من معاني السرائر في كتاب، فحدثني من رآه: رمى بالكتاب وقال: أين صاحب هذه المسائل؟ فقيل: هو غائب بمكة فقال: أنا لا أجيب عن هذا في كتاب، قولوا له: يحضر إن أراد، وقد حدثني ابن الجلاء بهذا لأن مقام الخلة هو الذي أخفيناه وعظمناه، لا يعطاه العبد إلا في مقام مع مقام، فالمقام الأول هو المعرفة الخاصية بظهور تعرف كشفا عن وصف الباطن، ثم يدخل عليه المحبة المخصوصة وهو مقام محبوب، ثم يرفع من هذا المقام إلى مقام الخلة وهو الإشراف على سرائر غيوب من شرفات العرش وسرادقات القدس وغير ذلك، والأصل فيما ذكرناه أنه سبحانه يعطي مقامات المعرفة في مقام عارف، ولا يعطي فيه مقام محبوب، وقد يعطي مقامات من المحبة في مقام محب ولا يعطي شهادته خلة لغير خليل عارف، فإذا جمع مقام معرفة تعرف إلى مقام محبة محبوب أعطي مقاما من الخلة الذي وصفناه، وهذا من أعز ما أظهر في الكون لمظهر مكنون، وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خطب الناس قبل موته بثلاث فقال: إن الله تعالى قد اتخذ صاحبكم خليلا." (١)

"كفاية، وفي الخبر: ما زار رجل أخاه في الله عز وجل شوقا إليه ورغبة في لقائه، إلا ناداه ملك من خلفه: طبت وطابت لك الجنة، وقال الحسن: من شيع أخا له في الله عز وجل بعث الله ملائكة من تحت عرشه يوم القيامة يشيعونه إلى الجنة، وعن عطاء قال: كان يقول: تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث، فإن كانوا مرضى فعودوهم، وإن كانوا مشاغيل فأعينوهم، وإن كانوا نسوا فذكروهم، وكان الشعبي يقول: في الرجل يجالس الرجل فيقول: أعرف وجهه ولا أعرف اسمه ذلك معرفة التوكل.

وقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه رأى عمر يلتفت يمينا وشمالا فسأله، فقال: يا رسول الله أحببت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه، فقال: يا أبا عبد الله إذا أحببت أحدا فسله عن اسمه واسم أبيه، وعن منزله فإن كان مريضا عدته، وإن كان مشغولا أعنته، وعن الضحاك عن ابن عباس قيل له: من أحب الناس إليك، قال: جليسي، وكان يقول: ما اختلف رجل إلى مجلسي ثلاثا من غير حاجة تكون له إلي، فعلمت مكافأته من الدنيا.

وكان سعيد بن العاص يقول: لجليسي علي ثلاث: إذا دنا رحبت به وإذا حدث أقبلت عليه وإذا جلس أوسعت له، وقال الأحنف بن قيس: الإنصاف يثبت المودة، ومع كرم العشرة تطول الصحبة، وكان يقول: ثلاث خلال تجلب بهن المحبة: الإنصاف في المعاشرة، والمواساة في الشدة والانطواء على المودة، وقال أكثم بن صيفي لبنيه: يا بني، تقاربوا في المودة ولا تتكلوا على القرابة، وقد قيل لأبي حازم: ما القرابة، قال: المودة، فأول ما تصح له المحبة في الله عز وجل أن لا يكون لضد ذلك من صحبة لأجل معصية، ولا على حظ من دنياه، ولا لسبب موافقته على هواه، ولا لأجل ارتفاقه به اليوم لمنافعه ومصالحه في أحواله، ولا يكون ذلك مكافأة على إحسان أحسن به إليه، ولا لنعمة ويد يجزيه عليها، فهذه ليس فيها طريق إلى الله عز وجل ولا للآخرة، لأنها طرقات الدينا ولأسباب الهوى، فإذا سلم من هذه المعاني، فهذه أول المحبة لله عز وجل،

---

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد أبو طالب المكي ١٢٦/٢

ولا يقدح في الأخوة لله تبارك وتعالى لأن هذه شبهة ثانية فيه مثل أن يحبه لحسن خلقه، وفضل أدبه، وحسن حلمه، وكمال عقله، وكثرة احتماله وصبره، أو لوجود **الأنس به** وارتفاع الوحشة منه، أو للألفة التي جعل الله بينه وبينه، وإنما يخرجه عن حقيقة الحب في الله عز وجل، أن يحبه لما يكون دخلا في الدين ووليجة في طرائق المؤمنين، ولما انفصل عنه ولم يكن متصلا به، مثل الأنعام والأفضال ووجود الارتفاق، فهذا الحب لا يمنع القلب وجده، لما جبل الطبع عليه، ولبغض من كان بضده، ممن أساء إليه وليس يأثم ولا يعصى بوجود هذه المحبة لأجل هذه الأسباب المعروقة، كما أنه إذا أساء إليه ووجد بغضه لا يأثم ما لم يخرجه البغض إلى مجاوزة حد بإيجاب حكم، إلا أن هذه محبة النفس بالطبع، وإنما يفضل المرء بمحبة القلب لأجل الله عز وجل، والبغض فيه شيء، وإن كان مباحا لأنها تحول وتزول، وكل محبة تكون." (١)

"والامتناع من ظنون لا يرضاها الله، وعلامة المستحيي ألا يرى في مكان يستحي من مثله.

وقال يوسف بن الحسين: حقيقة الشكر لله أن يتولى الله شكره لنفسه عنك.

وقال آخر: من وفق للشكر فقد ظفر بموهبة هي أجل من النعمة.

وقال صوفي: الحزن يهد البدن، والشوق يهد القلب.

وقال ذو النون: حقيقة **الأنس بالله** الاستيحاش من القواطع عن الله.

وقال صوفي: من التوكل ألا تطلب لنفسك ناصرا غير الله تعالى، ولا لرزقك قاسما غير الله، ولا لعملك شاهدا غير الله.

وقال يحيى بن معاذ: عجبت من ثلاثة: من رجل يريد تناول رزقه بتدبيره وهو يرى تناقض تدبيره، ورجل شغله هم غده عن غنيمة يومه وهو محتاج إلى يومه لأنه شاك في غده، ومن عالم مفتون يعيب على زاهد مغبوط.." (٢)

"" يستخبلوا المال يخبلوا " فإنه كان عندنا: " يستخولوا المال يخولوا " ولكل وجه، ولكن **الأنس بهذه** الرواية أكثر.

وصدق عبد الملك في مناقلته لحرثان، ودل على الكرم المنافس عليه، ونهى متابعة الهوى وقلة المبالاة، وسوء النظر في العاقبة؛ وإن بعض الفتيان البطالة إذا قال: " والله لأتعرضن لجناية أضرب عليها ألف سوط فيصح عند الفتيان صبري " لأعذر عند الناس ممن يتعرض لحرمان مختبط لمعروف، ومنع لمنتجع خير، وإساءة قرى طارق، وتكليح وجه في وجه سائل.

---

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد أبو طالب المكي ٣٦٨/٢

(٢) البصائر والذخائر أبو حيّان التوحيدي ١٥٨/٢

وما أسهل قول الإنسان: دع الشاعر فليقل ما شاء، ودع الزائر فليفر فريه كيف أحب! ولكنه إذا زل القول، وطار الحديث، وتمت النادرة، فأين المتدارك؟ وأين المعتذر؟ وأين المتلافي؟ هيهات!." (١)

"أخبرنا الحسن بن رشيق إجازة قال حدثنا علي بن يعقوب بن سويد الوراق حدثنا محمد بن إبراهيم البغدادي حدثنا محمد بن سعيد الخوارزمي قال سمعت ذا النون وسئل عن المحبة قال أن تحب ما أحب الله وتبغض ما أبغض الله وتفعل الخير كله وترفض كل ما يشغل عن الله وألا تخاف في الله لومة لائم مع العطف للمؤمنين والغلظة على الكافرين واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدين

سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله بن شاذان الرازي يقول سمعت يوسف ابن الحسين يقول سمعت ذا النون يقول قال الله تعالى (من كان لي مطيعا كنت له وليا فليثق بي وليحكم علي فوعزتي لو سألني زوال الدنيا لأزلتها له)

أخبرني محمد بن أحمد بن يعقوب إجازة أن عبد الله بن محمد بن ميمون حدثهم قال سألت ذا النون عن الصوفي فقال من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق

وبه قال سمعت ذا النون يقول **الأنس بالله** من صفاء القلب مع الله والتفرد بالله الانقطاع من كل شيء سوى الله

سمعت أبا عثمان سعيد بن أحمد بن جعفر يقول سمعت محمد بن أحمد ابن محمد بن سهل يقول سمعت سعيد بن عثمان الخياط يقول سمعت ذا." (٢)

"وبإسناده قال سمعت ذا النون يقول أدنى منازل الأنس أن يلقى في النار فلا يغيب همه عن مأموله

سمعت أبا سعيد أحمد بن محمد بن رميح الحافظ يقول سمعت أبا يعلى ابن خلف يقول سمعت ابن البرقي يقول سمعت ذا النون يقول **الأنس بالله** نور ساطع والأنس بالخلق غم واقع

سمعت نصر بن محمد بن أحمد بن يعقوب العطار يقول سمعت أبا محمد البلاذري يقول سمعت يوسف بن الحسين يقول سمعت ذا النون يقول لله عباد تركوا الذنب استحياء من كرمه بعد أن تركوه خوفا من عقوبته ولو قال لك اعمل ما شئت فلست آخذك بذنب كان ينبغي أن يزيدك كرمه استحياء منه وتركا لمعصيته إن كنت حرا كريما عبدا شكورا فكيف وقد حذرك

وبإسناده قال ذو النون الخوف رقيب العمل والرجاء شفيع المحن

وبإسناده قال ذو النون اطلب الحاجة بلسان الفقر لا بلسان الحكم

سمعت أحمد بن علي بن جعفر يقول سمعت الحسن بن سهل بن عاصم يقول سمعت علي بن عبد الله الكرجي يقول سمعت

---

(١) أخلاق الوزيرين = مثالب الوزيرين أبو حيّان التوحيدي ص/٣٧١

(٢) طبقات الصوفية للسلمي ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات أبو عبد الرحمن السلمي ص/٢٩

ذا النون يقول مفتاح العبادة الفكرة وعلامة الهوى متابعة الشهوات وعلامة التوكل انقطاع المطامع

سمعت أحمد بن علي بن جعفر يقول سمعت فارسا يقول سمعت." (١)

"قال قلت علمني اسم الله الأعظم فسأل الشيخ ما هو فقلت إنه يتعاظم علي أن أنطق به فإني سألت به مرة فإذا برجل آخذ بحجزتي وقال سل تعطه فراعني فقال لا روع عليك أنا أخوك الخضر إن أخي داود علمك إياه فإياك أن تدعو به إلا في بر ثم قال يا غلام إن الزاهدين في الدنيا قد اتخذوا الرضا عن الله لباسا وحبه دثارا والأثرة له شعارا فتفضل الله تعالى عليهم ليس كتفضله على غيرهم ثم ذهب عني فتعجب الشيخ من قولي

ثم قال إن الله سيبلغ بمن كان في مثالك ومن تبعك من المهتدين ثم قال يا غلام إنا قد أفدناك ومهدناك وعلمناك علما ثم قال بعضهم لا تطمع في السهر مع الشبع ولا تطمع في الحزن مع كثرة النوم ولا تطمع في الخوف لله مع الرغبة في الدنيا ولا تطمع في **الأنس بالله** مع الأنس بالمخلوقين ولا تطمع في إلهام الحكمة مع ترك التقوى ولا تطمع في الصحة في أمورك مع موافقة الظلمة ولا تطمع في حب الله مع محبة المال والشرف ولا تطمع في لين القلب مع الجفاء لليتيم والأرملة والمسكين ولا تطمع في الرقة مع فضول الكلام ولا تطمع في رحمة الله مع ترك الرحمة للمخلوقين ولا تطمع في الرشد مع ترك مجالسة العلماء ولا تطمع في الحب لله مع حب المدحة ولا تطمع في الورع مع الحرص في الدنيا ولا تطمع في الرضا والقناعة مع قلة الورع ثم قال بعضهم يا إلهنا احجبه عنا واحجبنا عنه قال إبراهيم فما أدري أين ذهبوا

سمعت أحمد بن علي بن الحسن المقرئ يقول سمعت محمد بن غالب التمتام يقول كتب إبراهيم بن أدهم إلى سفيان الثوري من عرف ما." (٢)

"وبه قال السري من قلة الصدق كثرة الخلطاء

وبه قال السري حسن الخلق كف الأذى عن الناس واحتمال الأذى عنهم بلا حقد ولا مكافأة

وبه قال السري من علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس

وبه قال السري خير الرزق ما سلم من خمسة من الآثام في الاكتساب والمذلة والخضوع في السؤال والغش في الصناعة وأثمان آلة المعاصي ومعاملة الظلمة

وبه قال السري أحسن الأشياء خمسة البكاء على الذنوب وإصلاح العيوب وطاعة علام الغيوب وجلاء الرين من القلوب وألا تكون لكل ما تهوى ركوب

وبهذا الإسناد قال السري خمسة أشياء لا يسكن في القلب معها غيرها الخوف من الله وحده والرجاء لله وحده والحب لله وحده والحياء من الله وحده **والأنس بالله** وحده

سمعت أبا الحسين محمد بن أحمد بن إبراهيم الفارسي يقول سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت علي بن عبد الحميد

---

(١) طبقات الصوفية للسلمي ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات أبو عبد الرحمن السلمي ص/٣٣

(٢) طبقات الصوفية للسلمي ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات أبو عبد الرحمن السلمي ص/٤٠

الغضائري بحلب يقول سمعت السري يقول أجلد الناس من ملك غضبه

وبهذا الإسناد قال السري من تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله عز وجل." (١)

"٣٥ – ومنهم علي بن سهل الأصبهاني وهو علي بن سهل بن الأزهر وكنيته أبو الحسن

وهو من قدماء مشايخ أصبهان كان يكاتب الجنيد ويراسله وهو من أقرانه قصده عمرو بن عثمان المكي في دين كان عليه بمكة فكتب بديونه سفاتج إلى مكة ولم يعلمه بذلك وهو ثلاثون ألف درهم صحب محمد ابن يوسف بن معدان ولقي أبا تراب النخشبي

سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله الطبري يقول سمعت علي بن سهل بن الأزهر يقول المبادرة إلى الطاعات من علامات التوفيق والتقاعد عن المخالفات من علامات حسن الرعاية ومراعاة الأسرار من علامات التيقظ وإظهار الدعاوي من رعونات البشرية ومن لم يصحح مبادئ إرادته لا يسلم في منتهى عواقبه

وسمعت محمدا يقول سمعت عليا يقول الغافلون يعيشون في حلم الله والذاكرون يعيشون في رحمة الله والعارفون يعيشون في لطف الله والصادقون يعيشون في قرب الله والمحبون يعيشون في **الأنس بالله** والشوق إليه

سمعت أبا نصر الطوسي يقول سمعت أبا جعفر الأصبهاني يقول سمعت." (٢)

"علي بن سهل يقول الحضور أفضل من اليقين لأن الحضور وطنات واليقين خطرات

سمعت أبا نصر يقول سمعت أبا سلم الأصبهاني يقول سمعت علي بن سهل يقول حرام على من عرف الله أن يسكن إلى شيء غيره

وسمعت أبا نصر يقول سمعت أبا سلم يقول سمعت أبا جعفر الحداد يقول سمعت علي بن سهل يقول من وقت آدم إلى قيام الساعة الناس يقولون القلب القلب وأنا أحب أن أرى رجلا يصف لي أيش القلب وكيف القلب فلا أرى

وبإسناده قال علي **الأنس بالله** أن تستوحش من الخلق إلا من أهل ولاية الله فإن الأنس بأهل ولاية الله هو **الأنس بالله**

وبإسناده قال علي لا يغرنك من الأحمق كثرة الالتفات وسرعة الجواب

وبإسناده قال علي العقل مع الروح يدعوان إلى الآخرة ومخالفة الهوى والشهوات فلذلك سمي روحا

وبإسناده قال علي المستهتر السالي بالله عن كل شيء

وبإسناده قال علي من فقه قلبه أورثه ذلك الإعراض عن الدنيا وأبنائها فإن من جهل القلب متابعة سرور لا يدوم وأنشد

(ليتني مت فاسترحت فإني ... كلما قلت قد قربت بعدت)

وبإسناده قال علي الفقيه من لا يدخل تحت المنسوبات إليه." (٣)

---

(١) طبقات الصوفية للسلمي ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات أبو عبد الرحمن السلمي ص/٥٧

(٢) طبقات الصوفية للسلمي ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات أبو عبد الرحمن السلمي ص/١٨٧

(٣) طبقات الصوفية للسلمي ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات أبو عبد الرحمن السلمي ص/١٨٨

"أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن شاذان الرازي قال أخبرنا أبو بكر الحسين بن علي بن يزدانيار الصوفي قال حدثنا محمد بن يونس بن موسى البصري قال حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد النبيل قال حدثنا ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء)

سمعت أبا بكر الرازي يقول سمعت أبا بكر بن يزدانيار يقول إياك أن تطمع في **الأنس بالله** وأنت تحب الأنس بالناس وإياك أن تطمع في حب الله وأنت تحب الفضول وإياك أن تطمع في المنزلة عند الله وأنت تحب المنزلة عند الناس

سمعت أبا الفرج الورثاني يقول سمعت أبا عبد الرحمن الموصلي يقول رأيت ابن يزدانيار في القوم وهو يحدث أصحابه ويقول وردت القيامة فرأيت آدم عليه السلام والناس يسلمون عليه ويصافحونه فذهبت لأصافحه وأسلم فقال أغرب عني أنت الذي وقعت في أولادي الصوفية لقد قرت عيناي بهم فجاء قوم فحالوا بيني وبينه

سمعت أبا الفرج يقول سمعت علي بن إبراهيم الأرموي يقول سمعت ابن يزدانيار يقول تراني تكلمت بما تكلمت به إنكارا على التصوف والصوفية والله ما تكلمت إلا غيرة عليهم حيث أفشوا أسرار الحق وأبدوها إلى غير أهلها فحملني ذلك على الغيرة عليهم والكلام فيهم وإلا فهم السادة وبمحبتهم أتقرب إلى الله تعالى

وسمعت أبا بكر الرازي يقول سمعت أبا بكر بن يزدانيار وسئل ما." (١)

"حفصة بنت سيرين تسرج سراجها من الليل ثم تقوم وتصلي في مصلاها فربما طفئ السراج ويضيء لها البيت حتى تصبح

٢٢ - لبابة العابدة

من أهل الشام كانت من أهل الورع والنسك

ذكر أحمد بن محمد الأنطاكي عن أحمد بن أبي الحواري قال سمعت أحمد بن محمد يقول قالت لبابة إني لأستحيي من الله تعالى أن يراني مشغولة بغيره بعد أن عرفته

قال وقالت المعرفة لله تورث المحبة له والمحبة لله تورث الشوق إليه والشوق إليه يورث **الأنس به** **والأنس به** يورث المداومة على خدمته وموافقته

٢٣ - حكيمة الدمشقية

من سادات نساء الشام وكانت أستاذ رابعة وصاحبتها

أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن سعيد الرازي قال حدثنا العباس بن حمزة قال حدثنا أحمد بن أبي الحواري قال قالت لي رابعة دخلت على حكيمة وهي تقرأ في المصحف فقالت لي يا رابعة بلغني أن زوجك يتزوج عليك قلت نعم قالت كيف يرضى مع ما يبلغني من عقله أن يشتغل قلبه عن الله تعالى بامرأتين أما بلغك تفسير هذه الآية ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ قلت لا قالت هو أن يلقى الله تعالى وليس في قلبه أحد غيره

---

(١) طبقات الصوفية للسلمي ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات أبو عبد الرحمن السلمي ص/٣٠٧

قال أبو سليمان ما سمعت منذ ثلاثين سنة حديثا أرفع من هذا

قالت رابعة فلما سمعت كلامها خرجت وأنا أتمايل في الزقاق فاستحييت من الرجال لا يرون أني سكرانة." (١)

"أخبرنا أبو الحسين عبد العزيز بن الحسين الهمذاني، ببغداد، أخبرنا جعفر بن محمد بن نصير، أخبرنا أبو القاسم الجنيد، قال: كلمت يوما الحسن المسوحي في شيء من **الأنس بالله**، فقال لي: «ويحك وما الأنس لو مات من تحت السماء ما استوحشت»." (٢)

"الودود الولود القعود.

وقال بعض العرب: خير النساء الهينة اللينة، النقية التقية التي تعين زوجها على الدهر، ولا تعين الدهر على زوجها. وقال بعض السلف: المرأة الصالحة إحدى الحسنيين.

ويقال: أعون الأعوان على المعيشة: المرأة الصالحة. ويقال:

الإنسان لا يسكن إلى شيء كسكونه إلى زوجته، ولذلك إن الله تعالى خلق حواء ليسكن إليها آدم عليه السلام. كما قال عز اسمه: هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها

«١» .

فالسكون إلى الأزواج **والأنس بهن** مما ورثوه عن آبائهم.

وقال بعضهم: إن الرجل لا يسكن إلى شيء كسكونه إلى زوجته الموافقة المؤاتية له، لأن الله عز اسمه يقول: ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة

«٢» ولم يخصص بهذه الصفة غير النساء، ولذلك يهجر الرجل والديه وأولاده ومن دونهم بسبب زوجته، ولذلك لا يهتم أحد لأحد كاهتمام المرأة الصالحة لزوجها في شفقتها عليه وعلى عياله، ولا يكاد يتم أمر منزل الرجل ومروءته إلا بحرة شفيقة رفيعة صالحة عفيفة، وإلا اختلت أموره واضطربت أسبابه.

وقال خالد بن صفوان لرجل: أطلب لي بكرا كثيب، أو ثيبا كبكر. لا ضرعاء صغيرة، ولا عجوزا كبيرة قد عاشت في نعمة وأدركتها حاجة، فخلق النعمة فيها وذل الحاجة معها.." (٣)

"حدثنا أبي ، ثنا أحمد بن محمد ، ثنا أبو علي ابن الحسين بن عبد الله بن شاكر السمرقندي ، ثنا أبو الحسن أحمد بن أبي الحواري وسمعته يقول: « انقطع إلى الله وكن عابدا زاهدا صادقا متوكلا مستقيما عارفا ذاكرا مؤنسا مستحيا خائفا راجيا راضيا وعلامة الرضا أن لا يختار شيئا إلا ما يختاره له مولاه فإذا كان ذلك كذلك كان له من الله عون حتى يرده إلى طاعته ظاهرا وباطنا ولا يكون العبد تائبا حتى يندم بالقلب ويستغفر باللسان ويرد المظالم فيما بينه وبين الناس ويجتهد في العبادة ثم يتشعب له من التوبة والاجتهاد الزهد ثم يتشعب له من الزهد الصدق ، ثم يتشعب له من الصدق التوكل ثم

---

(١) طبقات الصوفية للسلمي ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات أبو عبد الرحمن السلمي ص/٣٩٧

(٢) الأربعون في شيوخ الصوفية للماليني الماليني ص/١١٧

(٣) اللطائف والظرائف الثعالبي، أبو منصور ص/١٦٤

يتشعب له من التوكل الاستقامة ثم يتشعب له من الاستقامة المعرفة ثم يتشعب له من المعرفة الذكر ثم يتشعب له من الذكر الحلاوة والتلذذ ، ثم بعد التلذذ الأنس ، ثم بعد **الأنس بالله** الحياء ، ثم بعد الحياء الخوف وعلامة الخوف الاستعداد والتحويل من هذه الأحوال لا يفارق خوف تحويل هذه الأحوال من قلبه دون لقائه»." (١)

"حدثنا أحمد بن إسحاق ، ثنا إبراهيم بن نائلة ، ثنا أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت مضاء بن عيسى ، يسأل سباعا الموصلي إلى أي شيء انتهى بهم الزهد؟ قال: «إلى **الأنس به»**." (٢)

"أخبرني أبو بكر محمد بن أحمد في كتابه قبل أن لقيته، وحدثني بهذا، عنه عثمان بن محمد العثماني، حدثني أبو عبد الله أحمد بن عبد الله بن ميمون قال: سمعت الحارث بن أسد، يقول: " إن أول المحبة الطاعة وهي منتزعة من حب السيد عز وجل إذ كان هو المبتدئ بها وذلك أنه عرفهم نفسه ودلهم على طاعته وتحبب إليهم على غناه عنهم فجعل المحبة له ودائع في قلوب محبيه ثم ألبسهم النور الساطع في ألفاظهم من شدة نور محبته في قلوبهم، فلما فعل ذلك بهم عرضهم سرورا بهم على ملائكته حتى أحبهم الذين ارتضاهم لسكنى أطباق سمواته نشر لهم الذكر الرفيع عن خليقته قبل أن يخلقهم مدحهم وقبل أن يحمدوه شكرهم لعلمه السابق فيهم أنه يبلغهم ما كتب لهم وأخبر به عنهم ثم أخرجهم إلى خليقته وقد استأثر بقلوبهم عليهم ثم رد أبدان العلماء إلى الخليقة وقد أودع قلوبهم خزائن الغيوب فهي معلقة بمواصلة المحبوب فلما أراد أن يحييهم ويحيي الخليقة بهم أسلم لهم هممهم ثم أجلسهم على كرسي أهل المعرفة فاستخرجوا من المعرفة المعرفة بالأدواء ونظروا بنور معرفته إلى منابت الدواء ثم عرفهم من أين يهيج الداء وبما يستعينون على -[٧٧]- علاج قلوبهم، ثم أمرهم بإصلاح الأوجاع وأوعز إليهم في الرفق عند المطالبات وضمن لهم إجابة دعائهم عند طلب الحاجات نادى بخطرات التلبية من عقولهم في أسماع قلوبهم أنه تبارك وتعالى يقول: " يا معشر الأدلاء من أتاكم عليلا من فقدي فداووه، وفارا من خدمتي فردوه وناسيا لأيادي ونعمائي فذكروه، لكم خاطبت لأني حليم والحليم لا يستخدم إلا الحلماء ولا يبيح المحبة للبطالين ضنا بما استأثر منها إذ كانت منه وبه تكون فالحب لله هو الحب المحكم الرصين وهو دوام الذكر بالقلب واللسان لله وشدة **الأنس بالله** وقطع كل شاغل شغل عن الله، وتذكار النعم والأيادي وذلك أن من عرف الله بالجود والكرم والإحسان اعتقد الحب له إذ عرفه بذلك أنه عرفه بنفسه وهداه لدينه ولم يخلق في الأرض شيئا إلا وهو مسخر له وهو أكرم عليه منه فإذا عظمت المعرفة واستقرت هاج الخوف من الله وثبت الرجاء، قلت: خوفا لماذا؟ ورجاء لماذا؟ قال: خوفا لما ضيعوا في سالف الأيام لازما لقلوبهم ثم خوفا ثابتا لا يفارق قلوب المحبين خوفا أن يسلبوا النعم إذا ضيعوا الشكر على ما أفادهم فإذا تمكن الخوف من قلوبهم وأشرفت نفوسهم على حمل القنوط عنهم هاج الرجاء بذكر سعة الرحمة من الله فرجاء المحبين تحقيق وقربانهم الوسائل فهم لا يسأمون من خدمته ولا ينزلون في جميع أمورهم إلا عند أمره لمعرفتهم به أنه قد تكفل لهم بحسن النظر ألم تسمع إلى قول الله ﴿الله لطيف بعباده﴾ [الشورى: ١٩] فدخلت النعم كلها في اللطف واللطف ظاهر على محبته خاصة دون الخليقة وذلك أن الحب إذا ثبت في قلب عبد لم يكن فيه فضل لذكر إنس ولا جان ولا جنة ولا نار ولا شيء إلا ذكر الحبيب

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ٨/١٠

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ١٠/١٠

وذكر أياديه وكرمه وذكر ما دفع عن المحبين له من شر المقادير كما دفع عن إبراهيم الخليل عليه السلام وقد أججت النار وتوعده المعاند بلهب الحريق فأراه جل وعز آثار القدرة في مقامه ونصرته لمن قصده ولا يريد به بدلا، وذكر ما وعد أولياءه من زيارتهم إياه وكشف الحجب لهم وأنهم لا يحزنهم الفزع الأكبر في يوم فزعهم إلى معونته على شدائد الأخطار -[٧٨]- والوقوف بين الجنة والنار، قال الحارث: وقيل: إن الحب لله هو شدة الشوق وذلك أن الشوق في نفسه تذكار القلوب بمشاهدة المعشوق وقد اختلف العلماء في صفة الشوق فقالت فرقة منهم: الشوق انتظار القلب دولة الاجتماع، وسألت رجلا لقيته في مجلس الوليد بن شجاع يوما عن الشوق متى يصح لمن ادعاه؟ فقال: إذا كان لحالته صائنا مشفقا عليها من آفات الأيام وسوء دواعي النفس وقد صدق العالم في قوله وذلك أن المشتاقين لولا أنهم ألزموا أنفسهم التهم والمذلة لسلبوا عذوبات الفوائد التي ترد من الله على قلوب محبيه، قلت: فما الشوق عندك؟ قال: الشوق عندي سراج نور من نور المحبة غير أنه زائد على نور المحبة الأصلية قلت: وما المحبة الأصلية؟ قال: حب الإيمان وذلك أن الله تعالى قد شهد للمؤمنين بالحب له فقال: ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ [البقرة: ١٦٥] فنور الشوق من نور الحب وزيادته من حب الوداد وإنما يهيج الشوق في القلب من نور الوداد فإذا أسرج الله ذلك السراج في قلب عبد من عباده لم يتوهج في فجاج القلب إلا استضاء به وليس يطفئ ذلك السراج إلا النظر إلى الأعمال بعين الأمان فإذا أمن على العمل من عدوه لم يجد لإظهاره وحشة السلب فيحل العجب وتشرد النفس مع الدعوى وتحل العقوبات من المولى، وحقيق على من أودعه الله وديعة من حبه فدفع عنان نفسه إلى سلطان الأمان أن يسرع به السلب إلى الافتقاد، وقالت امرأة من العوابد: والله لو وهب الله لأهل الشوق إلى لقائه حالة لو فقدوها لسلبوا النعيم، قيل لها: وما تلك الحالة؟ قالت: استقلال الكثير من أنفسهم ويعجبون منها كيف صارت مأوى لتلك الفوائد وقيل لبعض العباد: أخبرنا عن شوقك إلى ربك ما وزنه في قلبك فقال العابد للسائل: لمثلي يقال هذا؟ لا يمكن أن يوزن في القلب شيء إلا بحضرة النفس وإن النفس إذا حضرت أمرا في القلب من ميراث القربة قذفت فيه أسباب الكدورات، وقيل لمضر القارئ: الخوف أولى بالمحب أم الشوق؟ فقال: هذه مسألة لا أجيب فيها ما اطلعت النفس على شيء قط إلا أفسدته، وأنشدني عبد العزيز بن عبد الله في ذلك يقول:

[البحر الكامل]

-[٧٩]-

الخوف أولى بالمسيء ... إذا ناله الحزن

والحب يحسن بالمطيـ ... ـع وبالنقي من الدرن

والشوق للنجباء والـ ... أبدال عن ذوي الفطن

فلذلك قيل: الحب هو الشوق لأنك لا تشتاق إلا إلى حبيب فلا فرق بين الحب والشوق إذا كان الشوق فرعا من فروع الحب الأصلي وقيل: إن الحب يعرف بشواهده على أبدان المحبين وفي ألفاظهم وكثرة الفوائد عندهم لدوام الاتصال بحبيبهم فإذا واصلهم الله أفادهم فإذا ظهرت الفوائد عرفوا بالحب لله ليس للحب شبح ماثل ولا صورة فيعرف بجبلته وصورته وإنما يعرف المحب بأخلاقه وكثرة الفوائد التي يجريها الله على لسانه بحسن الدلالة عليه وما يوحى إلى قلبه فكلما ثبتت أصول الفوائد في قلبه نطق اللسان بفروعها فالفوائد من الله واصلة إلى قلوب محبيه فأبين شواهد المحبة لله شدة النحول بدوام الفكر

وطول السهر بسخاء الأنفس على الأنفس بالطاعة وشدة المبادرة خوف المعالجة، والنطق بالمحبة على قدر نور الفائدة فلذلك قيل: إن علامة الحب لله حلول الفوائد من الله بقلوب من اختصه الله بمحبته وأنشد بعض العلماء:

وله خصائص يكلفون بحبه اختارهم في سالف الأزمان

اختارهم من قبل فطرة خلقهم بودائع وفوائد وبيان فالحب لله في نفسه استنارة القلب بالفرح لقربه من حبيبه فإذا استنار القلب بالفرح استلذ الخلوة بذكر حبيبه فالحب هائج غالب والخوف لقلبه لازم لا هائج إلا أنه قد ماتت منه شهوة كل معصية وهدى لأركان شدة الخوف وحل الأنس بقلبه لله فعلامة الأنس استثقال كل أحد سوى الله فإذا ألف الخلوة بمناجاته حبيبه استغرقت حلاوة المناجاة العقل كله حتى لا يقدر أن يعقل الدنيا وما فيها، ومن ذلك قول ضيغم العابد: عجبا للخليقة كيف استنارت قلوبهم بذكر غيرك "؟ وحدثني أبو محمد قال: " أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود إن محبتي في خلقي أن يكونوا روحانيين وللروحانية علم -[٨٠]- هو أن لا يغتموا وأنا مصباح قلوبهم، يا داود لا تمزج الغم قلبك فينقص ميراث حلاوة الروحانيين، يا داود هممت للخبز أن تأكله وأنت تريدني وتزعم أنك منقطع إلي تدعي محبتي وأنك قد أحببتني وأنت تسيئ الظن بي أما كان لك علم فيما بيني وبينك أن كشفت لك الغطاء عن سبع أرضين حتى أريتك دودة في فيها برة تحت سبع أرضين حتى تهتم بالرزق، يا داود، أقر لي بالعبودية أمنحك ثواب العبودية وهو محبتي، يا داود تواضع لمن تعلمه ولا تتطاول على المريدين فلو يعلم أهل محبتي ما قدر المريدين عندي لكانوا للمريدين ، أرضا يمشون عليها وللحسوا أقدامهم، يا داود إذا رأيت لي طالبا فكن له خادما واصبر على المؤونة تأتك المعونة، يا داود لأن يخرج على يديك عبد ممن أسكره حب الدنيا حتى تستنقذه من سكره ما هو فيه سميتك عندي جهبذا ومن كان جهبذا لم تكن به فاقة ولا وحشة إلى أحد من خلقي، يا داود من لقيني وهو يحبني أدخلته جنتي "." (١)

"أخبرنا جعفر بن محمد بن نصير، في كتابه ، وحدثني عنه عثمان قال: سمعت الجنيد بن محمد، يقول: سئل الحارث بن أسد وقيل له: رحمك الله ما علامة **الأنس بالله؟** قال: " التوحش من الخلق، قيل له: فما علامة التوحش من الخلق؟ قال: الفرار إلى مواطن الخلوات والتفرد بعذوبة الذكر فعلى قدر ما يدخل القلب من الأنس بذكر الله يخرج التوحش كما قال بعض الحكماء في مناجاته: يا من آنسني بذكره وأوحشني من خلقه، وكان عند مسرتي ارحم عبرتي، وفي قول الله تعالى لداود عليه السلام: كن بي مستأنسا ومن -[١٠٨]- سواي مستوحشا ". وقيل لبعض المتعبدين: ما فعل فلان؟ قال: أنس فتوحش، وقيل لرابعة: بم نلت هذه المنزلة؟ قالت: بتركي ما لا يعنيني وأنسي بمن لم يزل يوالني، وقال ذو النون في بعض كلامه: يا أنيس كل منفرد بذكرك، وجليس كل متوحد بحبك، وقال عبد الواحد بن زيد لراهب: يا راهب لقد تعجلت الوحدة، فقال الراهب: يا فتى لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك، الوحدة رأس العبادة ما آنستها الفكرة، قال: يا راهب، ما أقل ما يجد العبد في الوحدة؟ قال: الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم ، قال: يا راهب، متى يذوق العبد حلاوة **الأنس بالله؟** قال: إذا صفا الود وخلصت المعاملة، قال: يا عبد الله متى يصفو الود؟ قال: إذا اجتمع الهم فصار في الطاعة، قلت: متى تخلص المعاملة؟ قال: إذا اجتمع الهم فصار هما واحدا، وقال بعض الحكماء: عجبا

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ٧٦/١٠

للخلائق كيف أرادوا بك بدلا؟ وعجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك؟ اللهم آنست الآنسين من أوليائك وخصصتهم بكفاية المتوكلين عليك تشاهدهم في ضمائرهم وتطلع عليهم في سرائرهم وستري عندك مكشوف وأنا إليك ملهوف فإذا أوحشتني العزلة آنسني ذكرك وإذا كثرت علي الهموم رجعت إلى الاستجارة بك يا رب العالمين، وقال إبراهيم بن أدهم: جئت من أنس الرحمن، وكما قال بعض الحكماء: لو أن معي أنسا لتوحشت، قيل: رحمك الله فما علامة صحة **الأنس بالله؟** قال: ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم واختيار القلب عذوبة الذكر ، قيل: رحمك الله فما علامته في ظاهره؟ قال: منفرد في جماعة ومستجمع في خلوة وغريب في حضر وحاضر في سفر وشاهد في غيبة وغائب في حضور، قيل: اشرح عن وصف هذا ما معنى منفرد في جماعة ومستجمع في خلوة؟ قال: منفرد بالذكر مشغول بالفكر لما استولى على القلب والهم من الشغل وطيب عذوبة الذكر وحلاوته وهو منفرد فيما هو فيه من الجماعة وهو شاهد معهم ببدنه كما روي عن علي بن أبي طالب، في حديث كهيل بن زياد فقال: هجم بهم العلم عن حقيقة الأمر فباشروا -[١٠٩]- روح اليقين فاستلانوا ما استوعده المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بأبدان قلوبها معلقة بالمحل الأعلى و بأعلى العلى عند الملك العالي فهذه صفة المنفرد في جماعة، قيل: فما المستجمع في خلوة؟ قال: مستجمع له بهمة قد جمع الهموم فصيرها هما واحدا في قلبه فاستجمعت له الهموم في مشاهدة الاعتبار وحسن الفكر في نفاذ القدرة فهو مستجمع لله بعقله وقلبه وهمه ووهمه كله، وكل جوارحه مستجمعة منتصبة لدوام الذكر إلى وجود لحوق البصيرة وعوض الفطنة وسعة المعونة وليس شيء منه متفرقا ولا وهم معطلا وهذه صفة المستجمع في انفراده، قيل: فما معنى غائب في حضور؟ قال: غائب بوهمه حاضر بقلبه فمعنى غائب أي غائب عن أبصار الناظرين حاضر بقلبه في مراعاة العارفين "." (١)

"حدثني محمد بن الحسين بن موسى قال: سمعت الفضل بن حمدان، يقول: سمعت علي بن عبد الحميد الغضائري، يقول: سمعت السري، يقول: " من لم يعرف قدر النعم سلبها من حيث لا يعلم، ومن هانت عليه المصائب أحرز ثوابها قال: وسمعته يقول: اجعل فقرك إلى الله تستغن به عمن سواه قال: وسمعته يقول: الأدب ترجمان العقل ولسانك ترجمان قلبك، ووجهك مرآة قلبك يتبين على الوجه ما تضمر القلوب وقال: القلوب ثلاثة: قلب مثل الجبل لا يزيله شيء وقلب مثل النخلة أصلها ثابت والريح تميلها وقلب كالريشة يميل مع الريح يمينا وشمالا، وقال: أقوى القوة غلبتك نفسك ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز، ومن أطاع من فوقه أطاعه من دونه، وقال: لا تصرم أخاك على ارتياب ولا تدعه دون استعتاب، ومن علامة المعرفة بالله القيام بحقوق الله وإيثاره على النفس فيما أمكنت فيه القدرة، ومن علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس ومن قلة الصدق كثرة الخطأ، وخير الرزق ما سلم من خمسة: من الآثام في الاكتساب والمذلة في الخضوع في السؤال، والغش في الصناعة، وإثبات آلة المعاصي وممالأة الظلمة، وأحسن الأشياء خمسة: البكاء على الذنوب وإصلاح العيوب، وطاعة علام الغيوب وجلاء الرين عن القلوب وأن لا تكون لما تهوى ركوب وقال: خمسة

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ١٠/١٠٧

أشياء لا يسكن في القلب معها غيرها: الخوف من الله وحده والرجاء -[١٢٥]- من الله وحده والحب لله وحده والحياء من الله وحده **والأنس بالله** وحده "." (١)

"حدثنا أبو بكر الآجري، ثنا عبد الله بن محمد العطشي، ثنا إبراهيم بن الجنيد، ثنا عون بن إبراهيم بن الصلت قال: حدثني أحمد بن الغمر الحمصي قال: سمعت محمد بن المبارك الصوري قال: قلت لراهب: متى يبلغ الرجل حقيقة **الأنس بالله؟** قال: إذا صفا الود فيه وخلصت المعاملة فيما بين العبد وبين الله، قال: قلت: فمتى يصفو الود وتخلص المعاملة؟ قال: إذ اجتمع الهم فصار في الطاعة، قلت: ومتى يجتمع الهم فيصير في الطاعة؟ قال: إذا اجتمعت الهموم فصارت هما واحدا، قلت: يا راهب، بم يستعان على قلة المطعم؟ قال: بالتحري في المكسب والنظر في الكسوة، قلت: عظني وأوجز، قال: كل من حلال وارقد حيث شئت. قال: قلت له: فأين طريق الراحة؟ قال: في خلاف الهوى قلت: فمتى يجد الرجل الراحة؟ قال: عند أول قدم يضعها في الجنة، قلت: بماذا أقطع الطريق إلى الله؟ قال: بالسهر الدائم والظمأ في الهواجر، قلت: ما علامة العلم؟ قال: الخوف والشفقة، قلت: ما علامة الجهل؟ قال: الحرص والرغبة، قلت: ما علامة الورع؟ قال: الهرب من مواطن الشبهة، قلت: فما الذي عقلك في هذه البيعة؟ قال: بلغني أنه من مشى على الأرض عثر، ففزعت فزعة الأكياس فتحصنت بمن في السماء من فتنة من في الأرض وذلك أنهم سراق العقول فخشيت أن يسرقوا عقلي، قلت: فمن أين تأكل في هذه الصومعة؟ قال: بذر أبذره من بذر اللطيف الخبير ثم قال: إن الذي خلق الرحا يجيء بالطحين، قال: وأومأ بيده إلى ضرسه ثم قال: من رزق حسن الظن بالله أفيد الراحة، قال إبراهيم بن الجنيد: وأنشدني شيخ من طلبة العلم لبعضهم:

وما عاشق الدنيا بناج من الردى ... ولا خارج منها بغير غليل

وكم ملك قد صغر الموت قدره ... فأخرج من ظل عليه ظليل." (٢)

"حدثنا محمد بن أحمد بن محمد العبدي، حدثني أبي، حدثني أبو بكر القرشي، حدثني عون بن إبراهيم، ثنا أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت المضاء، يقول لسباع الموصلي: يا أبا محمد إلى أي شيء أفضى بهم الزهد؟ قال: إلى **الأنس بالله**." (٣)

"قال إبراهيم بن أبي طالب النيسابوري: حدث ابن أبي الدنيا، عن محمد بن إسحاق الثقفي بهذه الحكاية، وحدثنا أبي، ثنا خالي أحمد بن محمد بن يوسف، عن أبيه، عن شيخ له قال منصور بن عمار: " خرجت في ليلة من الليالي وظننت أن النهار قد أضاء فإذا الصبح علي فقعدت إلى دهليز مشرف فإذا أنا بصوت شاب يدعو ويبكي وهو يقول: اللهم وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك ولقد عصيتك إذ عصيتك وما أنا بنكالك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا بنظرك مستخف ولكن سولت لي نفسي فأعانتني عليها شقوتي وغرني سترك المرخي علي فقد عصيتك وخالفتك بجهلي فمن من عذابك يستنقذني؟ ومن أيدي زبانيتك من يخلصني؟ وبحبل من أتصل إذا أنت قطعت حبلك عني؟ واسوأتاه إذا قيل

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ١٠/١٢٤

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ١٠/١٣٢

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ١٠/١٣٦

للمخفين: جوزوا، وللمثقلين: حطوا فيا ليت شعري مع المثقلين نحط أم مع المخفين نجوز وننجو؟ كلما طال عمري وكبر سني كثرت ذنوبي وكثرت خطاياي، فيا ويلي كم أتوب وكم أعود ولا أستحيي من ربي، قال منصور: فلما سمعت هذا الكلام، وضعت فمي على باب داره وقلت: أعوذ -[١٨٩]- بالله من الشيطان الرجيم: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة﴾ [التحريم: ٦] الآية، قال منصور: ثم سمعت للصوت اضطرابا شديدا وسكن الصوت فقلت: إن هناك بلية، فعلمت على الباب علامة ومضيت لحاجتي فلما رجعت من الغد إذ أنا بجنازة منصوبة وأكفان تصلح وعجوز تدخل الدار وتخرج باكية فقلت: يا أمة الله من هذا الميت منك؟ قالت: إليك عني لا تجدد علي أحزاني، قلت: إني رجل غريب أخبريني قالت: والله لولا أنك غريب ما أخبرتك هذا ولدي ومن زل عن كبدي ومن كنت أظن به سيدعو لي من بعدي كان ولدي من موالي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان إذا جن عليه قام في محرابه يبكي على ذنوبه وكان يعمل هذا الخوص فيقسم كسبه أثلاثا فثلث يطعمني وثلث للمساكين وثلث يفطر عليه، فمر علينا البارحة رجل لا جزاه الله خيرا فقرأ عند ولدي آية فيها ذكر النار فلم يزل يضطرب ويبكي حتى مات رحمه الله، قال منصور: فهذه صفة الخائفين إذا خافوا السطوة " قال الشيخ رضي الله تعالى عنه: قد ذكرنا طرفا من أحوال من أخفاهم الحق عن الخلق وخصهم **بالأنس به** ولم ينصبهم أعلاما يقتدى بهم ونعود إلى ذكر بعض من نصبهم الحق للقدوة والتعليم والدعوة والتفهيم وجعلهم خلفاء الأنبياء وأئمة الأصفياء مقتصرين على ذكر جماعة منهم والله خير معين وموفق له إن شاء الله تعالى عدنا مستعينين بالله عز وجل مقتصرين على ذكر جماعة نصبوا وشهروا للقدوة وطهروا من الأكدار وجردوا من الأغيار وهذبوا بصحبة السادة والأخيار واقتبسوا عن الأئمة من اتباع الآثار وأيدوا بالأنوار وحفظوا من تلوين الأسرار وخصوا بصافي الأذكار وعصموا من مسامرة الأشرار وملاحظة الأوزار." (١)

"سمعت محمد بن الحسين، يقول: سمعت أبا سعيد بن عطاء، يقول: إن الجنيد بن محمد رأى فيما يرى النائم قوما من الأبدال فسأل هل ببغداد أحد من الأولياء؟ فقالوا: نعم أبو العباس بن مسروق من أهل **الأنس بالله** تعالى "." (٢)

"سمعت محمد بن أحمد، يقول: سمعت أبا بكر الأنصاري، يقول: سمعت إبراهيم الخواص، يقول: « علم العبد بقرب قيام الله على العبد يوحشه من الخلق ويقيم له شاهد **الأنس بالله**، وعلم العبد بأن الخلق مسلطون مأمورون يزيل عنه خوفهم ويقيم في قلبه خوف المسلط لهم»." (٣)

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ١٠/١٨٨

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ١٠/٢١٤

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ١٠/٣٢٧

"حدثنا أبو محمد بن حيان ، ثنا إسحاق بن إبراهيم الأنماطي ، ثنا أحمد بن أبي الحواري ، قال: سمعت المضاء، سأل سباعا الموصلي ، فقال: يا أبا محمد إلى أي شيء أفضى بهم الزهد؟ فقال: «إلى **الأنس به**»." (١)

"حدثنا أبي وأبو محمد بن حيان، قالا: ثنا إبراهيم بن محمد، ثنا عبد الله بن محمد، قال: سمعت محمد بن المبارك، يقول: « تخاف أن يفوتك، عند البقال من قطعتك تبادر إليه وتبكر عليه، ولا تخاف أن يفوتك من الله ما تؤمل بكثرة القعود عنه والتشاغل عن المبادرة إليه، مهلا رحمك الله فإن في قلبك وجعا لا يبريه إلا حبه، ولا يستنطقه إلا **الأنس به**، وجوعا لا يشبعك إلا ما طعمت من ذكره، وعطشا لا يرويه إلا ما وردت عليه لذته للذاذة مناجاته»." (٢)

"حدثنا أبي، ثنا أحمد بن محمد بن مصقلة، ثنا سعيد بن عثمان قال: سمعت ذا النون يقول: كم من مطيع مستأنس، وكم عاص مستوحش، وكم محب ذليل، وكل راج طالب قال: وسمعته يقول: اعلموا أن العاقل يعترف بذنبه، ويحس بذنب غيره، ويجود بما لديه ويزهد فيما عند غيره ويكف عن أذاه ويحتمل الأذى عن غيره والكريم يعطي قبل السؤال، فكيف يبخل بعد السؤال؟ ويعذر قبل الاعتذار، فكيف يحقد بعد الاعتذار؟ ويعف قبل الامتناع فكيف يطمع في الازدياد، قال: وسمعته يقول: ثلاثة من أعلام المحبة: الرضا في المكروه، وحسن الظن في المجهول، والتحسين في الاختيار في المحذور، وثلاثة من أعلام الصواب: **الأنس به** في جميع الأحوال، والسكون إليه في جميع الأعمال، وحب الموت بغلبة الشوق في جميع الأشغال، وثلاثة من أعمال اليقين: النظر إلى الله تعالى -[٣٤٢]- في كل شيء، والرجوع إليه في كل أمر، والاستعانة به في كل حال، وثلاثة من أعمال الثقة بالله: السخاء بالموجود، وترك الطلب للمفقود، والاستنابة إلى فضل الموجود، وثلاثة من أعمال الشكر: المقاربة من الإخوان في النعمة، واستغنام قضاء الحوائج قبل العطية، واستقلال الشكر لملاحظة المنة ، وثلاثة من أعلام الرضا: ترك الاختيار قبل القضا، وفقدان المرارة بعد القضا، وهيجان الحب في حشو البلا، وثلاثة من أعمال **الأنس بالله**: استلذاذ الخلوة، والاستيحاش من الصحبة، واستحلاء الوحدة، وثلاثة من أعلام حسن الظن بالله: قوة القلب، وفسحة الرجا في الذلة، ونفي الإياس بحسن الإنابة، وثلاثة من أعلام الشوق: حب الموت مع الراحة وبغض الحياة مع الدعة، ودوام الحزن مع الكفاية "." (٣)

"حدثنا أبي، ثنا أحمد بن محمد بن مصقلة، ثنا سعيد بن عثمان الخليط، عن أبي الفيض ذى النون المصري قال: إن لله لصفوة من خلقه، وإن لله لخيرة من خلقه قيل له: يا أبا الفيض فما علامتهم؟ قال: إذا خلع العبد الراحة وأعطى المجهود في الطاعة وأحب سقوط المنزلة، قيل له: يا أبا الفيض فما علامة إقبال الله عز وجل على العبد؟ قال: إذا رأيته صابرا شاكرا ذاكرا فذلك علامة إقبال الله على العبد، قيل: فما علامة إعراض الله عن العبد قال: إذا رأيته ساهيا راهبا معرضا عن ذكر الله فذاك حين يعرض الله عنه، ثم قال: ويحك كفى بالمعرض عن الله وهو يعلم أن الله مقبل عليه وهو معرض عن ذكره، قيل له يا أبا الفيض فما علامة **الأنس بالله؟** قال: إذا رأيته يؤنسك بخلقه فإنه يوحشك من نفسه، وإذا رأيته يوحشك

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ٢٩٢/٨

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ٢٩٨/٩

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ٣٤١/٩

من خلقه فإنه يؤنسك بنفسه، ثم قال أبو الفيض: الدنيا والخلق لله عبيد، خلقهم للطاعة وضمن لهم أرزاقهم ونهاهم وحذرهم وأنذرهم، فحرصوا على ما نهاهم الله عنه وطلبوا الأرزاق وقد ضمنها الله لهم، فلا هم في أرزاقهم استزادوا، ثم قال: عجبا لقلوبكم كيف لا تتصدع ولأجسامكم كيف لا تتضعضع، إذا كنتم تسمعون ما أقول لكم وتعقلون "." (١)

"قال: وسمعت ذا النون، يقول: « إن المؤمن إذا آمن بالله واستحكم إيمانه خاف الله، فإذا خاف الله تولدت من الخوف هيبة الله، فإذا سكن درجة الهيبة دامت طاعته لربه، فإذا أطاع تولدت من الطاعة الرجاء فإذا سكن درجة الرجاء تولدت من الرجاء المحبة، فإذا استحكمت معاني المحبة في قلبه سكن بعدها درجة الشوق، فإذا -[٣٦٠]- اشتاق أداه الشوق إلى **الأنس بالله**، فإذا أنس بالله اطمأن إلى الله فإذا اطمأن إلى الله كان ليله في نعيم ونهاره في نعيم، وسره في نعيم وعلانيته في نعيم»." (٢)

"حدثنا عثمان بن محمد، ثنا عبد الله بن جعفر المصري، ثنا عبد الله بن محمد البرقعي، قال: سمعت ذا النون، يقول: « **الأنس بالله** نور ساطع، والأنس بالناس غم واقع»." (٣)

"قيل لذي النون: ما **الأنس بالله؟** قال: « العلم والقرآن»." (٤)

"حدثنا عثمان، ثنا أحمد بن محمد بن عيسى، ثنا محمد بن أحمد بن سلمة، قال: سمعت ذا النون، وقيل له: ما علامة **الأنس بالله**، قال: " إذا رأيت أنه يوحشك من خلقه فإنه يؤنسك بنفسه، وإذا رأيت أنه يؤنسك بخلقه فاعلم أنه يوحشك من خلقه. ثم قال: الدنيا لله أمة والخلق لله عبيد خلقهم للطاعة وضمن لهم أرزاقهم، فحرصوا على أمته وقد نهاهم عنها، وطلبوا الأرزاق وقد ضمنها لهم، فلا هم على أمته قدروا ولا هم في أرزاقهم استزادوا، ثم قال:

[البحر الكامل]

عجبا لقلبك كيف لا يتصدع ... ولركن جسمك كيف لا يتضعضع

فاكحل بملمول السهاد لدى الدجى ... إن كنت تفهم ما أقول وتسمع

منع القران بوعده ووعيده ... فعل العيون بليلها أن تهجع

فهموا عن الملك الكريم كلامه ... فهما تذل له الرقاب وتخضع "." (٥)

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ٣٤٣/٩

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ٣٥٩/٩

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ٣٧٧/٩

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ٣٧٧/٩

(٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ٣٧٧/٩

"أخبرني محمد بن أحمد البغدادي، – في كتابه – وقد رأيته، وحدثني عنه عثمان بن محمد العثماني، قال: سمعت عبد الله بن محمد بن ميمون، يقول: سمعت ذا النون –[٣٩٥]–، يقول: « **الأنس بالله** من صفاء القلب مع الله، والتفرد بالله الانقطاع إليه من كل شيء سوى الله»." (١)

"الدار والفرس والمرأة، فهناهم النبي عليه السلام عن الطيرة فلم ينتهوا فبقيت فى هذه الثلاثة الشياء التى كانوا يلزمون التطير فيها. ومثله قوله تعالى عن أهل القرية حين قالوا: (إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم. . . قالوا طائركم معكم) أى: حظكم من الخير والشر معكم ليس هو من شؤمنا وكذلك قوله عليه السلام فى الدار: (اتركوها ذميمة) فإنما قال ذلك لقوم علم منهم أن الطيرة والتشاؤم غلب عليهم وثبت فى نفوسهم؛ لأن ازاحة مايثبت فى النفس عسير، وقد قال عليه السلام: (ثلاثة لا يسلم منهن أحد: الطيرة والظن والحسد؛ فإذا تطيرت فلا ترجع، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق) . وليس فى قوله عليه السلام: (دعوها ذميمة) أمر منه بالتطير، وكيف وقد قال: لايطرة؟ وإنما أمرهم بالتحول عنها لما قد جعل الله فى غرائز الناس من استثقال مانالهم فيه الشر وإن كان لاسبب له فى ذلك، وحب من جرى لهم الخير على يديه وإن لم يردهم به، وكان النبى عليه السلام يستحب الاسم الحسن والفأل الصالح، وقد جعل الله فى فطرة الناس محبة الكلمة الطيبة والفأل الصالح **والأنس به**، كما جعل فيهم الارتياح للبشرى والمنظر الأنيق، وقد يمر الرجل بالماء الصافى فعجبه وهو لايشربه وبالروضه المنثورة فتسره وهي لاتنفعه، وفى بعض الحديث (أن الرسول عليه السلام كان يعجبه الأترج ويعجبه الفغية وهي نور الحناء) .." (٢)

"بصفحتى، أو لقى الفضل بصحيفتى، فمالى صغرت فى عينه؟ وما الذى أزرى بى عنده؟ حتى احتجب وقد قصدته، ولزم أرضه وقد حضرته، وأنا أحاشيه أن يجهل قدر الفضل، أو يجحد فضل العلم، أو يمتطى ظهر التيه، على أهليه، وأسأله أن يختصنى من بينهم بفضل إنعام إن زلت بى مرة قدم رأى فى قصده، وكأنى به وقد غضب لهذه المخاطبة المجحفة، والرتبة المتحيفة، وهو فى جنب جفائه يسير، وإن أقلع عن عادته إلى الوفاء، ونزع عن شيمته فى الجفاء؛ فأطال الله بقاء الأستاذ وأدام عزه وتأييده وله إليه رقعة:

يعز على– أطال الله بقاء الشيخ الرئيس– أن ينوب فى خدمته قلمى، عن قدمى، ويسعد برؤيته رسولى، دون وصولى، ويرد شرعة **الأنس به** كتابى، قبل ركابى، ولكن ما الحيلة والعوائق جمة:

وعلى أن أسعى ولي ... س على إدراك النجاح

وقد حضرت داره، وقبلت جداره، وما بى حب الجدران، ولكن شغفا بالقطان، ولا عشق الحيطان، ولكن شوقا إلى السكان، وحين عدت العوادى عنه، أمليت ضمير الشوق على لسان القلم، معتذرا إلى الشيخ على الحقيقة، عن تقصير وقع، وفتور فى الخدمة عرض، ولكنى أقول:

إن يكن تركى لقصدك ذنبا ... فكفى ألا أراك عقابا

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصبهاني ٣٩٤/٩

(٢) شرح صحيح البخارى لابن بطال ابن بطال ٤٣٧/٩

وله جواب إلى رئيس هراة عدنان بن محمد: ورد كتاب الشيخ الرئيس سيدى، فظلت وفود النعم تترى على، ومثلت لدى وبين يدى، وقد أخذ مكارم نفسه، فجعلها قلادة غرسه، وتتبع المحاسن من عنده، فحلى بها نحر عبده «١» ، وما أشبه رائع حليه، فى نحر وليه، إلا بالغرة اللائحة «٢» ، على [الدهمة] الكالحة." (١)

"٧٢ – قال: وسمعت ذا النون يقول في صفة المؤمن: " إن لله صفوة من عباده، فقيل له: يا أبا الفيض، فما علامتهم؟ قال: «إذا خلع العبد الراحة، وأعطى المجهود في الطاعة، وأحب سقوط المنزلة» فقيل له: يا أبا الفيض، فما علامة إقبال الله عز وجل على العبد؟ قال: «إذا رأيته صابرا، شاكرا، ذاكرا، فذلك علامة إقبال الله عليه» فقيل له: فما علامة إعراض الله عن العبد؟ قال: «إذا رأيته ساهيا لاهيا معرضا عن ذكر الله عز وجل فذاك حين يعرض الله عنه» قيل له: يا أبا الفيض، فما علامة **الأنس بالله؟** قال: «إذا رأيته يوحشك عن خلقه فإنه يؤنسك من نفسه، وإذا رأيته يؤنسك من خلقه فإنه يوحشك من نفسه»." (٢)

" فصل في العزلة والخمول قال ابن قدامة ملخصا لكلام ابن الجوزي، وأصله للإمام الغزالي: اختلف العلماء في العزلة والمخالطة: أيتهما أفضل؟ مع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن فوائد وغوائل، وأكثر الزهاد اختاروا العزلة، وممن ذهب إلى اختيار العزلة: سفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم وداود الطائي والفضيل وبشر الحافي في آخرين. وممن ذهب إلى استحباب المخالطة: سعيد بن المسيب وشريح والشعبي وابن المبارك في آخرين، ولكل طائفة فيما ذهبت إليه حجج. فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق في فضلها واعلم أن اختلاف الناس في هذا أيضا كاختلافهم في فضيلة النكاح والعزوبة، وقد ذكر أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فكذلك نقول فيما نحن فيه، فلنذكر أولا فوائد العزلة وهي ست: الأولى: الفراغ للعبادة والاستئناس بمناجاة الله سبحانه وتعالى، فإن ذلك يستدعي فراغا ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إلى ذلك خصوصا في البداءة. واعلم أن من تيسر له بدوام الذكر **الأنس بالله**، أو بدوام الفكر تحقيق معرفة الله، فالتجرد لذلك أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة. الفائدة الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض لها الإنسان غالبا بالمخالطة، وهي أربعة: أحدها: فإن عادة الناس التمضمض بالأعراض، والتفكه بها. الثانية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن من خالط الناس لم يخل عن مشاهدة المنكرات، فإن سكت عصى الله، وإن أنكر تعرض لأنواع من الضرر وفي العزلة سلامة من هذا. الثالثة: الرياء، وهو الداء العضال الذي يعسر الاحتراز منه، وأول ما في مخالطة الناس إظهار التشوق إليهم، ولا يخلو ذلك عن الكذب، إما في الأصل وإما في الزيادة، وفي العزلة الخلاص عن هذا. الرابعة: مسارقة الطمع من أخلاقهم الرديئة، وهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلا عن الغافلين. الفائدة الثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين عن الخوض فيها؛ فإنه قلما تخلو البلاد من العصبية والخصومات، والمعتزل عنهم سليم. الفائدة الرابعة: الخلاص من شر الناس؛ فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة ومرة بالنميمة ومرة بسوء الظن وغير ذلك من أنواع الشر التي يلقاها الإنسان من معارفه، وفي العزلة خلاص عن ذلك. الفائدة الخامسة: أن ينقطع طمع الناس عنك وطمعك عنهم، أما طمعهم: فإن رضاهم غاية

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب الحُصري القيرواني ٣/٨٦٣

(٢) الزهد الكبير للبيهقي البيهقي، أبو بكر ص/٧٨

لا تدرك، فالمنقطع عنهم قاطع لطمعهم في حضور ولائهم وإملاكاتهم وغير ذلك. وأما انقطاع طمعك: فإن من نظر إلى زهرة الدنيا تحرك حرصه وانبعث بقوة الحرص طمعه، ولا يرى إلا الخيبة في أكثر المطامع فيتأذى. الفائدة السادسة: الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى ومقاساة أخلاقهم، وإذا تأذى الإنسان بالثقلاء لم يلبث أن يغتابهم، فإن آذوه بالقدح فيه كافأهم فأنجز الأمر إلى فساد الدين، وفي العزلة سلامة من ذلك. فصل في آداب العزلة اعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد من الاستعانة بالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة. وفي فوائد المخالطة التعلم والتعليم، والنفع والانتفاع والتأديب والتأدب، والاستيناس والإيناس ونيل الثواب في القيام بالحق واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة هذه الأحوال والاعتبار لها، فهذه فوائد الخلطة، فإذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقا بالتفضيل نفيا وإثباتا خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، وإلى الخليط وحاله، وإلى الباعث على مخالطته وإلى الفائت بسبب مخالطته من الفوائد، ويقاس الفائت بالحاصل، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل. من آداب العزلة ينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كف شره عن الناس، ثم طلب السلامة من شر الأشرار، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحق المسلمين، ثم تجريد الهمة لعبادة الله تعالى أبدا، فهذه آداب بينة. الخمول اعلم أن أصل الجاه هو حب انتشار الصيت والاشتهار، وذلك خطر عظيم، والسلامة في الخمول، وأهل العلم لم يقصدوا الشهرة ولم يتعرضوا لها، ولا لأسبابها، فإن وقعت من قبل الله تعالى فروا عنها وكانوا يؤثرون الخمول، المذموم طلب الإنسان الشهرة، وأما وجودها من جهة الله تعالى من غير طلب الإنسان فليس بمذموم، غير أن في وجودها فتنة على الضعفاء، فإن مثل الضعيف كالغريق القليل الصنعة في السباحة، إذا تعلق به أحد غرق وغرقه، فأما السابح النحرير فإن تعلق الغرقى به سبب لنجاتهم وخلاصهم.." (١)

"١٤١ – وبإسناده قال: سمعت ذا النون يقول: «إذا أحب القلب الخلوة فقد أوصله حب الخلوة إلى **الأنس بالله**، ومن أنس بالله استوحش من غير الله، فلله در قلوب أنست بجلال الله، وارتعدت فرقا لهيبته»." (٢)

"٤١٣ – أخبرنا عبد الله بن يوسف، ثنا إبراهيم بن فراس قال: سمعت إبراهيم الخواص يقول: قال بعض أهل المعرفة: لا يطمع أحد في السهو مع الشبع ، ولا يطمع في الحزن مع كثرة النوم ، ولا يطمع في صحة أمره مع مخالطة الظلمة ، ولا يطمع في لين القلب مع فضول الكلام ، ولا يطمع في حب الله مع حب المال والشرف ، ولا يطمع في **الأنس بالله** مع الأنس بالمخلوقين ، ولا يطمع في الروح مع الرغبة في الدنيا "." (٣)

"يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشيطان يهم بالواحد والاثنين فإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم

قال أبو عمر كأن مالكا – رحمه الله – يجعل الحديث الثاني في هذا الباب تفسيرا للأول

والمعنى أن الجماعة – وأقلها ثلاثة – لا يهم بهم الشيطان ويبعد عنهم – وإنما سمي الواحد شيطانا والاثنان شيطانان لأن الشيطان في أصل اللغة هو البعيد من الخير من قولهم نوى شطون أي بائنة بعيدة فالمسافر وحده يبعد عن خير الرفيق وعونه

---

(١) الزهد الكبير للبيهقي البيهقي، أبو بكر ص/٩٢

(٢) الزهد الكبير للبيهقي البيهقي، أبو بكر ص/٩٨

(٣) الزهد الكبير للبيهقي البيهقي، أبو بكر ص/١٧٧

والأنس به وتمريضه ودفع وسوسة النفس بحديثه ولا يؤمن على المسافر وحده أن يضطر إلى المشي بالليل فتعرضه الشياطين المردة هازلين ومتلاعبين ومفزعين

وقد بلغنا ذلك عن جماعة المسافرين إذا سافروا منفردين وكذلك الاثنان لأنه إذا مر أحدهما في حاجتهما بقي الآخر وحده فإن شردت دابته أو نفرت أو عرض له في نفسه أو حاله شيء لم يجد من يعينه ولا من يكفيه ولا من يخبر بما يطرقه فكأنه قد سافر وحده وإذا كانوا ثلاثة ارتفعت العلة المخوفة في الأغلب لأنه لا يخرج الواحد مرة في الحاجة ويبقى الاثنان ثم يخرج الآخر مرة أخرى ويبقى الاثنان يكون هذا دأبا في الأغلب في أمورهم وإن خرج الاثنان لم يطل مكث الواحد وحده

هذا ونحوه والله أعلم بما أراد رسوله بقوله ذلك صلى الله عليه وسلم

وقد روى عبد الرحمن بن أبي الزناد هذا الحديث عن عبد الرحمن بن حرملة وعن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الشيطان يهم بالواحد وبالاثنين فإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم

فوصله وأسنده

وقد ذكرنا إسناده في التمهيد

وقد روي عن عمر بن الخطاب من وجوه قد ذكرتها في التمهيد أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد

واختلف فيه على عبد الملك بن عمير اختلافا كثيرا

قال أبو عمر أبعد ها هنا بمعنى بعيد - والله أعلم." (١)

"وقد كان بعض العلماء يروي هذا الحديث أفضل العيادة أخفها يريد عيادة المرضى فمن رواه على هذا الوجه فلا مدخل له في هذا الباب ولا خلاف بين العلماء والحكماء أن السنة في العيادة التخفيف إلا أن يكون المريض يدعو الصديق إلى **الأنس به** وسيأتي ذكر العيادة والقول فيها في باب بلاغات مالك إن شاء الله عز وجل إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري يكنى أبا نجيح وقيل يكنى أبا محمد وقيل أبا يحيى من تابعي أهل المدينة من صغارهم لقي أنس بن مالك وهو ثقة حجة فيما نقل وأبوه عبد الله بن أبي طلحة ولد بالمدينة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم قال أنس فغدوت به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليحنكه فوافيته وبيده الميسم يسم إبل الصدقة قال أبو عمر اسم جده أبي طلحة زيد بن سهل من كبار الصحابة قد ذكرناه وذكرنا طرفا من أخباره في كتابنا كتاب الصحابة ورفعنا هناك في نسبه وأم إسحاق بثينة ابنة رفاعة بن رافع بن مالك بن العجلان الزرقي الانصاري وروى عن عبد الله بن أبي طلحة ابنه اسحاق وروى عنه ابن شهاب ايضا ورو عن اسحاق جماعة من الايمة منهم يحيى بن أبي كثير ومالك بن أنس والأوزاعي وحماد بن سلمة وهمام بن يحيى ولإسحاق إخوة جماعة وهم عمرو وعمر وعبد الله ويعقوب وإسماعيل بنو عبد الله بن أبي طلحة كلهم قد روى عنهم العلم وإسحاق هذا أرفعهم وأعلمهم وأثبتهم رواية." (٢)

---

(١) الاستذكار ابن عبد البر ٨/٥٣٠

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ابن عبد البر ١/١٩٧

"أخبرنا أبو العلاء محمد بن الحسن بن محمد الوراق، حدثنا أحمد بن كامل القاضي قال: سمعت عيسى بن إسحاق الأنصاري يقول: سمعت مؤمنة بنت بهلول تقول: ما النعيم إلا في **الأنس بالله**، والموافقة لتدبيره.

أخبرنا الحسن بن أبي بكر، حدثنا أبو عمر الزاهد محمد بن عبد الواحد، حدثنا أبو العباس الأنصاري عيسى بن إسحاق بن موسى وكان يقال إنه كان من الأبدال في زمانه.

٥٨٧٢- عيسى بن محمد الصيدلاني:

حدث عن محمد بن عقبة السدوسي. روى عنه أبو القاسم الطبراني.

أخبرنا محمد بن عبد الله بن شهريار الأصبهاني، أخبرنا سليمان بن أحمد الطبراني، حدثنا عيسى بن محمد الصيدلاني البغدادي، حدثنا محمد بن عقبة السدوسي، حدثنا محمد بن عثمان بن سيار القرشي، حدثنا كعب أبو عبد الله عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا إن عيسى بن مريم ليس بيني وبينه نبي ولا رسول، ألا إنه خليفتي في أمتي من بعدي، ألا إنه يقتل الدجال، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، وتضع الحرب أوزارها، ألا فمن أدركه منكم ليقرأ عليه السلام» [١] .

قال سليمان: لم يروه عن قتادة إلا كعب أبو عبد الله البصري، ولا عنه إلا محمد، تفرد به ابن عقبة.

٥٨٧٣- عيسى بن فيروز، أبو موسى الأنباري [٢] :

حدث علي بن محمد بن سعيد الموصلي عنه عن عبد الأعلى بن حماد، وأحمد ابن حنبل، والموصلي ليس بثقة.

أخبرني علي بن أحمد الرزاز، أخبرنا علي بن محمد بن سعيد الموصلي، حدثنا أبو موسى عيسى بن فيروز الأنباري، حدثنا أحمد بن حنبل، أخبرنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن عبد الله بن ذكوان أبي الزناد قال: كان فقهاء أهل المدينة أربعة، سعيد ابن المسيب، وقبيصة بن ذؤيب، وعروة بن الزبير، وعبد الملك بن مروان.

---

[١] ٥٨٧٢- انظر الحديث في: المعجم الصغير للطبراني ١/٢٥٧. ومجمع الزوائد ٨/٢٠٥. والدر المنثور ٢/٢٤٢.

[٢] ٥٨٧٣- انظر: ميزان الاعتدال ٣/ترجمة ٦٥٩٨.." (١)

"قال: فصحت وأغمي علي، فما أفقت حتى انقضى المجلس.

أخبرنا عبد الكريم بن هوازن قال: سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول:

سمعت محمد بن الحسن البغدادي يقول: سمعت جعفر بن محمد بن نصير يقول:

سمعت أبا العباس بن مسروق يقول: قدم علينا شيخ فكان يتكلم علينا في هذا الشأن بكلام حسن وكان عذب اللسان، جيد الخاطر، فقال لنا في بعض كلامه: كل ما وقع لكم في خاطركم فقولوه لي! فوقع في قلبي أنه يهودي، وكان الخاطر يقوي ولا يزول، فذكرت ذلك للجريري، فكبر عليه ذلك. فقلت: لا بد من أن أخبر الرجل بذلك. فقلت له: تقول لنا ما وقع لكم في خاطركم فقولوه لي، أنه يقع لي أنك يهودي! فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: صدقت، أشهد أن لا إله إلا

---

(١) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية الخطيب البغدادي ١٧٢/١١

الله وأشهد أن محمدا رسول الله، وقال: قد مارست جميع المذاهب، وكنت أقول إن كان مع قوم منهم شيء فمع هؤلاء، فداخلتكم لاعتبركم، وأنتم على الحق، وحسن إسلامه.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الحيري، حدثنا محمد بن الحسين بن موسى السلمي. قال: وأخبرنا أبو نعيم الحافظ قال: سمعت محمد بن الحسين يقول:

سمعت عبد الله بن عطاء- أبا سعيد- يقول: في رؤيا طويلة للجنيد قال فيها: فرأيت قوما من الأبدال في المنام فقلت: ببغداد أحد من الأولياء؟ قالوا: نعم أبو العباس بن مسروق. فقلت متعجبا: أبو العباس بن مسروق؟ فقالوا: نعم أبو العباس بن مسروق من أهل **الأنس بالله** عز وجل. واللفظ للحيري.

حدثني علي بن محمد بن نصر قال: سمعت حمزة بن يوسف يقول: سمعت الدارقطني يقول: أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق ليس بالقوي يأتي بالمعضلات.

أخبرنا عبد العزيز بن علي الوراق قال: سمعت الحسين بن محمد بن عبيد الدقاق يقول: توفي أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق في يوم الأحد لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين ومائتين، وسنة أربع وثمانون سنة على ما ذكر، ودفن في مقابر باب حرب.

ورأيت في كتاب ابن المنادي: سنة ثمان وتسعين ومائتين.." (١)

"ومنهم أبو بكر الحسين بن علي بن يزدانيار من أرمينية له طريقة يختص بها في التصوف وكان عالما ورعا وكان ينكر على بعض العارفين في إطلاقات وألفاظ لهم.

قال ابن يزدانيار: إياك أن تطمع في **الأنس بالله** وأنت تحب الأنس بالناس، وإياك أن تطمع في حب الله وأنت تحب الفضول، وإياك أن تطمع في المنزلة عند الله وأنت تحب المنزلة عند الناس.." (٢)

"وقال يحيي بن معاذ: الولي لا يرائي ولا ينافق وما أقل صديق من كان هذا خلقه وقال أبو على الجوزجاني: الولي هو الفاني في حاله الباقي في مشاهدة الحق سبحانه تولى الله سياسته فتوالت عليه أنوار التولي لم يكن له عن نفسه إخبار ولا مع غير الله قرار وقال أبو يزيد: حظوظ الأولياء مع تباينها من أربعة أسماء وقيام كل فريق منهم باسم منها وهو الأول والآخر والظاهر والباطن فمتى فنى عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام فمن كان حظه من اسمه الظاهر لاحظ عجائب قدرته ومن كان حظه من اسمه الباطن لا حظ ما جرى في السرائر من أنواره ومن كان حظه من اسمه الأول كان شغله بما سبق ومن كان حظه من اسمه الآخر كان مرتبطا بما يستقبله وكل كوشف على قدر طاقته إلا من تولاه الحق سبحانه ببره وقام عنه بنفسه وهذا الذي قاله أبو يزيد يشير إلى أن الخواص من عباده ارتقوا عن هذه الأقسام فلا العواقب هم في ذكرها ولا السوابق هم في فكرها ولا الطوارق هم في أسرها وكذا أصحاب الحقائق يكونون محوا عن نعوت الخلائق قال الله تعالى: ﴿وتحسبهم أيقاظا وهم رقود﴾ [الكهف: ١٨] وقال يحيي بن معاذ: الولي ريحان الله تعالى في الأرض يشمه الصديقون

---

(١) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية الخطيب البغدادي ٣٠٨/٥

(٢) الرسالة القشيرية القشيري، عبد الكريم ١٣١/١

فتصل رائحته إلى قلوبهم فيشتاقون به إلى مولاهم ويزدادون عبادة على تفاوت أخلاقهم.

وسئل الواسطي كيف يغذي الولي في ولايته فقال: في بدايته بعبادته وفي كهولته بستره بلطافته ثم يجذبه إلى ما سبق له من نعوته وصفاته ثم يذيقه طعم قيامه به في أوقاته، وقيل: علامة الولي ثلاثة: شغله بالله تعالى وفراره إلى الله تعالى وهمه إلى الله عز وجل قال الخراز: إذا أراد الله تعالى أن يوالي عبدا من عبيده فتح عليه باب ذكره فإذا استلذ الذكر فتح عليه باب القرب ثم رفعه إلى مجلس **الأنس به** ثم أجلسه على كرسي التوحيد ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردانية وكشف له عن الجلال والعظمة فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقي بلا هوى فحينئذ صار العبد زمنا فانيا فوقع في حفظه سبحانه وبرئ من دعاوي نفسه.

سمعت محمد بن الحسين يقول: سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت." (١)

"أنه قصد ذلك دون التعلم فدخل منزله فلم يخرج إلى الناس أربعين يوما فلما دخل حاتم بغداد اجتمع إليه أهل بغداد فقالوا يا أبا عبد الرحمن أنت رجل ولكن أعجمي وليس يكلمك أحد إلا قطعته قال معي ثلاث خصال أظهر بهن على خصمي أفرح إذا أصاب خصمي وأحزن إذا أخطأ وأحفظ نفسي أن لا أجهل عليه

فبلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل فقال سبحان الله ما أعقله قوموا بنا إليه

فلما دخلوا عليه قال له يا أبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا قال يا أبا عبد الله لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال تغفر للقوم جهلهم وتمنع جهلك منهم وتبذل لهم شيئك وتكون من شيئهم آيسا فإذا كنت هكذا سلمت ثم سار إلى المدينة فاستقبله أهل المدينة فقال يا قوم أية مدينة هذه قالوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأين قصر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصلي فيه قالوا ما كان له قصر إنما كان له بيت لاطىء بالأرض قال فأين قصور أصحابه رضي الله عنهم قالوا ما كان لهم قصور إنما كان لهم بيوت لاطئة بالأرض قال حاتم يا قوم فهذه مدينة فرعون فأخذوه وذهبوا به إلى السلطان وقالوا هذا العجمي يقول هذه مدينة فرعون قال الوالي ولم ذلك قال حاتم لا تعجل علي أنا رجل أعجمي غريب دخلت البلد فقلت مدينة من هذه فقالوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت فأين قصر وقص القصة ثم قال وقد قال الله تعالى لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة فأنتم بمن تأسيتم أبرسول الله صلى الله عليه وسلم أم بفرعون أول من بنى بالجص والآجر فخلوا عنه وتركوه

فهذه حكاية حاتم الأصم رحمه الله تعالى

وسيأتي من سيرة السلف في البذاذة وترك التجمل ما يشهد لذلك في مواضعه والتحقيق فيه أن التزين بالمباح ليس بحرام ولكن الخوض فيه يوجب **الأنس به** حتى يشق تركه واستدامة الزينة لا تمكن إلا بمباشرة أسباب في الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصي من المداهنة ومراعاة الخلق ومراءاتهم وأمور أخر هي محظورة والحزم اجتناب ذلك لأن من خاض في الدنيا

---

(١) الرسالة القشيرية القشيري، عبد الكريم ٤١٩/٢

لا يسلم منها ألبتة ولو كانت السلامة مبذولة مع الخوض فيها لكان صلى الله عليه وسلم لا يبالغ في ترك الدنيا حتى نزع القميص المطرز بالعلم (١) ونزع خاتم الذهب في أثناء الخطبة (٢) إلى غير ذلك مما سيأتي بيانه

وقد حكي أن يحي بن يزيد النوفلي كتب إلى مالك ابن أنس رضي الله عنهما بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على رسوله محمد في الأولين والآخرين من يحيى ابن يزيد بن عبد الملك إلى مالك بن أنس أما بعد فقد بلغني أنك تليس الدقاق وتأكل الرقاق وتجلس على الوطيء وتجعل على بابك حاجبا وقد جلست مجلس العلم وقد ضربت إليك المطى وارتحل إليكالناس واتخذوك إماما ورضوا بقولك فاتق الله تعالى يا مالك وعليك بالتواضع كتبت إليك بالنصيحة مني كتابا ما اطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام فكتب إليه مالك بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم من مالك بن أنس إلى يحي بن يزيد سلام الله عليك أما بعد فقد وصل إلي كتابك فوقع مني موقع النصيحة والشفقة والأدب أمتعك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيرا وأسأل الله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فأما ما ذكرت لي أني آكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطيء فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله تعالى فقد قال الله تعالى ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ وإني لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام فانظر إلى إنصاف مالك إذ اعترف أن

---

(١) حديث نزع القميص المعلم متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث نزع الخاتم الذهب في أثناء الخطبة متفق عليه من حديث ابن عمر." (١)

"عن الخلق وانحازوا إلى قلل الجبال وآثروا التوحش عن الخلق لطلب **الأنس بالله** عز وجل فتركوا لله عز وجل اللذات الحاضرة وألزموا أنفسهم المجاهدات الشاقة طمعا في الآخرة وأثنى الله عز وجل عليهم في كتابه فقال ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون﴾ فلما اندرس ذلك وأقبل الخلق على اتباع الشهوات وهجروا التجرد لعبادة الله عز وجل وفتروا عنه بعث الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم لإحياء طريق الآخرة وتجديد سنة المرسلين في سلوكها

فسأله أهل الملل عن الرهبانية والسياحة في دينه فقال صلى الله عليه وسلم أبدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف

(١) يعني الحج

وسئل صلى الله عليه وسلم عن السائحين فقال هم الصائمون (٢) فأنعم الله عز وجل على هذه الأمة بأن جعل الحج رهبانية لهم فشرف البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه تعالى

ونصبه مقصدا لعباده وجعل ما حواليه حرما لبيته تفخيما لأمره

وجعل عرفات كالميزاب على فناء حوضه وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره

ووضعه على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فج عميق ومن كل أوب سحيق شعثا غبرا متواضعين لرب البيت ومستكينين له خضوعا لجلاله واستكانة لعزته مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ليكون ذلك أبلغ في

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٦٧/١

رقهم وعبوديتهم وأتم في إذعانهم وانقيادهم

ولذلك وظف عليهم فيها أعمالا لا تأنس بها النفوس ولا تهتدي إلى معانيها العقول كرمي الجمار بالأحجار والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار

وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية

فإن الزكاة إرفاق ووجهه مفهوم وللعقل إليه ميل

والصوم كسر للشهوة التي هي آلة عدو الله وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل

والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله عز وجل بأفعال هي هيئة التواضع وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل

فأما ترددات السعي ورمي الجمار وأمثال هذه الأعمال فلا حظ للنفوس ولا أنس فيها ولا اهتداء للعقل إلى معانيها فلا يكون في الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط وفيه عزل للعقل عن تصرفه وصرف النفس والطبع عن محل أنسه فإن كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلا ما فيكون ذلك الميل معينا للأمر وباعثا معه على الفعل فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في الحج على الخصوص لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا (٣) ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها

وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون في أعمالهم على سنن الانقياد وعلى مقتضى الاستعباد كان ما لا يهتدي إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق مقتضى الاسترقاق

وإذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبدات وهذا القدر كاف في تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى

وأما الشوق فإنما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأن البيت بيت الله عز وجل وأنه وضع على مثال حضرة الملوك

---

(١) حديث سئل عن الرهبانية والسياحة فقال بدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف أخرجه أبو داود من حديث أبي أمامة أن رجلا قال يا رسول الله ائذن لي في السياحة فقال إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله رواه الطبراني بلفظ إن لكل أمة سياحة وسياحة أمتي الجهاد في سبيل الله ولكل أمة رهبانية ورهبانية امتي الرباط في نحر العدو وللبيهقي في الشعب من حديث أنس رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله وكلاهما ضعيف والترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث أبي هريرة أن رجلا قال يا رسول الله إني أريد أن أسافر فأوصني قال عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف

(٢) حديث سئل عن السائحين فقال هم الصائمون أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة وقال المحفوظ عن عبيد بن عمير عن عمر مرسلا

(٣) حديث لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا تقدم في الزكاة." (١)

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٢٦٦/١

"وأما دخول مكة فليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمنا وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عز وجل وليخش أن لا يكون أهلا للقرب فيكون بدخوله الحرم خائبا ومستحقا للمقت وليكن رجاؤه في جميع الأوقات غالبا فالكرم عميم والرب رحيم وشرف البيت عظيم وحق الزائر مرعي وذمام المستجير اللائذ غير مضيع

وأما وقوع البصر على البيت فينبغي أن يحضر عنده عظمة البيت في القلب ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه إياه وارج أن يرزقك الله تعالى النظر إلى وجهه الكريم كما رزقك الله النظر إلى بيته العظيم واشكر الله تعالى على تبليغه إياك هذه الرتبة وإلحاقه إياك بزمرة الوافدين عليه واذكر عند ذلك انصباب الناس في القيامة إلى جهة الجنة آملين لدخولها كافة ثم انقسامهم إلى مأذونين في الدخول ومصروفين انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين ولا تغفل عن تذكر أمور الآخرة في شيء مما تراه فإن كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة

وأما الطواف بالبيت فاعلم أنه صلاة فأحضر في قلبك فيه من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة ما فصلناه في كتاب الصلاة واعلم أنك بالطواف متشبه بالملائكة المقربين الحافين حول العرش الطائفين حوله ولا تظنن أن المقصود طواف جسمك بالبيت بل المقصود طواف قلبك بذكر رب البيت حتى لا تبتدىء الذكر إلا منه ولا تختم إلا به كما تبتدىء الطواف من البيت وتختم بالبيت

واعلم أن الطواف الشريف هو طواف القلب بحضرة الربوبية وأن البيت مثال ظاهر في عالم الملك لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر وهي عالم الملكوت كما أن البدن مثال ظاهر في عالم الشهادة للقلب الذي لا يشاهد بالبصر وهو في عالم الغيب

وأن عالم الملك والشهادة مدركة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح الله له الباب وإلى هذه الموازنة وقعت الإشارة بأن البيت المعمور في السموات بإزاء الكعبة فإن طواف الملائكة به كطواف **الأنس بهذا** البيت ولما قصرت رتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف أمروا بالتشبه بهم بحسب الإمكان ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم (١) والذي يقدر على مثل ذلك الطواف هو الذي يقال إن الكعبة تزوره وتطوف به على ما رآه بعض المكاشفين لبعض أولياء الله سبحانه وتعالى

وأما الاستلام فاعتقد عنده أنك مبايع لله عز وجل على طاعته فصمم عزيمتك على الوفاء ببيعتك فمن غدر في المبايعة استحق المقت وقد روى ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الحجر الأسود يمين الله عز وجل في الأرض يصافح بها خلقه كما يصافح الرجل أخاه (٢)

وأما التعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم فلتكن نيتك في الالتزام طلب القرب حبا وشوقا للبيت ولرب البيت وتبركا بالمماسة ورجاء للتحصن عن النار في كل جزء من بدنك لا في البيت ولتكن نيتك في التعلق بالستر الإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان كالمذنب المتعلق بثياب من أذنب إليه المتضرع إليه في عفوه عنه المظهر له أنه لا ملجأ له منه إلا إليه ولا مفزع له إلا كرمه وعفوه وأنه لا يفارق ذيله إلا بالعفو وبذل الأمن في المستقبل

وأما السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت فإنه يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك جائيا وذاهبا مرة بعد أخرى

---

(١) حديث من تشبه بقوم فهو منهم أخرجه أبو داود من حديث ابن عمر بسند صحيح
(٢) حديث ابن عباس الحجر الأسود يمين الله في الأرض يصافح بها خلقه الحديث تقدم في العلم من حديث عبد الله بن عمرو." (١)

"وقد أحدق به المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم وهو صلى الله عليه وسلم يحثهم على طاعة الله عز وجل بخطبته وسل الله عز وجل أن لا يفرق في القيامة بينك وبينه فهذه وظيفة القلب في أعمال الحج

فإذا فرغ منها كلها فينبغي أن يلزم قلبه الحزن والهم والخوف وأنه ليس يدري أقبل منه حجه وأثبت في زمرة المحبوبين أم رد حجه وألحق بالمطرودين وليتعرف ذلك من قلبه وأعماله فإن صادف قلبه قد ازداد تجافيا عن دار الغرور وانصرافا إلى دار **الأنس بالله** تعالى ووجد أعماله قد اتزنت بميزان الشرع فليثق بالقبول فإن الله تعالى لا يقبل إلا من أحبه ومن أحبه تولاه وأظهر عليه آثار محبته وكف عنه سطوة عدوه إبليس لعنه الله

فإذا ظهر ذلك عليه دل على القبول وإن كان الأمر الآخر بخلافه فيوشك أن يكون حظه من سفره العناء والتعب نعوذ بالله سبحانه وتعالى من ذلك

تم كتاب أسرار الحج يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آداب تلاوة القرآن

كتاب آداب تلاوة القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي امتن على عباده بنبيه المرسل صلى الله عليه وسلم وكتابه المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد حتى اتسع على أهل الأفكار طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم بما فصل فيه من الأحكام وفرق بين الحلال والحرام فهو الضياء والنور وبه النجاة من الغرور وفيه شفاء لما في الصدور ومن خالفه من الجبابرة قصمه الله ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله هو حبل الله المتين ونوره المبين والعروة الوثقى والمعتصم الأوفى وهو المحيط بالقليل والكثير والصغير والكبير لا تنقضي عجائبه ولا تتناهى غرائبه لا يحيط بفوائده عند أهل العلم تحديد ولا يخلقه عند أهل التلاوة كثرة الترديد هو الذي أرشد الأولين والآخرين ولما سمعه الجن لم يلبثوا أن ولوا إلى قومهم منذرين ﴿فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا﴾ فكل من آمن به فقد وفق ومن قال به فقد صدق ومن تمسك به فقد هدي ومن عمل به فقد فاز وقال تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ ومن أسباب حفظه في القلوب والمصاحف استدامة تلاوته والمواظبة على دراسته مع القيام بآدابه وشروطه والمحافظة على ما فيه من الأعمال الباطنة والآداب الظاهرة وذلك لا بد من بيانه وتفصيله وتنكشف مقاصده في أربعة أبواب

الباب الأول في فضل القرآن وأهله

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٢٦٩/١

الباب الثاني في آداب التلاوة في الظاهر

الباب الثالث في الأعمال الباطنة عند التلاوة

الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأي وغيره

الباب الأول في فضل القرآن وأهله وذم المقصرين في تلاوته فضيلة القرآن

قال صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظمه الله." (١)

"بذكر الله

ولا شك في أن هؤلاء تمنعهم المخالطة عن الفكر والذكر فالعزلة أولى بهم

ولذلك كان صلى الله عليه وسلم في ابتداء أمره يتبتل في جبل حراء وينعزل إليه حتى قوي فيه نور النبوة (١)

فكان الخلق لا يحجبونه عن الله فكان ببدنه مع الخلق وبقلبه مقبلا على الله تعالى حتى كان الناس يظنون أن أبا بكر خليله فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن استغراق همه بالله فقال لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله (٢)

ولن يسع الجمع بين مخالطة الناس ظاهرا والإقبال على الله سرا إلا قوة النبوة فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه فيطمع في ذلك ولا يبعد أن تنتهي درجة بعض الأولياء إليه

فقد نقل عن الجنيد أنه قال أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة والناس يظنون أني أكلمهم

وهذا إنما يتيسر للمستغرق بحب الله استغراقا لا يبقي لغيره فيه متسع وذلك غير منكر ففي المشتهرين بحب الخلق من يخالط الناس ببدنه وهو لا يدري ما يقول ولا ما يقال له لفرط عشقه لمحبوبه

بل الذي دهاه ملم يشوش عليه أمرا من أمور دنياه فقد يستغرقه الهم بحيث يخالط الناس ولا يحس بهم ولا يسمع أصواتهم لشدة استغراقه

وأمر الآخرة أعظم عند العقلاء فلا تستحيل ذلك فيه ولكن الأولى بالأكثرين الاستعانة بالعزلة

ولذلك قيل لبعض الحكماء ما الذي أرادوا بالخلوة واختيار العزلة فقال يستدعون بذلك دوام الفكرة وتثبت العلوم في قلوبهم ليحيوا حياة طيبة ويذوقوا حلاوة المعرفة

وقيل لبعض الرهبان ما أصبرك على الوحدة فقال ما أنا وحدي أنا جليس الله تعالى إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه وإذا شئت أن أناجيه صليت

وقيل لبعض الحكماء إلى أي شيء أفضى بكم الزهد والخلوة فقال إلى **الأنس بالله**

وقال سفيان بن عيينة لقيت إبراهيم ابن أدهم رحمه الله في بلاد الشام فقلت له يا إبراهيم تركت خراسان فقال ما تهنأت بالعيش إلا ههنا أفر بديني من شاهق الى شاهق فمن يراني يقول موسوس أو حمال أو ملاح

وقيل لغزوان الرقاشي هبك لا تضحك فما يمنعك من مجالسة إخوانك قال إني أصيب راحة قلبي في مجالسة من عنده

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٢٧٢/١

حاجتي

وقيل للحسن يا أبا سعيد ههنا رجل لم تره قط جالسا إلا وحده خلف سارية

فقال الحسن إذا رأيتموه فأخبروني به فنظروا إليه ذات يوم فقالوا للحسن هذا الرجل الذي أخبرناك به وأشاروا إليه فمضى إليه الحسن وقال له

يا عبد الله أراك قد حببت إليك العزلة فما يمنعك من مجالسة الناس فقال أمر شغلني عن الناس قال فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الذي يقال له الحسن فتجلس إليه فقال أمر شغلني عن الناس

وعن الحسن فقال له الحسن وما ذاك الشغل يرحمك الله فقال إني أصبح وأمسي بين نعمة وذنب فرأيت أن أشغل نفسي بشكر الله تعالى على النعمة والإستغفار من الذنب فقال له الحسن أنت يا عبد الله أفقه عندي من الحسن فالزم ما أنت عليه

وقيل بينما أويس القرني جالس إذ أتاه هرم بن حيان فقال له أويس ما جاء بك قال جئت لآنس بك فقال أويس ما كنت أرى أن أحدا يعرف ربه فيأنس بغيره وقال الفضيل إذا رأيت الليل مقبلا فرحت به وقلت أخلو بربي وإذا رأيت الصبح أدركني استرجعت كراهية لقاء الناس وأن يجيئني من يشغلني عن ربي

وقال عبد الله بن زيد طوبى لمن عاش في الدنيا وعاش في الآخرة قيل له وكيف ذلك قال يناجي الله في الدنيا ويجاوره في الآخرة

وقال ذو النون المصري سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه

وقال مالك بن دينار من لم يأنس بمحادثة الله عز وجل عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه وعمى

---

(١) حديث كان صلى الله عليه وسلم في أول أمره يتبتل في جبل حراء وينعزل إليه متفق عليه من حديث عائشة نحوه فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الحديث

(٢) حديث لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم." (١)

"قلبه وضيع عمره

وقال ابن المبارك ما أحب حال من انقطع إلى الله تعالى ويروى عن بعض الصالحين أنه قال بينما أنا أسير في بعض بلاد الشام إذا أنا بعابد خارج من بعض تلك الجبال فلما نظر إلي تنحى الى أصل شجرة وتستر بها فقلت سبحان الله تبخل علي بالنظر إليك فقال هذا إني أقمت في هذا الجبل دهرا طويلا أعالج قلبي في الصبر عن الدنيا وأهلها فطال في ذلك تعبي وفني فيه عمري فسألت الله تعالى أن لا يجعل حظي من أيامي في مجاهدة قلبي فسكنه الله عن الإضطراب وألفه الوحدة والإنفراد فلما نظرت إليك خفت أن أقع في الأمر الأول فإليك عني فإني أعوذ من شرك برب العارفين وحبيب القانتين ثم

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٢٢٧/٢

صاح واغماه من طول المكث في الدنيا ثم حول وجهه عني ثم نفض يديه وقال إليك عني يا دنيا لغيري فتزيني وأهلك فغري
ثم قال سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخدمة وحلاوة الإنقطاع إليه ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور الحسان وجمع همهم في ذكره فلا شيء ألذ عندهم من مناجاته
ثم مضى وهو يقول قدوس قدوس
فإذا في الخلوة أنس بذكر الله واستكثار من معرفة الله وفي مثل ذلك قيل
وإني لأستغشى وما بي غشوة ... لعل خيالا منك يلقى خياليا
وأخرج من بين الجلوس لعلني ... أحدث عنك النفس بالسر خاليا
ولذلك قال بعض الحكماء إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلو ذاته عن الفضيلة فيكثر حينئذ ملاقاة الناس ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة
وقد قيل الإستئناس من علامات الإفلاس فإذا هذه فائدة جزيلة ولكن في حق بعض الخواص ومن يتيسر له بدوام الذكر **الأنس بالله** أو بدوام الفكر التحقق في معرفة الله فالتجرد له أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة
فإن غاية العبادات وثمرة المعاملات أن يموت الإنسان محبا لله عارفا بالله ولا محبة إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر ولا معرفة إلا بدوام الفكر
وفراغ القلب شرط في كل واحد منهما ولا فراغ مع المخالطة
الفائدة الثانية التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها
غالبا بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة وهي أربعة الغيبة والنميمة والرياء والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا
أما الغيبة فإذا عرفت من كتاب آفات اللسان من ربع المهلكات وجوهها عرفت أن التحرز عنها مع المخالطة عظيم لا ينجو منها إلا الصديقون
فإن عادة الناس كافة التمضمض بأعراض الناس والتفكه بها والتنفل بحلاوتها وهي طعمتهم ولذتهم وإليها يستروحون من وحشتهم في الخلوة
فإن خالطتهم ووافقتهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى وإن سكت كنت شريكا والمستمع أحد المغتابين وإن أنكرت أبغضوك وتركوا ذلك المغتاب واغتابوك فازدادوا غيبة إلى غيبة وربما زادوا على الغيبة وانتهوا إلى الإستخفاف والشتم
وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من أصول الدين وهو واجب كما سيأتي بيانه في آخر هذا الربع ومن خالط الناس فلا يخلو عن مشاهدة المنكرات فإن سكت عصى الله به وإن أنكر تعرض لأنواع من الضرر إذ ربما يجره طلب الخلاص عنها إلى معاص هي أكبر مما نهى عنه ابتداء

وفي العزلة خلاص من هذا فإن الأمر في إهماله شديد والقيام به شاق
وقدم قام أبو بكر رضي الله عند خطيبا وقال أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية." (١)

"أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه فيكون الندم محفوفا بطرفيه فيه أعني ثمرته ومثمره وبهذا الاعتبار قيل في حد التوبة إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ فإن هذا يعرض لمجرد الألم ولذلك قيل هو نار في القلب تلتهب وصدع في الكبد لا ينشعب وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء وقال سهل ابن عبد الله التستري التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة
بيان وجوب التوبة وفضلها

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار (١) والآيات وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدرت على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنيا عن قائد يقوده في كل خطوة فالسالك إما أعمى لا يستغني عن القائد في خطوه وإما بصير يهدى إلى أول الطريق ثم يهتدي بنفسه وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصا من كتاب الله أو سنة رسوله وربما يعوزه ذلك فيتحير فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده مختصر وخطاه قاصرة ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فيتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوصة وقطع عقبات متعبة ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان وهو لشدة نور باطنه يجتزىء بأدنى بيان فكأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار فإذا مسته نار فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولا بنور البصيرة إلى التوبة ما هي ثم إلى الوجوب ما معناه ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد فإنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجبا معنى وقول القائل صار واجبا بالإيجاب حديث محض فإن مالا غرض لنا آجلا وعاجلا في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد وعلم أن لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى وأن كل محجوب عنه يشقى لا محالة محول

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٢٢٨/٢

بينه وبين ما يشتهي محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات **والأنس بهذا** العالم الفاني والإكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعا وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والإقبال بالكلية على الله طلبا للأنس به بدوام ذكره وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته وعلم أن الذنوب التي هي إعراض عن الله وإتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوبا مبعدا عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم فإنه ما لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق البعد وما لم يتوجع فلا يرجع ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول

---

(١) الأخبار الدالة على وجوب التوبة أخرج مسلم من حديث الأغر المزنى يا أيها الناس توبوا إلى الله الحديث ولابن ماجه من حديث جابر يا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا الحديث وسنده ضعيف." (١)

"وطول **الأنس به** ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافيا فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصير عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدنا كما كان الشر ديدنا فالنفس قابلة ما عودتها تتعود والخير عادة والشر لجاجة

فإذن هذه الأفكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل في الحصر فيصير الفكر موافقا للطبع فيميل القلب إليه ويعبر عن السبب الذي أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة وقد روي في حديث طويل أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بني فقال علي رضي الله عنه بني على أربع دعائم على الجفاء والعمى والغفلة والشك فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ومن عمي نسي الذكر ومن غفل حاد عن الرشد ومن شك غرته الأماني فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر وهذا القدر في التوبة كاف وإذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة فلا بد من بيان الصبر فنذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات من كتاب إحياء

علوم الدين بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد والثناء المنفرد برداء الكبرياء المتوحد بصفات المجد والعلاء المؤيد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء وعلى آله قادة البررة الأتقياء صلاة محروسة بالدوام عن الفناء ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٤/٤

أما بعد فإن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر (١) كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى إذ سمى نفسه صبورا وشكورا فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان ومن به الإيمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك ما به الإيمان فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى

الشطر الأول في الصبر

وفيه بيان فضيلة الصبر وبيان حده وحقيقته وبيان كونه نصف الإيمان وبيان اختلاف

---

(١) حديث الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر أخرجه أبو منصور الديلمي فى مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف." (١)

"أشدها التصاقا بالمتغافلين فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة لا سيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله وهذه رتبة الصديقين ولا ينال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب وآخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة وأما شره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياسة لا يقوى على كسرها إلا الصديقون فأما قمعها بالكلية حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال فيشبه أن يكون خارجا عن مقدور البشر نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى في أحوال لا يقع معها الإحساس بلذة الرياسة والغلبة ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود إلى الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل وعند هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام قلب لا يحب إلا الله تعالى ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه وقلب لا يدري ما لذة المعرفة وما معنى **الأنس بالله** وإنما لذته بالجاه والرياسة والمال وسائر الشهوات البدنية وقلب أغلب أحواله **الأنس بالله** سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه في بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة أما الأول فإن كان ممكنا في الوجود فهو في غاية البعد وأما الثاني فالدنيا طافحة به وأما الثالث والرابع فموجودان ولكن على غاية الندور ولا يتصور أن يكون ذلك نادرا شاذا وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة وإنما تكون كثرته في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام فلا يزال يزداد العهد طولا وتزداد مثل هذه القلوب قلة إلى أن تقرب الساعة ويقضي الله أمرا كان مفعولا وإنما وجب أن يكون هذا نادرا لأنه مبادي ملك الآخرة والملك عزيز والملوك لا يكثرون فكما

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٤/٦٠

لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادرا وأكثر الناس من دونهم فكذا في ملك الآخرة فإن الدنيا مرآة الآخرة فإنها عبارة عن عالم الشهادة والآخرة عبارة عن عالم الغيب وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فإنها أولى في حق رؤيتك فإنك لا ترى نفسك وترى صورتك في المرآة أولا فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة فالقلب التابع في الوجود متبوعا في حق المعرفة والقلب المتأخر متقدما وهذا نوع من الانعكاس ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة وقد أمر الحق به فقال ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة وستنفتح إلى حبسه أبواب جهنم وهذا الحبس مملوء نارا من شأنها أن تطلع على الأفئدة إلا أن بينه وبين إدراك المها حجابا فإذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا الجنة والنار مخلوقتان ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين ومرة بإدراك آخر يسمى عين اليقين وعين اليقين لا يكون إلا في الآخرة وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين فلذلك قال الله تعالى ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم﴾ أي في الدنيا ﴿ثم لترونها عين اليقين﴾ أي في الآخرة فإذن قد ظهر أن القلب الصالح لملك الآخرة لا يكون إلا عزيزا كالشخص الصالح لملك الدنيا

قسمة سادسة حاوية لمجامع النعم اعلم أن النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها وإلى ما هي مطلوبة لأجل." (١)

"ذلك في عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته ولله المثل الأعلى ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق في قوله هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي ويكفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة الطبقة الثانية من الخائفين أن يتمثل في أنفسهم ما هو المكروه وذلك مثل سكرات الموت وشدته أو سؤال منكر ونكير أو عذاب القبر أو هول المطلع أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير والقطمير أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدرجات أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها فهي لا محالة مخوفة تختلف أحوال الخائفين فيها

وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين وما قبل ذلك هو خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين ومن لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك في باطنه منكرا وتعجب منه في نفسه وربما أنكر لذة النظر إلى وجه الله الكريم لولا منع الشرع إياه من إنكاره فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد وإلا فباطنه لا يصدق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم فأما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلا له ومن كان أهلا له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ١٠٢/٤

له غيره فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه

بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار وتارة بالآيات والأخبار

أما الاعتبار فسبيله أن فضيلة الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة إذ لا مقصود سوى السعادة ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه فكل ما أعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر غايته وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته **والأنس به** في الدنيا ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة ولاتحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تقمع بنار الخوف فالخوف هو النار المحرقة للشهوات فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى

وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنان وقال الله تعالى وهدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون وقال تعالى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وصفهم بالعلم لخشيتهم

وقال عز وجل ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾ وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام وأما الخائفون." (١)

"الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء أما خصلة واحدة فإن في الجنة غرفا ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء لا يدخلها إلا نبي فقير أو شهيد فقير أو مؤمن فقير والثانية يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام والثالثة إذا قال الغني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغني بالفقير ولو أنفق فيها عشرة آلاف درهم وكذلك أعمال البر كلها فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا رضينا رضينا (١) فهذا يدل على أن قوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء أي مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم وأما قوله إن الغني وصف الحق فقد أجابه بعض الشيوخ فقال أترى أن الله تعالى غني بالأسباب والأعراض فانقطع ولم ينطق وأجاب آخرون فقالوا إن التكبر من صفات الحق فينبغي أن يكون أفضل من التواضع ثم قالوا بل هذا يدل على أن الفقر أفضل لأن صفات العبودية فضل للعبد كالخوف والرجاء وصفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قصمته (٢)

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٤/١٦٠

وقال سهل حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لأنهما من صفات الرب تعالى فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغنى والفقر وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها إذ كما يناقض قول من فضل الغني بأنه صفة الحق بالتكبر فكذلك يناقض قول من ذم الغني لأنه وصف للعبد بالعلم والمعرفة فإنه وصف الرب تعالى والجهل والغفلة وصف العبد وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي أن يضاف إلى مقصوده إذ به يظهر فضله والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى ولا الفقر مطلوبا لعينه لكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه وكم من غني لم يشغله الغني عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى **والأنس به** ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن والفقر قد يكون من الشواغل كما الغنى قد يكون من الشواغل وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى في القلب والمحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله وربما يكون شغله في الفراق أكثر وربما يكون شغله في الوصال أكثر والدنيا معشوقة الغافلين المحروم منها مشغول بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها فإذن إن فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال في حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد إذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ومن العصمة أن لا يقدر ولذلك قال الصحابة رضي الله تعالى عنهم بلينا بفتنة الضراء فصبرنا وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر وهذه خلقة الآدميين كلهم إلا الشاذ الفذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادرا

---

(١) حديث زيد بن أسلم عن أنس بعث الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا إن الأغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا نقدر عليه الحديث وفيه بلغ عني الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء الحديث لم أجده هكذا بهذا السياق والمعروف في هذا المعنى ورواه ابن ماجه من حديث ابن عمر اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل الله به عليهم أغنياءهم فقال يا معشر الفقراء ألا أبشركم إن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام وإسناده ضعيف

(٢) حديث قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري تقدم في العلم وغيره." (١)

"ولما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك النادر والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر زجر الشرع عن الغنى وذمه وفضل الفقر ومدحه حتى قال المسيح عليه السلام لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم

وقال بعض العلماء تقليب الأموال يمص حلاوة الإيمان

وفي الخبر إن لكل أمة عجلا وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم (١) وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٢٠٢/٤

أيضا واستواء المال والماء والذهب والحجر إنما يتصور للأنبياء عليهم السلام والأولياء ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة إن كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للدنيا إليك عني (٢) إذ كانت تتمثل له بزينتها

وكان علي كرم الله وجهه يقول يا صفراء غري غيري ويا بيضاء غري غيري وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادىء الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربه وذلك هو الغنى المطلق إذ قال صلى الله عليه وسلم ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس (٣) وإذا كان ذلك بعيدا فإذن الأصلح لكافة الخلق فقد المال وإن تصدقوا به وصرفوه إلى الخيرات لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة في بذلها وكل ذلك يورث **الأنس بهذا** العالم وبقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافي القلب عن الدنيا وزهرتها والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمنا بالله انصرف لا محالة إلى الله إذ لا يتصور قلب فارغ وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ومثلهما مثل المشرق والمغرب فإنهما جهتان فالمتردد بينهما يقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوبه عن الدنيا وأنسه بها فإذن فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط فإن تساويا فيه تساوت درجتهما إلا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور فإن الغني ربما يظن أنه منقطع القلب عن المال ويكون حبه دفينا في باطنه وهو لا يشعر به وإنما يشعر به إذا فقده فليجرب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه فإن وجد لقلبه إليه التفاتا فليعلم أنه كان مغرورا فكم من رجل با ع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كنت مستكنة فيه فتحقق إذن أنه كان مغرورا وأن العشق كان مستكنا في الفؤاد استكنان النار تحت الرماد وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء وإذا كان ذلك محالا أو بعيدا فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل لأن علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته فإن حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول ولذلك قال بعض السلف مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يطفىء النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك

---

(١) حديث لكل أمة عجل وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم رواه أبو منصور الديلمي من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من حديث حذيفة بإسناد في جهالة

(٢) حديث كان يقول للدنيا إليك عني الحديث رواه الحاكم مع اختلاف وقد تقدم

(٣) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم." [1]

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٢٠٣/٤

"ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد فلا يكون القلب منصرفا إليه فالإنسان قد يستريح في قيام الليل بتنسم الأسحار وصوت الأطيار ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره ولقد كان في الخائفين من طلب موضعا لا يصيبه فيه نسيم الأسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه فيكون فيه أنس بالدنيا ونقصان في **الأنس بالله** بقدر وقوع الأنس بغير الله ولذلك كان داود الطائي له جب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس ويشرب الماء الحار ويقول من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا فهذه مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط فإنه وإن كان شاقا فمدته قريبة والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التأبيد لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين لأنفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين

بيان تفضيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم فالفضول كالخيل المسومة مثلا إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفه بركوبها وهو قادر على المشي والمهم كالأكل والشرب ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر وإنما ينحصر المهم الضروري والمهم أيضا يتطرق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته فلا بد من بيان وجه الزهد فيه والمهمات ستة أمور المطعم والملبس والمسكن وأثاثه والمنكح والمال والجاه يطلب لأغراض

وهذه الستة من جملتها وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربع المهلكات ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة

الأول المطعم ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر فإن من يملك طعام يومه فلا يقنع به وأما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدة الجوع وخوف المرض ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدخر من غدائه لعشائه وهذه هي الدرجة العليا الدرجة الثانية أن يدخر لشهر أو أربعين يوما الدرجة الثالثة أن يدخر لسنة فقط وهذه رتبة ضعفاء الزهاد ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدا فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس كداود الطائي فإنه ورث عشرين دينارا فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل وأوسطه رطل وأعلاه مد واحد وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت ولو الخبز من النخالة وأوسطه خبز الشعير والذرة وأعلاه خبز البر غير منخول فإذا ميز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التنعم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله

وأما الأدم فأقله الملح أو البقل والخل وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أي دهن كان وأعلاه اللحم أي لحم كان وذلك

في الأسبوع مرة أو مرتين فإن صار دائما أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا في البطن أصلا وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائما وأوسطه." (١)

"﴿وقال﴾ كلما رأيته ذكرت الدنيا أرسلي به إلى آل فلان (١) وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية فما زال يتقلب ليلته فلما أصبح قال لها أعيدي العباءة الخلقة ونحي هذا الفراش عني قد أسهرني الليلة (٢) وكذلك أتته دنانير خمسة أو ستة ليلا فبيتها فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل

قالت عائشة رضي الله عنها فنام حينئذ حتى سمعت غطيطه ثم قال ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده (٣) وقال الحسن أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه

المهم الخامس المنكح وقد قال قائلون لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرته وإليه ذهب سهل ابن عبد الله وقال قد حبب إلى سيد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهن ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال كان أزهد الصحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية

والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم والمرأة قد تكون شاغلا عن الله

وكشف الحق فيه أنه قد تكون العزوبة أفضل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح فيكون ترك النكاح من الزهد وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فعله ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب إليهن **والأنس بهن** بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد فإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلا فإن الولد مقصود لبقاء نسله وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم من القربات واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره إذا لم تكن هي المقصد والمطلب وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازا من لذة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد في شيء لأن في ترك ذلك فوات بدنه فكذلك في ترك النكاح انقطاع نسله فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا في لذته من غير خوف آفة أخرى وهذا ما عناه سهل لا محالة ولأجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم

وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنه لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن (٤) فلا معنى لزهده فيهن حذرا من مجرد لذة الوقاع والنظر ولكن أنى يتصور ذلك لغير الأنبياء والأولياء فأكثر الناس يشغلهم

---

(١) حديث رأى على باب عائشة سترا فهتكه الحديث

أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى من حديثها

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٤/٢٣٠

(٢) حديث فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وفيه كان ينام على عباءة مثنية الحديث رواه ابن حبان في كتاب أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من حديثها قالت دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية فانطلقت فبعثت إلي بفراش حشوه صوف فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا الحديث وفيه أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته وفيه مجالد بن سعيد مختلف فيه والمعروف حديث حفصة المتقدم ذكره من الشمائل

(٣) حديث أتته دنانير خمسة أو ستة عشاء فبيتها فسهر ليله الحديث وفيه ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده أخرجه أحمد من حديث عائشة بإسناد حسن أنه قال في مرضه الذي مات فيه يا عائشة ما فعلت بالذهب فجاء ما بين الخمسة إلى الثمانية إلى التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول ما ظن محمد الحديث وزاد أنفقها وفي رواية سبعة أو تسعة دنانير وله من حديث أم سلمة بإسناد صحيح دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شاهم الوجه قالت فحسبت ذلك من وجع فقلت يا نبي الله ما لك شاهم الوجه فقال من أجل الدنانير السبعة التي أتتنا أمس أمسينا وهي في خصم الفراش وفي رواية أمسينا ولم ننفقها

(٤) حديث كان لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن تقدم في النكاح." (١)

"ما لهؤلاء من خلاق ولو رأوا أشراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب وكان أحدهم يعرض لهم المال الحلال فلا يأخذه ويقول أخاف أن يفسد على قلبي فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون وقال عز وجل ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا

وقال تعالى فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام احملني معك في سياحتك فقال أخرج مالك والحقني

فقال لا أستطيع فقال عيسى عليه السلام بعجب يدخل الغني الجنة أو قال بشدة وقال بعضهم ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب يقول أحدهم بالمشرق يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر أقصر ويقول الآخر اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا ويقول اللذان بالمغرب أحدهما لدوا للموت وابنوا للخراب

ويقول الآخر كلوا وتمتعوا لطول الحساب

بيان علامات الزهد

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد وليس كذلك

فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا ديرا لا باب له وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له فذلك لا يدل على الزهد

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٢٣٨/٤

دلالة قاطعة بل لا بد من الزهد في المال والجاه جميعا حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعي جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة كما قال الخواص في وصف المدعين إذ قال وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يموهون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم لئلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما تعطى المساكين ويحتجون لنفوسهم بأتباع العلم وأنهم على السنة وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعلة غيرهم

هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجئوا إلى المضايق وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوها حالا لهم فهم مائلون إلى الدنيا متبعون الهوى

فهذا كله كلام الخواص رحمه الله فإذن معرفة الزهد أمر مشكل بل حال الزهد على الزاهد مشكل

وينبغي أن يعول في باطنه على ثلاث علامات العلامة الأولى أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود كما قال تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم بل ينبغي أن يكون بالضد من ذلك وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده العلامة الثانية أن يستوي عنده ذامه ومادحه فالأول علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه العلامة الثالثة أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إما محبة الدنيا وإما محبة الله وهما في القلب كالماء والهواء في القدح فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره ولذلك قيل لبعضهم إلى ماذا أفضى بهم الزهد فقال إلى **الأنس بالله** فأما الأنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان

وقد قال أهل المعرفة إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعا وعمل لهما وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها ولهدا ورد في دعاء آدم عليه السلام." (١)

"اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي

وقال أبو سليمان من شغل بنفسه شغل عن الناس وهذا مقام العاملين ومن شغل بربه شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين والزاهد لا بد وأن يكون في أحد هذين المقامين ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه وعند ذلك يستوي عنده المدح والذم والوجود والعدم ولا يستدل بإمساكه قليلا من المال على فقد زهده أصلا

قال ابن أبي الحواري قلت لأبي سليمان أكان داود الطائي زاهدا قال نعم قلت قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين دينارا فأنفقها في عشرين سنة فكيف كان زاهدا وهو يمسك الدنانير فقال أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد وأراد بالحقيقة الغاية فإن الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس

ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئا مع القدرة عليه خوفا على قلبه وعلى دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه وآخره أن يترك كل ما سوى الله حتى لا يتوسد حجرا كما فعله المسيح عليه السلام فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مباديه نصيبا وإن قل فإن أمثالنا لا يستجرىء على الطمع في غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاظمه شيء فلا بعد في أن نعظم السؤال

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٤/ ٢٤١

اعتمادا على الجود المجاوز لكل كمال

فإذن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم وذلك لغلبة **الأنس بالله**

ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها

وقيل علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول أبني رباطا أو أعمر مسجدا

وقال يحيى بن معاذ علامة الزهد السخاء بالموجود

وقال ابن خفيف علامته وجود الراحة في الخروج من الملك وقال أيضا الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف

وقال أبو سليمان الصوف علم من أعلام الزهد فلا ينبغي أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله علامة الزهد قصر الأمل وقال سري لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه

وقال النصراباذي الزاهد غريب في الدنيا والعارف غريب في الآخرة

وقال يحيى بن معاذ علامة الزهد ثلاث عمل بلا علاقة وقول بلا طمع وعز بلا رياسة وقال أيضا الزاهد لله يسعطك الخل والخردل والعارف يشمك المسك والعنبر

وقال له رجل متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأقعد مع الزاهدين فقال إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح وقال أيضا الدنيا كالعروس ومن يطلبها ما شطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها

وقال السري مارست كل شيء من أمر الزهد فنلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فإني لم أبلغه ولم أطقه." (١)

"كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت في بيداء كبريائه وعظمته فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما اغبر في وجه العقل وبصيرته وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرقى في بحر معرفته ومحترقة بنار محبته والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكمال نبوته وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمته وقادة الحق وأزمته وسلم كثيرا

أما بعد: فإن المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بإمكانها وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها وقال: لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثال ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف الغطاء عن هذا

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٤/٢٤٢

الأمر

ونحن نذكر في هذا الكتاب: بيان شواهد الشرع في المحبة ثم بيان حقيقتها وأسبابها ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا ثم بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ثم بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ثم بيان معنى الشوق ثم بيان محبة الله تعالى للعبد ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى ثم بيان معنى **الأنس بالله** تعالى ثم بيان معنى الانبساط في الأنس ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته ثم بيان حقيقته ثم بيان أن الدعاء وكراهة المعاصي لا تناقضه وكذا الفرار من المعاصي ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة فهذه جميع بيانات هذا الكتاب

بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض وكيف يفرض مالا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته فلا بد وأن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل يحبهم ويحبونه وقوله تعالى والذين آمنوا أشد حبا لله وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة إذ قال أبو رزين العقيلي: يا رسول الله ما الإيمان قال أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما (١) حديث لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما متفق عليه من حديث أنس بلفظ لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهلاه وماله وذكر بزيادة (٢) حديث لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله ونفسه والناس أجمعين وفي رواية ومن نفسه متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم دون قوله ومن نفسه وقال البخاري من والده وولده وله من حديث عبد الله بن هشام: قال عمر يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي فقال لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي فقال: الآن يا عمر

(١) حديث أبو رزين العقيلي أنه قال يا رسول الله مالإيمان قال أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما أخرجه أحمد بزيادة في أوله وفي حديث آخر لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما

(٢) وفي حديث آخر لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين." (١)

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٤/٢٩٤

"قال أبو تراب النخشبي في علامات المحبة أبياتا

لا تخدعن فللحبيب دلائل ... ولديه من تحف الحبيب وسائل

منها تنعمه بمر بلائه ... وسروره في كل ما هو فاعل

فالمنع منه عطية مقبولة ... والفقر إكرام وبر عاجل

ومن الدلائل أي ترى من عزمه ... طوع الحبيب وإن ألح العاذل

ومن الدلائل أن يرى متبسما ... والقلب فيه من الحبيب بلابل

ومن الدلائل أن يرى متفهما ... لكلام من يحظى لديه السائل

ومن الدلائل أن يرى متقشفا ... متحفظا من كل ما هو قائل

وقال يحيى بن معاذ

ومن الدلائل أن تراه مشمرا ... في خرقتين على شطوط الساحل

ومن الدلائل حزنه ونحيبه ... جوف الظلام فما له من عاذل

ومن الدلائل أن تراه مسافرا ... نحو الجهاد وكل فعل فاضل

ومن الدلائل زهده فيما يرى ... من دار ذل والنعيم الزائل

ومن الدلائل أن تراه باكيا ... أن قد رآه على قبيح فعائل

ومن اادلائل أن تراه مسلما ... كل الأمور إلى المليك العادل

ومن الدلائل أن تراه راضيا ... بمليكه في كل حكم نازل

ومن الدلائل ضحكه بين الورى ... والقلب محزون كقلب الثاكل

بيان معنى **الأنس بالله** تعالى

قد ذكرنا أن الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة إلا أن هذه آثار تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلا منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الإطلاع على كنه الجلال انبعث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه وتسمى هذه الحالة في الانزعاج شوقا وهو بالإضافة إلى أمر غائب وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنسا وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفا

وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها فالأنس معناه استبشار القلب فرحه بمطالعة الجمال حتى إنه إذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له أنت مشتاق فقال لا إنما الشوق إلى غائب فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشتاق وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى ما بقي في الإمكان من مزايا الألطاف

ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة كما حكي أن إبراهيم بن أدهم نزل من الجبل فقيل له من أين أقبلت فقال من **الأنس بالله** وذلك لأن **الأنس بالله** يلازمه التوحش من غير الله بل كل." (١)

"ما يعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب كما روي أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغثيان لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه

ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه يا من آنسني بذكره وأوحشني من خلقه وقال الله عز وجل لداود عليه السلام كن لي مشتاقا وبي متأنسا ومن سواي مستوحشا وقيل لرابعة بم نلت هذه المنزلة قالت بتركي ما لا يعنيني وأنسي بمن لم يزل

وقال عبد الواحد بن زيد مررت براهب فقلت له يا راهب لقد أعجبتك الوحدة فقال يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك الوحدة رأس العبادة فقلت يا راهب ما أقل ما تجده في الوحدة قال الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم قلت يا راهب متى يذوق العبد حلاوة **الأنس بالله** تعالى قال إذا صفا الود وخلصت المعاملة قلت ومتى يصفو الود قال إذا اجتمع الهم فصار هما واحد في الطاعة وقال بعض الحكماء عجبا للخلائق كيف أرادوا بك بدلا عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك

فإن قلت فما علامة الأنس فاعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر فإن خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة وغريب في حضر وحاضر في سفر وشاهد في غيبة وغائب في حضور مخالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر كما قال علي كرم الله وجهه في وصفهم هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعر المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه

فهذا معنى **الأنس بالله** وهذه علامته وهذه شواهده

وقد ذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التشبيه وجهله بأن جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات ولذة معرفتها أغلب على ذوي القلوب ومنهم أحمد بن غالب يعرف بغلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبي الحسن النوري والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى أنكر بعضهم مقام الرضا وقال ليس إلا الصبر فأما الرضا فغير متصور

وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور فظن أنه لا وجود إلا للقشر فإن المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل

الأنس بالله لا يحويه بطال ... وليس يدركه بالحول محتال

والآنسون رجال كلهم نجب ... وكلهم صفوة لله عمال

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٤/٣٣٩

بيان معنى الانبساط والإدلال الذي تثمره غلبة الأنس

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينغصه خوف التغير والحجاب فإنه يثمر نوعا من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة ولكنه محتمل ممن أقيم في مقام الأنس ومن لم يقم في ذلك المقام ويتشبه بهم في الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر

ومثاله مناجاة برخ الأسود الذي أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقي لبني إسرائيل." (١)

"عليه قضاؤك وقدرك فأكل من الشجرة فأهبطته إلى الأرض.

وقال أحمد البرمكي: سألت أبا الحسن بن بشار عن حديث أم الطفيل وحديث ابن عباس في الرؤية فقال: صحيحان فعارض رجل فقال: هذه الأحاديث لا تذكر في مثل هذا الوقت فقال ابن بشار: فيدرس الإسلام منكرا على من منع السؤال عن الخبرين.

وقرأت بخط الوالد السعيد قدس الله روحه قال: رأيت في كتب أبي حفص البرمكي عن أبي بكر الخلال أو صاحبه سمعت ابن بشار يقول: من زعم أن الكفار يحاسبون يستحي من الله ثم قال: من صلى خلف من يقول هذه المقالة يعيد.

ومن خطه: قال أحمد البرمكي: سمعت ابن بشار يقول لست أشهد لأحد بالولاية ولا بالبداية حتى تجتمع فيه أربع خصال: قطع كل علاقة تقطع عن السباق وترك كل لذة فيها حساب والتبرم بالصديق والعدو وخفة الحال وقلة الادخار.

قال: وسمعته يقول وقد سئل من أين المطعم؟ فقال قد أكثر الناس فقوم يقولون له هاون في العطارين وكل هاون لي صدقة وكل عقار وقف وقال قوم آخرون يأكل من مغزل أخته قال ابن بشار فعجبت من ذلك قال الله تعالى الرجال قوامون على النساء ولم يقل النساء قوامون على الرجال هو لا يضيع الجاثليق وهو كافر يضيعني أنا من رغيف آكله وأنا مسلم؟ ثم قال: يا أهل المجلس من قال لكم من أهل الأرض إنه يعرف مطعم ابن بشار منذ أربعين سنة فقد كذب ومن قال لكم إن لابن بشار حاجة إلى مخلوق منذ أربعين سنة فقد كذب أو قال لكم أحد من أهل الأرض إن ابن بشار سأل مخلوقا حاجة منذ أربعين سنة فقد كذب.

قال وسأله رجل عن **الأنس بالله** عز وجل قال: لا يتكلم في الأنس إلا من انقطع عن قلبه حس وساوس الأنس ثم قال: أما ترون هذه الجارية التي يقال لها ناسي وتخدرم هي بني أخته؟ قلنا: بلى قال: هي في الدار منذ أربع عشرين سنة أشك في الكلمة الثانية أني كلمتها.

قال: وكان يفتتح مجلسه إذا أراد أن يتكلم بقوله عز وجل وإنك لتعلم ما نريد." (٢)

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٣٤٠/٤

(٢) طبقات الحنابلة ابن أبي يعلى ٥٩/٢

"تخاف في الله لومة لائم، مع العطف للمؤمنين والغلظة للكافرين واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدين.
وقال ذو النون: قال الله تعالى «من كان لي مطيعا كنت له وليا، فليثق بي وليحكم علي، فوعزتي لو سألني زوال الدنيا لأزلتها عنه» وقال: **الأنس بالله** من صفاء القلب مع الله، وقال: لم أر شيئا أبعث لطلب الإخلاص من الوحدة، لأنه إذا خلا لم ير غير الله سبحانه، فإذا لم ير غير الله سبحانه لم يحركه إلا حكم الله، ومن أحب الخلوة فقد تعلق بعمود الإخلاص، واستمسك بركن كبير من أبواب الصدق.
وقال: من علامة المحب لله متابعة حبيب الله في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه.
وقال: لم أر أجهل من طبيب يداوي سكرانا في وقت سكره، يعني يترك حتى يفيق، فيداوى بالتوبة، وفي رواية: لا يكون لسكره دواء حتى يفيق.." (١)
"وقال: من أنس بالخلق فقد استمكن من بساط الفراعنة.
وقال: **الأنس بالله** نور ساطع، والأنس بالخلق غم واقع.
وقال: مفتاح العبادة الفكر، وعلامة الهوى متابعة الشهوات، وعلامة التوكل انقطاع المطامع.
وقال: كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضا للدنيا وتركا لها، فاليوم يزداد الرجل بعلمه للدنيا حبا ولها طلبا، كان الرجل ينفق ماله على علمه، فيكسب اليوم الرجل بعلمه مالا، وكان يرى على طالب العلم زيادة في باطنه وظاهره، فاليوم يرى على كثير من أهل العلم فساد الباطن والظاهر.
وقال: العارف كل يوم أخشع، لأنه كل ساعة أقرب.." (٢)
"غير ما قصيد، ومقطوعات في النسيب وجدتها بخط الأديب أبي علي الحسن ابن الغليظ من أفق مالقة أيضا، صاحبه الكثير الاتصال به والمنادمة له، وقد اخترت منها ما يليق بشرط هذا المجموع.
قال أبو علي: أردت يوما **الأنس به**، فعلمت اتصال شربه، فانفردت مع صديق وكتبت إلى ابن السراج:
يا خليلا صفا وكدر يومي ... هل إلى الطيب في غد من سبيل -
لو تراني أسارق اللحظ خلي ... وأسقى من ريقه المعول
لتمنيت أن ترى " حسن الور ... د " تغنيك بالغناء الثقيل
يا خليلا مثاله نصب عيني ... لو خلونا إذن شفيت غليلي فألفاه رسولي سكران فكتب إلي:
يا صديقي شغلت عنك بخطب ... لم يكن لي بتركه من سبيل
وغدا نلتقي عليها سلافا ... مزة في حرارة الزنجبيل
أثقلتني هوى بقد خفيف ... حسن الورد فوق ردف ثقيل
سلبت صبري الجميل وقلبي ... بجفون نجل ووجه جميل

(١) سير السلف الصالحين لإسماعيل بن محمد الأصبهاني إسماعيل الأصبهاني ص/١١٠٩
(٢) سير السلف الصالحين لإسماعيل بن محمد الأصبهاني إسماعيل الأصبهاني ص/١١١١

كحلت بالسهاد والدمع طرفي ... يوم أبصرتها بطرف كحيل

هي سؤلي من الملاح كما أن - ... ك من سادة الأخلاء سولي

لا عدتني زيارة منك تذكي ... نور عيني سنا وتشفي غليلي." (١)

"وغبت مدة طويلة من الدهر في سفر لقيت فيه نصبا، وصحبت قوما لم يحسن موقعهم من نفسي ولا التذذت بهم، ثم قدمت مشتاقا إلى **الأنس به**، فكتبت إليه:

يا من أقلب طرفي في محاسنه ... فلا أرى مثله في الناس إنسانا

لو كنت تعلم ما لاقيت بعدك ما ... شربت كأسا ولا استحسنت ريحانا فورد علي من حينه فقال: أردت مجاوبتك فخفت أن أبطئ، فصنعت الجواب في الطريق، وهو:

يا من إذا ما سقتني الراح راحته ... أهدت إلي بها روحا وريحانا

من لم يكن في صباح السبت يأخذها ... فليس عند بحكم الظرف إنسانا

فكن على حسن هذا اليوم مصطبحا ... مؤخرا حسنا فيه وحسانا

وفي البساتين إن ضاق المحل بنا ... مندوحة لا عدمنا الدهر بستانا قال: وغبت في غزوة مع يحيى المعتلي بالله، وذلك في سنة أربع وعشرين، فاتصل بي أنه تنزه مع بعض أصحابه في زمان الورد، وفصاحة أم الحسن، وأنه صنع أشعارا في وصفها، منها:

ومسمعة غنت فهاجت لنا هوى ... جنينا به منها ثمار المنى جنيا

دعوت لها سقيا فما استكمل الرضى ... دعائي لها حتى سقاها الحيا سقيا." (٢)

"وكان حسن السيرة، جميل الأمر، متواضعا، حسن الأخلاق، لطيف الطبع، كثير الخير، محبوبا إلى الناس.

سمع الإمام أبا علي الفضل بن محمد الفارمذي، وأبا الحسين أحمد بن عبد الرحمن الكيالي، وأم البنين فاطمة بنت أبي علي الدقاق، وغيرهم، كتبت عنه شيئا يسيرا بطوس في النوبة الثالثة، وكنت شديد **الأنس به**، والمحبة له.

وكانت ولادته في ذي القعدة، سنة ثلاث وسبعين وأربع مائة بطوس، ووفاته بها آخر يوم من ذي الحجة، سنة ثلاث وأربعين وخمس مائة، ودفن بمقبرة ملقاباذ، وزرت قبره رحمه الله.

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة الشنتريني ٨٧١/٢

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة الشنتريني ٨٧٧/٢

شيخ آخر: هو السيد أبو العالى، فضل الله بن جعفر بن الحسين الحسني، وبعض أصحابنا سماه عليا، من أهل مرو الروذ كان علويا زاهدا، حسن السيرة، متصوفا.

وكان رحل إلى بلخ وسمع مسند أبي سعيد الهيثم بن كليب الشاشي، إما الكل أو البعض من أبي القاسم أحمد بن محمد بن محمد الخليلي الزيادي.

سمعت منه أحاديث يسيرة، وكانت ولادته في حدود سنة ستين وأربع مائة أو بعدها.

ومات بمرو الروذ في شهر رمضان، سنة خمس وأربعين وخمس مائة.." (١)

"دق حتى تطيع (١) الله فيمن عصاه فيك وتعتزل الصديق والعدو فعند ذلك تتفجر ينابيع الحكمة من قلبك وتدع الهوى بنور الإيمان عليك والمنزلة الثانية ترك الفضول من القول والمقال والمثال حتى تر حم من ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك فعند ذلك تقاد بحلاوة يعني طاعة الله عز وجل وبعزم الإرادة وترتبط بحبل الطاعة والمنزلة الثالثة ترك العلو والرياسة واختيار التواضع والذلة حتى تصير مثل مملوك لسيده وبإرماج النظر تطلعت للنفس إلى فضول الشهوات فأظلم القلب ولم ير جميلا فيرغب فيه ولا قبيحا فيأنف منه وبضبط النظر ذلت النفس عن فضول الشهوات فانفتح القلب فأبصر جميلا يرغب فيه وا نكشف العقل فأبصر قلت يا راهب فأيما العقل قال أوله المعرفة وفرعه العلم وثمرته السنة قلت يا راهب متى يجد العبد حلاوة الإيمان **والأنس بالله** قال إذا صفا الود وجادت المعاملة قلت يا راهب متى يصفو الود قال إذا اجتمعت الهموم فصارت في الطاعة قلت يا راهب متى تخلص المعاملة قال إذا اجتمعت الهموم فصارت واحدة قلت يا راهب عظني وأوجز قال لا يراك الله حيث يكره قلت زدني من الشرح لأفهم قال كل حلالا وارقد حيث شئت قلت يا راهب لقد تحليت بالوحدة قال يا فتى لو ذقت طعم الوحدة لاستوحشت لها (٢) من نفسك الوحدة رأس العبادة ومؤنسها الفكرة قلت يا راهب فما أشد ما يصيبك في صومعتك من هذه الوحدة قال يا فتى ليس في الوحدة شدة الوحدة أنس المريدين قلت يا راهب ما أشد ذلك عليك قال تواتر الرياح العواصف في الليل الشاتي قلت تخاف أن تسقط فتموت فتبسم تبسما لم يفتح فاه ولكن أشرق وجهه وقال يا فتى هل العيش إلا في السقوط وما أشبهه من أسباب الموت قلت فلم يشتد ذلك عليك إن كان كذلك قال يا فتى أما والله إذا اشتدت علي الريح وعصفت ذكرت عند ذلك عصوف الخلق في

---

(١) عن المختصر وبالاصل: " لصع "

(٢) المختصر: إليها." (٢)

"ببلخ يقول سمعت يوسف بن الحسين يقول سمعت ذا النون بن إبراهيم يقول **الأنس بالله** نور ساطع والأنس بالناس غم (١) واقع وفي رواية أبي دجانة مع الله ومع الناس وقال سم قاطع أخبرنا أبو القاسم زاهر بن طاهر أنا أبو بكر البيهقي أنا أبو عبد الله الحافظ أنبأ الحسن بن محمد بن إسحاق قال سمعت أبا عثمان الحناط يقول حدثنا ذو النون بن إبراهيم

---

(١) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني السمعاني، عبد الكريم ص/١٣٢٢

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ابن عساكر، أبو القاسم ١٢/٦

المصري قال إن الله عز وجل خلق القلوب أوعية العلم ولولا أن الله سبحانه وبحمده أنطق اللسان بالبيان وافتتحه بالكلام ما كان الإنسان إلا بمنزلة البهيمة يومئ بالرأس ويشير باليد قال وسمعت ذا النون يقول ثلاثة من أعلام المراقبة مآثر الله وتعظيم ما عظم الله وتصغير ما صغر الله قال وثلاثة من أعلام الاغترار بالله التكاثر بالحكمة ولبس بالعشرة والاستعانة بالله وليس بالمخلوقين والتذلل لأهل الدين في الله وليس لأبناء الدنيا وسمعت ذا النون يقول ثلاثة من أعلام الخوف الورع عن الشبهات بملاحظية الوعيد وحفظ اللسان مراقبة للنظر العظيم ودوام الكيد استطلق من غضب الحكيم وسمعت ذا النون يقول ثلاثة من أعلام الهدى الاسترجاع عند المصيبة والاستتابة عند النعمة وبقي الإحسان عند الغضب قال وسمعت ذا النون يقول ثلاثة من أعلام المحبة الرضا في المكروه وحسن الظن به في المجهود (٢) والتحسين لاختياره في المحذور وثلاثة من أعلام المعرفة الإقبال على الله والانقطاع إلى الله والافتخار بالله عز وجل وثلاثة من أعلام الإتعاظ (٣) بالله الهرب من كل شئ إليه وسؤال كل شئ منه ١ والدلالة في كل وقت عليه

---

(١) عن حلية الاولياء ٩ / ٣٧٧ وبالاصل " عمر "

(٢) في حلية الاولياء ٩ / ٣٤١ وحسن الظن في المجهول

(٣) حلية الاولياء ٩ / ٣٩٣ وبالاصل: الالفاظ والمثبت عن الحلية." [1]

"قال وسمعت ذا النون يقول ثلاثة من أعلام **الأنس بالله** استلذاذ الخلوة والاستيحاش من الصحبة واستحلاء الوحدة وثلاثة من أعلام الوصول **الأنس به** في جميع الأحوال والسكون إليه في جميع الأعمال وحب الموت لغلبة الشوق في جميع الأشغال قال وثلاثة من أعلام الشوق حب الموت مع الراحة وبغض الحياة مع الدعة ودوام الحزن مع الكفاية (٢) قال وسمعت ذا النون يقول ثلاثة من أعلام الصبر التباعد عن الخلطاء في الشدة والسكوت عليه مع تجرع غصص البلية وإظهار الغنى مع كثرة العيال وجفاء الخلق وهجرانهم له وقوله الحق فيهم باحتمال الضرر في المال والبدن وقال في موضع آخر وإظهار المغنى مع حلول الفقر بساحة المعيشة من أعلام التسليم مقابلة القضاء بالرضا والصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء سمعت أبا المظفر بن القشيري يقول سمعت أبي يقول سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول سمعت يوسف بن الحسين يقول سمعت ذا النون المصري يقول ما أعز الله عبدا بعز هو أعز له من أن يذله على ذل نفسه وما أذل الله عبدا بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه (٣) أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن منصور وعلي بن الحسن بن سعيد قالا ثنا وأبو النجم بدر بن عبد الله أنبأ أبو بكر الخطيب (٤) أنبأ أبو نعيم الحافظ نا محمد بن أحمد بن يعقوب نا عبد الله بن محمد بن ميمون قال سألت ذا النون عن الصوفي فقال من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإذا سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق أخبرنا أبو القاسم الشحامي أنا أبو بكر البيهقي أنا أبو سعد الماليني قال سمعت أبا حفص بن عبيد الله قال ذكر الحسن بن علي الأبرش قال سمعت ذا النون

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ابن عساكر، أبو القاسم ٤١٤/١٧

(١) حلية الاولياء ٩ / ٣٤٢

(٢) المصدر نفسه

(٣) الخبر في الحلية ٩ / ٣٧٤ من طريق محمد بن عبد الملك

(٤) الخبر سقط من ترجمته في تاريخ بغداد." (١)

"" ذكر من اسمه (١) سباع "

٢٣٨٤ - سباع أبو محمد الموصلي الزاهد (٢) جالس المضاء بن عيسى الزاهد وروى عن عبد الواحد بن زيد روى عنه أحمد بن أبي الحواري أخبرنا أبو العز أحمد بن عبيد الله إذنا ومناولة وقرأ علي إسناده أنبأ أبو علي محمد بن الحسين أنا المعافى بن زكريا نا عمر بن الحسن بن علي بن مالك الشيباني أنا أبي عن أحمد بن أبي الحواري قال سمعت مضاء العابد يقول لسباع (٣) العابد يا أبا محمد إلى أي شئ أفضى بهم الزهد قال إلى **الأنس به** أخبرنا أبو القاسم علي بن إبراهيم أنبأرشأ بن نظيف أنا الحسن بن إسماعيل أنا أحمد بن مروان نا أحمد بن علي يعني المخرمي نا أحمد بن أبي الحواري قال سمعت مضاء يقول لسباع الموصلي يا أبا محمد أي شئ أفضى بهم إلى الزهد قال **الأنس بالله** أنبأنا أبو علي الحداد أنا أبو نعيم نا أبو محمد بن حيان نا إسحاق بن إبراهيم الأنماطي وأخبرنا أبو المعالي عبد الخالق بن عبد الصمد بن علي بن (٤) حمد بن

---

(١) ما بين معكوفتين سقط من الاصل وزيادته للإيضاح

(٢) ترجمته في صفة الصفوة ٤ / ١٦١ الوافي بالوفيات ٦ / ٦٢

(٣) بالاصل: " السباع " والصواب عن الوافي ومخطوطة م

(٤) زيادة لازمة منا ترجمته في سير الأعلام ٢٠ / ٦٠." (٢)

"الحسن بن مسعود بن البدن (١) أنا المبارك بن عبد الجبار بن أحمد أنا أبو طاهر محمد بن علي بن محمد بن يوسف المعروف بابن العلاف الواعظ أنبأ أبي أبو الحسن علي بن محمد أنا أبو علي محمد بن أحمد بن الحسن بن الصواف أنا أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن أبي حسان الأنماطي نا أحمد بن أبي الحواري قال وسمعت المضاء يسأل سباعا زاد أبو المعالي أبا محمد فقال الموصلي فقال يا أبا محمد إلى أي شئ أفضى بهم الزهد قال إلى **الأنس به** وأخبرنا أبو المعالي أنبأ المبارك أنا محمد بن علي أنا أبي أنا أبو علي أنا أبو يعقوب قال ونا أحمد قال جلس أبو سليمان وأنا معه إلى سباع أبي محمد الموصلي فقال له سباع يا أبا سليمان لو كان لك عبدان أحدهما يعمل على الخوف منك والآخر يعمل على المحبة لك فاضطرب أبو سليمان حتى ارتعدت فخذه فاتكى عليها (٢) فاضطربت فخذه الأخرى فاتكى عليهما (٣) فلم يزل كذلك حتى سكتنا عنه

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ابن عساكر، أبو القاسم ٤١٥/١٧

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ابن عساكر، أبو القاسم ١٢٤/٢٠

(١) في: م الندى

(٢) بالاصل وم: " على " والمثبت عن الوافي ١٥ / ١١١

(٣) رسمها بالاصل: " ماملي "كذا والمثبت عن الوافي وم وفيه: فاتكى عليها

وفي م: فاتكى عليهما وهو ما أثبتناه." (١)

"ظهر منك فبماذا تغسل قلبك فبقيت متفكرا فألهمت حتى قلت بالغموم والأحزان فيما يقربني من **الأنس بالله** قال وثنا ابن باكوية نا عبد الله بن محمد بن جعفر نا إبراهيم بن إسحاق نا أحمد بن أبي الحواري قال رأيت أبا سليمان حين أراد أن يلبي غشي عليه فلما أفاق قال يا أحمد بلغني أنه إذا حج العبد من غير وجهه فلبى قيل له لا لبيك ولا سعديك حتى تطرح ما في يديك فما يؤمنا أن يقال لنا مثل هذا ثم لبى (١) أخبرنا أبو القاسم علي بن إبراهيم أنا رشأ بن نظيف أنا الحسن بن إسماعيل نا أحمد بن مروان نا أحمد بن علي المخزمي نا ابن أبي الحواري قال كنت مع أبي سليمان حين أراد الإحرام فلم يلبث (٢) سرنا ميلا وأخذه كالغشية في المحمل ثم أفاق فقال يا أحمد إن الله تبارك وتعالى اوحى إلى موسى مر ظلمة بني إسرائيل أن يقلوا من ذكري فإني أذكر من ذكرني منهم باللعنة حتى يسكت ويحك يا أحمد بلغني أنه من حج من غير حله ثم لبى قال الله له لا لبيك ولا سعديك حتى ترد ما في يديك فما يؤمنا أن يقال لنا ذلك قال ونا ابن مروان نا علي بن الحسن الأنطاكي نا ابن الحواري قال قال أبو سليمان (٣) ينبغي للخوف أن يكون أغلب على الرجاء فإذا بلغ (٤) الرجاء على الخوف فسد القلب أخبرنا أبو المظفر بن القشيري أنا أبي الأستاذ أبي القاسم (٥) قال سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت عبد الله بن محمد الرازي يقول أخبرنا إسحاق بن إبراهيم بن أبي حسان قال سمعت أحمد بن أبي الحواري يقول سمعت أبا سليمان يقول من أحسن في نهاره كوفئ في ليله ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره ومن صدق في ترك (٦) يده شهوة ذهب الله بها من قلبه والله تعالى أكرم من أن يعذب قلبا بشهوة (٧) تركت له

---

(١) الخبر في سير الاعلام ١٠ / ١٨٥ من طريق أحمد (بن أبي الحواري) وفي حلية الاولياء ٩ / ٢٦٣ - ٢٦٤ بسنده أحمد أيضا

(٢) كذا بالاصل وفي م: " فلم يلب سرنا " ورجح محقق المطبوعة: " فلم يلب ثم سرنا "

(٣) في م: أبو سليم

(٤) كذا وفي م: غلب

(٥) الخبر في الرسالة القشيرية ص ٤١١ رقم ٣٥ وحلية الاولياء ٩ / ٢٥٥

(٦) عن م والرسالة القشيرية سقطت من الاصل

(٧) عن م والرسالة القشيرية وبالاصل: شهوة." (٢)

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ابن عساكر، أبو القاسم ١٢٥/٢٠

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ابن عساكر، أبو القاسم ١٣٥/٣٤

"روى عنه أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن السمعاني الفقيه المروزي وأبو الفتح نصر بن إبراهيم الفقيه وأبو علي الأهوازي وأبو الحسن فيد بن عبد الرحمن بن شادي الواعظ الهمذاني وأبو بكر الخطيب الحافظ وأبو القاسم عبد الرحمن بن علي بن القاسم الكاملي وأبو طاهر الحنائي أنبأنا أبو طاهر بن الحنائي وأخبرنا أبو الحسن علي بن يحيى بن رافع النابلسي (١) عنه قال قرئ على أبي الحسن علي بن إبراهيم بن نصروية بن سختام العربي السمرقندي قدم علينا دمشق طالبا الحج ح وأخبرنا (٢) أبو الفتح نصر الله بن محمد الفقيه نا نصر بن إبراهيم الزاهد أنبأ الشيخ أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نصروية السمرقندي قراءة عليه بصور أنا أبو بكر محمد بن أحمد بن مت الإشتيخني نا محمد بن يوسف الفربري نا علي بن خشرم أنا إسماعيل يعني ابن علية عن التيمي أنا أنس بن مالك قال عطس رجلان عند النبي (صلى الله عليه وسلم) فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر قيل هما رجلان عطسا فشمت أحدهما وتركت الآخر قال إن هذا حمد الله وإن هذا لم يحمد الله عز وجل

[٩٢٦٠] أخبرنا (٣) أبو القاسم نصر بن أحمد بن مقاتل أنا جد أبو محمد مقاتل بن مطكود بن أبي نصر السوسي قال سمعت أبا علي الحسن بن علي يقول سمعت أبا الحسن علي بن إبراهيم السمرقندي يقول سمعت أخي إسحاق يقول سمعت أبا يوسف السجزي يقول سمعت عبد الله بن صالح الخزاعي يقول سمعت أحمد بن قطن بن أبي قطن يقول سئل ذو النون وأنا حاضر عنده متى يجد العبد حلاوة **الأنس بالله** عز وجل قال إذا قطع العلائق ورفض الخلائق وكان من أهل الحقائق وعمل بالرقائق فحينئذ ينجو من البوائق قال وأنشدني أخي قال أنشدني أبو العباس البلخي بمدينة السلام في هذا المعنى وما الزهد إلا في أنقطاع العلائق * وما الحب إلا في وجود الحقائق

---

(١) مشيخة ابن عساكر ١٥٤ / ب (٢) كتب فوقها في " ز ": " س " بحرف صغير

(٣) كتب فوقها في " ز ": " ح " بحرف صغير." (١)

"مقبرة الباب الصغير وحضرت دفنها والصلاة عليها وكان الجمع متوافرا وعاشت مائة وأربع سنين وأشهرا

٩٤٣٠ - مؤمنة بنت بهلول (١) إحدى النسوة العابدات حكى عنها أحمد بن أبي الحواري وعيسى بن إسحاق أخبرنا أبو محمد بن طاوس أنا أبو القاسم بن أبي العلاء أنا أبو بكر محمد بن رزق الله بن عبد الله المقرئ نا أبو علي محمد بن محمد (٢) بن عبد الحميد بن آدم نا أحمد بن بشر نا ابن أبي الحواري قال وسمعت مؤمنة ابنة بهلول تقول إلهي وسيدي لا تجمع علي الأمرين (٣) فقدانك والعذاب أخبرنا أبو بكر محمد بن احمد بن الحسن البروجردي أنا أبو سعد علي بن عبد الله ابن أبي صادق أنا محمد بن عبد الله بن باكويه الشيرازي نا عبد الواحد بن بكر نا إسحاق ابن أحمد بن علي نا إبراهيم بن يوسف نا أحمد بن أبي الحواري قال سمعت مؤمنة ابنة بهلول وهي زاهدة دمشق وهي تقول ما طابت الدنيا والآخرة إلا به ومعه قال وسمعتها تقول العاقل (٤) ينام ولا يقوم ولا تطيب ساعة لا يكون فيها ذكر الله عز وجل أخبرنا أبو الحسن بن

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ابن عساكر، أبو القاسم ٢٥٠/٤١

قبيس نا وأبو منصور بن خيرون أنا أبو بكر الخطيب (٥) أنا أبو العلاء محمد بن الحسن بن محمد الوراق نا أحمد بن كامل القاضي قال سمعت عيسى بن إسحاق يقول سمعت مؤمنة بنت بهلول [تقول:] (٦) ما النعيم إلا في **الأنس بالله** والموافقة لتدبيره أخبرنا أبو محمد هبة الله بن أحمد أنا علي بن محمد الفقيه أنا عبد الرحمن بن عبيد

---

(١) أخبارها في صفة الصفوة ٢ / ٥٢٧

(٢) بالاصل: " محمد بن محمد بن عبد الحميد " تقدمت ترجمته في كتابنا تاريخ مدينة دمشق ٥٥ / ١٨١ رقم ٦٩٤٩ طبعة دار الفكر

(٣) بالاصل: " الامر من " والمثبت عن المختصر والمطبوعة

(٤) كذا بالاصل وفي المختصر: الغافل وهو أشبه

(٥) رواه أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد ١١ / ١٧١ في ترجمة عيسى بن إسحاق الخطمي

(٦) سقطت من الاصل وزيدت عن تاريخ بغداد." [1]

"وقال: سمعت مضاء بن عيسى يسأل سباعا الموصلي: إلى أي شيء انتهى بهم الزهد؟

فقال: إلى **الأنس به**. وقال: ثنا محمد بن ثابت القارىء، قال: من كانت همته في أداء الفرائض لم يكمل له في الدنيا لذة.

وقال: ثنا أبو الموفق الأزدي، قال: قال الله تعالى: «لو أن ابن آدم لم يرج غيري ما وكلته إلى غيري، ولو أن ابن آدم لم يخف غيري ما أخفته من غيري» .

وقال: سمعت محمودا يقول: سبحان من لا يمنعه سلطانه أن ينظر في صغير سلطانه.

وقال: سمعت مضاء بن عيسى يقول: خف الله يلهمك. واعمل له لا يلجئك إلى دليل.

وقال: كنت أسمع وكيع بن الجراح يقول: يبتدىء قبل أن يحدث فيقول: ما هناك إلا عفوه، ولا نعيش إلا في ستره، ولو كشف الغطاء انكشف على أمر عظيم.

وقال: قال لي أبو سليمان: جوع قليل، وعري قليل، وذل قليل، وفقر قليل، وصبر قليل، قد انقضت عنك أيام الدنيا.

وقال يوما: لله لعبده في أوان معاصيه وإعراضه عن ربه أشد نظرا إليه وحبا من العبد في أوان تتابع نعمه وكمال كرامته، وعظيم ستره وإحسانه، ثم قال: وهل يليق إلا ذلك.

وقال: قلت لأبي بكر بن عياش: حدثنا، قال: دعونا من الحديث فإنا قد كبرنا ونسينا الحديث، جيئونا بذكر المعاد، لو أني أعرف أهل الحديث لأتيتهم إلى بيوتهم حتى أحدثهم.

وقال: سمعت أبا عبد الله الواهبي يقول: ما أخلص عبد قط إلا أحب أن يكون في جب لا يعرف- ومن أدخل فضولا من الطعام أخرج فضولا من الكلام.

وقال: سمعت محمد الكندي يقول: سمعت أشياخنا يقولون: إذا عرض لك أمران لا تدري في أيهما الرشاد فانظر إلى أقربهما

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ابن عساكر، أبو القاسم ١٢٨/٧٠

إلى هواك مخالفة، فإن الحق في مخالفة الهوى.

وقال: سمعت سلام المديني يقول: سمعت المخرمي يقول عن سفيان الثوري قال: من أحب الدنيا وسر بها نزع خوف الآخرة من قلبه.

وقال: حدثني أخي محمد قال: قلت لفضيل بن عياض في قوله تعالى: ولا تركنوا إلى الذين ظلموا

قال: ممن كانوا، وحيث ما كانوا، وفي أي زمان كانوا.." (١)

"النبي صلى الله عليه وسلم قال المرء مع من أحب

٥٨ - سمعت أبا الحسن علي بن عبيد الله بن محمد الكسائي بمصر يقول سمعت أبا محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ يقول سمعت عبد الله بن جعفر بن الورد يقول سمعت عبيد الله بن محمد بن عبد الرحيم البرقي يقول سمعت ذا النون المصري يقول **الأنس بالله** تعالى نور ساطع والأنس بالناس غم واقع

٥٩ - أخبرنا أبو الحسن علي بن عبيد الله بن محمد الهمداني بمصر حدثنا أبو الفتح محمد بن أحمد بن علي النحوي بالرملة حدثني أبي أنشدنا إبراهيم بن السري الزجاج لأبي العتاهية ... اصبر لدهر نال منك ... فهكذا مضت الدهور." (٢)

"إلا ومن أفقكم حياها ... تسكب فوق الأنام سكبا

فاغفر إلهي ذنوب عبد ... تبت يداه بهن تبا

إن لم ينل من رضاك حظا ... ولم يصب من جداك شربا

فالحمد في ذاكم وفي ذا ... نال أجاجا أو نال عذبا

قال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه يا فلان لقد أرقت البارحة تفكرا في القبر وساكنه أنك لو رأيت الميت في قبره بعد ثلاث لاستوحشت منه بعد طول **الأنس به** ولرأيت بيتا تجول فيه الهوام ويجري فيه الصديد وتخترقه الديدان مع تغير الريح وتقطع الأكفان وكان ذلك بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب ثم شهق شهقة ثم خر مغشيا عليه

حدثنا سليمان بن أحمد قال أخبرنا محمد بن زكريا العلائي قال أخبرنا معدي بن سابق البهدلي قال بلغنا أن عمر بن عبد العزيز شيع جنازة فلما انصرفوا تأخر عمر عنها وأصحابه فقال له أصحابه يا أمير المؤمنين أنت لم تأخرت عنها وتركتها فقال نعم ناداني القبر من خلفي يا عمر بن عبد العزيز ألم تسألني ما صنعت بالأحبة قلت بلى قال خرقت الأكفان ومزقت الأبدان ومصصت الدم وأكلت اللحم ألا تسألني ما صنعت بالأوصال قلت بلى قال نزعت الكفين من الكوعين وكذلك الفخذين من الركبتين والركبتين من الساقين والساقين من القدمين

ثم بكى عمر وقال ألا إن الدنيا بقاؤها قليل وعزيزها ذليل وغنيها فقير شابها يهرم وحيها يموت ولا يغركم إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدبارها والمغرور من اغتر بها أين سكانها الذين بنوا مرابعها وشققوا أنهارها وغرسوا أشجارها وأقاموا فيها أياما يسيرة وغرتهم بصحبتهم وغروا بنشاطهم فركبوا المعاصي إنهم كانوا والله في الدنيا مغبوطين بالمال على كثرة المنع عليه محسودين على

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ابن عساكر، أبو القاسم ٢٥٢/٧١

(٢) مشيخة أبي عبد الله محمد الرازي أبو طاهر السِّلَفي ص/١٦٥

جمعه ما صنع التراب بأبدانهم والرمل بأجسامهم والديدان بعظامهم وأوصالهم وإذا مررت فنادهم إن كنت مناديا وادعهم إن كنت لا بد." (١)

"كان الشبلي يقول: لا تغترر بدار لا بد من الرحيل عنها ، ولا تخرب دارا لا بد من الخلود [فيها] .

أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمي ، أنبأنا أبو بكر الخطيب ، أنبأنا الحسن بن أحمد الدورقي ، حدثنا جعفر بن محمد بن أحمد المؤدب ، حدثنا محمد بن يونس ، حدثنا شداد بن علي الهرابي ، حدثنا عبد الواحد بن زيد ، قال: مررت براهب فناديته: يا راهب من تعبد؟ قال: الذي خلقني وخلقك. قلت عظيم هو؟ قال: قد جاوزت عظمته كل شيء. قلت: فمتى يذوق العبد حلاوة **الأنس بالله؟** قال: إذا صفا الود وخلصت المعاملة. قلت: فمتى يصفو الود؟ قال: إذا اجتمع الهم في الطاعة. قلت: فمتى تخلص المعاملة؟ قال: إذا كان الهم هما واحدا. قلت فكيف تخليت بالوحدة؟ قال: لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك. قلت: فما أكثر ما يجد العبد من الوحدة. قال: الراحة من مداركة الناس والسلامة من شرهم. قلت: بماذا يستعان على قلة المطعم؟ قال: بالتحري في المكسب. قلت: زدني خلالا. قال كل حلالا وارقد حيث شئت. قلت: فأين طريق الراحة؟ قال: خلاف الهوى. قلت: لم تعلقت في هذه الصومعة؟ قال: من مشى على

الأرض عثر ، فتحصنت بمن في السماء من فتنة أهل الأرض لأنهم سراق العقول ، وذلك أن القلب إذا صفا ضاقت عليه الأرض فأحب قرب السماء. قلت: يا راهب من أين تأكل؟ قال: من زرع لم أبذره. قلت: من يأتيك به؟ قال: الذي نصب الرحا يأتيها بالطحين. قلت: كيف ترى حالك؟ قال: كيف يكون حال من أراد سفرا بلا أهبة ، ويسكن قبرا بلا مؤنس ، ويقف بين يدي حكم عدل. ثم أرسل عينه وبكى. قلت: ما يبكيك؟ قال: ذكرت أياما مضت من أجلي لم أحقق فيها عملي ، وفكرت في قلة الزاد وفي عقبة هبوط إلى الجنة أو إلى النار. قلت يا راهب: بم يستجلب الحزن؟ قال: بطول الغربة ، وليس الغريب من مشى من بلد إلى بلد ، ولكن الغريب صالح بين فساق.

ثم قال: إن سرعة الاستغفار توبة الكذابين ، لو علم اللسان مما يستغفر لجف في الحنك ، إن الدنيا منذ ساكنها الموت ما قرت بها عين ، كلما تزوجت الدنيا زوجا." (٢)

"(وقد قاموا فلا يهجع ... من قد ذاق ما ذاقوا)

قال عبد الواحد بن زيد: هجمنا مرة على نفر من العباد في بعض السواحل فتفرقوا حين رأونا فارتقينا على تلك الجزيرة وبتنا تلك الليلة، فما كنا نسمع عامة الليل إلا الصراخ والنفور من النار، فلما أصبحنا طلبناهم وتبعنا آثارهم فلم نر أحدا!

نفذت أبصار بصائرهم بنور الغيب إلى مشاهدة موصوف الوعد، تعلقت أكف الآمال بما عاينت نواظر القلوب، فأخمصوا البطون وغضوا الجفون، وأهملوا الدموع على تململ ملسوع، لو رأيتهم من خوف البين على أرجاء الرجا، الدموع كالسيل

---

(١) العاقبة في ذكر الموت عبد الحق الأشبيلي ص/١٩١

(٢) التبصرة لابن الجوزي ابن الجوزي ١/١٩٩

والليل قد دجا، ذكروا ظلم النفوس والظلام قد سجا، فمال القلب إلى اليأس بفتوى الحجا، فهب عليهم نسيم الظن فرجا فرجا.

(وقفنا فمن باك أجابت دموعه ... ومعتصم بالصبر لم يملك الصبرا)

(ومن سائر أجفانه بيمينه ... وملق على أحشائه يده اليسرى)

(ومن طائش لم يسعد الدمع وجده ... وشر البكا ما استنفد الأدمع العزرا)

(وقد ملقت خوص الركاب لبيننا ... فلم تستطن ضعفا لشاردها زجرا)

قال بعض الصالحين: لقيت غلاما في طريق مكة يمشي وحده فقلت له: ما معك مؤنس؟ قال: بلى. قلت: أين هو؟ قال: أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي؟ قلت: أما معك زاد؟ قال: بلى. قلت: أين هو؟ قال: الإخلاص والتوحيد والإيمان والتوكل. قلت: هل لك في مرافقتي؟ فقال: الرفيق يشغل على الله عز وجل ولا أحب أن أرافق من يشغلني عنه طرفة عين. قلت أما تستوحش في هذه البرية؟ قال: إن **الأنس بالله** قطع عني كل وحشة، فلو كنت بين السباع ما خفتها. قلت: ألك

حاجة؛ قال: نعم إذا رأيتني فلا تكلمني فقلت: ادع لي. قال: حجب الله طرفك عن كل معصية وألهم قلبك الفكر فيما يرضيه. قلت: حبيبي أين ألقاك؟ قال: أما في الدنيا فلا تحدث نفسك بلقائي، وأما الآخرة فإنها تجمع المتقين فإن طلبتني هناك فاطلبني في زمرة الناظرين إلى الله عز وجل. قلت: وكيف علمت؟ قال: بغض طرفي له." (١)

"بالهموم والأحزان فيما يفوتني من **الأنس بالله** عز وجل.

يا هذا إذا توضأت بغير نية قيل للماء: ابذل له البلل لا الطهارة، فإذا نويت قيل له طهارة الظاهر، فإذا صفا قلبك فقد حصلت طهارتك حقيقة!

الكلام على البسملة

(أرى الناس سفرا في طريق المتالف ... فمن بالغ أخرى المدى ومشارف)

(وما بطن هذي الأرض إلا قرارة ... وأرواحنا مثل السيول الجوارف)

(وما الدهر إلا جولة ثم أولة ... ونحن بمرصاد الرقيب المشارف)

أيها المتفكر في القبور الدوارس، الباكي على من كان به يستأنس، ابك مطلقا ما يرعوي بنقل أهل المحابس، تيقظ للخلاص، فإلى كم أنت ناعس، وقم مبادرا للفوت فإلى كم أنت جالس، ليت شعري متى تتزود، ومتى تبيض القلب الأسود، أين الفرار والرقيب بالمرصد، إلى متى مع الزلل والإسراف، إلى كم مع الخطايا والاقتراف، أين الندم وأين الاعتراف، لقد سمعت من الوعظ كل شاف كاف، أنت فيما ينفعك قاعد، وفيما يضر ناهض، تتوب بلسانك وتضر بجناحك، أتناقض؟ الشر في باطنك داخل في الغوامض، أسد الشرى في البيع والشرا، فإذا يرى الخديعة خلا المرابض، يا غافلا عما قد أعد له أمكر

---

(١) التبصرة لابن الجوزي ابن الجوزي ١/٥٠٣

هذا أم بله، ما عذر من تعثر في ظلمات العيب، بعد إضاءة نور الشيب، يا أسفى من للمحتضر، إذا علم من قد حضر، وقلب الطرف متحيرا ونظر ورأى العجائب وقلب البصر، وندم على إغفاله زاد السفر، وجرى دمع الأسى ثم انهمر واحتاج إلى قليل من الزاد وافتقر، ولم ينفعه كل مستور مدخر، وتقطع فؤاده أسفا وانفطر، إن هذا لعبرة لمن اعتبر، إن كان قد سبقك الغير فأنت على الأثر، يا هذا الحساب شديد والطريق بعيد وقد خاف من لا خوف عليه، فكيف سكن من لا أمن له!

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول: وددت أني شعرة في صدر مؤمن.." (١)

"وفصل الخطاب في هذا: أن الناس على ضربين: عالم وعابد. فالعالم لا ينبغي له أن ينقطع عن نفع الناس فإنه خلف الأنبياء، وليعلم أن هداية الخلق أفضل من كل عبادة.

وفي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي عليه السلام: " والله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم ". فمتى ما جاء الشيطان فحسن للعالم الانقطاع عن الخلق في الجملة فذاك خديعة منه، ولقد حسن لكثير من السلف......

دفن كتبهم ومحو علمهم وهذا من الخطإ العجيب، بل ينبغي للعالم أن يعتزل عن شر من يؤذي ويبرز لمن يستفيد، فظهوره أفضل من إخفائه.

فأما إن كان عابدا فالعابد لا ينافس في هذا، فإن من القوم من شغلته العبادة، كما روي أن الحسن رأى رجلا متعبدا فأتاه فقال: يا عبد الله ما يمنعك من مجالسة الناس؟ قال: ما أشغلني عن الناس. قال: فما منعك أن تأتي الحسن؟ فقال: ما أشغلني عن الحسن. قال: فما الذي شغلك عن الحسن؟ قال: إني أمسي وأصبح بين ذنب ونعمة، فرأيت أن أشغل نفسي بالاستغفار للذنب والشكر لله تعالى على النعمة. فقال له: أنت عندي أفقه من الحسن!

وقال رجل لعامر بن قيس: قف فكلمني. فقال: أمسك الشمس!

ومن القوم من استغرقته محبة الله تعالى **والأنس به** فاستوحش من الخلق. قيل لغزوان الزاهد: لو جالست إخوانك؟ فقال: إني أصيب راحة قلبي في مجالسة من عنده حاجتي.

(تعبي راحتي وأنسي انفرادي ... وشفائي الضنا ونومي سهادي)

(لست أشكو بعاد من صد عني ... أي بعد وقد ثوى في فؤادي)

(هو يختال بين قلبي وعيني ... هو ذاك الذي يرى في السواد)

فهؤلاء عزلتهم أصلح لهم، بل لا ينبغي أن تشغلهم العزلة عن الجماعات ومجالسة العلماء، فإن فعلوا كان ذلك من الشيطان.

وإنما نأمر العوام باعتزال الشر، فحسب فإنه الجهاد في حقهم.." (٢)

---

(١) التبصرة لابن الجوزي ابن الجوزي ٢/٢١٠

(٢) التبصرة لابن الجوزي ابن الجوزي ٢/٢٩١

"عن الناس فانتظرته حتى قطع صلاته ثم قلت له ما معك مؤنس قال بلى قلت وأين هو قال أمامي ومعي وخلفي وعن يميني وعن شمالي وفوقي

فعلمت أن عنده معرفة

فقلت أما معك زاد قال بلى قلت فأين هو قال الإخلاص لله عز وجل والتوحيد له والإقرار بنبيه صلى الله عليه وسلم وإيمان صادق وتوكل واثق

قلت هل لك في مرافقتي قال الرفيق يشغل عن الله ولا أحب أن أرافق أحدا فأشتغل به عنه طرفة عين

قلت أما تستوحش في هذه البرية وحدك فقال إن **الأنس بالله** قطع عني كل وحشة حتى لو كنت بين السباع ما خفتها ولا استوحشت منها

قلت فمن أين تأكل فقال الذي غذاني في ظلم الأرحام صغيرا قد تكفل برزقي كبيرا

قلت ففي أي وقت تجيئك الأسباب فقال لي جد معلوم ووقت مفهوم إذا احتجت إلى الطعام أصبته في أي موضع كنت وقد علم ما يصلحني وهو غير غافل عني

قلت ألك حاجة قال نعم قلت وما هي قال إذا رأيتني فلا تكلمني ولا تعلم أحدا أنك تعرفني

قلت لك ذاك فهل حاجة غيرها قال نعم قلت وما هي قال إن استطعت لا تنساني في دعائك وعند الشدائد إذا نزلت بك فافعل

قلت كيف يدعو مثلي لمثلك وأنت أفضل مني خوفا وتوكلا قال لا تقل هذا إنك قد صليت لله عز وجل قبلي ولك حق الإسلام ومعرفة الإيمان

قلت فإن لي أيضا حاجة قال وما هي قلت ادع الله لي فقال حجب الله طرفك عن كل معصية وألهم قلبك الفكر فيما يرضيه حتى لا يكون لك هم إلا هو." (١)

"وقع لكم في خواطركم فقولوا لي. فوقع في قلبي أنه يهودي وكان الخاطر يقوى ولا يزول فذكرت ذلك للحريري فكبر عليه ذلك فقلت: لا بد من أن أخبر الرجل بذلك. فقلت له: تقول كل ما وقع في خاطركم فقولوه لي: إنه يقع لي أنك يهودي. فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: صدقت أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، وقال: قد مارست جميع المذاهب، فأنتم على الحق وحسن إسلامه.

أبو سعيد بن عطاء قال: إن الجنيد رأى فيما يرى النائم قوما من الأبدال فسأل: هل ببغداد أحد من الأولياء؟ فقالوا: نعم أبو العباس بن مسروق. قال: فقلت متعجبا: أبو العباس بن مسروق؟ فقالوا: نعم أبو العباس بن مسروق من أهل **الأنس بالله** عز وجل.

علي بن عبد الله بن جهضم قال: أنا المفيد، قال: سمعت أحمد بن مسروق يقول: كانت والدتي إذا كان يوم الجمعة تبكي،

---

(١) ذم الهوى ابن الجوزي ص/١٤٢

تعلم أني لا أنصرف من الجمعة إلا عليلا لما قد سمعته من الشيوخ وكنت أنظر إلى شيوخي فتكون رؤيتي لهم قوتي من الجمعة إلى الجمعة.

جعفر بن محمد بن نصير قال: سئل ابن مسروق ما التوكل؟ قال: اعتماد القلب على الله.

قال السلمي: وقال ابن مسروق: من راقب الله في خطرات قلبه عصمه الله في حركات جوارحه.

وقال: أنت في هدم عمرك منذ خرجت من بطن أمك.

أسند ابن مسروق الكثير، وروى عن محمد بن بكار وشيبان بن فروخ وخلق كثير، وصحب البرجلاني ومحمد بن منصور الطوسي والحارث المحاسبي وسريا السقطي.

وتوفي في صفر سنة ثمان وتسعين ومائتين، ودفن في مقابر باب حرب وبلغ أربعا وثمانين سنة.

انتهى ذكر أهل طوس بحمد الله ومنه.." (١)

"٧٢٥ - سباع الموصلي

أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت المضاء يقول لسباع الموصلي يا أبا محمد إلى أي شيء أفضى بهم الزهد؟ قال: إلى **الأنس به**.

---

٧٢٥ - هو: سباع الموصلي، له الحفظ النفيس في التمتع برياض التأنيس: انظر حلية الأولياء ١٠/١٤١.." (٢)

"يا أحمد أدخلت يدي في الإناء فعارضني معارض من سري: هب أنك غسلت بالماء ما ظهر منك فبماذا تغسل قلبك؟ فبقيت متفكرا حتى قلت بالغموم والأحزان فيما يفوتني من **الأنس بالله** عز وجل.

أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان يقول: ما يسر العاقل أن الدنيا له منذ خلقت إلى أن تفنى، يتنعم فيها حلالا لا يسأل عنه يوم القيامة وأنه حجب عن الله عز وجل ساعة واحدة، فكيف بمن حجب أيام الدنيا وأيام الآخرة؟.

أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان يقول: ربما مثل لي رأسي بين جبلين من نار، وربما رأيتني أهوي فيها حتى أبلغ قرارها وكيف تهنئ الدنيا من كانت هذه صفته؟ وسمعته يقول: إنما ارتفعوا بالخوف، فإن ضيعوا نزلوا وينبغي لعاقل وإن بلغ أعلى درجة أن يفزع قلبه بأسفل درجة من ذكر الموت والمقابر والبعث.

وقلت لأبي سليمان إني قد غبطت بني إسرائيل. قال: بأي شيء ويحك؟ قلت: بثمانمائة سنة بأربعمائة ينن حتى يصيروا كالشنان البالية وكالأوتار. قال: ما ظننت إلا أنك قد جئت بشيء، لا والله لا يريد الله عز وجل منا أن تيبس جلودنا على عظامنا ولا يريد منا إلا صدق النية فيما عنده، هذا إذا صدق في عشرة أيام نال ما نال ذاك في عمره.

وسمعت أبا سليمان، وذكر له رجل، فقال: لقد وقع على قلبي ولكن صف لي حاله. فقلت: إنه نشأ في الصوف والقرآن وأكل الملة. فقال: قد كنت أحب أن يكون ممن وجد طعم الدنيا ثم تركها، لأنه إذا وجد طعمها ثم تركها لم يغتر بها، وإذا

---

(١) صفة الصفوة ابن الجوزي ٢/٣١٩

(٢) صفة الصفوة ابن الجوزي ٢/٣٥٧

كان ممن لم يجد طعمها لم آمن عليه إذا وجد طعمها أن يرجع إليها.
وسمعت أبا سليمان يقول: لأهل الطاعة في ليلهم ألذ من أهل اللهو بلهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا.
وسمعت أبا سليمان يقول: لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على لذة ما فاته من الطاعة فيما مضى، كان ينبغي له أن يبكيه حتى يموت.
أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان يقول: ما عمل داود عليه السلام عملا قط كان أنفع له من خطيئته، ما زال منها خائفا هاربا حتى لحق بربه عز وجل.
قال: ورأيت أبا سليمان أراد أن يلبي فغشي عليه. فلما أفاق قال: يا أحمد بلغني أن الرجل إذا حج من غير حله فقال: لبيك اللهم لبيك، قال له الرب: لا لبيك ولا سعديك حتى ترد ما في يديك، فما يؤمنني أن يقال لي هذا؟ ثم لبى.." (١)

"فيه، وكان في وطائي لؤلؤ قيمته أربعة آلاف دينار. وقربت أيام الحج وخفت الفوات، فلما سلم الله عز وجل روحي ونجاني مشيت، فقال لي جماعة كانوا في المركب: لو توقفت عسى يجيء من يخرج شيئا فيخرج لك من رحلك شيئا. فقلت: قد علم الله عز وجل ما م رمني، وكان في وطائي شيء قيمته أربعة آلاف دينار وما كنت بالذي أوثره على وقفة بعرفة. فقالوا: وما الذي ورثك هذه المنزلة؟ فقلت: أنا رجل مولع بالحج، أطلب الربح والثواب، حججت في بعض السنين وعطشت عطشا شديدا فأجلست عديلي في وسط المحمل، ونزلت أطلب الماء والناس معطشون أيضا. فلم أزل أسأل رجلا رجلا ومجمعا مجمعا: أمعكم ماء؟ والناس شرع واحد حتى صرت في ساقة القافلة بميل أو ميلين فمررت بمصنع مصهرج وإذا رجل فقير جالس في أرض المصنع وقد غرز عصاه في أرض المصنع، والماء ينبع من موضع العصا وهو يشرب فنزلت إليه وشربت حتى رويت وجئت إلى القافلة والناس قد نزلوا، فأخرجت قربة ومضيت فملأتها ورجعت. فلما رآني الناس والقربة على كتفي مملوءة فكأنه نودي فيهم أن الماء وراءكم فتبادروا إليه بالقرب. فلما روي الناس عن آخرهم وسارت القافلة جئت لأنظر فإذا البركة ملأى تلتطم بأمواجها والناس يرمون الدلاء ويرتجزون عليه فموسم يحضره مثل هؤلاء، يقولون: اللهم اغفر لمن حضر الموقف ولجماعة المسلمين أوثر عليه أربعة آلاف دينار؟ لا والله ولا الدنيا بأسرها وترك اللؤلؤ وجميع ما فيه، قال الشيخ: فبلغني أن قيمة ما كان غرق له خمسون ألف دينار.

٩٥٠ - عابد آخر

لقي بين الثعلبية والخزيمية.

إبراهيم بن المهلب، أبو الأشهب السائح، قال: رأيت بين الثعلبية والخزيمية غلاما قائما يصلي عند بعض الأميال. قد انقطع عن الناس. فانتظرته حتى قطع صلاته ثم قلت له: ما معك مؤنس؟ قال: بلى. قلت: وأين هو؟ قال: أمامي وخلفي ومعي وعن يميني وعن شمالي وفوقي. فعلمت أن عنده معرفة. قلت: أما معك زاد؟ قال: بلى. قلت: وأين هو؟ قال: الإخلاص لله عز وجل، والتوحيد والإقرار بنبيه صلى الله عليه وسلم وإيمان صادق، وتوكل واثق. قلت: هل لك في مرافقتي؟ قال: الرفيق يشغل عن الله عز وجل ولا أحب أن أرافق أحدا فأشتغل به عنه طرفة عين فيقطعني عن بعض ما أنا عليه. قلت:

---

(١) صفة الصفوة ابن الجوزي ٣٨٣/٢

أما تستوحش في هذه البرية وحدك؟ قال: إن **الأنس بالله** عز وجل قطع عني كل وحشة حتى لو كنت بين السباع ما خفتها." (١)

"الفصل الثاني عشر

يا من عمي عن طريق القوم، عليك بإصلاح نور البصر. القلب المظلم يمشي في شوك الشك وما عنه خبر. وقت التائب كله عمل: نهاره صوم، وليله سهر، ووقت البطال كله غفلة، وبصيرته عميت عن النظر. من ذاق حلاوة الزهد، استحلى التهجد والسهر، إن تدرك المتجهدين في أول الليل، ففي أعقاب السحر. تيقظ من نوم الغفلة، فهذا فجر المشيب انفجر، وأذلة التخلف إذا تخلف عن الباب وما حضر!.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يكونن أحدكم كالعبد السوء، إن خاف عمل، وإن لم يخف فلا عمل، أو كالأجير السوء، إن لم يعط أجرا وافرا لم يعمل" (١) .

أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود، العاشقون يعيشون في حلم الله، والذاكرون يعيشون في رحمة الله، والعارفون يعيشون في لطف الله، والصديقون يعيشون في بساط **الأنس بالله** يطعمهم ويسقيهم.

قال أبو بكر الرازي: قال ابن عطاء: لما أكل آدم من الشجرة، طرده كل شيء ونفاه عن نفسه، وأبعده عن نفسه، وأبعده عن قربه، إلا شجرة العود، فإنها آوته. وبكى عليه كل شيء إلا الذهب والفضة.

فأوحى الله إليهما: ما لكما لا تبكيان على محب طرده محبوبه؟ فقالا: إلهنا، وما كنا لنبكي على محب عصى محبوبه. فقال: وعزتي وجلالي، لأعزنكما ولأجعلنكما قيمة كل شيء، ولأجعلن لأولاد آدم خداما لكما.

وأوحى الله إلى العود: ومالك أويت طريد مولاه؟ فقال: رحمة مني على ذلك.

---

(١) قال الحافظ العراقي في الأحياء: لم أجد له أصلا.." (٢)

"أبو الأشهب السائح، قال: " رأيت غلاما جميلا بين الثعلبية والخزيمية قائما يصلي عند بعض الأميال، وما معه أحد قد انقطع عن الناس، فانتظرته حتى قضى صلاته، قال: قلت له: أما معك مؤنس؟ قال: بلى.

قلت: وأين هو؟ قال: أمامي ومعي وخلفي وعن يميني وعن يميني وفوقي.

فعلمت أن عنده معرفة، قلت: أما معك زاد؟ قال: بلى.

قلت: وأين هو؟ قال: الإخلاص لله عز وجل، والتوحيد له، والإقرار بنبيه صلى الله عليه وسلم، وإيمان صادق، وتوكل واثق.

قلت: هل لك في مرافقتي؟ قال: الرفيق يشغل عن الله عز وجل، ولا أحب أن أرافق أحدا، فأشتغل به طرفة عين، فيقطعني عن بعض ما أنا عليه.

قلت: أما تستوحش في هذه البراري وحدك؟ قال: إن **الأنس بالله** عز وجل قطعني عن كل وحشة، حتى لو كنت مع السباع

---

(١) صفة الصفوة ابن الجوزي ٢/٥٠٩

(٢) بحر الدموع ابن الجوزي ص/٥٧

لا أخافها، ولا استوحشت منها.

قلت: فمن أين تأكل؟ قال: الذي غذاني في ظلمة الأرحام صغيرا، قد تكفل لي برزقي كبيرا.

قلت: على ذلك، قال: لي حد معلوم، ووقت مفهوم، وإذا احتجت إلى الطعام، أصبته في أي موضع كنت، وقد علم ما يصلحني، وهو غير غافل عني، قلت:." (١)

"أما حجة من اختار المخالطة، فمن ذلك قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم "، واحتجوا بأشياء غير ذلك ضعيفة لا تقوم بها حجة على ذلك، منها قول الله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وهذا ضعيف، لأن المراد تفرق الآراء والمذاهب في أصل الشريعة، واحتجوا أيضا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: " لا هجرة فوق ثلاث " قالوا: والعزلة هجر بالكلية، وهذا ضعيف لأن المراد به قطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة.

١ ـ فصل في ذكر فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق في فضلها

اعلم: أن اختلاف الناس في هذا أيضا هو كاختلافهم في فضيلة النكاح والعزوبة، وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، فكذلك نقول فيما نحن فيه، فلنذكر أولا فوائد العزلة وهي ست.

الفائدة الأولى: الفراغ للعبادة، والاستئناس بمناجاة الله سبحانه، فإن ذلك يستدعى فراغا، لا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إلى ذلك خصوصا في البداية.

قيل لبعض الحكماء: إلى أي شئ أفضى بهم الزهد والخلوة؟ قال: إلى **الأنس بالله**.

وقال أويس القرني رضى الله عنه: ما كنت أرى أن أحدا يعرف ربه فيأنس بغيره.

واعلم: أن من تيسر له بدوام الذكر **الأنس بالله**، أو بدوام الفكر تحقيق معرفة الله، فالتجرد لذلك أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة.

الفائدة الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصيالتي يتعرض لها الإنسان غالبا بالمخالطة، وهى أربعة:

أحدهما: الغيبة، فإن عادة الناس التمضمض بالأعراض والتفكه بها، فإن خالطتهم ووافقتهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى، وإن سكت كنت شريكا، فإن المستمع أحد المغتابين، وإن أنكرت أبغضوك واغتابوك فازدادوا غيبة إلى الغيبة، وربما." (٢)

"ولهذا قال الربيع بن خثيم: تفقه ثم اعتزل، والعلم أصل الدين، ولا خير في عزلة العوام.

سئل بعض العلماء: ما تقول في عزلة الجاهل؟ فقال: خبال ووبال، فقيل له: فالعالم؟ فقال: مالك ولها، دعها حذاؤها

---

(١) التوحيد للمقدسي المقدسي، عبد الغني ص/٧٦

(٢) مختصر منهاج القاصدين المقدسي، نجم الدين ص/١١١

وسقاؤها، ترد الماء، وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها (١).

وأما التعليم، ففيه ثواب عظيم إذا صحت النية فيه، ومتى كان القصد إقامة الجاه والاستكثار من الأتباع، فهو هلاك الدين، وقد سبق ذلك في كتاب العلم، والغالب في هذا الزمان سوء القصد من المتعلمين، فيقتضي الدين الاعتزال عنه، ولا يحل كتمان العلم، ولا ينبغي أن يغتر بقول من قال: تعلمنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله، فإنه أشار بهذه إلى علوم القرآن والحديث ومعرفة سير الأنبياء والصحابة، وذلك يتضمن التخويف والتحذير، وهو سبب لإثارة الخوف من الله سبحانه، فإن لم يؤثر في الحال أثر في المال، فأما علم الكلام وعلم الخلاف، فإنه لا يرد الراغب في الدنيا إلى الله تعالى، بل لا يزال صاحبة متماديا في حرصه إلى آخر عمره.

الفائدة الثانية: النفع والانتفاع، أما الانتفاع بالناس، فبالكسب والمعاملة، والمحتاج إلى ذلك مضطر إلى ترك العزلة، وأما إن كان معه ما يقنعه، فالعزلة أفضل، إلا أن يقصد التصديق بكسبه، فذلك أفضل من العزلة، إلا أن تكون العزلة مفيدة له معرفة الله تعالى **والأنس به**، عن كشف وبصيرة، لا عن أوهام وخيالات فاسدة.

وأما النفع: فهو أن ينفع الناس، إما بماله أو ببدنه لقضاء حوائجهم، ومن قدر على ذلك مع القيام بحدود الشرع، فهو أفضل من العزلة إن كان لا يشتغل في عزلته إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية، وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر، فذاك الذي لا يعدل به البتة.

---

(١) شبه عزلة العالم بالإبل التي معها حذاؤها وسقاؤها، يريد أنها تقوى على المشي وقطع الأرض وقصد المياه وورها ورعى الشجر والامتناع عن السباع المفترسة، شهت بمن كان معه في السفر حذاء وسقاء، وهكذا العزلة إذا كانت من العالم. فإنه يكون أمينا على نفسه من الشيطان والنفس الأمارة بالسوء. عدؤاها وسقاؤها.." (١)

"وقواه على ذلك حسب المحمدة، كما سبق ذكره في كتاب الرياء.

ولابد من الزهد في فضول الأموال والجاه جميعا، حتى يكمل الزهد في حظوظ النفس، فأول معرفة الزهد مشكل.

وقد قال ابن المبارك: أفضل الزهد إخفاء الزهد، وينبغي أن يعول في هذا على ثلاث علامات.

الأولى: أن لا يفرح بموجود، ولا يحزن بمفقود، كما قال تعالى ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ [الحديد: ٢٣] وهذا علامة الزهد في المال.

الثاني: أن يستوي عنده ذامه ومادحه، وهذه علامة الزهد في الجاه.

الثالث: أن يكون أنسه بالله، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين المقدسي، نجم الدين ص/١١٥

فأما محبة الدنيا ومحبة الله تعالى، فهما في القلب كالماء والهواء في القدح، إذا دخل الماء خرج الهواء، فلا يجتمعان.

قيل لبعضهم: إلام أفضى بهم الزهد؟ قال: إلى **الأنس بالله.**

قال يحي بن معاذ: الدنيا كالعروس، ومن يطلبها ماشطتها (١)، والزاهد يسخم (٢) وجهها، وينتف شعرها، ويخرق ثوبها، والعارف مشتغل بالله تعالى عنها.

فهذا الإمام أردنا ذكره من حقيقة الزهد وحكامه.

وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى.

...

(١) الماشطة: التي تحس المشط وحرفتها ومعناها هنا: تزينها.

(٢) يقال: سخم الله وجهه: أي سوده من السخمة وهى السواد.." (١)

"الليل الصوت، ويا من يحيي العظام وهي رميم بعد الموت، فدعوت بها وأنا ساجد، فإذا أمي تقول: يا أبا سليمان، ما فعلت الغلة؟ قال: قلت لها: قد قمت؟ قالت: نعم.

قال أحمد بن أبي الحواري: بات أبو سليمان ذات ليلة. فلما انتصف الليل قام ليتهيأ. فلما أدخل يده في الإناء بقي على حالته حتى انفجر الصبح وحان وقت الإقامة، فخشيت أن تفوت صلاته فقلت: الصلاة يرحمك الله، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال: يا أحمد، أدخلت يدي في الإناء فعارضني عارض من سري: هب أنك غسلت بالماء ما ظهر منك، فبماذا تغسل قلبك؟ فبقيت متفكرا، فألهمت حتى قلت: بالغموم والأحزان فيما يفوتني من **الأنس بالله.**

قال ابن أبي الحواري: كنت مع أبي سليمان حين أراد الإحرام، فلم يلب حتى سرنا ميلا، وأخذه كالغشية في المحمل ثم افاق فقال: يا أحمد، إن الله تبارك وتعالى أوصى إلى موسى: مر ظلمة بني إسرائيل أن يقلوا من ذكري، فإني أذكر من ذكرني منهم باللعنة حتى يسكت، ويحك يا أحمد! بلغني أنه من حج من غير حله، ثم لبى قال الله له: لا لبيك ولا سعد يك حتى ترد ما في يديك، فما يؤمننا أن يقال لنا ذلك؟.

قال أبو سليمان: ينبغي للخوف أن يكون أغلب على الرجاء، فإذا غلب الرجاء على الخوف فسد القلب.

قال أبو سليمان: من أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن صدق في ترك شهوة ذهب

(١) مختصر منهاج القاصدين المقدسي، نجم الدين ص/٣٣٠

الله بها من قلبه، والله تعالى أكرم من أن يعذي قلبا لشهوة تركت له.

قال أبو سليمان: إذا سكنت الدنيا القلب ترحلت منه الآخرة.." (١)

"وحدث عن داود بن رشيد بسنده إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يغتسل بالصاع ويتوضأ بالمد.

توفي علي بن إبراهيم سنة خمس. وقيل: سنة ست وثلاث مئة.

علي بن إبراهيم بن نصرويه

ابن سختام بن هزيمة بن إسحاق بن عبد الله بن أشكر بن كاك أبو الحسن السمرقندي الغزي الفقيه قدم دمشق حاجا سنة إحدى وأربعين وأربع مئة، وحدث بها وبصور وبغداد.

حدث عن أبي بكر محمد بن أحمد بن مت الأسبيجي بسنده إلى أنس بن مالك قال: عطس رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر. قيل هما رجلان عطسا فشمت أحدهما وتركت الآخر! قال: " إن هذا حمد الله عز وجل وإن هذا لم يحمد الله عز وجل ".

حدث عن أخيه إسحاق بسنده إلى أحمد بن قطن بن أبي قطن قال:

سئل ذو النون وأنا حاضر عنده: متى يجد العبد حلاوة **الأنس بالله** عز وجل؟ قال: إذا قطع العلائق، ورفض الخلائق، وكان من أهل الحقائق، وعمل بالرقائق، فحينئذ ينجو من البوائق.

قال: وأنشدني أخي قال: أنشدني أبو العباس البلخي بمدينة السلام في هذا المعنى: من الطويل

وما الزهد إلى في انقطاع العلائق ... وما الحب إلا في وجود الحقائق

وما الحب إلا حب من مال قلبه ... عن الخلق مشغولا برب الخلائق

فصد عن الدنيا ولم يرض بالمنى ... وصار إلى المولى بأرضى الطرائق

كان من أهل العلم والتقدم في الفقه على مذهب أبي حنيفة.

وولد سنة خمس وستين وثلاث مئة، وتوفي سنة تسع وثلاثين وأربع مئة.." (٢)

"حدثت عن الشريف أبي إبراهيم أحمد بن القاسم بن الميمون بن حمزة بسندها إلى عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من باع نخلا قد أبرت فثمرتها للبائع إلا أن يشترط المبتاع ".

ولدت سنة ثلاث وأربع مئة، وتوفيت سنة سبع وخمس مئة.

مؤمنة بنت بهلول

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ابن منظور ١٩٣/١٤

(٢) مختصر تاريخ دمشق ابن منظور ١٩٦/١٧

إحدى النسوة العابدات.

قال ابن أبي الحواري: سمعت مؤمنة تقول: إلهي وسيدي لا تجمع علي الأمرين: فقدانك والعذاب.

قال: وسمعتها تقول: ما طابت الدنيا والآخرة إلا به ومعه.

وقالت: الغافل ينام ولا يقوم، ولا تطيب ساعة لا يكون فيها ذكر الله عز وجل.

وقالت مؤمنة: ما النعيم إلا في **الأنس بالله** والموافقة لتدبيره.

قال ابن أبي الحواري: قالت لي مؤمنة الصغيرة: أنا في شيء قد شغل قلبي، قلت: ما هو؟ قالت: أريد أن أعرف نعمة الله علي طرفة عين، أو أعرف تقصيري عن شكر النعمة طرفة عين، فقلت لها: أنت تريدين ما لا تهتدي إليه عقولنا.

مهدية بنت إبراهيم بن محمد

ابن صالح بن سنان القرشي وجدت في كتاب أبيها بسنده إلى النعمان بن بشير أنه قال على منبر الكوفة، وهو يغمز أذنيه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الحلال بين، وإن الحرام بين، وبين ذلك أمور مشتبهات متى يدعهن المرء." (١)

"قلت: يا راهب، فأيما العقل؟ قال: أوله المعرفة، وفرعه العلم، وثمرته السنة. قلت: يا راهب، متى يجد العبد حلاوة الإيمان **والأنس بالله؟** قال: إذا صفا الود، وجادت المعاملة. قلت: يا راهب، متى يصفو الود؟ قال: إذا اجتمعت الهموم فصارت في الطاعة. قلت: يا راهب، متى تخلص المعاملة؟ قال: إذا اجتمعت الهموم فصارت واحدة.

قلت: يا راهب، عظني وأوجز. قال: لا يراك الله حيث يكره. قلت: زدني من الشرح لأفهم. قال: كل حلالا،، وارقد حيث شئت. قلت: يا راهب، لقد تحليت بالوحدة! قال: يا فتى، لو ذقت طعم الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك، الوحدة رأس العبادة. ومؤنسها الفكرة. قلت: يا راهب، فما أشد ما يصيبك في صومعتك من هذه الوحدة؟ قال: يا فتى، ليس في الوحدة شدة. الوحدة أنس المريدين قلت: يا راهب، ما أشد ذلك عليك؟ قال: تواتر الرياح العواصف في الليل الشاتي. قلت: تخاف أن تسقط فتموت؟ فتبسم تبسما لم يفتح فاه ولكن أشرق وجهه وقال: يا فتى هل العيش إلا في السقوط، وما أشبهه من أسباب الموت! قلت: فلم يشتد ذلك عليك إن كان ذلك؟ قال: يا فتى، أما والله، إذا اشتدت علي الريح وعصفت ذكرت عند ذلك عصوف الخلق في الموقف مقبلين ومدبرين لا يدرون ما يراد بهم، حتى يحكم الله بين عباده، وهو خير الحاكمين. فصاح صيحة أفزعتني من شدتها: يا طول موقفاه! قلت: يا راهب بم يقطع الطريق إلى الآخرة؟ قال: بالسهر الدائم، والظمأ في الهواجر. قلت: يا راهب فأين طريق الراحة؟ قال: في خلاف الهوى. قلت: يا راهب، متى يجد العبد طعم الراحة؟ قال: عند أول قدم يضعها في الجنة. قلت: يا راهب، لقد تخليت من الدنيا، وتعلقت في هذه الصومعة؟ قال: يا فتى، إنه من مشى على الأرض عثر، ففرت فرار الأكياس من فخ الدنيا، وخفت اللصوص على رحلي، فتعلقت في هذه الصومعة، وتحصنت بمن في السماء من فتنة من في الأرض، لأنهم سراقون للعقول، فتخوفت أن يسرقوا عقلي، وذلك أن

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ابن منظور ٩٣/٢٦

القلب إذا صافى صديقه ضاقت به الأرض، وإذا أنا تفكرت في الدنيا تفكرت في الآخرة وقرب الأجل، فأحببت الرحيل إلى رب لم يزل. قلت: يا راهب، فمن أين تأكل؟ قال: من زرع لم أتول بذاره، من بيدر اللطيف الخبير، ثم قال: يا فتى، إن الذي خلق الرحا هو يأتيها بالطحين، ثم أشار بيده إلى رحا ضرسه. قلت: يا راهب،." (١)

"سباع أبو محمد الموصلي الزاهد

صحب المضاء بن عيسى الزاهد وجالسه.

قال مضاء العابد لسباع العابد: يا أبا محمد، إلى أي شيء أفضى بهم الزهد؟ قال: إلى **الأنس به**.

وفي حديث آخر: قال له: يا أبا محمد، أي شيء أفضى بهم إلى الزهد؟ قال: **الأنس بالله**.

سبرة ويقال سمرة بن العلاء

ابن الضخم الدمشقي حدث عن الزهري: أن أهل ذا الحليفة كانوا يجمعون مع النبي صلى الله عليه وسلم وذلك على مسيرة أميال من المدينة.

سبرة ويقال سمرة بن فاتك الأسدي

أخو خريم بن فاتك.

له صحبة، شهد فتح دمشق، وهو الذي تولى قسمة المساكن بين أهلها بعد الفتح، فكان ينزل الرومي في العلو، وينزل المسلم في السفل لئلا يضر المسلم بالذمي. وقيل: إنه شهد بدرا.

روى سمرة بن فاتك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الميزان بيد الله يرفع قوما ويضع قوما، وقلب ابن آدم بين اصبعين من أصابع الرب عز وجل إذا شاء أزاغه، وإذا شاء أقامه.." (٢)

"الباب السادس عشر

في العزلة

فيه ثلاثة فصول

الفصل الأول من هذا الباب

في ذم الاستئناس بالناس

لتلون الطباع وتنافي الأجناس

قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين وقال عليه الصلاة والسلام أحب العباد إلى الله الأتقياء الأحفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا شهدوا لم يقربوا أولئك أئمة

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ابن منظور ٢٩٨/٣

(٢) مختصر تاريخ دمشق ابن منظور ٢٠٤/٩

الهدى ومصابيح الظلم وقيل لبعض العباد ما أصبرك على الوحدة قال أنا جليس الرب إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه وإذا شئت أن أناجيه صليت له وقال ذو النون المصري **الأنس بالله** نور ساطع والأنس بالخلق غم قاطع وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم صومعة المؤمن بيته يكف فيها نفسه وبصره ولسانه وفرجه وقال الجنيد للسري السقطي أوصني فقال لا تكن مصاحبا للأشرار ولا تشتغل باللاهي عن الأخيار وفي كتاب كليلة ودمنة ينبغي لذي المروءة أن يكون إما مع الملوك مبجلا أو مع النساك متبتلا كالفيل إما أن يكون مركبا نبيلا أو في البرية مهيبا جليلا وقال علي رضي الله عنه من وجد في نفسه وحشة من الناس فليعلم أن الله أحب أن يؤنسه به وقالوا ما استغنى أحد بالله إلا وافتقر الناس إليه وقال بعض الحكماء **الأنس بالله** من حبه لك فإن الله إذا أحب عبدا أوحشه من خلقه وقد قيل من خلق التوحيد حب الوحدة وقال الجنيد أطيب ساعاتي خلواتي وألذ طاعاتي في." (١)

"الدائم على الفانى فنقله إليه؛ على أن الدين فقد منه ركنا شديدا، ورأيا سديدا، وعزما وحزما معينا مفيدا، وأميرا أردنا أن يعيش سعيدا، فأبى الله إلا أن يموت شهيدا؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون. لقد كان للرجاء فى اعتضاد الدولة القاهرة به أى مجال، وللآمال فى الانتظار ببأسه ظنون تحقق أن الغلبة للدين دائما مع أن الحروب سجال؛ وللمواكب بطلوع طلعته أى إشراق، وللعيون عن مشاهدة كماله وأبهة جلاله أى إغضاء وأى إطراق. ولله أى بدر هوى من أفق بروجه [١] عن فلك، وأى شمس ما رأته الجوارى الكنس إلا قلن: حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك؛ وأى حصن كانت منه ثمار الشجاعة تجتنى، وأى أسد براثنه الصوارم وأجماته القنا. لقد فت فى عضد الدين مصابه، وأذهب صحة **الأنس به** وحلاوة وجوده أوصاب فقده وصابه؛ وكادت الصوارم أن تشق عليه غمودها، والرايات أن تقطع عليه ذوائبها وتغير بنودها، والرماح أن تعرض على النار لتقصف لا لتثقف قدودها؛ والجياد أن تتعثر للحزن بذيولها، وتعتاض بالنوح عن صهيلها. ولو أنصف لأكنته القلوب فى ضمائرها، ولو قبل الفداء لسمحت فيه النفوس بالنفائس ولو كانت الحياة من ذخائرها؛ أو لو كان الحتف مما يدافع بالجنود تحطمت دونه القنا فى دروع عساكرها، ولكنه السبيل الذى لا محيد عن طريقه، والمعرس الذى لا بد لكل حى من النزول على فريقه؛ وهو الغاية التى تستن إليها النفوس استنان الجياد، والحلبة التى كنا نحن وهذا الدارج نركض إليها ولكن السابق كان الجواد؛ على أن المتأخر لا بد له من اللحاق، وماذا عسى يسر البدر بكماله وهو يعلم أن وراءه المحاق! وفى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يعلم أن كل رزء بعده جلل، وإذا انتقل العبد إلى الله تعالى غير مفتون فى دينه ولا مثقل الظهر من الأوزار حمد فى غد ما فعل؛ وغبط بقدومه

---

[١] فى الأصل: «من أفق سروجه» .." (٢)

"الدنيا فهو تبع لما معى. فقال عمر: صدقت، رحمك الله.

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر، فدخل على فاطمة رضى الله عنها فرأى على باب منزلها سترا وفى يديها قلبين

---

(١) غرر الخصائص الواضحة الوطواط ص/٥٨٣

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ١٧٧/٥

من فضة فرجع. فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى، فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فسأله أبو رافع فقال: «من أجل الستر والسوارين» :

فأرسلت بهما بلالا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت: قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى. فقال: «اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصفة»

. فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم. فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «بأبى أنت قد أحسنت» . وقال الحسن: أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه، وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط، كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه.

المهم الخامس المنكح. قال الغزالى: وقد قال قائلون: لا معنى للزهد فى أصل النكاح ولا فى كثرته؛ وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال: قد حبب إلى سيد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهن! ووافقه ابن عيينة، وقال: كان أزهد الصحابة على بن أبى طالب رضى الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية.

قال الغزالى: والصحيح ما قاله أبو سليمان الدارانى إذ قال: كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم. والمرأة قد تكون شاغلا عن الله. قال:

وكشف الحق فيه أنه قد تكون العزوبة أفضل فى بعض الأحوال فيكون ترك النكاح من الزهد. وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد! وإن لم يكن عليه آفة فى تركه ولا فعله ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب إليهن **والأنس بهن** بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد. وإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر والمضاجعة." (١)

"العلامة الثالثة: أن يكون أنسه بالله عز وجل، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة، إذ لا يخلو القلب من حلاوة المحبة، إما محبة الدنيا وإما محبة الله، وهما فى القلب كالماء والهواء فى القدح؛ فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان؛ وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره. وقد قال أهل المعرفة: إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعا وعمل لهما، وإذا بطن الإيمان فى سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا ولم ينظر إليها ولم يعمل لها. وقد ورد فى دعاء آدم عليه السلام: اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى. وقال أبو سليمان: من شغل بنفسه شغل عن الناس، وهذا مقام العاملين. ومن شغل بربه شغل عن نفسه، وهذا مقام العارفين. والزاهد لا بد أن يكون فى أحد هذين المقامين.

وبالجملة فعلامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم، وذلك لغلبة **الأنس بالله**. ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخر مثل أن يترك الدنيا ولا يبالى من أخذها. وقيل: علامته أن يترك الدنيا كما هى فلا يقول: أبنى رباطا أو أعمر مسجدا؛ وهذا من كلام الأستاذ أبى على الدقاق. وقال ابن خفيف: علامته وجود الراحة فى الخروج من الملك. وقال الجنيد: علامته خلو القلب عما خلت منه اليد. وقال أحمد بن حنبل وسفيان: علامة الزهد قصر الأمل. وقال رجل ليحيى بن معاذ: متى أدخل حانوت التوكل وألبس برد الزهد وأقعد مع الزاهدين؟

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ٥/٢٦٨

فقال: إذا صرت من رياضتك لنفسك فى السر إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف فى نفسك؛ فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح. قالوا: ولا يتم الزهد إلا بالتوكل؛ فلنذكر التوكل.." (١)

"له؟ فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب وسألتك هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم. وسألتك هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سجالا ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لها العاقبة. وسألتك هل يغدر. فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو كان قال هذا القول أحد قبله، قلت: رجل ائتم بقول قيل قبله قال: ثم قال: بما يأمركم؟ قلنا: يأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصلة، والعفاف قال: إن يك ما تقول حقا فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عند قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي. ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأه. متفق عليه.

وقد سبق تمام الحديث في ((باب الكتاب إلى الكفار)).

وأما سؤاله عن الغدر فلأن من طلب حظ الدنيا لا يبالي بالغدر وغيره مما يتوصل به إلى ذلك، ومن طلب الآخرة لم يرتكب غدرا ولا غيره من القبائح.

وبشاشة اللقاء: الفرح بالمرئى والانبساط إليه **والأنس به.**

((وكذلك الرسل تبتلى)) يعني يبتليهم في ذلك ليعظم أجرهم بكثرة صبرهم وبذل وسعهم في طاعة الله تعالى.

والصلة: صلة الأرحام وكل ما أمر الله تعالى به أن يوصل.

والعفاف: الكف عن المحارم.

قال العلماء: وقول هرقل: ((إن يك ما تقول حقا فإنه نبي ..)) أخذه من الكتب القديمة، ففي التوراة هذا ونحوه من علامات رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرفه بالعلامات، وأما الدليل القاطع على النبوة فهو المعجزة الظاهرة الخارقة للعادة، هكذا قاله المازري.

قوله: ((أخلص إليه)) أي أصل إليه.

نه: يقال: خلص فلان إلى فلان، أي وصل إليه.

مح: لا عذر له في هذا لأنه قد عرف صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما شح في الملك ورغب في الرئاسة فآثرها على الإسلام، وقد جاء ذلك مصرحا به في صحيح البخاري، ولو أراد الله هدايته لوفقه كما وفق النجاشي وما زالت عنه الرئاسة – والله أعلم.." (٢)

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ٥/٢٧٤

(٢) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن الطيبي ١٢/٣٧٤٠

"عبد الرحمن بن أبي شريح، نا عبد الله البغوي، أنا علي بن الجعد، أنا شعبة، عن يعلى بن عطاء، عن وكيع بن عدس، عن أبي رزين العقيلي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الرؤيا جزء من أربعين، أو ستة وأربعين، جزءا من النبوة، وهي على رجل طائر، فإذا حدث بها وقعت، وأحسبه قال: لا تحدث بها إلا حبيبا أو لبيبا ".
أخرجه الترمذي، عن محمود بن غيلان، عن أبي داود، عن شعبة

أحمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن علي أبو العباس الصرخدي ثم الصالحي القواس أبو العباس
ولد سنة ست وأربعين وست مائة.
وسمع من خطيب مردا، وابن عبد الدائم، وهو من أهل القرآن والديانة والعقل، انفرد وعمر في الخير.
توفي في رابع ربيع الأول سنة ست وثلاثين وسبع مائة، وله تسعون سنة سوى أيام.
أخبرنا أحمد بن عبد الرحمن القواس، وإسماعيل بن إبراهيم الشروطي، وجماعة، قالوا: أنا محمد بن إسماعيل المقدسي، أنا إسماعيل بن صالح، أنا محمد بن أحمد المعدل، سمعت علي بن عبيد الله الكسائي، بمصر، سمعت عبد الغني الحافظ، سمعت عبد الله بن جعفر بن الورد، سمعت عبد الله بن محمد بن البرقي، سمعت ذا النون المصري يقول: **الأنس بالله** نور ساطع، والأنس بالناس غم واقع." (١)

"وحدث عنه عبد العزيز الكتاني، ومحمد بن أحمد الرازي، في مشيخته توفي في ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة١.
٤٦- أحمد بن سعيد بن أحمد بن نفيس، أبو العباس المصري المقرئ، الأطرابلسي الأصل.
انتهى إليه علو الإسناد، ورياسة الإقراء، قرأ على أبي أحمد السامري، وعبد المنعم بن غلبون، وأبي عدي عبد العزيز وغيرهم، وحدث عن علي بن الحسين بن بندار الأنطاكي، وأبي القاسم الجوهري، صاحب المسند وجماعة.
عرض عليه القراءات جماعة، منهم أبو القاسم الهذلي، وأبو القاسم بن الفحام الصقلي، وأبو الحسن علي بن بليمة، وأبو الحسين الخشاب.
وحدث عنه جعفر بن إسماعيل بن خلف الصقلي، وعبد الغني بن طاهر وأبو عبد الله محمد بن أحمد الرازي، وآخرون، وكان صحيح الرواية، رفيع الذكر.
توفي في رجب سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، وهو في عشر المائة٢.
٤٧- عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن بن بندار الرازي أبو الفضل العجلي، المقرئ أحد الأعلام وشيخ الإسلام.
ورد أن مولده بمكة، وما زال يتنقل في البلدان، على قدم التجريد **والأنس بالله**، ذكره أبو سعد بن السمعاني، فقال: كان مقرئا فاضلا كثير التصانيف، حسن السيرة، زاهدا متعبدا خشن العيش، منفردا قانعا باليسير.
يقرئ أكثر أوقاته، ويروي الحديث، وكان يسافر وحده، ويدخل البراري، سمع بمكة من أحمد بن فراس العبقسي، وعلي بن

(١) معجم الشيوخ الكبير للذهبي الذهبي، شمس الدين ٥٩/١

جعفر السيرواني، وبالري من جعفر بن فناكي.

وبنيسابور من أبي عبد الرحمن السلمي، وبأصبهان من أبي عبد الله بن منده الحافظ، وبطوس وجرجان وبغداد والكوفة والبصرة ونسا ودمشق ومصر، وقال: وكان من أفراد الدهر علما وورعا.

قلت: قرأ لابن عامر على علي بن داود الداراني وقرأ على أبي عبد الله المجاهدي، صاحب ابن مجاهد، وعلى أبي الحسن الحمامي، وأبي الفرج النهرواني، وبكر بن شاذان الواعظ، وأبي بكر الشامي وجماعة كثيرة.

---

١ انظر/ غاية النهاية "٢/ ٧٥".

٢ انظر/ شذرات الذهب "٣/ ٢٩٠". غاية النهاية "١/ ٥٦، ٥٧".." (١)

"فقير صابر ليس بحريص بالإضافة إلى غني شاكر ينفق ماله في الخيرات، أو فقير حريص مع غني حريص، فلا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص، فإن كان الغني متمتعا بالمال في المباحات، فالفقير القنوع أفضل منه، وكشف الغطاء في هذا إنما يراد لغيره ولا يراد لعينه، ينبغي أن يضاف إلى مقصوده إذ به يظهر فضله، والدنيا ليست محذورة لعينها بل لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى، والفقر ليس مطلوبا لعينه لكن؛ لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم التشاغل عنه.

وكم من غني لا يشغله الغنى عن الله تعالى كسليمان - عليه السلام - وكذلك عثمان وعبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنهما - وكم من فقير شغله فقره عن المقصود وصرفه عن حب الله تعالى **والأنس به**، وإنما الشاغل له حب الدنيا إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى، فإن المحب لشيء مشغول به، سواء كان في فراقه أو في وصاله، بل قد يكون شغله في فراقه أكثر.

والدنيا مشوقة الغافلين فالمحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها، والتمتع بها، وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر، فالفقير عن الخطر أبعد؛ لأن فتنة السراء أشد من فتنة الضراء، ومن العصمة أن لا تجد، ولما كان ذلك في الآدميين إلا القليل منهم جاء الشرع بذم الغنى وفضل الفقر، وذكر كلاما كثيرا.

قال القرطبي: ذهب قوم إلى تفضيل الغني؛ لأن الغني مقتدر والفقير عاجز والقدرة أفضل من العجز قال الماوردي: وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة، وذهب آخرون إلى تفضيل الفقير؛ لأن الفقير تارك والغني ملابس، وترك الدنيا أفضل من ملابستها قال الماوردي: وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة.

وذهب آخرون إلى تفضيل التوسط بين الأمرين بأن يخرج من حد الفقر إلى أدنى مراتب الغنى ليصل إلى فضيلة الأمرين قال الماوردي: وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال، وأن خيار الأمور أوساطها.." (٢)

---

(١) معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار الذهبي، شمس الدين ص/٢٣٢

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية ابن مفلح، شمس الدين ٣/٤٨٨

"ومولده ببعلبك في حادي عشر شهر رجب سنة إحدى وعشرين وست مئة.

قال شيخنا الذهبي رحمه الله تعالى: انتفعت به، يعني بصحبته، وأكثرت عنه.

وقال شيخنا البرزالي: دخلت بعلبك أربع مرات، قرأت عليه فيها مسند الشافعي رضي الله عنه، والثقفيات العشرة، ومشيخة تخريج الشيخ شمس الدين بن أبي الفتح، وهي ثلاثة عشر جزءا، وسنن الشافعي، رواية الطحاوي، وعمن المزني، ونحوا من عشرين جزءا.

وكان يقدم دمشق، وفي كل مرة نسمع عليه ونستفيد منه. كان قد قدم دمشق في شعبان، فحصل **الأنس به** والسماع عليه. وتوجه إلى بلده في آخر الشهر، فوصل أول شهر رمضان وأقام أياما، ولما كان يوم الجمعة خامس شهر رمضان الرابعة دخل إلى خزانة الكتب التي في مسجد الحنابلة، فدخل هذا الفقير موسى المصري، فضربه بعصا على رأسه ضربات، ثم أخرج سكينا صغيرة فجرحه في رأسه، فاتقى بيديه. فأمسك وحمل إلى والي البلد، وضرب، فأظهر الاختلال في عقله وتجانن، وحمل الشيخ إلى داره، وأتم صومه يومه. ثم إنه حصل له حمى، واشتد مرضه إلى يوم الخميس، دخل إلى رحمه الله تعالى في الساعة الثامنة، ودفن بباب سطحا، وتأسف الناس عليه.

علي بن محمد بن أبي بكر

بن عبد الله بن مفرج الفقيه شمس الدين الأنصاري الإسكندري الشافعي.." (١)

"ابن السائق الكاتب اسمه علي بن عثمان

السبأيية منسوبون إلى عبد الله بن سبأ

ابن السباك علي بن سنجر السبتي ابن الرشيد أحمد بن هارون

(الحاجب السعيد)

سباشي التركي أبو طاهر الحاجب الملقب بالسعيد ذي الفضيلتين مولى شرف الدولة أبي الفوارس ابن عضد الدولة أبي شجاع الديلمي كان كثير الصدقة فائض المعروف متفقدا للفقراء متقدا للفقراء قال محب الدين ابن النجار حتى أن أهل بغداد إلى يومنا هذا إذا رأوا على أحد ثوبا جديدا قالوا رحم الله السعيد كان يكسو المساكين وهو الذي بنى قنطرة الخندق الذي عند مقبرة باب حرب وقنطرة الياسرية وقنطرة الزياتين وأوقف قرية دباها على المارستان وكان ارتفاعها أربعين كرا وألف دينار ووقف على الجسرخان النرسي بالكرخ ووقف عليه بزيثي بالقفص وسد بثق الخالص وحفر ذنابة دجيل وساق منها الماء إلى مقابر قريش وعمل المشهد بكرخ زاذويه بقرب وسط وحفر المصانع عنده وفي طريقه وله آثار كثيرة بطريق مكة وكان الإصفهارية قد أخرجوا يوم العيد جنائبهم بمراكب الذهب وأظهروا الزينة فقال له بعض أصحابه لو كان لنا شيء أظهرناه فقال له السعيد ألا أنه ليس في جنائبهم قنطرة الياسرية والخندق وتوفي سنة ثمان وأربع مائة

(المغني)

---

(١) أعيان العصر وأعوان النصر الصفدي ٣/٤٧٦

سباط قال إسحاق كان من فحول المغنين مع عفة ومروءة غنى في زمان بين أمية ومات حدث السن ابن بضع وعشرين سنة وهو أستاذ إبراهيم أبي له أغان كثيرة حدثني أبو الحسن مولى بني هاشم عن إبراهيم بن المهدي قال كنت يوما عند الرشيد ومعنا جعفر بن يحيى بن خالد وإسماعيل بن جامع والحارث بن يسخنر النديم وإبراهيم الموصلي وأبو صدقة فتذاكرنا الغناء وجيد الصوت فقال الرشيد تعالوا يختار كل واحد منا صوتا يكتبه في رقعة ثم نجمع رقاعنا معا فإذا اختلفنا اخترنا خير اختيارنا وإن اتفقنا لم يغن لنا سواه يومنا أجمع قال ففعلنا ذلك ثم أخرجنا رقاعنا فإذا فيها ثمانية أصوات كلها لسباط قال فلم يتغن لنا سائر اليوم غيرها

(العابد)

سباع أحمد محمد الموصلي الزاهد جالس المضاء بن عيسى الزاهد وروى عن عبد الواحد بن زيد قال أحمد بن أبي الحواري سمعت مضاء العابد يقول لسباع العابد إلى أي شيء أفضى بهم الزهد قال إلى **الأنس به** وجلس أبو سليمان وأنا معه إلى." (١)

"الأندلسي كان أميرا بساحل كورة لبلة وصاحب جزيرة سلطيش بلد صغيرة من قرى إشبيلية وكان متقدما من مشيخة أولي البيوت وأرباب النعم بالأندلس فغلبه ابن عباد على بلده وسلطانه فلاذ بقرطبة ثم صار إلى محمد بن معن صاحب المرية فاصطفاه لصحبته وأثر مجالسته **والأنس به** ووسع راتبه

وكان ملوك الأندلس تتهادى مصنفاته ومن شعره من الطويل

(وما زال هذا الدهر يلحن في الورى ... فيرفع مجرورا ويخفض مبتدا)

(ومن لم يحط بالناس علما فإنني ... بلوتهم شتى مسودا وسيدا)

وكان معاقرا للراح لا يصحو من خمارها يدمنها أبدا فلما دخل رمضان قال يخاطب نديمين له من الطويل

(خليلي إني قد طربت إلى الكاس ... وتقت إلى شم البنفسج والآس)

(فقوما بنا نلهو ونستمع الغنا ... ونسرق هذا اليوم سرا من الناس)

(فإن نطقوا كنا نصارى ترهبوا ... وإن غفلوا عدنا إليهم من الراس)

(وليس علينا في التعلل ساعة ... وإن رتعت في عقب شعبان من باس)

وحدث عن أبي مروان ابن حيان وأبي بكر المصحفي وأجاز له ابن عبد البر وكان إماما لغويا أخباريا متفننا صنف كتاب أعلام النبوة وأخذه الناس عنه وصنف اللآلي في شرح نوادر أبي علي القالي والمقال في شرح الأمثال لأبي عبيد واشتاق الأسماء ومعجم ما استعجم من البلاد والمواضع والنبات وغير ذلك وتوفي في شوال سنة سبع وثمانين وأربعمائة

---

(١) الوافي بالوفيات الصفدي ٦٩/١٥

أبو موسى الضرير عبد الله بن عبد العزيز أبو القاسم الضرير النحوي المعروف بأبي موسى كان يؤدب المهتدي وكان من أهل بغداد وسكن مصر وحدث بها عن أحمد بن جعفر الدينوري وجعفر بن مهلهل بن صفوان الراوي عن ابن الكلبي وروى عنه يعقوب بن يوسف بن خرزاد النجيرمي وله كتاب في الفرق وكتاب في الكتابة والكتاب)." (١)

"لا تأخذنك في الشديد لومة ... فشخيص نشأته بفضلك قاما

ربيته علمته أدبته ... قدمته للفرض منك إماما

فجزاك رب الخلق خير جزاية ... عني وبوأك الجنان مقاما

وهو الآن بالحالة الموصوفة، مستوطنا حضرة غرناطة، وتاليا الأعشار القرآنية، بين يدي السلطان، أعزه الله، مرفع الجانب، معزز الجراية بولايته أحباس المدرسة، أطروفة عصره، لولا طرش نقص الأنس به، نفعه الله.

مولده: ولد بمالقة في عاشر ربيع الأول من عام عشرة وسبعمائة.

ومن الغرباء في هذا الاسم

محمد بن أحمد بن إبراهيم بن محمد التلمساني الأنصاري

السبتي الدار، الغرناطي الاستيطان، يكنى أبا الحسين، ويعرف بالتلمساني.

حاله: طرف في الخير والسلامة، معرق في بيت الصون والفضيلة، معم «١» تخول في العدالة، قديم الطلب والاستعمال، معروف الحق، مليح البسط، حلو الفكاهة، خفيف إلى هيعة الدعابة، على سمت ووقار، غزل، لوذعي، مع استرجاع وامتساك، مترف، عريق في الحضارة، مؤثر للراحة، قليل التجلد، نافر عن الكد، متصل الاستعمال، عريض السعادة في باب الولاية، محمول على كتد المبرة، جار على سنن شيوخ الطلبة والمقتاتين من الأرزاق المقدرة، أولى الخصوصية والضبط من التظاهر بالجاه على الكفاية. قدم على الأندلس ثمانية عشر وسبعمائة، فمهد كنف القبول والاستعمال، فولي الحسبة بغرناطة، ثم قلد تنفيذ الأرزاق وهي الخطة الشرعية والولاية المجدية، فاتصلت بها ولايته. وناب عني في العرض والجواب بمجلس السلطان، حميد المنأى في ذلك كله، يقوم على كتاب الله حفظا وتجويدا، طيب النغمة، راويا محدثا، أخباريا، مرتاحا للأدب، ضاربا فيه بسهم يقوم على كتب السيرة النبوية، فذا في ذلك. قرأه بالمسجد الجامع للجمهور، عند لحاقه بغرناطة، معربا به عن نفسه، منبها على مكانه، فزعموا أن رجلا فاضت نفسه وجدا لشجو نغمته، وحسن إلقائه. وقرأ التراويح بمسجد قصر السلطان إماما به، واتسم بمجلسه بالسلامة والخير، فلم تؤثر عنه في أحد وقيعة، ولا بدرت له في الحمل على أحد بنت شفه.." (٢)

"وكان المبيت بدشار البوير من أحوازها، دشار نشعت الطريق بلالة أهله، وأعدم الله المروءة من فتاه وكهله، ومن الغد قطعنا للرحلة الآهلة، والطريق الطاعمة الناهلة، حيث السهل الممدود، والماء المورود، والجسور المحنية، والدشر السنية، والآثار المدينية إلى مدينة مكناسة، ومنها بعد كثير، حتى إذا الشمس همت بتسلق الجدرات، وقادت أهلها من وراء الحجرات،

---

(١) الوافي بالوفيات الصفدي ١٥٦/١٧

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب ١٥١/٣

وطفق عسجدها يذهب لجين الضحا، ومرساها الموشية تجلو خد الأرض بعدما التحا، قمنا نستشعر التجلد للبين، وهو يفصح، ويجمل حكم الوجد، والدمع يشرح، فودعنا الخليط المصاحب، وسلكنا الطريق غير اللاحب. وقد طبق ضباب له على الأرض، أكباب حجب الجهات، ولابس بين الأمهات، وضللنا لولا أن هدانا، وسرنا، والحفنا السحاب وردانا، والنبت قد أطلع ولدانا، ونواحل الطلول قد عادت بدانا، ثم إن مرآة الأفق جلت الغزالة صداها، وأتت كل نفس هداها، فحمدت السراة مغداها. واقتحمنا الرمل الذى أقدح الله مرعاه، وحشر غليهم فحضرت مدعاه، ما بين خيام، ورعاة غير ليام، وبيوت شعر ومعاطن، وبقر وغنم، تملت بها الأرض، وبقر ضاق بها الطول والعرض، وعجائز يئسن من المحيص، مهدية قرب المحيض، وقد اضطربت في الفحص الأفيح محلة الساعي، ناجحة منه المساعي، والأذواد تعد، والنطايع تمد، والعاملون عليها حجتهم لا ترد، ولم تكن الشمس تقتعد سنام خط الزوال، وتسدل من رؤوس القوائم ذوائب الظلال، حتى نزلنا بعين الشعرا، وانتبذنا عن حصنه إلى العرا، حصن مثلوم مهدوم، موجود **الأنس به** معدوم، إلا أنه كثير الوفود، ومناخ مقصود، ومعدن الحديد، وباب الوطن العريض المديد، خيمنا بظاهره خيفة برغوته، ولم تخف من سباعه التي تزأر حولنا وليوثه، فكانت للوقاية النادرة، وأمنت والمن لله، البادرة." (١)

"أكون مثلهم، وأدخل في جملتهم.

ثم يستقبل القبلة حتى طلوع الفجر.

وقال عمر بن عبد العزيز ـ رحمة الله عليه ـ لبعض جلسائه: يا فلان، لقد أرقت البارحة تفكيرا بالقبر وساكنه، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاث ليال في قبره، لاستوحشت منه بعد طول **الأنس به**، ولرأيت بيتا تجول الهوام فيه، ويجري فيه الصديد، وتخرقه الديدان، مع تغير الريح وتقطع الأكفان، وكان ذلك بعد حسن الهيئة وطيب الريح، ونقاء الثوب.

ثم شهق شهقة خر مغشيا عليه.

وقال بعض الحكماء: أربعة أبحر لأربع: الموت بحر الحياة، والنفس بحر الشهوات، والقبر بحر الندامات، وعفو الله بحر الخطيئات، فنسأل الله العظيم أن يجعل الله القبر خير بيت نعمره ونسكنه!

فصل ـ في عدم استطاعة التمييز بين السعيد والشقي في القبر

واعلم، أنه لو دخل شخص إلى المقابر المزخرفة، ليميز السعيد من الشقي، ما علم هذا من هذا، وما يعلمه إلا علام الغيوب، بل قد يكون قبرا من القبور قد درست أعلامه، وقد بقي ممشى للدولاب، وصاحبه في أعلى الجنان، وقد يكون قبرا مزخرفا، وقد عليت عليه القباب والبشخانات الحرير، وصاحبه في نار جهنم، بل نقول: لو دخل الشيخ المقابر، لم يميز قبر الذكر من الأنثى، ولا الشيخ من الشاب، ولا الحر من العبد، فإذا كان هذا التمييز الذي يمكن الشخص العاقل أن يميز بين هؤلاء في الحياة الدنيا، قد أبهم علينا بعد الموت، فكيف نميز السعيد من الشقي؟ ويشبه هذا ما روي، أن الإسكندر مر بمدينة قد ملكها عدة ملوك، وبادوا، فقال الإسكندر: هل بقي من نسل أولئك الملوك، أحد؟ فقيل: ما بقي منهم إلا رجل واحد

---

(١) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب لسان الدين بن الخطيب ٢/٢٦٦

يأوي المقابر، فدعا به، فلما أحضره قال له: ما حملك على لزوم المقابر؟ قال: أردت أن أميز عظام الملوك من عظام عبيدهم، فوجدت الكل سواء.

قال له الإسكندر: هل لك أن تتبعني، فأجيز لك بشرف آبائك، إن كانت." (١)

"في الجنة يوم المزيد، فهم لا يلتفتون في تلك الحال إلى غير ما هم فيه من **الأنس بالله** والتنعم بقربه وذكره ومحبته، حتى ينسوا ذكر نعيم الجنة، ويصغر عندهم بالنسبة إلى ما هم فيه، ولا يخافون حينئذ أيضا غير حجبهم عن الله وبعدهم عنه وانقطاع مواد **الأنس به**، فإذا رجعوا إلى عقولهم، وسكنت عنهم سلطنة هذا الحال وقهره، وجدوا أنفسهم وإرادتهم باقية، فيشتاقون حينئذ إلى الجنة ويخافون من النار، مع ملاحظتهم لأعلى ما يشتاق إليه من الجنة ويخشى منه من النار.

وأيضا، فالعارفون قد يلاحظون من النار أنها ناشئة عن صفة انتقام الله وبطشه وغضبه، والأثر يدل على المؤثر، فجهنم دليل على عظمة الله وشدة بأسه وبطشه وقوة سطوته وانتقامه في أعدائه، فالخوف منها في الحقيقية خوف من الله وإجلال وإعظام وخشية لصفاته المخوفة، مع أن الله سبحانه يخوف بها عبده، ويحب منهم أن يخافوه بخوفها، وأن يخشوه بخشية الوقوع فيها، وأن يحذروه بالحذر منها، فالخائف من النار خائف من الله، متبع لما فيه محبته ورضاه والله أعلم.

فصل . في القدر الواجب من الخوف

والقدر الواجب من الخوف، ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات، كان ذلك فضلا محمودا، فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضا أو موتا أو هما لازما بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله عز وجل، لم يكن محمودا، ولهذا كان السلف يخافون على عطاء السلمي من." (٢)

"واستلانوا ما استوعر منه المترفون، فإن المترف الواقع مع شهوات الدنيا ولذاتها يصعب عليه ترك لذاتها وشهواتها لأنه لا عوض عنده من لذات الدنيا إذا تركها، فهو لا يصبر على تركها، فهؤلاء في قلوبهم العوض الأكبر بما وصلوا إليه من لذة معرفة الله ومحبته وإجلاله كما كان الحسن يقول: إن أحباء الله هم الذين ورثوا طيب الحياة وذاقوا نعيمها بما وصلوا إليه من مناجاة حبيبهم وبما وجدوا من لذة حبه في قلوبهم. . . من كلام يطول ذكره في هذا المعنى، وإنما أنس هؤلاء بما استوحش منه الجاهلون لأن الجاهلين بالله يستوحشون من ترك الدنيا وشهواتها لأنهم لا يعرفون سواها، فهي أنسهم، وهؤلاء يستوحشون من ذلك ويستأنسون بالله وبذكره ومعرفته ومحبته وتلاوة كتابه، والجاهلون بالله يستوحشون من ذلك ولا يجدون **الأنس به**.

ومن صفاتهم التي وصفهم بها أمير المؤمنين علي – رضي الله عنه – أنهم صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالنظر الأعلى، وهذا إشارة إلى أنهم لم يتخذوها وطنا ولا رضوا بها إقامة ولا مسكنا، إنما اتخذوها ممرا ولم يجعلوها مقرا، وجميع الكتب والرسل أوصت بهذا، وقد أخبر الله تعالى في كتابه عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه في وعظه لهم: ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا

---

(١) تسلية أهل المصائب المنبجي ص/١٩٣

(٢) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار ابن رجب الحنبلي ص/٢٨

متاع وإن الآخرة هي دار القرار﴾ [غافر: ٣٩] وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمر: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، فكأنك بالدنيا ولم تكن، وبالآخرة ولم تزل» .

وفي رواية: «وعد نفسك من أهل القبور» .." (١)

"همك عطل على الهموم وحالف بيني وبين السهاد وشوقي إلى النظر إليك أوثق مني اللذات وحال بيني وبين الشهوات.

مالي شغل سواه مالي شغل ... ما يصرف عن قلبي هواه عذل

ما أصنع أجفان وخاب الأمل ... مني بدل ومنه مالي بدل

فمعنى الإعتكاف وحقيقته: قطع العلائق عن الخلائق للإتصال بخدمة الخالق وكلما قويت المعرفة بالله والمحبة له **والأنس به** أورثت صاحبها الإنقطاع إلى الله تعالى بالكلية على كل حال كان بعضهم لا يزال منفردا في بيته خاليا بربه فقيل له: أما تستوحش؟ قال: كيف أستوحش وهو يقول: أنا جليس من ذكرني.

أوحشتني خلواتي ... بك من كل أنيسي

وتفردت فعاينتك ... بالغيب جليسي

يا ليلة القدر للعابدين اشهدي يا أقدم القانتين اركعي لربك واسجدي يا ألسنة السائلين جدي في المسألة واجتهدي.

يا رجال الليل جدوا ... رب داع لا يرد

ما يقوم الليل إلا ... من له عزم وجد

ليلة القدر عند المحبين ليلة الحظوة بأنس مولاهم وقربه وإنما يفرون من ليالي البعد والهجر كان ببغداد موضعان يقال لأحدهما: دار الملك والأخرى: القطيعة فجاز بعض العارفين بملاح في سفينة فقال له: احملني معك إلى دار الملك فقال له: الملاح ما أقصد إلا القطيعة فصاح العارف لا بالله لا بالله منها أفر:

وليلة بت بأكفافها ... تعدل عندي ليلة القدر

كانت سلاما لسروري بها ... بالوصل حتى مطلع الفجر

يا من ضاع عمره لا شيء استدرك ما فاتك في ليلة القدر فإنها تحسب بالعمر.

وليلة وصل بات منجز وعده ... سميري فيها بعد طول مطال

شفيت بها قلبا أطيل غليله ... زمانا فكانت ليلة بليالي

قال الله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر، وما أدراك ما ليلة القدر، ليلة." (٢)

"نفحت في هذه اليام نفحة من نفحات الأنس من رياض القدس على كل قلب أجاب إلى ما دعى يا همم العارفين بغير الله لا تقنعي يا عزائم الناسكين لجمع أنساك السالكين اجمعي لحب مولاك أفردي وبين خوفه ورجائه اقرني وبذكره

---

(١) كشف الكربة في وصف أهل الغربة ابن رجب الحنبلي ص/٣٢٦

(٢) لطائف المعارف لابن رجب ابن رجب الحنبلي ص/١٩١

تمتعي.
يا أسرار المحبين بكعبة الحب طوفي واركعي وبين صفاء الصفا ومروة المروى اسعي واسرعي وفي عرفات الغرفات قفي وتضرعي ثم إلى مزدلفة الزلفى فادفعي ثم إلى منى نيل المنى فارجعي فإذا قرب القرابين فقربي الأرواح ولا تمنعي لقد وضح الطريق ولكن قل السالك على التحقيق وكثر المدعي.

لئن لم أحج البيت أوشط ربعه ... حججت إلى من لا يغيب عن الذكر

فأحرمت من وقتي بخلع نقائصي ... أطوف وأسعى في اللطائف والبر

صفاي صفائي عن صفاتي ومروتي ... مروءة قلبي عن سوى حبه فقر

وفي عرفات **الأنس بالله** موقفي ... ومزدلفى الزلفى لديه إلى الحشر

وبت المنى مني مبيتي في منا ... ورمي جماري جمر شوقي في صدري

وأشعار هدي ذبح نفسي بقهرها ... وخلعي بمحو الكائنات عن السر

ومن رام نفرا بعد نسك فإنني ... مقيم على نسكي بلا نفر." (١)

"لأهله وإخوانه وفي التخلق بأخلاقه الظاهرة في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة وفي جوده وإيثاره وصفحه وحلمه واحتماله وتواضعه، وفي أخلاقه الباطنة من كمال خشيته لله ومحبته له وشوقه إلى لقائه ورضاه بقضائه وتعلق قلبه به دائما وصدق الالتجاء إليه والتوكل والاعتماد عليه، وقطع تعلق القلب بالأسباب كلها ودوام لهج القلب واللسان بذكره **والأنس به** والتنعم بالخلوة بمناجاته ودعائه وتلاوة كتابه بالتدبر والتفكر.
وفي الجملة: فكان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه، فأكمل الخلق من حقق متابعته وتصديقه قولا وعملا وحالا وهم الصديقون من أمته الذين رأسهم: أبو بكر – خليفته بعده – وهم أعلى أهل الجنة درجة بعد النبيين كما قال صلى الله عليه وسلم: " إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون (١) الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم " قالوا ": يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء ما يبلغها غيرهم، قال: " إي والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ". خرجاه في " الصحيحين " من حديث أبي سعيد (٢) .
الخصلة الثانية: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله. والحب في الله من أصول الإيمان وأعلى درجاته.

---

(١) في "ف ": يتراءون " وما أثبتناه هو الموافق للرواية.

(٢) (فتح: ٦٥٥٥) ، ومسلم (١١/٢٨٣١) .." (٢)

"فالجسد عيشه: الأكل والشرب والنكاح واللباس والطيب وغير ذلك من اللذات الحسية

ففيه بهذا الاعتبار مشابهة بالحيوانات في هذه الأوصاف

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب ابن رجب الحنبلي ص/٢٨٨

(٢) فتح الباري لابن رجب ابن رجب الحنبلي ٥٤/١

وأما الروح فهي لطيفة وهي روحانية من جنس الملائكة فقوتها ولذتها وفرحها وسرورها في معرفة خالقها وبارئها وفاطرها وفي ما يقرب منه من طاعته في ذكره ومحبته **والأنس به** والشوق إلى لقائه

فهذا هو عيش النفس وقوتها فإذا فقدت ذلك مرضت وهلكت أعظم مما يهلك الجسد بفقد طعامه وشرابه ولهذا يوجد كثير من أهل الغنى والسعة يعطي جسده حظه من التنعيم ثم يجد ألما في قلبه ووحشة فيظنه الجهال أن هذا يزول بزيادة هذه اللذات الحسية وبعضهم يظن أنه يزول بإزالة العقل بالسكر وكل هذا يزيد الألم والوحشة." (١)

"نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم

وتتعب فيما سوف تكره غبه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم

فالصالحون كلهم قللوا من عيش الأجساد وكثروا من عيش الأرواح لكن منهم من قلل من عيش بدنه ليستوفيه في الآخرة وهذا تاجر ومنهم من فعل ذلك خوفا من الحساب عليه في الآخرة

والمحققون فعلوا ذلك تفريغا للنفس عما يشغل عن الله لتتفرغ القلوب للعكوف على طاعته وخدمته وذكره وشكره **والأنس به** والشوق إلى لقائه." (٢)

"أصلي بذكراكم إذا كنت خاليا ... ألا إن تذكار الأحبة تسبيح

الطبقة الثانية من إذا أقلقهم الشوق سكنهم **الأنس بالله** فاطمأنت قلوبهم بذكره وأنسوا بقربه

وهذه حال الرسول صلى الله عليه وسلم وخواص العارفين من أمته وسئل الشبلي بماذا تستريح قلوب المحبين والمشتاقين فقال بسرورهم بمن أحبوه واشتاقوا إليه

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ... ولولا ما أؤمل ما حييت

فأحيا بالمنى وأموت شوقا ... فكم أحيا عليك وكم أموت

كانت بعض الصالحات تقول أليس عجبا أن أكون حية بين أظهركم وفي قلبي من الاشتياق إلى ربي مثل شعل النار التي لا تطفأ." (٣)

"وهذه معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه، ومحبته له، وإجابته لدعائه.

فمعرفة العبد لربه نوعان:

أحدهما: المعرفة العامة، وهي معرفة الإقرار به والتصديق والإيمان، وهذه عامة للمؤمنين.

والثاني: معرفة خاصة تقتضي ميل القلب إلى الله بالكلية، والانقطاع إليه، **والأنس به**، والطمأنينة بذكره، والحياء منه، والهيبة له، وهذه المعرفة الخاصة هي التي يدور حولها العارفون، كما قال بعضهم: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل له: وما هو؟ قال: معرفة الله – عز وجل –.

---

(١) شرح حديث لبيك اللهم لبيك ابن رجب الحنبلي ص/٥٩

(٢) شرح حديث لبيك اللهم لبيك ابن رجب الحنبلي ص/٦٩

(٣) شرح حديث لبيك اللهم لبيك ابن رجب الحنبلي ص/١٠٠

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: أحب أن لا أموت حتى أعرف مولاي، وليس معرفته الإقرار به، ولكن المعرفة التي إذا عرفته استحييت منه (١) .

ومعرفة الله أيضا لعبده نوعان:

معرفة عامة وهي علمه سبحانه بعباده، واطلاعه على ما أسروه وما أعلنوه، كما قال: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ (٢) ، وقال: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم﴾ (٣) .

والثاني: معرفة خاصة: وهي تقتضي محبته لعبده وتقريبه إليه، وإجابة دعائه، وإنجاءه من الشدائد، وهي المشار إليها بقوله – صلى الله عليه وسلم – فيما يحكى عن ربه: ((ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فلئن سألني، لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)) ،

---

(١) ذكره ابن الجوزي في " صفة الصفوة " ١٩٦/٤ بلفظ: ما أغبط أحدا إلا من عرف مولاه، وأشتهي أن لا أموت حتى أعرفه معرفة العارفين الذين يستحبونه، لا معرفة التصديق.

(٢) ق: ١٦.

(٣) النجم: ٣٢.." (١)

"جنبه، يقال له: ألا تأتي هذا فتصيب منه؟ فيقول: لا والله لا أفعل، إني أخاف أن آتيه، فأصيب منه، فيكون فساد قلبي وعملي (١) .

وبعث إلى عمر بن المنكدر بمال، فبكى، واشتد بكاؤه، وقال: خشيت أن تغلب الدنيا على قلبي، فلا يكون للآخرة فيه نصيب، فذلك الذي أبكاني، ثم أمر به، فتصدق به على فقراء أهل المدينة.

وخواص هؤلاء يخشى أن يشتغل بها عن الله، كما قالت رابعة: ما أحب أن لي الدنيا كلها من أولها إلى آخرها حلالا، وأنا أنفقها في سبيل الله، وأنها شغلتني

عن الله طرفة عين.

وقال أبو سليمان: الزهد ترك ما يشغل عن الله (٢) . وقال: كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد، فهو مشؤوم (٣) .

وقال: أهل الزهد في الدنيا على طبقتين (٤) : منهم من يزهد في الدنيا، فلا يفتح له فيها روح الآخرة، ومنهم من إذا زهد فيها، فتح له فيها روح الآخرة (٥) ، فليس شيء أحب إليه من البقاء ليطيع الله (٦) .

وقال: ليس الزاهد من ألقى هموم الدنيا، واستراح منها، إنما الزاهد من زهد في الدنيا، وتعب فيها للآخرة (٧) .

---

(١) جامع العلوم والحكم ت ماهر الفحل ابن رجب الحنبلي ٥٦٢/٢

فالزهد في الدنيا يراد به تفريغ القلب من الاشتغال بها؛ ليتفرغ لطلب الله، ومعرفته، والقرب منه، والأنس به، والشوق إلى لقائه،

---

(١) أخرجه: أبو نعيم في " الحلية " ٦/٢٦٩.

(٢) أخرجه: أبو نعيم في " الحلية " ٩/٢٥٨.

(٣) أخرجه: أبو نعيم في " الحلية " ٩/٢٦٤.

(٤) في (ص) : ((الزهد على طبقتين)) .

(٥) من قوله: ((ومنهم من إذا ...)) إلى هنا سقط من (ص) .

(٦) أخرجه: أبو نعيم في " الحلية " ٩/٢٧٤.

(٧) أخرجه: أبو نعيم في " الحلية " ٩/٢٧٣.." [1]

"قوله: ((فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها)) (١) ، وفي بعض الروايات: ((وقلبه الذي يعقل به، ولسانه الذي ينطق به)) (٢) .

المراد بهذا الكلام: أن من اجتهد بالتقرب إلى الله بالفرائض، ثم بالنوافل، قربه إليه، ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى، ومحبته، وعظمته، وخوفه، ومهابته، وإجلاله، والأنس به، والشوق إليه، حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدا له بعين البصيرة كما قيل:

ساكن في القلب يعمره ... لست أنساه فأذكره

غاب عن سمعي وعن بصري ... فسويدا القلب تبصره

قال الفضيل بن عياض: إن الله يقول: ((كذب من ادعى محبتي، ونام عني، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه؟ ها أنا مطلع على أحبابي وقد مثلوني بين

أعينهم، وخاطبوني على المشاهدة، وكلموني بحضور، غدا أقر أعينهم في

جناني)) (٣) .

ولا يزال هذا الذي في قلوب المحبين المقربين يقوى حتى تمتلئ قلوبهم به، فلا يبقي في قلوبهم غيره، ولا تستطيع جوارحهم أن تنبعث إلا بموافقة ما في قلوبهم، ومن كان حاله هذا، قيل فيه: ما بقي في قلبه إلا الله، والمراد معرفته ومحبته وذكره، وفي هذا المعنى الأثر الإسرائيلي المشهور: ((يقول الله: ما وسعني سمائي ولا أرضي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن)) (٤) .

---

(١) جامع العلوم والحكم ت ماهر الفحل ابن رجب الحنبلي ٢/٨٨٣

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه: الدينوري في "المجالسة" (١٣٢) ، وعبد الحق الأشبيلي في " التهجد " (١٠٤٦) و (١٠٤٧) .

(٤) ذكره: الزركشي في " التذكرة في الأحاديث المشتهرة ": ١٣٥، والسخاوي في " المقاصد الحسنة " (٩٩٠) ، والملا علي القاري في " الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة " (٦٥٧) و (٨١٠) و (١٠٢١) ، والعجلوني في "كشف الخفاء " (٢٢٥٦) .

وانظر: أسنى المطالب (١٢٩٠) ، وقد أجاد ابن رجب - رحمه الله - حينما نسبه إلى الإسرائيليات؛ فهذا مما ورد عن أهل الكتاب كما نص عليه شيخ الإسلام ابن تيمية في

" مجموع الفتاوى " ١٢٢/١٨، والسيوطي في " الدرر المنتثرة ": ٣٦٢، ويخطئ بعض الناس فينسب هذا حديثا نبويا، وهو لا أصل له عن النبي - صلى الله عليه وسلم -.." (١)

"اتقى الله، وحفظ حدوده، وراعى حقوقه في حال رخائه، فقد تعرف بذلك إلى الله، وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة، فعرفه ربه في الشدة، ورعى له تعرفه إليه في الرخاء، فنجاه من الشدائد بهذه المعرفة، وهذه معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه، ومحبته له، وإجابته لدعائه.

فمعرفة العبد لربه نوعان: أحدهما: المعرفة العامة، وهي معرفة الإقرار به والتصديق والإيمان، وهذه عامة للمؤمنين.

والثاني: معرفة خاصة تقتضي ميل القلب إلى الله بالكلية، والانقطاع إليه، **والأنس به**، والطمأنينة بذكره، والحياء منه، والهيبة له، وهذه المعرفة الخاصة هي التي يدور حولها العارفون، كما قال بعضهم: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل له: وما هو؟ قال: معرفة الله عز وجل.

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: أحب أن لا أموت حتى أعرف مولاي، وليس معرفته الإقرار به، ولكن المعرفة إذا عرفته استحييت منه.

ومعرفة الله أيضا لعبده نوعان: معرفة عامة، وهي علمه سبحانه بعباده، واطلاعه على ما أسروه وما أعلنوه، كما قال: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ [ق: ١٦] [ق: ١٦] ، قال: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم﴾ [النجم: ٣٢] [النجم: ٣٢] .

والثاني: معرفة خاصة، وهي تقتضي محبته لعبده، وتقريبه إليه، وإجابة دعائه، وإنجاءه من الشدائد، وهي المشار إليها بقوله صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عن ربه " «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي." (٢)

---

(١) جامع العلوم والحكم ت ماهر الفحل ابن رجب الحنبلي ١٠٨٧/٣

(٢) جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط ابن رجب الحنبلي ٤٧٣/١

"أن لي الدنيا كلها من أولها إلى آخرها حلالا، وأنا أنفقها في سبيل الله، وأنها شغلتني عن الله طرفة عين.

وقال أبو سليمان: الزهد ترك ما يشغل عن الله. وقال: كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد، فهو مشئوم.

وقال: أهل الزهد في الدنيا على طبقتين: منهم من يزهد في الدنيا، فلا يفتح له فيها روح الآخرة، ومنهم من إذا زهد فيها، فتح له فيها روح الآخرة، فليس شيء أحب إليه من البقاء ليطيع الله.

وقال: ليس الزاهد من ألقى هموم الدنيا، واستراح منها، إنما الزاهد من زهد في الدنيا، وتعب فيها للآخرة.

فالزهد في الدنيا يراد به تفريغ القلب من الاشتغال بها، ليتفرغ لطلب الله، ومعرفته والقرب منه **والأنس به**، والشوق إلى لقائه، وهذه الأمور ليست من الدنيا، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة» ، ولم يجعل الصلاة مما حبب إليه من الدنيا، كذا في " المسند " و " النسائي "، وأظنه وقع في غيرهما: «حبب إلي من دنياكم ثلاث» فأدخل الصلاة في الدنيا، ويشهد لذلك حديث: «الدنيا ملعونة،." (١)

"وعظمته، وخوفه، ومهابته، وإجلاله، **والأنس به**، والشوق إليه، حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدا له بعين البصيرة كما قيل:

ساكن في القلب يعمره ... لست أنساه فأذكره

غاب عن سمعي وعن بصري ... فسويدا القلب يبصره

قال الفضيل بن عياض: إن الله يقول: "كذب من ادعى محبتي، ونام عني، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه؟ ها أنا مطلع على أحبابي وقد مثلوني بين أعينهم، وخاطبوني على المشاهدة، وكلموني بحضور، غدا أقر أعينهم في جناني ". ولا يزال هذا الذي في قلوب المحبين المقربين يقوى حتى تمتلئ قلوبهم به، فلا يبقى في قلوبهم غيره، ولا تستطيع جوارحهم أن تنبعث إلا بموافقة ما في قلوبهم، ومن كان حاله هذا، قيل فيه: ما بقي في قلبه إلا الله، والمراد معرفته ومحبته وذكره، وفي هذا المعنى الأثر الإسرائيلي المشهور: " يقول الله: ما وسعني سمائي ولا أرضي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن ". وقال بعض العارفين: احذروه، فإنه غيور لا يحب أن يرى في قلب عبده غيره، وفي هذا يقول بعضهم:

ليس للناس موضع في فؤادي ... زاد فيه هواك حتى امتلا

وقال آخر:

قد صيغ قلبي على مقدار حبهم ... فما لحب سواهم فيه متسع." (٢)

"إلى طريق الله تعالى، وقلمه أبسط من عبارته. واختصر السيرة النبوية. وكان يتقوت من النسخ، ولا يكتب إلا مقدار ما يدفع به الضرورة. وكان محبا لأهل الحديث، معظما لهم. وأوقاته محفوظة.

وقال الذهبي: كان سيدا عارفا كبير الشأن، منقطعا إلى الله تعالى. وكان ينسخ بالأجرة ويتقوت، ولا يكاد يقبل من أحد شيئا إلا في النادر. صنف أجزاء عديدة في السلوك والسير إلى الله تعالى، وفي الرد على الاتحادية والمبتدعة. وكان داعية إلى

---

(١) جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط ابن رجب الحنبلي ١٩٨/٢

(٢) جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط ابن رجب الحنبلي ٣٤٦/٢

السنة، ومذهبه السلف الصالح في الصفات، يمرها كما جاءت، وقد انتفع به جماعة صحبوه، ولا أعلم خلف بدمشق محي طريقته مثله.

قلت: ومن تصانيفه " شرح منازل السائرين " ولم يتمه، وله نظم حسن في السلوك.

كتب عنه الذهبي والبرزالي، وسمع منه جماعة من شيوخنا وغيرهم، وكان له مشاركة جيدة في العلوم، وعبارة حسنة قوية، وفهم جيد، وخط حسن في غاية الحسن. وكان معمور الأوقات بالأوراد والعبادات، والتصنيف، والمطالعة، والذكر والفكر، مصروف العناية إلى المراقبة والمحبة، **والأنس بالله**، وقطع الشواغل والعوائق عنه، حثيث السير إلى وادي الفناء بالله، والبقاء به، كثير اللهج بالأذواق والتجليات، والأنوار القلبية، منزويا." [١]

"من جرى لهم الخير على يديه، وإن لم يردهم به، وكان الشارع يستحب الاسم الحسن والفأل الصالح، وقد جعل الله تعالى في فطرة الناس محبة الكلمة الحسنة والفأل الصالح **والأنس به**، كما جعل فيهم الارتياح للبشرى والمنظر الأنيق، وقد يمر الرجل بالماء الصافي فيعجبه وهو لا يشربه وبالروضة المنورة فتسره وهي لا تنفعه. وفي بعض الحديث أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يعجبه الأترج والفاغية وهي نور الحناء، وهذا مثل إعجابه بالأسماء الحسنة والفأل الحسن، وعلى حسب هذا كانت كراهته للاسم القبيح، كبني النار وبني حزن وشبهه، وقد كان كثير من أهل الجاهلية لا يرون الطيرة شيئا ويمدحون من كذب بها، قال المرقش:

ولقد غدوت وكنت لا ... أغدو على واق وحائم

فإذا الأشائم كالأيا ... من والأيامن كالأشائم

كذا عزاه ابن بطال إلى المرقش (١)، وعزاه غيره إلى حرز بن ذكوان، فلعله هو، وأوله:

ولا يقعدنك عن بغا ... ء الخير تقعاد التمائم

وبعد البيتين:

وكذاك لا خير ولا شر ... على أحد بدائم

قد خط ذاك في كتا ... ب الأوليات القدائم

وقال عكرمة: كنت عند ابن عباس - رضي الله عنهما -، فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير فقال ابن عباس: ما عندها لا خير ولا شر (٢).

---

(١) "شرح ابن بطال" ٩/ ٤٣٨.

(٢) "تأويل مختلف الحديث" لابن قتيبة ص ١٧٢.." [٢]

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ابن رجب الحنبلي ٤/٣٨٣

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ابن الملقن ٢٧/٥٠٩

"الجنة بما فيها من النعيم المقيم، والخلود فيها، بشهوة ساعة من دار الدنيا ".

وقال: " على قدر حبك لله يحبك الخلق؛ وعلى قدر خوفك من الله يهابك الخلق؛ وعلى قدر شغلك بالله يشتغل في أمرك الخلق ".

وقال: " من كان غناه في كسبه لم يزل فقيرا "؛ ومن كان غناه في قلبه لم يزل غنيا "، ومن قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محروما " ".

وقال: " جميع الدنيا – من أولها إلى أخرها – لا تساوي غم ساعة، فكيف بغم عمرك فيها مع قليل نصيبك منها؟! ".

وقال: " إذا احب القلب الخلوة أوصله حب الخلوة إلى **الأنس بالله**، ومن انس بالله استوحش من غيره ".

وأنشد:

سلم على الخلق، وارحل نحو مولاكا ... واهجر على الصدق والاخلاص دنياكا

عساك في الحشر تعطى ما تؤمله ... ويكرم الله ذو الالاء مثواكا!." (١)

"فشممتها فذهب عني ما كان بي من الوحشة، واعتراني الأنس. فقلت: وصية رحمكم الله، فقالوا: أبى الله أن يحيا بذكره ويأنس به إلا قلوب المتقين، فمن طمع في غير ذلك فقد طمع في غير مطمع، وفقنا الله وإياك. ثم ودعوني ومضوا وقد أتى علي حين، وأنا أرى برد كلامهم في خاطري. وفي كفاية المعتقد ونكاية المنتقد، لشيخنا اليافعي عن السري أيضا أنه قال: كنت أطلب رجلا صديقا مدة من الأوقات، فمررت يوما في بعض الجبال، فإذا أنا بجماعة زمنى وعميان ومرضى، فسألت عن حالهم فقالوا: ههنا رجل يخرج في السنة مرة فيدعو لهم فيجدون الشفاء، قال: فمكثت حتى خرج ودعا لهم فوجدوا الشفاء فقفوت أثره فأدركته، وتعلقت به، وقلت له: بي علة باطنة فما دواؤها؟ فقال يا سري خل عني. فإنه غيور وإياك أن يراك تأنس إلى غيره، فتسقط من عينه، ثم تركني وذهب. وفي كتاب التوحيد للإمام محمد بن أبي بكر الرازي، عن الجنيد أنه قال: كنت أسمع السري يقول يبلغ العبد من الهيبة والانس إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر به. قال: وكان في نفسي منه شيء حتى بان لي أن الأمر كذلك. انتهى قلت: وذلك لأن الهيبة والأنس فوق القبض والبسط، والقبض والبسط فوق الخوف والرجاء، فالهيبة مقتضاها الغيبة والدهش، فكل هائب غائب حتى لو قطع قطعا لم يحضر من غيبته، إلا بزوال الهيبة عنه. والأنس مقتضاه الصحو والإفاقة، ثم إنهم يتفاوتون في الهيبة والأنس، فأدنى مرتبة في الأنس أنه لو ألقي في لظى ما تكدر أنسه، لأنه لا يشهد إلا هو، ولا يعرف إلا هو، ألا ترى إلى قول السري رحمه الله: يبلغ العبد من الهيبة والأنس إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر به! وذلك لأن الأنس يتولد من السرور بالله، ومن صح له **الأنس بالله**، استوحش مما سواه، فهو باق بالله فان عن السوى لم ير غيره. ولم يشهد لسواه فعلا فلم ير في الكونين إلا إياه فلا يقع نظره إلا عليه، ولا بصره إلا على فعله، وخلقه لأن العارف عرف الصنعة بالصانع، ولم يعرف الصانع بالصنعة، فلم ير إلا فعله وخلقه. ولذلك قال الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله تعالى عنه: ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله قبله. وهذا هو المقام الشريف من التوحيد. واعلم أن العبد لا يذوق حلاوة **الأنس بالله** تعالى، إلا إذا قطع العلائق، ورفض الخلائق، وغاص في الدقائق،

---

(١) طبقات الأولياء ابن الملقن ص/٣٢٣

مطلعا على الحقائق. ولا ينبئك مثل خبير. واعلم أن حالتي الهيبة والأنس، وإن جلتا، فأهل الحقيقة يعدونهما نقصا لتضمنهما تغير العبد، فإن أهل التوحيد المتمكنين سمت أحوالهم عن التغير، فلهم كمال في المحو، ووجود في العين ولا هيبة لهم ولا أنس ولا علم ولا حس، وارتقاؤهم عن هذا المقام بالجود والفيض الإلهي. فسبحان من خص برحمته من شاء من عباده.

وقال السري رحمه الله: صحبت رجلا يقال له الوالد سنة لم أسأله عن مسألة، فقلت له يوما:

ما المعرفة التي ليس فوقها معرفة؟ فقال: أن تجد الله أقرب إليك من كل شيء، وأن ينمحي عن سرائرك وظواهرك كل شيء غيره. فقلت له: بأي شيء أصل إلى هذا؟ فقال: بزهدك فيك ورغبتك فيه سبحانه وتعالى. قال: فكان كلامه سبب انتفاعي بهذا الأمر. توفي السري لست خلون من رمضان، سنة ثلاث وخمسين ومائتين. وقيل غير ذلك والله أعلم بالصواب. الخواص:

لا تدخل الجن بيتا فيه الأترج «١» . روينا عن الإمام أبي الحسن، علي بن الحسن،." (١)

"بن مزاحم، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي. فقال كما قال، ثم قال: فمن يسود أهل البصرة؟

قلت: الحسن بن أبي الحسن، قال: من العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي.

قال: ويلك! فمن يسود أهل الكوفة؟ قلت: إبراهيم النخعي، قال: من العرب أم من الموالي؟

قلت: من العرب، قال: ويلك يا زهري، فرجت عني، والله لتسودن الموالي على العرب، حتى يخطب لها على المنابر، وإن العرب تحتها! قال: قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو أمر الله ودينه، فمن حفظه ساد ومن ضيعه سقط.

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، كتب إليه طاوس: إن أردت أن يكون عملك خيرا كله، فاستعمل أهل الخير. قال عمر: كفى بها موعظة. وروى ابن أبي الدنيا بسنده عن طاوس، أنه قال: بينا أنا بمكة استدعاني الحجاج، فأتيته فأجلسني إلى جانبه وأتكأني على وسادة، فبينما نحن نتحدث، إذ سمع صوتا عاليا بالتلبية، فقال: علي بالرجل، فأحضر فقال له: ممن الرجل؟

قال: من المسلمين. فقال: إنما سألتك عن البلد والقوم! قال: من أهل اليمن، فقال: كيف تركت محمد بن يوسف يعني أخاه، وكان واليا على اليمن، فقال: تركته جسيما وسيما لباسا حريرا، ركابا خراجا ولاجا! فقال: إنما سألتك عن سيرته، فقال: تركته غشوما ظلوما، مطيعا للمخلوق، عاصيا للخالق! قال: أتقول فيه هذا وقد علمت مكانه مني؟ فقال الرجل: أتراه بمكانه منك أعز من مكاني من ربي، وأنا مصدق نبيه صلى الله عليه وسلم، ووافد بيته؟! فسكت الحجاج، وذهب الرجل من غير إذن. قال طاوس: فتبعته فقلت: الصحبة، فقال: لا حبا ولا كرامة، ألست صاحب الوسادة؟! الآن وقد رأيت الناس يستفتونك في دين الله، قلت: إنه أمير مسلط، أرسل إلي فأتيته كما فعلت أنت. قال: فما ذاك الاتكاء على الوسادة في رخاء بال؟! هلا كان لك من واجب نصحه، وقضاء حق رعيته بوعظه، والحذر من بوائق عسفه، وتخلى نفسك من ساعة **الأنس به** ما يكدر عليك تلك الطمأنينة؟! قلت: أستغفر الله وأتوب إليه، ثم أسألك الصحبة؟! فقال: غفر الله لك إن لي مصحوبا شديد الغيرة علي، فلو أنست بغيره رفضني. ثم تركني وذهب.

---

(١) حياة الحيوان الكبرى الدَّمِيري ٣٠٦/١

وفي تاريخ «١» ابن خلكان، عن عبد الله الشامي، قال: أتيت طاوسا فخرج إلي شيخ كبير، فقلت: أنت طاوس؟ فقال: أنا ابنه، فقلت: إن كنت ابنه فإن الشيخ قد خرف! قال: إن العالم لا يخرف، فدخلت عليه، فقال: أتحب أن أجمع لك التوراة والإنجيل والزبور والفرقان في مجلسي هذا؟ قلت: نعم. فقال: خف الله مخافة لا يكون عندك شيء أخوف منه، وارجه رجاء هو أشد من خوفك إياه، وأحب لأخيك ما تحب لنفسك.

وقالت امرأة: ما بقي أحد إلا فتنته إلا طاوسا فإني تعرضت له، فقال لي: إذا كان وقت كذا فتعالي! قالت: فجئت ذلك الوقت، فذهب بي إلى المسجد الحرام، وقال: اضطجعي فقلت:

ههنا؟! فقال: الذي يرانا ههنا يرانا في غيره! فتابت المرأة. وقال: لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج.

وكان طاوس يقول: ما من شيء يتكلم به ابن آدم إلا أحصي عليه حتى أنينه في مرضه.." (١)

"توفي سنة إحدى وستين وسبعمائة، رحمه الله تعالى، وعفا عنه.

١٠٨٦ - أبو الربيع المصري

......

- ٧٧٨ هـ - ... - ١٣٧٦ م

سليمان بن داود بن يعقوب بن أبي سعيد، القاضي جمال الدين أبو الربيع المعروف بالمصري الحلبي، الكاتب الأديب.

كان بارعا في صناعة الإنشاء والترسل، وله النظم الرائق، والنثر الفائق، مع رياضة الخلق، وحسن الخلق، باشر كتابة الإنشاء وعدة وظائف بحلب حتى مات في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، وقد قارب الخمسين.

وكان له شعر جيد. وقصائد على حروف المعجم سماها بالشفعية في مدح خير البرية صلى الله عليه وسلم، استوعب فيها بحور الشعر، ومن شعره.

أوحشني أنس أهل نجد ... وهم بسفح التقا نزول

أنس الورى زائل محال ... **والأنس بالله** لا يزول

---

(١) حياة الحيوان الكبرى الدَّمِيري ١٢٣/٢

وله:

بعدت ولم تقنع بذاك وإنما ... بخلت عن الإخوان بالكتب والرسل." (١)

"الخلق، وحسنه يرجع إلى اعتدال قوة العقل بكمال الحكمة، وإلى اعتدال القوة الغضبية والشهوية، وإطاعة كل منها للعقل مع الشرع، ثم هذا الاعتدال إما أن يكون بجود إلهي وكمال فطري، وإما أن يكون باكتساب أسبابه من المجاهدة والرياضة بأن يحمل نفسه على كل عمل يوجب حسن خلقها ويضاد سوء طويتها إذ هي لا تألف ربها ولا تأنس بذكره إلا إذا فطمت عن عادتها وحفظت عن شهواتها بالخلوة والعزلة أولا ليحفظ السمع والبصر عن المألوفات، ثم بإدمان الذكر والدعاء في تلك الخلوة إلى أن يغلب عليه **الأنس بالله** وبذكره، فحينئذ يتنعم به في نهايته، وإن شق عليه في بدايته، وربما ظن من جاهد نفسه أدنى مجاهدة بترك فواحش المعاصي أنه قد هذبها وحسن خلقها، وأنى له بذلك ولم توجد فيه صفات الكاملين ولا أخلاق المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا﴾ [الأنفال: ٢] إلى أن قال: ﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾ [الأنفال: ٤] وقال تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ [المؤمنون: ١] ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ [المؤمنون: ٢] إلى أن قال ﴿أولئك هم الوارثون﴾ [المؤمنون: ١٠] ﴿الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ [المؤمنون: ١١] وقال تعالى: ﴿التائبون العابدون﴾ [التوبة: ١١٢] إلى ﴿وبشر المؤمنين﴾ [التوبة: ١١٢] وقال - عز وجل -: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر السورة.
فمن أشكل عليه حال نفسه فليعرضها على هذه الآيات ونظائرها، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ووجود البعض يدل على البعض. وقد أشار - صلى الله عليه وسلم - إلى مجامع محاسن الأخلاق بقوله: «المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ويأمره بإكرام الضيف والجار، وبأن المؤمن إما أن يقول خيرا أو يصمت، وبما جاء: «إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فإنه يلقي الحكمة» .
«لا يحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظر يؤذيه» . «لا يحل لمسلم أن يروع مسلما» . «إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله فلا يحل لأحدهما أن يفشي على أخيه ما يكره» .
وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال: أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الفضول، قليل الزلل، وهو بر وصول وقور صبور رضي شكور حليم، رفيق عفيف شفيق لا لماز ولا سباب ولا نمام ولا مغتاب ولا عجول ولا حقود ولا بخيل ولا." (٢)

---

(١) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ابن تغري بردي ٣٣/٦

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر ابن حجر الهيتمي ١٤٤/١

"الله) بالغوا في الخوف منه باستحضار ماله من العظمة والجلال (فوالله لايظلم مؤمن مؤمنا الاانتقم الله تعالى (له) منه يوم القيامة) حيث لم يعف عنه المظلوم ولم تحفه العناية الالهية فيرضية عنه وذكر المؤمن غالبي فمن له ذمة أوعهد أو أمان كذلك (عبد بن حميد عن أبي سعيد) الخدري

(أيها الناس لا تعلقوا على بواحدة) أي لاتاخذوا علي في فعل ولاقول واحد يعني لاتنسبوني فيما أقوله وأفعله الى هوى وغرض دنيوى (ما أحللت الاما أحل الله) تعالى (وماحرمت الاماحرم الله) فأني مأمور بكل ماا تيته أوأذره وقد فرض الله اتباع الرسول فمن قبل عنه فأنما قبل بفرض الله (ابن سعد) في طبقاته (عن عائشة

أيها المصلي وحده) أي المنفردعن الصف (الا) هلا (وصلت الى الصف فدخلت معهم اوجررت اليك رجلا) من االصف ليصطف معك (أن ضاق بك المكان) أي الصف (فقام معك) فصر تما صفا (أعد صلاتك) التي صليتها منفردا عن الصف (فأ نه لا صلاة لك) أي كاملة قاله لرجل رآ ه يصلي خلف القوم (طب عن وابصة) بن معبد // (باسناد ضعيف) //

(أيتها الامة) الجماعة المحمدية (اني لا أخاف عليكم فيما لا تعلمون) فان الجاهل اذا لم يقصر معذور (ولكن انظروا) تأملوا (كيف تعملون فيما تعملون) فإن العالم اذا لم يعمل بعمله عذب من قبل عابد الوثن (حل عن أبي هريرة) // (باسناد ضعيف) //

(أي) بفتح الهمزة وتشديد الياء (عبد زارا خاله في الله) الله (نودي) من قبل الله على لسان بعض ملائكته (أن) بالفتح (طبت) في نفسك (وطابت لك الجنة ويقول الله عز وجل عبدي زارني على قراه) أي على ضيافته (ولن أرضى لعبدي بقرى دون الجنة) أضاف الزيارة اليه تعالى وانماهي للعبد المزور العاجز حثا للخلق على المؤاخاة في الله والتزاور والتحابب فيه فأخبر المصطفى عن ربه بأن زيارة المؤمن لاخيه في الله عبادة الله تعالى من حيث انها انما فعلت لوجهه فهو على المجاز والاستعارة فافهم (أبن أبي الدنيا) أبو بكر (في الكتاب) فضل زيارة (الاخوان) في الله (عن أنس) بن مالك // (باسناد ضعيف) //

(أي) بفتح الهمزة وتخفيف الياء مقلوب يا وهو حرف نداء ذكره أبو البقاء (أخي) ناداه نداء تعطف وشفقة ليكون أدعى الى الامتثال (اني موصيك بوصية) بليغة عظيمة النفع لمن فتح الله قفل قلبه وجعل خليقته مستقيمة وأذنه سميعة (فاحفظها) عني (لعل الله أن ينفعك بها) أي يتدبرها واستحضارها والعمل بمضمونها (زر القبور) أي قبور المؤمنين لا سيما الصالحين فانك (تذكر بها) أي بزيارتها أو بمشاهدة القبور والأعتبار باهل النشور (الآخرة) لان من رأى مصارع اخوانه وعلم أنه عن قرب صائر اليهم تذكر الآخرة لا محالة واللاولى كون الزيارة (بالنهار) أي فيه لان في الليل وحشة وهذا أرادبه من لم يحصل له مقام **الأنس بالله** وكونها (أحيانا) أي غبالا في كل وقت (ولا تكثر) منها فان الاكثار منها ربما أعدم الامل وضيع ما هواهم منها (واغسل الموتى فان معالجة جسد خاو) فارغ من الروح (عظة بليغة) وهو دواء للنفوس القاسية والطباع الجاسية (وصل على الجنائز) التي تطلب الصلاة عليها من عرفت منهم ومن لم تعرف فانك ان تفعل ذلك (يحزن قلبك فان الحزين

في ظل الله تعالى) أي في ظل عرشه أو تحت كنفه (معرض لكل خير) بضم الميم وشدة الراء المفتوحة (وجالس المساكين) أي والفقراء ايناساهم وجبر الخواطرهم فانه تعالى قال أنا عند المنكسرة قلوبهم (وسلم عليهم) أي ابدأهم بالسلام (اذا لقيتهم في الطرق ببشر وبشاشة (وكل مع صاحب البلاء) كالاجذم والابرص - ــ هامش قوله الجنائز يحزن الخ هكذا في نسخ الشرح والذي في نسخ المتن المعتمدة لعل ذلك يحزن اه." (١)

"-[١٤٦]- ١٥٣٧ - (اللهم بعلمك الغيب) الباء للاستعطاف والتذلل أي أنشدك بحق علمك ما خفي على خلقك مما استأثرت به (وقدرتك على الخلق) أي جميع المخلوقات من إنس وجن وملك وغيرها (أحيني ما علمت الحياة خيرا لي وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي) عبر بما في الحياة لاتصافه بالحياة حالا وبإذا الشرطية في الوفاة لانعدامها حال التمني أي إذا آل الحال أن تكون الوفاة بهذا الوصف فتوفني (اللهم وأسألك خشيتك) عطف على محذوف واللهم معترضة (في الغيب والشهادة) أي في السر والعلانية أو المشهد والمغيب فإن خشية الله رأس كل خير والشأن في الخشية في الغيب لمدحه تعالى من يخافه بالغيب (وأسألك كلمة الإخلاص) أي النطق بالحق (في الرضا والغضب) أي في حالتي رضا الخلق مني وغضبهم علي فيما أقوله فلا أداهن ولا أنافق أو في حالتي رضاي وغضبي بحيث لا تلجئني شدة الغضب إلا النطق بخلاف الحق ككثير من الناس إذا اشتد غضبه أخرجه من الحق إلى الباطل (وأسألك القصد) أي التوسط (في الغنى والفقر) وهو الذي ليس معه إسراف ولا تقصير فإن الغنى يبسط اليد ويطفيء النفس والفقر يكاد أن يكون كفرا فالتوسط هو المحبوب المطلوب (وأسألك نعيما لا ينفد) أي لا ينقضي وذلك ليس إلا نعيم الآخرة (وأسألك قرة عين) بكثرة النسل المستمر بعدي أو بالمحافظة على الصلاة لقوله وجعلت قرة عيني في الصلاة (لا تنقطع) بل تستمر ما بقيت الدنيا وقيل أراد قرة عينه أي بدوام ذكره وكمال محبته **والأنس به**. قال بعضهم: من قرت عينه بالله قرت به كل عين (وأسألك الرضا بالقضاء) أي بما قدرته لي في الأزل لأتلقاه بوجه منبسط وخاطر منشرح وأعلم أن كل قضاء قضيته خير فلي فيه خير. قال العارف الشاذلي: البلاء كله مجموع في ثلاث خوف الخلق وهم الرزق والرضا عن النفس والعافية والخير مجموع في ثلاث الثقة بالله في كل شيء والرضا عن الله في كل شيء واتقاء شرور الناس ما أمكن (وأسألك برد العيش بعد الموت) برفع الروح إلى منازل السعداء ومقامات المقربين والعيش في هذه الدار لا يبرد لأحد بل محشو بالغصص والنكد والكدر ممحوق بالآلام الباطنة والأسقام الظاهرة (وأسألك لذة النظر إلى وجهك) أي الفوز بالتجلي الذاتي الأبدي الذي لا حجاب بعده ولا مستقر للكمل دونه وهو الكمال الحقيقي قيد النظر باللذة لأن النظر إلى الله إما نظر هيبة وجلال في عرصات القيامة أو نظر لطف وجمال في الجنة إيذانا بأن المسؤول هذا (والشوق إلى لقائك) قال ابن القيم: جمع في هذا الدعاء بين أطيب ما في الدنيا وهو الشوق إلى لقائه وأطيب ما في الآخرة وهو النظر إليه ولما كان كلامه موقوفا على عدم ما يضر في الدنيا ويفتن في الدين قال (في غير ضراء مضرة) قال الطيبي: متعلق الظرف مشكل ولعله يتصل بالقرينة الأخيرة وهي الشوق إلى لقائك. سأل شوقا إليه في الدنيا بحيث يكون في ضراء غير مضرة أي شوقا لا يؤثر في سلوكي وإن ضرني مضرة ما قال:

إذا قلت أهدى الهجر لي حلل البلا . . تقولين لولا الهجر لم يطب الحب

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير المناوي ٤١٨/١

وإن قلت كربي دائم قلت إنما. . . يعد محبا من يدوم له كرب

ويجوز اتصاله بقوله أحيني إلى آخره. ومعنى ضراء مضرة: الضر الذي لا يصبر عليه (ولا فتنة مضلة) أي موقعة -[١٤٧]- في الحيرة مفضية إلى الهلاك. وقال القونوي: الضراء المضرة حصول الحجاب بعد التجلي والتجلي بصفة تستلزم سدل الحجب والفتنة المضلة كل شبهة توجب الخلل أو تنقص في العلم والشهود (اللهم زينا بزينة الإيمان) وهي زينة الباطن ولا معول إلا عليها لأن الزينة زينتين زينة البدن وزينة القلب وهي أعظمها قدرا وإذا حصلت حصلت زينة البدن على أكمل وجه في العقبى ولما كان كمال العبد في كونه عالما بالحق متبعا له معلما لغيره قال (واجعلنا هداة مهتدين) وصف الهداة بالمهتدين لأن الهادي إذا لم يكن مهتديا في نفسه لم يصلح كونه هاديا لغيره لأنه يوقع الناس في الضلال من حيث لا يشعر وهذا الحديث أفرد بالشرح

(ن ك) وأحمد (عن عمار بن ياسر) قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو به." (١)

"٢٨٩٢ - (إياك والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين) لأن التنعم بالمباح وإن كان جائزا لكنه يوجب **الأنس به** ثم إن هذا محمول على المبالغة في التنعم والمداومة على قصده فلا ينافيه ما ورد في المستدرك وغيره أن المصطفى صلى الله عليه وسلم أهديت له حلة اشتريت بثلاثة وثلاثين بعيرا وناقة فلبسها مرة على أنه وإن داوم على ذلك فليس غيره مثله فإن المعصوم واقف على حدود المباح فلا يحمله ذلك على ما يخاف غائلته من نحو بطر وأشر ومداهنة وتجاوز إلى مكروه ونحو ذلك وأما غيره فعاجز عن ذلك فالتفريج على تنعمه بالمباح خطر عظيم لإبعاده عن الخوف قال العارف الجنيد: دخلت على العارف السري وهو يبكي فسألته فقال: جاءته البارحة الصبية فقالت: يا أبت هذا الكوز أعلقه لك يبرد فنمت فرأيت جارية من أحسن الخلق نزلت من السماء فقلت: لمن أنت قالت: لمن لا يشرب الماء المبرد فكسرت الكوز

(حم هب عن معاذ) قال الهيثمي: رجال أحمد ثقات وقال المنذري بعد ما عزاه لأحمد والبيهقي: رواة أحمد ثقات." (٢)

"٣٣٦٤ - (تمعددوا) أي تشبهوا بمعد بن عدنان في تقشفهم وخشونة عيشهم وكانوا أهل تقشف وفي رواية ذكرها ابن الأثير تمعززوا أي تشددوا في الدين وتصلبوا من العز والقوة والشدة والميم زائدة كتمسكنوا من السكون (واخشوشنوا) أمر من الخشونة أي البسوا الخشن لا الحسن واطرحوا ذي العجمة وتنعمهم وإيثارهم لين العيش وفي رواية ذكرها ابن الأثير واخشوشبوا بالباء الموحدة (وانتضلوا (١) وامشوا حفاة) قال الرامهرمزي: يعني اقتدوا بمعد بن عدنان في لبس الخشن والمشي حفاة فهو حث على التواضع ونهي عن إفراط الترفه قال بعضهم: وقد أجمع العلماء والحكماء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك التنعم قال الغزالي رحمه الله: التزين بالمباح غير حرام لكن الخوض فيه يوجب **الأنس به** حتى يشق تركه واستدامة الزينة لا تمكن إلا بمباشرة أسباب في الغالب يلزم من مراعاتها إرتكاب المعاصي من المداهنة ومراعاة الخلق فالحزم اجتناب ذلك

(١) فيض القدير المناوي ١٤٦/٢

(٢) فيض القدير المناوي ١١٩/٣

نعم يحرم على غني لبس ثوب خشن ليعطى لأن كل من أعطي شيئا لصفة ظنت فيه وخلى عنها باطنا حرم عليه قبوله ولم يملكه وروى الطبراني في الأوسط عن ابن عباس عن أبي بكر مرفوعا من مشى حافيا في طاعة الله لا يسأله الله عز وجل يوم القيامة عما افترض عليه قال الطبراني: تفرد به محمد وشيخه لم أرض ذكرهما قال بعضهم: ورد الحفاء من قول المصطفى صلى الله عليه وسلم وفعله وأخذ منه ندب الحفاء في بعض الأحوال بقصد التواضع حيث أمن مؤذيا وتنجيسا ويؤيده ندبه لدخول مكة بهذه الشروط قالوا: ومتى قصد بلباس أو نحوه نحو تكبر كان فاسقا

(طب) عن أبي حدرد وكذا أبو الشيخ [ابن حبان] [ابن حبان] وابن شاهين وأبو نعيم كلهم من حديث يحي بن زكريا بن أبي زائدة عن أبي سعيد المقبري وهو ضعيف وقال الحافظ العراقي ورواه أيضا البغوي وفيه اختلاف ورواه ابن عدي من حديث أبي هريرة والكل ضعيف

---

(١) يحتمل أن المراد تعلموا الرمي بالسهام في الصحاح انتضل القوم وتناضلوا رموا السبق." (١)

"٧٤٤٨ - (لو خفتم الله حق خيفته لعلمتم العلم الذي لا جهل معه) لأن من نظر إلى صفات الجلال تلاشى عنده الخوف من غيره بكل حال وأشرق نور اليقين على فؤاده فتجلت له العلوم وانكشف له السر المكتوم ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾ ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا﴾ قال الشاذلي: نمت ليلة في سياحتي فأطافت بي السباع إلى الصبح فما وجدت أنسا كتلك الليلة فأصبحت فخطر لي أنه حصل لي من مقام **الأنس بالله** فهبطت واديا فيه طيور حجل فأحست بي فطارت فخفق قلبي رعبا فنوديت يا من كان البارحة يأنس بالسباع ما لك وجلت من خفقان الحجل لكنك البارحة كنت بنا واليوم بنفسك اه. وفي تاريخ ابن عساكر عن الرقي أنه قصد أبا الخير الأقطع مسلما فصلى المغرب ولم يقرأ الفاتحة مستويا فقال في نفسه ضاع سفري فلما سلم خرج فقصده سبع فخرج الأقطع خلفه وصاح على الأسد ألم أقل لك لا تتعرض لأضيافي فتنحى ثم قال: اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم الأسد واسشتغلنا بتقوى القلب فخافنا الأسد ومن هذا القبيل ما حكى أن سفينة مرت في البحر فأرسوا على جزيرة فوجدوا فيها أمة سوداء تصلي ولا تحسن قراءة الفاتحة على وجهها وتخلط فيها ولا تحسن الركوع والسجود ولا عدد الركعات فقالوا لها: ما هو كذا افعلي كذا وكذا ثم سارت السفينة عنها بعيدا فإذا هم بها تجري على وجه الماء وتقول: قفوا علموني فإني نسيت فبكوا وقالوا: ارجعي وافعلي ما كنت تفعلين (ولو عرفتم الله حق معرفته) قال الحكيم: حق المعرفة أن يعرفه بصفاته العليا وبأسمائه الحسنى معرفة يستنير قلبه بها فلو عرفتموه كذلك (لزالت لدعائكم) وفي رواية بدعائكم بالموحدة (الجبال) لكنكم وإن عرفتموه لم تعرفوه حق معرفته فلم تنظروا إلى صنعه وحكمه وتدبيره فلم تكونوا من أهل هذه المرتبة ومن عرفه حق معرفته ماتت منه شهوة الدنيا والشبح بها وحب الرئاسة والثناء والحمد من الناس وزالت الحجب عن قلبه فأبصر ربه بعين قلبه ولبه ولم يخدعه غرور ولا خيال فزالت لدعائه

---

(١) فيض القدير المناوي ٣/٢٦٨

الجبال فعلماء الظاهر عرفوا الله لكن لم ينالوا حق -[٣٢٠]- المعرفة فلذلك عجزوا عن هذه المرتبة ومنعوا أن يكون لهم هذا بل ودونه بل ودونه كالمشي على الماء والطيران في الهواء وطيء الأرض لأحد ولو عرفوه حق المعرفة لماتت منهم شهوات الدنيا وحب الرئاسة والجاه والشح على الدنيا والتنافس في أحوالها وطلب العز وحب الثناء والمحمدة ترى أحدهم مصغيا لما يقول الناس له وفيه وعينه شاخصة إلى ما ينظر الناس إليه منه وقد عميت عيناه عن النظر إلى صنع الله وتدبيره فإنه تعالى كل يوم هو في شأن

(الحكيم) الترمذي (عن معاذ بن جبل)." (١)

"ومن كلام بعض الحكماء أقرب ما يكون العبد من الله إذا سأله، وأقرب ما يكون من الخلق إذا لم يسألهم.

قال بعض العباد إني لأستحيي من الله سبحانه أن يراني مشغولا عنه وهو مقبل على شعر:

سلام عليكم من محب وداده ... لكل ذوي الألباب والفضل صادق

ولكنه من نحو عشرين حجة ... تراءى له من عالم الغيب شارق

وشام وميضا من نواحي تهامة ... ويا حبذا من جانب الطور بارق

فصار له شغل عن الخلق شاغل ... ورافقه الشوق الذي لا يفارق

يبيت له حاد إلى السير سائق ... ويضحى له من كامن الوجد شائق

وهذا هو العذر الذي قلت عنده ... لخلطة من لم أرضه أنت طالق

وأثرت عنها عزلة في غصونها ... حقايق للمغزى بها ودقايق

وماذا عسى أن يستفيق للائم ... أخو الوجد أو أن يسمع العذل عاشق

قال بعض الحكماء: لست منتفعا بما تعلم إذا لم تعمل بما تعلم، فإن زدت في علمك، فأنت مثل رجل حزم حزمة من حطب وأراد حملها فلم يطق فوضعها وزاد عليها.

قال بعض المفسرين في قوله تعالى: " وأما السائل فلا تنهر " ليس هو سائل الطعام، ولكنه سائل العلم.

قال بعض ولاة البصرة لبعض النساك: ادع لي، فقال: إن بالباب من يدعو عليك قال بعض الحكماء: إذا أردت أن تعرف قدر الدنيا فانظر عند من هي؟ وقال حق على الرجل العاقل الفاضل أن يجتنب مجلسه ثلاثة أشياء الدعابة وذكر النساء، والكلام في المطاعم.

قيل لإبراهيم بن أدهم: لم لا تصحب الناس؟ فقال إن صحبت من هو دوني آذاني بجهله وإن صحبت من هو فوقي تكبر علي، وإن صحبت من هو مثلي حسدني، فاشتغلت بمن ليس في صحبته ملال، ولا في وصله انقطاع، ولا في **الأنس به** وحشة. دعاء: يا واحد يا أحد يا فرد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، أسألك بنبيك نبي الرحمة وعترته أئمة الأمة أن تصلي عليه وأن تجعل لي من أمري فرجا قريبا ومخرجا وحيا وخلاصا عاجلا إنك على كل شيء قدير.

في الحديث: إن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

---

(١) فيض القدير المناوي ٥/٣١٩

ومن كلام بعض الأكابر: ليس العيد لمن لبس الجديد إنما العيد لمن أمن من الوعيد.

سئل بعض الرهبان: متى عيدكم؟ فقال يوم لا نعصي فيه الله سبحانه فذلك عيدنا ليس العيد لمن لبس الفاخرة، إنما العيد لمن أمن عذاب الآخرة، ليس العيد لمن لبس الرقيق إنما العيد لمن عرف الطريق.." (١)

"جلست بازائي فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس حوله قوم قيام. فقال هشام عظني. فقال طاوس: سمعت من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إن في جهنم حيات كالتلال، وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته، ثم قام وهرب. قيل لبعض الزهاد: إلى أي شيء أفضت بكم الخلوة؟ فقال: إلى **الأنس بالله** تعالى. قال سفيان بن عيينة: رأيت إبراهيم بن أدهم في جبال الشام، فقلت: يا إبراهيم تركت خراسان؟ فقال: ما تهنأت بعيشي إلا هنا، أفر بديني من شاهق إلى شاهق. لبعضهم في العزلة:

(من حمد الناس ولم يبلهم ... ثم بلاهم ذم من يحمد)

(وصار بالوحدة مستأنسا ... يوحشه الأقرب والأبعد)

وقيل لقرواش الرقاشي: مالك لا تجالس أخوانك؟ فقال: إني أصبت راحة قلبي في مجالسة من عنده حاجتي. وكان الفضيل إذا رأى الليل مقبلا فرح به، وقال: أخلو فيه بربي وإذا أصبح استرجع كراهة لقاء الناس. وجاء رجل إلى مالك بن دينار فإذا هو جالس وكلب قد وضع رأسه على ركبته، قال فذهبت أطرده، فقال دعه يا هذا لا يضر ولا يؤذي، وهو خير من جليس السوء. وقيل لبعضهم ما حملك أن تعتزل عن الناس. فقال خشيت أن اسلب ديني ولا أشعر. وهذا إشارة منه إلى مسارقة الطبع واكتسابه الصفات الذميمة من قرناء السوء. مما ينسب إن المجنون، وعليه نفحة معنوية وهو قوله:

(وإني لاستغفي وما بي غفوة ... لعل خيالا منك يلقى خياليا)

(وأخرج من بين البيوت لعلني ... أحدث عنك النفس بالليل خاليا)

للسودي:

(لقد غنى الحبيب لكل صب ... فأين الراقصون على الغناء)

أبو إسحق الصابي:

(إذا جمعت بين امرئين صناعة ... وأحببت أن تدري الذي هو أحذق)." (٢)

"وجنة نعيم وإن أبيت فلأسلطن منك عليك، فلا تكن كالباحث عن حتفة بظلفه، والجادع مارن أنفه بكفه. والسلام.

من خطب النبي صلى الله عليه وسلم " أيها الناس، إن الأيام تطوى والأعمار تفنى، والأبدان في الثرى تبلى، وإن الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد، يقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد وفي ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات، ورغب في

---

(١) الكشكول البهاء العاملي ١٦٨/١

(٢) الكشكول البهاء العاملي ١٦٤/٢

الباقيات الصالحات ".

من كلام بعض العارفين اعملوا لآخرتكم في هذه الأيام التي تسير كأنها تطير، وإن الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما.

التفاضل بين كل مربعين بقدر حاصل ضرب مجموع جذريهما المعادل لضعف جذر الأقل مع فضل الجذر الأكثر عليه في التفاضل بين ذينك الجذرين.

لبعضهم

من غاب عنكم نسيتموه ... وقلبه عندكم رهينة

وجدتكم في الوفاء ممن ... صحبته صحبة السفينة

ظهر ابليس لعيسى عليه السلام فقال له: الست تقول لن يصيبك إلا ما كتب الله عليك؟ قال: بلى، قال: فارم نفسك من ذروة هذا الجبل فانه أن قدر لك السلام تسلم، فقال له: يا ملعون أن الله يختبر عباده وليس للعباد أن يختبر ربه.

هذه النماظرة أوردها المحقق الرومي، وقال: انها جرت بين امير المؤمنين عليه السلام ويهودي.

مر بعض العارفين بقوم فقيل: هؤلاء زهاد فقال: وما قدر الدنيا حتى يحمد من يزهد فيها.

ليس قبل الموت شيء الا والموت أشد منه، وليس بعد الموت شيء الا والموت ايسر منه.

إن بقاؤك إلى فناء، وإن فنائك إلى بقاء، فخذ من فنائك الذي لا يبقى لبقاءك الذي لا يفنى، اعمل عمل المرتحل، فإن حادى بالموت يحدوك ليوم ليس بعدوك.

إذا تيسر لأنس به لم يكن مطلب المحب إلا الانفراد والخلوة، وكان ضيق الصدر من معاشرة الخلق؛ متبرما بهم؛ فإن خالطهم اكان كمنفرد في جماعة؛ مجتمعا بالبدن منفردا بالقلب المستغرق بعذوبة الذكر، وحلاوة الفكر.

حكى عن إبراهيم بن أدهم نزل من الجبل، فقيل له: أين أقبلت؟ قال من **الأنس بالله**." (١)

"وروي أن موسى عليه السلام لما كلم ربه تعالى وتقدس، مكث دهرا لا بيسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغشيان، وما ذلك إلا لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب؛ فيخرج من القلب عذوبة كلام ما سواه، بل يتنفر منه كمال التنفر، **والأنس بالله** ملازمة التوحش من غير الله، بل كان ما يعوق عن الخلوة به يكون من انقل الأشياء على القلب. قال عبد الواحد، مررت براهب فقلت: يا راهب لقد أعجبتك الوحدة، فقال يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة، لاستوحشت إليها من نفسك، قلت يا راهب ما أقل ما تجد في الوحدة؟ قال: الراحة من مداراة الناس، والسلامة من شرهم. قلت يا راهب: متى يذوق العبد حلاوة **الأنس بالله** قال: إذا صفا الود وخلصت المعاملة، قلت: متى يصفو الود، قال: إذا اجتمع الهم، فصارهما واحدا في الطاعة.

وأطيب الأرض ما للنفس فيه هوى ... سم الخياط مع الأحباب ميدان

ومن كلام أمير المؤمنين قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر؛ فباشروا روح اليقين، واستلانوا وما استوعره المترفون، وآنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملإ الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه.

---

(١) الكشكول البهاء العاملي ٢٠٤/٢

قال عليه السلام خذ من صحتك لسقمك، ومن شبابك لهرمك، ومن فراغك لشغلك ومن حيلتك لوفاتك، فإنك لا تدري ما اسمك غدا؟ روى عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكثروا ذكر هادم اللذات، فإنكم إن ذكرتموه في ضيق وسعه عليكم فرضيتم به فاجرتم، وإن ذكرتموه في غنى بغضه إليكم فجدتم به فاثبتم، فإن المنايا قاطعات الأمال، والليالي مدنيات الأمال، وإن المرء بين يومين يوم قد مضى أحصى فيه علمه فختم به، ويوم بقى لا يدري لعله لا يصل إليه، إن العبد عنده خروج نفسه وحلول رمسه يرى جزاء ما أسلف وقلة غناء ما خلف؛ ولعله من باطل جمعه أو من حق منعه.

أبو الحسن التهامي يرثو ابنه:

حكم المنية في البرية جار ... ما هذه الدنيا بدار قرار

بينا ترى الإنسان فيها مخبرا ... حتى يرى خبرا من الأخبار." (١)

"بعض ما أجعله دليلا على تصديق عزمي، وبر قسمي، أني كنت يوما في منزلي مع من يحب أن يخلى معه من الأجواد الكرام على راحة سمحت بها غفلات الأيام، فلم نشعر إلا بالباب يضرب، فخرجت جارية تنظر من الضارب، فوجدت إمرأة، فقالت لها: ما تريدين فقالت: ادفعي لسيدك هذه الرقعة، فجاءت برقعة فيها:

زائر قد أتى بجيد الغزال مطلع تحت جنحه للهلال

بلحاظ من سحر بابل صيغت ورضاب يفوق بنت الدوالي

يفضح الورد ما حوى منه خد وكذا الثغر فاضح للآلي

ما ترى في دخوله بعد إذن أو تراه لعارض في انفصال

قال: فعلمت أنها حفصة، وقمت مبادرا للباب، وقابلتها بما يقابل به من يشفع له حسنه وآدابه والغرام به، وتفضله بالزيارة دون طلب في وقت الرغبة في **الأنس به**، انتهى.

٦٦٧ - أبو جعفر ابن سعيد

قلت: وإذ قد جرى ذكر أبي جعفر ابن سعيد سابق الحلبة فلنلم ببعض أحواله فنقول (١) : هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي، قال قريبه أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد في المغرب: سمعت أبي يقول: لا أعلم في بني سعيد أشعر منه، بل لا أعلم في بلده، وعشق حفصة شاعرة الأندلس، وكانا يتجاوبان تجاوب الحمام، ولما استبد والده بأمر القلعة حين ثار أهل الأندلس بسبب صولة بني عبد المؤمن على الملثمين اتخذه وزيرا، واستنابه في

---

(١) ترجمة أبي جعفر ابن سعيد في الإحاطة ١: ٩٤ والمغرب ٢: ١٦٤ والمسالك ١١: ٢٧٩ وما أورده المقري يعد أكثر شيء إسهابا في أخباره.." (٢)

---

(١) الكشكول البهاء العاملي ٢/٢٠٥

(٢) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس المقري التلمساني ١٧٩/٤

"وقرأت عليه وسمعت منه، وأنشدني من شعره ومن شعر غيره، وترددت بيني وبينه مسائل في إقامته بسلا، وانتفعت به عظيما في التصوف وغيره، وأجازني إجازة عامة، مولده برندة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة، وتوفي بعد العصر يوم الجمعة ثالث رجب عام اثنين وتسعين وسبعمائة، وحضر جنازته الأمير فمن بعده، وهمت العامة بكسر نعشه تبركا به، ولم أر جنازة أحفل ولا أكثر خلقا منها، ورثاه الناس بقصائد كثيرة؛ انتهى كلام السراج.
وقال غيره في حقه: محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن محمد بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد، النفزي نسبا، الرندي بلدا، الشهير بابن عباد، الفقيه الصوفي الزاهد الولي العارف بالله تعالى.
وقال في حقه الشيخ ابن الخطيب القسمطيني في كتابه " أنس الفقير وعز الحقير " (١) : هو الخطيب الشهير، الصالح الكبير، وكان والده من الخطباء، الفصحاء النجباء، ولأبي عبد الله هذا عقل وسكون، وزهد بالصلاح مقرون، وكان يحضر معنا مجلس شيخنا الفقيه أبي عمران [موسى] العبدوسي رحمه الله تعالى، وهو من أكابر أصحاب ابن عاشر، ومن خيار تلامذته، وأخذ عنه، وله كلام عجيب في التصوف، وصنف فيه، كما هو الآن يقرأ على الناس مع كتب التذكير، وله في ذلك قلم انفرد به، وسلم له فيه بسببه، ومن تصانيفه شرح كتاب الحكم لابن عطاء الله في سفر، رأيته وعلى ظهر نسخة منه مكتوب:
لا يبلغ المرء في أوطانه شرفا ... حتى يكيل تراب الأرض بالقدم ومن كلامه فيه: الاستئناس بالناس، من علامات الإفلاس، وفتح باب **الأنس بالله** تعالى الاستيحاش من الناس. ومن كلامه فيه: من لازم الكون وبقي معه وقصر همته عليه ولم تنفتح له طريق الغيوب الملكوتية، ولا خلص بسره إلى

---

(١) انظر هذا المصدر ص: ٧٩.." (١)

"الأمر وانبرامه (وجفت) بالجيم بالبناء للمفعول (الصحف) التي فيها تقادير الكائنات كاللوح المحفوظ، أي فرغ من الأمر وجفت كتابته فلم يمكن أن يكتب فيها بعد ذلك تبديل أو نسخ لما كتب من ذلك واستقر، لأنها أمور ثابتة لا تبدل ولا تغير عما هي عليه، فذلك كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها والفراغ منها من أمد بعيد، وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها، وقد دل الكتاب والسنة على ذلك، فمن علم ذلك وشهده بعين بصيرته هان عليه التوكل على خالقه والإعراض عما سواه (رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح) .
قال السخاوي في «تخريج أحاديث الأربعين» : حديث حسن وبين ذلك، ثم قال: وبالجملة فالحديث ثابت من حديث الليلة وغيره ممن قدمناه، ولذا أورده الضياء في المختارة من هذا الوجه بل صححه العراقي في «أمياله» تبعا للترمذي، وقال ابن منده: إسناده مشهور ورواته ثقات اهـ.g وقد أورده جماعة من طرق عن ابن عباس، وجاء أنه وصاه بذلك، وعن علي

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس المقري التلمساني ٣٤٣/٥

وأبي سعيد رواه العسكري في كتاب الأمثال، وسهل ابن سعد رواه ابن مردويه، وعبد ابن جعفر رواه ابن عاصم في السنة. وقد خرج طرقها كلها السخاوي؛ وقال: قال أبو جعفر العقيل، كل أسانيد هذا الحديث لينة وبعضها أصلح من بعض، وليس هذا بجيد. فحديث ابن عباس حسن جيد، وأصح طرقه رواية حنش كما صرح به ابن منده وغيره وهي التي أخرج الترمذي الحديث من طريقها (وفي رواية غير الترمذي) وهو عبدبن حميد في «مسنده» لكن بإسناد ضعيف، وقد رواه أحمد بإسنادين منقطعين ولفظه أتم من حديث عبدبن حميد وقد أوردته في «شرح الأذكار» (احفظ الله تجده أمامك، تعرف) بتشديد الراء: أي: تحب (إلى الله في الرخاء) بالدأب في الطاعات والإنفاق في وجوه القرب والمثوبات حتى تكون متصفا عنده بذلك معروفا به (يعرفك في الشدة) بتفريجها عنك وجعله لك من كل ضيق فرجا ومن كل هم مخرجا بواسطة ما سلف منك من ذلك التصرف. وقيل: إنه على حذف مضاف: أي تعرف إلى ملائكة الله في الرخاء بالتزام طاعته تعالى والتزام عبوديته يعرفك في الشدة بواسطة شفاعتهم عنده في تفريج كربك وغمك. وتعقب بأنه تكلف فالأول أولى. ومعرفة العبد ربه ضربان: عامة وهي الإقرار بوحدانيته وربوبيته والإيمان به. وخاصة وهي الانقطاع إليه **والأنس به** والطمأنينة بذكره والحياء منه وشهوده في." (١)

"١٤٣ - باب استحباب المصافحة

قال السيوطي: هي مفاعلة من الصفحة والمراد بها الإفضاء بصفحة اليد إلى صفحة اليد قال الكرماني: وهو مما يؤكد المحبة (وبشاشة الوجه) قال في «النهاية» : بشاشة اللقاء الفرح بالمرئى والانبساط إليه **والأنس به** (عند اللقاء) ظرف تنازعه كل من المصدرين المذكورين قبله (وتقبيل يد الرجل الصالح) إعظاما له لصلاحه لا لأمر دنيوي قام به (وتقبيل ولده) ولو كبيرا (شفقة) مفعول له والشفقة هي الحنو والعطف (ومعانقة القادم من سفر) أي ما لم يكن أمرد جميلا غير محرم له (وكراهة الانحناء) أي ثنى الرجل قامته عند اللقاء.

١٨٨٥ - (وعن أبي الخطاب قتادة) هو ابن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري (قال: قلت لأنس: أكانت المصافحة في أصحاب النبي) الظرف مستقر: أي كانت موجودة فيما بينهم أي وذلك معيار كونها مشروعة لأن الاجتماع السكوتي حجة (قال نعم. رواه البخاري) في الاستئذان.

٢٨٨٦ - (وعن أنس رضي الله عنه قال: لما جاء أهل اليمن) لعلهم أصحاب أبي موسى الأشعري (قال رسول الله: قد) للتخفيف (جاء أهل اليمن وهم أول من جاء بالمصافحة. رواه أبو داود بإسناد صحيح) وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» أيضا لكن قال: أول من أظهر المصافحة، ورواه ابن وهب في «جامعه» .." (٢)

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ابن علان ٢٣٦/١

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ابن علان ٣٦٢/٦

"ثم عند نبوته جمع المخالطة والإقبال إليه تعالى بقوة النبوة ولن يتيسر ذلك لغيره إلا بالانتهاء إلى درجة أكمل العارفين كما نقل عن الجنيد أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة والناس يظنون أني أكلمهم فمن تيسر له بدوام الذكر **الأنس بالله** وبدوام الفكر التحقق في معرفة الله تعالى فالتجرد له أفضل الثاني التخلص بالعزلة عن المعاصي الحاصلة بالخلطة كالغيبة والنميمة والرياء الثالث الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها الرابع الخلاص من شر الناس من الغيبة لك وسوء الظن بك والتهمة عليك الخامس أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عنهم السادس الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى ومقاساة أخلاقهم فإن رؤية الثقيل هي العمى الأصغر

وأما آفاتها فسبع الأول التعليم والتعلم اللذان هما من أعظم العبادات لا يتحصلان إلا بالخلطة والعزلة قبل تعلم الفروض عصيان قال النخعي تفقه ثم اعتزل إلا أنه ينبغي أن لا يكون المراد الجاه واستكثار الأصحاب والأتباع والتقدم على الأقران وتقرب السلطان وتولي الأعمال واجتلاب الأموال لأنها هلاك الدين ولقد صدق أبو سليمان الخطابي حيث قال دع الراغبين في صحبتك والتعلم منك فليس لك منهم مال ولا جمال، وإخوان العلانية أعداء السر إذا لقوك تملقوك وإذا غبت عنهم سلقوك ومن أتاك منهم كان عليك رقيبا وإذا خرج كان عليك خطيبا، أهل نفاق ونميمة وغل وخديعة فلا تغتر باجتماعهم عليه فما غرضهم العلم بل الجاه والمال وأن يتخذوك سلما إلى أوطارهم وحمارا في حاجاتهم، إن قصرت في غرض من أغراضهم كانوا أشد أعدائك ثم يعدون ترددهم دالا عليك ويرونه حقا واجبا لديك ويعرضون عليك أن تبذل عرضك وجاهك ودينك لهم فتعادي عدوهم وتنصر غريبهم وخادمهم ووليهم وتنتهض لهم سفيها وقد كنت فقيها وتكون لهم تابعا بعد أن كنت متبوعا رئيسا وهذا كلام حق رحم الله قائله فإن المدرسين في رق دائم وتحت حق لازم ومنة ثقيلة ممن يتردد إليهم فكأنه يهدي تحفة إليه فيرى حقه واجبا عليه ثم المدرس المسكين قد يعجز عن القيام بذلك ويبذل دينه وعرضه في أبواب الظلمة لأجل أغراضهم الذميمة ومع ذلك نسبوه إلى الحمق وقلة التمييز والقصور عن درك مقادير الفضل وسلقه السفهاء بألسنة حداد وثاروا عليه ثوران الأساود والآساد الثاني النفع والانتفاع فإن الخلطة للاكتساب لأجل التصدق أفضل من العزلة لأجل النوافل وإن كانت العزلة لأجل التحقق في معرفة الله تعالى وعلوم الشرع والإقبال بكنه الهمة على الله والتجرد به للذكر أفضل وأيضا القيام بحاجات المسلمين حسبة لله تعالى على حدود الشرع أفضل من العزلة بنوافل الصلوات والأعمال البدنية وإن كانت القلبية من المعارف لا معادل لها أصلا وقطعا الثالث التأديب والتأدب بكسر النفس وقهر الشهوات بتحمل أذى الناس وهو أفضل من العزلة لمن يتهذب والتأديب كحال شيخ المتصوفة معهم إذ لا يكون ذلك إلا بالمخالطة كحال المعلم مع المتعلم الرابع الاستئناس والإيناس وذلك قد يكون حراما كمجالس الغيبة واللهو ومباحا كالأنس بالمشايخ ومستحبا كترويح القلوب فإن القلوب إذا كرهت عميت ومهما كان في الوحدة وحشة وفي المجالس ترويح فهي في بعض الأوقات ربما تكون أفضل في حق بعض الناس وفي بعض الحالات دون الأخرى الخامس في نيل ثواب كحضور الجنائز وعيادة المرضى السادس التواضع الذي هو أفضل المقامات ولا يوجد في الوحدة السابع التجارب إذ مجرد العقل غير كاف في مصالح الدين والدنيا انتهى في غاية الاختصار قال في القشيرية والعزلة من أمارات الوصلة ولا بد للمريد في ابتداء حاله

من العزلة عن أبناء جنسه ثم في نهايته من الخلوة لتحققه بأنسه ومن حق العبد إذا آثر العزلة أن يقصد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره ولا يقصد سلامته من شر الخلق وعن بعض الرهبان قيل له أنت راهب فقال لا أنا حارس كلب إن نفسي كلب يعقر الخلق أخرجتها من بينهم." (١)

"ومن أهل ريف معسر ومغاربة ولكل طائفة رواق يعرف بهم فلا يزال الجامع عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم الفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر فيجد الانسان إذا دخل هذا الجامع من **الأنس بالله** والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى وكل قليل تحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز
والحلاوات لا سيما في المواسم فأمر في جمادي الأولى من هذه السنة باخراج المجاورين من الجامع ومنعهم من الاقامة فيه واخراج ما كان لهم فيه من صناديق وخزائن وكراسي المصاحف زعما منه إن هذا العمل مما يناب عليه وما كان إلا من أعظم الذنوب وأكثرها ضررا فإنه حل بالفقراء بلاء كبير من تشتت شملهم وتعذر الأماكن عليهم فساروا في القرى وتبذلوا بعد الصيانة وفقد من الجامع أكثر ما كان فيه من تلاوة القرآن ودراسة العلم وذكر الله ثم لم يرضه ذلك حتى زاد في التعدي وأشاع أن أناسا يبيتون بالجامع ويفعلون فيه منكرات وكانت العادة قد جرت بمبيت كثير من الناس في الجامع ما بين تاجر وفقيه وجندي وغيرهم منهم من يقصد بمبيته البركة ومنهم من لا يجد مكانا يأويه ومنهم من يستروح بمبيته هناك خصوصا في ليالي الصيف وليالي شهر رمضان فإنه يمتلئ صحنه وأكثر أوقاتهلحلاوات لا سيما في المواسم فأمر في جمادي الأولى من هذه السنة باخراج المجاورين من الجامع ومنعهم من الاقامة فيه واخراج ما كان لهم فيه من صناديق وخزائن وكراسي المصاحف زعما منه إن هذا العمل مما يناب عليه وما كان إلا من أعظم الذنوب وأكثرها ضررا فإنه حل بالفقراء بلاء كبير من تشتت شملهم وتعذر الأماكن عليهم فساروا في القرى وتبذلوا بعد الصيانة وفقد من الجامع أكثر ما كان فيه من تلاوة القرآن ودراسة العلم وذكر الله ثم لم يرضه ذلك حتى زاد في التعدي وأشاع أن أناسا يبيتون بالجامع ويفعلون فيه منكرات وكانت العادة قد جرت بمبيت كثير من الناس في الجامع ما بين تاجر وفقيه وجندي وغيرهم منهم من يقصد بمبيته البركة ومنهم من لا يجد مكانا يأويه ومنهم من يستروح بمبيته هناك خصوصا في ليالي الصيف وليالي شهر رمضان فإنه يمتلئ صحنه وأكثر أوقاته فلما كانت ليلة الأحد الحادي عشر من جمادي الآخرة طرق الأمير سودوب الجامع بعد العشاء الآخرة والوقت صيف وقبض على جماعة وضربهم في الجامع وكان قد جاء معه من الأعوان والغلمان وغوغاء العامة ومن يريد النهب جماعة فل بمن كان في الجامع أنواع البلاء ووقع فيهم النهب فأخذت فرشهم وعمائمهم وفتشت أوساطهم وسلبوا ما كان مربوطا عليها من ذهب وفضة وعمل ثوبا أسود للمنبر وعلمين مزوقين بلغت النفقة على ذلك خمسة عشر ألف درهم على ما بلغني فعاجل الله الأمير سودوب وقبض عليه السلطان في شهر رمضان وسجنه بدمشق من تاريخ المقريزي عود فيأتي أذكياء

---

(١) بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية محمد الخادمي ٤٧/٤

جماعة يسمعون الدرس الذي يريد اقرأه مع الشروح والحواشي وهو يقرره لهم قال تلميذه هبة الله التاجي في ترجمته له في ثبته لما قدمت مصر سمعت بأنه فريد وقته وإنه يقرئ المختصر على التلخيص فسرت إليه فرأيته يقرره في مدرسة الأشرفية وقد فاتني شيء يسير من أوله فحضرته عليه منه إلى آخره وكان الذين يحضرونه ينوفون على خمسمائة فسمعت منه ما لا أذن سمعت ولا خطر على قلب محش ولا شارح أخذ جماعة منهم الشيخ سليمان الجمل ومعيده الشيخ عبد الرحمن والشيخ أبو الفتح." (١)

"السلامة في الوحدة والعزلة. قال الجرجاني:

ما تطعمت لذة العيش حتى ... صرت في وحدتي لكتبي جليسا

إنما الذل في مداخلة النا ... س فدعها ولكن كريما رئيسا

ليس عندي شيء أجل من العل ... م فلا أبتغي سواه أنيسا

(لأبي نصر المقدسي) ١٨٩ ألعزلة عن الخلق هي الطريق الأقوم الأسد. ففر من الخلق فرارك من الأسد. فطوبى لمن لا يعرفونه بشيء من الفضائل والمزايا. لأنه سالم من الآلام والرزايا. فاحبس نفسك في زاوية العزلة. فإن عزلة المرء عزله. قيل لبعض الزهاد: إلى أي شيء أفضت بكم الخلوة. فقال: إلى **الأنس بالله** تعالى ولله در من قال:

أنست بوحدتي ولزمت بيتي ... فطاب الأنس لي وصفا السرور

وأدبني الزمان فلا أبالي ... بأني لا أزار ولا أزور

ولست بسائل ما عشت يوما ... أسار الجند أم ركب الأمير

---

(١) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر محمد خليل المرادي ٣/٢٧٢

قيل لدعبل الشاعر: ما الوحشة عندك. فقال: النظر إلى الناس ثم أنشد:

ما أكثر الناس لا بل أقلهم ... الله يعلم أني لم أقل فندا

إني لأفتح عيني حين أفتحها ... على كثير ولكن لا أدرى أحدا

(لبهاء الدين)." (١)

"الباب الأول: في التشبيه

المبحث الأول: في شرح حقيقة وبيان جليل فائدته

...

الباب الأول: في التشبيه

وفيه اثنا عشر مبحثا.

المبحث الأول: في شرح حقيقته وبيان جليل فائدته

التشبيه لغة التمثيل، يقال: هذا شبه هذا ومثيله، وشبهت الشيء بالشيء أقمته مقامه لما بينهما من الصفة المشتركة.

واصطلاحا: إلحاق أمر "المشبه" بأمر "المشبه به" في معنى مشترك "وجه الشبه" بأداة "الكاف وكأن وما في معناهما" لغرض "فائدة"١.

"أركانه" مما سبق تعلم أن أركانه أربعة: مشبه ومشبه به، ويسميان بالطرفين، ووجه شبه، وأداة.

"فائدته" إيضاح المعنى المقصود مع الإيجاز والاختصار، ألا ترى أنك إذا قلت: علي كالأسد، كان الغرض أن تبين حال علي، وأنه متصف بقوة البطش وشدة المراس وعظيم الشجاعة، وما إلى ذلك من أوصاف الأسد البادية للعيون.

ولا شيء أدل على ذلك من تشبيهه بالأسد من أجل أن كانت هذه الصفات خصيصي بالأسد مقصورة عليه، فصار هذا القول أكشف وأبين للقصد من قولك علي شجاع جريء، إلى أشباه ذلك.

ومن أسباب ذلك ما يلي:

١- ما يحصل للنفس من **الأنس به** بإخراجها من الخفي إلى الجلي الواضح، ألا ترى أنك إذا وصفت يوما بالقصر، فقلت: هذا يوم من أقصر ما يتصور، لم يجد السامع له من الأنس ما يجده لنحو قولك: يوم كإبهام القطاة.

---

١ عرفه ابن رشيق في "العمدة" بأنه صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية كان إياه، وقيل: هو إلحاق أدنى الشيئين بأعلاهما في صفة اشتركا في أصلها واختلفا في كيفيتها قوة وضعفا.." (٢)

---

(١) مجاني الأدب في حدائق العرب لويس شيخو ٢/١٢٦

(٢) علوم البلاغة البيان، المعاني، البديع المراغي، أحمد بن مصطفى ص/٢١٣

"والأصحاب وذوي الحقوق والجيران، فكل واجب أو مستحب فهو داخل في العمل الصالح، ويدخل في ذلك ترك الفسوق وجميع القبائح، فمن قام بذلك فليبشر بالحياة الطيبة، فهو المفلح الناجح، لا تحسبن الحياة الطيبة مجرد التمتع بالشهوات، ولا الإكثار من عرض الدنيا وتشييد المنازل المزخرفات، إنما الحياة الطيبة راحة القلوب وطمأنينتها، والقناعة التامة برزق الله، وسرورها بذكر الله وبهجتها، وانصباغها بمكارم الأخلاق، وانشراح الصدور وسعتها، لا حياة طيبة لغير الطائعين، ولا لذة حقيقة لغير الذاكرين، ولا راحة ولا طمأنينة قلب لغير المكتفين برزق الله القانعين، ولا نعيما صحيحا لغير أهل الخلق الجميل والمحسنين، لقد قال أمثال هؤلاء الأخيار: لو علم الملوك، وأبناء الملوك ما نحن فيه من لذة **الأنس بالله** لجالدونا بالسيوف عليه، ولو ذاق أرباب الدنيا ما ذقناه من حلاوة الطاعة، لغبطونا وزاحمونا عليه، ما ظنك بمن يمسي ويصبح ليس له هم سوى طاعة مولاه، ولا يخشى ولا يرجو ولا يتعلق بأحد سواه، إن أعطي شكر، وإن منع صبر، وإذا أذنب استغفر وتاب مما جناه، هذا والله النعيم الذي من فاته فهو المغبون، وهذه الحياة الطيبة التي لمثلها يعمل العاملون، أي نعيم لمن قلبه." (١)

"وجه غيرالمحرم فقد كفر نعمة العين، ونعمة الشمس، إذ الإبصار يتم بهما، وإنما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه، ويتقي بهما ما يضره فيهما، فقد استعملهما في غير ما أريدتا به، وهذا لأن المراد من خلق الخلق، وخلق الدنيا وأسبابها –أن يستعين الخلق بهما على الوصول إلى الله تعالى، ولا وصول إليه إلا بمحبته **والأنس به** في الدنيا، والتجافي عن غرور الدنيا، ولا أنس إلا بدوام الذكر، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن، ولا يبقى البدن إلا بالغذاء، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والماء والهواء ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض، وخلق سائر الأعضاء ظاهرا وباطنا، فكل ذلك لأجل البدن، والبدن مطية النفس، والراجع إلى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة؛ فلذلك قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق....﴾ الآية، فكل من استعمل شيئا في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها، لإقدامه على تلك المعصية"١.

وقد استخلص الشاطبي من هذا التنازع بين الأدلة المتعارضة النتيجة الآتية: أنه لا ينبغي إذن أن نرفض جملة، أو نقبل قبولا عاما كل ما يترتب على النظر في المسببات، ولكن ضابطه أنه إن كان الالتفات إلى المسبب من شأنه التقوية للسبب، والتكملة له، والتحريض على المبالغة في إكماله، فهو الذي يجلب المصلحة، وإن كان من شأنه أن يكر على السبب بالإبطال، أو بالإضعاف، أو بالتهاون به، فهو الذي يجلب المفسدة٢.

ومع اعترافنا بضرورة التفرقة بين الاعتبارين، فإن صياغتنا للفكرة سوف تكون مختلفة اختلافا يسيرا.

---

١ الإحياء ٤/ ٨٨.

٢ الموافقات ١/ ٢٣٥.." (٢)

---

(١) الفواكه الشهية في الخطب المنبرية والخطب المنبرية على المناسبات عبد الرحمن السعدي ص/٢٦

(٢) دستور الأخلاق في القرآن محمد بن عبد الله دراز ص/٥٠٧

"القاطعة عن الجمع والجماعات منهي عنها؛ وسئل ابن عباس رضي الله عنهما: عن رجل يقوم الليل ويصوم النهار، ولا يشهد الجمعة ولا الجماعة؟ قال: هو في النار.

فالخلوة المشروعة لهذه الأمة: هي الاعتكاف في المساجد، خصوصا في شهر رمضان، وخصوصا في العشر الأواخر منه، كما كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يفعله. فالمتعكف قد حبس نفسه على طاعة الله وذكره، وقطع عن نفسه كل شاغل يشغله عنه، وعكف بقلبه وقالبه على ربه وما يقربه منه، فما بقي له هم سوى الله وما يرضيه عنه.

ومعنى الاعتكاف وحقيقته: قطع العلائق عن كل الخلائق، للاتصال بخدمة الخالق. وكلما قويت المعرفة والمحبة له، **والأنس به**: أورثت صاحبها الانقطاع إليه بالكلية على كل حال. كان بعضهم لا يزال منفردا في بيته خاليا بربه، فقيل له: أما تستوحش؟ فقالك كيف أستوحش وهو يقول: «أنا جليس من ذكرني؟» .

يا من أضاع عمره في لا شيء: استدرك ما فاتك في ليلة القدر. فإنها تحسب من العمر؛ قال الله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ .

قال مالك: بلغني أن النبي – صلى الله عليه وسلم – أري أعمار الناس قبله، أو." (١)

"وهي الجماعة، وأنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله.

الفرقة الناجية مطلقا مغفورة بعيد، أجيب بأن المراد أنهم في النار لأجل اختلاف العقائد، فمعنى "وواحدة في الجنة" أنهم لا يدخلون النار لأجل اختلاف العقائد، أو المراد بكونهم في النار طول مكثهم فيها، وبكونهم في الجنة أن لا يطول مكثهم في النار، وعبر عنه بكونهم في الجنة ترغيبا في تصحيح العقائد، وأنه يلزم أن لا يعفى عن البدعة الاعتقادية كما لا يعفى عن الشرك، إذ لو تحقق العفو عن البدعة. فإن قيل: لا يلزم دخول كل الفرقة المبتدعة في النار فضلا عن طول مكثهم، إذ هو مخالف لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء﴾ [٤٨:٤] أجيب بأن المراد أنهم يتعرضون لما يدخلهم النار من العقائد الرديئة، ويستحقون ذلك. ويحتمل أن المراد أن الغالب في تلك الفرق دخول النار، فيندفع الإشكال من أصله –انتهى. (وهي الجماعة) أي الموافقون لجماعة الصحابة الآخذون بعقائدهم، المتمسكون بطريقتهم، وهم أهل السنة والجماعة، أي أصحاب الحديث الذين اجتمعوا على اتباع آثاره – صلى الله عليه وسلم – في جميع الأحوال، واتفقوا على الأخذ بتعامل الصحابة وأجماعهم، ولم يبتدعوا بالتحريف والتغيير، ولم يبدلوا بالآراء الفاسدة. (وأنه سيخرج) أي سيظهر (في أمتي أقوام) أي جماعات (تتجارى) بالتائين أي تدخل وتجري وتسري (بهم) أي في مفاصلهم وعروقهم. (تلك الأهواء) جمع هوى البدع التي كانت السبب في الافتراق، وضعت موضعها وضعا للسبب موضع المسبب؛ لأن هوى الرجل هو الذي يحمله على الابتداع في العقيدة والقول والعمل. (كما يتجارى الكلب) بفتحتين داء يعرض للإنسان من عض الكلب الكلب أي المكلوب، وهو داء يصيب الكلب فيصيبه شبه الجنون فلا يعض أحدا إلا كلب، ويعرض له

---

(١) وظائف رمضان عبد الرحمن بن قاسم ص/٦١

أعراض رديئة ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشا، كذا في النهاية. (بصاحبه) أي مع صاحبه إلى جميع أعضائه أي مثل جرى الكلب في العروق، شبه حال الزاغين من أهل البدع في استيلاء تلك الأهواء عليهم، وفي سراية تلك الضلالة منهم إلى الغير بدعوتهم إليها، ثم تنفرهم من العلم وامتناعهم من قبوله حتى يهلكوا جهلا، بحال صاحب الكلب وسريان تلك العلة في عروقه ومفاصله شبه الجنون، ثم تعديته إلى الغير فلا يعض المجنون أحدا إلا كلب أي جن، ويعرض له أعراض رديئة تشبه الماليخوليا مهلكة غالبا، ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشا، قاله الطيي. وفي هذا التشبيه فوائد: منها التحذير من مقاربة تلك الأهواء ومقاربة أصحابها، وبيان ذلك أن داء الكلب فيه ما يشبه العدوى فإن أصل الكلب واقع في الكلب، ثم إذا عض ذلك الكلب أحدا صار مثله ولم يقدر على الانفصال منه في الغالب إلا بالهلكة، فكذلك المبتدع إذا أورد على أحد رأيه وإشكاله فقلما يسلم من غائلته، بل إما أن يقع معه في مذهبه ويصير من شيعته، وإما أن يثبت في قلبه شكا يطمع في الانفصال عنه فلا يقدر، هذا بخلاف سائر المعاصي، فإن صاحبها لا يضاره ولا يدخله فيها غالبا إلا مع طول الصحبة **والأنس به**، والاعتياد لحضور معصيته، وقد أتي في الآثار ما يدل على هذا المعنى، فإن السلف الصالح نهوا عن مجالستهم، ومكالمتهم، وكلام مكالمهم، وأغلظوا في ذلك، قاله الشاطبي وبسط الكلام في شرح رواية معاوية أيضا." (١)

"في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع وأسألك الرضاء بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة

وهو التوسط بلا إفراط وتفريط (في الفقر والغنى) لأن المختار أن الكفاف أفضل من الفقر ومن الغنى قاله في اللمعات، وقال المناوي: القصد أي التوسط في الفقر والغنى هو الذي ليس معه إسراف ولا تقتير، فإن الغنى يبسط اليد ويطغي النفس، والفقر يكاد أن يكون كفرا، فالتوسط هو المحبوب المطلوب. وقال الشوكاني: القصد في كتب اللغة بمعنى استقامة الطريق والاعتدال، وبمعنى ضد التفريط وهو المناسب هنا لأن بطر الغني ربما جر إلى الإفراط وعدم الصبر على الفقر ربما أوقع في التفريط فالقصد فيهما هو الطريقة القويمة (لا ينفد) بفتح الفاء وبالدال المهملة أي لا يفنى ولا ينقضي ولا ينقص، وذلك ليس إلا نعيم الآخرة، وأما غيره فكل نعيم لا محالة زائل (قرة عين لا تنقطع) يحتمل أن يراد الذرية التي لا تنقطع بعده، بل تستمر ما بقيت الدنيا. ولعله مأخوذ من قوله تعالى ﴿ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾ (٢٥: ٧٤) وقيل: أراد المداومة على الصلاة والمحافظة عليها لقوله ((وجعلت قرة عيني في الصلاة)) أو المراد ثواب الجنة الذي لا ينقطع فيكون تأكيدا لقوله ((نعيما لا ينفد)) فيكون بعد تخصيصا بعد تعميم، وقيل: أراد قرة عينه أي بدوام ذكر الله وكمال محبته **والأنس به** (وأسألك الرضاء) بالمد، وفي المستدرك الرضى أي بالقصر. قال الجوهري: الرضى مقصورا مصدر محض والاسم الرضاء ممدودا (بعد القضاء) وفي رواية للنسائي الرضاء بالقضاء أي بما قدرته لي في الأزل لأتلقاه بوجه منبسط وخاطر منشرح وأعلم أن كل قضاء قضيته لي فلي فيه خير، قيل في وجه الأول: كأنه طلب الرضاء بعد تحقق القضاء وتقرره (برد

---

(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح عبيد الله الرحماني المباركفوري ٢٧٨/١

العيش) أي طيبه وحسنه (بعد الموت) برفع الروح إلى منازل السعداء ومقامات المقربين، والعيش في هذه الدار لا يبرد لأحد بل محشو بالغصص والكدر والنكد محوق بالآلام الباطنة والأسقام الظاهرة (لذة النظر إلى وجهك) قال الطيبي: قيد النظر باللذة لأن النظر إلى الله تعالى إما نظر هيبة وجلال في عرصات القيامة، وإما نظر لطف وجمال في الجنة ليؤذن بأن المراد هذا، وفيه أعظم دليل على رؤية الله تعالى في الدار الآخرة كما هو مذهب أهل السنة والجماعة (والشوق إلى لقاءك) أي الاشتياق إلى ملاقاتك في دار المجازاة. قال الشوكاني: إنما سأله ع لأنه من موجبات محبة الله تعالى للقاء عبده لحديث ((من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه)) ومحبة الله تعالى من أسباب المغفرة. وقال ابن القيم: جمع في هذا الدعاء بين أطيب ما في الدنيا وهو الشوق إلى لقاءه، وأطيب ما في الآخرة وهو النظر إليه، ولما كان كلامه موقوفا على عدم ما يضر في الدنيا ويفتن في الآخرة قال (في غير ضراء) أي شدة، وقيل: أي الحالة التي تضر وهي نقيض السراء وهما بناءان للمؤنث ولا مذكر لهما (مضرة) اسم فاعل من أضر والجار إما متعلق بقوله ((والشوق إلى لقاءك)) أي أسألك شوقا لا يؤثر في سيري وسلوكي بحيث يمنعني عن ذلك وأن يضربي مضرة، وإما متعلق بأحيني، الثاني أظهر معنى وأقرب لفظا." (١)

"ومنها أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى ربه ويخبت إليه ويتعلق به.

ومنها أن يترحل عن الدنيا ويقرب من الآخرة حتى يصير من أهلها.

والقلب قد يمرض فتعتل صحته. ولمرضه علامات، وله علاج. فمرض القلب أن يتعذر عليه ما خلق له من معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه والإنابة إليه وإيثار ذلك على كل شهوة فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئا، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه **والأنس به** فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين؛ بل يصير معذبا بنفس ما كان يراه منعما به: من جهة حسرة فوته، ومن جهة فوت ما هو خير له وأنفع وأدوم.

وللقلب مرضان: مرض الشهوة، ومرض الشبهة. والقرآن شفاء للنوعين ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل في الاعتقادات والآراء الفاسدة، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بشرط فهمه ومعرفة المراد منه. وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب

القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده، ويرهب عما يضره فيصير القلب محبا للرشد مبغضا للغي فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية." (٢)

"اشتاق أداه الشوق إلى **الأنس بالله**، فإذا أنس بالله اطمأن إلى الله، فإذا اطمأن إلى الله كان ليله في نعيم ونهاره في نعيم وسره في نعيم وعلانيته في نعيم.

وقال بعضهم يا ابن آدم ما أنصفت إذ يدعوك داعي الدنيا بكلمة واحدة لشيء ذاهب فتجيبه مسرعا، ويدعوك داعي

---

(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح عبيد الله الرحماني المباركفوري ٢٧٩/٨

(٢) موضوعات صالحة للخطب والوعظ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم ص/١٤٤

الآخرة لشيء باقي صافي ثابت فلا تجيبه مسرعا، فليتك إذ لم تقدر الآخرة سويت بينهما.

وقال آخر: العلماء العاملون أرأف بأمة محمد من آبائهم وأمهاتهم وأشفق عليهم، قيل له كيف ذلك، قال لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا، والعلماء يحفظونهم من نار الآخرة وأهوالها.

وقال آخر: من أقوى القوى أن تغلب نفسك، من عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز، وقال: من علامات الاستدراج للعبد عماه عن عيبه، وتطلعه إلى عيوب الناس، وقال من النذالة أن يأكل العبد بدينه.

وقال آخر: وقد سئل عن الطريق إلى الله، فقال: توبة تحل الإصرار، وخوف يزيل الغرور ورجاء ينهض الخيرات، ثم مراقبة الله في خواطر القلوب.

قال أحمد بن عاصم: أنفع اليقين ما عظم في عينيك ما به أيقنت وأنفع الخوف ما حجزك عن المعاصي، وأطال منك الحزن على ما فات، وألزمك الفكر في بقية عمرك وخاتمة أمرك.

وأنفع الصدق أن تقر لله عز وجل بعيوب نفسكن وأنفع الحياء أن تستحي أن تسأله ما تحب وتأتي ما يكره.

وأنفع الصبر ما قواك على خلاف هواك وأفضل الجهاد مجاهدتك نفسك لتردها إلى قبول الحق.

وأوجب الأعداء منك مجاهدة أقربهم منك دنوا وأخفاهم عنك شخصا وأعظمهم لك عداوة وهو إبليس.." (١)

"**والأنس به** والانقطاع إليه.

وتقربوا إليه بالوفاء ولين الجانب والجناح والتواضع والخشوع والخضوع.

وتقربوا إليه بالحلم والاحتمال وكظم الغيظ وتجرع المرارة.

وتقربوا إليه بسلامة الصدر وإرادة الخير للأمة وكراهة الشر لهم.

وتقربوا إلى الله بالرأفة والرحمة والشفقة والحوطة على المسلمين.

وتقربوا إليه بالجود والكرم والتفضل والإحسان وصدق الوفاء.

وتقربوا إليه بالقناعة والعفاف والكفاف والرضى بالبلغة واليأس من نائل الناس.

وتقربوا إليه بالتدبر لكتابه وتفهمه والعمل به والإخلاص.

وتقربوا إليه بمجاهدة إبليس –لعنه الله– ومخالفة الهوى والنفس الأمارة بالسوء والتفقد لأحوالكم والتقوى في كل أموركم وتقربوا إلى الله بأداء الأمانات.

وتقربوا إليه بالإحسان إلى المسيء والإيثار على أنفسكم وإن كان بكم خصاصة.

وارغبوا في مكارم الأخلاق.

وتقربوا إلى الله بالتواضع والابتعاد عن الترفع على عباد الله المؤمنين.

وتقربوا إلى الله بالفرح بمصائب الدنيا، والرضا بقضاء الله وقدره.

وتقربوا إلى الله بالاستعداد للموت والبعث والنشور والحساب والميزان.

---

(١) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار عبد العزيز السلمان ١/١٤٠

ألم تر أن المرء يحبس ماله ... ووراثة فيه غدا يتمتع

كأن الحماة المشفقين عليك ... قد غدوا بك أو راحوا رواحا فأسرعوا

وما هو إلا النعش لو قد أتوا به ...." (١)

"وذلك من عدله فيه.

فيرى في ذلك فقره إلى ربه وظلمه في نفسه، فإن غفر له فبمحض إحسانه وجوده وكرمه.

ونكتة المسألة وسرها أنه لا يرى ربه إلا محسنا ولا يرى نفسه إلا مسيئا ومفرطا أو مقصرا.

فيرى كل ما يسره من فضل ربه عليه وإحسانه إليه، وكل ما يسؤه من ذنوبه.

وقال من لم يعرف نفسه كيف يعرف خالقه؟ فاعلم أن الله خلق في صدرك بيتا وهو القلب. ووضع في صدره عرشا لمعرفته يستوي عليه المثل الأعلى، فهو مستو على سرير القلب، وعلى السرير بساط من الرضا.

ووضع عن يمينه وشماله مرافق شرائعه وأوامره، وفتح إليه بابا من جنة رحمته، **والأنس به**، والشوق إلى لقائه.

وأمطره من وابل كلامه ما أنبت فيه من أصناف الرياحين والأشجار المثمرة، من أنواع الطاعات والتهليل والتسبيح والتحميد والتقديس.

وجعل في وسط البستان شجرة معرفته، فهي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها من المحبة والإنابة، والخشية والفرح به، والابتهاج بقربه، وأجرى إلى تلك الشجرة، ما يسقيها من تدبر كلامه وفهمه، والعمل بوصاياه.

وعلق في ذلك البيت قنديلا أسرجه بضياء معرفته، وإيمان به وتوحيده، فهو يستمد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار.

ثم أحاط عليه حائطا يمنعه من دخول الآفات والمفسدين ومن يؤذي البستان، فلا يلحقه أذاهم، وأقام عليه حرسا من الملائكة يحفظونه في يقظته." (٢)

"أوسع يا واسع يا عليم واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

آخر:

١٢٠- موعظة

إخواني: إن قيام الليل كما علمتم فيه فضل عظيم وثواب جزيل لمن وفقه الله جل وعلا، وهو من أثقل شيء على النفس ولا سيما بعد أن يرقد الإنسان، وإنما يكون خفيفا بالاعتياد، وتوطين النفس وتمرينها عليه والمداومة والصبر على المشقة والمجاهدة في الابتداء، ثم بعد ذلك ينشرح وينفتح باب **الأنس بالله** وتلذ له المناجاة والخلوة، وعند ذلك لا يشبع الإنسان

---

(١) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار عبد العزيز السلمان ٢٠٢/١

(٢) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار عبد العزيز السلمان ٣٢٥/١

من قيام الليل، فضلا عن أن يستثقله أو يكسل عنه كما وقع لكثير من السلف. قال بعضهم: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم ويا بعد ما بين الحالتين، فسبحان من وفق أقواما فتقربوا إليه بالنوافل، وأبعد بحكمته وعدله آخرين فهم عن ما ينفعهم في حاضرهم ومآلهم غافلون.

شعرا:

ذنوبك يا مغرور تحصى وتحسب ... وتجمع في لوح حفيظ وتكتب

وقلبك في سهو ولهو وغفلة ... وأنت على الدنيا حريص معذب

تباهي بجميع المال من غير حله ... وتسعى حثيثا في المعاصي وتذنب

أما تذكر الموت المفاجيك في غد ... أما أنت من بعد السلامة تعطب

أما تذكر القبر الوحيش ولحده ... به الجسم من بعد العمارة يخرب." (١)

"(٥٤) هجر القرآن أنواع، هجر سماعه والإيمان به وهجر العمل به وهجر تحكيمة وهجر تدبره وهجر الاستشفاء به في أمراض القلوب والأبدان وكل هذا داخل في قول الله تعالى: ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾ [الفرقان: ٣٠] .

(٥٥) للقلب ستة مواطن يجول فيها ثلاثة سافلة دنيا تتزين له، ونفس تحدثه، وعدو يوسوس له وثلاثة عالية، علم يبين له، وعقل يرشده ورب يعبده، والقلوب جوالة في هذه المواطن.

(٥٦) إنما يجد المشقة في ترك المألوفات من تركها لغير الله فأما من تركها صادقا مخلصا من قلبه، فإنه لا يجد في تركها مشقة إلا في أول وهلة، ليمتحن أصادق هو في تركها أم كاذب، فإن صبر على ترك المشقة استحالت لذة، من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه، والعوض أنواع مختلفة وأجل ما يعوض به **الأنس بالله** ومحبته وطمأنينة القلب به وقوته ونشاطه وفرحه ورضاه عن ربه.

(٥٧) العبد يترقى من معرفة أفعال الله إلى الصفات ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذات فإذا شاهد شيئا من جمال الأفعال استدل به على جمال الصفات ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات فما ظنك بجمال حجب بأوصاف الكمال وستر بنعوت العظمة والجلال ولهذا كان له الحمد كله من جميع الوجوه.

(٥٨) أنفع الناس لك من نفعك في دينك وحذرك من قطع وقتك في غير طاعة الله.." (٢)

"الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

موعظة

---

(١) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار عبد العزيز السلمان ١٣٤/٢

(٢) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار عبد العزيز السلمان ٣٨١/٢

إخواني: إن قيام الليل كما علمتم فيه فضل عظيم وثواب جزيل لمن وفقه الله جل وعلا، وهو من أثقل شيء على النفس ولا سيما بعد أن يرقد الإنسان، وإنما يكون خفيفا بالاعتياد، وتوطين النفس وتمرينها عليه والمداومة والصبر على المشقة والمجاهدة في الابتداء، ثم بعد ذلك ينشرح وينفتح باب **الأنس بالله** وتلذ له المناجاة والخلوة، وعند ذلك لا يشبع الإنسان من قيام الليل، فضلا عن أن يستثقله أو يكسل عنه كما وقع لكثير من السلف. قال بعضهم: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم ويا بعد ما بين الحالتين، فسبحان من وفق أقواما فتقربوا إليه بالنوافل، وأبعد بحكمته وعدله آخرين فهم عن ما ينفعهم في حاضرهم ومآلهم غافلون.

شعرا:

ذنوبك يا مغرور تحصى وتحسب

وتجمع في لوح حفيظ وتكتب

وقلبك في سهو ولهو وغفلة

وأنت على الدنيا حريص معذب

تباهي بجمع المال من غير حله

وتسعى حثيثا في المعاصي وتذنب

أما تذكر الموت المفاجيك في غد

أما أنت من بعد السلامة تعطب." (١)

"يرددها: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ وقام تميم الداري بآية: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات﴾ وقال أبو سليمان: إني لأقيم في الآية أربع ليال أو خمس. وقال ابن مسعود: من ختم القرآن نهارا غفر له ذلك اليوم، ومن ختمه ليلا غفر له تلك الليل. وعن طلحة بن مصرف قال: من ختم القرآن في أي ساعة من النهار كانت صلت عليه الملائكة حتى يمسي أو أي ساعة من ليل كانت صلت عليه الملائكة حتى يصبح.

اللهم نور قلوبنا بنور الإيمان وأعنا على أنفسنا والشيطان وأيسه منا كما أيسته من رحمتك يا رحمن وآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(موعظة) : قال ابن القيم رحمه الله: عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها: علم لا يعمل به، وعمل لا إخلاص فيه ولا إقتداء فيه بكتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – فإنه لا يوفق لهما إذا لم يخلص العمل، ومال لا ينفق منه فلا يستمتع به جامعه في الدنيا ولا يقدمه أمامه لآخرته، وقلب فارغ من محبة الله والشوق إلى لقائه **والأنس به**، وبدن معطل من طاعة الله وخدمته، ومحبة لا تتقيد برضا المحبوب وامتثال أوامره.

ووقت معطل من استدراك فارط واغتنام بر وقربة، وفكر يجول فيما لا ينفع وخدمة من لا يقربك خدمته إلى الله ولا تعود

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز السلمان ٤٢٩/١

عليك بصلاح دنياك، وخوفك ورجاؤك ممن ناصيته بيد الله وهو أسير في قبضته ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

وأعظم هذه الإضاعات: إضاعة القلب، وإضاعة الوقت. فإضاعة القلب عن الله من إيثار الدنيا على الآخرة، وإضاعة الوقت من طول." (١)

"فالجنة مأواه يوم اللقاء، وجنة المعرفة والمحبة **والأنس بالله** والشوق إلى لقائه والفرح به والرضى عنه وبه مأوى روحه في هذه الدار.

فمن كانت هذه الجنة مأواه ها هنا كانت جنة الخلد مأواه يوم الميعاد، ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرمانا.

والأبرار في نعيم وإن اشتد بهم العيش وضاقت بهم الدنيا، والفجار في جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا، قال تعالى ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ .

وطيب الحياة جنة الحياة، قال تعالى ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا﴾ ، فأي نعيم أطيب من شرح الصدر، وأي عذاب أشد من ضيق الصدر.

وقال تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ .

فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشا وأنعمهم بالا وأشرحهم صدرا وأسرهم قلبا، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة؟ قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» . قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «حلق الذكر» .

ومن هذا قوله – صلى الله عليه وسلم –: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» . ومن هذا قوله وقد سألوه عن وصاله في الصوم وقال: «إني لست كهيئتكم إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني» .

فأخبر – صلى الله عليه وسلم – أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسي، وأن ما يحصل له من ذلك أمر مختص به لا يشركه فيه غيره، فإذا أمسك عن الطعام والشراب فله عوض عنه يقوم مقامه وينوب منابه ويغني عنه كما قيل:." (٢)

"ولا للمحبين قرار إلا يوم المزيد فمثل لقلبك الاستراحة تحت شجرة طوبى يهن عليك النصب والتعب.

واستحضر يوم المزيد يهن عليك ما تتحمل من أجله.

متى رأيت العقل يؤثر الفاني على الباقي فاعلم أنه قد مسخ.

ومتى رأيت القلب قد ترحل عنه حب الله والاستعداد للقائه وحل فيه حب المخلوق والرضا بالحياة الدنيا والطمأنينة بها فاعلم أنه قد خسف به.

ومتى أقحطت العين من البكاء من خشية الله تعالى فاعلم أن قحطها من قسوة القلب.

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز السلمان ٤٧٩/١

(٢) موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز السلمان ٢٦٧/٢

ومتى رأيت نفسك تهرب من **الأنس بالله** إلى الأنس بالمخلوق ومن الخلوة مع الله إلى الخلوة مع المخلوق فاعلم أنها لا تصلح لله.

من ركب ظهر التفريط والتواني والكسل نزل بدار العسرة والندامة.

من أدلج في غياهب الليل على نجائب الصبر صبح منزل السرور.

ومن نام على فراش الكسل أصبح ملقا بوادي الأسف.

(فائدة نفيسة) : ينبغي لطالب العلم أن يتأملها ويأخذ لمستقبله فكرة، قال بعض العلماء: لم أزل برهة من عمري انظر اختلاف الأمة والتمس المنهاج الواضح والسبيل القاصد وأطلب من العلم والعمل واستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء. وعقلت كثيرا من كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء وتدبرت أحوال الأمة ونظرت في مذاهبها وأقاويلها فعقلت من ذلك ما قدر لي.

ورأيت اختلافهم بحرا عميقا غرق فيه ناس كثير وسلم منه عصابة قليلة، ورأيت كل صنف منهم يزعم أن النجاة لمن تبعهم وأن المهالك لمن خالفهم. ثم رأيت الناس أصنافا فمنهم العالم بأمر الآخرة لقاؤه عسير ووجوده عزيز. وهو يعد نفسه في الدنيا لثواب الآخرة والقرب من العزيز الحكيم.." (١)

"ج

(فصل) : قال بعض العلماء: إخواني إذا تقرب الناس إلى الله عز وجل بأنواع البر الظاهرة مثل الجهاد والحج والصوم والزكاة والصدقة وتلاوة القران وغير ذلك، فنافسوهم فيها واجعلوا أعظم الرغبة في طاعة القلوب التي لا يطلع عليها الإنس ولا الملائكة ولا الجن، ولا يعلمها إلا علام الغيوب، فإن القليل من أعمال البر كثير لسلامته من الرياء وجميع المكدرات.

ألا فتقربوا إلى الله بطاعة القلوب فإن فيها المعرفة بعظمة الله وكبريائه وجلاله وقدرته وعظيم قدرته سبحانه وتقربوا إليه بمحابه، وبغض مكارهه، والرضا والغضب له وفيه، وتقربوا إليه بشدة الحب له، والحب فيه والغض من أجله، وتقربوا إلى الله بالمعرفة بأياديه الحسنة ونعمه الظاهرة والباطنة، وأفعاله الجميلة، ومننه المتواترة على تواتر الإساءة منا، وهو جل وعلا وتقدس يعود بأنواع النعم علينا.

ألا فتقربوا إليه بالخوف من زوال النعم وشدة الحياء من التقصير في الشكر، وتقربوا بالوجل من مكر الله تعالى والإشفاق على إيمانكم، وتقربوا إلى الله بشدة الخوف منه، وحقيقة الرجاء فيه، والسرور بذكره، ومناجاته، والشوق إليه، والرغبة في جواره، وتقربوا إلى الله بصدق اليقين والتوكل عليه والثقة به والطمأنينة إليه **والأنس به** والانقطاع إليه.

وتقربوا إليه بالوفاء ولين الجانب والجناح والتواضع والخشوع والخضوع، وتقربوا إليه بالحلم والاحتمال وكظم الغيظ وتجرع المرارة، وتقربوا إليه بسلامة الصدر وإرادة الخير للأمة وكراهة الشر لهم، وتقربوا إلى الله بالرأفة والرحمة والشفقة والحوطة على

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز السلمان ٢/٤١٥

المسلمين، وتقربوا إليه بالجود والكرم والتفضل والإحسان وصدق الوفاء.

وتقربوا إليه بالقناعة والعفاف والكفاف والرضى وبالبلغة واليأس من نائل." (١)

".. أيها العائب قولي عبثا ... إن طيب الورد مؤذ للعجل

عد عن اسهم قولي واستتر ... لا يصيبنك سهم من ثعل

لا يغرنك لين من فتى ... إن للحيات لينا يعتزل

أنا مثل الماء سهل سائغ ... ومتى سخن آذى وقتل

أنا كالخيزور صعب كسره ... وهو لدن كيف ما شئت انفتل

غير أني في زمان من يكن ... فيه ذا مال هو المولى الأجل

واجب عند الورى إكرامه ... وقليل المال فيهم يستقل

كل أهل العصر غمر وأنا ... منهم فاترك تفاصيل الجمل

وصلاة وسلام أبدا ... للنبي المصطفى خير الدول

وعلى الآل الكرام السعدا ... وعلى الأصحاب والقوم الأول

ما ثوى الركب بعشاق إلى ... أيمن الحي وما غنى رمل

" موعظة "

إخواني: إن الليل كما علمتم فيه فضل عظيم وثواب جزيل لمن وفقه الله جل وعلا،
وهو من أثقل شيء على النفس ولا سيما بعد أن يرقد الإنسان، وإنما يكون خفيفا بالاعتياد، وتوطين النفس وتمرينها عليه والمداومة والصبر على المشقة والمجاهدة في الابتداء، ثم بعد ذلك ينشرح وينفتح باب **الأنس بالله** وتلذ له المناجاة والخلوة، وعند ذلك لا يشبع الإنسان من قيام الليل، فضلا عن أن يستثقله أو يكسل عنه كما وقع لكثير من السلف. قال بعضهم: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم ويا بعدها بين الحالتين، فسبحان من وفق أقواما فتقربوا إليه بالنوافل، وأبعد بحكمته وعدله آخرين فهم عن ما ينفعهم في حاضرهم ومآلهم غافلون.

شعرا: ... ولا خير في من لا يوطن نفسه ... على طاعة المولى بما في كتابه

اللهم ثبت محبتك في قلوبنا وقوها وألهمنا ذكرك وشكرك ووفقنا للقيام بأمرك وأعذنا من عدونا وعدوك واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبة أجمعين.." (٢)

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز السلمان ٢/٤٢٧

(٢) موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز السلمان ٢/٤٨٨

"ولو عمل الأعمال ما عساه أن يعمل فإنه إذا فاته هذا فالذي فاته من البر أفضل من الذي أتى، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(فصل) : وقال رحمة الله تعالى: فائدة قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده، وهذا كما أنه في الذوات والأعيان، فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات.

فإذا كان القلب ممتلئا بالباطل باعتقاده ومحبته لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضوع كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لا ينفع لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه إلا إذا فرغ لسانه من النطق بالباطل.

وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة لم يمكن شغلها بالطاعة إلا إذا فرغها من ضدها. فكذلك المشغول بمحبة غير الله وإرادته والشوق إليه **والأنس به** لا يمكن شغله بمحبة الله وإرادته وحبه والشوق إلى لقائه إلا بتفريغه بغيره.

ولا حركة اللسان بذكره والجوارح بخدمته إلا إذا فرغها من ذكر غيره وخدمته. فإذا امتلأ القلب بالشغل بالمخلوق والعلوم التي لا تنفع لم يبق فيها موضوع للشغل بالله ومعرفة أسمائه وصفاته، وأحكامه.

وسر ذلك في إصغاء القلب كإصغاء الأذن، فإذا أصغى إلى غير حديث الله لم يبق فيه إصغاء وفهم لحديثه، كما إذا مال إلى غير محبة الله لم يبق فيه ميل إلى محبته. فإذا نطق القلب بغير ذكره لم يبق فيه محل للنطق بذكره كاللسان.

ولهذا في الصحيح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعرا» . رواه مسلم وغيره.

فبين أن الجوف يمتلئ بالشعر، فكذلك يمتلئ بالشبه والشكوك والخيالات، والتقديرات التي لا وجود لها، والعلوم التي لا تنفع، والمفاكهات والمضحكات والحكايات ونحوها.." (١)

"قال بعضهم:

تنكر من كنا نسر بقر به ... وصار زعافا بعد ما كان سلسلا
وحق لجار لم يوافقه جاره ... ولا لا أمته الدر أن يتحولا

آخر: ... كن لينا للجار وأحفظ حقه ... كرما ولا تك للمجاور عقربا
وأحفظ أمانته وكن عزا له ... أبدا وعما ساءه فتجنبا

علامة صحة الإرادة أن يكون هم المريد رضاء ربه واستعداده للقائه وحزنه على وقت في غير مرضاة ربه وأسفه على قربه

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز السلمان ٦٠/٣

والأنس به وجماع ذلك أن يصبح ويمسي وليس له هم غيره.

وقال: أعظم الإضاعات هما أصل كل إضاعة القلب وإضاعة الوقت، فإضاعة القلب من إيثار الدنيا على الآخرة وإضاعة الوقت من طويل الأمل.

فاجتمع الفساد كله في أتباع الهوى وطول الأمل والصلاح كله في أتباع الهدى والاستعداد للقاء الله والله المستعان.

الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين وليس لهم حظ عن رحالهم إلا في الجنة أو النار والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب الأخطار.

ومن المحال عادة أن يطلب فيها نعيم ولذة وراحة إنما ذلك بعد انتهاء السفر ومن المعلوم أن كل وطأة قدم أو كل آن من آنات السفر غير واقفة ولا المكلف واقف. وقد ثبت أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير.

حكم المنية في البرية جار ... ما هذه الدنيا بدار قرار

جبلت على كدر وأنت تريدها ... صفوا من الأقذار والأكدار

فاقضوا مآربكم عجالا إنما ... أعماركم سفر من الأسفار." (١)

"٥١٤٨ - (حدثنا سليمان بن حرب) الواشحي، قال: (حدثنا شعبة) أي: ابن الحجاج (عن عبد العزيز بن صهيب) بضم الصاد وفتح الهاء (عن أنس) رضي الله عنه (أن عبد الرحمن بن عوف) رضي الله عنه (تزوج امرأة) هي: بنت أنس بن رافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل، كما جزم به الزبير بن بكار أو غيرها (على وزن نواة) واختلف في المراد بالنواة، فقيل: واحدة نوى التمر، كما يوزن بنوى الخروب، وأن القيمة عنها يومئذ كانت خمسة دراهم، وقيل: ربع دينار، وضعف بأن نوى التمر تختلف في الوزن فكيف تجعل معيارا، وأن لفظ النواة من الذهب خمسة دراهم من الورق، وجزم به الخطابي.

ويشهد له رواية البيهقي عن قتادة: وزن نواة من ذهب قومت خمسة دراهم أو وزنها من الذهب خمسة دراهم. حكاه ابن قتيبة، وجزم به ابن فارس، واستبعد؛ لأنه يستلزم أن يكون ثلاثة مثاقيل ونصفا، وعن بعض المالكية: النواة عند أهل المدينة: ربع دينار، ويشهد له قول أنس عند الطبراني في «الأوسط»: حزرناها ربع دينار. وعن الشافعي: النواة: ربع النش، والنش: نصف أوقية، والأوقية: أربعون درهما، فيكون خمسة دراهم.

(فرأى النبي صلى الله عليه وسلم بشاشة العرس) بفتح الموحدة والمعجمتين بينهما ألف، وهي الفرح الذي حصل منه،

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان عبد العزيز السلمان ٦/٦١٠

وبشاشة اللقاء: الفرح بالمرئي والانبساط إليه **والأنس به**، ويروى: [١]ضبطه القسطلاني على أنه جمع العرس، ويروى:[٢].
قال ابن قرقول: كذا في كتاب الأصيلي والقابسي وبعض رواة البخاري، وهو تصحيف، وصوابه: ((بشاشة العرس)) كما في رواية أبي ذر وابن السكن، وفي رواية مسلم: ((قال عبد الرحمن بن عوف: رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بشاشة العرس)).
(فسأله) صلى الله عليه وسلم (فقال: إني تزوجت امرأة على وزن نواة) وفي رواية لمسلم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: ((أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى على عبد الرحمن أثر صفرة، فقال: ما هذا؟ قال: يا رسول الله، تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب، قال: فبارك الله لك، أولم ولو بشاة)).." (٣)

"لكنني خلقت من نطفة قذرة، ثم جيفة منتنة، ثم آتي الميزان، فإن ثقل فأنا كريم، وإن خف فأنا لئيم.
وعندما سئل عمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بطينا، ملوثا في الخطايا، أتمنى على الله الأماني (١).
وكتب رحمة الله كتابا إلى بعض نوابه في الأمصار وقال في آخره: إني لأعظك بهذا، وإني لكثير الإسراف على نفسي غير محكم لكثير من أمري (٢).

البديل:
فإن قلت: لو أغلقنا على النفس مثل هذه الأبواب، وأعطيناها الدواء المضاد فكيف سيكون طعم الحياة .. وأين البديل للسعادة؟
نعم لو تم التعامل فقط مع هذه الوسيلة دون ما سبق من وسائل سابقة، وبخاصة وسيلة معرفة الله، فقد نعاني من هذا الأمر، وقد نجد ضيقا في صدورنا مما قد يجعلنا نستسلم لأنفسنا، ونضعف أمامها، ونسقيها شراب النشوة والطرب.
فالحل إذن وجود البديل:
وهل هناك أحلى أو ألذ أو أطعم من حلاوة الإيمان، والقرب من الله **والأنس به** سبحانه وتعالى؟! كما قال أحد السلف: إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا، وقال آخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم، لجالدونا عليه بالسيوف (٣).

---

(١) بشاشة العروس
(٢) فرأى النبي صلى الله عليه وسلم شيئا شبيه
[ج ٢٢ ص ٤٤٦]
العرس
(٣) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/١٨٢٨٨

فلذة مناجاة الله وذكره وتلاوة كتابة لا تعدلها لذة، ولو اجتمعت عليها كل لذات الأرض، فلنحرص على التمتع بتلك اللذة من خلال التعرف على الله – عز وجل – المنعم، الكريم، الودود، الرحيم، القيوم، ولنردد مع من قال:

---

(١) سيرة ومناقب عمر بن العزيز.

(٢) لطائف المعارف لابن رجب ص ٢٢.

(٣) الوابل الصيب لابن القيم ص٩٧.." [1]

"المساجد خصوصا في شهر رمضان وخصوصا في العشر الأواخر منه كما كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يفعله، فالمعتكف قد حبس نفسه على طاعة الله وذكره، وقطع عن نفسه كل شاغل يشغله عنه وعكف بقلبه وقالبه على ربه وما يقربه منه، فما بقي له هم سوى الله وما يرضيه عنه.

فمعنى الاعتكاف وحقيقته: قطع العلائق عن الخلائق للاتصال بخدمة الخالق، وكلما قويت المعرفة بالله والمحبة له **والأنس به** أورثت صاحبها الانقطاع إلى الله بالكلية على كل حال. كان بعضهم لا يزال منفردا في بيته خاليا بربه، فقيل له: أما تستوحش؟ قال: كيف استوحش وهو يقول: "أنا جليس من ذكرني" أهـ (١) .

خامسا: إقلال الطعام للغاية، أو الوصال للسحر، وقد اختلف العلماء في هذا الوصال، وقد أجازه الإمام أحمد وإسحق، والصحيح أن الوصال إلى السحر فقط جائز لقوله – صلى الله عليه وسلم –: "فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر" رواه البخاري.

والغاية منه كما قال العلماء خواء البطن وشرايين الشهوات من مادة الثوران، وخواء البطن مجلبة لامتلاء القلب بصنوف المعارف، وكلما ازداد الجوع وألمه رق الفؤاد ولان وخشع.

---

(١) "اللطائف" (٣٤٨) .." [2]

"الاعتكاف

الاعتكاف .. وما أدراك ما الاعتكاف ..

جئنا إلى بيت القصيد والمحك الصادق للحب الحقيقي ..

حين يخلو كل حبيب بحبيبه

حين يذكر الاعتكاف تهفو إليه النفوس المؤمنة والقلوب الصادقة.

الاعتكاف بيت المشاعر .. وعمق الإيمان .. وصدق التوجه .. وحلاوة الغربة ..

الاعتكاف .. ملازمة الباب .. والوقوف في المحراب: ولذة أولي الألباب ..

---

(١) حطم صنمك وكن عند نفسك صغيرا مجدي الهلالي ص/١٥٩

(٢) القواعد الحسان في أسرار الطاعة والاستعداد لرمضان رضا أحمد صمدي ص/١٣٢

الاعتكاف .. لا بد منه لكل صادق؛ فإنه مطلب رئيس يحتاجه في حياته ..

في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله ..

وفي القلب فاقة .. لا يسدها إلا **الأنس به** واستشعار معيته ..

هم الحياة وكبدها .. شتات القلب وتفرقه .. مأساة التعامل مع الناس ودنياهم .. كل ذلك يجعل الإنسان يتوق إلى خلوة حصينة يخلو فيها مع ربه وإلهه .. وحبيبه ومعبوده وسيده ومطلوبه ..

يجعل الإنسان يشتاق إلى لحظات يتخلص فيها من كل شيء، ومن كل أحد .. ويجتمع هم قلبه وكل مشاعره وأحساسيه بل وكل حواسه على الله وحده.." (١)

"في اعتكافه وحبس نفسه على طاعة الله، واشتغل بذكر مولاه، وابتغى بذلك رضاه، توجه القلب بكليته إلى خالقه يناجيه ويدعوه ويستغفره، ويفتقر إليه في كل شئونه، وفي هذا يقول ابن القيم:

"وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه: عكوف القلب علي الله تعالى وجمعيته عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق، والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبه والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته فيتولي عيليه بدلها، ويصير الهم كله به، والخطرات كلها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه وما يقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلا من أنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور حيث لا أنيس له، ولا ما يفرح به سواه، فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم" اهـ.

إن الخلوة **والإنس بالله** -عز وجل- التي يحياها المعتكف في معتكفه هي بمثابة تربية وتدريب له؛ لكي تستمر تلك الخلوة **والأنس بالله** في حياته بعد الاعتكاف؛ حتى يتخلص في حياته العامة بعد ذلك من متعلقات النفس المادية، وتستمر تهيئة النفس للأنس بالله في وحشة القبور، وهذا يعني أن من فوائد الاعتكاف ما لا يقتصر على الدنيا؛ بل يتعداها إلى الحياة الآخرة، فالقبر أول منازل الآخرة.

(١٧) حقيقة اتباع ومحبة الرسول - صلى الله عليه وسلم -:

اعتكف المعتكف اتباعا للرسول واستمر في اعتكافه متابعا لهدي النبي - صلى الله عليه وسلم -.

فاتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم - في جميع أقواله وأعماله يؤدي إلى أمور أساسية يسعى إليها المعتكف، منها:

* محبة الإنسان لله -عز وجل-، وهذا مطلب أساسي.." (٢)

"الناس، حتى ولا لتعليم علم وإقراء قرآن؛ بل الأفضل الانفراد بنفسه، والتخلي بمناجاة ربه وذكره ودعائه.

إذا فمعنى الاعتكاف وحقيقته:

قطع العلائق عن الخلائق للاتصال بخدمة الخالق، وكلما قويت المعرفة بالله والمحبة له **والأنس به**؛ أورثت صاحبها الانقطاع إلى الله بالكلية على كل حال. كان بعضهم لا يزال منفردا في بيته خاليا بربه، فقيل له: أما تستوحش؟، قال: كيف أستوحش

---

(١) أسرار المحبين في رمضان محمد حسين يعقوب ص/٢٣١

(٢) أسرار المحبين في رمضان محمد حسين يعقوب ص/٢٥٦

وهو يقول: "أنا جليس من ذكرني".

كيف نحصل حلاوة الاعتكاف؟

أما كون الطاعة ذات حلاوة فيدل عليه قوله – صلى الله عليه وسلم –: "ذاق طعم الإيمان" (١)، وقوله – صلى الله عليه وسلم –: "ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان" (٢)، والمقصود أن ذوق حلاوة الإيمان والإحسان أمر يجده القلب، تكون نسبته إليه كنسبة ذوق حلاوة الطعام إلى الفم.

واعلم –علمت كل خير– أن حلاوة الطاعة ملاكها في جمع القلب والهم والسر على الله. ويفسر ابن القيم ذلك قائلا: الاعتكاف هو عكوف القلب بكليته على الله –عز وجل–، لا يلتفت عنه يمنة ولا يسرة، فإذا ذاقت الهمة طعم هذا الجمع اتصل اشتياق صاحبها وتأججت نيران المحبة والطلب في قلبه ..

ثم يقول: فلله همة نفس قطعت جميع الأكوان وسارت، فما ألقت عصا السير إلا بين يدي الرحمن تبارك وتعالى، فسجدت بين يديه سجدة الشكر

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤).

(٢) متفق عليه، البخاري (١٦)، مسلم (٤٣).." [١]

"ممكنة، أذكار الصلاة ثم الدعاء .. ثم انشغل بذكر الله حتى يأتي وقت الطعام وتدعى إليه.

(٩) اضبط بطنك في هذا الاعتكاف، فإن أخسر وقت تفقده هو الذي تقضيه في الحمام، فكل ما تيسر ببساطة مما تم إعداده في المسجد، ولا تأمر ولا توص أن يأتيك الطعام من البيت أو من الخارج، ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس. تواضع وكل مما تيسر، وتعلم أن ما يسد الرمق ويقيم الأود يكفي، فلا تأنف أن تأكل كسرة من خبز، ولا تتأفف من تصرفات من حولك أثناء الطعام، ألزم نفسك الذل لله، وترك التنعم في هذه الرحلة مع الله في الاعتكاف في بيته، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "إن عباد الله ليسوا بالمتنعمين، وكان يكره كثيرا من الإرفاه" (١).

(١٠) فترة الأكل لا تتجاوز خمس دقائق أو عشر دقائق على الأكثر، وقم فورا، ادخل الحمام قبل الزحام، جدد نشاطك، توضأ، غير ملابسك إن أمكن، خذ مكانك في الصف الأول، صل ٦ ركعات بخشوع "صلاة الأوابين" إلى أذان العشاء.

(١١) اعلم أن القادمين لصلاة العشاء يختلفون عن المعتكفين، فقلوب مقيمة في المسجد تختلف عن قلوب أتت من الدنيا وهمومها؛ فاحذر المخالطة "اختبئ".

(١٢) صلاة العشاء والتراويح يجب أن تختلف عند المعتكف عما ذي قبل: حضور القلب .. استشعار اللذة .. حلاوة المناجاة .. لذة **الأنس بالله** ..

---

(١) أسرار المحبين في رمضان محمد حسين يعقوب ص/٢٥٨

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٣)، وحسنه الألباني (٣٥٣) في "السلسلة الصحيحة".." [١]

"فقط: ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ [الذاريات: ١٨]، حاذر: لا يتسامرون .. لا ينامون .. لا يغفلون ..

(٢٠) صلاة الفجر مشهودة، ﴿إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾ [الإسراء: ٧٨]، كن في أشد حالات الانتباه، وتدبر الآيات وركز في الدعاء.

(٢١) اجلس في مصلاك بعد الصلاة، ولا تلتفت بعد أذكار الصلاة .. أذكار الصباح المأثورة كلها لا تترك منها شيئا.

(٢٢) اقرأ الآن بعد الانتهاء من أذكار الصباح ثلاثة أجزاء، وهذه القراءة بنية تحصيل الأجر، أما تلاوة التدبر فلها وقت آخر.

(٢٣) صلاة الضحى ثمان ركعات بالتمام والكمال، احرص عليها وقد أديت شكر مفاصلك.

(٢٤) آن أوان النوم والراحة، لك أربع ساعات بالتمام والكمال نوم، ثم نوما هنيئا، ورؤى سعيدة.

لا تنس قول معاذ: إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي، فاحتسب تلك الساعات، وأشهد الله من قلبك أنك لو استطعت ما نمت؛ ولكن هذه النومة لا للغفلة ولكن للتقوي على الاستمرار.

(٢٥) استيقظ قبل الظهر بفترة كافية لاستعادة النشاط وتجديد الوضوء، وربع ساعة قبل الأذان في الصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم – وبتركيز شديد.

(٢٦) ردد الأذان، وصل قبل الفريضة أربعا واستغل باقي الوقت في الدعاء.

(٢٧) صل الفريضة بحضور قلب فللصلاة السرية أسرار في **الأنس بالله** أكثر من الجهرية.." [٢]

"المشهد الخامس: **الأنس بالله:**

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "عمرة في رمضان تعدل حجة معي" (١)، ليست مجرد حجة، بل حجة مع النبي – صلى الله عليه وسلم –، تستشعر وأنت تقوم بأداء العمرة في رمضان أنك مع النبي محمد – صلى الله عليه وسلم –، حين تشعر أنك تحج مع النبي – صلى الله عليه وسلم – تشعر بالأنس، وكثيرا ما قلت: قال العلماء: إن في معاني الإيمان معالم على الطريق، من لم يرها فإنه لم يسر قط، لم يسلك الطريق.

أول معلم منها: **الأنس بالله**، من لم يشعر بالأنس فهذا لم يسر في الطريق؛ فإن أول معلم في الطريق **الأنس بالله**، هذا المعلم إذا أحسست به اطمأننت أنك تسير في الطريق، نسأل الله –عز وجل– أن يرزقنا **الأنس به**، وعلامة **الأنس به** الاستيحاش من الخلق، فلا تأتنس بالناس، فتحب الخلوة، والانفراد عن الناس؛ لتأنس بالله، وخصوصا وأنت في بيته عنده سبحانه، جئت إليه فارا من الناس، مهاجرا إليه، طالبا للجوء الإيماني كي يؤويك، استشعر المعنى ثم اطلبه بإلحاح تجده.

المشهد السادس: تعظيم أمر رمضان:

(١) أسرار المحبين في رمضان محمد حسين يعقوب ص/٢٦٢

(٢) أسرار المحبين في رمضان محمد حسين يعقوب ص/٢٦٤

رمضان شهر عظيم كريم، وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "إن الله كتب أجره ورحمته وبركته للناس قبل أن يدخله" (٢)، الله كتب رحمته للناس في رمضان قبل دخول رمضان، وكتب إثمه وشقاءه وحرمانه قبل أن يدخله، يكتب الله من هو المرحوم ومن هو المحروم، فمن تعظيم أمر رمضان أن تتحرى مواطن الرحمة، فإذا ذهبت عند الكعبة اجتمع لك شرف

---

(١) متفق عليه، البخاري (١٧٦٤)، مسلم (١٢٥٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٤)، وصححه شعيب الأرنؤوط.." (١)

"المظالم والإقبال على الله –عز وجل– بكنه الهمة، فذلك هو السبب القريب في الإجابة.

قال مالك بن دينار: إنكم تستبطئون المطر، وأنا أستبطئ الحجارة، أي نزول الحجارة.

وقال ابن المبارك: قدمت المدينة في عام شديد القحط، فخرج الناس يستسقون فخرجت معهم، إذا أقبل غلام أسود، فجلس إلى جنبي فسمعته يقول: إلهي .. أخلقت الوجوه عندك كثرة الذنوب ومساوئ الأعمال، وقد حبست عنا غيث السماء لتؤدب عبادك بذلك، فأسألك يا حليما ذا أناة .. يا من لا يعرف عباده منه إلا الجميل أن تسقيهم الساعة، فلم يزل يقول: الساعة الساعة حتى اكتست السماء بالغمام وأقبل المطر من كل جانب، قال ابن المبارك: فجئت إلى الفضيل فقال لي: مالي أراك كئيبا؟، قال: أمر سبقنا إليه غيرنا فتولاه دوننا، وقصصت عليه القصة فخر الفضيل مغشيا عليه.

إخوتاه ..

الدعاء والمناجاة والتضرع والافتقار بالأسحار؛ عبادة لها لذة، وفي رمضان لها طعم آخر، لها في رمضان مذاق خاص، والسعيد السعيد من قام في السحر يناجي ربه ويتملقه؛ ليستنشق نسيم **الأنس بالله**، فوالله ثم تالله لو شممت نسيم الأسحار لاستفاق منك قلبك المخمور.

وفي هذا الفصل بالبكاء علي النفس، والرجاء لفضل الله، والخوف من النيران وطلب الجنان، نتعرض لأمثلة عطرة من مناجاة وأدعية السلف الأكابر، لنتعلم كيف نتملق ربنا ونستفتح لديه بالدعاء، ولم نتعرض لأدعية القرآن الكريم والسنة؛ فهي بفضل الله معروفة لديكم ومشهورة.." (٢)

"والانشراح بهذا الخير المبارك الذي نزل من السماء على قلوب الأولياء. وصح عنه– صلى الله عليه وآله وسلم– أنه قال: ((لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم كان على راحلته، عليها طعامه وشرابه، فضلت منه في الصحراء، فبحث عنها حتى أيس، فنام ثم استيقظ فإذا هي عند رأسه، فقال: اللهم أنت عبدي، وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح)) .

فأكثر من الاستغفار، لترى الفرح وراحة البال، والرزق الحلال، والذرية الصالحة، والغيث الغزير.

قال إبراهيم بن أدهم: نحن في عيش لو علم به الملوك لجالدونا عليه بالسيوف.

---

(١) أسرار المحبين في رمضان محمد حسين يعقوب ص/٣٠٧

(٢) أسرار المحبين في رمضان محمد حسين يعقوب ص/٣٢٠

وقال ابن تيمية: إنه ليمر بالقلب حال، أقول: إن كان أهل الجنة في مثل حالنا إنهم في عيش طيب.

وقال أيضا: إنه ليمر بالقلب حالات يرقص طربا، من الفرح بذكره سبحانه وتعالى **والأنس به**. ومما يجلب الفرح والسرور: الأسفار والتنقل في الديار ورؤية الأمصار، وعليك بثلاثة أطباء: الفرح والراحة والحمية وإياك وثلاثة أعداء: التشاؤم والوهم والقنوط.

فاجعل الفرح شكرا، والحزن صبرا، والصمت تفكرا، والنظر اعتبارا، والنطق ذكرا، والحياء طاعة، والموت أمنية (١) .

---

(١) – مقتطفات وردت في كتاب العلامة الجليل والاديب الكبير عائض القرني (لا تحزن) اعدت ترتيبها حسب مقتضيات السياق وانظر، ص ١٢٧ وما بعدها.." [١]

"(جة حم خز) ، وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: (" ما توطن رجل مسلم المساجد للصلاة والذكر) (١) (فشغله أمر أو علة، ثم عاد إلى ما كان) (٢) (إلا تبشبش (٣) الله له – يعني حين يخرج من بيته – كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم ") (٤)

---

(١) (جة) ٨٠٠ ، (حم) ٨٣٣٢

(٢) (خز) ٣٥٩ ، انظر صحيح الترغيب والترهيب: ٣٢٧

(٣) البش: قال ابن الأثير في"النهاية" ١/ ١٣٠: فرح الصديق بالصديق، واللطف في المسألة ، والإقبال عليه. بشاشة اللقاء: الفرح بالمرء ، والانبساط إليه ، **والأنس به** ، واللطف إليه.

(٤) (حم) ٩٨٤٠ ، (جة) ٨٠٠ ، (حب) ١٦٠٧ ، ٢٢٧٨ ، انظر صحيح الترغيب والترهيب: ٣٢٧ ، وقال الأرناؤوط في (حب): إسناده صحيح." [٢]

"وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه –وهو التعبد الليالي ذوات العدد– قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني

تصفية لقلبه، وتزكية لروحه، وإبعادا له عن الباطل وأهله. فاختار – صلى الله عليه وسلم – لنفسه هذه العزلة عن رغبة وعاطفة، حيث وجد فيها لذة الروح، وسلوة النفس، ومتعة القلب، **بالأنس بالله** تعالى، وذلك من مقدمات نبوته. " فكان يخلو بغار حراء " (١) أي فكان – صلى الله عليه وسلم – يذهب إلى غار منزو في جبل حراء، على يسار الذاهب إلى منى، وعلى بعد ثلاثة أميال من مكة، فينفرد في ذلك الغار، لكي يجمع بين الخلوة والتعبد والنظر إلى بيت الله الحرام، ولا

---

(١) صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال حسين بن محمد المهدي ٣٢٠/٢

(٢) الجامع الصحيح للسنن والمسانيد صهيب عبد الجبار ٦٣/٧

تجتمع هذه المزايا العظيمة إلا في غار حراء الذي يطل على الكعبة، فيمكنه من النظر إليها، والنظر إلى البيت عبادة. " فيتحنث فيه " أي فيكثر هناك من عبادة الله تعالى ليالي وأياما عديدة، ولا يمكن القطع في كيفية عبادته – صلى الله عليه وسلم – لأنه لم يرو شيء عن ذلك في الأخبار الصحيحة، ولكن الذي يرجحه المحققون من أهل العلم أنه كان يتعبد بالتفكير والتأمل في هذا الكون ومبدعه، والفكر عبادة " قبل أن ينزع إلى أهله " (٢) أي فيمكث هناك في غار حراء فترة من الزمن حتى يحن إلى أهله، ويقوى اشتياقه إليهم، ويفرغ زاده " ثم يرجع إلى خديجة " أي فإذا اشتد به الحنين إلى أهله، وانتهي ما معه من الزاد عاد إلى خديجة مرة أخرى. " فيتزود لمثلها " أي فيأخذ من خديجة زادا جديدا، يصطحبه معه إلى غار حراء. " حتى جاءه الحق " أي واستمر سيدنا محمد

---

(١) بالمد والقصر والتذكير والتأنيث والصرف وعدمه.

(٢) يقال نزع إلى أهله إذا حن إلى رؤياهم، وناقة نازع إذا حنت إلى مرعاها.." [١]

---

(١) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري حمزة محمد قاسم ٣٥/١